لورنس العرب

توماس إدوارد لورنس

السيرة الذاتية

إعداد وتحقيق: جيرمي ولسون

ترجمة: محمد نجّار

لورنس العرب

الأهليّة للنشر والتوزيع
e-mail : alahlia@nets.jo

الفرع الأوّل (التوزيع)
المملكة الأردنية الهاشمية ، عمّان ، وسط البلد ، بجانب مطعم القدس
هاتف 4638688 6 00962 ، فاكس 4657445 6 00962

الفرع الثاني (المكتبة)
عمّان ، وسط البلد ، شارع الملك حسين ، بجانب البنك المركزيّ ، مكتب القاصة

مكتب بيروت
لبنان ، بيروت ، بئر حسن ، شارع السفارات
هاتف : 824203 1 00961 ، مقسم 19

◆

لورنس العرب - السيرة الذاتية

إعداد: جيرمي ولسون

الطبعة الثانية ، 2008
حقوق الطبع محفوظة

◆

الغلاف : علي الحسيني 99782270 7 00962 ، عمّان ، الأردن

الصف الضوئي : إيمان زكريا - 079/5349156

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without the prior permission of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه ، بأيّ شكل من الأشكال ، إلا بإذن خطيّ مسبق من الناشر

المحتويات

المقدمة ٩

الجزء الأول: علم الآثار والرحلات، ١٨٨٨ – ١٩١٤

مرحلة الطفولة، من كانون الأول ١٨٨٨ الى تشرين الأول ١٩٠٧ .... ٢٤

دراسته في جامعة اكسفورد. من تشرين الأول ١٩٠٧ الى كانون الأول ١٩١٠ .... ٤٦

البدايات في كارشميش، من كانون الأول ١٩١٠ الى حزيران ١٩١٢ ..... ٧٣

الانجازات في كارشميش من حزيران ١٩١٢ الى آب ١٩١٤ .... ٩٣

الجزء الثاني: سنوات الكفاح، ١٩١٤ – ١٩٢٢

لندن والقاهرة، من آب ١٩١٤ الى آب ١٩١٥ .... ١١٩

الثورة العربية، من أيلول ١٩١٥ الى تشرين الأول ١٩١٦ .... ١٤١

المهمة الاستخبارية في الحجاز، تشرين الأول، تشرين الثاني ١٩١٦ .... ١٦٥

العمل مؤقتاً مع فيصل، من كانون الأول ١٩١٦ الى كانون الثاني ١٩١٧ . ١٧٩

التطلع إلى الشمال – نيسان ١٩١٧ .... ١٩٤

تحول مفيد، نيسان ١٩١٧ .... ٢١٩

نتائج حملة العقبة، تموز – آب ١٩١٧ .... ٢٤٠

الحملة السورية الأولى، من آب إلى كانون الأول ١٩١٧ .... ٢٥١

حملة البحر الميت، كانون الأول ١٩١٧ الى شباط ١٩١٨ .... ٢٧٢
توقف خطر، من شباط الى حزيران ١٩١٨ .... ٢٨٤
التحضيرات، من حزيران - أيلول ١٩١٨ .... ٣٠١
انتصار فارغ، أيلول ١٩١٨ .... ٣١٦
مؤتمر السلام، من تشرين الأول ١٩١٨ الى أيلول ١٩١٩ .... ٣٣٩
تسوية مشرّفة، من أيلول ١٩١٩ الى آب ١٩٢٢ .... ٣٥٨
القرار، من كانون الأول إلى آب ١٩٢٢ .... ٣٨٠

الجزء الثالث:

روس رجل الطيران، من أيلول ١٩٢٢ الى كانون الثاني ١٩٢٣ .... ٣٩٢
عرض خاص، الناشر، من كانون الثاني ١٩٢٣ الى كانون الأول ١٩٢٤ .. ٤٠٦
طموحات منجزة، من كانون الثاني ١٩٢٥ الى كانون الأول ١٩٢٦ ...... ٤٢٧
منفى اختياري، من كانون الثاني ١٩٢٧ الى كانون الثاني ١٩٢٩ .... ٤٣٩
بلايموش، من كانون الثاني ١٩٢٩ إلى شباط ١٩٣١ .... ٤٦٥
آخر مهمات في سلاح الجو البريطاني، من شباط ١٩٣١ الى آذار ١٩٣٥ .. ٤٧٩
كلاودس هيل، نيسان - آيار ١٩٣٥ .... ٤٩٨

مجموعة من صور لورنس ٥١٧

ولد ثوماس إدوارد لورنس ، المعروف لدى أسرته باسم «نيد» ، في الساعات الأولى من يوم السادس عشر من آب عام ١٨٨٨ ، في بيت مستأجر من قبل والديه يقع في ضواحي مدينة ثرمادوك بمقاطعة كارنارفونشير . ولم يتذكر لورنس شيئاً يخص مكان ولادته منذ أن انتقلت الأسرة من الشمال إلى كيركودبرايت في اسكوتلندا ، عندما كان عمره ثلاثة عشر شهراً فقط . وكان شقيقه مونتاغو روبرت الملقب، بـ (بوب) يكبره بثلاث سنوات . وولد للأسرة طفل آخر سمته ويليام جورج ، بعد استقرارها في اسكتلندا بوقت قصير .

وقبل أن يبلغ «نيد» الثالثة من عمره ، عُرض المنزل الذي كانت تسكنه الأسرة في كيركودبرايت للبيع من قبل صاحبه ولذلك كان على أسرة لورانس الانتقال ثانية . وبعد مكوث قصير في جزيرة «الإنسان» ، رحلت الأسرة إلى جيرسي ، وأخذت تبحث عن منزل لها قرب ساحل مقاطعة بريتاني . وفي كانون الأول ١٨٩١ استأجرت منزلاً منعزلا دعي باسم شاليه دو فالون في بلدة دينارد . وهناك بدأ ثوماس إدوارد لورنس أول استطلاع له للعالم الخارجي خارج وطنه .

مقدمة

المعنى والهراء في السيرة الذاتية للورنس

يبدو أن اللغز والرومانسية قد اصبحا أمراً ملازماً لشهرة ثوماس إدوارد لورنس ، فعندما بدأت البحث من أجل إخراج هذا الكتاب بشكل خاص ، في منتصف السبعينات ، قيل لي أن مهمتي ستكون مستحيلة ، ذلك لأنه ليس بامكان أي شخص أن يحل الألغاز المتعلقة بالسيرة الذاتية في مثل هذه المدة القصيرة . فقد كانت هذه هي الحال مادام الأرشيف المتعلق بحياة لورنس السياسية والعسكرية محظوراً الاطلاع عليه ، ومحرما على كتّاب السير الذاتية الوصول الى المادة الأساسية في المدة الواقعة مابين ١٩١٤ ـ ١٩٢٢ . فإذا كان الأمر كذلك ، فإنه من المستحيل الوصول إلى تقويم نهائي لدوره خلال الثورة العربية ، ولا توجد على أية حال سوى معلومات ضئيلة تتعلق إما بعمله في القاهرة خلال ١٩١٥ ـ ١٩١٦ ، او بانخراطه في الدبلوماسية البريطانية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد أصبحت هذه الوثائق الحكومية ابتداء من عام ١٩٦٨ فصاعداً متوفرة للباحثين فجأة . وصار من الممكن اجراء تقييم موثوق لهذا الموضوع المثير للجدل ـ ولكن لأسباب مختلفة لم يكن هذا وشيكاً . وغرق كتاب السير الذاتية في ملفات الأرشيف الرسمية بحثاً عن مواد سابقة غير منشورة ،يبدو أن لاأحد منهم حاول القيام بتحقيق منظم في هذا الشأن . وقام أحد الباحثين باجراء دراسة جادة عن دور لورنس في الثورة العربية ، إلا أن هذه الدراسة صدرت في كتاب باللغة الألمانية ، لذلك فقد تجاهلها كتّاب السير الذاتية البريطانيون وبعد عشرين سنة ، وفي الذكرى المئوية لميلاد لورنس ، بدت شهرته في العالم الناطق بالإنجليزية متأثرة بعض الشيء باطلاق سراح معلومات الأرشيف . وكان هذا يدعو للأسف ، لأن التقييم الحقيقي لحياة لورنس المهنية جاءت متأخرة جداً .

يظل لورنس في ذهن الرأي العام البريطاني ، سواء في بريطانيا أو في الخارج ، واحداً من أعظم المشاهير الإنجليز في عصره ولكن على الرغم من ذلك حامت الشكوك ، منذ الخمسينات حول إنجازاته الحقيقية ،كما تحدى بعض الكتاب أساس شهرته برمتها . وفي عام ١٩٦٢ تغيرت صورة لورنس على نحو جذري بسبب الفلم السينمائي الذي أخرجه ديفيد لين تحت عنوان «لورنس العرب» ، واستمرت هذه العملية بعد ذلك مع صدور عدد من السير الذاتية الحساسة له . إلا أن العديد منها كان تأملياً بشكل كبير ، وعلى الرغم من ذلك فإن الكتاب اللاحقين عالجوا المقترحات غير المثبتة على أساس أنها حقيقة تاريخية ، وأضافوا من عندهم توقعات اخرى . لذلك فقد جرى ابتداع تراكمات عديدة بهذه الطريقة أضفت صبغة خيالية على حياة لورنس . ويمكن تلخيص ذلك على نحو تقريبي بما يأتي :

إنه ابن غير شرعي لامرأة متدينة بهوس تهيمن على أطفالها وقد اعتنى به في طفولته المبكرة معلم واثق من نفسه هو د . ج هوغارت ، وأشبع بوجهات نظر إمبريالية وأرسل إلى كركميش من أجل تدريبه كجاسوس تحت ذريعة أنه عالم آثار ، ثم ذهب إلى القاهرة في مستهل الحرب كجاسوس مدرب ، وانخرط في الثورة العربية مدفوعاً بمشاعر إمبريالية (أو ربما بدوافع موالية للعرب ، أو للصهيونية) . ثم اغتصب جنسياً في درعا (أو أنه اخترع هذه القصة برمتها) وتعطشاً لدماء الأتراك في قرية طفس اشترك في الخيانة السياسية بمؤتمر السلام ، وعمل في وزارة المستعمرات تحت أمرة تشرشل ، حيث خدع في تلك الفترة كل واحد (أو ربما اعتبرت تلك مناورة من كل واحد) ثم خدم في الجيش وسلاح الجو ليتخلص من كل ذلك . وانغمر في دوافع ماسوشية ـ أبرزت لديه ميولا جنسية شاذة ـ وسعى إلى إيجاد أم بديلة في السيدة برنارد (شارلوت) شو ومن ثم قتل في حادث غامض لأسباب لا يمكن معرفتها .

إن أخطاء الحقيقة والتفسير في هذه التقييمات أصبحت واضحة لأي مطلع على المصادر المنشورة ؛ ولكن بمعزل عن حفنة محتجين من المطلعين المختصين ، فإن القصص والروايات المثيرة نادراً ما جرت مواجهتها وتحديها . ويبدو أن تشكك الشخص العادي قد بُدّد بنوعية الادعاءات الغريبة والشاذة. ولم يعد العامة يعملون ما يجب أن يصدق ، وما

يجب أن لا يصدق ، ونتيجة لذلك فإن العديد من الناس الجادين قد توصلوا إلى اعتبار موضوع لورنس حساساً ، إن لم يكن بغيضاً .

إن مثل هذه الحال يمكن أن تكون مقبولة إذا لم ينجز لورنس أي شيء ، واذا لم تشتمل حياته على أية أهمية تاريخية . ولكن على الرغم من الادعاءات الرامية إلى الانتقاص من شأنه ، فإنها ليست قضية بحد ذاتها ؛ فحتى في أدنى درجات الانتقاص لا يمكن أن تنسى إنجازات لورنس ، إذ أن أشد منتقديه حدة يعترف بأنه لعب دوراً على جانب من الأهمية حينما كان يخدم بصفة ضابط اتصال بريطاني خلال الثورة العربية . وحتى بعد الحرب ، فقد قال زملاؤه الضباط الذين تابعوا عمله عن قرب بأن إسهامه في ذلك كان بارزاً وعلى الرغم من أن بعض هذه الشهادات قد يكون مبالغاً فيه فإنه كان ثمة رجال آخرون على جانب كبير من الأهمية ولا يمكن أن تكون شهادتهم من دون أساس . كما أن لورنس اشترك أيضاً في المفاوضات السياسية التي أعادت رسم خريطة الشرق الأوسط . أولا خلال الحرب ذاتها ، ومن ثم في مؤتمر السلام بباريس ، وأخيراً حينما كان يعمل في وزارة المستعمرات . كما أن ثمة دليلاً وافراً على أنه لعب دوراً مهماً ، بخاصة ، في مؤتمر القاهرة الذي عقد في آذار ١٩٢١ .

ثانياً ، إنجازاته الأدبية : إذ كان لورنس يأمل بأن يصبح كاتباً منذ طفولته ، فوفقاً لتصريحاته وإفاداته فقد ظل هذا الأمر الطموح الأقوى عنده . وكانت ثمة ثلاثة أعمال ناجحة جداً لديه : كتاب أعمدة الحكمة السبعة الذي بيع منه أكثر من مليون نسخة ، وترجم على نطاق واسع . ولا تزال شعبية هذا الكتاب الطويل والمكلف نسبيا بارزة . أما كتابه الثاني «المصنع» الذي يتناول حياته في ثكنات سلاح الجو ، فقد يبدو أقل شأناً من الأول ، وعلى الرغم من ذلك فإنه ترجم الى عدة لغات ، وأعادت طباعته بانتظام دار نشر بنجوين منذ عام ١٩٧٨ . كما يعتبر كتابه المترجم الأوديسة ذا مكانة رفيعة في الأدب الإنجليزي بوصفه أكثر الكتب المترجمة نجاحاً في المجال العام . وقد صدر بعدة طبعات ، ومازال موجودا في المكتبات بعد أكثر من خمسين عاماً على صدوره . وأخيراً ، فإن لورنس كان كاتب رسائل غزير ، وكانت إصداراته من المراسلات تقرأ على نطاق واسع .

ولذلك كله فإن انجازات لورنس العسكرية ، والديبلوماسية والأدبية تستحق

التحقيق ، في أقل الاحتمالات ، من الناحية البيوغرافية ، بل أن حياته تعتبر مثيرة للاهتمام لأسباب عديدة أيضاً ، فقد كان يعرف العديد من الشخصيات الكبيرة في عصره ويراسلها وشمل هذا علماء آثار مثل : د . ج . هوغارت وليونارد وولي ؛ وقادة عسكريين مثل : اللنبي ، ترنيشارد ووافيل ؛ وديبلوماسيين وسياسيين من أمثال نانسي أستور ، جيرترود بيل ، تشرشل ، كورزون ، ولويد جورج ؛ وأدباء وكتاب مثل : بوشان ، كونراد ، دوفتي ، فليكر ، فورستر ، غريفز ، هاردي ساسون ، وبرنارد شو . وهذه مختارات فقط من الأسماء اللامعة . وكان له أيضا أصدقاء ينتمون إلى عالم الفن مثل : أريك كينغتون ، أوغسطوس جون ، بول ناش ، ويليام روبرتس ، ويليام روثينشتاين ؛ والمهندس المعماري السير هيربرت بيكر ، وهـ س . ايدي مدير متحف تات . ومادام المؤرخون يهتمون بمثل هذه الشخصيات ، فإنهم سيسعون أيضا للحصول على معلومات بشأن لورنس . إن السبب الوحيد لهذا الفضول يكمن في أن شخصية لورنس وحياته الحافلة قد أثارت ردود أفعال بين معاصريه ، غالباً ما كانت مصحوبة موالية ، أو بعداء شديد من فترة إلى أخرى . وكان ثمة بضعة أشخاص قادرين على الكتابة عنه من دون كشف شيء ما عن نياتهم أو تحيزاتهم وعلى الرغم من ذلك فمن المستحيل ايجاد معنى لهذه المواقف في حين أن الحقيقة حول لورنس تُعَد غامضة عن طريق الادعاءات الحسية والادعاءات المضادة . وفي المستقبل ستثير أسطورة لورنس نفسها اهتمام المؤرخين الاجتماعيين ، فالحماسة الجماهيرية العامة للمشاهير إعلامياً غالبا ما تكون قصيرة المدى ، ولكن في حال لورنس ظل هذا قائماً لأكثر من خمسة وستين عاماً ، اذ أن أسطورته بدلاً من أن تختفي وتضمحل ، استمرت محافظة على الاهتمام الشعبي بها من حقبة إلى أخرى ففي عام ١٩١٩ ، قدمه لويل ثوماس بوصفه بطلا عسكرياً رومانطقياً وبعد ذلك ، عندما كتب لورنس «أعمدة الحكمة السبعة» ، كان يفكر بتجسيد شخصية المفكر بالنشاط العملي . وظهرت شهرته كقائد للواجهة مرة ثانية إبان الحرب العالمية الثانية ، حيث وزعت نسخ من كتابه أعمدة الحكمة السبعة على الوحدات البريطانية المقاتلة . ولكن بحلول الخمسينات ، أختفت حمى البطولة ، وأصبح الهجوم على القيم المثيرة للجدل عادياً (فعلى سبيل المثال قام اللورد الترنيشام بانشاء التاريخ الاجتماعي بتجرؤه على نقد خطب الملكة) . وعلى نحو متنبأ به ، تعرضت أسطورة لورنس المتراكمة إلى الهجوم ، ثم

أصبح في اوائل الستينات مجرد لعبة بالنسبة للاختصاصيين من علماء النفس الهواة ، وعندما ركزت «المجتمعات المنفتحة» الانتباه العام على مسائل الحياة الخاصة أصبح ثمة كم هائل من المزاعم والادعاءات الجنسية والشهوانية ، فخلال عقدي السبعينات والثمانينيات أصبحت روايات وقصص التجسس هي الرائجة ، وقد أدعي بأن لورنس كان ينفذ مهمة جاسوسية لحساب المخابرات البريطانية قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى .

إن تطور أسطورة لورنس هذه تظهر كم يمكن أن يصبح هذا الموضوع شعبياً في ما يتعلق بحياته نتيجة الكشف المستمر عنها . وقد تغيرت كتابة التقييمات المتتابعة حيث تنافس الكتاب على طرح مواضيع جديدة . وعلى الرغم من ذلك ، فإنه ليس بالضرورة تحسين نوعية القصص بوساطة هذه العملية . إن الحقيقة ليست هي التي تعاني من ذلك فحسب ، بل في الأغلب محتويات الرواية التي تصنع الحدث أصلاً ويصبح جديراً بالنشر والاطلاع أيضاً . وإن الشخصية غير العادية أو المعقولة التي يقدمها بعض رواة السير الذاتية غالباً ينتقصها جميع الخاصيات التي تجعل من لورنس مثيراً أو آسراً لمعاصريه .

وفي الحقيقة لا تحتاج سيرته الذاتية إلى مثل هذه الزخرفة والتزيين إذ أن تجاربه إبان الثورة العربية تضمنت درجة غير عادية من الدراما وقد قال بنفسه : «إن الرواية التي طرحها في كتابة أعمدة الحكمة السبعة كانت واحدة من أعظم الأحداث التي لم يسردها إنسان كتابة من قبل» . أما مهنته الأخيرة (الكتابة والتأليف) فلم تواجه هجوما أو انتقاداً كبيراً ،فحسب تعبير تشرشل : «إن العالم ينظر برعب وتخوف إلى الإنسان الذي يظهر على أنه متحيز بشكل غير معقول للوطن ، للمال ، للراحة ، للجنس ، أو حتى للقوة والشهرة . فلا يمكن الشعور بالعالم من دون إدراكه إدراكاً شاملاً ، ذلك أن ثمة أحداً ما خارج نطاقه القانوني ؛ وأحداً ما قد يتباهى ويزهو أمام اغراءاته وأحداً ما يتقيد بشكل غريب بتقاليده المقيده والمعوقة ، ويتحرك بحرية كأي إنسان عادي يعاصر الأحداث» .

ورغم أن المعالجة المثيرة لحياة لورنس تُعَد ممتعة ، فإنها ساعدت على إخفاء دوافعه وأهدافه الحقيقية . فعلى سبيل المثال ، يسعى الكتاب والمؤلفون إلى إيجاد مبرر لمعاملة الأتراك السيئة له في درعا عام ١٩١٧ ، مما يوحي بأن هذه الحادثة كانت سبباً في الكآبة العميقة التي كان يشعر بها خلال المراحل الأخيرة من الحرب .

وسيكون من الأجدر أكثر الاعتراف بأن كآبته هذه كانت واضحة عليه قبل عدة أشهر من حادثة درعا . وبالتأكيد على مثل هذه الحوادث ، مثل حادثة درعا ،وحتى لو كان الأمر على حساب التسلسل الزمني للأحداث ، فقد غض الكتاب والمؤلفون النظر عن الأحداث العقيمة التي وقعت في وقت مبكر من حياته إبان الحرب .

إضافة إلى ذلك فإن الادعاء بأن لورنس بدأ العمل لصالح الاستخبارات البريطانية في أثناء وجوده في كركميش قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى ؛ قد وفر لرواة السير الذاتية جانباً مثيراً جديداً عن سنوات شبابه المبكر . كما أنه يقدم تفسيراً ، هابطاً من السماء ، لصعوده المفاجىء في عام ١٩١٦ إلى موقع تنفيذ في دائرة المخابرات البريطانية في القاهرة . ورغم ذلك كانت النتيجة ان الانتباه قد تركز على انجازاته المذهلة كعالم آثار في كركميش ، وعلى عمله الذي استغرق سنتين في مكتب استخبارات القاهرة خلال عامي ١٩١٥ و ١٩١٦ على حد سواء .

وهكذا انصب التركيز فقط على ست سنوات مهمة من حياة لورنس . وكما حذر لورنس روبرت غريفر مرة بقوله ، «إنني شخص معقد الى حد ما ، وهذا أمر سيىء بالنسبة لسيرة ذاتية بسيطة» . أما الشيء الواضح من بين هذه التعقيدات فهو التنوع المثير في أعماله . ومن الطبيعي فإن شخصاً في مثل هذه الحالة سيكون موضوعاً لدراسة منهكة في أقسام وكليات الجامعات ، بل أن حياة لورنس من الاختلاف بحيث لا تتلاءم مع الدراسات الأكاديمية الحديثة . ونتيجة لذلك لا توجد أية كلية جامعية تهتم حقيقة بأكثر من جزء يسير من حياته ، فأساتذة الجامعات ملتزمون فقط بالعمل ضمن حقول اختصاصاتهم فقط ، وهم غير راغبين ـ بطبيعة الحال ـ في تغيير مسارهم الاكاديمي بشكل واسع . هذا في حين قد يكون الباحثون خبراء في منحى واحد من حياة لورنس العملية ، ومن المحتمل أن يكونوا راغبين قليلا في معرفة نواحٍ أخرى أوسع من حياته . فالمختص في الهندسة المعمارية العسكرية للقرون الوسطى لا يريد طبعا أن يصدر حكما على التاريخ العسكري للقرن العشرين أو تقييما له . إضافة إلى ذلك ، ثمة بضعة علماء آثار فقط لديهم معرفة بالعصر الحثي يمكنهم الكتابة بشكل وافٍ عن تطور صناعة الزوارق السريعة . وكم من القادة المقاتلين ترجموا بنجاح ملحمة الأوديسة ، أو أنشأوا مطبعة؟ إن

تنوع أنشطة لورنس واهتماماته قد أعاقت أي شيء سوى إجراء بحث أكاديمي محدود .

وفي حين أن هذه المشكلة لم تشجع قيام بحث أكاديمي في هذا الشأن ، فإنها لا يمكنها أيضا ، من جانبها ، أن تقيم الموقف الحذر القائم تجاه لورنس في الجامعات البريطانية . أما الوضع في الخارج فهو مختلف ؛ فثمة اطروحات تاريخية رئيسة قد نشرت وصَدرت في كل من فرنسا وألمانيا ، كما توجد عدة دراسات أمريكية تتعلق بكتابات لورنس . ويبدو أن الحذر بشأنه في بريطانيا نابع من سببن : الأول ، أن جميع الباحثين والدارسين يفضل معالجة المواضيع الواضحة والمعقولة ، في حين أن أدب لورنس في هذه البلاد (بريطانيا) قد شُرِّبَ وصُبِغَ بالأساطير والألغاز . ثانياً إن الهجوم على وقاره وشرفه قد أثار عواطف وأشجاناً في بريطانيا أقوى منها في الخارج . فالباحثون الإنجليز الذين صعقوا بالمزاعم التي تقول إنه كان شاذاً جنسياً ، لا يمكن لومهم على اختيارهم لمواضيع أخرى لأبحاثهم .

إن الكثير من هذه العداءات تجاه لورنس قد تجذر في مظاهر الثقافة والتاريخ البريطانيين ، ففي أوقات مختلفة ، هاجمت جماعات مصالح معروفة في بريطانيا سمعته ومسّتها بشدة . وكانت أولى هذه الجماعات واحدة من المؤسسات المرتبطة بالادارة الانجليزية ـ الهندية في العراق . ففي عام ١٩٢١ تبنى تشرشل سياسة لورنس المتعلقة بهذه المنطقة والتي بددت سنوات عديدة من جهد الاستعماريين الطامحين وكدّهم لذلك فان مسؤولية لورنس في هذا الاذلال العام لا تنسى أبداً . ونتيجة لذلك عَدَه الآلاف من الرجال الإنجليز عدوهم اللدود (منذ ذلك الحين حتى الوقت الراهن) .

كما أن لورنس أثار عداء جماعة أخرى من الناس ؛ ففي الوقت ، الذي كان فيه المجتمع البريطاني أكثر صرامة رفض هو مكانه «الحقيقي» في النظام الاجتماعي واختار التجنيد في القوات المسلحة . ولما كانت الرتبة العسكرية آنذاك علامة القوة والسلطة في الحياة الاجتماعية ، فقد استمر العديد من الضباط الكبار السابقين ، بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، باستخدام ألقابهم العسكرية في الحياة المدنية . ولذلك تملكهم غضب شديد عندما جرى الكشف عن أن الكولونيل الشهير لورنس قد انضم إلى صفوف سلاح الجو تحت اسم الجندي روس . إذ بدا عمله هذا تشويهاً وحطاً من التقدير الذي كانوا

يشعرون به كونهم من طبقة الضباط . إن عمق الشعور بهذه المسألة من الصعب فهمها اليوم.وقد أدهشني أكثر من مرة حين تحدثت فيها عن لورنس أشخاص ينتمون إلى ذلك العصر أو الجيل . وبالطبع ، فإن أولئك الذين شعروا بالتهديد من جراء موقفه غير التقليدي قد اتخذوا إجراء للدفاع عن أنفسهم : ولكن لم يمض وقت حتى بدأت الشائعات المعادية بالانتشار حول شذوذه الاجتماعي . وغالباً ما تضمنت القصص بعض الأحداث عنه تقول : إنه بينما كان يحاول ان يكون «ذكياً» فقد كان يتصرف بفظاظة مروعة . ولم أكن قادراً أبداً على اثبات واحدة من هذه الروايات ، فلا أحد يبدو أنه شهد فعلياً حادثة من هذا النوع . ورغم ذلك تكررت ، وأحياناً على لسان رواة السير الذاتية الذين لم يتحققوا من أن غرضها الأساسي كان الازدراء فحسب . وفي أوقات ليست ببعيدة كانت ثمة انتقادات صاخبة للورنس صادرة عن جماعات ضغط بريطانية لها ارتباطات بالشرق الأوسط . ورغم أن دوره الحقيقي كان مفهوماً قليلاً ، فإنه شغل بوضوح موقعا له بعض التأثير في السياسة البريطانية تجاه العرب في السنوات الواقعة بين ١٩١٤ - ١٩٢٢ . وقد برهنت هذه الحقبة في الدبلوماسية البريطانية على أنها بالغة النزاعات والصراعات ، لذلك هاجم بعض الكتاب الموالين للعرب والصهاينة على حد سواء سمعة لورنس بشدة . وفي كثير من الحالات ، دأب المجادلون حول استخدام اسمه في جلب الانتباه ببساطة الى وجهات نظرهم حول مسائل أكثر اتساعاً . وبما أن البحث والمناقشة يتعلقان مباشرة بالصراع الحديث حول فلسطين ، فقد كانا بعيدين عن الاهتمامات الدراسية . وتُعَد التفسيرات التاريخية لذلك منقسمة بشكل حاد ، وقد واجه رواة السيرة الذاتية للورنس تصريحات وبيانات متعارضة ومتضاربة لكتاب ومؤلفين لديهم خبرات ومعرفة أوسع في هذا المجال . ولكي اقوم بحل هذه المسألة فقد التزمت بالرجوع إلى الوثائق المعاصرة المتعلقة بهذا الصدد ، في عملية من أجل أن تظهر منها وجهة نظر جديدة ، ليس عن لورنس فحسب ، بل عن الأحداث ذاتها التي وقعت .

إن الجدل الكبير الذي أثير حول لورنس في بريطانيا يمكن أن يقتفي أثر وجهات النظر المتضاربة هذه ، ومن المهم جداً أن تُدرك وتُعرف ، ففي كل حال تقريباً ينبع العداء من الاخلاص العاطفي وليس من البحث والتحليل . ونتيجة لذلك فإن النقد غالباً ما

يأتي من التعسف أو من الغمز واللمز بدلاً من الحجة المعقولة .

لقد أُدعي أيضاً بأن الضباط السابقين الذين حاربوا على الجبهة الغربية قد شعروا بشيء من الحسد من جراء الحملة الدعائية المحمومة التي أُعطيت للورنس (والحملات اللنبي العسكرية في فلسطين) . وربما كان للأفراد أيضاً المشاعر نفسها ، إلا أن السجلات لا توحي بوجود ازدراء عام من جراء ذلك ، فالخطأ يكمن بوضوح في رجال الإعلام أنفسهم وليس في أولئك الذين حاربوا في الشرق الأوسط .وإن التذمر من هذا النوع قد شجع رغم ذلك هجوم ريتشارد الدينغتون الشديد على أسطورة لورنس الشعبية . فقد كان الدينغتون كاتباً حانقاً على نحو عاطفي ، عانى بعمق بسبب خدمته على الجبهة الغربية إبان الحرب . وفي الخمسينات كان يعيش خارج بريطانيا في منفى مفروض ذاتياً ، وقد بلغ به الأمر حداً كان يرى فيه لورنس بطل مجتمع متفسخ يمقته ويبغضه . ويبدو أنه اعتقد لو انه استطاع تشويه سمعة لورنس وتدميرها لتمكن من الاضرار بطريقة ما بالمجتمع البريطاني بشكل عميق .

قارن الدينغتون في أبحاثه التصريحات والبيانات التي أدلى بها لورنس الى أشخاص مختلفين في أوقات مختلفة مع تلك التي صدرت عن ثلاثة من رواة السير الذاتية المعاصرين له ، فوجد العديد من التناقضات والتباينات ما بين هذه المصادر ، وقدمها دليلاً على أن لورنس كان يدلي بأكاذيب تتسم بالزهو والغرور وما يتضح من هذه الحجة المقدمة أن لورنس كان يفترض أن يتحمل مسؤولية هذه الضرائب ، وليس رواة سيرته الثلاثة ، وهذا أمر ساذج الى أبعد حد ، فكاتب السيرة الأول ، لويل توماس ، كان صحفياً مشهوراً بحيث أن عمله قد جانب المبالغات الرومنطيقية . وكان بمقدور لورنس التأثير قليلا فقط في نص السيرة الذاتية ، لذلك لم يتدخل فيه بشكل مباشر ، ولم يعلق عليه ، لأنه كان يعلم بأن القراء من الذكاء بحيث سيدركون ذلك . وكان كاتب السيرة الثاني روبرت غريفز شاعراً وروائياً ، وألف كتبه بسرعة كبيرة بضغط من ناشريه ورغم أن لورنس شاهد مسودة كتاب سيرته الذاتية ، فإنه أشعر غريفز بأنه لم يمكن لديه وقت لتصحيح جميع الأخطاء الواردة فيها . أما كاتب السيرة الذاتية الثالث ، ليدل هارت فقد كان الوحيد الذي ، قام بمحاولة لمعالجة النص اكاديميا ، وكان مشروعه (كتابه) قد تلقى دعم

ومساعدة كبيرين من لورنس .

إذن وبطرح الخاصيات والأهداف المتفاوتة لهؤلاء المؤلفين ، فسيكون من المدهش إذا ما تلاقت تقييماتهم وتخميناتهم في كل التفاصيل .

إن الدليل المتناقض ، ولابد أن الينغتون يعلم ذلك ، يُعَد مشكلة عامة بالنسبة للمؤرخين . وحتى بعد وقت قصير فإن الروايات التي تقوم على تذكر أية حادثة من الصعب أن ينسجم تماماً بعضها مع بعضها الآخر . وإضافة إلى ذلك فإن التخمينات والتقييمات المتعلقة بالأحداث الماضية غالباً ما تتلون وتختلف بالتبرير الذاتي وبالحكمة أيضاً بعد وقوع الحدث . فالمادة المجمعة من رواة السير الذاتية أو من اجراء المقابلات نادراً ما تتحول لتصبح متفقة كلياً مع المصادر المعاصرة .

وفي ما يخص لورنس ، فإن عوامل خاصة قد ساعدت على توليد الأدلة المتضاربة وهي :

أولاً : اولئك الذين كانوا يعلمون أن لورنس كان حتماً يُعَد أسطورة شعبية ؛ والعديد منهم قد وجد أن من المستحيل تمييز هذا عن ذكرياتهم الماضية ، أما المقابلات وتذكر الأحداث الماضية المنشورة فغالباً ما تحتوي على معلومات غير دقيقة بحيث يكون من الصعب توضيحها بأية طريقة أخرى .

ثانياً : إن حياة لورنس المهنية قادته إلى أن يتصل بأناس من مختلف الاتجاهات في المجتمع ، فبالنسبة لعامة الناس كانوا حقيقة يعرفونه عن كثب . ومعظم أصدقائه المقربين ، وبخاصة أولئك الذين كانوا يخدمون معه في سلاح الجو وسلاح المدرعات ، أبوا الاستفادة من هذا الاهتمام الشعبي به ؛ بيد أنه كان ثمة بضعة أشخاص تاجروا بذلك وفبركوا الحوادث والحكايات عنه ليدعموا اهتمامهم الظاهر بحياته .

ثالثاً : غالبا ، ما يحدث تحريف وتشويه أكبر عندما يشجع أناس على تذكر شيء ما جديد عن لورنس فليس ثمة من تجرى مقابلتهم لا يرغب في أن يتذكر شيئاً ما أو حدثاً ما ، ولذلك فإن الخيال يغلب على الحقيقة في هذا الصدد . وأحيانا تكون التفاصيل متمشية بشكل بارع مع الأحداث المعروفة رغم ذلك ، ولحسن الحظ ، فإن ناسجي الحكايات هؤلاء نادراً ما يصلون إلى مراسلات لورنس الضخمة غير المنشورة . في حين أن

افاداتهم قد تكون متفقة مع المصادر المتوفرة ، إلا أن أقل مادة معروفة غالباً ما تكشف عن استنباط تام لوضع الشك في كل شيء يقولونه .

ومن اللافت أن مثل هؤلاء الأشخاص بينما يعتنون بشكل واسع بالأدب الخيالي ، إلا أنهم غالباً ما يقحمون أنفسهم في تفاصيل هامشية . وهذا هو الأمر بالنسبة لذكريات جون بروس واسعة الانتشار ، فمن أجل السعي للحصول على مكافأة مالية لروايته ، فقد قام بزخرفتها بشكل بارز . وهكذا باع عام ١٩٣٨ مقالة لمجلة «سكوتش فيلد» ، مدعياً أنه كان يقوم في الهند بمهمات تجسسية مع لورنس ، الذي كان يرتدي الملابس المحلية للسكان ويتحدث لغتهم . لقد كانت هذه القصة مزيفة تماماً ، إلا أن بروس ظنها كذبة آمنة ، لانه قبل عشر سنوات مضت كانت توجد تقارير صحفية تفيد بأن لورنس كان في مهمة تجسسية في الهند . وبما أن بروس لم يكن بالفعل في الهند مع لورنس فإنه لم تكن لديه أية فكرة عن أن الشائعات الصحفية تلك كانت كاذبة . كما أنه تحدث في أشياء أخرى عديدة عن علاقته بلورنس ، وأنه كان بوسعه أن يقدم شهادات وأدلة مهمة عن سيرته ورغم ذلك يمكن أن تكذب شهادته من نواح عديدة لأن كل معلومة أو إفادة غير مدعمة أو مثبتة لابد وأن تؤخذ بحذر شديد .

كما تظهر حادثة «الكشف» عن المهمة التجسسية لبروس في الهند أيضاً كم يمكن للأسطورة أن تسبب وتثير ما يظهر ليكون دليلاً مثبتاً . فلو لا توفر وثائق معاصرة موثوقة حينذاك تكشف أن روايات الصحافة في عام ١٩٢٨ كانت كاذبة ومزيفة ، لكان من الممكن أن تقبل وتصدق تقييمات بروس كدليل على أنها كانت صادقة .

أخيراً ، فإن تقييمات حياة لورنس غالباً ما شوهت لكي تتلاءم مع نظرية التصور المسبق (فهو على سبيل المثال يمثل نوعاً من النموذج الأصلي للبطل الرومنطيقي الذي يرفض المديح والثناء) . وإن هذه التبسيطات المفرطة للتفسيرات والتوضيحات نادراً ما تتطابق مع الفحص والاختبار ، وغالباً ما تكون أكثر غموضاً بدلاً من أن تكون واضحة .

لقد حاولت بجد كبير أن اتجنب مثل هذه المآزق ، وكانت أضمن وسيلة للقيام بذلك هي أن استند في تقييمي لحياة لورنس إلى وثائق معاصرة ، مستخدماً آخر الروايات والافادات عندما تكون مترابطة ومتفقة فقط مع هذه المصادر . ولحسن الحظ ، فقد كانت

ثمة كمية وفيرة من هذه الوثائق تتعلق بكل مرحلة من مراحل حياة لورنس توجد هذه الوثائق الآن في الأرشيفات العامة والخاصة حيث تبرر تماماً الادعاء الذي برز قبل عدة سنوات مضت من قبل بول آدم ، وهو واحد من عدة مفكرين فرنسيين كتبوا عن لورنس : « من خلال التناقص الذي لا يتضمن أي منطق ، فإن حالة لورنس الغامضة تماماً قد حفرت كل من عمليتي البحث والشهادة على حد سواء . ونتيجة لذلك فإننا نعلم الكثير عن لورنس أكثر مما نعرفه عن أشخاص لم يعتقد أبداً أنهم كانوا غامضين» .

إن أول هدف لبحثي كان جمع أكبر قدر ممكن من هذه المعلومات المعاصرة . وسرعان ما وجدت انه كان من الأفضل أن أنسخ (اصور) الوثائق كاملة من العمل على أخذ ملاحظات منها . لذلك فغالباً ما تتحول الرواية التي تبدو غير مهمة إلى أن تصبح مهمة عندما توضع الى جانب حادثة أخرى جرت في الفترة الزمنية نفسها . وتُعَد الوثائق المتعلقة بالموضوع مبعثرة ومنتشرة في أنحاء العالم ، ومالم تجمع النسخ الأصلية في مكان واحد ، فإن معظم بل الروايات المتداخلة كافة ينبغي أن تدقق .

وإن مهمة تجميع النسخ المصورة والنسخ الأصلية للوثائق المعاصرة ما زالت مستمرة منذ عشر سنوات . لذلك فانه توجد في جوهر الأرشيف المتسلسل زمنياً المراسلات التي قام بها لورنس فقد كتب مرة يقول : «بالطبع سيرغب بعضهم في الكتابة عن حياتي يوماً ما ، لذلك فإن مصدرهم الوحيد سيكون مثل هذه الرسائل المحفوظة صدفة . فإذا حفظت جميعها ، فسيكون ثمة تاريخ كامل عن الاحداث التي وقعت منذ عام ١٩١٠ : وتوجد مجلدات كافية لتشجيع أي مؤرخ كان عليه القيام بالبحث ،بل أن الفرصة المتاحة له ستغربل أكوام المراجع المتواجدة» . إلا أن لورنس كان على خطأ حين ظن أن رسائله ستطرح جانباً . ففي ذلك الوقت كان العديد من الناس يحتفظون برسائلهم كنتيجة متوقعة ، وبالنسبة له فإن الرسائل كان لها قيمة مالية . وبمقارنة دفتر ملاحظاته مع مجموعة من رسائلة المتواجدة يبدو من غير المحتمل أن يكون الكثير منها قد فقد . فثمة أكثر من أربعة آلاف رسالة ، وبرقية ، ومذكرات رسمية ، ومحاضر جلسات واجتماعات كتبت بخط يد لورنس ، ونحو ألف ومائتي رسالة وبرقية أُرسلت إليه ما زالت محفوظة حالياً في المكتبات العامة أو في المقتنيات الخاصة لدى الأشخاص . لذلك فقد كان

بوسعي تصوير ونسخ مجموعة ضخمة من هذه الوثائق ، ويعود الفضل في ذلك إلى مالكيها والى شقيق لورنس الأصغر ومنفذ وصيته بناء على طلبي منه للتعاون معي .

وكما أضيف إلى ذلك العديد من النسخ الأخرى من الوثائق المتعلقة بالموضوع في الارشيف وبخاصة تلك المتعلقة بفترات الحرب والدبلوماسية . فهذه المواد كانت أساسية إذا ما أخذت بالاعتبار مساهمة لورنس في سياقها الحقيقي . فقد أردت بشكل خاص ايجاد وجهات نظر معاصرة ومتبادلة عنه بين أطراف ثالثة تكون في موقع الحكم على أعماله .

وفي الوقت الذي أتممت فيه هذه السيرة الذاتية ، فقد شكل الأرشيف الذي وضع من أجل ذلك سجلات منتظمة ومتسلسلة يوماً بيوم حتى أحتوت على أربعة ملايين كلمة . كما أنها أحتوت على بعض المواد التي لم تكن متوفرة لرواة السيرة الآخرين وفي حين أن الكثير من الوثائق كانت من مصادر شخصية ، فإن معظمها كان ذات قيمة ، وغالبا ما يتوافق مع مصادر أخرى . وحتى أن الرسائل المألوفة جداً للورنس اتخذت أهمية جديدة عندما تم وضعها مع معلومات أخرى عن الفترة الزمنية نفسها . واحتوت سجلات الأرشيف على أنشطة لورنس العسكرية والدبلوماسية ، وخدمته في الجيش ، وكتاباته بالتفصيل وهذا التحقق المثبت في المعلومات جعل من الممكن كتابة السيرة الذاتية للورنس مع عدم الاعتماد ، الا قليلاً على الذكريات الماضية . ومن إحدى النتائج المهمة أن تقييم دور لورنس في الثورة العربية لم يعد يعتمد على كتابه أعمدة الحكمة السبعة ، فقد اقتبست من وثائق معاصرة تتوافق مع كتاب لورنس ، رغم أنها قد اثبتت بأنها دقيقة بشكل كبير لتصل إلى الحقيقة .

رغم أنني أعلم بأن العديد من الأشخاص كانوا سيفضلون روايتي للسيرة الذاتية للورنس أن تكون تفسيراً لحياته ، فقد فضلت أن تكون عبارة عن دراسة لبحث تاريخي دقيق . وكمبدأ عام ، فقد اقتصرت على الأحكام النقدية للمسائل المباشرة والصريحة بحيث يكون التعليق ، أو الافادة صحيحة من دون شك ففي سبيل المثال ، اهتاج لورنس في شهر نيسان ١٩٢٩ بشكل كبير بسبب كشف الصحف عن أنه كان هو المترجم غير المعروف لكتاب الأوديسة . إلا أن حنقه ودهشته كانا سخيفين بصورة واضحة إذ انه كان

منذ عدة أشهر سابقة هو نفسه الذي أبلغ أصدقاءه ومعارفه عن عمله في هذا الكتاب . كما كانت توجد أيضا عدة أمثلة ، مثل مسألة لورنس الجنسية التي اعتقدت بأن من الضروري الإشارة إليها ووضع استنتاجاتي الشخصية عنها رغم انها كانت مسألة معقدة .

إن سيرة ذاتية مثل هذه السيرة ينبغي أن تكون دقيقة ، وقد استطعت في نهاية بحثي أن أكتب سيرة مروية لحياة لورنس عبرت فيها عن استنتاجاتي بكلماتي تماماً . رغم ذلك ، فقد كان العمل يتطلب وضع القارىء في موضوع الثقة التامة ببحثي ، حتى لا يكون من السهل لكتاب ومؤلفين في المستقبل ان يتحدوا بحثي من أجل التحول إلى بدائل أخرى . لذلك فقد تبينت المبادىء التي وضعها ونستون تشرشل في كتابته للسيرة الذاتية لوالده ،اذ كتب في المقدمة يقول : «ينبغي أن يكون أسلوب الكاتب وأفكاره منسجمة تماماً مع ضرورة احتواء النص على براهين واثباتات وثائقية لتعتمد عليها الرواية . فيجب أن ترتب المقتطفات والاقتباسات من الرسائل ، والمذكرات والأقوال التي تتخلل نصه الروائي لتكون مترابطة ومنسجمة معه . وانه ليس باللمسات الناعمة للصورة ، ولكن بالزخرفة أو الترصيع يجب أن تقدم حياة الشخص وأعماله بكل حقائقها ورومانطيقيتها» .

لقد استخدمت كثيراً الاقتباسات المطولة ، ويمكن أن ترى النقاط الضرورية والأساسية للتوافق في أي مكان كان في النص مع دليل معاصر لها بدلاً من وضع نظرية خاصة بي . وقد أختيرت مقتطفات شخصية لأسباب عديدة مختلفة ، اولها إعطاء صبغة حقيقية للنص ؛ ثانيها توضيح قيم لورنس وأهدافه وحافزه ، والحكم النقدي عليه وإظهار كيف كان يقيمه معاصروه . وأخيراً يمكن أن توجد فوائد رائعة من جراء استخدام الاقتباس ، أما أولئك الذين لم يقوموا أبداً بالبحث في الأرشيفات التاريخية فلن يحصلوا إلا على فكرة ضئيلة عن اهتمام الإنسان الموجود في الرسائل ، والبرقيات ، والملاحظات المكتوبة ، في حين أن الأحداث الواقعية لم يكشف عنها بعد . وغالباً ما يوجد تفاعل مثير للشخصيات ، كما يمكن للوثائق أن تجعل من صور الطموح والغيرة ، والسخاء والدعابة حية اذ من المستحيل عملياً الاحتفاظ بهذه الخاصيات في صياغة جديدة للنص : فيهما كان المؤرخ ذكياً أو لامعاً فإن التقييمات التي تلخص الوثائق غالبا ما تصنع

نصاً أصعب على القراءة من الوثائق الأخرى . لذلك ، ففي كثير من الحالات ، استخدمت الاقتباس ببساطة للحفاظ على الدراما التي كانت تظهر بنشاط في مصادر المواد ؛ وفي مناسبات أخرى أيضاً من أجل توضيح مواقف بعيدة جداً عن تلك الموجودة اليوم .

إن معظم الفقرات المقتبسة تتضمن عنصر الرد ، بل أنها أُختبرت من أجل هذا السبب اذا ليس لدي شعور بان أحاول سرد قصة لورنس بكلماته . أخيراً ، أورد قول شيء ما عن وضع أو حال «راوي السيرة الذاتية الرسمي» ، هذا التعبير المستخدم بشكل واسع في أوساط الناشرين ، أما بالنسبة لي فانه يعبر عن شذى «نص رسمي» ، مدفوع ومن الممكن مراقب من أثرياء محبي الموضوع . إلا أنني قد فضلت بشكل كبير عبارة «السيرة الذاتية المعقدة» ، التي هي بالنسبة لي تنقصها هذه الدلالة أو المعنى غير الملائم .

كنت لن أقبل دور راوي السيرة الذاتية للورنس لو كان ثمة أي تلميح لرقابة مستقبلية عليها ، وأن يكون شقيقه الأصغر كمنفذ أدبي للنص ، فقد اصررت منذ البداية على وجوب أن أنشر النتائج والاستنتاجات التي أتوصل إليها مهما كانت . وقد اتفقنا على أنه سيكون من الأفضل أن يكون عملي مستقلاً تماماً ، وأن أتجنب إزعاجه بالأسئلة والاستفسارات عن حياة شقيقه باستثناء ان يكون ذلك ملاذاً أخيراً اذا ما بدت المعلومات غير متوفرة في أي مكان آخر . وعندما انتهت مسودة الكتاب أرسلت أجزاءً منه إلى عدة نقاد أكفاء من أجل التعليق عليها . وكنت ممتناً له (شقيق لورنس الاصغر) عندما وافق على قراءة الفصلين اللذين يصفان طفولة لورنس وعمله كباحث آثار ، كما كنت ممتناً أيضاً للملاحظات التي أرسلها لي هو وقراء آخرون غيره . غير أن مسؤولية محتوى هذه السيرة الذاتية تخصني وحدي فقط .

الفصل الأول

مرحلة الطفولة

من كانون الأول ١٨٨٨ إلى تشرين الأول ١٩٠٧

تنامت «دينارد» ، خلال العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر ، من قرية صغيرة لصيد الأسماك إلى بلدة مهمة . وقد وصفت في عام ١٨٩٤ بأنها «قرية حديثة» ، ذات مناظر خلابة ، تقع على الضفة الشمالية الصخرية لمصب نهر الرانس ،مقابل بلدتي سنيت مالو وسنيت سيرفان . ويوجد لها شاطئان ، مع حمامات بحرية ، يتوفر في أهمها كازينو ، وهو على شاطىء صغير أقرب إلى البحر . وتتناثر على مرتفعاتها المجاورة الفلل والشاليهات التي تشرف على المناظر الجميلةلخليج مالو بجزره الصغيرة ونتوءاته الصخرية .

وقد وجد العديد من الانجليز في ذلك الوقت أن تكاليف المعيشة في فرنسا كانت منخفضة جداً ، فاستقروا في مقاطعة بريتاني «Brittany» حيث أمكنهم العيش هناك بشكل مريح وبدخل متواضع . وبحلول عام ١٨٩٠ أصبحت تجمعات بشرية بريطانية كبيرة قرب بلدة سنيت مالو كما في «دنيان» ، مثلا ، التي تبعد عشرة أميال عن نهر الرانس وعن بلدة سيرفان . وبدأت المدرسة الموجودة في بلدة دينان تقبل التلاميذ الإنجليز منذ عام ١٨٢٠ ، وكانت تصدر نصف نشرة باللغة الإنجليزية .

ورغم ذلك ، فقد تنامت «دينان» بشكل رئيس كمنتجع أنيق ، أُ شتهر بزواره الأثرياء الذين كانوا يقضون موسم الصيف في ڤيلاتها وشاليهاتها وفي فنادق الدرجة الأولى . ولم تكن تعيش هناك في بقية أيام السنة ، سوى بضع عائلات بريطانية ، بيد أنها لم تكن بحاجة الى تعلم اللغة الفرنسية ، لأن اللغة الإنجليزية كانت مفهومة عموماً من قبل السكان المحليين الحرفيين هناك .

كان شاليه دو ڤالون بيتاً مريحاً بني في عام ١٨٨٥ . ورغم أنه كان قريباً من مركز البلدة ، فهو يقع بين حديقة منعزلة ومؤدية الى ممر طويل مسوّر . وكانت توجد بضعة

بيوت مجاورة ، غير أن المدرسة التي تقع هناك ، وهي مدرسة سنيت ماري ، كانت قريبة جداً تقريباً . وقد بدت أسرة لورنس تحبذ هذا الانعزال عن الحياة الاجتماعية لبلدة دينارد ورغم أن الأم سارة لورنس ، نادراً ماكانت تغادر المنزل ، فإن الجيران وجدوا فيها شخصية مسرة . أما الأب ، ثوماس لورنس ، فقد كان يرى هنا وهناك في الأغلب . كان رجلاً هادئاً ، محافظاً ، يمارس المشي وركوب الدراجات الهوائية ، ومن المحتمل أن يبحر بقارب أيضاً ، إذ أن لورنس استذكر فيما بعد بقوله «كان والدي لديه يخوت ودأب على أن يأخذني معه مذ كنت في الرابعة من عمري» . وكان أطفال دينارد من الأسر الإنجليزية والفرنسية يختلطون بحرية ويرحب بعضهم ببعض في منازلهم . فابنة أسرة هيربرت الإنجليزية المجاورة ، غالباً ما كانت تلعب مع الإخوان لورنس . وقد تقابلت أسرة لورنس مع أسرة فرنسية واحدة ، وهي المالكة لمنزلهم ، واسمها أسرة سيفنون ، في الأغلب . وهنا تنامت صداقة شاملة تدريجياً أثبتت في ما بعد أنها كانت مفيدة للأولاد الإنجليز . وكان لـ «نيد» ، وهو الاسم الذي كانت تطلقه الأسرة على إدوارد لورنس ، وبوب ، مربية إنجليزية تلقنهما الدروس الابتدائية ، التي كانت الأسرة تأخذها على جانب كبير من الأهمية . وقد أنهت هذه الدروس عندما بلغ لورنس الخامسة من عمره ، بساعة واحدة للذهاب الى مدرسة سنيت ماري في كل صباح . كما أن التعليم اليدني ، أو الرياضة البدنية ، كانت مهمة جداً أيضاً ، فقد كان لورنس وثلاثة انجليز آخرين يبحرون مرتين أسبوعياً عبر نهر الرانس إلى بلدة سانت مالو حيث كانوا يحضرون حصة جمباز خاصة وكانت بلدة سانت مالو في نهاية القرن التاسع عشر لا تزال عبارة عن بلدة محصنة (فقد أُعيد بناء معظمها بعد الحرب العالمية الثانية) . ولم يكن بإمكان لورنس أن ينسى المشهد المطل من دينارد على استحكاماتها ـ والخطوط الدفاعية التي نجحت في مقاومة عدوان جيش المارلبورو . وتغيرت شوارعها الضيقة وأبنيتها القديمة قليلاً منذ الوقت الذي ظهرت فيه كميناء مزدهر ، وكموطن لجاك كارتيه . فذكريات هذا الموقع الحصين قد أثرت بشكل بارز فيما بعد في اهتماماته التاريخية وهندسته العسكرية .

وعندما كانت السيدة لورنس تنتظر مولودها الرابع ، في عام ١٨٩٣ ، انتقلت الأسرة الى بلدة جيرسي من أجل ذلك المولود . فقد كان ثمة قلق من أن ولادة ابن في دينارد قد

يجر في نهاية الأمر إلى استدعائه لاداء الخدمة العسكرية الفرنسية . وكان المولود ذكراً ، وعمد تحت اسم فرانك هلير ، وهو الاسم الثاني الذي يدل على مكان ولادته .

وفي الربيع الذي تلى ، وعندما بلغ بوب الثامنة ونيد نحو السادسة من عمرها انتقلت الأسرة الى انجلترا . وقد أنشىء المنزل الجديد في عقار خاص قرب «نيو فورست» ، التي تبعد ميلاً فقط عن جنوب - شرق الطريق الرئيس ما بين «توثون» ، «لنيدهرست» . ولم تكن البيئة المحيطة أقل جمالاً من «دينارد» ، حتى أن المنزل كان أكثر انعزالا هناك . وكانت الغابة تحيط بها من الشمال والغرب ، وميناء ساوثمبتون يبعد عنها قليلاً إلى جهة الشرق ، والى الجنوب كانت توجد منطقة ريفية متفرقة السكان تبعد عن شاطىء سولنت تسعة اميال . وكانت أسرة لورنس منعزلة عن الخط الرئيس للحياة الانجليزية . فبلدة ساوثمبتون ، الاقرب ، كانت تبعد مسافة أكثر من ساعة عن بلدة أسرة لورنس .

وبينما كان على أطفال أسرة لورنس أن ينشأوا آنذاك في أجواء إنجليزية فقد كان للسنوات التي قضوها في فرنسا تأثير كبير على وضع لورنس في ما يتعلق برحلاته الخارجية ، إذ بدأ هناك بصياغة أفكاره حول العالم الذي يتخطى مجال أسرته وتجربته كسائح لم تكن مشتقة من لغات الفنادق الفرنسية - الإنجليزية ، ولم يكن يشبه أبناء الدبلوماسيين ومسؤولي المستعمرات الفخورين بانعزالهم في البوتقة الإنجليزية . ولم يعش لورنس في فرنسا على نمط الأجانب بل تكلم لغتهم ، ولم يشعر بوجود عائق معهم وقبل أن يصبح في سن البلوغ كان لورنس يتذكر أن الأسر الفرنسية والإنجليزية على حد سواء كانت ترحب به . ونتيجة لذلك لم يشعر مطلقاً بفهم كيفية الحياة في البلدان الأجنبية التي كانت مألوفة أو معروفة جداً بين البريطانيين . وفي أواخر العهد الفيكتوري كان الإنجليز الذين يعيشون فيما وراء البحار (في الخارج) منعزلين عن بلادهم بصورة عامة كطبقة واعية ووطنية . وقد كتب لورنس نفسه فيما بعد أنهم كانوا يقوون شخصيتهم القومية «باستذكار نمط الحياة التي خلفوها في انجلترا» . وكرد فعل على أجوائهم الأجنبية فقد التجأوا إلى إنجلترا التي كانت لهم . مؤكدين على انعزالهم ، وحصانتهم ، وأكثر نشاطاً في الوحدة والضعف والابتعاد .

لقد كان التكامل من بعيد أو من وراء البحار نادراً ، وأولئك الذين سعوا إلى مرافقة الأجانب بدلاً من أبناء جنسهم الإنجليز تعرضوا إلى خطر الشجب بدعوى أنهم لم يعودوا «إنجليز أصليين» . وقد أصبح لورنس واحداً من هؤلاء الإنجليز ، الذين حسب ما وصفهم بكلماته «يشعرون بعمق تأثير الشعوب الأصلية التي يعيشون بينها ، ويحاولون تكييف أنفسهم للعيش في جوها وبيئتها وروحها . . . إنهم يقلدون هذه الشعوب الأصلية للبلاد ما أمكنهم ، ويتجنبون التفاعل كثيراً مع حياتها اليومية . . . ويبدون مثل شعب البلد إلا أنهم ليس جزءاً منه» .

بهذه الروح الأخيرة رجع لورنس خلال سنوات دراسته لزيارة الأسر الفرنسية وتجول بدراجته الهوائية في فرنسا بثقة كما لو أنه في إنجلترا . وهكذا بدأت سلسلة من رحلاته التي أوصلته في نهاية المطاف إلى سوريا وفلسطين ، ورغم ذلك فإن أسلوب ارتحاله ظل على النمط نفسه . فقد كان عليه أن يتعلم العربية قبل أن يذهب إلى الشرق الأوسط ، وأن يقبل بشكل متحمس الضيافة العربية الريفية المقدمة للرحالة العرب . ونتيجة لذلك ، فقد اكتسب خبرة ومعرفة أفضل بالعادات والتقاليد العربية أكثر من أي رحالة أو زوار إنجلترا آخرين . وقد دفعه هذا بدوره إلى المشاركة في حياة رجال القبائل البدوية ، عندما كان يعمل مع القوات العربية كضابط اتصال بريطاني إبان الحرب العالمية الأولى . وكان الانتقال من بلدة «دينارد» الى بلدة «نيو فورست» انتقالاً سعيداً بالنسبة لأبناء لورنس . فبتشجيع من والدهم قضوا ثلاثة فصول صيفية في رحلات مفتوحة وكان بإمكانهم أن يروا من ميناء ساوثمبتون حركة الملاحة البحرية في ساوثمبتون والعديد من سفن الركاب البحرية التي تربط هذا الميناء العظيم بكل جزء من أجزاء العالم . وكان الأولاد يؤخذون أحياناً إلى شاطىء «ليت» حيث يمكنهم رؤية سباقات اليخوت . وكما كان الأمر في فرنسا ، فقد بنوا صداقات مع أولاد محليين ، وبشكل بارز مع أبناء أسرة لوريس ، الذين كان والدهم وكيلاً لعقار مجاور لهم .

واستخدمت مرة ثانية مربية تتولى تعليمهم ، بيد أنه مع حلول عام ١٨٩٦ ، وعندما بلغ بوب الحادية عشرة تقريباً ، كانت ثمة حاجة إلى المزيد من التعليم المدرسي التقليدي لهم . إلا أنه لم يكن بوسع الأسرة دفع تكاليف مدرسة داخلية للأبناء الأربعة ، كما أنه

لم تكن توجد مدارس جيدة يمكن الوصول إليها بسهولة ، من مكان سكن الأسرة ولذلك انتقلت أسرة لورنس في ذلك الصيف إلى أكسفورد . بحيث يكون بوسع الأبناء تلقي تعليم ممتاز وبتكاليف قليلة .

كان «نيد» في الثامنة من عمره فقط عندما غادر «نيو فرست» حيث كان عليه في ذلك الوقت أن يطور ارتباطه بالريف والبدء بالأنشطة الخارجية وعندما اصبح بالغاً ، كان أفضل مكان لديه ، حسب قوله ، هو لندن ، رغم أنه عندما اشترى بيتاً له بعد سنوات لاحقة كان بيتاً منعزلاً تقريباً على غرار منزل الأسرة في لانجلي لودج .

كان منزل أسرة لورنس الجديد في أكسفورد ، بشارع بولستيد٢ ، منزلاً كبيراً مبنياً من الطوب الأحمر ، ولم يمض على بنائه سوى ست سنوات . وعلى العكس من منزل لانجلي لودج ، فقد كان محاطاً بشوارع منازل الأحياء المجاورة ، وكان ذلك كله يعود إلى التوسع الضخم لشمال أكسفورد خلال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر . وفي خريف عام ١٨٩٦ سجل كل من بوب ونيد لورنس في مدرسة أكسفورد الثانوية للبنين ، حيث كان عدد كبير من الطلاب البالغ عددهم (١٥٠) طالبا لا يدفعون رسوماً لقاء التعليم ، وكانوا ينتمون إلى أسر من الطبقة الوسطى . وكان مدير تلك المدرسة ، إ . كاف ، قد أسس لها سمعة أكاديمية بارزة .

وينبغي أن تعالج استذكارات لورنس بشأن تلك الفترة بحذر ، إذ أن كلها كتببت بعد ثلاثين سنة في الأقل ، عندما أصبح رجلاً مشهوراً . رغم ذلك ، فثمة تعبير لمعلمه ، الذي كان مربي صفه في عام ١٩٠١ ، وهو على شكل تقرير مدرسي ارتكز على ملاحظات آنية في حينها هي :

«لقد وجدته هادئاً ، قادراً على القيام بواجباته المدرسية ، إلا أنه تنقصه الحماسة المرتبطة بوجه عام بالأولاد الأذكياء . أما الواجبات الدراسية العادية فقد كانت لا تشكل إرباكاً له . وكانت القدرة على القيام بالواجبات الدراسية في أيامي تتطلب مهارة فائقة . ولم يكن لورنس من هذه الفئة ، بل كان يتهرب من أي توجه مباشر أو تصحيح يمكن أن يكون متطلباً» .

«ولم يكن تفكيره منصباً دائماً على اتقان واجباته الدراسية ، رغم أن ذلك لم

يشكل إزعاجاً له . وكان يصيغ قراراته بوضوح كممارسة للحياة ، إذ أنه بدا آنذاك ينتقد الذين يكبرونه سناً . وكان يمقت الانحياز إلى جهة ما ، وينظر شزراً إلى أي فتى يحبذ الزهو والاختيال» .

«كان يملك روح الدعابة ، التي لا بد أنها أنقذته في كثير من الأحيان من المتاعب أيام الطيش الصبياني . كما أنه لم يعرف الخوف ، وكنا جميعا نستغرب لماذا لم يكن يمارس الألعاب (الرياضية) . . . وعندما جرى استخدام الدراجات الهوائية ، كان أول ولد في المدرسة يأتي بواحدة منها» .

«كان متحمساً بالميزات الجسدية للانسان ، رغم أن بنيته الذاتية لم تكن متينة كتلك التي كانت لشقيقه وليام ، أو طول وقامة شقيقه الأكبر مونتاجو روبرت» .

«وكان على النقيض من الفتيان الذين كانوا في سنه وعصره ، حتى أنه كان في أيام دراسته بالمدرسة يميل بقوة إلى الرواقيين ، وهو اعتدال ظاهر تجاه السرور أو الألم» .

كان لورنس لا يحب الألعاب المنظمة ، فقد كتب في ما بعد يقول : «تعلمون ، بأنني منذ أن أصبحت قادراً على التفكير ، لم أقم بأية لعبة حتى نهايتها مطلقاً . فقد دأبوا في المدرسة على زجي في فرق كرة القدم والكركيت ، إلا أنني كنت دائماً أخرج من اللعبة قبل نهايتها» . وبعد ذلك بعدة سنوات عندما كتب روبرت جريفز في مشروع السيرة الذاتية للورانس أن الألعاب المنظمة «كانت مروضة جداً بالنسبة إليه» ، صحح لورنس هذه الفقرة بقوله : «إنه لم يكن ليهتم بالألعاب المنظمة لأنها كانت منظمة ، ولأن لها أحكاماً وقواعد ، ولأن لها نتائج أيضاً . فهو لن ينافس في أي شيء مطلقاً» . ومن الواضح أن اعتراضه كان على التنافس وليس على الجهد البدني المبذول في الألعاب الرياضية ؛ فلورنس كان جيداً في ألعاب الجمباز كما أنه كان ملماً جداً في ألعاب الدراجات الهوائية ، وكان ذلك واضحاً في ملائمته عند الاشتراك في الألعاب الرياضية المدرسية المتعلقة بذلك . وفي سباق الدراجات المدرسي الذي جرى عام ١٩٠٤ كان مركزه الثالث (من بين خمسة عشر متسابقاً) . وعلى ما يبدو كان حسن البنية ، ورغم موقفه الغريب من الألعاب الرياضية فليس ثمة من كان يمكن أن يعتبره ضعيف البنية . وقد كتب واحد من زملائه في المدرسة في ما بعد يقول : «عندما كنا نشكل فريقاً لكرة القدم أو

الكراكيت ، ونود أن نضيفه إلى الفريق ، كان يتأملنا بابتسامته الاستفزازية المعهودة ، لكي يوقف أحدنا هذه المصارعة الودية ، فيشعر حينئذ بقوة تلك القبضتين الحديديتين» .

تلقى أولاد لورنس اضافة إلى تعليمهم الأكاديمي تربية دينية قوية ، فالأبوان كانا مسيحيين متدينين ، رغم أن عقيدتهما الدينية كانت مختلفة القوة . وقد كتب الابن الأصغر للأسرة (إرنولد والتر ، الابن الخامس الذي ولد في عام ١٩٠٠) يقول في هذا الصدد : «كانت والدتي تحمل قناعاتها الدينية بعمق ، فهي تقر تماماً بعقائد طائفتها المسيحية ولم يكن لديها شك في أن هذه العقائد كانت تشكل قاعدة تامة للأحكام الدينية القابلة للممارسة والتطبيق ؛ بيد أنها لم تكن تشارك والدي سوى بالشيء البسيط في شعوره الديني الذي يغلب عليه طابع التصوف إذ كانت متدينة حسب تنشئتها وتربيتها (الأصولية) وليس حسب المزاج فكانت تذهب إلى الكنيسة في الساعة الحادية عشرة صباحاً أيام الأحد ، برفقة أبناء الأسرة ، بعد أداء صلوات الصباح من قبل والدي الذي كان ذا تفكير متدين جداً» . ومنذ انتقالها إلى أكسفورد ، كانت الأسرة تتعبد في كنيسة سانت الديت ، المقابلة لكنيسة كريست (المسيح) ، رغم أن العديد من الكنائس الأخرى كانت أقرب إلى منزلها الواقع في شارع بولستيد . وكان راعي كنيسة سانت الديت ، كانون كريستوفر ، من رجال الدين البروستانت البارزين .

كان معظم الأطفال يتلقون تربية دينية في ذلك الوقت ، بيد أن لورنس كان تلميذاً متلقياً بشكل غير عادي ، فالتعليم الديني منحه قيماً أخلاقية ومعرفة تامة بالأناجيل . كما أنه بدأ خلال طفولته بدراسته جغرافية أراضي الأنجيل وتاريخها .

وفي صيف عام ١٩٠٤ ، عندما أنهى السادسة عشرة من عمره ، أدى لورنس امتحانات اكسفورد المحلية للمدرسة العليا . وقد أظهرت علاماته سجلاً مثيراً للدهشة حول قدراته (تظهر العلامتان الأوليتان أدناه مدى أدائه ، في حين تظهر العلامة الثانية أعلى علامة منحت لطالب في ذلك الموضوع) . فقد حصل على علامة مميزة في المعرفة الدينية (٢٠٤ : ٣٤١) ، وفي اللغة اليونانية (١٨٦ : ٣٥٣) ، وفي اللغة الفرنسية (٢٠٥ : ٢٩٣) ، وفي الرياضيات والجبر والهندسة مثلاً (١٢٢ : ٣٢١) . وكان معدله الإجمالي ممتازاً ، ولذلك وضع في الصف الأول . فمن بين ٦٧٢٠ مرشحاً في تلك السنة ، حصل

تسعة وسبعون فقط على معدلات عالية .

ألاّ أنه بالرغم من هذا الإنجاز ، فإن معاصريه لم يروه أو يعتبروه مفكراً ملتزماً . فوفقاً لبيسون ، صديقه المقرب جداً في أثناء الدراسة ، لم يخلف لورنس أي انطباع بأنه كان واسع المعرفة بشكل غير عادي ، بل بدا أنه مبتدىء وليس معلماً في معرفته وعلومه .

ومن المحتمل أن لورنس أصيب في خريف عام ١٩٠٤ في ساقه أثر سقوطه على أرض ملعب المدرسة ، وفي البداية لم يعتقد أن الإصابة كانت خطيرة ، فاستمر بمتابعة دروسه في ذلك اليوم رغم آلامه الكبيرة . ومن ثم نقله أشقاؤه على دراجة إلى البيت ، وعندما استدعي الطبيب ، وجد أن قدمه كانت مكسورة من فوق الكاحل . واستغرق الأمر وقتاً طويلاً لمعالجتها ، وكانت النتيجة أنه فقد بقية الفصل الدراسي . وكان يمتع نفسه خلال فترة نقاهته بزيادة قراءاته ، أو الانشغال بلعبة البوكر . وكانت قراءاته تنصب على التاريخ وعلم الآثار . وحسبما أفادت والدته ، فقد اشترى كتابين كبيرين حول الحفريات الأثرية لليارو في منطقة «نواينفيه» ، وحفظهما عن ظهر قلب . وكان ذلك أول اهتمام له بعلم الآثار ، رغم أنه قبل ذلك بسنتين بدأ بجمع قطع الآثار والنحاسيات من كنائس القرون الوسطى . وأصبح معروفاً عند بلوغه الخامسة عشرة ، في المدرسة ، بتنقيباته الأثرية في أكسفورد . ويشير صديقه بيسون إلى أن صداقتهما تركزت حول الاهتمام بالبحث الأثري ، «الذي استهل بواسطة لورنس وشغفه بعلم الآثار ، إضافة لحثي له أكثر بالأهتمام بالمواقع الأثرية في بغداد . وكانا هذان الصديقان خلال سنواتهما الأخيرة في المدرسة ، يقومان بالتجول بدراجتيهما الهوائيتين حول منطقة واسعة للبحث عن القطع الأثرية والنحاسيات .

ودفعهما هذا الأهتمام بالتحف العائدة للقرون الوسطى إلى الذهاب إلى متحف اشمولين اكسفورد ، حيث قابلا هناك مساعد مدير كيبر بيل ، فرأى أنهما شخصان متلازمان كرسا نفسيهما لنوع من الاكتشافات الأثرية المسجلة في التقرير السنوي للمتحف لعام ١٩٠٦ : «فخلال السنة الماضية نجم عن الحفريات التي جرت من أجل إقامة مبان جديدة في المدينة ، وفي مناطق كلية هارتفورد ، وكلية جيسوس ، وكلية سانت جونز ، نجم عنها اكتشاف العديد من الفخاريات والأكواب التي تعود الى القرنين السادس

والسابع عشر . ويعود الفضل في ذلك إلى الدعم السخي الذي قدمه له والده السيد إدوارد لورنس ، وأيضاً إلى دعم بيسون الذي أمن له بحثاً متواصلاً لكل ماهو ذي قيمة أثرية اكتشف في حينه ، ولكل ما أضيف من أثريات محلية إلى المتحف لقد كان من غير المألوف بالنسبة لمراهقين أن يهتما بعلم الآثار بشغف ؛ فالعديد من الأشخاص الذين اصبحوا علماء آثار محترفين في ما بعد اهتموا بذلك عند بلوغهم الخامسة أو السادسة عشرة من أعمارهم . وكواعين لهذه الحقيقة ، رحب موظفو المتحف بالشابين المتحمسين اللذين كانا راغبين في الأغلب ، في الإنخراط باعقد المهام بتكريس كامل . وبتقديم الإرشاد المتعاطف ، فقد كانت اسهاماتهما في أعمال المتحف مفيدة جداً . وانطبق هذا بالتأكيد على حال لورنس .

وخلال سنواته الأخيرة في المدرسة بدأت عوامل أخرى تؤثر وتصيغ شخصيته ؛ الأول هو العامل الجسدي : فعلى العكس من أشقائه الأربعة توقف عن النمو عندما وصل طوله إلى خمسة أقدام . ومن المحتمل أن هذا القصر كان موروثاً عن والدته ، رغم أنها أدعت بأن ذلك كان بسبب كسر ساقه . إن قصر القامة يمكن أن يؤثر في الشخصية ، وكان لورنس ميالاً إلى التصرف بطريقة غير تقليدية ، ربما لكي يمكن أن يُلاحظ . وبقيت هذه الميزة ملازمة له بشكل أو بآخر طوال حياته . كما أنه طور قوة إرادة مستحوذة ، وعندما كان لا يزال في المدرسة بدأ تجربة اختبارات مفروضة ذاتياً للتحمل الجسدي ، بالمشي لفترات طويلة وقيادة دراجته ، والمكوث لفترات طويلة من دون تناول طعام أو نوم . وقد ميزته هذه الأنشطة كلها عن الفتيان الآخرين .

وكان ثمة عامل آخر دفعه آنذاك إلى أبعاد نفسه عن المحيطين به ، فخلال طفولته المبكرة أدرك أنه كان يوجد شيء ما غير عادي حول ظروف ولادته ، وقد أشير إلى أن شكله هذا أثير أول مرة عندما استمع إلى جزء من محادثة جرت بين والده ومحاميه . ومن المحتمل أنه أضاف تدريجياً إلى معرفته خلال مرور عدة سنوات ، عبر تخمينه الذاتي توصل قبل ان يبلغ العاشرة من عمره ، إلى أنه ابن غير شرعي ، ورغم ذلك فمن المحتمل أنه في مثل هذا السن كان لا يفهم تضمينات ذلك تماماً .

وكان لورنس الوحيد من بين أشقائه الذي اكتشف هذا السر ، وعندما بلغ سن

المراهقة كان لابد ان يصبح أكثر إدراكاً للرفض الاجتماعي الذي يمكن أن يتبع إذ ما كشف عن هذه الحقيقة . وكان محاطاً بتفكير وأخلاقيات أكسفورد التي تمثل العهد الفيكتوري ، حيث يمكن ان يكون الابن غير الشرعي منبوذاً وغير مقبول في المجتمع . وجعلته معرفته هذه دافعاً لخداع والديه ، رغم أنه لم يقل شيئاً لهما أو لأشقائه عما كان يشك فيه .

وكتبت إفادات لورنس حول عدم شرعيته بعد عدة سنوات ، عندما سمع رواية والدته بشأن هذه الحقائق . لذلك فإنه لا يوجد شيء لتبرير الافتراض العام بانه كان يعلم بالقصة كاملة منذ طفولته بل على العكس من ذلك ، فإن هذا دليلاً ، كما يوحي ، على أنه لم يكن يعلم ذلك . وتشير الملاحظات التي كتبها بيل إلى أن لورنس عندما علم قبل الحرب العالمية الثانية بأنه كان ابناً غير شرعي ، كان عليه أن يسيء فهم وضع والديه تماماً .

وتعتبر ملاحظات بيل دقيقة بوجه عام بصرف النظر عن بعض الأخطاء التافهة الواردة في تواريخ الأحداث ، أنها تحتوي على تقدير أو تخمين لورنس لخلفية تاريخ الأسرة ، والتي أشتقت من لورنس نفسه على ما يبدو ، ذلك بأنها غير صحيحة تماماً . وكتب بيل يقول : «ان التفاصيل . . . المتعلقة بهذا : هي أن «الوالد» ، السيد لورنس ، الذي كان معروفاً في أكسفورد ، لم يكن أباً للأولاد في أية حال ، وإنما السيدة لورنس ، التي عرفناها جميعنا . . . كانت والدتهم . . . فقد كانت تعمل مربية في بيت رجل ذي منصب وكان هذا الرجل هو أب الأطفال - أو في الأقل كان أباً لأكبرهم سناً حين تزوج السيد لورنس فيما بعد السيدة لورنس تبنى هؤلاء الأطفال» .

وبما أن والدي لورنس لم يخبراه بشيء بخصوص ذلك مباشرة ، وتصرفا كزوجين عاديين ، فإن ذلك يمكن أن يكون تفسيراً واضحاً جداً للأوهام المتفرقة التي سمعها . وفي الحقيقة ، فإن الحقائق الصحيحة التي أبلغته إياها والدته في عام ١٩١٩ ، من المحتمل ان تكون قد بدت أقل بكثير من الشكوك الكثيرة التي يحتمل أنها طرحت في ذلك الوقت .

ومهما كان مدى معرفة لورنس ، فمن الواضح أنه خلال مرحلة مراهقته عرف بأنه

كان ابناً غير شرعي وقد حرمه هذا من الإحساس بالأمن أو الاستقرار الذي كان يشعر به معظم الأطفال من طبقته الاجتماعية ، والنابع من تاريخ وسلالة أسرهم . ونتيجة لذلك ، فقد كان عليه بناء كيانه الخاص وتقديره الذاتي من خلال انجاز شخصي واستقامة أخلاقية . وعندما أخذ بالاعتبار الوسائل الأخرى التي قد تؤثر في تطوير شخصيته بسبب معرفته بعدم شرعيته ، فقد كان من المهم التذكر بأنه لم يكن ليعتقد ، قبل عام ١٩١٩ ، بأن السيد لورنس لم يكن والده بالفعل . وقد ساعد ذلك في تفسير لماذا كانت ملاحظات لورنس بشأن والديه توحي بأنه كان يشعر بعاطفة تجاه والدته أقوى بكثير مما كان يشعره تجاه والده .

إلا أن وصف لورنس لوالده بالانعزال كان مثيراً جداً للدهشة ، لأن السيد لورنس عاش بوسائله الخاصة ، ولذلك فقد كان غالباً ما يتواجد في المنزل . فبينما كانت والدة الأطفال مشغولة بإدارة بيت كبير ، فإن والدهم كان يقضي وقتاً طويلاً معهم ، وكان مسؤولاً عن العديد من اهتماماتهم التي كانوا يطورونها . ووصف أرنولد لورنس (شقيقه) ذلك بقوله : «لم يكن تأثيره (فينا) مغالياً فيه . وكان مصوراً ماهراً - فآلة تصويره موجودة في متحف أكسفورد للعلوم التاريخية ؛ انه رجل استخدم لأداء ضروب مختلفة من الأعمال - وعلم أطفاله مهنة النجارة ؛ وكان يقوم بشراء أفضل الدراجات الهوائية بصورة منتظمة كل سنة ، ويقوم بقيادتها لمسافة مائة ميل في كل يوم . وكان يتقن اللغة الفرنسية نحوياً ، وعندما تقدم في العمر كان غالباً ما يقتبس من الشاعر الروماني هوراس ليعبر عن عواطفه ومقطعاً من شعر هوميروس (الشاعر الأغريقي) ليعبر عن سعادته . وكان مهتماً بالشؤون الراهنة وهندسة الكنائس ؛ وكان صديقه المفضل هو اينمان ، صاحب مؤلف «بجانب أكسفورد» - وهو دليل ممتاز عن الكنائس - وقد اكتسب لورنس عن والده المهارات والحماسات التي كانت تُعد مهمة جداً في حياته فيما بعد .

وأمتد هذا التأثير الأبوي إلى مدى أبعد بكثير . واكتسب لورنس أوضاعاً معينة تجاه الحياة بحيث أمن ذلك دخلاً سنوياً للأسرة يتراوح بين ٣٠٠ - ٤٠٠ جنيه استرليني (وكان ذلك راتباً مساوياً لدخل أسرة من الطبقة الوسطى) . وكان السيد لورنس ذاته قد نشأ في أسرة من ملاك الأراضي ، فاكتسب منها ازدراء ارستقراطياً للمال وضرورة العمل

من أجل العيش . وبممارسته لضبط جيد في الإنفاق المالي ، كان قادراً على استعادة هذه الأوضاع فيما بعد ، وحولها كلها إلى أبنائه ، وربما كان ذلك بشكل غير واع . وكتب لورنس في عام ١٩١١ قائلا في هذا الصدد : «أخشى أن والدي كان على حق بشأننا وبشأن أعمالنا : بل إن هذا الاستخفاف المثالي بأمور جيدة في العالم له جانبه المشرق . وللقول بأنه كان لديه خمسة أولاد ، لا يجنون مالاً ، سيكون زهواً رائعاً - من وجهة نظري في الأقل» .

وحسب تقليد الطبقات المترفة من الناس ، تعلم السيد لورنس أن يملأ أيامه بالتسليات . وقد أثر هذا الوضع في أولاده ، وكان لورنس يتذكر دائماً العادة الارستقراطية ويحافظ عليها في عاداته وأعماله . وأظهرت حياة الأشقاء الخمسة لامبالاةً تجاه نوع الطموح الحرفي الذي يمكن أن يثير ويحفز الناس الذين هم في وضعهم المالي والاجتماعي ورغم أن لورنس قد روى وتحدث قليلاً عن والده ، فإن القيم التي ورثها عن ذلك الشخص ذي القامة الطويلة ، الدمث ، وغير الفضولي ، كان لها تأثير عظيم عليه .

كان التناقض بارزاً جداً بين والد لورنس ووالدته . وكان أولاد السيدة لورنس لا يعرفون سوى القليل عن أصل والدتهم وخلفيتها ، بل أن لورنس نفسه قد اكتشف في ما بعد أنها كانت ابنة غير شرعية . فقد أحضرت إلى جزيرة سكاي بواسطة عمها ، الذي كان راعياً لكنيسة ابسكوبال باسكوتلنده وكانت فتاة ذكية ومقتدرة ، لذلك تلقت تعليماً عالياً . ورغم أصولها فقد اكتسبت مؤهلات كافية لتقوم بعمل مربية . وأتاحت هذه المهنة مجالات عديدة أمام الفتيات من اسكوتلنده ، إذ أن المربيات الاسكتلنديات كن يلقين تقديراً كبيراً من قبل العائلات الأرستقراطية سواء كان ذلك في بريطانيا أو في الخارج . وكان ذلك من دون شك عاملاً مؤثراً للتشجيع المتواصل من قبل الأم لاتاحة فرص التعليم الأكاديمي لأبنائها الخمسة .

وكانت تعمل لساعات طويلة من أجل الإبقاء على مستويات المعيشة التي كانت تشعر بأنها كانت ضرورية للأسرة . وكان لورنس في رسائله لها يظهر قلقاً واهتماماً كبيرين بذلك ، ويحثها على أخذ المزيد من الراحة . وعكست التضحيات التي قامت بها من أجل تحقيق متطلبات أسرتها قوة إرادة لا تقهر ، والتي طبقتها على نفسها قبل أن

تطبقها على أولئك المحيطين بها . وأدت هذه الهيمنة الشخصية إلى حدوث نزاع مباشر مع ابنها لورنس عندما بدأ مرحلة الشباب . وكان يمقت بازدياد تدخلاتها وتطفلاتها في شؤونه الخاصة ، ولكونه نفسه كان ذا شخصية قوية ، فقد ساء ذلك من العلاقات بينهما . وفي عام ١٩٢٧ ، عندما كان لورنس يعيش منفصلاً لوحده وبعيداً عنها لعدة سنوات ، كتب رسالة في هذا الخصوص يظهر فيها كم كان منزعجاً وبعمق من نزاعه معها أيام مراهقته ، قائلاً : «إنها أم رائعة : بل إنها رائعة جداً . وإنها عنيدة جداً ، ومتمسكة برأيها . واعتقد بأنها كانت كذلك منذ سنوات عديدة خلت ، وربما قبل أن أولد . ولدي شعور بالخوف من أن تعلم أي شيء عن شعوري واحساسي ، أو قناعاتي ، أو طريقتي في الحياة . فإذا ما عرفت ذلك ، فإنه سيكون مدمراً ومنهكاً بالنسبة لي . فأنتم ترون أنها لن تتردد في فهمها ، كما أنني لا أفهمهما أيضاً ، وهي لا ترغب ولا تريد ذلك ، ولا تفكر بأننا ننمو ونكبر ، واعتقد بأنها لم تتنام منذ أن بدأنا نتنامى . . . فقد منحتني شعوراً بالجزع من الأسر وأمورها . رغم ذلك فأنكم ستفهمون بأنها والدتي ، وأنها امرأة غير عادية . ومعرفتي بها تمنعني من التحدث عن أية امرأة أم ، وخاصة بما يتعلق بالأطفال . . . والصراع الداخلي الذي جعلني في حرب داخلية مستمرة ، وهي مسألة محتومة لطبيعة والدي ووالدتي المتعارضة والمتنافرة ، وتأجج القوة والضعف الذي تبع تجذر حياتهما ومبادئهما . فقد كان لا يجب أن يحتملا عبء الأطفال» . إن هذه الرسالة تعكس وتعبر فقط عن مدى شعور لورنس بالمرارة وهو في مرحلة شبابه المبكرة ، وذلك لأنه عاش فيما بعد بعيداً عن منزل الأسرة .

وفي مناسبة ما ومن المحتمل أن ذلك قد حدث في عام ١٩٠٥ ، عندما بلغ التوتر ذروته مع أسرته ، ابتعد لورنس عنها . وقد أشار إلى ذلك في مناسبتين في الأقل قائلاً إن هذا كان «بسبب حدوث متاعب في المنزل» . وقد شكلت هذه الحادثة من دون شك نهاية لاعتماده في مرحلة شبابه المبكر على والدته . وكتب مرة ، إلى صديق له ، أشار فيها الى أن سن السابعة عشرة كان «السن الذي اكتشفت نفسي فيه فجأة وقد يكون عليك أن تبدأ الحياة بصورة بشكل مبكر أكثر ، إذ أن الابتعاد عن منزل الأسرة يُعد تعليماً وخبرة بحد ذاته» .

ولم يكن ثمة أقارب يذهب إليهم لورنس عندما هجر أسرته ، وكانت الخدمة العسكرية واحدة من بضعة سبل يلجأ إليها ، فوضعه مكتب التجنيد المحلي للخدمة في مدفعية الحامية الملكية (وهي جزء من سلاح المدفعية الملكي البريطاني) كجندي وعين في حامية فالموث . وخدم هناك مدة قصيرة ، وكان الجنود الأولاد حينذاك ، الذين تبلغ أعمارهم ما بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة ، يجندون من قبل المدفعية الملكية ليخدموا كنافخي أبواق . وكانوا يتعلمون في فرعي الضرب على الطبل والنفخ في البوق ، وحين يكون الواحد منهم بارعاً ، فإنه يصدر نداءات مختلفة بواسطة البوق تتعلق بتنظيم الحياة العسكرية .

وصدم لورنس من وحشية رجال مدفعية الحامية ، وقال في هذا الصدد : «كل حادثة كانت تنتهي بالنزاع ، وينتهي النزاع بأحكام صارمة ضد المتسببين . . . ولايمكنني تذكر أي استعراض يقام من دون حدوث نزاع أو شجار . وغالباً ماكان يشمل هذا خمسة أو ستة رجال» . ولابد أن تكون هذه التجربة قد بدت أسوأ بكثير من المشاكل الأسرية التي فر منها : «فالزملاء الآخرون كانوا يتشاجرون طوال ليلتي الجمعة والسبت ، وقد افزعوني بقسوتهم» . ويبدو أنه استغاث بوالده من أجل مساعدته ، فأخرج بذلك من ورطته .

إن العديد من المراهقين المتمردين على ذويهم كانوا يفرون من منازلهم ؛ بيد أن ذلك كان نوعاً من الثقة بالنفس بالنسبة للورنس ، ولصراع الشخصيات القوية التي أعاقت حلاً أسهل لهذا التوتر المراهقي ما بين أم وابنها . وكما أن معرفة عدم الشرعية قد لعبت ايضاً دوراً في اتخاذ القرار . وكتب لورنس في هذا الصدد يقول : «لم يكن تفكيري مسالماً وقتذاك ، ذلك أنني لم أجرب كل شيء بعد ، وأتخذ خياري (قراري) الأخير بتسرع» .

وعندما أصبح مشهوراً شددت والدته على مسألة انسجام حياة الأسرة خلال طفولته ، لذلك فقد أنكرت هي وشقيقه الأكبر بأن لورنس فر من المنزل . كما أن لورنس نفسه عرف بوضوح أن ذلك كان يؤذي والدته ، لذا كان يعتذر عن ذكر ذلك لأي واحد من كتاب سيرته الذاتية ، إذ كتب لواحد منهم يقول : «هذا ممنوع ، لن أدعك ترويه . . . وعلي أن أبقيه خارج نطاق الطباعة ؛ فإن كافة القصة ممنوعة ، إذا سمحت» .

وقد طرأ في ذلك الوقت تغير على دراسة لورنس ، وحصل على الدرجة الثالثة لأعلى مرشحين لدراسة الرياضيات في الجامعة ، فقررت مدرسته ايفاده ببعثة تعليمية لدراسة الرياضيات بجامعة أكسفورد . رغم ذلك ، فقد تحول فجأة عندما بلغ الثامنة عشرة من عمرة تقريباً من دراسة الرياضيات إلى دراسة التاريخ ، وأظهرت المراجع من خلال رسائله بأن هذا التغير كان قراراً ذاتياً . فقد كانت تعليقاته على الرياضيات توحي بأنه لم يكن يحبذ دراسة هذا الموضوع ، إذ يقول في هذا الخصوص : «ان متوسط الذكاء بمقدوره أن يتعلم خلال شهر كل علم الحساب الذي يمكن أن يحتاجه المرء فيما بعد ، حتى مماته ، فحوالي واحد من الف شخص يرغب في أن يعرف المزيد . ويجب علي أن أعزل هذه الحالات البغيضة وأحمي الشبان الآخرين كافة من اتصالهم بها . . . ذلك أن العمليات الحسابية ، بالنسبة لي ، من إضافة وطرح وجمع وقسمة تُعد كافية ، فمنذ أن طرحت الرياضيات عني ، لم أعد بحاجة إلى تسجيل الحسابات ، أو حل المعادلات ، أو استخدام الصيغ» . وقد تكون عدم رغبته هذه في الرياضيات عائدة إلى فترة انقطاعه عن المدرسة عندما كسرت ساقه إذ حدثت هذه الفجوة في معرفته بسبب انقطاعه أو غيابه الطويل مما سبب له عجزاً مستمراً في هذه المادة ،ذلك أن دراسة الرياضيات تُعد تراكمية . بيد أن ذلك التحول عكس شيئاً ما أيضاً في تركيبة ذكاء لورنس ، فهو لم يكن منجذباً مطلقاً الى دراسة النظريات المجردة ، سواء أكان ذلك في الرياضيات ، أم الفلسفة ، أم الاقتصاد ، أم السياسة . وبالطريقة نفسها كان يمكن أن يتعلم قراءة لغة أجنبية والتحدث بها فلم يكن يشعر بالحاجة إلى اكتساب معرفة عميقة بقواعدها .

أما الحافز الآخر الذي دفعه إلى أن يغير مادة دراسته لابد أن يكون اهتمامه بتاريخ القرون الوسطى ، والذي تطور من خلال شغفه بالفخاريات والنحاسيات وعلم الآثار . وخلال السنة الأخيرة من وجوده في المدرسة قرأ كتباً في التاريخ استعارها له والده من مكتبة اتحاد أكسفورد ، كما انه تلقى عناية ودروساً خاصة من ل . جان ، عالم التاريخ الذي ناسب اتجاهه غير التقليدي لورنس تماماً .

وتقدم في صيف عام ١٩٠٦ إلى امتحانات القبول في جامعة اكسفورد ، وهي خطوة ضرورية لدخول الجامعة . وبينما كان ينتظر نتيجة الامتحان قام برحلة على دراجته

الهوائية إلى مقاطعة برتياني لزيارة القلاع والكنائس التاريخية فيها . وكانت تلك أول مرة يغادر فيها إنجلترا بمفرده ، إلا أنه كانت لديه بعض التحفظات لأن إقامته ستكون في منزل أسرة سيفنون في «دنيارد» . وكان شقيقة الأكبر «بوب» قد زارهم كضيف دافع الأجر في الصيفين الماضيين ، وكان على لورنس أيضاً ان يتبع معهم القاعدة نفسها . وعزم على قضاء اسبوعين هناك مع صديقه في المدرسة ، بيسون ، والعودة إلى إنجلترا في منتصف آب . ورغم ذلك ، فقد مُددت زيارته بسبب أمور شغلته ، ومكث هناك مدة أسبوعين تقريباً بعد مغادرة بيسون .

وكان يبعث برسائل منتظمة خلال زيارته تلك ، وبلغ عدد الرسائل التي أرسلتها نحو عشر رسائل احتوت على أكثر من عشرين ألف كلمة وقد وفرت تلك الوثائق في حينها الكثير جداً عن شخصية لورنس عند اتمامه الثامنة عشرة من عمره ، أكثر مما شكلته تذكراته للأسرة والأصدقاء فيما بعد . وكانت توجد ملاحظات في تلك الرسائل تتضمن علاقاته مع أعضاء أسرته ، وتعليقات توضح الأوجه المختلفة لتطور شخصيته ؛ ومقدار كبير من المعلومات التي تستعرض قدراته المختلفة ، واهتماماته واراءه .

وقد بدت هذه الرسائل أول وهلة غير شخصية بشكل لافت للنظر ، وهذا في حد ذاته لابد وأن يكون انعكاساً لعلاقة لورنس مع أسرته فقد أبلغ والدته في إحدى رسائله قائلا : «تريدين معرفة المزيد عني ؛ فليس لدي في الحقيقة شيء أقدمه» ، وفي رسالة أخرى يقول ثانية ،«لن يكون ثمة شيء خاص أو ارشادات عائلية (في هذه الرسالة) ، رغم أنه لم يكن يوجد شيء من هذا القبيل في أي من رسائلي السابقة وحتى الآن» . وعندما كان يخاطب والده في رسائله يقول له «أنها لا تختلف (هذه الرسالة) بأي شيء في أسلوبها عن سابقاتها ، إذ أن جميع رسائلي تحتوي على المعلومات الشخصية نفسها عني . فالبناءات التي احاول ان أصنها ستنتهي بصورة اطول مما نرغب ونشاء ، لذلك فإنها ملائمة فقط لأن تكون لها مساحات أكبر» .

وبالرغم من هذا التحفظ فقد أظهر لورنس مقداراً كبيراً من العاطفة البنوية والكثير من القلق حول صحة والدته . وكانت ثمة إيضاً رسائل ترد إلى والديه من معارف لهم عندما كانوا يعيشون في دينارد ، قبل اثنتي عشرة سنة مضت . وكانت بعض فقرات

رسائل لورنس تعكس مدى تربيته وتنشئته . فقد كان والده من البروتستانت الملتزمين بقوة ، لذلك فليس من المستغرب أنه وجد أهل بريتاني «جهلة وخاضعين لسيطرة الكهنة» . وكان تأثير والدته متجلياً في نواح أخرى . فأسرته كانت ممتنعة تماماً عن شرب الكحول لذلك فقد كره شربها ، وكان يلاحظ ، مثلاً الثمالة أو السكر في دينارد فيقول : «أن كل واحد يقوم بخلط الكونياك مع عصير التفاح ، فيصبح ثملاً حتى الجنون وبشكل مخيف» . وكان ينفق المال بدقة وعناية فائقتين هناك ، وقد قال في هذا الصدد : «أخشى بأنني سأكون مفلساً في إنجلترا ، ولقد نسيت كم سيكلف نقل أمتعتي إلى المحطة عندما ابقيت على بعض المال في جيبي . . . وعليّ أن أغير هذا الأسلوب وأن أحمل أمتعتي إلى المحطة ، ويمكن أن يكون هذا نهجاً أسهل» .

كان والد لورنس يشجعه على الاهتمام بالأحداث السياسة الراهنة آنذاك ، وتكشف عدة تعليقات في هذا الخصوص وجهة نظر الأسرة تجاه حزب المحافظين وتأييده ، فعلى سبيل المثال كان : «المحافظون يهتمون بالعاطلين عن العمل ، لذلك فقد منحتهم تأييدي ومساندتي» . وبالاشارة إلى رسائله لشقيقه الأكبر فقد كانت تنم عن احترام أقل : «يقول الناس هنا بأنني أنحف بكثير من بوب ، ولكنني أقوى ، وإن نبرتي أفضل . إلا أن ضخامة بوب ما زالت في نظرهم أفضل بكثير من نحافتي» .

وكان بوب يعتنق مذهب والدته الديني ، ويأمل بأن يصبح طبيباً في بعثة تبشيرية . وكان في ذلك الوقت على وشك التخرج من كلية سانت جون بأكسفورد ، ويسعى إلى نيل شهادته الطبية . ومن المحتمل أن اهتماماته الأكاديمية كانت الأقل بين أشقائه ، وقد كتب لورنس حول هذه المسألة بقول «إنه رفيق غريب من نوعه ، فأنت لن تستطيع حثه بأي شيء . . . فهو يثار داخلياً ، وليس خارجياً . ووجهه يشع دائما كمصباح» . لذلك فقد كان بوب هدفاً سهلاً جداً .

أما الشقيق الثالث للورنس ، وهو ويل ، فقد كان يصغره بستة عشر شهراً ، وكان الاثنان على وئام تماماً . وبينما كان في أجازة ذاك الصيف ، بلغ هضبة صغيرة أو رابية ، فكتب إلى لورنس يسأله فيها عن كيفية القيام بالحفر والتنقيب فيها . وكان الرد مفيداً رغم أنه مليء بالنصائح المازحة . وانتهى بصورة مشجعة بقوله : «دعني أعرف مدى

التقدم في ذلك . . . فحافظ على تقدير وتخمين دقيقين . . . وضع إشارة على كل نقطة مهمة تجدها . ولك تمنياتي الصادقة بالنجاح . . . ولا تتخلى عن ذلك فوراً ، إذا لم تجد شيئاً . فالحفريات تُعد تمريناً ممتازاً . وكان فرانك ، شقيقه الرابع ، يبلغ من العمر آنذاك ثلاثة عشرة عاماً مما جعل فرق السنوات الخمس بينهما يمنع من تطوير علاقة صداقة وثيقة بينهما . رغم ذلك فقد كان أرنولد (فرانك) ، ما زال طفلاً ، ولورنس يشعر تجاهه بعاطفة الأبوة ، كما عكس ذلك في رسائله في الأغلب .

وكان لورنس أيضاً يجد متعة بالغة بوضوح في القيل والقال أو نشر الإشاعات وقد وصل بعضها إلى مسمع والدته ومنها : «ان سؤال الخادم دقيق جداً ؛ فهم يأخذون نسباً لكل شيء كانوا يشترونه وهذا يرفع من الأسعار . وتقول السيدة بورفيس إنها إذا ما اشترت بقيمة فرنك من الخضروات من امرأة عند باب البيت ، فإن الخادم الذي سيذهب لاحضاره سيطلب عمولة لقاء ذلك» . فهذا الانصات الى اللغو والثرثرة كان يبدو سمة من سمات شخصية لورنس . واستمرت كذلك طول حياته وكانت عاملاً مساعداً بطريقة فضولية عندما بدأ بالسفر خارج الوطن . فأي غريب كان يريد أن يُقبل في أي مجتمع أجنبي ينبغي عليه أن يدخل ضمن نطاق وروح الإشاعة والقيل والقال . وبعد بضع سنوات ، وبينما كان يشرف على عمال عرب ، ساعدت معرفته بفضائح أسرهم على جعله مشهوراً . وكان عليه خلال الحرب العالمية الأولى أن ينصح الضباط البريطانيين الذين كانوا يخدمون في الجيوش العربية بأن يعلموا كل ما أمكنهم علمه . . . «أن يعرفوا كل شيء عن أسرهم ، عشائرهم ، قبائلهم ، أصدقائهم وأعدائهم ، آبارهم ، جبالهم ، وطرقهم . وأن يفصلوا كل ذلك بالاستماع إليهم ، وبالاستعلام غير المباشر . وأن لا يطرحوا أسئلة في هذا الشأن» .

كما أظهرت رسائله في عام ١٩٠٦ أيضاً بأنه كان يمارس أعمالاً استفزازية تجاه الناس . وكانت هذه ميزة طويلة الامد بالنسبة إليه . كما أنه شغف بالعبارات والبيانات الصاخبة والمدوية ، وأحب بأن يصطدم (وخاصة إذا ما كانت النبرة الماكرة الخبيثة أهدأ كثيراً) . وتحتوي رسائله على تخمينات وتقديرات شخصية لاذعة ، ويقول عن صديقه توبي بورفيس في هذا الصدد : «نسيت أن أذكر نظراته الشزرة . وهو ذكي جداً في جعل

نفسه مسروراً ، ويكتسب عادات جيدة ، بسبب قوة ملاحظاته ؛ بيد أن الكثير من سروره يكمن ، كما أتوقع ، في السطح ، ويظهر للغرباء فقط . وسيكون متمتعاً تماماً بدفعة واحدة فقط ، كما اعتقد» . فهذا الأسلوب من الأحكام في رسائله يظهر درجة من الغرور الشبابي ، وقد يعكس أيضاً تربيته وتنشئته ؛ رغم ذلك فإن قدرة لورنس على تقييم الشخص بسرعة ودقة قد برعت في ما بعد خلال دوره في الثورة العربية .

ومع أنه كان مدركاً باستمرار لمكانته القصيرة هذه ، فقد تملكه الغرور في قوته ، وكان يبدو مسروراً عندما يوجد معجب ما : عندما علم (السيد لويس) بمهارة قيادتي للدراجة ، فقد أعلن بأنني كنت قوياً جداً ، وأنني ورثت ذلك عن مهارة والدي . . . صرت مغروراً بنفسي» .

«ان السيدة شايفنون قد فوجئت عندما رأت عضلاتي وأنا استحم . إذ أنها ظنت بأنني هرقل» . ويقول ثانية : «إن عضلات ساقي تشبه الفولاذ الآن ، لذلك اتوقع بأنني سأسر والدتي عند عودتي وأصبحت أبدو أسمر كثمرة التوت .

وبدأ يجد نفسه نباتياً في غذائه . ولكن هذا لم يكن بسبب تشجيع من مضيفيه ، اذ يقول في هذا الصدد : «تقول أسرة شايفنون بأنني سأقتل نفسي اذا لم آكل المزيد من اللحم وان جميع النباتيين يذهبون للقبر مبكراً ، مع أنني لست نباتياً» . إلا أنه خلال السنوات الثلاث التالية اتبع التغذية النباتية بشكل جاد ؛ مما شكلت مظهراً من المبدأ المثالي الذي يطغى كثيراً على تفكيره .

وكشفت رسائله من حين لآخر عن جانب رومانتيكي قوي في طبيعته فمن أحد النصوص الأدبية الإنجليزية التي أرسلها إلى شخصيات محلية كبيرة كانت أوراقاً تحتوي على أشعار تنيسون . وفي ٢٦ آب أرسل إلى موطنه سلسلة من الفقرات الوصفية الشعرية ، كان معظمها لتنيسون وشيلي ، ليصف بواسطتها مشهد البحر عند حلول المساء في «دينارد» . واستمر يقول في رسالته : «لابد أنكم تعذروني في الحقيقة لهذه الاقتباسات الشعرية ، بل أن عليّ أن أمارس عادة اقتباس أية أبيات ملائمة من الشعر لنفسي ، واعتقد بأنني سأدونها هذه المرة في سجلاتي . . . فالبحر كان ذا زرقة عجيبة

أحياناً هنا ، وكل شيء كان كاملاً ؛ ولم يكن يوجد أي واحد غيري . وهذا يقدم متعة إضافية إلى متعة المرء بالطبيعة وجمالها الشجي ؛ وكل هذا المشهد مسخراً لي لوحدي : أنه ساحر عجيب لما يعكسه ، ويمكنني أن أتمنى فحسب أن يكون تفكيري منفتحاً أكثر وعواطفي مؤثرة بعمق أكثر . وتحتوي الطبيعة على روح وقوة يمكننا أن نشاهدهما ولكننا لانزنهما ، وعلى تخيل لا يمكننا إدراكه ، وحب غير محدود ، وخيال دائم ، وعلى حب وتعابير يتعذر استئصالها» . وتبدو مثل هذه الفقرات غريبة عندما توضع إلى جانب الأوصاف المجدبة للقلاع والكنائس التي تغلب على مقدار هذه الرسالة وحجمها . ورغم ذلك كان لورنس في ذلك الوقت يقرأ كتاب «حجارة البندقية» لروسكين ، وقد تكون فحوى رسائله تقلد هذا الكتاب من دون إدراك ، والذي تتغير فيه البلاغة مع التقييمات الفنية للهندسة الفنيسية .

واصبحت حماسة لورنس أنذاك نحو التاريخ ، مما أدى به الى اتباع اتجاهات جديدة . وكانت نقطة بدايته الاهتمام بالنقوش الموجودة على النحاسيات التذكارية للقرون الوسطى . فمنها كان يشتق ويستقي تفاصيل عن العادات ، والشعارات ودروعهم الحربية ، والصور والنقوش المرسومة على القبور . وبحلول عام ١٩٠٦ أصبح مهتماً في كل مناحي عالم القرون الوسطى . واكتسب من خلال مطالعاته المكثفة معرفة بالعلاقات مابين الكنائس ، وقطع السيراميك ، والعادات ، والهندسة العسكرية . وكما لاحظ بيسون : « فإن النحاسيات والطرق الجانبية المفتوحة إلى تاريخ القرون الوسطى أكدت تركيزاً تدريجياً لاهتمام لورنس في تطور الهندسة القوطية وتصميم الأبنية العسكرية بشكل خاص» . وأصبحت شغله الشاغل وقتذاك معرفة أفكار ومصممي هذه الأعمال الدفاعية والمدى الذي اختبر فيه التاريخ نياته . ولم يكن ذلك اهتماماً عشوائياً . وغالباً ما كشفت رسائل لورنس لعام ١٩٠٦ عن ملاحظاته المفصلة والمنضبطة والمعرفة التي تكمن وراءها .

ومع أن لورنس أصبح آنذاك مصوراً مؤهلاً ، فلم يجد من الضرورة أن يأخذ آلة تصوير معه في رحلاته ، معتقداً بأنه سيكون من الصعب عليه حملها على دراجته مع أمتعته الأخرى كافة . وعندما حول نظره عن ذلك ،فقد تحقق لديه أن أشياء أخرى كانت لا

غنى عنها أكثر ، وتأسف على أنه اعتمد على الصور التذكارية التجارية (البطاقات البريدية) .

وذهب بدراجته الهوائية في ذلك الصيف الى مسافات كبيرة ، وشعر بانه قادر على قيادة الدراجة لمئات الأميال في كل يوم (وذهب برحله من دينارد الى فوجريس ذهاباً واياباً ، قطع خلالها مسافة ١١٤ ميلاً) . بيد أن قيادة الدراجة الهوائية لها وسائلها المحددة ، فلاحظ ، ان الدراجة النارية ستكون مفيدة من أجل الوصول الى الأماكن الأثرية المحيطة .

وقد تلقى نتائج امتحان قبوله في الجامعة بينما كان لا يزال في دينارد . وأظهرت القوائم الصادرة لنتيجة الامتحانات أنه وضع في المرتبة الأولى ، كما كانت نتائجه في الثانوية قبل عامين ، فالعلامات التي حصل عليها أظهرت أنه كان من بين ٤٦٤٥ مرشحاً للقبول ، حصل فقط اثنا عشر مرشحاً على أعلى مجموع أو معدل . وحصل على المراكز الأولى . إذ حصل على المرتبة الأولى في اللغة الإنجليزية وآدابها (٤٣٩ درجة) ، كما حصل أيضاً على الدرجة الثالثة في العلوم الدينية (١٨٣ من ٢١٦) . وكانت النتائج الجيدة الأخرى كالتالي : علم الحساب (٨٤ من ١١٠) ، التاريخ (١٩٣ من ٢٦٢) ، اللغة الفرنسية (٢١٤ من ٢٧٨) . وكانت علامته في الاقتصاد السياسي (١٧١ من ١٩٤) ، وكان ترتيبه الثاني فيها ، بل أن جميع المرشحين قدموا بشكل سيىء ، ولم تجر هناك مقارنات في الدرجات . وحصل في اللغة اللاتينية على (١٩١ من ٤٥٩) ، وفي اللغة اليونانية على (١٩٣ من ٤٣٠) ومن الممكن أن يعكس هذا موقفه من القواعد اللغوية . وكان مجموع علاماته في الرياضيات (الجبر والهندسة) ضعيفاً جداً ، اذ حصل على (٧٩ من ٢٣٩) .

وعندما علم لورنس بنجاحه والعلامات المميزة التي حصل عليها كتب يقول : «لم تكن النتيجة جيدة برمتها كما أملت ، مع أنني قانع تماماً بعلامتي باللغة الانجليزية . واستغرب فيما اذا كان يوجد أي احتراف في معرفة المرء للغته . . . وكنت آمل بأن أحصل على علامة أكبر في اللاهوت (العلوم الدينية) . ولم تكن علامتي في الاقتصاد السياسي مفاجأة لي . . . أما في اللغة الإنجليزية فإن المقالة التي كتبتها عن الحضارة المادية في عام ٢٠٠٠ قد فشلت» . وكانت فترة الخريف لتحضير الدخول إلى الجامعة

بشكل رئيس بالنسبة للورنس ، مع انه أيضاً ربح جائزة المقالة المدرسية في الموضوع «مستعمراتنا» . وحاول الحصول على منحه دراسية في كلية سانت جون ، إلا أنه علم في أوائل شهر كانون الأول بأنه لم ينجح في ذلك . وفي شهر كانون الثاني ١٩٠٧ دخل امتحانات كلية جيسوس (الكلية اليسوعية) ، وأصبح مؤهلاً للحصول على جائزة ويلز . فقد كان لورنس مرشحاً قوياً وأظهر في مقابلاته أنه يمكنه التحدث مع السلطات حول الخزف ونحاسيات القرون الوسطى . ففاز في معرض ميريك ، وحصل على خمسين جنيهاً استرلينياً في السنة ، لجائزة التاريخ الحديث .

وخلال عطلة عيد الفصح ربما لتنبهه إلى أنه كان ذاهباً إلى الكلية بعضوية كبيرة من ويلز في رحلة على دراجته لمشاهدة قلاع ويلز ، فزار قلاع ديناس بران ، هارليش ، سيبستاو ، سيربيلي ، ودير تنتير وراغلان . وكتب عن ويلز يقول : «بعد قضاء عشرة أيام في ويلز أصبحت قادراً على تلخيص كل شخصياتها ، عاداتها ، وميزاتها ، مناقبها ، عيوبها ، وغيرها من خصال شعب ويلز ورغم ذلك يؤسفني بأنه لا يمكنني قول ذلك ، إذ أنهم بدو لي فضوليين وأكثر قذارة ، وبشعين على نحو مفرط . إلا أنني أكتشفت أخيراً ، خصلة وطنية فيهم ، فهم في الوقت نفسه يبدون مواطنين شرفاء ؛ فلم أتعرض لابتزازات هناك » .

وترك لورنس مدرسة أكسفورد العليا في نهاية تموز عام ١٩٠٧ . وكان يبلغ من العمر آنذاك تسعة عشر عاماً . وقد ابدى بعد عدة سنوات ملاحظة تشير الى أنه تلقى تعليماً ضئيلاً جداً» هناك في ذلك الوقت ، وكان سيئاً جداً ، ومملاً جداً . وقد أبلغ كاتب سيرته الذاتية ، ليدل هارت ، بأنه وجد المدرسة «بغيضة ومضيعة للوقت ، وقد كرهتها وازدريتها» . ويبدو أنه كان ثمة تناقض بين هذه التصريحات وانجازاته المدرسية ،وربما تفسر بتعليق آخر منه مستعيداً فيه تلك الأحداث بقوله : «أنهم يستنزفون سنوات أولئك «الاولاد» كثيراً جداً . وبالنسبة لي فإنها كانت سنوات تعسة من عمل غير مرغوب فيه : وعندما ذهب بعد ذلك إلى جامعة أكسفورد ، فقد بدت الحرية الجديدة التي شعرت فيها كالجنة . ولا أعتقد بأن الرجال يعملون بشكل شاق كما كان الفتيان يعملون (مالم يكونوا يعملون لأجل أنفسهم) ، ولا اعتقد بأن تعاسات الأحاسيس والشعور المتنامية كانت كتلك التي تعرض لها الفتيان» .

الفصل الثـــاني

المرحلة الجامعية: جامعة اكسفورد

من تشرين الأول ١٩٠٧ إلى كانون الأول ١٩١٠

دخل لورنس جامعة أكسفورد في ١٢ تشرين الأول ١٩٠٧بوصفه طالباً يتلقى إعانة تعليمية من الكلية اليسوعية. ولأنه عاش في هذه المدينة (مدينة أكسفورد) مدة أحد عشر عاماً فمن الممكن أن تكون حياته هناك أقل صعوبة من معظم زملائه الطلاب. وكان شقيقه الأكبر بوب قد دخل آنذاك كلية سانت جون ،وكان على لورنس أيضاً، الذهاب إلى هذه الكلية، في عام ١٩٠٩.

لقد كانت تكاليف تعليم ثلاثة شبان (مع وجود اثنين آخرين أصغر سناً سيتبعونه بالدراسة في ما بعد) حملاً ثقيلاً على ميزانية أسرة لورنس. وبما أن لورنس لم يكن بمقدوره أن يغطي نفقات الإقامة تماماً في الكلية فقد استمر بالعيش في منزله. وكان هذا القرار من ناحية مؤشراً بشكل كبير على وضعه الجامعي. فقد تعلم الطلاب على المعيشة في مناخ الكلية وبيئتها بشكل مقرب، بيد أن لورنس لم يشارك تماماً في هذه الحياة الجامعية. إضافة الى أنه لم يشترك في أي نشاط رياضي جامعي أو أية أنشطة أخرى في الكلية خلال السنوات الثلاث التي قضاها فيها. وشأنه شأن العديد من الطلاب الجامعيين الموهوبين، فقد ركز لورنس على دراسته وانتمى إلى تلك النخبة المفكرة من الدارسين والطلاب المتلقين لمعونات جامعية، الأمر الذي كان أقل شيوعاً بالنسبة لجماهير الطلبة في عام ١٩٠٧ عما هي عليه الحال اليوم. ولم تكن العديد من الأسر الثرية في عصره ترى في تحقيق انجاز أكاديمي هدفاً رئيساً من دخول الجامعة.

ومنذ البدء، كانت اتصالات لورنس الأكاديمية الرئيسة تجري خارج الكلية فمرشده الرئيس، ريجينالد لان بول، كان استاذاً في كلية سانت جون كما أن لورنس واصل أيضاً الأتصال كثيراً بالأستاذ ل. جان، مع إنه لم يواصل التعليم المنتظم معه الى وقت قصير

من الأمتحانات النهائية . وقد اكتسب من خلال أنشطته الآثارية أصدقاءً في اشمولين ، أبرزهم س .ف . بيل ، ومن شهر آذار فصاعداً ، كان ثمة ي .ت . ليدز ، وهو مساعد دراسي جديد . كما أصبح لديه أيضاً أصدقاء في جامعة أكسفورد ، مثل بيسون ، رغم أنه لم يكن لديه أصدقاء في الكلية اليسوعية (جيسون) سوى ي . ف هول . ولهذه الأسباب جميعها فإنه من غير المحتمل أن يكون لورنس قد قضى الكثير من الوقت في الكلية خلال أول فصلين دراسيين ، وخاصة لأنه كان مشغولاً بالامتحانات الجامعية . رغم أنه كان من المحتمل تماماً أن التركيز على الدراسة الأكاديمية في المنزل صعب ، إذا أن المنزل كان مشغولاً من قبل اشقائه الثلاثة الأصغر منه . لذلك ، فإنه في الفصل الدراسي الصيفي لعام ١٩٠٨ ، انتقل إلى الإقامة في غرفة بكلية جيسوس . وهناك فقط أقام صداقات مع زملائه الطلاب تحت التخرج .

ونظراً لأن سلوك الطالب يُعد غير تقليدي ، فلا يوجد الكثير من الأمور الخاصة التي تستحق الذكر بالنسبة للورنس . فخلال ذلك الصيف الذي قضاه في الكلية كانت تسليته المفضلة التجديف في قارب على جدول تريل ميل ، الذي يمر تحت شوارع أكسفورد ومثله مثل العديد من الطلاب الجامعيين ، فقد كان لورنس غريب الأطوار . ويتذكر أحد الدارسين البارزين آنذاك ، وهو أ . ت . ويليامز ، الذي أصبح فيما بعد مطران وينشستر ، انه كان يتقابل مع لورنس في ساعة متأخرة من الليل ، وهو يتجول في ساحة كلية جيسون . ويقول في هذا الصدد : «لا أدري متى كان يذهب للنوم» . وهناك معاصر آخر للورنس ، وهو أ .ج . برز ــ جونز ، كتب يقول بأن لورنس «كان يجلس مشبكاً ساقيه على الأرض ويفسر بهدوء بأنه لم يجلس على كرسي أبداً ، وأنه لم يكن يطلق العنان لنفسه أبداً في الوجبات الغذائية المعروفة كالافطار والغداء والعشاء وشرب الشاي ، كما أنه لم يكن يدخن أو يشرب الكحول ؛ بل أنه في الحقيقة لم يكن يقوم بأي شيء يؤهله لأن يكون عضواً عادياً في المجتمع . وكان يضيف ضاحكاً ، بأنه ليس لديه اعتراض على قيامي بأي من هذه الأمور» .

وكان ثمة مظهر من مظاهر الحياة لجامعية قد تغير وراء الاعتراف منذ أيام لورنس ؛ وهو طبيعة العلاقات والسماح بها بين الجنسين فرغم أنه كان يوجد عدد قليل من

الطالبات الأناث في كليات جامعتي اكسفورد وكامبريدج ، فقد كانت الفرص ضئيلة للاندماج بحرية ، كما أن إقامة صداقات عاطفية حميمة خلال سنوات الدراسة الجامعية لم تكن تلقى تشجيعاً قوياً أنذاك . وقد شكلت هذه التغييرات جزءاً من موقف أوسع تجاه العلاقة ما بين الرجال والنساء والتي كانت مقبولة عموماً ، ومن الممكن بسهولة ان تبرر كاستجابة منطقية وعقلانية للتقدم في الطب . رغم أنه لم تكن هناك بعد أساليب مضمونة لمنع الحمل سوى الامتناع عن القيام بالممارسات الجنسية ، مما أوجد أطفالاً غير شرعيين بشكل كبير ، وبخاصة بين الطبقتين الوسطى والعليا في المجتمع . ونتيجة لذلك ، فإن التأكيد على الحياة الزوجية كان منصباً على مناقب العشرة (الرفقة) بدلاً من الممارسة الجنسية . وتلقين الشباب بأن الفتيات ملائمات للاعجاب الرومانتيكي فحسب ، وإن إشباع الرغبة الجنسية يُعَد إثما . واستذكر لورنس أن واعظاً مختاراً في جامعة أكسفورد ، كان يعظ في إحدى الأمسيات حول الانغماس في الملذات الجنسية . وكان لورنس يعكس باخلاص العديد من وجهات نظر جيله عندما كتب فيما بعد بشكل قاس ينتقد أولئك«الذين يعتبرون عملياتنا المنتجة مضحكة وليست متعة حيوانية ، وإنما كعمل رئيس للحياة» .

وجرى تعليم الشبان من الطبقات الحاكمة بأن الامتناع الجنسي بوجه عام سيؤهلهم للقيام بواجباتهم ؛ فالعلاقة الأخلاقية ستقع على عاتق أولئك الذين يمكنهم مقاومة الإغراءات التي ينغمس فيها الآخرون . وأساس وجهة النظر هذه جاء مباشرة من المسيحية البروتستانتية التي كان يتقبلها لورنس بكل جوانحه . فقبل ذهابه إلى جامعة أكسفورد كان عليه التعلم بمدرسة سانت الديت الدينية ، والخدمة أيضاً في كنيسة لادز بريجيد . وواصل أشقائه تلقي علومهم الدينية الأسبوعية على يد كانون كريستوفر في منزله ، لأنه تقاعد من مدرسة سانت الديت في عام ١٩٠٥ .

وخلال السنوات الثلاث من دراسته الجامعية مارس لورنس عملية نكران ذات بازدياد ، مستعرضاً ومطيلاً حدود قدراته الجسدية . وكان يحاول البقاء مستيقظاً لفترات طويلة ، ويقوم بتجربة الصوم . وفي حين أنه لم يشترك في أية رياضة رسمية ، فانه بنى قدرة على الاحتمال بواسطة قيادة دراجته لمسافات طويلة . كما أنه لم يخف رغبته في

أخضاع جسده لإرادته . ويستذكر ي . ف . هول ، من الكلية اليسوعية (جيسوس) بقوله : «انه جاء (لورنس) إلى غرفتي في إحدى الامسيات . . . وبدأ باطلاق النار من بندقيته ، ولحسن الحظ كانت اطلاقات الخرطوش تتطاير عبر النافذة . . . وبنظرة واحدة الى عينيه لم أجد شكا في أنه كان يتكلم الحقيقة ، عندما قال بأنه عمل مدة خمسة واربعين ساعة من دون أن يتناول طعاماً ، ليختبر قدراته على التحمل» .

وبحلول شهر حزيران ١٩٠٨ ، وكان ذلك في نهاية السنة الأولى من دراسة لورنس الجامعية بأكسفورد ، شكل أساتذته فكرة جيدة عن كفاءته الأكاديمية . فبالنسبة للامتحانات النهائية في مادة التاريخ كان عليه أن يتقدم بأوراق بحث مختلفة (حلقة بحث) ، وأن يختار أيضاً واحداً من عشرة مواضيع خاصة بديلة . وهذا الخيار ما كان ليتقدم حتى منتصف شهر تشرين الثاني ١٩٠٩ ، إلا أن لورنس بدأ استعراض هذه المواضيع قبل ذلك بمدة طويلة . وبدا أنه كان مغرماً ، أول وهلة ، ببحث التاريخ العسكري والاستراتيجية . وكان هذا امتداداً طبيعياً لحماسته للهندسة والاستراتيجية العسكرية ؛ وقد أبلغ ليدل هارت بأنه كان مهتماً في هذا الموضوع منذ أن كان في المدرسة . وفي جامعة أكسفورد قرأ بعض الدراسات الفرنسية عن حملة نابليون الإيطالية ، ومن ثم استعرض حملاته وإنجازاته ، في سلسلة من المجلدات تقدر بحوالي خمسة وعشرين مجلداً . إلا أن اهتماماته كانت منصبة بشكل رئيس على تاريخ القرون الوسطى .

وعندما كان يثير اهتمامه أي موضوع ، فانه يدرسه بكل طاقته ؛ بل أن عمله يكون مؤثراً فضلاً عن أنه غير عادي . وكتب ل . جان ، الذي كان يعرف تماماً القدرات الأكاديمية للورنس مثل بقية أساتذته ، فيما بعد يقول : «لقد وجدت خلال أسبوع أو اسبوعين . . . أن اهتمامه كان منصباً بشكل رئيسي على دراسة تاريخ القرون الوسطى . . . ولم يكن لورنس منكباً على قراءة الكتب ، مع أنه كان يقرأ بسرعة وبمقدار كبير : ولا يجب علي أن أدعوه بالباحث أو الدارس ، وان ميزة عمله الرئيسة كانت دائما غير عادية من دون بذل جهد لتكون كذلك» .

وفي عام ١٩٠٨ قدم فاحصو (أساتذة) التاريخ الحديث خياراً جديداً تتيح للمرشحين (الممتحنين) أن يقدموا أطروحة (على بعض الأسئلة ضمن أي موضوع خاص يقدم من

قبلهم في الامتحان . فاذا ما اختار لورنس «التاريخ العسكري والاستراتيجية» كموضوع خاص له ، فإنه سيكون قادراً على استعراض معرفته بالاستراتيجية العسكرية للقرون الوسطى بشكل معمق ، سواء كان ذلك في الطرح أم في الإنشاء .

ووفقاً لذلك ، ذهب في صيف عام ١٩٠٨ في أطول رحلة على دراجته إلى فرنسا ليقوم بفحص قلاع وحصون القرون الوسطى هناك . وكانت الدراجات الهوائية (التي يمكن حملها بالقطارات ايضاً) قد أحدثت ثورة في السياحة الأوروبية آنذاك ، لذلك فإن رحلة لورنس تلك لمسافة ٢٤٠٠ ميلاً لم تكن استثنائية . فقد عبر إلى لو هافر ، واتبع طريقاً أوصله إلى معظم القلاع الأكثر أهمية التي لم يزرها من قبل .

وأظهر من خلال الرسائل التي بعث بها الى أسرته انه وجد تلك الرحلة ممتعة جداً ، رغم حقيقة انه كان يقود دراجته لمسافات طويلة في كل يوم وتحت حرارة شمس الصيف . وكتب يقول : «أنني أقود دراجتي بقوة فائقة ، وأشعر بلياقة تامة ، بسبب اقتصاري على تناول الخبز والحليب والفاكهة . . . وأبدأ رحلتي ومعي كمية من الحليب والخبز والفاكهة التي تكفيني حتى المساء ، وعندما يستهلك الطعام : فالمرء يأكل كثيراً عندما يسير بدراجته لمدة اسبوع ويتوقف في أي مكان . وأبدأ يومي مبكراً (لان الحر مزعج جداً في منتصف النهار) ، وغالباً ما يكون ثمة قصر فرنسي اقطاعي قديم استطلع فيه من الساعة ١٢ ـ ٢ ، ومن ثم أصل الفندق في الساعة السابعة أو الثامنة مساءً . وليس لدي وقت لارتياد الأماكن العامة : ففي الحقيقة أتساءل أحياناً عما اذا كانت أطروحتي ستكتب في شهر تشرين الثاني هذا أم في الشهر القادم ، وأجد نفسي مضطراً لتنظيم أوراقي وكتاباتي في أثناء قيادتي الدراجة» .

وبعد أسبوعين من التنقل ، وصل إلى شاطىء المتوسط في اغيوس ـ مورتز ، وكتب إلى أسرته يقول : «لقد استحممت في البحر اليوم ، والبحر العظيم ، بل الأعظم في العالم . . . وأشعر في نهاية المطاف بأنني قد وصلت إلى الطريق التي تؤدي الى الجنوب ، والى بلاد الشرق الرائعة كافة ؛ اليونان ، قرطاج ،مصر ، صور ، سوريا ، إيطاليا ، إسبانيا ، صقلية ، كريت . . . انها كلها تقع هناك ، وجميعها ضمن المتناول (سهل الوصول إليها) الآن آه ينبغي على أن أذهب قدماً إلى هناك . ففي الحقيقة ، أن الوصول إلى البحر قد

قلب رأساً على عقب توازني الفكري والعقلي : فلابد أن اقوم برحلة إلى اليونان غداً» .

ومع هذا ، فبدلاً من أن يفعل ذلك ، فقد اتجه إلى الغرب ليواصل رحلته . وفاق مشهد مدينة كاركاسون المسورة كل توقعاته ، رغم أنه لم يدرك في البداية كم كانت عظيمة في الواقع : «فهي جميع الأوقات والأحيان رائعة جداً . وأنها مدينة يغلب عليها الطابع الروماني ، بنيت على الطراز القوطي الغربي ، يوجد فيها برج ساركينك ، وتعود إلى القرون الوسطى بمظاهرها كافة ، إلى القرن الرابع . . . وهذا ما يجعلها مثيرة للاهتمام جداً وذات قيمة عظيمة لموضوع البحث في الهندسة أو الاستراتيجية العسكرية (ففي العصور كافة كانت حصناً من الطراز الأول) كما انها ذات مشهد رائع . . . وتوجد لدي أيضاً خطة رائعة ، تبين العصور (الفترات) المختلفة للأبنية . . . وثمة الكثير من الآثار العائدة إلى القرن الثاني عشر الذي اهتم به ، والكثير جداً من الأشياء التي لا يمكن أن ترضيني : وفي الحقيقة من الممكن فقط نقلها إلى أكسفورد ووضعها وتثبيتها في «بريل هيل» .

وبعد بضعة أيام كان لورنس يتواجد في «كرودس» ، وبعث لأسرته رسالة يظهر فيها بأنه أصبح آنذاك يمتلك قوة ملاحظة ووصفاً مما سيكون ذلك متجلياً في كتاباته اللاحقة ، حيث يقول : «إن شوارعها شديدة الانحدار والارتفاع ، بحيث يصعب جداً على المرء ان يحفظ توازنه فيها ، ولا يمكن امتطاء الخيل عليها . وتلحق بهذه الشوارع مماشٍ (أرصفة) ضيقة لها درجات متواصلة متكسرة ، وقد استبدلت بعض الدرجات غير المنتظمة بمصطبات صغيرة من الحصى أمام كل بيت (ولنقل إن طولها عشرون قدماً) في كل ممر . وتنتشر القناطر فوق الأماكن على الشوارع ، أو أنها تجعل هذه الشوارع تمر في انفاق طولها خمسون ياردة . وكانت ثمة ثماني أو عشر بوابات محصنة تعود الى القرنين الخامس والسادس عشر وأسوار كاملة تحيط بالمدينة ، بنيت حول أكواخ وبيوت متداعية ومتشابكة . وتوجد بيوت بنيت من الحجارة ، تعود الى القرن الرابع عشر ، لها نوافذ ذات زخرفة رائعة على كل واحدة منها مصباحان ، وقد قسمت بأعمدة مائلة وتحيط بها أوراق الكرمة أو غيرها من أوراق الزخرفة الطبيعية . ونصف هذه النوافذ قد بلطت بقطع من الرخام المكسر والملاط ، والجزء الآخر منها احتوى على أبواب حديدية رائعة ، ذات

فصالات تعود الى عصر النهضة . وتواجدت بين النوافذ مجموعات من الرسومات المزخرفة ، وغالباً ما تكون على اشكال حيوانات ذات رؤوس بشرية ، أو مناظر للصيد ، الخ . ويبلغ إطار سقوف المنازل قدمين ، تتدلى منها مظلات تغطي مساحة منتصف هذه الشوارع الضيقة ، فعرضها ياردتان فقط . وتتكون هذه البيوت من ثلاثة طوابق لكل منها ، وتختلط مع منازل حديثة (حديثة بالنسبة لبلدة لكوردس فحسب) ، وربما تكون لها نوافذ مقسمة بأعمدة ، وأبواب معكوفة أو منحنية الشكل . . . وبعض هذه المنازل تهدم ، وبعضها متداع . توجد فقط ثلاثة منازل منها في البلدة ، والبقية تترنح أو تتمايل إلى الأمام وإلى الخلف ، أو أنها تحولت إلى أسطبلات أو زرائب ، أو إلى اعمدة متناثرة على جوانب الشوارع وبعضها من القرميد الملصق ، أو الذي لصق من قبل ، لأنها غالباً ما كانت تكشف عن أبواب ونوافذ مغلقة أو مسدودة ، ومشاكل مزخرفة وحجارة منقوشة بنيت في أعمال لاحقة . الاعمال الخشبية كافة تعتبر قديمة ، معظمها منحن ومعقوف بشكل غريب رغم كل أنواع التهديم التي جرى عليها .

في ٢٨ آب وصل لورنس إلى كاتدرائية شارتريه ، متوقعاً أن تكون مثل معظم الكاتدرائيات الفرنسية قد أفسدت بعمليات الترميم . وكانت رسالته التي بعث بها إلى ذويه في ذلك المساء من أهم ما خلفه في تلك الفترة من رسائل مكتوبة . فقد أحتوت على تعبير ينم عن شعور ديني يتناقص بشدة مع نبرته المتحفظة في الرسائل الاخرى التي أرسلها لوالدته . يقول في هذه الرسالة : «لا استطيع أن أصف ما وجدته ـ انها لم تلمس ولم تفسد مطلقاً ، سواء في بنائها الفخم الجليل ، أو في عملية الحفاظ عليها ، ولم أرى من قبل أو أتوقع هذه الروعة . ولا يمكنك أخذ فكرة عن جمالها ، وكمالها ، قبل الذهاب لرؤيتها! ويعود تاريخ بنائها الى أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر أنها ليست ضخمة في مساحتها ، غير أن النقوش المنحوتة على مداخلها الثلاثة تعتبر أجمل وأفضل من كل فنون البناء الأغريقي الآخرى . وحتى يوم أمس لم أترك أي عمل لنحاتين أغريق يعود للقرن الخامس عشر دون مشاهدته . وقد تبدو أعمال النحت الفرنسية التي تعود إلى العصور الوسطى المبكرة أقل شأناً إلا أنني لا أعتقد ذلك : فلاشيء في الخيال يمكن أن يكون أضخم من ذلك الترتيب للبوابات الثلاث الضخمة المزينة بالنقوش (فعمق كل مدخل منها ثلاثون قدماً) ، مع ارتفاعات ضخمة . ونصبت

تماثيل صغيرة في كل مكان من الأعمدة على مساحات واسعة منبسطة ، وتماثيل صغيرة ومظلات على القبور . والجدار الغربي للكاتدرائية برمته مسور بطوق حديدي مليف ومزخرف بصفائح معدنية ، صنعته أيدٍ ماهرة ! وقد تظني أن هذه الأشياء مضجرة ، فكل شيء هنا صعب وضيق كما اعترف ، ولكن عندما ترين المشهد برمته ـ اذا ما تمكنت من تخيل الصورة والإطار في الحال ، لابد وأن تعترفي بانه لا يمكن ان يوجد شيء أعظم من ذلك ، سوى البارثينون (هيكل الآلهة أثينا في مدينة أثينا) . إنه واحد من أعظم أعمال الإنسان ، وأجمل وأروع أعمال القرون الوسطى . ولا يستطيع المرء وصفها بأي شيء آخر سوى بالذروة والأبهة ، وتبدو أمامها الأماكن الأخرى كافة التي كتبت لكِ عنها سابقاً بائسة : فكاتدرائية شارتريه لا مثيل لها ! لقد ذهبت إلى هناك ، كما قلت من قبل ، قبل الإفطار ، وغادرتها عند حلول الظلام ، بعد أن أمضيت فيها اليوم برمته . متنقلا من باب إلى آخر ، وقد وجدت كل واحد منهم أروع من سابقه الذي خلفته ورائي ، ومن ثم عندما أعود لأجد أن الأروع منها كان يمثل أمامي ـ ذلك أنه مكان لا يمكن تخيله مطلقاً ، أو لأتذكره ثانية ، وقد استغرق ذلك كل جهد مني وغمرني على نحو ساحق ، وعندما حل المساء كنت منهكاً تماماً ، وابتل جلدي بالعرق (فقد كان يتصبب مني طوال النهار) ، وتملكني شعور بأنه لم يحدث لي هذا من قبل ـ اذ أنني وجدت سبيلاً (صعب المنال) بعيداً كأبواب الجنة ، وقد تسنى لي أن ألمح ما بداخلها ، لأن بواباتها كانت مفتوحة جزئياً . وستفهمين ما كنت أشعر به لأنه لا يمكنني التعبير عن نفسي . فبالتأكيد أن كاتدرائية شارتريه تعتبر مشهد العمر ، ومكان يعبد فيه الله بحق» .

وعاد لورنس إلى إنجلترا في الثامن من أيلول ، جالباً معه عدداً كبيراً من الصور التذكارية ، والصور ، والملاحظات ، والمخططات والخرائط من أجل أطروحته الجامعية .

وشكل في جامعة أكسفورد سلك الضباط تحت التدريب . وكان لورنس أول من تطوع فيه . وقد جاء قراره مفاجئاً تماماً للعديد من أصدقائه ، ولكن ليس لأولئك الذين كانوا يعرفون بانه خدم في لواء مدفعية كنيسة سانت الديت ومثله مثل معظم الشبان الآخرين من طبقته الاجتماعية . لقد كان لديه شعور عميق بالوطنية .

رغم أنه انضم الى هذا التنظيم العسكري ، فقد كانت ثمة بضع إشارات في كل

مكان توحي بأنه اتخذ أي جانب أكبر من حياته الجامعية خلال سنته الثانية في جامعة أكسفورد . وعندما عاد من فرنسا لم يرجع للعيش في إسكان الكلية اليسوعية بل قرر والده ايجاد محيط هادىء كان بحاجة إليه من أجل دراسته ، وذلك ببناء غرفتين مستقلتين له في حديقة المنزل . وزودت الغرفتان بالماء والكهرباء والهاتف . وعاش لورنس وعمل لسنتين ، مكتسباً بذلك درجة من الاستقلالية ، لا بل أيضاً عادة الانعزال . وقرأ هناك عدداً كبيراً من الكتب بشغف ، وتعدى خياره كتبه الدراسية الخاصة بدراسة التاريخ . فقد انكب على دراسة الكتابات التي تعود إلى القرون الوسطى ، كما أنه تمتع بقراءة الرومانسيات التاريخية للقرون الوسطى .

وناقش في ذلك الخريف مشاهداته للقلاع الفرنسية مع س . ف بيل في اشمولين . وكتب بيل فيما بعد يقول : «كنا نتحدث في يوم ما عن خطوته التالية التي يجب أن تكون ، وقلت له ، «لماذا لا تذهب إلى الأراضي المقدسة وتمكث هناك فترة ما ، حيث يمكنك ايجاد جواب للتساؤل الكبير عما إذا كانت تلك القناطر والأقواس في الأبنية قد أقتبست أو طورت من مصادر شرقية بواسطة الصليبيين ، أو عما إذا كانت قد نقلت إلى العرب بواسطتهم ؟» . . . وكان هذا الاقتراح هو الأساس لأول زيارة قام بها لورنس إلى الشرق .

فقد راقت له فكرة السفر إلى الأراضي المقدسة بشكل كبير . وعندما كان يقوم بإعداد أطروحته الجامعية ، اقترح بيل عليه بأنه كان باستطاعته ان يدمج أبحاثه كافة التي قام بها في فرنسا آنذاك في أطروحته إضافة إلى أنه كان بإمكانه تغيير أوراق بحثه الخاصة المختارة من موضوع «التاريخ العسكري والاستراتيجية» (التي أضاف إليها في عام ١٩١٠ ورقة وجدها مهمة بعض الشيء ، حول معركة واترلو) إلى موضوع عن «الحملات الصليبية الثلاث ، من عام ١٠٩٥ ـ ١١٩٣» ، وهو موضوع يتعلق بالقرون الوسطى محبب كثيراً إلى قلبه .

وقبل نهاية ذلك العام ، عقد لورنس العزم على الذهاب إلى الشرق عين ، لحسن الحظ قيماً على أشمولين ، الرحالة وعالم الآثار المشهور بمعرفته الشخصية بالمناطق التي كان بحاجة إلى أن يزورها ، وكان هذا د . ج هو غارت ، الذي قدم له لورنس في بداية عام

١٩٠٩ . واقترح هوغارت عليه بأن يكتب الى س . م . دوفتي ، الذي كان من أكثر الرحالة خبرة بالأراضي العربية ، من أجل الحصول على نصيحته في هذا الشأن . وكان رد دوفتي غير مشجع ، حيث قال : « يكون الطقس في شهري تموز وآب حاراً جداً هناك ، ليلاً ونهاراً ، وحتى دمشق (التي ترتفع ألفي قدم عن سطح البحر) ، فانها أراضٍ جدباء ، حيث لا يجد فيها الأوروبي مكاناً منعشاً سوى القليل - ويبدو من المستحيل على الإنسان أن يمشي على قدميه لمسافات طويلة يومياً في بلاد لا يعرفها . والسكان هناك لا يعرفون سوى حياتهم البائسة ، وينظرون إلى أي أوروبي يتجول في بلادهم على أنه مملوء بالحقد والبغض في أفضل الأحوال . والمسافات التي تقطع هناك تُعد طويلة جداً . ثمة نقص كبير في الغذاء ، وأماكن الراحة والنوم والتي سرعان ما ستكتشفها . . . ويجب عليَّ ألا اشجع أي صديق على القيام بمثل هذه الرحلة - التي من المحتمل ان تكون متعبة ومرهقة جداً ، وخطرة على الصحة وحتى أنها مخيبة للآمال» .

رغم ذلك ، صمم لورنس على الذهاب ، وقام بالاستعدادات للقيام بالرحلة وبما أنه احتاج إلى معرفة بعض العبارات العربية ، فقد بدأ يتلقى دروساً في اللغة العربية . كما أنه تلقى دروساً في الرسم ، لأنه وجد أن من الصعب القيام بتصوير مظاهر القلاع والحصون التي رغب في استخدامها للتوضيح . وكان معلمه ي . هـ . ينو ، رفيقاً ممتازاً له . وقد أعدّ آنذاك سيرة ذاتية رئيسة لويليام موريس ، وكان يعمل سلسلة من المناظر التحليقية لكليات اكسفورد . وقيل بأنه لا أحد يعرف أفضل منه أين يجد النقاط المفضلة الجيدة لمثل هذا العمل ، ومن المحتمل أنه بتشجيع منه أخذ لورنس بتسلق مباني أكسفورد ، فقد قال في هذا الصدد : «لقد أعتدت أن أتسلق الأبراج والأسقف ، للحصول على زوايا ومواضيع جديدة للتصوير ولأسباب هندسية» .

كما أن لورنس بدأ أيضاً بتأثير من نيو الاهتمام بحماسه في أعمال ويليام موريس . اذ أظهرت رسائله أنه كان يقرأ له بشكل مكثف خلال السنوات الأربع التالية ، وانه كان متأثراً بقوة بأفكار وخيال القرون الوسطى الجديدة ، والبراعة والحرفية التي كانوا يدافعون عنها ويؤيدونها ، رغم أنه بدا أقل تأثراً باشتراكيتهم الخيالية .

وقد راقت فكرة القيام بالطباعة على نمط موريس للطبيعة الرومانطيقية للورنس .

فالطباعة التجارية قد هجرت منذ وقت طويل المعايير التي كانت متبعة من قبل حرفيي الطباعة الأوائل ، الذين حاولوا جعل طباعة كتبهم ذات شكل جميل وأنيق كما كانت الحال بالنسبة لمخطوطات القرون الوسطى . فقد احيا موريس نمط الطباعة اليدوية ، وهدف من ذلك إلى إخراج كتب تفضي السرور على ناظريها كقطع مرتبة ومنمقة . ولم يكن لدى لورنس خبرة بالطباعة ، إلا أنه بحث فكرة إنشاء مطبعة مع عدة أصدقاء له وكان ليونارد غرين واحداً منهم ، حيث يقول في هذا الشأن : «قررنا بأننا يجب أن نشتري طاحونة هوائية تقع على مكان بارز ومرتفع يمكن ان تغسل بماء البحر . نضع المطبعة في الطابق الأسفل ونعيش في الطابق الأعلى منه ، ونقوم بطباعة الكتب النفيسة فقط . . . ولا نجلدها إلا بناءً على طلب المشتري وذوقه ، ومن ثم نقوم بتجليده بجلد الرّق ونصبغه باللون الارجواني» .

ومع اقتراب موعد مغادرة لورنس إلى سوريا ، فقد عرّفه هوغارت على هـ . بيري ـ جوردون ، الذي كان قد زار جزءاً من المنطقة في العام السابق على ظهر جواد ؛ وقد اقرض بيري ـ جوردون لورنس خارطة للمنطقة تحتوي على هوامش . وفي غضون ذلك طلب السير جون رايس ، مدير الكلية اليسوعية ، من اللورد كورزون ، رئيس الجامعة ، أن يرتب له مع السلطات التركية ، للحصول على كتاب منها يسهل رحلته هناك ويوفر له الأمن .

غادر لورنس إنجلترا في الثامن عشر من حزيران ١٩٠٩ على متن السفينة مونغوليا . وقضى رحلته البحرية كلها في تعلم اللغة العربية ، وبعد تأخره في عملية تغيير السفن في بورسعيد ، وصل أخيراً إلى بيروت في السابع من تموز . وهناك اتصل بأساتذة بالجامعة الأميركية الذين أكدوا له بأنهم كانوا يقومون برحلات على أقدامهم خلال عطلتهم الصيفية منذ عدة سنوات ، تماماً كما كان لورنس عازماً على القيام به ، وابلغه كل من قنصل السفارة (البريطانية) وبقية الموظفين في القنصلية ، ان التجول والقيام برحلات يعتبر أمراً عادياً هناك كما هي الحال في أوروبا .

وبدأ في الثامن من تموز ، رحلة مشياً على الأقدام طولها ثلاثين ميلاً على طريق ساحلي وصولاً إلى صيدا . ومن ثم توجه إلى النبطية ، حيث استأجر هناك مرشداً ليصل إلى قلعة بيوفورت ، ثم إلى نهر بانياس . ومن هناك ذهب إلى حنين ، وتبين ، ثم إلى

صفد التي تقع على تلة ارتفاعها ٢٧٠٠ قدم ، ويقول في هذا الصدد : «خلال يوم من المشي صاعداً ونازلاً تلالاً عدة ــ فبلاد فلسطين كلها مثل ذلك : تنتشر فيها التلال بشكل عشوائي هنا وهناك ، وتكون الطرق إما صاعدة أو هابطة طوال فترة السير ، ويكون اتجاه الريح في وحول صخور الوديان ، لذلك فانك لن تبلغ أي مكان مطلقاً» . ومن صفد ذهب إلى القسطل ، ثم نزل إلى وادي الأردن حتى البحر الميت ثم واصل رحلته إلى الجنوب فزار «بلفور» ، ثم مشى عبر «اندرو» إلى الناصرة ، وأخيراً إلى عتليت قبل أن يعود إلى الطريق الساحلي ليصل إلى حيفا ، فعكا فصور ، فصيدا ، فبيروت . وأتم هذا الجزء من رحلته خلال ثلاثة أسابيع .

بيد أنه وجد رحلته تلك عبر أراضي الإنجيل مخيبة للآمال ، إذ أن المناظر الطبيعية كانت جرداء وأقل بكثير مما كان يتوقعه يقول في هذا الصدد : «إنه مما يدخل الراحة في النفس معرفة أن هذه البلاد لم تكن كذلك أبداً في عهد السيد المسيح . وقد كان رسامو عهد النهضة على حق عندما رسموه مع تلاميذه وهم يتناولون الطعام في قاعة ذات أعمدة ، أو يشمسون أنفسهم على درجات رخامية : ففي كل مكان يجد المرء آثار وبقايا طرق وبيوت وأبنية عامة رومانية رائعة . . . ولم تكن توجد طريق العشرين ميلاً من الأشواك خلف كابرنوم . . . ففلسطين كانت بلداً ملائماً حينذاك ، ومن السهل إعادة تطويرها ثانية لذا فسرعان ما زرعها اليهود بشكل أفضل : إذ أن مستعمراتهم تُعد نقاط مشرقة في صحراء» .

ثم عاد لورنس إلى بيروت في الثاني من آب ، وكتب رسالة تتكون من خمسة آلاف كلمة إلى أسرته ، ليقدم لهم فكرة عن شمال فلسطين في الصيف ولابد أنهم كانوا مسرورين باستلامها ، لانها كانت تحتوي على العديد من التوضيحات التوارتية .

وقد أظهر تقييمه للاتصال مع السكان المحليين هناك رغبته في التكيف مع عادات البلاد ، حيث يقول في هذا الصدد : «عندما ذهبت الى منزل محلي هناك ، حياني صاحبه ، فرددت له التحية ، ثم قال شيئاً ما لإحدى نسائه ، فأحضرت فراشاً وثيراً مد على حصيرة موضوعة على مصطبة لتكون كأريكة ؛ فاستلقيت عليها ثم أخذ مضيفي يسألني عن صحتي لأربع أو خمس مرات ؛ وكنت أجيبه في كل مرة بأنها جيدة ثم

أحضرت القهوة مرة أخرى ، وبعد ذلك طرحت علي عدة أسئلة مثل عما إذا كان المرجل الذي معي هو مسدس ، ومن أنا ، ومن أين أتيت ، واين سأذهب ، ولماذا اتنقل مشياً على الأقدام ، وهل أنا لوحدي ، وغيرها من الأسئلة الممكن تصورها . وعندما كنت أبسط مرجلي (وكنت أحياناً اقوم بذلك بحركة مسرحية) ، كانت تصدر من هناك عبارة استغراب مرفوقة بكلمة (ما شاء الله) عدة مرات . فمثل هذا الشيء لم يُر من قبل ، ويُدعى ابناء القرية كافة ليشاهدوا ذلك . ثم أسأل عن زوجتي وأطفالي ، وكم لدي منهم ، الخ . وكنت أشعر بقليل من الخجل في الحقيقة من صغر سني هناك . فالفتى السوري (اللبناني) الذي كان يبلغ السادسة عشرة من عمره كان ناضجاً تماماً ، له شارب ولحية ، متزوجاً ، وله أطفال ، وربما انه قضى سنتين أو ثلاث سنوات في نيويورك ،جمع خلالها مالاً كافياً ليستثمره في أعمال بوطنه . وكانوا غالباً ما يقدرون عمري بخمسة عشر عاماً ، ويبدو استغرابهم من تنقلي وارتحالي ماشياً لوحدي فركوب الدواب كان يُعد وسيلة مشرفة للتنقل ، كان كل واحد يخشى اللصوص وقطاع الطرق ؛ لذلك فقد كان تنقلهم قليلاً .

كان معدل مشي لورنس في اليوم نحو اثنين وعشرين ميلاً ، وقد مشى في مناسبة ما ثلاثين ميلاً . وغادر بيروت للبدء في المرحلة التالية من رحلته في السادس من آب ، فوصل إلى طرابلس بعد أسبوع ، وقضى ثلاثة أو أربعة أيام في المدرسة التبشيرية الأميركية في جبيل ، حيث رحبت به هناك مديرتها ، الآنسة هولمز ، وهيئة التدريس فيها . غير أن رأي لورنس في أنشطة الإرسالية الأميركية في سوريا أصبح متغيراً في السنوات اللاحقة ، ولكن في عام ١٩٠٩ كانت محببة إليه ، حيث يقول في هذا الصدد : «انها تقوم بعمل رائع جداً في جميع أنحاء فلسطين . إنها كنيسة مشيخية بروتستانتية ، يعمل فيها رجال متألقون . وقد اعترفوا بأنه كان من المستحيل تحويل المسلمين في سوريا عن دينهم أنذاك . . . لذلك ؛ فتحوا مدارس من أجل أبناء الطائفتين (المسلمين والمسيحيين) في جميع أنحاء البلاد . وكانت لغة التدريس فيها الانجليزية ، وتضمنت الدراسة عدة مواد مهمة . . . ولذلك فإن اللغة الإنجليزية تُعد شائعة في سوريا ، وأنه لن تكون ثمة حاجة في السنوات العشر التالية الى فتح المزيد من المدارس (التبشيرية) . . .

فلديهم كليات منتشرة في أنحاء سوريا كافة ، وفي آسيا الصغرى ، والقسطنطينية (معظمها مدعوم ذاتياً) ، ويغلب عليها جميعاً الطابع الديني ؛ وإن كل مدرسة هناك تُعد محطة تبشيرية» .

وفي طريقه إلى الشمال باتجاه طرابلس زار القلاع الموجودة في البترون ومصيلحة ، وانفه وطرابلس . وفي ١٦ آب ، الذي وافق عيد ميلاده الحادي والعشرين وصل لورنس إلى قلعة الحصن في سوريا ، حيث وصفها بقوله : «اعتقد بأنها من أجمل القلاع في العالم ؛ وهي بالتأكيد ذات مشاهد رائعة تماماً لم أرها من قبل ، وقد مكثت هناك ثلاثة أيام . واتجهت إلى صافيتا وما ورائها ، وأصبح لدي مثل تلك الصعوبة في أن أصبح إنجليزياً مرة ثانية لأنني أصبحت هنا عربياً في عاداتي واتنقل في التحدث من اللغات الإنجليزية إلى الفرنسية إلى العربية من دون عناء وملاحظة» . وأطلق عليه شخص ما النار في أحد المرات على بعد مائتي ياردة ، ولكنه تدبر أمر مهاجمه باطلاق النار عليه بكثافة من مسدسه ، حيث يقول : «كنت ممتناً لحملي المسدس . . . فقد كان الرجل الذي أطلق النار عليَّ من بندقية قديمة ، يريد إرهابي وإخافتي لكي أدفع له المال» . وفي نهاية ذلك الشهر ، عندما وصل إلى اللاذقية كتب لأسرته يؤكد لها : «يمكنكم أن تكونوا مسرورين الآن ، فجميع أعمالي قد أنتهت بنجاح ؛ واعتقد بأن أطروحتي الدراسية أصبحت مضمونة» .

ولكنه قام مرة ثانية برحلة داخلية من اللاذقية على الساحل إلى حلب ، مشياً على قدميه ؛ قاطعا مسافة ١٢٠ ميلاً خلال خمسة أيام ، ومما لا شك فيه أن ذلك لن يضحك كل من بوب وويل ، عندما يعلمان مدى صعوبة وتعقيد الطرق المروعة التي كان لورنس يسلكها في رحلته تلك . حيث يقول في هذا الصدد : «لقد كنت امشي ثلاث عشرة ساعة في اليوم ، وكان عليَّ أن أخذ معي مرافقاً من أجل حمايتي في الطريق ؛ ولكي لا أضيع أي وقت . وبالمناسبة فإنه لمن المضحك تأمل منظر شخص راجل يحرسه بعناية رجل على جواد هزيل ؛ فبالطبع ان كل واحد يظن بأنني مجنون يمشي على قدميه ، وقدم لي مرافقي خدمة امتطاء جواده لنصف ساعة ؛ ولكنهم لم يستطيعوا فهم موقفي المضاد لكل شيء يمشي على أربعة (الدواب)» . ـ اذن فتلك المرافقة اتخذت احتياطاً بعد عملية

إطلاق النار على لورنس المار ذكرها .

وصل لورنس إلى حلب ، ومكث هناك قليلاً من الوقت ، ثم قرر بعد ذلك استئجار عربة يجرها حصانان بواسطة رجلين ، لتقله إلى اورفه (في تركيا) وإعادته منها . وأدى به تمديد رحلته تلك إلى عشرة أيام أخرى إلى الوصول للأماكن الأثرية لمواقع الحثيين قديماً . وكان د . ج هوغارت ، الذي زار هذه المنطقة في الربيع الماضي ، أول شخص يصل إلى آثار الحثيين ، وقد طلب من لورنس أن يبحث عن بقايا أو أثار لهم ويشتريها . إذ أن كل أنواع الأشياء القديمة يمكن شراؤها تماماً من القرويين ، الذين يعتمدون في دخلهم على سرقة ما في القبور القديمة وبيع ما يجدونه فيها الى تجار وسماسرة التحف القديمة المتمركزين في مدينة حلب .

وفي طريق عودته من «أورفه» ، وفي منطقة «سروج» بتركيا أيضاً ، سرقت آلة تصوير لورنس من العربة عندما كان الحوذي الذي تركه يراقب هناك نائماً . وكانت تلك خسارة خطيرة بالنسبة إليه ، حيث لن يتمكن بعد من التقاط صور تذكارية للقلاع الصليبية الموجودة هناك ، رغم أنها كانت أساسية بالنسبة إليه . ولكن الشيء الأسوأ من ذلك حدث بعدئذ ؛ فبعد بضعة أيام وبينما كان يتجول بالقرب من قرى حوض الفرات بحثاً عن آثار للحثيين هاجمه شخص ما . ويقول في هذا الصدد : «تبعني متسول من المعيرة وسرق كل نقودي والأشياء الثمينة التي كانت معي . وقد استعدت معظمها ؛ إلا أن هذا العمل جعلني أشمئز كثيراً من تلك المنطقة ، وبعد دفع الكثير من (البخشيش) لم يتبق معي سوى القليل من النقود لمواصلة عملية البحث عن الآثار» .

وفي التاسع عشر من أيلول عاد الى حلب ، باذلاً أقصى جهده مع السلطات المحلية هناك لاستعادة آلة التصوير ، ولكنه لم ينجح في ذلك . وبعد ثلاثة أيام قرر التخلي عن ماتبقى من خططه والعودة إلى إنجلترا . ففي رسالة بعث بها إلى السير جون ريز في الكلية اليسوعية ، برر سبب وصوله إلى أكسفورد متأخراً عن بدء الفصل الدراسي بقوله : «لقد كانت رحلتي ممتعة ومسرة جداً . . . ماشياً على قدمي ووحيداً طوال الوقت ،ذلك أنه ربما كان علي أن أعيش كغيري من العرب ، والحصول على رؤية أفضل لحياة الناس اليومية هناك ، أكثر من الذين تنقلوا مع قافلة وأدلاء سياحيين وكانت توجد سبع وثلاثون قلعة

من أصل خمسين تقع على طريق رحلتي فشاهدتها جميعاً باستثناء واحدة منها ؛ ولم أذكر العديد منها تماماً إلا أنني ، بالطبع ، قمت برسمها وعمل مخططات لها وتصويرها» .

وكانت رحلة عودته إلى إنجلترا كلها بواسطة البحر ، بدلاً من أن يسلك طريقاً أسرع أو أقصر عبر فرنسا من مرسيليا بواسطة القطار . وقد منحه ذلك فرصة لأن يستعيد قوته ونشاطه قبل وصوله إلى أكسفورد في منتصف شهر تشرين الأول وقام خلال هذه الرحلة بجمع مصاريف رحلته التي بلغت (٧١) جنيها استرلينياً .

وعندما رست السفينة التي كانت تقله في ميناء نابولي ، زار لورنس معملاً لصنع المسبوكات المعدنية ينتج تماثيل برونزية كلاسيكية . واشترى رأس تمثال من البرونز بثمانية فرنكات . واخذه معه إلى أكسفورد ووجد له مكاناً على حافة نافذة غرفة دراسته المطلة على حديقة المنزل ، وأصبح يشكل الزينة المفضلة له . وأصبح هذا التمثال النصفي فيما بعد معروفاً في جناح تماثيل البرونز بالمتحف البريطاني (وهو نسخة رومانية عن عمل أغريقي يعود تاريخه الى القرن الرابع قبل الميلاد) .

وتظهر رسائل لورنس أن اهتمامه بنحوت وتماثيل القرون الوسطى دفعه إلى دراسة الفنون الأغريقية ، وخاصة فن الرسم والنحت . أصبح آنذاك يجيد الرسم ، وبدأ يحاول العمل من ثلاثة أحجام أو زوايا وأصبحت هذه هواية له بين الفينة والأخرى . وكتب في ما بعد يقول في هذا الصدد : «أصبح لدي نشاط وهواية للحصول على موهبة التعبير عن بعض أفكاري لأضعها على الفخار أو الحجارة ـ وبذلك فقد توصلت إلى فهم القليل عن فن النحت وأهدافه» . وعندما بلغ شقيقه الأصغر ، أرنولد ستة عشر عاماً ، نصحه لورنس بأن يهتم بفن النحت قائلاً له : «إنه عمل أجمل بكثير من الأعمال السطحية ، وهو صعب جداً وينال التقدير ، ويمنح المرء رضاً تاماً عندما يكون متقناً . وأنني أفضل كثيراً ان أمتلك قطعة جميلة منحوتة على أي شيء آخر في العالم» .

لقد منحه المنزل ذو الطابق الواحد الأرضي والمحاط بحديقة حرية العمل أو القراءة الى ساعة متأخرة من الليل دون ازعاج من أسرته . ويقول في هذا الصدد : « تعلمون كما اعتقد ، مدى المتعة من قراءة الكتب ؛ ففي المنزل أغلق باب غرفتي وتكون البلدة غاطة

في النوم ـ وأني أعرف بأنه لاشيء ، ولا حتى بزوغ الفجر ـ يمكن أن يزعجني وأنا جالس بين ستائر غرفتي . وان ما يثير انتباهي فحسب هو أصوات الفحم المحترق في الموقد ، والذي يصبح جمراً ، وذلك التمثال النصفي أيضاً والنحاسيات الرائعة الموجودة في الغرفة . وانه لمن المحبب أيضاً ، بعد أن تكون قد تجولت لساعات في الغابة مع كتب بيرسيفال أو ساغراموس ، أن تفتح الباب بعد ذلك ، ومن فوق شرويل تطل على الشمس التي تسطع من خلال سديم (ضباب خفيف) الوادي . فلماذا لا يحبذ المرء الاشياء اذا ماكان ثمة اشخاص آخرون يقومون بذلك؟ ولماذا لا يمكن للمرء جعل كتب المرء الآخر تعيش معه إلاّ في الليل ، وبعد ساعات من العناء؟ . . . وإذا ما حصلت على الكتاب المناسب في الوقت المناسب فإنك تشعر بالمتعة ـ ليس بالمتعة الجسدية أو المادية فحسب ، وإنما ايضاً بالمتعة الروحية التي تذهب بالمرء الى ما وراء التعاسة الذاتية ، كما لو كان ذلك من خلال هواء ضخم ، يتبع ضوء فكر إنسان آخر . ولن يمكنك أبداً ان تُهدىء الذات القديمة ثانية . وعليك أن تنسى قليلاً ؛ أو أن تزيح عنك ذلك بقليل من الإلهام لما هو خالد (ثابت) في شخص ما ذهب قبلك» .

خلال شتاء عام ١٩٠٩ ـ ١٩١٠ أتم لورنس أطروحته ، تحت عنوان «تأثير الصليبيين في الهندسة العسكرية الأوروبية ـ في نهاية القرن الثاني عشر» . وكان عدد الكلمات المسموح بها للاطروحة هو (١٢) ألف كلمة ، على أن تسلم قبل عطلة عيد الفصح . وقد قام بطباعة المسودة الأخيرة لها ، رغم أن ذلك لم يكن مطلوباً ، وارفق معها عددا كبيراً من المخططات ، والتخطيطات ، والصور ، والصور التذكارية .

وأمل بأن تكون النتائج النهائية جيدة تماماً بالنسبة له ليواصل تعليمه الأكاديمي ؛ اذ أن الخطوة التالية ستكون التحضير لأطروحة البكالوريوس في الآداب . فقد قضى وقتاً طويلاً خلال سنوات دراسته الجامعية يعمل في مشاريع آثارية مختلفة في أشمولين ، وقد ساعد الخريف في ذلك ، على سبيل المثال ، في إعادة ترتيب جناح القرون الوسطى ، في متحف أكسفورد . وإذا ما اختار موضوع بحث مرتبط بمعرفته الأكاديمية بالقرون الوسطى مع اهتمامه الخاص في النحاسيات والخزفيات القروسطية (العائدة للقرون الوسطى) ، فإن السبيل يمكن ان يكون مفتوحاً لحرفة علم الآثار . رغم ذلك فقد شعر مثله مثل الطلاب

الجامعيين الآخرين ، بعدم رغبته في توريط نفسه في هذا الأمر ؛ ففي الحقيقة اتخذ موقفاً معيناً في الخطط المهملة من أجل مهنة ما . وقد كتب فيما بعد يقول : «لقد كافحت بصعوبة تامة في اكسفورد من أجل تجنب أن أكون مصنفاً» .

كما أن خطته من أجل انشاء مطبعة خاصة كانت تتجسد . فقد أفضى بفكرة إنشاء المطبعة إلى فيفيان ريتشارد ، وفكر الاثنان بتشكيل صداقة بينهما . ويعود الفضل أكثر في هذا المشروع إلى النصائح التي قدمها وليام موريس أكثر من أية جهة أخرى لها معرفة بالموضوع . وتصف رسالة كتبها لورنس إلى والده بعد عدة شهور أسس خططهم في هذا الشأن بقوله : «إذا ما أبقينا على أقصى مرونة في علاقاتنا ، فلا يمكننا وفقاً لذلك تقييد أنفسنا باتفاق مكتوب . وينبغي علينا (إذا ما وجد هذا الاتفاق) أن نذهب خارج نطاقه بشكل محتم كلما شعرنا أن ثمة انحراف بالأمر ؛ ذلك أنه سيوجد دائماً تناقض بين نظريتنا وممارستنا . . . فلا يمكن أن تكون ثمة أية ساعات محددة للعمل . وكلانا نشعر (في الوقت الراهن) بأن الطباعة تُعد أفضل شيء يمكننا القيام به ، اذا ما بذلنا جهدنا فيها . وهذا لا يعني ، مع ذلك ، (كما هي الحال في فن من الفنون) ، بأنه سيفعل فقط عندما نشعر بالانحراف . ومن المحتمل جداً احياناً ولمدد طويلة بأنني لم أمارس الطباعة تماماً . أما ريتشارد فمن الممكن أنه كان ملماً بالعمل . وإذا ما حدثت أية خسائر بالنسبة للمشروع ، فان كلانا سيتحملها مناصفة كما هو الأمر بالنسبة للتمويل ؛ أما الأرباح فستخصص من أجل زيادة الفرص لتقليص الأسعار .

ويقول لورنس في هذا الصدد : «سترون ، كما أعتقد ، بأن الطباعة لا تشكل عملاً وانما حرفة . فلا يمكننا أن نسخّر من أجلها ساعات عديدة في اليوم ، اذ أن أكثر من واحد يمكنه رسم صورة لهذا النظام» . ولم توافق أسرة لورنس على هذا العمل . فقد كان ريتشارد يكبره بعامين ، ولم يمكنهم أن يروا أسساً طبيعية لهذه الصداقة ومن الصعب تخيل أن يتوافق الاثنان في التفكير . وكتب ريتشارد فيما بعد يقول : « لقد قضيت شبابي كله ومنذ سن العاشرة في تعلم المواضيع الكلاسيكية ، وفي منح دراسية ، على كره مني لها في مدرسة عامة أرثوذكسية وكان والدي مستثمراً ورجل أعمال في الوقت ذاته ؛ وكانت والدتي ، الأميركية ملمة بعلم الآثار ، والهندسة ، والفن ـ التي أمقتها

جميعها . وكنت واحداً من الزعماء في ألعاب الكلية مع شعور حقيقي بأهميتها .

وفي آخر أيام حياته ، اعترف ريتشارد بالأساس الصحيح لصداقته مع لورنس ، حيث قال : «بصراحة تامة كانت (تلك العلاقة) بالنسبة لي عبارة عن حب من أول نظرة . وهو لم يكن يعرف أي نوع من الشهوات الجسدية أو الاتصال الجنسي ؛ ولم يفهم ذلك تماماً . وقد تلقى في الحقيقة عواطفي ، وتضحياتي ، وأخيراً منفعتي التامة ، كما لو كانت عائدة له . إذ لم يظهر أدنى إشارة توحي بانه كان يفهم دوافعي أو رغباتي تجاهه جيداً» .

ومع أن لورنس أخفى الحقيقة عن ريتشارد ، فإنه لم يكن بإمكانه ادراك الصعوبة في علاقتهما . واختار أن يكون متسامحاً ؛ إضافة الى أنه كانت لديه موهبة في حث الناس على القيام بما كان يريده ، ونجح بمهارة في افتتان ريتشارد إلى حماسة تجاه الطباعة ورغم أن ريتشارد لم يكن يعرف سابقاً أي شيء عن هذه المهنة ، فقد اصبح أداةً لتحقيق طموح لورنس في إنشاء مطبعة خاصة .

إن الاختلاف في مواقف أحدهما تجاه الآخر يتضح من خلال تصريحاتهما الخاصة . وقد كتب ريتشارد في هذا الصدد يقول : «ان ما تبقى لي من وقت في أكسفورد قضيته تقريباً في الرفقة اليومية مع صديقي المثير الجديد» . أما لورنس ، من جهته فقد كان يحضّر للدفاع عما كان يراه مزايا جيدة في ريتشارد ، رغم أنه كان لديه العديد من التحفظات على ذلك . وقال في رسالة بعث بها إلى شقيقه ويل : «تبدو لك شخصيته ملائمة جداً وكاملة تماماً . ومع ذلك ينبغي على القول بأنني أعتقد أن ثمة بعضاً من أسلوب «النفاجين» الذي يمنح مثل هذا التصور غير السار لأحكامه وتقييماته ، تأتي نوعاً ما من نقص الفهم ، أكثر منه بشكل غير مقصود . فريتشارد يُعد ضيقاً على نحو مفرط في نظرته واهتماماته ، وهو ملائم أيضاً للشجب بشكل عام حيث لا يجد لوناً معنياً ويطرح الأفكار المقدمة له . وهو ليس مفكراً تماماً ، إلا أنه فنان بمعنى الكلمة . . . وحالما تجعله يعتقد بأنه يعمل بشكل جيد فانه يفقد تماماً شعوره بالنقد ، ويصبح كرسول متقد جداً . وقد قال لي أشياء حول الألفة والمودة والمباشرة أبعد مما قاله لي شخص آخر . ورغم ذلك فإن له شخصية صعبة ومعقدة جداً ، ولا اعتقد بأنه سيحصل على أي اطلاع أو معرفة شخصية أفضل . وهو مبتدىء تماماً في مهنة الطباعة ؛ تماماً كما هو الأمر بالنسبة

لي . وأحسب أننا نثق في بعضنا تماماً ، من دون أي حب عظيم ، شخصياً ، بل أنه سيقوم بأقصى جهده من أجل الطباعة ، وأنا أيضاً كذلك ، ذلك أنه كان من الضروري عقد شراكة مُرضية . وانا محظوظ جداً أن أجد رجلا لديه مواهب جمة ، وتُعد المهنة بالنسبة له كحلم أول وهلة وكإلهام ،حتى أنني أعتقد بأن السيد جان سيكون راضياً عن ارتباطنا لإنتاج أفضل الكتب في العصر الحديث . . . ومن أجل القيام بأفضل أي شيء (أو لمحاولة القيام بذلك) فانه لا يجب إضاعة أية فرصة ؛ ولأكون قيماً أو حافظاً على متحف فان ذلك غير مفضل لديه ، وليس أقل من تدريس التاريخ : لذا أريد شيئاً ما يمكنني أن استخدم فية كل هذه الأشياء بدلاً من أن يستخدمني أي واحد منهم» .

لم يجد شعور ريتشارد بالشذوذ الجنسي أي مكانة في حياة لورنس العاطفية ؛ في حين انه عندما كان لا يزال طالباً جامعياً وقع في حب فتاة كان يعرفها منذ طفولته . وقد لاحظ عاطفته تجاهها أصدقاء مقربون إليه مثل ي . ف . هول ، الذي غالباً ما كان يراهما مع بعض .

لقد كان لورنس وجانيت لوري يلعبان معاً في لانجلي لودج عندما كان يبلغ السادسة أو السابعة من العمر . وأصبحت الأسرتان مثل أصدقاء مقربين ، وبعد عام ١٨٩٩ ، عندما ذهبت جانيت إلى مدرسة داخلية في أكسفورد ، أصبحت زائرة منتظمة لمنزل أسرة لورنس الواقع في شارع بولستيد . وفي عام ١٩١٠ توفي والدها ، وكان لزاماً عليها أن تعود إلى منزلها ، غير أنها كانت دائماً محل ترحيب من قبل أسرة لورنس في أكسفورد ، وواصلت رؤية الفتيان في أغلب الأحيان .

وقد جرى تشجيع هذه الزيارات ؛ وكانت جانيت في عمر بوب نفسه ، وأملت السيدة بأنهما يمكن أن يتزوجا . وأحبت جانيت جميع الفتيان من أسرة لورانس ، إلا أنها لم يكن لديها شعور قوي تجاه بوب ، الذي كان «طيبا على نحو مزعج» ، كما قالت رغم ذلك فقد كانت صحبتها ممتعة دائماً ، وقابلة للضحك على الدوام ؛ وأصبحت آنذاك ناضجة حسنة المظهر ، رغم أنها احتفظت بصفات السيدة الصغيرة الصاخبة . ووجدها كل من لورنس وشقيقه ويل فتاة جذابة . وقد زارت لورنس عندما كان يدرس في الكلية اليسوعية ، وكان هو أيضاً غالباً ما يلتقي بها في منزله .

وحسبما صرحت به شخصياً ، فإنه في إحدى الأمسيات وبعد تناول العشاء وبقاء الاثنين (هي ولورنس) لوحدهما إلى جانب المائدة ، قام لورنس باغلاق غرفة الطعام ، وسألها بهدوء وعلى نحو غير متوقع إن كانت ترغب بالزواج منه . وشأنه شأن معظم معاصريه من الشباب ، فقد كان لورنس كتوماً بشكل عميق في ما يخص أحاسيسه الشخصية وكان لديه موقف مكبوت بشكل مفرط تجاه الغزل . وشكل عمق عاطفته آنذاك مفاجأة تامة لها ؛ فهي لم تفكر به أبداً كزوج لها ، إضافة إلى أنها كانت منجذبة تجاه شقيقه ويل ، ذي القامة الطويلة والوسيم . ولقد أدركت بأن لورنس كان جاداً بشكل تام ، ولكنها أصدرت من تلقاء نفسها ضحكة مرتبكة لعرض الزواج منها . ورغم انه التقى بها كثيراً فيما بعد ، لم يذكر تلك الحادثة ثانية معها . ولكنه بعد بضع سنوات برهن لها عن قوة ولائه لها بالقيام بعمل سخي وغير عادي تجاهها .

في ٢٨ تموز ١٩١٠ صدرت نتائج مرتبة الشرف لكلية التاريخ الحديث بجامعة أكسفورد فنال لورنس ومعه تسعة آخرون مرتبة الشرف من الدرجة الأولى .

وكما كان يأمل مدرسوه ، فإن رسالته نالت نجاحاً بارزاً . كما أسهمت رحلته وبحثه في سوريا إسهاماً أساسياً في معرفته بهذا الشأن وكتب لشقيقه ويل فيما بعد أنه في المستقبل ، اتوقع ان تكون الرسائل الأكاديمية عبئاً على حاملها ؛ وذلك بسبب غلطتي في تحمل أعباء ما قمت به من أجلها . فمن المفترض ان يكون عملها ثانوياً فحسب» .

وأبلغ ل . س . جان ، روبرت غريفس بأن لورنس حصل على المرتبة الاولى المتألقة ، الأمر الذي جعل السيد ر . ل . بول (معلمه في الكلية اليسوعية) يقيم عشاءً تكريمياً للفاحصين احتفاء بهم . وربما كان س . ت . اتكينسون ، أحد الفاحصين أكثر موضوعية من جان . حيث قال بأن رسالة لورنس كانت قطعة ممتازة من العمل ، وأنها قدمت عملاً مدهشاً . وكتب فاحص آخر هو هـ . هوتون ، يقول : «انني فحصت درجاته تماماً . وكانت هناك عشر ورقات ، وورقة مترجمة ، ورسالة . وقد كانت رسالته ممتازة ، بيد أنها لم تكن هي التي اكسبته الدرجة الأولى ، بل الأوراق الأخرى ، التي كانت جيدة جميعها وبعضها جيد جداً . أما ارنست باركر ، المدرس بكلية سانت جون ، الذي كان يعطي دروساً خصوصية للورنس عن الصليبيين ، فقد استنتج مايلي : «يجب على أن اشك في

ما إذا كان لورنس ، أو حتى رغب في أن يكون ، باحثاً تاريخياً ، بالمعنى العادي لهذه الكلمة . فهو لم يكن ليهتم بالحقائق التاريخية من أجل ذاتها فحسب فلقد انتسب إلى قسم التاريخ في جامعة أكسفورد لأنه جاء في طريقه ، ولأنه كان يشكل عقبة يجب عليه ان يجتازها . . . فقد جعل الأمر مهماً بالنسبة له بقيامه بشيء ما من اختياره الحر ، وبالقيام به تماماً ، ولكن انتهائه من دراسة التاريخ أمر حسن خدمه بدوره» .

وكانت النتيجة مرضية ، وبخاصة مذ أظهرت الرسالة أن لدى لورنس أهلية واستعداداً للقيام بالأبحاث . وقبل أن يمكنه البدء بالعمل (النشاط) التخرجي ، احتاج إلى دعم مالي . ولا بد أن تحل هذه المشكلة قبل بدء السنة الدراسية القادمة في شهر تشرين الأول ، إلا أن عليه أولاً أن يقوم بإجازة جيدة ، ويقود دراجته في رحلة إلى فرنسا تستغرق شهراً واحداً ، يرافقه هذه المرة شقيقة الأصغر فرانك .

وعندما رجع ، وجد أن الكلية اليسوعية كانت راغبة في منحه إعانة مالية لنشاط ما بعد التخرج . وكان موضوع بحثه لبكالوريوس الآداب هو «الخزفيات والنحاسيات القروسطية من القرن الحادي عشر إلى القرن السادس عشر» . وقبلت الجامعة مشروعه هذا (رسالته) في الأول من تشرين الثاني .

وسافر لورنس ذلك المساء الى روين ، ومن هناك كتب الى ليدز يقول : «آمل . . . ان تكون مدركاً لمسؤولياتك الجديدة . فلقد عينت (مع البروفيسور ريجيوس أستاذ التاريخ الحديث) للإشراف على أبحاثي في ما يتعلق بخزفيات ونحاسيات القرون الوسطى . . . (بخاصة فن الزخرفة) ؛ واذا ما رجعت إلى أكسفورد عندما أكون أنا راجعاً أيضاً ، ينبغي عليَّ أن أتصل بك وأتلقى تعليماتك . . . وإن أعظم متعة أجدها ستكون عندما اجتمع بك حول طاولة ضخمة لمناقشة وبحث ما يمكن عمله . وسيكون لديك انطباع جيد عندما تعلم أنني هنا في روين من أجل خزفيات ونحاسيات القرون الوسطى : فقد حصل لي السيد بيل على رسائل من السيد سلومون ريناخ (محافظ المتحف الوطني في فرنسا) جعلتني في أوج سعادتي ، وجميعها تتعلق بالمتحف الموجود هنا مقدماً لي كل المساعدة والخدمات هنا» .

وتضمنت هذه الرسالة من روين المرجع الأول المعروف للتغير الدراماتيكي في خطط

لورنس (رغم أن الأخبار ستكون غير مفاجئة بالنسبة لليدز) ، وكتب لورنس : «أن السيد هوغارت مستمر في الحفر ، وأنني سأذهب إلى سوريا في غضون أسبوعين من أجل القيام بحفريات وعمليات تنقيب في الوديان وعلى الجبال ـ ولتعلم اللغة العربية أيضاً . فهذان الأمران يلائمان بعضهما البعض بشكل رائع» .

إن القرار المفاجىء للانضمام الى حفريات هوغارت في كركميش بسوريا كان نقطة تحول في حياة لورنس . وفي ٢٣ تشرين الأول رجع هوغارت إلى أكسفورد من تركيا ، بعد أن أنهى هناك ترتيبات رسمية للقيام بحفريات جديدة . ومن المحتمل أن لورنس لم يكن يعرف الكثير عن كركميش قبل ذلك ، رغم أنه اقترب منها كثيراً خلال رحلته على الأقدام التي قام بها عام ١٩٠٩ . وسيكون عليه . الآن معرفة مدى أهمية هذا الموقع المكتشف منذ وقت طويل من قبل علماء الآثار . وربما أن الحفريات ستكون مرحلة مهمة في حرفة لورنس ، فينبغي أن يقال شيء ما عن خلفية هذه البعثة .

كان الباحثون والدارسون الإنجليز قد تعرفوا على موقع قديم في طرابلس الواقعة على حوض الفرات منذ مطلع القرن التاسع عشر . وبحلول عام ١٨٧٢ سميت تلك الاطلال وعرفت بكركميش ، وكانت عاصمة الحثيين السورية . وبعد ذلك بأربع سنوات زار علماء آثار من المتحف البريطاني الموقع ، وقاموا بإجراء المزيد من الملاحظات والمخططات . وفي شهر كانون الأول ١٨٧٨ ، بدأ القنصل البريطاني في حلب أول تحقيق له عن كركميش لصالح المتحف البريطاني . رغم ذلك ، فإن العمل لم يخضع للإشراف تماماً ، وجرت الحفريات بصورة غير علمية ومن دون وجود سجلات ملائمة . وأثبت ذلك الترتيب عدم رضا بحيث جرى التخلي عن العمل في عام ١٨٨١ .

وانقضت ست وعشرون سنة قبل أن يجد المتحف البريطاني نفسه في وضع ملائم ليباشر عملية حفريات حقيقية في كركميش ؛ بل إنه لم يفقد اهتمامه في الموقع ، وقام بشراء جزء منه . وفي خريف عام ١٩٠٧ استقبل السير إدوارد ماوند ثومبسون ، مدير ومسؤول مكتبة المتحف البريطاني آنذاك الدكتور واليس بودج ، رئيس إدارة الآثار الأشورية والبابلية ، ليضع اقتراحات من أجل القيام بحفريات بحثاً عن آثار الحثيين . وشعر بأن على المتحف أن يسهم في ايجاد حل لمشكلة هذه الآثار ، التي أثيرت آنذاك

بواسطة الاكتشافات التي قام بها الدكتور هوغو وينكلر في منطقة بوغاز كوي .

وطلب من الدكتور هوغارت أن يزور شمال سوريا في عام ١٩٠٨ ، ويقوم بإجراء التفتيش عن مواقع بديلة . وحتى قبل أن يغادر ، فقد اعتقد بودج أن كركميش ستكون أفضل خيار . واستنتج هوغارت ، أنه بالرغم من الحفريات المبكرة التى أُجريت ، وبعض الخراب الذي حدث في أوقات مختلفة بالنسبة للنصب التذكارية المرئية في الموقع ، فقد كانت كركميش لا تزال تحتوي على أكثر من مواقع أخرى ، وتمثل مركزاً حثياً مهماً جداً . وكان الدافع الرئيس من أجل القيام بحفريات هناك هو الأمل في إيجاد نص كتابي ثنائي ، موازٍ لحجر روزينا يمكن الباحثين من فك رموز الكتابة الحثية وفهم لغتهم . وكان نهر الفرات عند كركميش يشكل حدوداً بين الأمبراطوريتين الحثية والأشورية ، ومن ثم بين اللغة الحثية غير المعروفة واللغة الآشورية (المكتوبة بالحروف المسمارية) التي يمكن أن يفهمها علماء الآثار . حيث من المحتمل جداً ، كما سأل هوغارت ، «ايجاد نصب تذكارية موضوعة في نظامين من الكتابة من أجل التثقيف والتنوير لجيلين متجاورين ؟» .

وفي أعقاب تقرير هوغارت ، قرر المتحف البريطاني البدء بالعمل في كركميش في شهر كانون الثاني أو شباط من عام ١٩١١ ، بيد أنه لم يكن ثمة التزام في تلك المرحلة من أجل القيام بحفريات طويلة الأمد . وكانت الخطة تتضمن مرحلة واحدة لفصل واحد ، الأمر الذي يمكن معه معرفة فيما إذا كان الموقع جديراً بأن تجري فيه حفريات مكثفة . لذلك تقدم في شهر آذار ١٩١٠ ، فريدريك كينيون ، الذي كان قد أصبح مديراً ومسؤولاً عن مكتبة المتحف البريطاني ، إلى السلطات التركية من أجل السماح بإجراء حفريات في المنطقة ، فوافقت على ذلك ، ومنح الأذن لهوغارت للقيام بحفريات هناك لمدة عامين ، والذي عين من قبل المتحف البريطاني لمباشرة العمل .

وكانت توجد شروط كالعادة ، فالأثريات المكتشفة كافة يجب أن تكون أملاكاً لمتحف الأمبراطورية العثمانية (رغم أنه يمكن التقاط صور الآثار وأخذ أوصافها) . وتخزن كلها في مخزن تشرف عليه السلطات التركية ، وكان على بعثة التنقيب ان تدفع مرتباً للقوميسار التركي (المراقب) الذي كان سيشرف على أعمال التنقيب والحفريات لصالح متحف الامبراطورية العثمانية . وبينت الفقرات الإدارية للاتفاق أن التصريح بالحفريات

كان متاحاً لمدة سنتين ، ولا يمكن أن يكون قابلاً للتحويل ، وانه سيكون باطلاً مالم تبدأ الحفريات خلال ثلاثة أشهر من تاريخ إصدار التصريح .

وبما أن هوغارت لم يخطط للبدء في العمل حتى شهر شباط ١٩١١ ، فانه لم يكن بامكانه الالتزام بالشروط الثلاثة المفروضة . لذلك ومن أجل تجنب الصعوبات ، فقد ذهب الى القسطنطينية في شهر تشرين الأول ١٩١٠ ورتب الأمر من أجل تأجيل البدء في العمل الى شهر شباط .

ويبدو أن لورنس قد سمع عن غرض هذه الزيارة الى القسطنطينية بينما كان هوغارت لا يزال في طريقه إلى هناك . وبرؤية أن الفرصة كانت متاحة للعودة ثانية الى سوريا ، فقد ذهب إلى ي . ت . ليدز في أشمولين الذي استذكر في ما بعد أن لورنس قد سأله على نحو غير متوقع عما إذا كانت هناك أية حفريات من المتوقع أن تجرى في منطقة الشرق الأدنى أو في أي مكان آخر يمكن أن ينضم إليها . وأجاب ليدز ، الذي كان يعرف تماماً عن خطط هوغارت للتنقيب عن الآثار في كركميش ، «لماذا لم تقل ذلك قبل وقت قصير بحق السماء؟» فهو قد ظن بأن الترتيبات كانت انتهت وقطعت شوطاً متقدماً ، إذ أن ر . كامبل قد عين آنذاك مساعداً لهوغارت .

كما بدا أنه من غير المحتمل أن يقوم المتحف البريطاني بدفع تكاليف إرسال عالم آثار تنقصه الخبرة في هذا المجال إلى ذلك الموقع . لذلك ، فعندما عاد هوغارت إلى إنجلترا ، سئل عما إذا كان بإمكان لورنس أن ينضم إلى أعمال الحفريات . ولم يكن هوغارت آنذاك يعرف لورنس جيداً ، إلا أنه كان لديه انطباع مؤثر عن رحلة لورنس مشياً على الأقدام إلى سوريا قبل عام . وكان كل من ليدز وبيل واثقين من أن لورنس يمكنه ان يؤدي دور عالم الآثار بجدارة ، ولابد أن تبدو شخصيته من وجهة نظر هوغارت ملائمة جداً لمهنته . وكان هوغارت قد كتب إلى لورنس قبل ذلك بوقت قصير قائلاً : «إن اهتمامك الصادق بالآثار اهتمام متأصل وليس مصطنعاً» .

ووافق هوغارت على أخذ لورنس معه ، إلا أنه كان من الصعب أن يطلب من إدارة المتحف البريطاني زيادة تمويل البعثة جراء ذلك ، وأن الغياب في الخارج من أجل العمل لا يتوافق أيضاً مع وضع لورنس في الحصول على درجة البكالوريوس في الآداب ،

وسيحرمه من المنحة الدراسية المقدمة من الكلية اليسوعية لهذا الغرض . ورغم ذلك فان لورنس قد كوفيء آنذاك تماماً من خلال مبادرة هوغارت ودعم كلية مجدولين ، بجامعة أكسفورد وتأييدها القوي . وقد خصصت جائزة مالية من أجل القيام بابحاث جامعية للمبتدئين ، يمكن أن تستمر حتى صيف عام ١٩١٤ ، ومقدارها مائة دينار سنوياً .وهذا يعني أن لورنس إذا ما ذهب إلى كركميش فان المتحف لن يضطر إلى دفع المزيد من المال أكثر من تكاليف المعيشة في موقع العمل .

ورغم ذلك ، فمن الممكن أن لا ينتهي العمل في الحفريات قبل أربعة أشهر ، في حين أن المنحة كانت لمدة أربع سنوات . ومن أجل الحصول عليها تقدم لورنس بموضوع بحث تحت عنوان «القلاع النورماندية في المشرق» ؛ وسيمكنه العمل الإضافي في كل من سوريا وفلسطين من توسيع رسالة التخرج ووضعها في كتاب . ومع ذلك فان معظم وقته سيقضيه في أكسفورد ، وإن المشروع يمكن أن يسير في وقت متزامن مع موضوع بحث بكالوريوس الآداب عن خزفيات القرون الوسطى .

وأصبح لدى لورنس آنذاك سببان للعودة إلى سوريا ، فضلاً عن حاجته إلى تحسين لغته العربية . لذلك فقد رتب لقضاء الشهرين الأوليين من عام ١٩١١ في مدرسة البعثة الأميركية في جبيل ، والتي زارها خلال رحلته الراجلة عام ١٩٠٩ . كما أنه بدأ أيضاً بتعلم قواعد اللغة الآشورية والحروف المسمارية ، ليتمكن من استخدامها اذا ما ظهرت نقوش آشورية خلال عمليات التنقيب في كركميش وكان لديه أيضاً أكثر من خمسة مشاريع أخرى بعيدة المدى . واحدة منها اعداد كتاب (وربما كتابين) كان يشير إليه على أنه «عمل ضخم عن الصليبيين» . وكانت ثمة إشارات أيضاً إلى رسائل كتبت بعد ذلك بعدة سنوات تفيد بأنه كان يعد لتأليف كتاب عن تاريخ المسيح بعنوان : «الحياة الاجتماعية والفكرية والفنية في سوريا والجليل عام ٤٠ قبل الميلاد» وهذا سيجعل منه كتاباً مثيراً . وكتحول عن هذه الخطط الجادة ، فقد اعتقد بأن تأليف كتاب سياحي يكون تحت عنوان (مغامرات في سبع مدن شرقية (القاهرة ، القدس ، بغداد ، دمشق ، الخ) ، وترتيب شخصياتها أو صفاتها حسب إيقاعها ؛ أو انسجامها الأخلاقي . وكان آنذاك عازماً على إعداد كتاب أيضاً مشتقاً من كتاب الأمثال (في الإنجيل) : «إن الحكمة تبني بيتاً : ويوجد لها هنا سبعة أعمدة» . غير أن (أعمدة الحكمة السبعة) كانت أيضاً صدى

متقناً لكتاب روسكين (سبعة مصابيح من الهندسة) ، كما يوجد تشابه واضح بين تركيب روسكين والفكرة التي كمنت وراء مشروع لورنس . وفقد هذا التشابه بالطبع عندما استخدم هذا العنوان من أجل مذكراته الحربية .

وسمحت المنحة المالية من كلية مجدولين الدفع قدماً لمشاريع أخرى له .

وقبل مغادرته إنجلترا تحدث لورنس إلى فيفيان ريتشارد ، الذي كان قد استلم آنذاك وظيفة مدرس في بلدة سينغفورد الواقعة على حدود غابة إيبنغ . واتفقا على تشكيل شراكة عمل ، وبدأ بإعداد الخطط من أجل انشاء المطبعة وقبل البدء بطباعة أي شيء فيها ، قام ريتشارد باجراء تصميم طباعة جديدة ارتكزت على طباعة أحرف شبيهة بخط اليد ، وأيضاً لبناء قاعة على نمط قاعة قرون وسطى حديثة من أجل وضع أجهزة الطباعة . وكان اسهام لورنس في تمويل المشروع ، إلا انه لم تكن لديه أية وسائل مالية للقيام بذلك من دون مساعدة . وكان يأمل أن يقوم والده بشراء قطعة أرض لبناء المطبعة وتأجيرها لريتشارد ، إضافة إلى توفير قرضٍ من أجل البناء . وكان الاتفاق في المرحلة الأولى في الأقل ، أن يظل الشريكان يعتمدان في معيشتهما أو دخلهما على أعمال ووسائل أخرى ويقول لورنس في هذا الصدد : «لقد قررت أنا وريتشارد . . . بأن يستمر في عمله بالتدريس في الوقت الراهن . . . فقد اعتقدنا بأنه سيكون من الحكمة فعل ذلك ، إذ أن قوتي في كسب المنحة الجامعية تعتمد على صحتي ، وان قدرتي على انفاقها في أعمال الطباعة ستعتمد على الحصول على راتب ، من أعمال الحفريات والتنقيب عن الآثار ، وفي العام القادم والعام الذي يليه . . . إنها معركة عظيمة من الدهاء ، والابتكار ، من جانبه ، ومن أجل قيامه بالعمل ، والحصول على المنفعة من جانبي ، اذ انه كان عليَّ أن اقوم بتوفير المواد اللازمة للطباعة ، مقابل اشرافه على العمل . وستكون ثمة راحة كبيرة عندما نبدأ بجني ثمار عملنا ذلك» .

وغادر لورنس إلى سوريا ، متوقعاً أن يقوم والده بترتيبات وإجراءات التسوية المالية مع ريتشارد ، الذي استطاع حينذاك بتجهيز أعمال البناء ورغم ذلك ، لا يبدو انه كان متنبئاً بعدم حماسة والده في مساعدة فيفيان ريتشارد ، بخاصة في مشروع يدين بالكثير الى المثالية الرومانطيقية ، ويدرّ قليلاً من العائدات التجارية أو المالية .

الفصل الثالث

البدء بأعمال التنقيب عن الآثار في كركميش
من كانون الأول ١٩١٠ إلى حزيران ١٩١٢

في العاشر من كانون الأول ١٩١٠ ، أبحر لورنس باتجاه بيروت على السفينة سغالين التابعة لخطوط بحرية . وكان مقرراً لها أن تتوقف في كل من نابولي ، أثينا ، سميرنه ، والقسطنطينية . وقد أصيب محرك السفينة بعطب وهي في طريقها ، مما أدى إلى حدوث تأخير في المواعيد لم يكن يتوقعها ، فاستغل فرصة توقفه في أثينا ليقوم باستطلاع ومشاهدة الاكروبوليس ، الذي كان متحمساً لرؤية آثاره ويقول لورانس : «لم يكن يوجد هناك حراس أو بوابون ، ولا مرشدون سياحيون ، ولازائرون آنذاك ، لذلك فقد تجولت من خلال دخولي عبر بوابة بارثينون ، فبلغت الجزء الداخلي ، من دون أن أتذكر في الحقيقة أين ومن أكون لأن كثافة الهواء جعلت عيني يسبحان وانعقد شعوري وإحساسي ولم اعرف سوى أنني كنت غريباً ، أتجول في مكان كنت في رغبة ماسة لأن أراه ، انه معبد أثينا العظيم ، قصر الفن ، وكنت أقوم بإحصاء أعمدته واكتشف هناك ما كنت اعرف عنه من قبل . وكان البناء مألوفاً ، ليس جامداً كما هو على الصور والرسومات ، ولكنه معقد ، غير منتظم ، مفعم بالرقة والروعة ، ومحفوظ تماماً . وكانت كل زاوية من زوايا النحت والنقوش واضحة تحت ذلك الضوء ، ومستقرة في مكانها . . . وهذا ما يمكن أن يقال أيضاً عن اثينا ، وذلك انه يوجد هناك ترنح ، وقوة امتلاك في أطلالها ، وذكريات مزروعة فيها ، الأمر الذي يمنع تماماً أي واحد يحاول وصفها أو تفحصها» .

تأخرت السفينة سغالين عدة أيام في القسطنطينية ، فاستغل لورنس الفرصة لمشاهدة المدينة ومتاحفها . ولم يصل إلى بيروت حتى الحادي والعشرين من كانون الأول ، ثم وصل إلى جبيل ، محطته النهائية ، عشية عيد الميلاد .

وفي نهاية ذلك الشهر وافق فريدريك كينيون ، مدير المتحف البريطاني ، رسمياً على استخدام لورنس في عمليات التنقيب في كركميش ، ومن ثم كتب إلى وزارة الخزانة

ملتمساً الموافقة على تخصيص نفقات إضافية . وكتب يقول في هذا الصدد : «جرى استلام عرض من السيد ثوماس إدوارد لورنس (وهو باحث متخصص في اللغة العربية ، ومطلع على أوضاع البلاد هناك ، وخبير في موضوع الخزفيات) للانضمام إلى البعثة العاملة في طرابلس ، والمشاركة في عمليات التنقيب ، ويرغب السيد لورنس في تقديم خدماته (التي ستكون ذات قيمة مادية كبيرة) ،من دون الحصول على راتب لهذا الغرض ، إلا أنني أطلب من سيادتكم منحه تكاليف المعيشة طوال مدة الحفريات ، ونفقات تنقلاته من بيروت إلى طرابلس (سوريا) وبالعكس» .

وضخمت معرفة لورنس باللغة العربية في هذه الرسالة إلى حد كبير ، بيد أنه كان يكافح في جبيل من أجل اتقان اللهجة السورية . عقد خلال مكوثه في مدرسة الارسالية الأميركية صداقة مع معلمتين هما : الآنسة فريدة العقل ، التي علمته اللغة العربية ، والسيدة ريدر ، التي شجعته على تحسين لغته الفرنسية . وغادر هوغارت إنجلترا في بداية شهر شباط ، مرتحلاً عبر تركيا . وفي بيروت التقى بخبير في علم الآثار ، وعمل معه في عدة حفريات سابقة . وكان هذا جريجوريوس أنطونيو (ويعرف باسم جريجوري) ، وهو شخص قبرصي من لارنكا . وعندما انضم إليهما لورنس ، واتجهوا جميعاً إلى حلب . وقد منحت رحلة القطار لورنس أول معرفة عن قرب بهوغارت ، الذي كان يَعُده سابقاً شخصاً بارزاً ، فيقول عنه : «لقد كان مهماً جداً في الحقيقة ، وبخاصة في ما يتعلق بالجغرافيا العربية . . . وهو يعرف بالطبع جميع أنحاء البلاد (سوريا) من خلال ما سمعه عنها ومن الكتب أيضاً ، وقد تعرفنا على جميع قمم الجبال والوديان والطرق الرئيسة . . . وفي درعا كانت المنطقة كلها مشمسة ، وتناولنا إفطاراً فرنسياً في بوفيه المحطة ، وكان السيد هوغارت يتكلم ايضاً التركية ، واليونانية ، والفرنسية ، والألمانية ، والإيطالية ، والإنجليزية بالاتقان نفسه ، كما أمكنني تخمين ذلك . وتملكنا شعور غريب بعيد جداً فعلنا عن أوروبا» . وقد طرأ تأخير على رحلتهم بسبب سوء الأحوال الجوية بيد أنهم وصلوا إلى طرابلس أخيراً في الحادي عشر من آذار .

كانت أطلال كركميش وآثارها تغطي مساحة عشر إكرات ولم تلمس منذ نحو

ثلاثين سنة . ولا بد أن لورنس كان متشوقاً لما يمكن أن يكتشف تحت سطح الأرض . وكتب هوغارت فيما بعد هذا الوصف للمدينة التي وجدها (اكتشفها) : «كان الموقع كبيراً على شكل بيضاوي محاطاً بسدود يبلغ ارتفاعها في بعض الأماكن حوالي خمسة وعشرين قدماً ، وتخفي بين طياتها حصون المدينة المبنية من القرميد ، وتخترقها بوابتان ، واحدة في الجنوب والأخرى في الغرب . وفي الشمال الشرقي من النهر ، ولكن ضمن السور ، يرتفع حصنٌ اكثر علواً وأهمية . تبلغ قمته نحو (١٣٠) قدماً عن سطح النهر ، ومن الواضح انه كان يستخدم كحصن أغريقي . ويبلغ طوله نحو (٣٢٠) متراً من الشرق غرب - والجنوب شرق ، وينحدر بشكل حاد صوب النهر ، ويكون ذلك بشكل أيسر باتجاه البلدة . أما القمة فهي منبسطة وتظهر دلائل على أنها كانت تحمل بناءات سورية - رومانية مهمة ، وهناك أجزاء كبيرة منه قد تهدمت وسقطت ، واستقرت على الانحدار المائل . وكان هدف هوغارت اكتشاف معلومات كافية عن الموقع لتقييم ما إذا كانت آثار الحثيين ومخلفاتهم جديرة بالمزيد من الحفريات هنا وهناك . ولم يكن بإمكانه القيام بأية حفريات تصنيفية في فصل واحد ، كما أنه لم يجلب معه المعدات الضرورية لمثل ذلك العمل . وكان يعلم أن آثار الحثيين تقع عند حواف الحصن ، وفي ضمنها جزء من درج كبير . وكان الموقع يدل بشكل واضح على أعمال حفر قديمة ، وذلك من خلال أكوام التراب التي خلفت ، ومن خلال الحجر الذي ما زال جزء مرئي منه فوق سطح الأرض لذلك ، فقد قرر هوغارت البدء بالعمل في المكان نفسه ، حيث بدا أن من المحتمل وجود أبنية بالقرب من الدرج . وبدأت أعمال الحفريات في (١٣) آذار ، وسرعان ما جرى استخدام مائة رجل لهذه الغاية . وقد اتخذت البعثة بيت إقامة لها في طرابلس يعود الى شركة محلية متخصصة بالسوس ، مادة العرق سوس . وقد وفر هذا ملجأ ضئيلاً يقي من برودة الطقس .

في عام ١٩٠٨ ، عندما جرى تخطيط أولي من أجل القيام بالحفريات ، توقع المتحف البريطاني أن يقوم هوغارت نفسه بإجراء ذلك . أما الآن وبما أنه أصبح محافظاً لأشمولين ، فمن الغير المحتمل أن يستمر غائباً في الخارج مدة طويلة ، فقد كان عليه أن يعود بعد فترة وجيزة إلى أكسفورد ، ولم يكن بإمكانه أن يقضي في الموقع سوى خمسة أسابيع فقط .

وكان قد رتب بأن يقوم كامبل ثومبسون، الرجل الثاني في المسؤولية، بأعماله ومسؤولياته. ورغم أن ثومبسون كان خبيراً بالأحرف المسمارية مع امتلاكه خبرة قليلة بهذه الحفريات، فإن هوغارت كان لديه بعض الشكوك حول قدرته على أداء المهمة. وبعد أن شاهده في العمل بضعة أيام، كتب هوغارت إلى كينيون يقول: «يجب أن يكون ثومبسون في الحقيقة المساعد الثاني إلى جانب لورنس. إلا أن الأخير سيأتي بعده بتشوق في الملاحظة وعملية التسجيل ـ وفي الواقع أنه عالم آثار أفضل من ثومبسون ـ ولكن ليس في السياقة».

وكان الشاغل الآخر هو خط سكة حديد برلين ـ بغداد، الذي انشأته شركات إنشاءات ألمانية. ولم يكن هذا الخط قد بدأ العمل به عندما وافق المتحف البريطاني على إجراء الحفريات في بلدة طرابلس عام ١٩٠٨. أما الآن فقد أصبح هذا الخط الحديدي يشكل تهديداً، إذ كان مقرراً له أن يخترق نهر الفرات عند طرابلس، وسيشكل العمل فيه خطراً على جزء من الموقع الأثري. وكان سيستغرق بناء جسر الخط الحديدي على نهر الفرات عدة سنوات كما كان يوجد حينذاك معسكر للعمل أقيم هناك من أجل فريق مهندسين ألمان. وربما أن شركة الخطوط الحديدية كانت تستخدم عمالاً محليين، فقد كان ثمة تنافس أيضاً بين البعثات الألمانية والإنجليزية في هذا الصدد.

وكانت أولى مهمات لورنس في كركميش مواصلة عمله العادي على خزفيات القرون الوسطى كما كان الأمر في أكسفورد، ويقول في هذا الصدد: «يبدو من المحتمل أنني سأولي اهتمامي بالفخاريات المكتشفة؛ فهذا عمل يلائم ذوقي تماما». إلا أنه لم يكتشف سوى عدد ضئيل من الفخاريات في الأسابيع القليلة الأولى، ورغم ذلك فقد ظل منشغلاً، وكانت لغته العربية مطلوبة باستمرار في أثناء العمل في الموقع. وبعد بضعة أيام، كتب لوالديه عن الحفريات يقول: «يبدأ العمل في الساعة السادسة صباحاً، ونتناول طعام الأفطار أولاً، ثم نتمشى قليلاً. وكان ثومبسون يقوم بمسح للموقع، وسينتهي من ذلك بعد أسبوع، أما السيد هوغارت فيقوم بكتابة النتائج؛ وكنت أنا أرسم النقوش والتماثيل، وأوجه العمال أيضاً. وكان العمل يمضي متواصلاً (مع ساعة راحة من أجل الغداء) حتى غروب الشمس، ثم نذهب إلى البيت؛ ونقوم بكتابة التقارير،

وعمل الكتالوجات ، وبعد ذلك نتناول الطعام ، ونذهب إلى النوم وقد انشغلنا في البيت بعمل إضافي ، حيث قمنا بعمل رفوف ، وتركيب أبواب ونوافذ ، الخ . وكنت أنفذ أغلب العمل وبطريقة يدوية . . . إلا أن العديد من الألواح الخشبية الموجودة قد شوهت جداً عملية الرسم أو التقاط الصور إذ كنت أحاول أن أرسم بمساحة أكبر من أجل إعادة الإنتاج ، وكان هذا يُعَّد عملاً كبيراً . ذلك لأن ترميم رأس أسد يُعَدُ عملاً جميلاً ، من الناحية الفنية ؛ كما هي الحال أيضاً في ترميم إله من الآلهة القديمة أو تمثال ملك من الملوك . . . وتُعَّد المنطقة جميلة جداً من الناحية الطبيعية ، من حيث ينابيعها ونهر الفرات ، وسهل تل الأحمر ، وجبال طوروس ، المكسوة بالثلوج الواقعة إلى الشمال . فالمشهد برمته أصبح الآن مثالياً ، أو أنه سيكون كذلك إذا ما كان لدى المرء وقتاً للتفكير به .

وأظهرت الحفريات العديد من آثار الحثيين المنقوشة على الأحجار ، وسرعان ما أثبتت كركميش أنها غنية إلى حد كبير بهذه الأحجار المنقوشة . وبعد سنوات عدة ، كتب عالم الآثار الآشورية البارز ، ر . د . بارنيت ، يقول في هذا الشأن : «لقد اثبتت مجموعة النقوش المكتشفة في كركميش أهمية كبيرة في دراستها وحل رموزها . ومهما كانت الأسباب ، فقد تكون نقوش كركميش موازية أو أنها تسبق في هذا العدد والأهمية تلك النقوش المكتشفة في مواقع أخرى . ويبدو بالتأكيد أن كركميش كانت عبارة عن حاضرة في الألف الأول قبل الميلاد» .

إن اكتشاف هذه النقوش التي يتعذر حل رموزها أصبح مصدراً مستمراً للاخفاق ، وبخاصة بالنسبة لثومبسون . فبالرغم من الآمال بوجود نقوش ثنائية ، لم يكتشف أي شيء من هذا القبيل ، كما أن الموقع لم يظهر أية كتابة مسمارية تقريباً . ورغم ذلك ، فإن لورنس كان متمتعاً بشكل كبير ، وكانت رسائله التي يبعث إلى إنجلترا مليئة بالتخمينات والأحداث المسلية . فقد اعتاد على الحياة الشاقة أكثر من زملائه ، وكان ينظر إلى انزعاجهم وتعبهم بشيء من المتعة والتسلية ففي ٢٧ آذار ، مثلاً ، كتب إلى ليدز عن أوضاع المعيشة هناك يقول : «إن البيت الذي نعيش فيه مبنٍ من حجر ، وأرضه وسقفه طينيان ، وكانت أجزاء صغيرة تتساقط من السقف طوال اليوم ؛ وتعشعش فيه الطيور .

هذا فضلاً عن القطط . التي كانت تدخل في الليل من خلال ثقوب في السقف والجدران ، وتهاجم أسرتنا بشراسة . وكان هوغارت يقوم بقذف حذائه باتجاهها فيصيب ثومبسون ، أو يصيب المصباح ويسقطه أرضاً ، وعندما يقوم بإصلاح الخراب ويعود إلى سريره يجد قطاً يرقد فيه . وهذا بالنسبة للقط ، اما القطة فقد تكون كئيبة وضجرة ، فهي تموء بصوت مرتفع من أجل الطعام ، وغالباً ما يكون ذلك في الساعة الثانية صباحاً . . . أما اذا ما كنت ساهراً فاني اشفق عليها ، واذا ما ايقظتني بأنياب مخالبها في وجهي ، فانها توقظ بقية أعضاء البعثة (الذين ينامون في مكان واحد ومعهم مسدساتهم محشوة) ، بسبب صراخي ، ثم تفر عبر النافذة . . . أما إذا كنت نائماً فيغلب عليها التسامح ، بيد أن بقية أعضاء البعثة يصحون مرتين أو ثلاث في الليلة ، شاهرين مسدساتهم» .

لقد فرض عدم وجود رافعات أو ناقلات حديدية خفيفة تقييدات كبيرة على عمليات الحفر في الموقع ، فبعض أجزائه كان صعب الوصول إليها لأنها تقع تحت أساسات أسمنتية رومانية قديمة . إذ أن أي مكان منه كان يقع تحت أطنان من القصور الرومانية المبعثرة . ويقول لورنس في هذا الصدد : «أينما كنا نحفر ، نجد عشرات من هذه الأحجار الضخمة التي ينبغي أن تزال . وكان بعضها يزن أطناناً ، ولم يكن لدينا ديناميت تفجير لتكسير الحجارة . ونتيجة لذلك فقد كان يجري ربطها بالحبال وسحبها بطريقة ما قبل التاريخ ، بواسطة الرجال ، مستخدمين عتلات صغيرة لزحزحتها . وكان أحيانا يقوم بهذا العمل أكثر من ستين رجلاً ، وكل رجل يتفوه بكلمة «ياالله» وهو يقوم بسحب الحجر الضخم» . وكان على أحد الرجال الإنجليز الثلاثة (هوغارت ، ثومبسون ، ولورنس) أن يتواجد في الموقع كلما كان العمل قائماً فيه ، وقد قضى لورنس معظم وقته هناك . الأمر الذي منحه فرصة معرفة المزيد عن السكان المحليين .

ومع نهاية شهر آذار تمكن هوغارت من تنظيف معظم الدرج . وقد بدا الجزء العلوي منه متهدماً ، إذ كان يقع تحت أحجار ضخمة وأكوام من التراب لا يمكن إزالتها . أما الجزء الأسفل منه فقد حفظ جيداً ، فقرر هوغارت أن يحفر من الأسفل ، على أمل أن يجد هناك أبنية أثرية . وقام بحفر خندق يؤدي إلى الدرج ويكون موازياً لعرضه . قد أدى ذلك في نهاية الأمر إلى الكشف عن جدار منخفض متواصل مع خط الدرج . وكانت توجد

إلى جانب الجدار ألواح متعرجة من البلاط ، بعضها مكسور تماماً . وفي الأمام ، كان يوجد سطح مبلط ؛ وقد بدا أن الجدار شكل جانباً واحداً من ممر قريب من الدرج كان هذا الجزء من الموقع هو «القصر الأسفل» ، كما اكتشف في ما بعد .

وشكلت النقوش البارزة سلسلة مروية أظهرت المحاربين الحثيين في كامل أبهتهم العسكرية ؛ وكان ذلك على جانب كبير من الأهمية ، لأن مثل هذه الصور لم تكتشف من قبل . وكان يوجد بين هذه النقوش لوح ضخم متكامل تقريباً ، يحمل نصاً حثياً كتب بالأحرف الهيروغليفية لم يكتشف من قبل . وقد بدا أن المدينة الحثية قد نهبت تماماً ودمرت ، وخشي هوغارت من أن ذلك لن يوحي بحفريات جيدة . وبدأ محاولة الحفر في الرابية او الكومة الترابية ذاتها لاكتشاف ما يمكن تحتها . وكان يجري الحفر من القمة ويزاح التراب إلى الجوانب ، بيد أن الحفارين واجهوا مرة ثانية عوائق مثبطة . ولم يكن بوسع هوغارت ان يأمل أكثر من معرفة ما إذا كانت توجد آثار وبقايا لأبنية قديمة في الرابية .

وبعد أسبوعين ونصف من العمل ، كتب هوغارت الى كينيون يقول : «أنه لمن المبكر لأوانه ، بالطبع ، التنبؤ بما سيكتشف ؛ إلا أنني بدأت أتنبأ أو أشك بأمرين : أولاً ، عدم وجود آثار قديمة مهمة هنا ، ما عدا ، ربما في داخل الرابية الكبيرة .ثانياً ، أن الأبنية القديمة الأكثر أهمية موجودة في رابية الأكروبوليس تحت عمق عشرين قدماً في الأقل ، من الأطلال والطمي ، وربما تحت مسافة أعمق . ومهمة الوصول إلى ذلك من الأسفل ، أو من زوايا الرابية ستكون شاقة بسبب حجم الأحجار الساقطة ووزنها» وكانت لديه كذلك شكوك حول الأسباب التي يوصي بها مستقبلاً ، حيث يقول : «لا ينبغي عليّ أن انصحك بالمجيء الى هنا لكي تحصل فقط على نقوش للحثيين تعود إلى عهد متأخر نسبياً ، وعلى آثار حثية آشورية . فأنت تريد سجلات مسمارية ، وأبنية قديمة جيدة الوضع بكامل ديكوراتها وأثاثها . وهذه لم يحصل عليها بعد» .

وكان هوغارت حتى ذلك الوقت واثقاً جداً بقدرة ثومبسون على مواصلة عمليات التنقيب . كما لاحظ فضلاً عن ذلك ، «أنه كان ضعيفاً في نقاط آثارية معينة ، أما لورنس فقد كان قوياً فيها . . . إذ وجدت لورنس معاوناً متشوقاً ، وستكون حكيماً لو أنك

تستخدمه ما أمكنك . فقد كان يمتاز عن ثومبسون» .

وأصبح هوغارت يفكر آنذاك بموقع بديل كان قد زاره في عام ١٩٠٨ ، وهو تل الأحمر الذي كان يعتقد بأنه من الممكن أن يخصص له فصلين من العمل في عامي ١٩١٣ - ١٩١٤ ، اذا لم ينجم أي شيء عن موقع كركميش . وكان لورنس متحمساً لهذا المشروع ، وبخاصة أن هوغارت لن يكون حراً في العمل هناك ، «وان المكان سيترك لثومبسون ولي . وبما انه ليس حفاراً فإن الإشراف على ذلك الجزء سيكون من نصيبي . وقد اقترح السيد هوغارت بأن قضاء نصف فصل مع بيتريه في مصر ربما يوفر خبرة قيمة ؛ وبالطبع سيكون كذلك . فالحفر والتنقيب في أية حال سيكونان دائماً أمراً أحاول أن أقوم به ، وكلما عرفت المزيد كان ذلك أفضل» .

وبينما كان لورنس يعمل في كركميش ، كان والده لا يزال يحاول الوصول إلى نوع من الاتفاق مع فيفيان ريتشارد حول تمويل مشترك للمطبعة . ولم يكن والدا لورنس يحبذان ريتشارد ، وسيكونان سعيدين لو أن المشروع يفشل ورغم ذلك فقد ركز لورنس على ذلك بعناد ،حاثاً والده على ، «أن ريتشارد كان كسولاً وضعيفاً في العمل كما اتوقع . . . فبالطبع ليس لديه وقت ليقضيه في ذلك العمل . . . وأخشى كثيراً من أنه لن يقوم بذلك مطلقاً ؛ وفي هذه الحال فأنني أخشى أن تكون فرصي في القيام بعمل ما جيد ضيئلة جداً ؛ وأنا لن أمضي في وضع كل طاقاتي في أمور تافهة مثل كتابة التاريخ ، أو أن أصبح عالم آثار ، إذ أنني أفضل على ذلك كتابة رواية ، أو أن أصبح مراسلاً لصحيفة ما . ورغم ذلك فانه ما زال يوجد أمل في أن يمسك ريتشارد بزمام الأمور» .

وبالرغم من هذا الهيجان ، فقد كان لورنس يتقدم باضطراد في حرفة علم الآثار . ومن أجل إكمال التدريب ، كتب هوغارت إلى فليندرز بيتريه ، رئيس مدرسة الآثار البريطانية في مصر يقول له : «هل بوسعك فسح المجال في حفرياتك في الشتاء القادم لطالب شاب من جامعة أكسفورد ، تحت التخرج ، واسمه ثوماس لورنس ، وكان يعمل معي في كركميش؟ إنه انموذج غير عادي تماماً ، ورجل أشعر تماماً بانك ستوافق عليه وتحبه ، فلديه معرفة واسعة جداً بالآثار ، رغم أن هذه المعرفة ليست بالآثار المصرية لكونه يمكن أن يستخدم مستقبلاً من قبل المتحف البريطاني أو جهات أخرى ، وكنت أحب

كثيراً لو أنه حصل على بعض الخبرة من مدرستكم وبخاصة في الحفريات المخصصة للبحث عن المقابر الفرعونية . واعتقد بأنك ستستفيد منه لو وضعته ، مثلاً ، في موقع للبحث عن مقابر فرعونية قديمة . وإذا ما جاء إليك ، فانه من المحتمل أن يجيء ما شيأ من سوريا . ويمكن أن اضيف بأنه غريب جداً في مأكله وطريقة معيشته وهو يعرف قدراً كبيراً من اللغة العربية ، رغم أن اللهجة التي يستخدمها تعود إلى لهجات شمال سوريا المختلفة . وآمل جدا في أنك ستفسح المجال أمامه ، لنحو شهر في الأقل . ويمكنني أن أؤكد لك بأنه يستحق ذلك في الحقيقة» .

بيد أن خطط لورنس الأخرى في المستقبل كانت مختلفة تدريجياً . فعندما جاء إلى كركميش ، كانت لديه ثلاثة مشاريع ثابتة . الأول الإعداد لشهادة البكالوريوس في الآداب من جامعة أكسفورد ، عن الخزف والفخاريات في القرون الوسطى ، والثاني هو إنشاء مطبعة بالاشتراك مع فيفيان ريتشارد ؛ والمشروع الثالث هو تطوير رسالته عن قلاع الصليبيين إلى مشروع كتاب .

أما الآن ، فقد أنجذب لورنس بقوة إلى الحياة التي عاشها في كركميش . فالعمل الميداني في الموقع كان متوازياً مع النشاط الفكري في المساء والمتمثل بالتحدث مع هوغارت وثومبسون أو ممارسة القراءة . وكانت فكرة دمج علم الآثار الميداني مع القيام برحلات والكتابة ، كما كان يفعل هوغارت ، قد بدت له عظيمة . وكان يفكر بازدياد في نموذج دوفتي ، وبدأ يجد نفسه مهتماً أكثر بسكان سورية أكثر من اهتمامه بالآثار القديمة . وقبل مغادرته إنجلترا كان يفكر بالسفر والتنقل مع السلابين المتنقلين ، وهو بذلك لا يبدو متطفلا بين العرب بل متمتعاً ، برفقتهم والتنقل معهم . وفي شهر آيار ، ومع انتهاء التوقعات بقضاء فصل ثان في كركميش ، كتب لوالديه حول تلك الفكرة يقول : «ان السلابين المتنقلين ليسوا من الغجر ، وهم ينكرون كل صلة بهم . بل وثنيون ، من سكان الجزيرة العربية الأصليين . وينتقلون ويرتحلون مشياً على الأقدام ، وبعضهم لديه ثروة وحمولات جمال من الأمتعة . كما انهم صائدو غزلان ، ويستضيفون الأقوام البسيطة ، وليسوا متطرفين . إلا انهم يُزدرون بشدة من قبل العرب ، وهم كما صورهم دوفتي بدائيون في معيشتهم جداً . . . وانني لا أحاول منافسة دوفتي . وتذكران ذلك الفصل من حياته الذي عاش فيه في بيوت الشعر ، واشعر الآن ان السنتين اللتين تجول فيهما دوفتي في

أماكن غير ملوثة قد جعلتنا منه رجلاً ، اكثر مما أعد له بعناية من قبل وفي ما بعد . وستكون كتبي هي الأفضل ، إذا ما كنت في وقت من الأوقات في بلد منفتح ، فالحياة العربية هي الوحيدة التي لا تزال تحوي الشعر القديم الأسهل على القراءة . . . فقضاء فصلي الربيع والصيف مع (عرب الصحراء) سيمنحني خبرة جديدة إلا أنه لا نية لي في تأليف كتاب عن ذلك . ولن اتوغل كثيراً في الحياة العربية . . . فأنا لا أحبذ العادة الحديثة في تشويه الأساطير كافة وتحريفها بهدف دراسة علم الإنسان» . وقد ناقش لورنس الفكرة مع هوغارت ، الذي ذكره بأن (الصليب) عرب الصحراء اشتهروا بأكل لحم الغزلان التي يصطادونها نية . واستذكر هوغارت في ما بعد بأن هذا «بدا يعطيه نظرة تأمل» .

وغادر هوغارت ومعه جريجوري كركميش في ٢٠ نيسان تاركين كل من ثومبسون ولورنس مع بضعة عمال لاستكمال عملية الحفر . وفي طريق عودته إلى إنجلترا ، أعد هوغارت تقريراً مطولاً ، بين فيه النتائج التي كان قادراً على الوصول إليها . واختتمه بقوله : «انني أغامر لأوصي بأن يسمح بمواصلة العمل تحت اشراف السيد كامبل ثومبسون طوال الصيف القادم ، اذ أنه قادر على حفظ ذلك والمضي فيه من الناحية الاقتصادية ، من أجل اثبات انه لا يوجد هناك اكروبوليس ولا الأرض الواقعة إلى غرب موقع العمل من المحتمل ان تكون ملائمة لاستعادة ما انفقتموه ، فهو من الممكن أن يسمح له بمواصلة العمل ما دامت التحويلات متوفرة . . . فالموقع واسع جداً ومشهور مثل طرابلس ، ويتطلب ، كما اعتقد القيام بمحاولة كاملة ، بحيث يمكن أن تمتد إلى أقل من فصل كامل» .

ولابد أن هوغارت قد أدرك بأنه من المستحيل أن يكون ثمة اكتشاف مرض ، يمنح أهمية للموقع ، بسبب القوة العاملة الصغيرة التي خلفها ، والعوائق التي تشكلها أطلال الحثيين . ففي مثل هذه الظروف ، يمكن أن يظهر الفصل الأول الحاجة إلى القيام بحفريات أخرى تكون مضمونة ، غير أنه لا يمكن بالتأكيد أن تثبت العكس . وكان ثومبسون حينذاك يقوم باجراء فحص كبير على المنطقة من خلال قيامه بحفريات متفرقة هنا وهناك على أمل أن يحدث تغيير ما يمكن أن يبرر كثيراً إجراء الحفريات رغم أن

هوغارت قال في هذا الصدد : «ان القيام بعملية حفر في موقع ما ، واكتشاف شيء ما يعتبر مصادفة في أفضل الأحوال» .

وفي منتصف شهر آيار زارت جيرترود بيل كركميش . وكانت آنذاك رحالة وعالمة آثار متميزة بعض الشيء . وقد بذل مساعدا هوغارت هناك جهد ما لاخفاء عدم خبرتهما وما ترتب على ذلك من نتائج مخيبة للآمال وكتب لورنس إلى والديه يقول : «لقد أبلغت ثومبسون بأن طريقته في الحفريات كانت بدائية تعود إلى ما قبل التاريخ ؛ لذلك فقد كان علينا ان نستعرض معها المعرفة الواسعة المكتسبة من الكتب . وقد تناولت في خمس دقائق كل من الهندسة المعمارية للبيزنطيين ، والصليبيين ، والرومان والحثيين ، والهندسة المعمارية الفرنسية ثم تحدث ثومبسون عن الفولكلور الأغريقي ، والهندسة المعمارية الآشورية ، والأعراق البشرية لبلاد مابين النهرين (العراق) ، ثم تحدثت أنا عن خزفيات وزجاجيات ما قبل التاريخ ، والوسائل المعدنية للعصر البرونزي ، وشرح نظريات ميردث واناتول فرانس واعقبني ثومبسون فتناول حركة تركيا الفتاة ، وبناء الدولة العربية ، وسعر ركوب الجمال ، وعادات الدفن عند الآشوريين ، والأساليب الألمانية في القيام بحفريات مع سلطة الخط الحديدي في بغداد . وكان هذا نوعاً من المقبلات ؛ وعندما انتهى كل ذلك (وقد لقيت احتراماً اكبر لقاء ذلك) استفسرنا منها عن عدة مواضيع ، وكانت ممتنة جداً لأن تشرب الشاي بعد ساعة ونصف من الحديث ، وعند ذهابها ابلغت ثومبسون بأنه قام بأعمال عجيبة في حفرياته تلك ، وانها كانت تعتقد بأننا قد قمنا ما باستطاعتنا ، لقد كانت معجبة بشكل خاص بانجاز كتب ملاحظاتنا . وهذا ما قمنا به تجاهها اذ سيكون أمراً مؤلماً جداً لو انها انتقدت وسائلنا» .

كما أن جيرترود نفسها كتبت عن هذا اللقاء تقول : «لقد وجدت السيد ثومبسون والشاب المدعو لورنس (وهو يريد أن يصبح رحالة) ، والذي كان يتوقع لبعض الوقت بأنني سأظهر . وقد أطلعاني على الحفريات التي قاموا بها واكتشافاتهما ، وقضيت هناك يوماً ساراً معهما» .

وكان ثومبسون يخطط لإنهاء العمل في نهاية شهر حزيران ومن دون اكتشاف نقوش مسمارية فان تلك الحفريات ستكون قليلة الأهمية بالنسبة له ، كما أنه كان سيتزوج

قريباً مع نهاية ذلك الفصل ، ولكن الحظ بدأ يتحول باتجاههما في نهاية ذلك الشهر ، فحققا سلسلة من الاكتشافات المهمة .

بيد أن سرور لورنس لم يدم طويلاً . ففي يوم ٢٤ حزيران تلقى برقية من كينيون تطالب بوقف عمليات الحفر ، فكتب إلى أسرته مخففاً يقول : «لقد تلقينا أوامر بأن نوقف عمليات الحفر والتنقيب في غضون أسبوعين . اذ وردتنا برقية من إدارة المتحف البريطاني ، تفيد بأن أملهم من النتائج التي حدثت هناك خائب وانه لن يكون ثمة فصل آخر من العمل . انه لشيء مؤسف جداً أن يأتي هذا القرار مع بدء بوادر مشجعة في هذا الصدد . وسنترك الموقع وهو في حالة مبعثرة ، فهناك اكوام من الأتربة والحجارة لعمل لم ينجز بعد» .

في الثامن من تموز غادر ثومبسون ولورنس إلى طرابلس لقضاء بضعة أيام هناك ، بناء على اقتراح هوغارت ، وللقيام بفحص الأطلال والآثار في تل الأحمر ، وهو يبعد بضع ساعات عن كركميش . وانفصلا بعد أربعة ايام ، ليتسنى للورنس رؤية القلاع الصليبية هناك . فزار خلال أسبوعين القلاع الموجودة في كل من اورفة ، وحران ، وبيريدجيك ، وورم قلعات ، وسجل ملاحظات فنية عن فن هندستها وبنائها .

وفي أواخر شهر تموز رجع لورنس إلى طرابلس من أجل إنهاء عمل أو عملين في الموقع . وبينما كان هناك أصبح مريضاً جداً بالدزنتاريا ، وذكر ذلك في يومياته بقوله : «من المحتمل ان لا أتمكن التنقل في مثل هذا الوضع» . وكان غير قادراً على العناية بنفسه فاعتنى به الشيخ حمودي ، الذي كان يعمل رئيساً للعمال في الموقع . إلا أن لورنس ظل في حال خطرة لعدة أيام . ولم يكن مرتاحاً عندما علم بأن الشيخ حمودي قد نصح بعدم مساعدة مثل هذا الرجل المريض ، خشية أن يلام اذا ما سارت الأمور نحو الأسوأ . وما كان على لورنس إلا أن حرر لحمودي ملاحظة تجعله في حل من أية مسؤولية في هذا الشأن .

وواصل لورنس كتابة يومياته خلال مرضه ،ملاحظاً ، مثلاً ، في ٣١ تموز : «أن الحاج (حمودي) كان جيداً بشكل كبير طوال هذه الأيام فقد كرّس وقته وصبره كله لي . وكان على الرجل المسكين أن يبذل جهداً مضاعفاً حتى يستطيع ادخال فكرة ما إلى رأسي

المثقل وكانت غالباً ما تفهم قبل ان يتحدث . ويحاول في المساء أن يطعمني قمحاً مسلوقاً مع الحليب المغلي بشكل جيد ، ثم جاء داحوم ليعودني» .

وكان داحوم خلال فصل الحفريات يعمل حوذياً في البعثة ، فيقوم بنقل المياه والبريد إلى كل من ثومبسون ولورنس . وفي أواخر شهر حزيران ، وصفه لورنس في رسالة بعثها إلى والديه بأنه «كان ذا شخصية مثيرة للاهتمام : فقد كان بامكانه قراءة بضع كلمات بالعربية ،كما كان لديه ذكاء أكثر من بقية العمال الآخرين . وكان يقول بأنه سيذهب إلى المدرسة في حلب بواسطة النقود التي حصل عليها منا . وكنت أحاول أن اراقبه ، لأرى ما سيحدث . فهو سيكون الأفضل في قريته ، بسبب انخفاض مستوى الذكاء بين أقرانه من العمال في القرية» .

ويقول لورنس في هذا الصدد : «لحسن الحظ لم يكن يوجد بعد تأثير أجنبي في المنطقة اذا ما قيض لك فقط رؤية الخراب الذي سببه النفوذ الفرنسي ، والأميركي بدرجة أقل ، فانك لن تتمنى ابداً أن يتوسعا ويمتدا . وكانت سوقية العرب شبه الأوروبية مروعة . فقد كان أفضل الاف المرات أن لا يتصل أحد او يحتك بالعرب . فالأجانب قدموا إلى هنا للتعليم دائماً ، في حين كان عليهم التعلم بصورة أفضل ، إذ أن العرب كانوا «هم الأفضل بصورة عامة في كل شيء ، ولا سيما في الذكاء والمعرفة» .

وكما تظهر هذه الرسالة ، فإن وجهات نظر لورنس قد تغيرت بصورة دراماتيكية . فقبل سنتين خلتا كان يمتدح العمل الذي كانت تقوم به المدارس التبشيرية الأميركية . ويبدو أن دوحان ، الفتى العربي ذو الرابعة عشر أو الخامسة عشر ربيعاً ، كان يجسد كل ما يعجب لورنس حينذاك من السكان الأصليين للبلاد . وكانت وجهة نظره الرومانسية شائعة تماماً بين ذلك الجيل من الرجال الإنجليز . وقد بين نقاد العصر الفيكتوري أن الثورة الصناعية قد ترافقت مع انخفاض القيم الأخلاقية الاجتماعية ويتضح من رسائل لورنس التي كان يبعث بها إلى أسرته ، انه كان يشارك في وجهة النظر هذه . وقد بعثت هذه المواقف حياةً جديدةً في المفهوم الفلسفي «البدائي الشهم» ، اذ كان لورنس يعتقد بأن المجتمع الريفي الزراعي في سوريا كان يشبه بطريقة المجتمع الفقير في بريطانيا .

ورغم ذلك ، فقد شجع لورنس جهود دوحان في تعليم نفسه ، وكتب رسالة إلى

مدرسة الارسالية الأميركية في جبيل طالباً منها المساعدة في هذا الخصوص ، يقول فيها : «لقد بدأ يستخدم (دوحان) عقله وموهبته الطبيعية . فاستطاع أن يعلم نفسه قليلاً من القراءة رغم أنه لم يكن لديه سوى القليل من المواد التعليمية التي يتعلم بها ، إلا أنني جعلته يقرأ ويكتب أكثر مما كان يعرفه من قبل . وتعلمون بأنه لا يمكنكم فعل الكثير بواسطة العصا والجلوس على الأرض المغبرة لتلقي العلم وأنا اتوجه الى الأنسة فريدة من أجل تقديم بضعة كتب بسيطة ، مسلية ، بالنسبة له ليبدأ التعلم بها . وتذكروا بأنه شخص مسلم» . وبعد ذلك بشهر وسع هذا الطلب بقوله : «إن ما أريده للفتى الحوذي هو كتاب في التاريخ أو الجغرافيا ، باللغة العربية يكون سهل القراءة . . . ولا يحتوي على أية «نكهة» (أسلوب) افرنجي . فانا لا ارغب للفتى سوى فرصة لمساعدة نفسه . اما بالنسبة للتعليم ، فان لدي الكثير منه ، واستطيع ان اقوم بذلك من دون حضوركم» وبينما كان لورنس يقوم بمساعدة دوحان في التعليم ، كان قادراً على تحسين معرفته باللغة العربية ، وأصبح يخطط آنذاك للعودة إلى طرابلس في الشتاء ومعه فكرة أن إجادة اللهجة القروية العربية ستساعده على التنكر أو اخفاء شخصيته في تنقله وترحاله .

ومن المحتمل جداً أن دوحان كان يشارك لورنس في رومانسيته . فقد كان يرى التعليم بأنه وسيلة للفرار من الحياة الفقيرة البائسة للريف ، وان تأثير لورنس فيه لابد إنه فرصة رائعة إلا أنه لم تكن لديه أية معرفة أو فهم للمثاليات الغربية الفيكتورية التي يحملها مشجعه (لورنس) . وخلال الأيام التي قضاها لورنس في بيت دوحان ، في أثناء مرضه وخشيته من الموت ، كان دوحان يأتي ليراه كل مساء . وكما أن العناية التي لقيها من هذين القرويين (حمودي ودوحان) من المحتمل أنها قد انقذت حياته ، وأنه لم ينس ذلك مطلقاً . فبعد سنتين كان عليه ان يأخذهما إلى انجلترا مكافأة لهما ، وخلال ذلك الوقت ، كانت رسائل لورنس تظهر عناية أبوية تجاه دوحان .

وفي الثالث من آب ، كان لورنس لا يزال ضعيفاً جداً ، مما جعله يتخلى عن أية خطط للقيام بحفريات في ذلك الصيف ، وقرر العودة إلى إنجلترا . ووجد في طرابلس رسالة من هوغارت أُرسلت بواسطة ثومبسون ، تحتوي على آمال قوية في بدء فصل ثان من الحفريات . لذلك كان يخطط ، وهو في طريقه إلى الوطن ، لعودته تلقائياً .

وعندما وصل إلى بيروت ،سرّه أن يجد الشاعر جيمس ايلوري فليكر قد عين في

القنصلية البريطانية هناك . وكان فليكر وزوجته هيلي قد وصلا إلى بيروت للتو . وفي الثامن من آب كتب لورنس يقول : «لقد قمت بشيء قليل ، بيد أنني تحدثت معهما . وكان عليَّ أن انتظر يوماً إضافياً هنا بسبب أمور تهمني في مكتب البريد الذي كان مغلقاً عندما وصلت» . وبعد زيارة قصيرة إلى دمشق ، أبحر لورنس من بيروت في ١٢ آب إلى مرسيليا ، ومنها سافر الى انجلترا براً» .

وأمضى ذلك الصيف في استعادة قواه ؛ فاستغرق ذلك عدة أشهر قبل أن تعود إليه قوته كاملة . ورغم ذلك فقد كان لديه الشيء الكثير ليعمله . وكان من أحد مشاريعه إعداد كتاب «القلاع الصليبية» ، وهو الكتاب الذي خط له من خلال توسيع نسخه رسالته الناجحة . وأصبح يعمل بكد آنذاك ، بيد أنه فشل في إيجاد ناشر لأن مخطوطة الكتاب احتوت على العديد من المخططات والصور .

ونظراً لأن الاكتشافات خلال الشهر الأخير من الحفريات في كركميش كانت مشجعة جداً ، فقد اراد هوغارت استئناف العمل خلال فصل قصير . بخاصة أن المنحة الدراسية للحفريات كانت غير منتهية بوضوح ، وان الثلث الباقي من مبلغ الألفي جنيه المخصص للمشروع لم يصرف بعد ولكن المسألة الأكثر إجباراً كانت تتمثل في أن القانون التركي يمكن أن يسمح للمتحف البريطاني بالقيام بالحفريات في موقع واحد ووقت واحد فقط ، إذ كتب المتحف العثماني الى كينيون خطاباً عبر فيها عن أمله بأن يكون ثمة فصل ثانٍ للقيام بحفريات . وهذا يكشف بوضوح بأن هوغارت لن يسمح له بالعمل في تل الأحمر أو أي مكان آخر في الأمبراطورية العثمانية من دون اظهار نتيجة نهائية مرضية في كركميش . لذلك ، فقد كان مصمماً على القيام مرة أخرى بحفريات لمدة شهرين في ربيع عام ١٩١٢ .

وفي هذه المرحلة كانت مشاريع المتحف البريطاني تعاني من نكسة وركود وتزوج كامبل ثومبسون آنذاك ، ولم تعد لديه رغبة في العودة إلى كركميش مالم يمكنه اصطحاب زوجته معه ولكن كينيون رفض السماح له بذلك . فقدم هوغارت المهمة الى ليونارد وولي ، الذي كان يبلغ الحادية والثلاثين من العمر ، وكان يعمل مساعداً لمحافظ أشمولين . وسيكون وولي حراً في الذهاب الى كركميش في نهاية شهر شباط ١٩١٢ .

ولم يكن هوغارت مهتماً جداً بثومبسون في هذا الشأن ، وشعر بأن ذلك التغيير لن يسبب أية خسارة ، وقد صرح حول هذا الموضوع قائلاً «لدينا لورنس ، الذي يعرف المكان والسكان بشكل جيد مثله مثل ثومبسون» . وفي غضون ذلك وافق بيتريه على ضم لورنس إلى أحد مواقع حفرياته القائمة آنذاك في مصر خلال شهر كانون الثاني .

وفي خريف عام ١٩١١ ، ورغم أنه كان لايزال متوعكاً ، قرر لورنس العودة إلى طرابلس لتحسين لغته العربية . وفي الوقت ذاته أوصى هوغارت ببناء منزل لعلماء الآثار بالقرب من الموقع ، وكان على لورنس الإشراف على عملية بنائه قبل وصول وولي .

وغادر لورانس إنجلترا في نهاية شهر تشرين الثاني ، وبعد زيارة قصيرة إلى طرابلس ، أبحر على متن سفينة تجارية إلى مصر حيث انضم هناك إلى بتيريه في كفر عمار ، التي تبعد خمسين ميلاً عن القاهرة . وكانت الحفريات تجري في موقع لمقبرة ، فوجد لورنس ذلك العمل كريهاً ، وهو يقول في هذا الصدد : «أنه لمشهد غريب أن ترى الرجال يجبرون على فتح التوابيت الخشبية ، ويخرجون منها المومياوات المغلفة والمحنطة ، التي غالباً ما تكون لجثث غير مشهورة ، ذات بنية قاتمة اللون ، تصدر منها رائحة عفنة ، ثم يبدأون بتقطيعها إلى أجزاء ، ويمزقون رأس المومياء ليصلوا إلى الجمجمة من ثم تتساقط الأعضاء والأطراف ؛ فتكون المشاهد والروائح فظيعة من جراء ذلك . إن الحفريات هنا تختلف عن تلك التي في كركميش تماماً ، وهي أسهل بكثير ، فلا توجد لديهم أية تعقيدات في الحفر عميقاً ، أو على المستويات الأرضية . وسأكون ممتناً لأعود إلى سوريا . . . وكان السيد هوغارت محقاً تماماً في اجراء ترتيب لعدم مكوثي طويلاً هنا ؛ اذ أنني لست من هواة سرقة الجثث ، فلدينا الآن كومة من الجماجم مما يجعلنا من أتباع جنكيزخان . وهؤلاء الرجال هنا هم اقل غثياناً من رجالنا هناك» .

وبعد قضائه أسبوعاً هناك لم يستسغ لورنس مصر أو سكانها ، لاسيما أن الحفريات كانت تجري في قبور قديمة تحتوي على جثث غير محنطة . ومع ذلك فقد كان مسروراً بالعمل تحت اشراف بيتريه ، اذ أنه يقول :«لقد أحببته إلى حد كبير ، فهو عالم أثار ملهم تماماً» . كما أن بيتريه كان مهتماً جداً بلورنس ، حتى أنه قدم له عرضاً بقيمة سبعمائة جنيه استرليني للقيام بحفريات على ساحل البحرين .فاستشار لورنس حول هذا الموضوع

هوغارت بقوله : «عرض عليَّ البروفيسور بيتريه عدة مرات بأن أذهب إلى منطقة الخليج وجنوب الجزيرة العربية . . . فهو يعتقد أن السلالات القديمة جاءت عبر البحر من «عيلام» أو ما حولها إلى مصر ؛ وأن البحرين كانت تشكل محطة لها . وأخيراً اقترح عليَّ ، في أسبوعي الأخير معه الذهاب إلى هناك للقيام بالحفريات في العام القادم والبدء بفصل تمهيدي من العمل ، يتبعه فصل ثان أوسع مدى ، إذا ما كانت الأمور تدعو للتفاؤل . وقال : إن بوسعه تغطية النفقات ، فقلت له : بأنني سأشترك في الموضوع ؛ لذلك أرغب في أن تبين لي مدى الفائدة من الذهاب إلى هناك ، بخاصة انه لا يعتقد بأن هذه الفكرة تتعارض مع عملنا . . . وطبعاً يمكن أن يحدث ذلك فقط اذا لم تظهر آثار حثيين . . . وفي الوقت نفسه أنا ارغب في القيام بحفريات في الخليج الفارسي ، وبما أن البحرين تُعَّد محمية بريطانية ، فاعتقد بانه من الممكن إنجاز المهمة» .

غادر لورنس كفر عمار في الثلاثين من كانون الثاني ، وبعد ذلك بوقت قصير بعث برسالة إلى أسرته قارن فيها بين العمال المصريين والعمال الذين كانوا يعملون معه في طرابلس . حيث وصف العمال المصريين «بالبشاعة ، والقذارة ، والبلادة» .

ولم يكن الأمر معروفاً بالنسبة للورنس ، إذ أن الأحداث التي كانت تجري في إنجلترا آنذاك قد أطالت عملية استئناف الحفر في كركميش . إلا أن هوغارت بعد إلقائه محاضرة حول الموقع تلقى على نحو غير متوقع ، شيكاً بمبلغ خمسة الآف دينار قيمة تكاليف استئناف العمل هناك وقد أرسل هذا المبلغ والتر موريسون ، وكان رجل أعمال ثري يقوم بأعمال الخير على نطاق واسع وقد(قدم على سبيل المثال هبات سخية لمكتبة بودلير) . وكان مهتماً بعلم الآثار على نحو عميق ؛ فقد كان مؤسساً ومتبرعاً رئيساً لصندوق الاستكشاف في فلسطين . وكان يلتقي مع هوغارت بانتظام كونهما خدما معاً في هذا الصندوق . ولم يكن سخاء موريسون شائعاً ليصبح مشهوراً خلال حياته ذلك لأن معظم هباته وعطاياه كان يوضع تحت شروط صارمة بعدم ذكر اسمه . وبضمان تمويل المشروع ، فإن العمل في طرابلس كان سيستمر لعدة فصول ، حيث كان المتحف البريطاني سيساهم بمبلغ ألفي جنيه استرليني ، إضافة إلى السبعة الآف جنيه التي كانت متوفرة .

وعندما وصل لورنس إلى طرابلس في شباط ، وجد أن قائممقام منطقة بيريد جيك

قد رفض منح تصريح ببناء المنزل . ولم يكن بوسع لورنس فعل أي شيء سوى الانتظار حتى وصول تعليمات من القسطنطينية في هذا الصدد . وفي غضون ذلك أمام صداقة مع مهندسي مشروع الخط الحديدي الألماني ، وسمح لهم بأن يزيلوا أكوام الحجارة المتخلفة في الموقع منذ عام ١٩١١ ، إذ أن الألمان كانوا بحاجة إلى هذه الحجارة من أجل بناء منشآت وجسور الخط الحديدي ، وقد ناسب هذا الترتيب كلا الطرفين .

وفي ١٣ آذار وصل وولي ، وكان لورنس يعرفه قليلاً ، فقد تلاقيا في أشمولين قبل بضع سنوات . إلا أن الظروف الجديدة التي رافقت هذا الاتصال قد أتاحت مجالاً لحدوث توتر بينهما . اذ أن وولي كان يكبر لورنس بثماني سنوات ، وقد جاء ليتسلم المسؤولية ، ولديه خبرة أكبر في مجال العمل الآثاري . أما لورنس ، فقد كان مألوفاً في كركميش لدى العمال هناك ، ولذلك كان يمتلك معرفة أكبر بكثير من وولي عن آثار الحثيين[١] .

وبسبب فزعهم ، فقد رفض الحراس الأتراك في الموقع السماح لوولي ببدء العمل فأرسل برقية مستعجلة إلى القائممقام يطلب منه السماح بالعمل ، إلا أن هذا الطلب قوبل بالرفض الجاف لأن القائممقام كان يريد رشوة . بيد أن وولي أمسك بزمام القانون بيديه وأبلغ القائممقام بأنه سينوي البدء بالعمل ؛ وقال له إذا تدخل أي واحد ومنعه ، فإنه سيطلق عليه النار إذا لزم الأمر . وقد أسر هذا الموقف لورنس . واستسلم القائممقام للأمر الواقع . إلا أنه سرعان ما نشأت صعوبات أخرى ، فوجد لورنس نفسه يحاكم بتهمة التعدي على أملاك الغير ، من قبل شخص أدعى ملكيته لجزء من الموقع . وعرضت القضية أمام محكمة إسلامية محلية (لم يكن لها في الحقيقة سلطة محاكمة الأجانب) ، فأعيق العمل في الموقع بناء على ذلك . ولكن أساليب وولي المتنفذة أمنت عودته ،فكان هذا محط إعجاب لورنس .

وقد سجل لورنس هذه الأحداث في رسائل بعث بها إلى إنجلترا ، وكانت تحتوي الحيثيات كاملة . وأصبح وولي بنظر لورنس «شخصاً ممتازاً جداً» وتلقى القائممقام توبيخاً رسمياً من القسطنطينية ، فلم تعد ثمة تعقيدات بيروقراطية أخرى .

وفي نهاية شهر نيسان انتهى بناء بيت البعثة ، وكان يحتوي على المتطلبات كافة بما فيه غرفة تحميض أفلام سود ومستودع للأثريات أيضاً . وزينت غرف الجلوس فيه بتحف

أثرية من الموقع وبفسيفساء رومانية استخرجت من موقع مجاور . ومع ذلك ، ولعدم ايجاد ناشر لكتابه ، فقد بدا لورنس فاقد الاهتمام بزيارة القلاع في المنطقة ، وبدلاً من ذلك خطط للعودة إلى انجلترا مع وولي في شهر حزيران .

وفي بداية شهر آيار ، قضى هوغارت تسعة أيام في موقع الحفريات وكتب من هناك إلى كينيون يبلغه : «أن لورنس قد أصبح مفيداً وجيداً هذه السنة أكثر من السنة الماضية ، إذ أصبح متمكناً الآن تماماً من اللهجة المحلية العربية ، ومن خلال مكوثه هنا في العام الماضي صار يعرف كافة القرويين بشكل حميم» .

وامتدح هوغارت كل من وولي ولورنس على عملهما ، وأبلغ كينيون بأن لورنس ، «أصبح الآن يعرف السكان المحليين ويفهم لهجتهم جيداً . وصار لديه المام جيد بالآثار الحثية أكثر من وولي ، ولذلك فهو يُعَّد مساعداً قيماً للأخير وكلاهما يستحق ، كما اعتقد ، اتمام ما تبقى من الحفريات وأوصى هوغارت بأن يتلقى وولي ثلاثين شلناً في اليوم ،كما أن لورنس ، «الذي قام بعمل واسع في الفصول السابقة ، ولا يزال ، يستحق ايضاً استلام أجر لقاء ذلك» . وقد بحث هوغارت ذلك مع لورنس في الواقع ، واقترح بأن يكون أجره خمسة عشر شلناً في اليوم ، تدفع له في فصول عمل لاحقة .

وازدادت معرفة لورنس باللغة العربية تقدماً . وكان ثمة تمويل وافر لعمليات الحفر ، وإذا ما أرادوا التوسع ، فسيكون من الضروري استخدام المزيد من الرجال . وازدادت مسؤولية لورنس في هذه المرحلة ، كما أنه احتاج إلى التحدث باللهجة المحلية بطلاقة مع التوسع بمفرداتها . وطلب منه هوغارت أن يبذل جهداً في هذا الموضوع ، فكتب إلى أصدقائه (لورنس) في جبيل يقول لهم : «إن السيد هوغارت يلح جداً على جعلي اتعلم العربية ؛ لذلك فانني سأمكث هنا خلال شهري تموز وآب وحيداً» . ولكنه رغم ذلك خطط للذهاب الى الوطن في عيد الميلاد ، برفقة الآنسة فريدة عقل ، التي علمته اللغة العربية في المدرسة التبشيرية ، لتقضي مدة ستة اسابيع في إنجلترا . وسيكون هناك المزيد من أعمال الحفريات في شهر شباط .

ولأن لورنس كان متوقفاً عن العمل آنذاك ، فقد طُلب منه قضاء بعض الوقت في جمع التحف والفخاريات . حيث جرى إخراج أكثر من ألف قطعة من الآثار من موقع

الحفريات ، وكانت عملية جمعها تستغرق وقتاً كبيراً . كما أن لورنس زار أيضاً عدة قرى كان يعتقد بأنها تحتوي على آثار للحثيين . وأصبح في ذلك الوقت مسؤولاً عن عمليات التصوير للبعثة . ويقول لورنس : «لقد قررنا بأنه لا يمكننا القيام بكل ذلك في العام القادم ، لذلك فقد كان عليَّ أن أقوم بتدريب الفتى داحوم بالطبع . وليس لديكم فكرة كم كان من الصعب غرس ذلك العمل في رأسه ، وبخاصة مع لغتي العربية الناقصة . فقد كان يضع ألواح التصوير في الجهة الخطأ . ومع ذلك فإن كل هذه الأمور تشكل قلقاً صغيراً تجاه العمل من أجل تحسين لغتي العربية التي لا تزال غير صحيحة حاليا ؛ والتي آمل أن أجيدها بطلاقة مع حلول عيد الميلاد» .

أوقف وولي العمل بالحفريات مبكراً في شهر حزيران . وعندما جرى دفع الأجور للعمال قضى بضعة أيام مع لورنس في عمليات حفر في مقبرة للحثيين تبعد خمسة أميال عن الموقع . وفيما بعد قاما بانهاء بعض الأعمال في طرابلس ، وذهبا إلى الأسكندرية لترتيب عملية شحن أمتعتهما وأغراضهما . وأبحر وولي إلى إنجلترا في ٢٠ حزيران ، واثقاً بعد هذا الفصل الأول من العمل ، من انه ولورنس قد شكلا شراكة ناجحة .

الفصل الرابع

الإنجاز في موقع كركميش

عاد لورنس إلى كركميش شاعراً بالراحة ، وقد توقف في حلب بعض الوقت في طريقه إلى هناك ، ويقول حول ذلك : «كان ثمة نوع من الشعور بسلام مبارك في الجو مع نهاية الحفريات الفورية . وانتهى وولي من عمله ، وأصبحت أنا سيد نفسي ثانية ، وهو وضع يتحدث عن نفسه وعن جودته . . . ويبدو أنني سأكون بعيداً عن طرابلس لعدة شهور ، فأطيل بذلك هدوئها . وانتم تعلمون ان ثمة من يقول : «لاأريد التحدث» فيكون هناك هدوء إلى حين ما تخرقه ، أو تقول «أريد أن أكون لوحدي» ، فيضع عشرون رجلاً أنفسهم حولك بعيداً عن الرؤية بحيث لا يمكن حتى لهدهد أو لنملة أن تصرخ وتقلق راحتك . . . فحقيقة أن هذه البلدة ، بالنسبة للأجانب ، تُعَّد مشهورة جداً ومضرباً للأمثال : فالمرء هو بارون النظام الإقطاعي» .

وخطط لورنس للقيام برحلات الصيف ، وأخذ داحوم معه كخادم ومرافق له ، وفي منتصف تموز كان مستعداً لزيارة سيروج وأورفه ، حيث أفادت تقارير بأنه كانت توجد فيها أحجار منقوشة . إلا أنه أصيب آنذاك بمرض هو وآخرون ، مما استلزم تأجيل الرحلة .وعندما شفي من المرض ، ذهب الى بيريدجيك ، ولكنه شعر بالحمى ثانية هناك وفي أثناء عودته إلى طرابلس هاجمته الحمى للمرة الثالثة ،وخمن أن يكون ذلك من «جراء الحفريات ، والعمل الشاق ، الذي يحتاج الى الراحة من بعده ، في مكان بارد» . لذلك فقد تخلى في بداية شهر آب ، عن خططه في الذهاب للبحث عن مواقع أثرية ، وبدلاً من ذلك غادر برفقة داحوم إلى بيروت وجبيل ، حيث مكث في مقر مدرسة البعثة الأميركية ، ليحسن لغته العربية . واحرز هو وداحوم بعض التقدم في الكتابة باللغة العربية .

وبينما كان في لبنان ،كان لورنس يزور أسرة فليكرر من حين لآخر ؛ في منزلها الصيفي بعالية . وقد استذكرت هيليه فليكر ذلك بقولها : «كان زوجي يتحمل الحرارة جداً ، إلا أن ما كان يفتقده هو المجتمع الذكي . . . لذلك كان مسروراً لأن يتمكن ثانية

من التحدث في الأدب وشؤون جامعة إكسفورد» .

وكما هو الأمر دائماً ، فان رسائل لورنس كانت تشير إلى الكتب التي كان يقرأها وبعيداً عن أجواء العمل الذي جلبه معه من إنجلترا ، فقد كان عليه الوصول إلى مكتبة المدرسة التبشيرية في جبيل ، وقراءة أعمال أصدقائه مثل فليكر وفونتانا ، القنصل الإنجليزي بحلب آنذاك ،بما ساعده على توسيع ذائقته المكتبية ، فقرأ لكل من سبنسر ، وكاتولوس ، ومارت ، والقرآن (الكريم) ، ولسيمونيدس وميليجر ، ورواية لجوليت .

وقرر العودة إلى كركميش في نهاية شهر آب ، عندما كان متوقعاً عودة وولي إلى هناك . أما داحوم ، الذي أصبح آنذاك يتقن العمل التصويري البسيط ، فقد أصبح منذ ذلك الحين رئيساً لعمال البعثة العرب . وكعالم آثار ميداني ، كان لورنس يحتاج إلى مساعد موثوق به مثل جريجوري الذي عمل مع هوغارت ، فكان داحوم يزداد نمواً للقيام بهذا الدور كذلك كان حمودي ، الذي أصبح يعمل مع وولي ، على غراره (واستمر بذلك لعدة سنوات فيما بعد) . ورغم أن لورنس صار اهتمامه أبوياً نحو داحوم ،فإن العلاقة بينهما كانت مثل معلم وتلميذ ، ومساعد موثوق به فالانطباعات التي جعلت لورنس يحترم ويقدر بساطة ذلك الفتى العربي كانت تعني أيضاً بأنه لن يكون بوسعه أبداً أن يعامله كشخص مساوٍ له .

ولو قرأنا حيثيات الرسائل المتبادلة بين لورنس وأسرته ، لا تضح لنا بأن والديه كانا يحبذان عودته إلى العمل في أكسفورد . وعندما أرسلوا له تفاصيل عن وظيفة أكاديمية شاغرة ، كان رده يكشف عن خشيته من أن لا تكون ثمة زمالة مفتوحة أمامه ؛ «فلا اعتقد بوجود من استساغ الشرق كما استسغته أنا . وعلى أية حال فلا أرغب في ذلك» . وكان قد كتب لشقيقه بوب يقول : «إنك تعلم برغم ذلك ، بأنني أشعر بقليل من العاطفة تجاه المناظر الطبيعية البريطانية ؛ فلدينا كثير من الاخضرار هناك ، ولن يشعر المرء ابداً بمتعة خصوبة المكان ، كما يشعر به المرء هنا عندما يجد النباتات الشوكية الخضراء . فهنا يتعلم المرء قيمة الاقتصاد في الجمال الذي يُعَّد مراً رائعاً . أما إنجلترا فهي مثقلة بالمناظر الطبيعية» .

وكان وولي آنذاك في طريق عودته من إنجلترا . وقبل وصوله سلا لورانس نفسه في

كركميش بتزيين العتبة العليا للباب الرئيس لبيت البعثة ، وهو يصف ذلك بقوله : «لقد قمت بنقش قرص شمس ضخم على حجر العتبة العليا لمدخل غرفة الطعام . وحيث انه لم يكن لدي أزاميل حفر ، فقد قمت باستخدام مفك وسكين من أجل هذا الغرض . ويُعَّد هذا النقش شكلاً حثياً ، ويبدو ملائماً جداً» . وكان سروره بهذه اللعبة يتجدد ويتكرر في كل مرة ، عندما يمزح مع زائر لمكان الحفريات ، وهو يتوقف ليعرب عن إعجابه بذلك الأثر التذكاري الحثي المزيف .

وفي ذلك الوقت تقريباً ، كتب مقالة لمجلة «جيسون كوليدج» (مجلة الكلية اليسوعية) ، يصف فيها زيارته مع داحوم في ذلك الصيف إلى القصر الأثري «لأبن الورداني» . وقد اطلعا على تلك الأطلال بواسطة دليل كبير السن وابنه ، الذي شرح لهما الرائحة المختلفة لكل غرفة . أما الحقيقة فقد تكون عادية جداً ، إذ أبلغ لورنس والديه بأن قصر ابن الورداني له عدة روائح غريبة ، وكما «كتبت لكم ، فأنه مشهور في جميع أنحاء سورية ، وان وصفي له يُعَّد إشاعة أكثر منه حقيقة» .

وفي نهاية المقالة المذكورة ، كتب لورنس نبذة واضحة عن الزهد العربي ، واصفاً ، لأول مرة ، وجهة نظره التي أشار إليها فيها بعد بأنها «إنجيل التجرد من الماديات» . وهذه العقيدة المتجردة تعود في طبيعتها الى بعض العناصر الأصولية ، وغالباً مارجع إليها لورنس في كتاباته اللاحقة ؛ فهو يقول بشأن قصر ابن الورداني : «وأخيراً وصلنا إلى قاعة كبيرة يتخلل جدرانها نوافذ ضيقة عديدة ، ومازالت أطلالها ماثلة تقريباً ، فقال المرشد ، «انه ليوان السكون ؛ ليس له رائحة» . وان الروائح المختلطة هنا في القصر مرتبطة مع بعضها لتزيل إحداهما الأخرى ، وان كل ما كان يشعر به المرء هو حدة هواء الصحراء الذي كان يعصف بالسهول المترامية الضخمة» . وندعو هذه الغرفة ، كما قال داحوم ، «بأنها أجمل الغرفة جميعها» ، وهنا تكمن مثالية العقيدة العربية ، إذ أنها تعري نفسها ، على مر الأجيال ، من الأثاث كافة لتتماشى مع إنجيل البساطة» .

وتخللت فصل الحفريات صعوبات أخرى ، على رأسها الخوف من حدوث اضطراب محلي ، فأكراد الميلي ، وهم من البدو ، الذين كانوا ينتقلون في أرض واسعة تقع في الطرف الأقصى لحوض الفرات ، كانوا على عداء مستمر وطويل مع الحكومة التركية .

وكان يبدو أن حرب البلقان منحتهم فرصة للاضراب والتمرد على أصحاب الأراضي من الإقطاعيين ، وقد سمع لورنس بأنهم كانوا ينوون اجتياح مدينة حلب ونهبها . كما كتب وولي حول هذه المسألة في ما بعد يقول : «لقد أثرت في الخطة بشكل وثيق ، إذ كان من المفترض أن تستمر عملية اجتياح الأكراد عبر طرابلس ، وكانوا يعدون علناً بقطع رقاب جميع الألمان العاملين على خط سكة الحديد ما بين بغداد وحلب ، وشعرت بأن وضعي قد لايكون آمناً تماماً» . وعمل كل من وولي ولورنس على كسب أصدقاء من زعماء أكراد محليين ، ولم يكن ذلك أمراً صعباً لأن العديد من الأكراد كانوا يعملون في حفريات التنقيب عن الآثار .

وتوقفت أعمال الحفر مع حلول عيد الأضحى ، فذهب كل من وولي ولورنس إلى زيارة الآغا بصراوي ، وكان زعيماً كردياً متنفذاً ، ليطلبا منه حماية ممتلكاتهما اذا ما نشبت الثورة في أثناء غيابهما . فوضعت حراسة على بيت البعثة ، وكوقاية إضافية ، فقد جرى طمر النصب الأثرية كافة التي لم يكن بالإمكان إزالتها من الموقع . وغادرا ، وولي ولورنس ، في نهاية شهر تشرين الثاني . وأمل لورنس بأن يصطحب معه فريدة عقل إلى إنجلترا لقضاء عطلة الميلاد هناك ، بيد أنه لم يكن لديه سوى القليل من المال حينذاك ، لذلك فأنه لم يكن بوسعه اصطحابها معه .

وفي طريق عودتهما إلى الوطن ، دعي كل من وولي ولورنس ، كالعادة الى زيارة ويلوفي سميث ، نائب القنصل الأميركي في بيروت . وكان لورنس على معرفة به من خلال المدرسة التبشيرية الأميركية في جبيل ، وكان يعتقد بأن معلوماته أو اطلاعه على الوضع الداخلي للبلاد ضعيف جداً ؛ وقد أبلغه كل من وولي ولورنس آنذاك بخصوص مخاوفهما من ثورة الأكراد المحتملة .

فكتب ويلوفي تقريراً مطولاً إلى رئيسه الموجود آنذاك في واشنطن قدّم فيه تخميناً مفصلاً عن تاريخ الاضطرابات الكردية وطبيعة التهديد الموجه إلى حلب مبيناً أن كل من لورنس وولي ، كانا قلقان جداً على سلامتهما ، وهما يعلمان الكثير عن الحركات الاستقلالية العربية والكردية في الأمبراطورية العثمانية . وخلال سنتين أصبحت هذه المعرفة تخميناً مهماً بالنسبة للورنس ، وستؤثر في تفكيره خلال المراحل المبكرة للحرب (العالمية الأولى) . وقد حمل ذلك التقرير ، الذي كتبه نائب القنصل الأميركي ، في

طياته انطباعاً لدى لورنس ، حيث يقول في هذا الصدد : «كان على الثورة الأميركية أن تأتي لمساعدتي وتقديم النصيحة لي ، وقد كان علي الغوص بعيداً في مجالسها وهيئاتها . وقد شجعني الحزب الكردي المعارض الذي يتصدى لحزب تركيا الفتاة الحاكم ، على الانخراط في صفوفه والسعي إلى الحصول على فرصة في الأزمة البلقانية . بيد أن حافزه من أجل إقامة هذه الاتصالات كان نابعاً من حرصه على ذاته ، وليس كما يدعى بعض كاتبي السير الذاتية ، من كونه يعمل لصالح الاستخبارات البريطانية» .

ولم يكن المتحف البريطاني راغباً في السماح باستئناف الحفريات مالم يصبح الموقف مستقراً . رغم أن الكثير من هذا قد طرح قبل أن يسمح للورنس بالعودة إلى سوريا في شهر كانون الثاني ١٩١٣ . وعند وصوله قام باستطلاع الآراء في كل من طرابلس وحلب ، بيد أنه ظل قلقاً جداً حول الوضع ، فقد وجد حلب «هادئة تماماً من الناحية السياسية ، بيد أن اليأس يمكن أن يكون متلاشياً؟ مع نزول شحنة من البنادق الرخيصة! فالأميركيون يقومون بتسليح الثوار بشكل عنيف» . وكتب إلى هوغارت يقول : «آمل منك بأن تقرر تأجيل الحفريات حتى الخريف» . أما في إنجلترا فقد كان وولي متقدماً جداً لاستئناف عمليات الحفر . وفي نهاية المطاف ، وافق كينيون على البدء بالعمل . وعاد لورنس الى كركميش ، وشغل وقته بطرق مختلفة حيث قام ببعض الإصلاحات في البيت ووصل القارب الكندي الذي أوصى عليه من حوض قوارب أكسفورد في شهر شباط . وكان يحتوي على محرك صغير ، ويوفر المزيد من المتعة ومنحت مخاطر الثورة الكردية لورنس آنذاك فرصة لتحسين كفاءته في التدرب على استخدام البندقية خلال أسابيع . وكتب في ٢٢ شباط يقول : «لقد أصبت الهدف في عصر هذا اليوم بأربع طلقات من خمس ، وهو يتكون من ستة جالونات بترول وضعت على بعد (٤٠٠) ياردة . . . وهذه بداية جيدة» . ومن المحتمل انه أهدي هذه البندقية من قبل فونتانا ، القنصل البريطاني في حلب ، عرفاناً له على مساعدته البحرية الملكية البريطانية في تهريب الأسلحة اليدوية إلى القنصلية .

وقبل وصول وولي بوقت قصير ، علم لورنس بأن السكان قد اكتشفوا مقبرة قديمة في ديف حيوك ، وهي قرية تقع على خط السكة الحديد ما بين حلب وجرابلس . فأرسل لورنس داحوم أولاً ليستطلع الأمر ثم ذهب هو بنفسه ؛ «إذ أن الناس كانوا ينهبون فقط ،

وليس لديهم فكرة عما يأخذونه أو يتركونه لذلك فإن عملي هناك كان تعليمياً في الأغلب» . وبعد انتهاء زيارته إلى المقبرة كتب يغمره السرور إلى هوغارت يقول : «كانت قبور الحثيين مليئة بالحراب والفؤوس البرونزية والسيوف ، حيث قام الرعاع بكسرها ورميها ،لأن مدام كوش (تاجرة تحف حلب) . . . لا تشتري مثل هذه الأشياء ، ولقد حصلت على أجزاء أثرية جيدة أفضل بكثير مما هو موجود في المتحف البريطاني ، ومنها بعض القلائد والأقراط البرونزية ، ومزهرية واحدة أو اثنتين . . . وبعض الزجاجات الرومانية ، مع فخاريات أغريقية ، وكمية قليلة من التحف المختلفة . . . وسأعود إلى هناك في الغد لأجمع أشياء أخرى ، وآمل أن أجد الأسلحة البرونزية الحثية ؛ مالم تكن الشرطة قد وصلت إلى هناك قبلي لقد كانت عملية حفر مثيرة حدثت في الليل على ضوء مصباح ، وجرى جمع الأثريات على عجل ووضعها في كيس» . وقد تبين فيما بعد أن الأسلحة التي طرحها القرويون كانت مصنوعة من الحديد وليس من البرونز .

وعندما وصل وولي الى حلب في ٢٧ آذار ، أطلعه لورنس على عينات من الأشياء المكتشفة . فاهتم وولي بذلك ، وأرسل حمودي للإشراف على العمل هناك . وكانت المواد الفينيقية التي اكتشفت في ديف حيول تُعَدّ نادرة نسبياً ، لذلك كان لورنس وولي مسرورين .

بدأ الفصل الرابع من العمل في كركميش في ٢١ آذار . ووصلت أخيراً سكك حديد خفيفة لنقل الأتربة الناجمة عن الحفريات ، إلا أن جورجي كان غائباً من دون مبرر (وقد تبين بأن الرسالة التي أرسلت لإبلاغه ببدء فصل جديد من العمل قد ضلت سبيلها ، أو أرسلت الى جهة أخرى) . وسيكون لورنس وولي من دونه مشغولين جداً . وحيث إن مشروع خط سكة حديد بغداد كان يسيّر رحلة إلى طرابلس كل ثلاث ساعات آنذاك ، فقد كانا مربكين من جراء ذلك . وكتب لورنس إلى أسرته حول الموضوع يقول : «لقد كنا نقوم بالحفريات بصورة عصبية ، ونستقبل زائرين على غير موعد ؛ مما يجعل يومنا صعباً جداً . ونبدأ العمل في ساعة مبكرة كالعادة ، عندما يكون الطقس بارداً جداً مما يصعب معه كتابة الملاحظات أو رسم المخططات أو التقاط الصور ؛ ثم يبدأ أول فوج من الزائرين بالقدوم حوالي الساعة العاشرة صباحاً يليه الفوج الثاني في حوالي

الساعة الثالثة من بعد الظهر . وغالباً ما يكونون أجانب أو أشخاصاً متميزين ، أو أناساً متطفلين وكان علينا أن نريهم كل شيء» .

وأصبح الوضع السياسي هادئاً ، وبدأت الحفريات تظهر العديد من المكتشفات المهمة . واستخدموا الديناميت لكسر وتحطيم الصخور والأساسات الرومانية الضخمة . وعند بلوغه سن الخامسة والعشرين ، كان لورنس قد تعلم الكثير عن طرق تفجير المفرقعات . وكتب إلى أسرته في ٢٦ نيسان يقول إنه جرى اكتشاف خمسة عشر من النقوش الحجرية خلال شهر واحد : «إن هذا ليس سيئاً ، بخاصة أنهم يبدون مقتربين من البوابة الضخمة ، وأن الاجزاء الداخلية للقصر ما زالت محفوظة جيداً . وحفرياتنا هذه تُعَّد من أغنى حفريات المتحف البريطاني منذ أيام ليارد حتى الآن . . .» .

لقد كان لدى لورنس ذاكرة مرئية ممتازة ، فاستذكر وولي ذلك بقوله : «كنا ننظر إلى جزء صغير من نقش حثي ، فتذكر بأنه متمم لجزء آخر اكتشف قبل سنة ، رغم أنه كانت توجد مئات عديدة مشابهة لها في المخزن» . وبهذه الطريقة فقد نجح بجمع أطول خط جرى اكتشافه من النقوش الحجرية . وكانت قطعة منه قد اكتشفت خلال شهر آذار ، وان السيد لورنس الذي كان ينسخ هذا الجزء الكبير ، قادر على جمعه أو ضمه مع جزء آخر كبير كان السيد ثومبسون قد وجده في مطحنة تقع خارج القلعة ، أو مع أجزاء أصغر وجدت مبعثرة على ساحة واسعة في عام ١٩١١ ، وفي فصلي الربيع والخريف من عام ١٩١٢ ، وخلال الفصل الحالي أيضاً . وعندما بدأ موسم الحصاد مبكراً في شهر آيار ، غادر العديد من العمال للعمل في الحقول ، . وتخلى وولي عن حفريات رئيسة في الموقع ، ومحولاً اهتمامه إلى منطقة تقع إلى شمال كركميش بالقرب من قرية يانوس ، كانت تحتوي على مقبرة مدينة قديمة . وبحفر هذه المقبرة كان يأمل اكتشاف أثار حثية أو أثار أخرى يمكن أن تدل على التواريخ المختلفة للنصب التذكارية الموجودة في كركميش . وحقق لورنس في ذلك الربيع نجاحاً ملحوظاً خارج عملية الحفريات ، فقد قام بشراء مجموعة جيدة من الأثريات الحثية من أجل متحف أشمولين . وفي الحقيقة ، كان لورنس ناجحاً جداً ، ذلك لأنه تقدم على مشتريات واقتناءات هوغارت ، رغم أنه غالباً ما كان يبيع الأثريات لأشمولين باسعار أقل من الكلفة ولم يكن تكريسه لمجموعة هوغارت

يروق لوولي ، فقد اختلفا حول طرح الأثريات التي وجدت في المقبرة الثانية في ديف حيوك .وكتب لورنس إلى ليدز في هذا الصدد يقول : «إن المكان المحتمل الوحيد لهذه الأثريات هو متحف أشمولين (في أكسفورد) . لذلك فقد أبلغت وولي ، بأنني قد منحت هذه الأثريات لكم ، وليس لدي نية في استعادتها . وقال بأنه يكتب حول هذا الموضوع إلى هوغارت ، مقترحاً بأن تحفظ الأثريات في مكان حيادي حالياً ، وبالطبع إذا ما وافق هوغارت على ذلك ، فانه ليس بوسعي أن أهديها لكم بالقوة . إذا أنني سأكون منزعجاً فقط من ذلك ، لأنني أريد ان تحتوي أشمولين على أفضل مجموعة من ذلك النوع . . . وسأكون ممتناً اذا ما قمتم بتسجيل ذلك في سجل المشتريات» .

وهكذا ازداد عدد الأثريات الحثية في أكسفورد وفقاً لإسهامات لورنس بذلك . وتظهر سجلات أشمولين أنه ما بين ثلث إلى نصف المجموعات البارزة المجمعة تحت إشراف هوغارت ما قبل الحرب العالمية الأولى كان قد اشتراها لورنس كما أنه اشترى أنواعاً أخرى من التحف والأثريات من أجل المتحف البريطاني ، الذي غالباً ما كان يرفض الدفع لقاء ذلك .

وكان لورنس يخطط لقضاء وقت قصير في إنجلترا خلال الصيف . وعندما انتهت الحفريات في المقبرة ، وأصبح مشغولاً ، بعض الوقت في عمل كتالوجات وتصويرات للأثريات المكتشفة ، كما كانت ثمة مواقع قديمة موجودة في منطقة «ابو جلجال» ، وفي أماكن أخرى لم يكن قادراً على زيارتها في العام الماضي . فقد ازداد عمله بجمع أجزاء الفخاريات والخزفيات إلى حد كبير خلال الأسبوع الأخير من الحفريات ، في حين كان من وولي وجريجوري يتجولان حتى قرية يونس تقريباً ، بحثاً عن شيء ما جديد ، عندما اكتشفا فجأة موقعاً جديداً للفخاريات ؛ فجهزنا عشرة رجال ليحفروا المنطقة ، وبعد يومين من العمل حصلنا على معمل للفخاريات يحتوي على أفران مكتشفات أخرى ، ويعود تاريخه إلى العهد الحجري الأخير . وكتب لورنس تقريراً حول ذلك جاء فيه : «كان هناك نحو (١١) ألف جزء أثري من الفخاريات ، ولابد أنها كانت لنحو عشرين جرة فخارية كاملة ؛ وقمنا بتجميع ثلاث أو أربع منها . وجعلْنا ذلك ، كما تتصورون مشغولين جداً» .

وغادر وولي إلى إنجلترا في منتصف شهر حزيران ، وكان سعيداً جداً لنتائج الحفريات

التي حصلت . أما هوغارت الذي اطّلع على الصور ، فقد كتب يقول : بأنها كانت أفضل أشياء اكتشفت من الناحية الأثرية لعدة سنوات مضت ؛ وكان كينيون أيضاً مسروراً جداً لذلك . وبقي لورنس في كركميش لفترة من الوقت ؛ وكان يفكر بالسفر الى آسيا الصغرى (تركيا) ، إلا أنه لم يكن هنالك مزيداً من الوقت لديه ليعود إلى إنجلترا ، التي لم يستطع ان يقضي فيها أقل من ثلاثة اسابيع خلال الثمانية عشر شهراً المنصرمة ولابد أن والديه كانا يخشيان من أن قضاءه مثل تلك المدة الطويلة في سورية كانت بداية لتأثر قيمه ، فعلى سبيل المثال ، أبلغهما خلال الفصل الأول من العمل ، ان العمال قد اختاروا يوم الأحد عطلة أسبوعية رغم أنهم كانوا من المحمديين (المسلمين)» . ومع ذلك أرسل في شهر آذار ١٩١٣ إلى والديه ملاحظة غريبة مفادها : «اليوم هو الجمعة ، إنه يوم أحدنا (عطلتنا)» . وقد أثارت هذه الملاحظة (التي وصلت إلى والديه في أكسفورد بعد بضعة أيام من وفاة كانون كريستوفر) ، احتجاجاً لديهما فرد لورنس على ذلك بقوله : «انكم تشكون من عطلة يوم الجمعة ولكن هل سيكون من العدل تماماً أن نجعل مائتي عامل ينسون يوم عطلتهم من أجل أثنين فقط؟» .

ويبدو من المحتمل أنه بدأ يفقد حماسته الانجليكانية (الدينية) التي كان تعلمها في سانت الديت . وتحت تأثير الثقافة البدوية ، فإن مسيحية كانت ستستبدل خلال السنوات القليلة القادمة بشيء ما يقترب من مذهب اللاأدرية ، ففي عام ١٩١٣ كان يتبنى بعض العادات والمواقف البدوية ، إذ أنه ، مثلاً كتب إلى أسرته يقول : «بالنسبة للشهية الضعيفة التي يستهجنها الآب آرنيه ، فانها شيء يكون فوق كل معبر عن الشكر ، فاذا لم يشعر هو نفسه برغبة في الأكل فإن عليه أن لا يبتهج لذلك كثيراً . ومن أجل الفرار من ذل ملء الطعام ، فانه سيجلب المرء إلى أقرب الزوايا . فلماذا لا تدعه يقتبس العادة العربية الحساسة المتمثلة بوقف عملية مضغ الخبز حتى اللحظة التي تجعله مرغوباً فيه . واذا لم تكن لدينا مواعيد أكل ثابتة ، وطعام غير جاهز ، فاننا لن نصل إلى سن الكهولة» .

وعندما سافر إلى إنجلترا في نهاية شهر حزيران أخذ معه كل من حمودي ودحوم ، القرويين اللذين اعتنيا به في أثناء مرضه قبل سنتين ، فعاشا في حديقة منزل الأسرة بشارع بولستيد بأكسفورد واستمتعا بركوب الدراجة الهوائية ، واثارا الاستغراب بملابسهما

العربية هناك . وقضى حمودي بعض الوقت مع وولي ، وتبرع دحوم للعمل في فتح مغلفات وطرود المواد الأثرية في أشمولين واتفق بيل (شقيق لورنس) مع فرنسيس دود على أن يقوم برسم بورتريه لدحوم ، وشهد لورانس ذلك . ومن المحتمل أن تكون المرة الأولى التي يشهد فيها عمل فنان محترف ، مما خلف لديه انطباعاً طيلة حياته بالشغف بفن الرسم التصويري .

وفي ٢٥ آب رجع لورنس إلى حلب . وفي طرابلس ، التقى لبضعة أيام شقيقه ويل ، الذي كان في طريقه إلى الهند للعمل في مجال التدريس وقد استمتع بيل كثيراً بتلك الزيارة ، وكان يشير إلى شقيقه لورنس بأنه «شقيقه البدوي ، وسيد كبير في مقامه» . وبعد مغادرته كتب الى والديه يقول مؤكدا : «يجب أن لا تظنوا بأن نيد (لورنس) يعيش حياة بدائية غير متحضرة ، فعندما ودعته في محطة السكة الحديد كان يرتدي ثياباً بيضاء وجرباناً وصندلاً ، وسترة فضفاضة (عباءة) ، وكان يتحدث مع حاكم بيردجيك بطريقة الأسياد» .

وكان هناك أيضاً زوار آخرون في ذلك الوقت ، من بينهم هيوبرت يونغ الملازم في الجيش الهندي ، والذي مكث بضعة أيام هناك بعد مغادرة ويل ، وبما أن الحفريات كانت لا تزال متوقفة ، فقد كان على لورنس أن يجد طرقاً عديدة لقضاء الوقت . وعرض عليه يونغ التجول بقارب في نهر الفرات ، وهناك تنافسا باطلاق النار على هدف ما ، وعلى نقش التماثيل غريبة الشكل . وكتب لورنس الى أحد اصدقائه قائلاً له حول ذلك الشأن : «على المرء في الشرق أن يكون لديه عمل كثير حتى يحافظ على معيشته وتسليته . . .

ولم يكن بإمكاني تجنب ذلك ، بل إنني قمت بجمع الأحجار الكلسية ووضعها على السطح من أجل التنافس في نقشها . . . وكانت محاولة تستحق التقدير كما أنه أشار إلى أعمال النقش هذه في رسالة بعث بها لورنس إلى شقيقة ويل قائلاً : «قمت بحث يونغ على قضاء وقت فراغه في نحت تماثيل غريبة الشكل من أجل تزيين البيت بها . وقد عمل على نحت شكل لرأس امرأة على حجر كلسي ؛ وقمت أنا بنحت شكل لإنسان غريب على نمط أحدب نوتردام ، وعلى حجر كلسي أيضاً ، ووضعناهما على

جدران وسقف البيت الذي أصبح مشهوراً الآن في شمال سورية . فالأهالي يأتون في مجموعات لمشاهدة ذلك» .

وكان دحوم أنموذج لورنس في النقش ، فعندما وصل وولي بعد بضعة أيام وجد ذلك مروعاً ، بدا أنه قد وصل إلى استنتاج مفاده أن لورنس قد قام بنقش الشكل بينما كان وحيداً مع دحوم . وبعد ذلك بعدة سنوات ، وعندما كتب مقالة بعنوان (لثوماس إدوارد لورنس من أصدقائه) ، قدم وولي انطباعاً أن النحوت كانت غير ملائمة ، وخليعة في شكلها ، حيث يقول : «كان دحوم صبياً آنذاك ، في نحو الخامسة عشرة من عمره ، ولم يكن ذكياً بشكل خاص (رغم أن لورنس علمه كيفية التقاط الصور بشكل جيد) ، إلا أنه كان جميل البنية ووسيماً . وكان لورنس مكرساً وقته له . مما جعل العرب يشكون بصداقتهما ، وبخاصة عندما أبقاه لورنس ، في عام١٩١٣ ، يعيش معه في البيت بعد انتهاء عمليات الحفر ، اتخذ منه «موديلاً وأنموذجاً له . ولكن جعله يقف عارياً على حافة البيت ليقوم لورنس بنحت شكلاً له على حجر كلسي كان ضرباً من أعمال شيطانية في نظر أهالي المنطقة . ولذلك فقد انتشرت الإشاعات حول لورنس بشكل واسع وصدقت بشكل ثابت» .

بيد أن هذا التخمين كان خادعاً في الواقع : فمن الواضح أن الرسائل المكتوبة آنذاك كانت تشير الى أن لورنس لم يقض أي وقت خاص به في بيت كركميش ، سواء كان ذلك في شهر حزيران أو أيلول عام ١٩١٣ ، حيث كان هنالك سيل من الزائرين ، للبيت بل أنه حتى من دون وجود زائرين ، فان لورنس لم يكن وحيداً في البيت ، لأن طباخ البعثة وأسرته كانوا موجودين باستمرار أما الشكل الذي نحت لدحوم ، فقد جرى بحضور يونغ وزائرين آخرين في شهر أيلول ، وليس في شهر حزيران كما يشير وولي الى ذلك . وأخيراً ، فإن «الشكل الخليع» الذي نحت ، كان يبدو مشابهاً لشكل غريب بشع ،وليس تصويراً دقيقاً لشكل إنسان واذا ما أخذنا بالحسبان حقيقة انه كان هناك أناس آخرين موجودين فيبدو من الغير المحتمل أن دحوم قد وضع عارياً من أجل النحت على شاكلته ، وهذا ما كانت تتضمنه مقالة وولي .

وأتبعت هذه الفقرة في مقالة وولي بفقرة أخرى ، تتضارب معها وتناقض ، تشير إلى

أن لورنس لم يكن شاذا جنسياً ، حيث يقول وولي : «إن التهمة لم تكن موجودة تماماً . إذ أن لورنس في تركيبته كان قوي العاطفة ، بيد أنه لم يكن منحرفاً جنسياً بأية حال من الأحوال ؛ ففي الحقيقة ، كان لديه عقلا نظيفاً بشكل بارز . وكان متسامحاً وقادراً على الاحتمال ، ويعود الفضل في ذلك إلى قراءاته الكلاسيكية . وكان اهتمامه منصباً على الشذوذ الجنسي الأغريقي ،ولكن بطريقة منعزلة ، ولم يكن اهتماماً مرضياً أو ناشئاً عن ناحية مرضية . وانما كان كاملاً وجاداً ؛ ولم اسمعه مطلقاً يتفوه بكلمات أو ملاحظات بذيئة ، وأنا متأكد من أنه كان يعترض على سماع مثل ذلك ؛ بيد أنه كان يصف العربي بالشذوذ بشكل صريح وبأسلوب سافر وتهكمي . وكان على علم تام بما كان العرب يقولونه عنه وعن دحوم ، وكان لا يمتعض من ذلك ، بل أنه يعده أمراً مسلياً له ، وأعتقد بأنه قد أسيء فهم ذلك بدلاً من تجنبه ؛ وهذا كله يعود إلى «شعور التهكم الكبير والصبياني لديه فقد كان يحب إثارة الصدمات» .

وتحمل رسائل لورنس عن تلك الفترة وجهة النظر هذه تماماً ، ومن المشروع أن نسأل وولي لماذا كان عليه أن يضمن هذه المزاعم في مقالته فالشائعة والقيل والقال من ذلك النوع كانت سائدة آنذاك ، ولكن ينبغي أن تظهر بصورة عادية في مذكرات جادة ، وبخاصة عندما تكون معروفة بأنها غير مبررة . فلابد أن وولي قد تحقق بأن هذا ادعاء مخادع يمكن أن يتسبب في تصديق العديد من القراء لما هو أسوأ .

إن الأسلوب الواثق الذي نشر فيه وولي تخمينه غير الدقيق وبشكل تشهيري حول حادثة النحت تلك لابد انها قد أثارت الشكوك حول شهادته الأخرى المتعلقة بلورنس . وهذا أمر له بعض الأهمية ، حيث أن وولي هو الشخص الوحيد المؤهل للكتابة عن عمل لورنس كعالم آثار في كركميش على أساس معرفته الشخصية به . وفي مقالة كتبها وولي بعنوان «الأصدقاء» ، رغم انها كانت مثيرة للاهتمام ، فقد حملت في طياتها عداء خفيفاً للورنس ؛ إذ قدمت انطباعاً قوياً بأنه كان هاوياً فحسب في موقفه تجاه علم الآثار .

وهناك مقدار كبير من الوثائق تتعلق بعمليات الحفر التي جرت في كركميش مازالت موجودة ، ومن الممكن أن نشكل منها وجهة نظر مستقبلية حول إسهام لورنس في تلك الحفريات . وعند مقارنة مقالة وولي «الأصدقاء» مع هذه المصادر المتوفرة ، يغدو

واضحاً أنه كان متحيزاً فيها . فهما كان السبب ، فإن المقالة تجاهلت بشكل متعمد دور لورنس ؛ وتجاوزت ذكر العمل الكبير الذي قام به في كركميش ، حيث شارك في المهام اليومية التي كانت تجرى هناك وعلى قدم وساق تقريباً مع وولي ؛ وتشير المقالة إلى أن وولي هو الذي كان يسجل الملاحظات الميدانية ، بدلاً من أن تذكر لورنس هو الذي كان يحفظ الكتالوجات المفصلة عن الفخاريات والتماثيل المكتشفة ؛ كما أنها لن تشر إلى أن لورنس هو الذي قام بشراء الأثريات والتحف لصالح كل من متحف أشموليـن والمتحف البريطاني ، رغم أن هذا كان يُعَّد نشاطاً مهماً ، إذ أن لورنس ، حسب السجلات ، كان أكثر قدرة من وولي في هذا المجال . وبينما تعزي القدرة على معرفة الأجزاء المختلفة للتماثيل والنفوش إلى لورانس ، الا أن المقالة لا تشير إلى القيمة الخاصة لهذه المقدرة في كركميش ، حيث أن العديد من النصب التذكارية والنقوش قد سُحقت وبعثرت عندما دمرت المدينة الحثية قديماً . فالشهادة المشوهة تُعَّد مشكلة تواجه جميع المؤرخين ، أنها شائعة بصورة خاصة في البيانات المتعلقة بلورنس . وعندما يكتشف بأن الشاهد قد انحرف عن شهادته ، فان المرء غالباً ما يبحث عن الحقيقة بعمق ، وربما كان وولي متأثراً بعدة عوامل في هذا الصدد ، وكان على أية حال عبارة عن راو لم يأخذ بالاعتبار إجراء تحسينات على رواياته . فوجهة نظر لورنس أن وولي كان شخصاً فضولياً يروي قصصاً من أشرس القصص على أساس أنها عادية . ويشير إليه ليدز في مذكراته بأنه كان «رقيقاً ، جاداً ، ويعمل بكد ، بل إنه يُعَّد واحداً من الرسامين ذوي الانحناءة الطويلة الذين لم اقابلهم من قبل . وانه صبغ بعاطفة العقيدة في خبرته الذاتية ، وذلك ناجم عن أكثر من حادثة مأساوية في حياته ، فقد يمكنه أن يرى بصعوبة أن عدم التوافق مع تشخيصه والشجب صراحة كانا مرادفين بين أصدقائه . وإذا ما كان على وولي فقط تجنب التدخل بصورة أعمق في البحث التاريخي والآثاري ، فإن شهرته ستكون أعظم في المستقبل وحتى أكثر من تلك التي حققها كأفضل باحث آثاري في الخارج . فالرغبة في تحويل الأوز إلى بط كانت تشكل دائماً اخفاقه الخطير ، اذ أن تقاريره الشهرية من كركميش ، والتي كانت تركز ، بعناية فائقة ، على أن : المكتشفات غالباً ما توصف بأنها «مهمة جداً» ، «والأجمل ، والأعظم» . ومن الواضح من خلال أوراق كينيون المتعلقة بكركميش أن هذه الأحكام لم يكن يشارك بها هوغارت دائما ، وأنه قد بحث مسألة المكتشفات معه

بصورة مستقبلية مع لورنس . وعندما قرأ وولي هذه الملفات في عقد العشرينات ، وهو يكتب المجلد الثاني من تقرير كركميش ، فلا بد أنه اكتشف ، وبامتعاض شديد ، مدى النقد الموجه إليه فيه .

وكان هناك أيضاً بعض الفتور ، بعد حقبة الحرب ، من جانب لورنس .ففي عام ١٩٢٠ أصدر وولي تقييما للأحداث التي جرت في كركميش بكتاب اطلق عليه اسم (مدن ميتة ورجال أحياء) . ولم يخف لورنس استيائه من هذا الكتاب ، قائلاً بأنه غير صادق تماماً ، وانه لا يُعَّد اثماً مميتاً فحسب ، بل ايضاً كتاباً مبتذلاً جداً» . وقد سمع وولي بالتأكيد عن رد فعل لورنس ،لذلك فإنه لم يكن مسروراً لأن يشجب عمله زميل أصبح مشهوراً جداً .

دفعت نبرة ملاحظات لورنس عن حقبة ما بعد الحرب ومقالة وولي في «الأصدقاء» العديد من الناس إلى الاستنتاج بأنها لم يكونا على وفاق ؛ بيد أن السجلات الموجودة أظهرت بأنها عملا معاً بصورة سعيدة في كركميش ، وان لورنس تمتع بصحبة وولي . كما أنه لم يظهر عداء شخصياً في الوثائق الخاصة بحقبة ما قبل الحرب ، وإن الخلافات التي كانت تنشأ بينهما من حين لآخر ، كانت بسبب ولاء لورنس المفرط لمتحف أشمولين ، والتي كانت تزال بنجاح بوساطة هوغارت .

وكانت الحفريات في فصل الخريف عام ١٩١٣ مثمرة بشكل غير عادي ؛ إذ ظهرت مكتشفات مهمة حتى أكثر من قبل أن يبدأ العمل . وكتب لورنس حول ذلك يقول : «كان علينا أن نشق قطعة صغيرة من الأرض لتمر خط سكة حديدنا ، ونكشف صفاً جديداً من التماثيل المصنوعة من حجارة البازلت القاسية يمتد في اتجاهين . . . وقد أصبح موسمنا غامراً بالنجاح ، حتى لو لم نكتشف شيئاً آخر» .

وأصبح وولي مقتنعاً آنذاك بأنه سيكون هناك الكثير الذي يمكن اكتشافه وكتب له هوغارت في شهر تشرين الأول يحثه على القيام بالمزيد من أعمال الحفر لكي يمكن اتمام الخطط الموضوعة في هذا الشأن . وكان ذلك أمراً مهماً بشكل خاص لأنه سيوفر المال لفصل آخر فقط من العمل . ورد وولي عليه مبيناً أنه سيكون من المستحيل اتمام الحفريات بشكل سريع . كما أنه كتب إلى كينيون في هذا الصدد يقول : «إن الأمور تسير بشكل

جيد في الحقيقة ، واعتقد بأن النتائج ستكون ممتازة في المستقبل . . . وسيكون من المفجع إنهاء العمل في المرحلة الحالية ، فنحن بحاجة ، في الأقل ، الى المزيد من المال ثانية قبل أن نتمكن من التفكير باننا قمنا باللازم تجاه الموقع . . . إضافة إلى أنني مقتنع الآن بأن القلعة لا تشمل كل كركميش ، بل المدينة الملكية الواقعة خارج نطاق المدينة ؛ وانه يجب أن نعطي أهمية كبيرة للمباني الملكية ، والمزيد من الدفع إلى أعمال الحفر . وبالطبع فان على المرء أن يمضي في ذلك على مراحل ؛ بل أن ثمة عملاً كبيراً يحتاج إلى الإنجاز ، ولا يمكننا أن نتوقف قليلاً في هذه المرحلة البدائية» . وعلى أمل جلب المزيد من التمويلات ، فقد تقرر بأن يقوم وولي بإرسال تقرير حول الموقع لينشر في صحيفة التايمز ، في حين يكتب هوغارث مقالة في صحيفة «لندن نيوز اليوسترتيد» في هذا الشأن .

وتوقف العمل في فصل الشتاء بدءاً من الرابع من كانون الأول . واقترح كل من لورنس وولي على إدارة المتحف البريطاني بأنهما لايجب أن يعودا إلى بريطانيا لقضاء أشهر الشتاء الثلاثة هناك ، لأن تكاليف رحلة العودة كانت أكثر من تكاليف بقائهما في طرابلس إلى حد النصف وتقبل كينيون هذه الفكرة ، موافقا على دفع راتب شهر كامل لهما يتبعه نصف راتب للشهرين المتبقيين ، ولذلك فقد قررا أن يقضيا شهر كانون الأول في طرابلس ، ثم يسافران في شهري كانون الثاني وشباط وخطط لورانس للذهاب إلى «انتيوش» للبحث عن تحف أثرية ، في حين قرر وولي زيارة مصر .

وبعد بضعة أيام كتب لورنس إلى فيفيان ريتشارد ، معترفاً أخيراً بأنه لن يكون بوسعه الانضمام إليه في مشروع المطبعة ، وقال حول ذلك : «إن الخطأ في ذلك هو المجيء إلى هذا المكان . فقد اعتقدت بأنني سأمكث مدة قصيرة هنا ، إلا أنه بعد بضعة أشهر وجدت نفسي كعالم آثار عادي . وقد كافحت بشدة ، في أكسفورد بعد أن ذهبت إلى هناك من أجل تجنب أن أكون مصنفاً كذلك ، بيد أن ضغط الناس قد ثبتني الآن . وان كل هذه المقدمة تؤدي إلى المسألة الرئيسة ، وهي أنه لا يمكنني القيام بالطباعة معك عندما تريدني . وقد شعرت بأن ذلك سيدوم لمدة طويلة لأنني أحببت هذا المكان كثيراً ؛ كما أن الناس هنا ـ خمسة أو ستة أشخاص منهم ـ وطريقة الحياة يسرونني . فلدينا مائتا رجل نعمل معهم وعلى أية حال فاننا نحبهم مادامت الحفريات جارية ، وبينهم العديد

من الأشخاص الرائعين الذين نجد متعة كبيرة في التعامل معهم . ومن ثم يوجد العديد من الحفريات ، واكتشاف العشرات من الأشياء - رياضة كبيرة ذات نتائج ملموسة في نهاية المطاف . وهل تعلم أنني منشغل الآن في النقوش الأثرية أو اكتشاف نوع جديد من الفخاريات واقتناء أشياء جميلة من القرى والبلدات لتزيين البيت بها؟ ولاحاجة لذكر عملية اصطياد الأثريات في البلدة وما حولها ، ونهر الفرات والاستراحة على ضفافه عندما يشعر المرء بالحرارة . انه المكان الذي يأكل فيه المرء نبات اللوتس في كل يوم تقريباً ، وتعلمون أن ذلك الشعور يُعَّد سيئاً بالنسبة لرغبة المرء في القيام بشيء ما جدير بالبحث عنه .

وفي النهاية ، ومع اعتذاري ، هل لك أن تكتب لي أو تبلغني في ما إذا كان ثمة أمل بأن تتولى المشروع لوحدك ولحسابك؟ فالعمل في كركميش لن ينتهي قبل أربع أو خمس سنوات : وأخشى أن أذهب بعد ذلك إلى عمل أو اعمال اخرى جميلة . لذلك فأنها نهاية مؤسفة» .

ورغم أن لورنس قد تخلى عن مشروع المطبعة ، فيبدو أنه قد عمل في مشاريع أخرى خلال عام ١٩١٣ . وكان من بينها تأليف كتاب سياحي عن سبع مدن في الشرق (وكان النواة الأصلية لكتاب أعمدة الحكمة السبعة) . وكتب عنه فيما بعد يقول «أنه كتاب تافه ، بسبب الصعوبات التي واجهته» .

ومن المحتمل أنه لم يكمل ، رغم أنه كان قد زار آنذاك المدن السبع كافة ، التي كان عليه أن يضعها فيه (وقد ذكر هذه المدن مرة بأنها كل من : القسطنطينة ، القاهرة ، سميرنه ، حلب ، القدس ، اورفه ، ودمشق ، وفي مناسبة أخرى أضاف إليها بغداد ، التي زارها عام ١٩١٣) .

وفي نحو العاشر من كانون الأول ، وردت رسالة من كينيون غيرت خطط سفر كل من لورنس و وولي فقد طلب منهما كينيون فيما إذا كانا مستعدين للانضمام إلى فريق المسح الجغرافي لصندوق الاستكشاف في فلسطين من أجل عمل خرائط في صحراء سيناء إلى الجنوب من بئر السبع . ورد عليه وولي ببرقية ، أعرب فيها عن استعدادهما للمشاركة في عملية المسح ، ومن ثم بعث برسالة في اليوم نفسه يؤكد فيها انهما

سيكونان مستعدين لذلك في الأول من كانون الثاني . وقال : «كلانا نحب هذا العمل ، إلا أنه يوجد لدي بعض الشك حول ذلك المكان ؛ وحقيقة يجب علينا أن نكون هناك للعمل اعتباراً من شهر كانون الثاني» .

وكانا يتطلعان الى تلك الرحلة إلى الجنوب . وكتب لورنس في هذا الصدد يقول : «سيكون الطقس هناك دافئاً ، ومشمساً ومسراً بعد الثلوج والصقيع هنا» بيد أنه كانت لديهما فكرة بسيطة فقط عما كان مطلوب منهما . فقد كتب لورانس إلى أسرته يقول : «لقد تلقينا برقية من إدارة المتحف البريطاني (تأكيد بأن عليهما أن يذهبا إلى سيناء) تطلب فيها منا أن نقوم بمهمة آثارية لعملية مسح في منطقة (غزة - بترا) تباشر بها بعثة من صندوق الاستكشاف في فلسطين . لذلك علينا ان نذهب خلال يومين . . . وليس لدي أكثر من ذلك لابلغكم به . . . ونحن نقوم بتحضير الضروريات ، وترتيب امورنا محلياً . وسيكون معنا دحوم» .

وقبل مغادرتهما ، قضيا عيد الميلاد وحدهما في بيت البعثة . ويقول لورنس : «قام وولي بإنشاد مقطعين من ترنيمة ، بناء على طلبي . وكان المشهد جميلاً في الحقيقة ، من على مسافة قصيرة» . إلا أنه لن يكون هناك احتفال بعيد الميلاد في وقت سلم لمدة خمس سنوات .

واستعدا ومعهما دحوم للانضمام إلى بعثة سيناء في ٢٩ كانون الأول ١٩١٣ . وفي حلب ، تلقى وولي رسالة من جمعية صندوق الاستكشاف في فلسطين ، تتضمن تعليمات تقول : «أنتم من دون ريب على دراية بعملية مسح لمنطقة غرب فلسطين من مقياس انش إلى ميل (على الخريطة) ، والتي نفذت من قبل الجمعية في الأعوام ١٨٧٢ - ١٨٧٧ . . . وان الحدود الجنوبية لذلك المسح كانت بخط عرض يبدأ من الغرب إلى الشرق تقريباً ، عبر غزة ،بئر السبع ، إلى قلعة الماسادا الواقعة على الشاطىء الغربي للبحر الميت .

وإن المنطقة التي ستجري فيها عملية المسح الآن تقع الى جنوب المنطقة السابقة ، من أعلى خط الحدود المصرية ، الذي يمتد من رفح ، على ساحل البحر المتوسط على بعد نحو عشرين ميلاً من جنوب غرب غزة ، باتجاه الجنوب الشرقي ، إلى رأس خليج العقبة ،

وإن الحد الشرقي لمنطقة المسح الجديدة سيكون خطاً يمتد شمالاً عبر وادي عربة ، من خليج العقبة إلى التخم الجنوبي للبحر الميت .

وهذه المنطقة ، رغم قربها من فلسطين ومصر ، تُعَدّ غير معروفة تقريباً . ورغم أن أجزاءً معينة منها يجتازها المسافرون ، فإن أغلبها غير مستكشف . وأصبحت توجد فرصة فرضت نفسها الآن ، إذ أن الكابتن (النقيب) نيوكمب من سلاح الهندسة الملكي ، ومعه فريق من هذا السلاح ، قد حصلوا على تصريح للقيام بمسح هذه المنطقة . وإن العمل الطوبوغرافي سيقوم به الكابتن نيوكمب ، إلا أنه من الأهمية الكبيرة وجوب فحص المنطقة من الناحية الأثرية ، حيث يوجد العديد من الآثار المهمة جداً بالنسبة لدارسي التوراة ، ولذا فإن اللجنة راغبة في الاستفادة من خدماتكم وخدمات السيد لورنس في هذا الجزء من العمل .

وعموماً ، فان أهداف البعثة هي كالآتي :

١ . إخراج خريطة دقيقة للمنطقة وبمستوى قياس من انش إلى ميل .

٢ . عمل خطط خاصة للمواقع ، والأطلال ، والبقايا الأثرية الأخرى .

٣ . التقاط صور للأبنية وغيرها من النقاط المهمة .

٤ . التقاط صور لأية نقوش تكتشف .

٥ . جمع عينات من الاحجار القديمة وقطع الصوان .

٦ . القيام بتسجيل أسماء الأماكن الموجودة والمستخدمة حالياً بعناية .

وعند اختتام عملكما ، يجب أن تعدا تقريراً عن ذلك ، تضعان فيه المعلومات كافة المكتسبة ، بما فيها قوائم باللغة العربية لجميع الأماكن» .

وانضم عالما الآثار (وولي ولورنس) إلى الكابتن نيوكمب في العاشر من كانون الثاني . واستذكر نيوكمب ذلك فيما بعد بقوله : «لقد انطلقت بسيارتي إلى الشمال صوب بئر السبع من معسكر المسح الجيولوجي ، لألتقي بالعالمين البارزين ، اللذين تركا عملهما في البحث عن الآثار الحثية في كركميش ، ليلتحقا بنا . وقد توقعت بأن أجد رجلين كبيري السن نوعاً ما؟ غير أنني وجدت كل من ل . وولي وثوماس إدوارد لورنس شابين يتراوح

عمراهما بين الثامنة عشرة والرابعة والعشرين . . . فرسائلي لهما من أجل الترتيب لاستقبالهما كانت مهذبة جداً ، على نحو واضح .

وحصل وولي ولورنس من نيوكمب على مقدار كبير من المعلومات المتعلقة بالغرض العسكري لمشروع المسح الجيولوجي ، والذي سيغطي الأراضي غير المرسومة جغرافياً ، وعلى طول الحدود ما بين شبه جزيرة سيناء المصرية وفلسطين التركية (العثمانية) . وقد خمنا حينذاك (كما أبدى ذلك لورنس في رسالة بعث بها إلى والديه فيما بعد) بأنهما سيستخدمان كغطاء من أجل هدف سياسي .

وبالنسبة لوولي ، فقد فزع عندما لم يجد هناك معدات أو أجهزة تخزين ، لذلك كان عليهما هو ولورنس أن يشتريا ما أمكن من أجل الرحلة ولحسن الحظ أحضر لورنس آلة تصويره وبعض الأوراق المضغوطة من كركميش . وذهبا أولاً لترسيم بلدة بسيطة ، ومن هناك عملا ببطء باتجاه الجنوب . إلا أن لورنس لم يجد الرحلة مريحة حيث يقول : «بعد القيام بالكثير من الجهد والسير بالجمال ، تبين لنا اننا لم نكن سعيدين تماماً؟ اذ أن وولي كان غير مرتاح تماماً ، لأنه كان لين البنية ، أما أنا فيمكنني السير والسفر على الأشواك ، والنوم في عباءة على الأرض . اما وولي فلا يمكنه عمل ذلك ، أو في الأقل ، أنه مازال يتعلم ذلك ببطء» .

وفي أوائل شهر شباط ، كان على فريق المسح أن ينقسم . فقد كان على نيوكمب أن يقوم بتغطية الجزء الجنوبي يرافقه كل من لورنس ودحوم . وكان عليهم العمل باتجاه العقبة ، ومن ثم العودة عن طريق وادي عربة . أما وولي ، فكان عليه العمل مع فريق آخر ، ليذهبوا باتجاه شمال شرق . ولم يجد عالما الآثار أي شيء تقريباً متعلق بالعصر التوراتي ، والذي كانت بعثة صندوق استكشاف فلسطين مهتمة به . فقد يكون اليهود قد قضوا اربعين سنة في البرية خلال سنوات التيه ، بيد أن حقبتهم تلك لم تترك أية آثار يمكن التعرف عليها . ورغم ذلك ، فإن لورنس ، تعلم الكثير من هذه الرحلة التي دامت ستة أسابيع مع فرق المسح التابعة لنيوكمب ، حيث يقول عن ذلك : «إن العيش معه قد اكسبني تبصراً واضحاً في أساليبه ونهجه . . . وكان يغادر الى العمل عند الفجر برفقة الأدلاء والمعدات ، ويعود إلى المعسكر عند حلول الظلام ، وربما يعمل حتى منتصف

الليل ، حيث يقوم بترتيب المعلومات وتقييمها وتسجيلها من أجل الفرق الأخرى العاملة . لقد كان بمثابة مولد لبعثة المسح الجيولوجي» . ومن خلال ملاحظته ومعاونته لنيوكمب في العمل من حين إلى آخر ، فقد اكتسب لورنس خبرة في أساليب المسح أفادته بشكل جيد فيما بعد .

كما أن عملية وضع الخرائط علمته الكثير عن جيولوجيا المناظر الطبيعية المختلفة . وقد استخدم معرفته هذه لإغناء كتاباته . فهناك فقرات في تقريره عن رحلته الى العقبة كشفت مسبقاً عن أهمية وصف المناظر الطبيعية في كتابه أعمدة الحكمة السبعة . فعلى سبيل المثال يصف تلك الرحلة بقوله : «أن الطريق إلى أسفل كان رائعاً جداً . وعلى جوانب التلال توجد انواع الصخور كافة المختلطة بفوضى ، وتمتد على سفوحها الجروف الكلسية الخضراء الباهتة لمئات الاقدام ، في مجموعات ضخمة تكون وجوهها صخرية متلونة مع أحجار رخامية سماقية اللون وصخور بركانية متبذرة ناتئة ، أو حيث تكون الحجارة ناعمة ، نظيفة ، مخلفة لوناً أحمر وقرنفلياً ملطخاً بألوان باهتة . وتجعل الفوضى في المواد الطبيعية الطريق الممتد غير مستو . في حين أن سطحه في بعض المواقع ممهد ، حيثما سمح وضع الصخور بذلك ، اذ ان الحجارة هناك رفيعة ومنبسطة . لذلك فإنه كان على البنائين أن يكونوا مستعدين لعمل متاريس من الحجارة أو أقامة الجدران . رغم أن مثل هذه الأعمال من الحجارة تكون مأساوية بالنسبة لطريق مهجور ، إذ أن أمطار المواسم تجعل الأجزاء الضعيفة منها كأدراج عملاقة غير منتظمة ؛ في حين أن خط السيل قد أتخذ طريقاً ملائماً ، وجعله ممهداً بعمق بفضل الحصى المنجرفة بواسطة المياه» .

وعندما وصل نيوكمب ولورنس الى العقبة ، منعهما القائممقام هناك من العمل في تلك المنطقة ، ورغم ذلك فإن هذا لم يمنع نيوكمب من انجاز الشيء الكثير (فقد كانت الخرائط المحلية للمنطقة موجودة لديه) ، مما اتاح للورنس القيام بعدد من المغامرات . وبخاصة محاولة فحص الحصون المتهدمة في جزيرة فرعون ، وهي جزيرة صغيرة عرفت منذ أيام الصليبيين باسم «غرابة» ، وتبعد اربعمائة ياردة عن شاطىء العقبة . بيد أن الشرطة التركية منعته من استخدام قارب للوصول إليها ، إلا أنه تدبر أمره بوساطة مجموعة من الأخشاب المجمعة .

وبعد هذه الحادثة ، فقد اصطحبه ومعه دحوم ، ملازم ومجموعة من الجند في رحلة العودة باتجاه الشمال . وعُدّ هذا تحدياً له مما جعله يفاجيء الجند بجعلهم يمرون عبر منطقة ذات تضاريس مروعة . وكانت هناك بعض الأهداف لتلك الحملة ، إذ انهم وجدوا ماكان نيوكمب يبحث عنه ؛ وهو الطريقين الواسعتين المتقاطعتين عبر جبال وادي عربة واللتين تستخدمان الممرين لدخول المجموعات المغيرة الى سيناء حينذاك كما انها استخدمتا قديماً من قبل الإسرائيليين القدامى . فلم يرينا أحد هذين الطريقين ، اذ انه بالنسبة للعرب ، يُعّد من الجنون التجول فيها من دون دليل أو مرشد . كما أن هذه الرحلة منحت لورنس فرصة زيارة البتراء ، ذلك المكان الذي يُعَّد صرحاً أثرياً تأثر واهتم به إلا أنه لم يكتب سوى القليل عنه ، قائلاً : «انكم لن تعرفوا ماذا تشبه البتراء ، مالم تأتوا الى هنا وتشاهدونها . . . وكونوا متأكدين فقط بأنكم مالم تشاهدونها ، فانه لن يكون لكم أدنى فكرة عن مدى جمال المكان» .

ومن البتراء اتجه جنوب الشرق إلى معان ، وبعد مناوشات أخرى مع السلطات التركية هناك ، استقل القطار إلى دمشق ، التي تبعد عنها نحو (٢٣٠) ميلاً . وكان عليه زيارة هذا الخط الحديدي في ظروف مختلفة تماماً بعد ثلاث سنوات .

وبينما كان وولي ولورنس في سيناء ، كان المتحف البريطاني قد أصبح محظوظاً بحصولة على التمويلات . فمن دون الانتظار لأن يستعلم من خلال المقالات المنشورة في صحيفتي «التايمز» و«لندن نيوز» في ٢٤ كانون الثاني ، قدم والتر موريسون مبلغ عشرة الاف جنية استرليني أخرى من أجل متابعة العمل في الحفريات الأثرية ، لذلك فقد أصبح مؤكداً أن الحفريات ستستمر في كركميش . وعزم هوغارت على زيارة جرابلس ليقر خطة البعثة النهائية من أجل العمل هناك لعدة سنوات قادمة . كما أنه أراد التحدث مع لورنس بشأن خطير ، إذ أن منحته من كلية مجدولين قد انتهت ، فهل يريد المضي في العمل في جرابلس؟ فإذا كان يريد ذلك ، فانه سيحتاج الى أجر أعلى ولكن هل يريد المضي في هذا العمل مهما كان الأمر ، وهل من الأصح أنه يجب ان يفعل ذلك؟ هذا ما ينبغي أن يبحث معه ، فاذا لم يرغب في المعنى في ذلك ، فلا بد من ايجاد شخص آخر ليحل محله . كما كان هوغارت متشككاً فيما إذا كان يحب لورنس ان يستمر في العمل كمساعد لوولي في كركميش ، بحيث أن معظم الأعمال الناجحة ستعزى إلى وولي ،

فلقد أصبح لورنس حينذاك في الخامسة والعشرين من عمره ، وكان من الأفضل له أن يمارس حرفته بمفرده ،كما اقترح عليه بيتريه ذلك ، أو العودة الى جامعة اكسفورد لاتمام حصوله على درجة البكالوريوس في الآداب ، في تخصص فخاريات وخزفيات القرون الوسطى . وعاد وولي ولورنس إلى طرابلس في بداية شهر آذار ، غير أن فصل الحفريات توقف على الفور بسبب حدوث شجار بين مهندسي السكة الحديد الألمان وعمالهم . وبعد جهود شخصية كبيرة قام بها كل من لورنس وولي جرى تهدئة العمال الغاضبين ، وتكللت جهودهما بالنجاح . ونالا بذلك شكر وامتنان السلطات التركية الرسمية ، إلا أنهما أضاعا جزءاً كبيرا من الوقت بسبب تقديم بيانات للسلطات التي جاءت للتحقيق في المسألة .

وأصبح موقع العمل مشهوراً آنذاك ، حيث وصل إليه زائرون بارزون بالقطار . وللتعويض عن خسارة الوقت ومكافأة لجهودهما (لورنس وولي) ، فقد أقرضهما مهندسو السكة الحديد الألمان ، الذين كانوا يواصلون إزالة الأتربة الناجمة عن الحفريات خلال فصل الشتاء ـ أقرضوهما آنذاك عربات نقل إضافية من أجل العمل على سكة الحديد الصغيرة لإزالة الاتربة بواسطتها ولمزيد من السرعة في العمل . وفي المساء كان وولي ولورنس يعملان في إعداد تقرير عن حملة سيناء ، التي كان مقرراً لها أن تصدر على شكل دراسة . وقد خطط لورنس لقضاء نحو ستة اسابيع خلال فصل الصيف في إنجلترا ، حيث يمكنه هناك الاستعانة بمصادر تاريخية كما أنه قرر المكوث في كركميش وفكر بتعلم اللغة الكردية . وكتب لأسرته حول ذلك يقول : «لا أعتقد بأنني سأسافر واتجول في بلاد الغرب بعد الآن : فالمرء لا يمكنه ، بالطبع ، سوى أن يعترف بأن هذا الفصل هنا جدير بالاهتمام مليون مرة ، فالعرب مختلفون جداً عنا» واستمر تدفق الزائرين إلى الموقع خلال فصل العمل . وكان الضيوف يستقبلون في بيت البعثة ، الذي جرى توسيعه وإجراء إضافات عليه ليصبح بناءً كبيراً وبما أنه من الممكن أن يوجد المزيد من الزائرين الأوروبيين مستقبلاً ، فقد أضيفت إليه غرفة جلوس أخرى ، ومخزن جديد للتحف الأثرية واصطبل ، ومخزن للفحم الحجري وغرفة غسيل .

رغم كل ما كان يجري هناك ، فقد كان انشغال لورنس متنوعاً وبخاصة في أيام الجمع ، عندما كان يتوقف العمل ، حيث يقول في هذا الشأن : « كنا ننام أكثر من المعتاد

يوم الجمعة ، ومن ثم أقوم بتصليح بعض عربات السكة الحديد الصغيرة حتى منتصف النهار . وفي المساء أقرأ قليلاً ، ثم اقوم بتفقد البيت وما يلزمه ، وأمارس بعد ذلك ، لمدة وجيزة الرمي بالبندقية من على بعد مائتي ياردة . ويجدر بي أن أمارس القراءة الآن ، إلا أنني لا أفعل» .

وفي منتصف أيار زار الموقع ستيوارت نيوكمب ، ومساعده الملازم كريج ، الضابطان في سلاح الهندسة ، واللذان كانا مسؤولين في حملة مسح سيناء . وبذل وولي ولورنس جهودهما لاثارة اهتمام الضيفين بعلم الآثار ، كما دعيا لمشاهدة كركميش في طريق عودتهما إلى إنجلترا ولكي يقدم لنيوكمب تبريراً لهذا التحول ، فقد اقترح وولي بأن تلك المنطقة قد تتيح الحصول على معلومات عسكرية (على سبيل المثال فيما يتعلق بهندسة خط سكة حديد بغداد) . وبعد زيارة قصيرة لكركميش ، ذهب الضابطان إلى مسافة ١٥٠ ميلاً باتجاه الغرب حتى جبال طوروس ، على أمل اكتشاف طريق خط السكة الحديدية بالضبط ، وعملية الإنشاء عبر الممرات الضيقة والصعبة .

وكان لورنس يخطط لمغادرة طرابلس في نحو العاشر من شهر حزيران . فقد ابلغ وولي كينيون : «كلانا مسرور لبلوغ نهاية الفصل ، ولكوني متعباً ومرهقاً ، فانني أرغب في قضاء الصيف في إنجلترا لاستعيد نشاطي ثانية» . وقبل وقت قصير من مغادرتهما ، وصلت رسالة من نيوكمب ، الذي كان قد وصل إلى القسطنطينية (إسطنبول) . حيث وجد خط إنشاءات السكة الحديدة عبر جبال طوروس ، وكان قادراً على السفر عبر ذلك الطريق . غير انه كان من الصعب الحصول على الكثير من المعلومات حول الخط الحديدي ذاته . لذلك فقد طلب من وولي ولورنس محاولة سلوك الطريق نفسه في عودتهما إلى الوطن .

وفي اوائل شهر حزيران ، وبعد أن ودعا العمال في طرابلس ، وسلكا الطريق عبر جبال طوروس في طريقهما لقضاء الصيف في إنجلترا . وكان لورنس يخطط للعودة قبل نهاية شهر آب ، لبدء فصل عمل جديد في شهر أيلول .

وكتب وولي فيما بعد يقول : «في شهر حزيران ١٩١٤ انجز كتالوجاً جديداً وجمع أكثر من ألفي قطعة أثرية وجرى تسجيلها ، وعمل قوائم كاملة لكل فخاريات العصر البرونزي المبكر» . وترك لورنس هذه الملاحظات (الأعمال) النفيسة ، وأخذ آلة تصويره

للقيام برحلة إلى جبال طوروس .

وبوساطة الخدع والحظ على حد سواء ، استطاع هو ووولي أن يصلا إلى طريق خط إنشاء السكة الحديدية ،حيث صادفا مهندساً إيطالياً كبيراً كان قد صرف من الخدمة للتو من قبل الألمان . وكان وولي يحب إيطاليا ويتكلم لغتها بطلاقة . لذلك أقام صداقة مع المهندس الإيطالي الساخط والناقم ، والذي قام باعطائه المعلومات كافة التي أرادها نيوكمب . وكتب وولي في ما بعد حول ذلك يقول : «إنها المرة الوحيدة فقط التي قمت فيها بالتجسس قبل الحرب» .

وكان على لورنس وولي أن يقضيا الشهرين التاليين في إنجلترا يعملان في إعداد تقرير عن حملة استكشاف سيناء . وكان نصف هذا التقرير قد أنجز خلال الفصل الأخير من العمل في كركميش ، إلا أنه كان لايزال محتاجاً إلى الكثير بعد لانجازه ، بخاصة في ما يتعلق بالمخططات والتوضيحات .

في الساعة الحادية عشرة صباحاً ، من يوم الرابع من شهر آب عام ١٩١٤ وقبل اثني عشر يوماً من بلوغ لورنس السادسة والعشرين ، دخلت بريطانيا الحرب العظمى (الحرب العالمية الاولى) . لذلك ، فانه لن يرى كركميش ثانية . وكتب فيما بعد حول هذا الأمر ليستعيد حنينه إلى مرحلة شبابه المبكر يقول : «إن المرة الاولى التي غادرت فيها إنجلترا (في عام ١٩٠٦) كانت تُعد حلماً جميلاً . . . فقد بدأت ، من تلقاء نفسي ، مستقلاً ، ومتطوعاً في رحلاتي وأسفاري التي أمتدت إلى فرنسا بشكل رئيس ، إلى أن أصبحت عالماً في الآثار على يد هوغارت ، وملماً بالجغرافيا ، وإعداد التقارير والأبحاث في هذا الشأن» . رغم ذلك فان كلمات لورنس تخفي في طياتها الاستمرارية في اعماله ما بين حقبة ما قبل الحرب وفترة الحرب .فالجغرافيا والكتابة كانت تشكل نشاطاته الرئيسة للسنتين القادمتين وكان عليه خلال فترة الحرب أن يكتسب معرفته وخبرته المبكرة . كما ستكون ثمة استمرارية في تطور شخصية لورنس ، في حين كان بعض الاشخاص يستجيبون لنداء الحرب بمقدرة غير مشكوك فيها ، فإن ذلك لم ينطبق على حالته ، فمع مطلع شهر آب ١٩١٤ ، بدأت ميزاته (مواهبه) الشخصية ، التي اكسبته شهرة ، بالوضوح والظهور آنذاك .

الجزء الثاني

سنوات الكفاح

١٩١٤ ـ ١٩٢٢

«ليكن واضحاً... أن أهدافي كانت تتركز على إنقاذ إنجلترا، وفرنسا أيضاً، من حماقات الإمبرياليين، الذين امتلكونا في عام ١٩٢٠، مستعيدين حقبة الاستغلالات. فالعالم قد تجاوز هذه النقطة، على ما اعتقد، رغم أنه يوجد ثمة مستقبل عظيم للامبراطورية البريطانية كترابط طوعي».

من ثوماس إدوارد لورنس إلى د. ج. بيرمان ١٦ شباط ١٩٢٨. وكان بيرمان يقوم بإعداد محاضرات عن الثورة العربية.

الفصل الخامس

القاهـرة ولنـدن

آب ١٩١٤ ـ آب ١٩١٥

عندما اندلعت الحرب في شهر آب ١٩١٤ ، تطوع معظم الشبان الذين هم في عمر لورنس نفسه في الخدمة العسكرية على الفور . وقد شمل ذلك أيضاً شقيقيه بطريقة أو بأخرى ، باستثناء شقيقه الأصغر ، الذي كان لا يزال في المدرسة وقد أختار بوب خدمته في الخدمات الطبية إذ أنه كان قد انهى تدريبه في هذا الميدان ، وعليه أن يذهب إلى الجبهة . وكان ويل حينذاك يقوم بالتدريس في الهند ، فشعر بأن من واجبه أن يعود إلى إنجلترا بأسرع ما يمكن وينضم إلى الجيش . أما فرانك ، فقد كان لايزال يدرس في جامعة أكسفورد ، وخطط للحصول على مهنة في الجيش ، فمنح على الفور رتبة عسكرية . كما أن لورنس نوى أن يتطوع في الجيش . إلا أنه أراد أن ينهي أولاً تقريره الأثري عن حملة سيناء .

في ذلك الصيف ، كانت تركيا لا تزال بعيدة عن الحرب ، وأمل بعض اعضاء الوزارة البريطانية أن يقتنع السلطان بعدم الانضمام إلى المانيا . وأصبح اللورد كيتشنز آنذاك وزيراً للحربية في بريطانيا ، فطلب أن يصدر تقرير بعثة حملة مسح سيناء بأسرع ما يمكن لأنه من الممكن أن يساعد ذلك على إفهام الأتراك بأن عملية المسح كانت أثرية محض . لذلك فقد قضى لورنس فصل الصيف في أكسفورد . كما أن وولي ، بوصفه الكاتب المسؤول عن التقرير ، أُعفي أيضاً من التجنيد العسكري ، وجرى تبادل فصول التقرير فيما بينهما .

وخلال تلك الأسابيع أعاد لورنس ثانية التفكير «بمشروعه أيام طيش الشباب» حول المدن الشرقية السبع ، والذي كانت أجزاء كثيرة منه مكتوبة في المسودة . فَعُدَ أن ذلك كان عملاً خاصاً ، فقام بحرقها .

وقرر لورنس أن يتجند في الجيش عندما يجري إعداد تقرير حملة سيناء وكان الإقبال على التجنيد ، في ذلك الوقت ، كثيفاً بحيث كان الرجال الذين يقل طولهم عن

ستة أقدام يُرفضون من التطوع . لذلك فقد كتب وولي إلى نيوكمب يسأله عما إذا كان من الممكن لهما أن يكونا قادرين على الخدمة في الاستخبارات العسكرية . فابلغا بأن ينتظرا ، لأن معرفتهما المختصة في الشرق الأوسط يمكن أن تصبح مفيدة إذا ما دخلت تركيا الحرب .

وفي الاسبوع الثالث من شهر تشرين الاول ، وجد لورنس وظيفة لها علاقة بالحرب في لندن ، وبدأ العمل ، كموظف مدني ، في القسم الجغرافي برئاسة الأركان ، إذ كان هوغارت على معرفة برئيس هذا الفرع ، الكولونيل هيدلي ، ومن المحتمل أن الفضل يعود اليه في إيجاد هذا العمل للورنس .

فالضباط الجغرافيون كانوا بحاجة ماسة اليهم ليكونوا متواجدين في الجبهة لذلك بعد عشرة ايام من انضمام لورنس الى القسم الجغرافي وجد نفسه وحيداً مع هيدلي هناك . كما أنه وجد نفسه يعمل من الساعة التاسعة صباحاً حتى وقت متأخر من الليل . ورغم أن القسم الجغرافي برئاسة الاركان البريطانية كان منهمكاً في اعداد خرائط لفرنسا ، فإن بعض عمله (لورنس) كان متعلقاً بالمسح الجغرافي لنيوكمب في سيناء ، وذلك كان بارعاً في هذا العمل ، لأنه يمتلك معلومات ومعرفة بالمنطقة ، ومقدرة على معرفة اسماء المناطق والأماكن العربية . وبناء على ذلك فقد جند مؤقتاً كمترجم برتبة ملازم ثانٍ .

واخيراً دخلت تركيا الحرب في نهاية شهر تشرين الأول ، فنقلت مهام صنع الخرائط لاراضي العدو في كل من سيناء ، وسوريا ، وغربي شبه الجزيرة العربية الى مصر آنذاك . وأصبح على لورنس أن ينتقل إلى مصر على الفور .

إلا أنه لم يفقد الاتصال بعملة الآثاري خلال فترة وجوده في وزارة الحربية ؛ فقد كان مهتماً بمصير موقع كركميش والعرب الذين عملوا هناك . وعندما اقترح فونتانا بأن المتحف البريطاني سيواصل استخدام رؤساء العمال كحراس في الموقع ، وافق لورنس على ذلك ، مبلغاً كانيون بقوله : «لقد توقعت بأن مسألة الحرب مع تركيا ستنقل كافة الأثريات في كركميش الى مسؤوليتك . . . وسيكون هناك القليل من النشاط في الوقت الحاضر . . . وبهذا الافتراض فإنه سيكون من الأجدر أن تستمروا في دفع أجور كل من

حمودي ، والحاج وحيدي ، ودحوم وآخرين عن طريق طرف ثالث» .

وفي منتصف شهر تشرين الثاني تأجلت مغادرة لورنس إلى القاهرة ، عندما أسند إليه عمل مستعجل ليقوم به ، حيث يقول في هذا الشأن : «كان عليّ أن أذهب إلى مصر في يوم السبت الماضي ، إلا أن مكتب القيادة العامة هناك أرسل برقية إلى وزارة الحرب يطلب فيها إعداد تقرير عن الطرق في سيناء ، كان من المفترض أن يكون لديهم .

«حسناً ، لم تكن لديهم معلومات عن ذلك بالطبع ، ولا مقدار بسيط منها لذلك فقد لجأوا إليّ وقالوا «اكتب ذلك» .

«وقد ظننت أنني سأصطاد طائر أو اثنين بحجر واحد ، لذلك قدمت لهم تقريراً عن الطرق الصحراوية . . . فأخذوها وطلبوا المزيد» . وكان التقرير يغطي جميع منطقة سيناء الغربية ، وحتى غربي قناة السويس . وكان لورنس قد زار فقط جزءاً صغيراً من هذه المنطقة خلال عمله مع بعثة مسح سيناء ، حيث يقول : «لقد كتبت تقريراً عسكرياً عن بلد لاأعرفه ولم أزره بعد . إلا أنه مما يزعج ، انني سأنتهي من إعداد تقريري ، وسأقود نفسي للعمل في ذلك البلد ، وسيكون هذا درساً في التواضع ، كما آمل» .

وكان ذلك العمل مزعجاً جداً ، لأنه في سباق مع الوقت ، وإن الخرائط لم ترسم بعد . لذا فقد كان عليه الإشراف على ذلك ، ومحاولة ربط الأمرين (الخرائط والتقرير) معاً . وقد استغرق ذلك من لورنس مدة شهر تقريباً لجمع معلومات لإعداد تقرير عسكري عن شبة جزيرة سيناء . وكانت جميع المعلومات المطلوبة توجد في ملفات الدائرة ، بيد أن مهمة ترتيبها وجمعها وتحريرها في كتاب يحتوي على (١٩٠) صفحة كانت تعني عملاً كثيفاً يمتد إلى منتصف الليل . وأخيراً غادر لورنس إلى مصر ، في التاسع من كانون الأول ١٩١٤ ، برفقة نيوكمب .

وكانت السلطات البريطانية في القاهرة قد قامت باستعدادات سرية خلال الأشهر التي سبقت دخول تركيا الحرب . ورغم أن مصر كانت تابعة اسمياً للسلطة العثمانية ، فإن البلاد كانت آنذاك ، تحت السيطرة البريطانية ، وسيكون أمنها موضع اهتمام بسبب قناة السويس . وفي الثاني من تشرين الثاني ، تخلى مجلس الوزراء البريطاني رسمياً عن السياسة التي كانت متبعة قبل الحرب وهي الإبقاء على وجود الأمبراطورية العثمانية ،

لذلك فقد جرى الإعلان عن أن مصر أصبحت محمية بريطانية ، وعين هنري مكماهون ، الذي كان سابقاً وزير خارجية لدى حكومة الهند (البريطانية) ، مندوباً سامياً في مصر .

وكان الهدف الرئيس للسياسة البريطانية في مصر الدفاع عن منطقة قناة السويس ، إلا انه كانت توجد مدرستان فكريتان حول كيفية إنجاز ذلك على أفضل وجه . المدرسة الأولى تعتقد بأنه يجب استخدام الوسائل كافة من أجل هزم تركيا ، وانه سيكون من الأفضل توجيه ضربة أو هجوم وقائي ضدها للدفاع عن المصالح البريطانية . وكان على رأس هذا الفريق اللورد كيتشنر ، الذي خدم كعميل بريطاني في مصر حتى شهر آب ١٩١٤ ، وكان قد أصبح واحداً من أكثر الأعضاء المتنفذين في الوزارة البريطانية . أما المدرسة الثانية فقد دعت إلى إتباع استراتيجية الحماية ، بحيث يكون الوجود البريطاني في مصر مستخدماً فقط لكبح الحركات الموالية للأتراك ، ولاحباط أي هجوم على قناة السويس . وقد دعمت هذه الاستراتيجية ثلاث مجموعات قوية . أولاً ، كان يوجد العديد من الذين اعتقدوا بأن جهد بريطانيا يجب أن يتركز على الجبهة الغربية ، وانه يجب تجنب الأحداث الجانبية . ثانياً ، كانت ثمة فرنسا ، التي تأثرت سياستها تجاه الشرق الأوسط بالمخاوف من أن بريطانيا ستستغل الحرب كذريعة لضم مناطق كانت من ضمن الطموحات الاستعمارية الفرنسية ، وأخيراً ، كانت توجد الإدارة الاستعمارية البريطانية في الهند ، التي عَدَّتْ الشرق الأوسط من ضمن مجال مصالحها ، وكانت مستاءة من التدخلات الصادرة من القاهرة في المنطقة .

وانه لمن المهم أن ليس ثمة اقتراح من تلك الاقتراحات يفرض الحماية على القناة كانت له مسؤولية مباشرة في الدفاع عن مصر ، لذلك فقد عرفت السلطات المعنية إنه إذا ما شنت تركيا هجوماً جاداً ، فانه سيكون من الضروري فتح جبهة طويلة في منطقة الصحراء التي تفتقد إلى أية مواقع دفاعية طبيعية ، وأن أي هجوم تركي ناجح على أية بقعة يمكن أن يوقف بسهولة حركة المرور في القناة .

واذا كان الدفاع السلبي غير مرغوب فيه ، فقد ظل التساؤل قائماً حول تقرير أفضل وسيلة لشل حركة الأتراك . وهذا لن يتضمن بالضرورة التقدم عبر صحراء سيناء ؛ إذ أنه من الممكن القيام بهجمات وأعمال تخريبية مؤثرة في أماكن أخرى ، وهذه تمتد شمالاً عبر خط سكة حديد فلسطين ، ومن ثم في الأراضي الداخلية حتى دمشق ، وأخيراً

باتجاه الغرب عبر جبال طوروس والامانوس قبل الوصول إلى القسطنطينية (إسطنبول) . وكان من الواضح أن أفضل خطة لذلك هي إنزال قوة بريطانية لتقوم بمهاجمة المواقع السهلة القابلة للهجوم على هذا الخط .

وكان العامل الآخر هو إمكانية إغراء العرب بالتمرد في الأراضي المعادية فخطوط الاتصالات التركية إلى سيناء كانت تمتد إلى آلاف الأميال تقريباً وعبر الأقاليم العربية . ولم تكن هذه المناطق ، عند اندلاع الحرب ، محتلة بشكل قوي . أما في المناطق البعيدة فقد كان زعماؤها المحليون يمارسون سياسة مستقلة تقريباً عن الامبراطورية العثمانية .

كانت الحركات القومية العربية موجودة منذ ما قبل نشوب الحرب ، وطموحاتها وتطلعاتها معروفة على نطاق واسع . وقد وضعت عدة خطط ومشاريع لتحقيق استقلال بعض الأقطار ، إلاّ أنها لم تكن عملية أو مثمرة . فمثل هذه المحاولة يمكن أن تثمر فقط إذا ما كان يوجد مصدر للسلاح والذخيرة من الداخل . وسيكون أكثر مصدر واعد لتمرد القوات العربية المدعومة شعبياً ، هو نشوء حركة قومية عربية على غرار الثورة التي قامت بها جمعية تركيا الفتاة في عام ١٩٠٨ . فمثل هذه الخطط بدت ملائمة وعملية ، لأن الجيش التركي كان مؤلفاً من وحدات مجندة ، لذلك فقد كانت الأقاليم تحتوي على حاميات من قوات عربية على نطاق واسع .

ومادامت السياسة البريطانية كانت مبنية على الإبقاء على شكل الامبراطورية العثمانية لما قبل الحرب ، فانه لم يجر تشجيع أية حركة قومية عربية . إلا أنه عندما وقفت تركيا إلى جانب ألمانيا في الحرب ، فقد تغير الموقف الرسمي البريطاني بناء على ذلك . وبدا من المحتمل أن الامبراطورية التركية ستنهار إذا ما ربح الحلفاء الحرب . لذلك فقد بحثت الوزارة البريطانية عن نوع المستقبل الملائم للمنطقة ، والذي يمكن أن يكون أكثر فائدة للمصالح الاستعمارية البريطانية . والى أن نشبت الحرب ، فإن تركيا لم تمثل أي تهديد لمرور السفن البريطانية عبر قناة السويس . ووضعت تسوية جديدة لمنع أية قوة معادية يحتمل أن تكتسب موقعاً مهينا في شرق البحر المتوسط وسيكون أحد الحلول بالنسبة لبريطانيا هو ضم مساحة كبيرة من أراضي الامبراطورية العثمانية ، بيد أن الأعضاء المتنفذين في الحكومة البريطانية عللوا بانه لن يكون أي شيء مربح من جراء تولي مسؤولية أكبر في هذه المنطقة وخلال عام ١٩١٤ ، عندما أصبح واضحاً بأن ثمة

احتمال نشوب حرب ما بين بريطانيا وتركيا ، بدأت اتصالات حثيثة بين القوميين العرب والمسؤولين البريطانيين في القاهرة .

ومن أهم هذه الاتصالات كانت المراسلات التي جرت مع الشريف حسين ، أمير مكة آنذاك . ولأنه كان حامياً للأماكن المقدسة ، فقد كان زعيماً دينياً موقراً ليس في منطقة الحجاز فحسب بل في أرجاء العالم الإسلامي كافة أيضاً . وكان على درجة كبيرة من القوة والنفوذ في منطقة مكة وقد ينجح في إبعاد النفوذ التركي عنها . وكان يعمل سراً لنيل الاستقلاق العربي منذ مطلع هذا القرن ، كما انه عُدَّ زعيماً محترماً من قبل العديد من القوميين العرب وكان الأتراك مدركين لهذا التعاطف ، غير ان محاولاتهم لتحييد نفوذه باءت بالفشل .

وفي مطلع عام ١٩١٤ ، زار الأمير عبد الله ، أحد أبناء الشريف حسين ، القاهرة وعقد اجتماعات خاصة مع كل من اللورد كيتشز ، وورنالد ستورر ، سكرتيره للشؤون الشرقية . وسألهما عبد الله ماذا سيكون موقف بريطانيا إذا ما حاول الأتراك عزل والده . ولم يتلق في ذلك الوقت دعماً بريطانياً ، بيد أن هذه المباحثات مهدت لإجراء المزيد من الاتصالات بعد اندلاع الحرب .

وفي شهر أيلول ، اقترح ستورز فتح باب المراسلات مع الأمير عبد الله . وكان ذلك تفويضاً من لندن ، فارسل كيتشز برقية إلى عبد الله ، سأله فيها عن «موقفه وموقف والده وعرب الحجاز في حالة نشوب حرب مع تركيا ، هل سيكون معنا أو ضدنا» . وكان الرد من مكة مشجعاً ، رغم أنه لم يكن ملتزماً .

وكان وضع الشريف حسين الدقيق معروفاً تماماً في القاهرة ، فالحجاز لم تكن مطلقاً ذات اكتفاء ذاتي من الناحية الاقتصادية ، بل كانت تعتمد على مصادر خارجية في تأمين الغذاء . فقد كانت تعتمد لعدة قرون على تلقي الدعم من مصر ، وقبل نشوب الحرب كانت الأغذية تصل إليها بشكل رئيس من مصر والهند . وأصبحت طريق الحج معطلة آنذاك ، وهي التي كانت تشكل مصدراً مهماً للدخل ، لذلك كان الشريف حسين يواجه صعوبات اقتصادية كبيرة وحتى ذلك الوقت كان يعتمد بشكل كبير جداً على الأتراك .

وعَدَّت السلطات البريطانية في القاهرة انه إذا لم يحصل انشقاق نهائي بين الشريف حسين وإسطنبول ، فإن موقفه تجاه بريطانيا سيكون مهماً . والسبب أن الجهاد الإسلامي ضد الحلفاء كان قد أعلن في الرابع عشر من تشرين الثاني من قبل سلطان تركيا ، كونه خليفة للمسلمين ، إذ اعتقد الأتراك أن حرباً مقدسة ستسبب نزاعات على الولاء بين ملايين المسلمين الذين يعيشون في روسيا والمستعمرات البريطانية والفرنسية ، ذلك لأن القوات المسلحة في جيوش الحلفاء يمكن أن ترفض محاربة أشقائها المسلمين في الجانب التركي .

وتوقعت السلطات في إسطنبول بثقة أن يلقى نداؤها من أجل الجهاد صدى لدى الشريف حسين ، الذي كان موقفه يعد أساسياً باعتباره حامي الأماكن المقدسة لأن الشريف عمل في الأسابيع التي تلت ذلك على تجنب تقديم أي دعم للأتراك ، معللاً ذلك بعدة أسباب تتعلق بالسياسة التركية .

وفي الخامس عشر من كانون الأول ، عندما وصل لورنس إلى القاهرة ، بدت مسألة التعاون مع العرب على رأس أولويات السياسة البريطانية في الشرق الأوسط ، وكانت مسألة الصداقة مع الشريف حسين تبنى عليها نتائج قيمة . ولم يجر الاعتراف بالتطلعات القومية من قبل المسؤولين البريطانيين فحسب ، بل جرى تشجيعها من قبل من كيتشنر والسير إدوارد غرابي وزير خارجية بريطانيا آنذاك .

انضم إلى لورنس ونيوكمب في القاهرة ، بعد بضعة أيام ، كل من ليونارد وولي ، واثنان من أعضاء البرلمان البريطاني ، هما جورج لويد وأوبري هيربرت اللذان كانا معروفين تماماً لدى الامبراطورية العثمانية ؛ فكلاهما عمل بوظيفة ملحق في السفارة البريطانية في إسطنبول . وكتب لورنس بغبطة إلى هوغارت يقول : «يبدو أنه لا توجد ثمة دائرة للاستخبارات ، وانهم جميعاً يعتقدون بأن ذلك جيد من دونها ، إلى أن اتضح لهم بأن لا أحد في مصر كان يعرف شيئاً عن سورية . وكان ذلك في اليوم الذي وصلنا فيه إلى هناك ، لذلك فقد غيروا رأيهم في إرسالنا للتجسس بالطائرة ، وأبقونا هناك لجمع المعلومات الاستخبارية بدلاً من ذلك» . ولم يتخذ هذا عن عبث ؛ إذ كانت قد صدرت ملاحظة عن القيادة العامة البريطانية في القاهرة في ٢٢ كانون الأول تقول : «تدار إدارة الاستخبارات العسكرية بوساطة النقيب نيوكمب من سلاح المهندسين ، ومعه خمسة

ضباط آخرين أرسلوا من الوطن . ونحن بحاجة ماسة إليهم» .

وكان لورنس مسروراً من عمله وزملائه على حد سواء ، فقد كان فريقاً شاباً يتألف من : نيوكمب ، الأعلى رتبة ، وكان في الرابعة والثلاثين .ولويد الذي يصغره بسنة ، في حين كان كل من هيربرت و وولي في الثانية والثلاثين وكانت الدائرة تشهد عملاً كثيفاً . وكتب لورنس أنه كان يتواجد في المكتب من الصباح حتى المساء ، يقوم بترجمة المعلومات وكتابة «المقالات الجغرافية القصيرة . ولم تكن أبحاثاً مثيرة ، بيد أنه كان أفضل عمل يجري في مصر في تلك الأسابيع» وبما أنه عمل رسم الخرائط لمدة شهرين في وزارة الحربية ، فقد أسندت إليه مهمة الاتصال ما بين الاستخبارات العسكرية وهيئة المساحة المصرية ، وهي دائرة حكومة مدنية مصرية ، كانت مسؤولة عن إصدار الخرائط . وكانت الكثير من المعلومات المطلوبة للتدقيق تجمع من مصادر استخبارية ، وسرعان ما أصبحت وظيفة الاتصال هذه مهمة .

ولم يكن عمل إدارة الاستخبارات ينحصر في جمع المعلومات فحسب ، فهي منذ بداية عملها كانت تقوم بتدقيق الاستفسارات الواسعة المتعلقة بالاستراتيجية وخلال أيام من وصولهم ، قدم صديق لجورج لويد ، كان يزور القاهرة حينذاك ، وجهات نظره في هذا الشأن بقوله : «إن إدارة الاستخبارات تقوم بعمل نفيس آنذاك يتمثل بجمع المعلومات وايجازها واستلهام الأفكار التي لا يمكن ان تخطر على بال أو تتواجد في رؤوس الجنرالات أو المحيطين بهم . . . وكلما كانت إدارة الاستخبارات تدار بشكل جيد كان أداؤها أفضل» .

ورغم أنها كانت جديدة في تأسيسها ، فإن هذه الإدارة قد حلت محل مكتب الاستخبارات ، الذي كان يقوم منذ مدة طويلة بتقديم المشورة للسلطات البريطانية في القاهرة . وقد وفرت الاستمرارية في العمل السابق بواسطة جيلبرت كلايتون ، رئيس نيوكمب ، الذي كان قد عمل في مكتب استخبارات القاهرة قبل الحرب ، ورقي حينذاك إلى رتبة مقدم .

كما كان كلايتون ايضاً مشرفاً على إدارة المخابرات المدنية المصرية . ومن خلال مسؤولياته العسكرية والمدنية ، فقد كان على علاقة وثيقة بالمقدم ماكويل (من مكتب

القيادة العامة) والمندوب السامي البريطاني في مصر . وإضافة إلى هذه المهام ، فقد كان ممثلاً في القاهرة للسير ريجينالد وينجيت ، الحاكم العام للسودان (وكان يشار إليه بشكل عام بلقب السردار وهو رتبة عسكرية مصرية آنذاك) . ولذلك فقد كان كلايتون مسؤولاً شخصياً عن أكبر ثلاثة مسؤولين بريطانيين في الشرق الأوسط . وتطلب هذا الدور المتعدد كفاءة غير عادية ومقداراً كبيراً من البراعة في التعامل مع الرتب العالية والأركان . وكتب لورانس فيما بعد يقول في هذا الصدد : «قام كلايتون بدور القائد الكامل لمثل تلك المجموعة من الرجال الشرسين . كان هادئاً ، منعزلاً ، واضح الرؤيا ، وشجاعاً من دون حدود في فرض شخصيته . وكان منفتحاً مع مساعديه ، ويعمل بوساطة التأثير بدلاً من التوجيه بصوت عالٍ . ولم يكن من السهل اكتشاف تأثيره ، فقد كان يشبه تسرب الماء ، أو تسرب الزيت ، حيث يتسلل ويزحف بهدوء وباصرار من خلال كل شيء . وما كان بالامكان القول إين كان يتواجد كلايتون ، ولمن كان ينتسب في الحقيقة . ولم يكن يقود بشكل مرئي ؛وإن افكاره هي التي كانت تسود» ؛ فمن خلال كلايتون ،جرى تجنيد مختصين أكفاء ومتحمسين في إدارة الاستخبارات الجديدة ، الذين سرعان ما انخرطوا في الإجابة على أكبر الاستفسارات حول المستقبل السياسي ، من الناحيتين العسكرية والسياسية على حد سواء .

وكان لورنس يشارك تماماً في هذا العمل السياسي ، فكما كتب نيوكمب في ما بعد يقول : «كنا نعمل في مكتب واحد . وكنا نتناول معاً أنا ولورنس و وولي الأفطار والغداء والعشاء يومياً في فندق كونتيننتال ، ولمدة تسعة اشهر . لذلك فقد عرف لورانس كل ما كان يعرفه أي واحد منا ، وبالطبع فقد كان يقرأ جميع التقارير التي كنا نبحثها معاً . . . فرسم الخرائط كان فقط جزءاً اسمياً من عمله ؛ إذ إنه كان في الحقيقة مطلعاً على صورة الوضع كأي واحد منا» .

كانت من أولى مهام إدارة الاستخبارات البريطانية دراسة الخطط حول إمكانية إنزال قوات بريطانية على الساحل السوري . وكانت أكثر منطقة قابلة للسقوط في مرافق الاتصالات التركية مع سيناء (ومع العراق أيضاً) بشكل واضح هي منطقة الاسكندرونة . وفي الرابع من كانون الأول ، وقبل وصول نيوكمب ولورنس ، كتب ما كسويل لكيتشنر يقول : «إذا ما جرى التفكير في أي تحول كان ، فأعتقد أنه من الأسهل ،

والأمن ، والمثمر أكثر في نتائجه سيكون هو مركز الاتصال الموجود في الاسكندرية فهناك يمكننا توجيه ضربة حيوية لشبكة الخطوط الحديدية إضافة الى توجيه ضربة شديدة جداً للمصالح الالمانية . ولن تحتاج الاسكندرونة إلى قوة كبيرة جداً . أما بالنسبة للمناطق الأخرى مثل رفح ، يافا ، عكا ، وبيروت ، فهي بعيدة جداً عن خطوط المواصلات التركية» .

وعُدَّ هدف الاستيلاء على الاسكندرونة عملية بريطانية محض ، إلا أنه بدا من الممكن أن تأثير إنزال قوات يمكن أن يدعم بشكل كبير ومتزايد من قبل عمل أو نشاط وطني عربي ، فقد وصلت معلومات إلى القاهرة مفادها أنه إذا ما قطعت خطوط الاتصالات العسكرية التركية بعملية بريطانية ، فإن القوميين السوريين سيستغلون الفرصة لإعلان ثورة عامة هناك .

ورغم ذلك ، فقد كانت توجد صعوبة في تقديم تشجيع مباشر للوطنيين السوريين فكما كانت الهند تنظر الى العراق على أساس سيكون مستعمرتها المحتملة مستقبلاً ، فقد كانت لفرنسا أطماع منذ زمن طويل في سوريا ولبنان ، اذ عَدَّ الفرنسيون أنفسهم حماة للطائفة المارونية في لبنان ، حيث كانت توجد أيضاً مصالح تجارية فرنسية أساسية ، وكانت مجموعات ضغط فرنسية صاخبة تنادي علناً باستعمار منطقة واسعة هناك» .

ومال السياسيون في لندن إلى قبول فكرة ان الكثير من أراضي سوريا الشمالية ستصبح تحت الانتداب الفرنسي بعد انتهاء الحرب ، بيد أن السلطات البريطانية في القاهرة كانت على اطلاع بأن مثل هذه السياسة ستؤدي إلى حدوث صعوبات بين بريطانيا والقوميين العرب . وكان من الضروري في الأقل توضيح الموقف البريطاني لذلك فقد سأل ما كسويل كيتشنر «عما ستكون عليه السياسة الحقيقية لإنجلترا في ما يتعلق بفلسطين وسوريا بالنسبة لارتباطها مع الحركة القومية العربية؟ فاجاب كيتشنر : «لا أريد أن يقال أو يفعل أي شيء يمكن أن يكون فيما بعد نقضاً لعهد . ولكن إذا ما وصلت قواتنا إلى سورية ، فاننا نأمل بأن تستقبل شعبياً هناك» . وكانت هذه الإجابة تنم عن عدم وجود سياسة بريطانية محددة في هذا الشأن . وكان كيتشنر وماكسويل يعلمان بأن إنزال قوات بريطانية على سواحل تركيا يمكن أن يشجع الوطنيين السوريين على القيام بثورة ، يمكن أن ينجم عنها ظهور حكومة وطنية معارضة تماماً للاستعمار الفرنسي . ومن

الممكن وأيضاً إذا ما ثبتت حجج الإنزال البريطاني ، أن يفقد الفرنسيون أطماعهم .

وكانت سوريا الأقليم العربي الذي وجده لورنس مثيراً جداً للاهتمام ، فأصبح منخرطاً بعمق في بحث مستقبله . وقد شاهد بنفسه قبل الحرب كيف كان القرويون يُستغَلون ويعانون من فساد السلطات التركية ، كما أنه كان يعلم الشيء الكثير عن التطلعات القومية هناك . وجعله التزامه بالحكم الذاتي العربي المثالي معارضاً للأطماع الفرنسية ، فقد كان يعلم أن إدارة الانتداب الفرنسي ، على العكس من مثيلتها البريطانية ، ستميل الى تخريب الثقافة واللغة ، والبنية الاجتماعية العربية وتدمرها . وكان هناك آخرون في إدارة الاستخبارات يشاطرونه هذه المعارضة ، رغم أنها قد تكون ليست للأسباب ذاتها . فكتب أوبري هيربرت ، على سبيل المثال ، يقول : «أنها حرب من أجل تحرير الشعوب الصغيرة ، وليس من أجل الرأسماليين الفرنسيين» . لذلك ، ومنذ البداية ، كان لورنس واحداً من أكثر المتحمسين في إدارة الاستخبارات البريطانية في القاهرة لإقامة حكومة ذاتية عربية ، فعندما رأى أن خطة الإنزال البريطانية في الاسكندرونة يمكن أن تؤدي إلى حدوث ثورة في سورية ، قام بتزويد المعلومات بشكل متحمس ، وقدم التبريرات التي قد تحث رؤساءه على العمل وخلال شهر كانون الأول جرت الموافقة على الخطة بوجه عام حينما نوقشت في مجلس الوزراء البريطاني في الثالث عشر منه ، ومضى التخطيط قدماً على أساس أن العمل سينفذ مرافقة مع قصف بحري للدردنيل في الوقت نفسه .

ومنعت الرقابة العسكرية لورنس من إرسال تفاصيل حول هذه المسائل العسكرية في رسائلة الخاصة التي كان يبعث بها إلى إنجلترا ، إلا أنه كتب منتصراً إلى هوغارت يقول : «إن عملنا يمضي بشكل جيد . ونحن نعمل بشكل كثيف منذ شهر على تصحيح الأمور ، ويبدو أننا قد نجحنا في ذلك تماماً لأننا حصلنا اليوم على كل ما نريد حالياً ، ولذلك فإننا نشعر بالفخر تماماً» .

كان الجو في مكتب الاستخبارات حافلاً بطريقة أو بأخرى ، بالذكريات الجامعية أكثر من العسكرية ، وكان الجنود المحترفون غالباً ما يشعرون بالاضطراب مع أعضاء هذه المجموعة . وكان هذا الشعور متكثفاً لدى لورنس ، الذي كان يمقت الغرور وعدم الكفاءة ، وكلاهما كان موجودا بوفرة في البيروقراطية العسكرية ، وكان يعمل تحت ضغط كبير

وليس لديه وقت للإجراءات المطولة . والأسوأ من ذلك فقد كان الضباط يجدون أنفسهم أحياناً هدفاً لمزاجه المزعج . ففي إكسفورد (جامعة إكسفورد) غالباً ما كان يجلب الانتباه إليه بتصرفاته غير العادية . وأصبحت هذه عادة متأصلة فيه ، ويمكن أن يكون ذلك مزعجاً . ويقول لورنس حول ذلك : «عندما أكون بصحبة جديدة ، فإنه سيكون علي أن أشرف في تضخيم المشاكل ، وألاحظ تأثير هذا الاتجاه أو ذاك على مستمعي ، معاملاً أتباعي على أنهم أهداف لبراعتي الفكرية ؛ حتى يمكن أن أقنع نفسي أين يجب أن يبدأ أو ينتهي الموضوع ، وقد ساعدتني هذه التفاهة على جعل الرجال الآخرين غير مرتاحين معي ، خشية من أن تنجرف نزوتي فجأة لجمعهم كهدف تذكاري» .

وكان أول انطباع لأوبري هيربرت عن لورنس انه كان «غريب الأطوار ، نصف وغد ، مع نزعة منحرفة» .

أما أولئك الذين كانوا يعملون برفقة لورنس فقد تعلموا كيف يتسامحون مع غرابة أطواره ؛ إذ أن معظمهم قد عرفه تماماً ، وأحب الشخصية التي تكمن في نفسه ، وقدّر كفاءته وتكريسه لها في العمل . أما الآخرون ، الذين هم خارج دائرة عمله ، فغالباً ما كانوا مستائين منه . وكتب أرنست داوسون ، الذي كان مديراً لدائرة المساحة المقبرية وعلى اتصال يومي مع لورانس في تلك الفترة ، يقول : «من أجل توازن صادق فلا بد يدرك بالطبع ، أنه لم يكن مغروراً فحسب ، بل كان غير كفوء وطنان في طريقة تعاونه مما يجعل المرء ينفر منه . فالعديد من الرجال ذوي المشاعر والمقدرة كانوا يرفضون نزواته وطيشه المثيرة للاستفزاز . . . وبدا شاباً صغيراً جداً ، وشخصاً عديم الأهمية أمام انظارنا ، بلباسه العسكري الغريب ، وهو يضع نجمة صغيرة على كم قميصه ، وحزام ناقص مهلهل وقبعة منحرفة» . فمثل هذه الغرابة في اللباس كان عادياً في مكتب الاستخبارات خلال عام ١٩١٥ ، وقد وصف نيوكمب «بأنه يعد أكثر المهملين وغير المرتبين في مصر بعد لورنس» . وقال نيوكمب نفسه ، إنه رغم كونه ضابطاً نظامياً منذ ست عشرة سنة في الخدمة فإنه كان يرتدي ملابس عسكرية مهملة من دون أن يضع حزاماً (واعتقد أن القائد العام ماكسويل كان يفضل الشيء ذاته)» .

وكما كان متوقعاً ، فقد قام الأتراك بشن هجوم على القناة في مطلع شهر شباط . إلا

أن الهجوم صد بسهولة ، وأجبرت القوات التركية على التراجع من دون أن تقوم القوات البريطانية بشن هجوم معاكس . وقد تحقق فيما بعد من أن القائد التركي الذي قاد الهجوم قد توقع أن ينهار المدافعون عن القناة (القوات البريطانية) بسبب حدوث ثورة اسلامية عامة في مصر في حال تقدم قواته . وبما أنه لم تحدث هناك ثورة ، فانه لم يعد أمامه بديل سوى أن ينسحب . وبعد ذلك ، من أجل حفظ ماء الوجه ،إصدر الأتراك بياناً قالوا فيه بأن الهجوم لم يكن سوى عملية استطلاع» .

وخلال الأسابيع الأولى من عام ١٩١٥ عقدت اجتماعات موسعة في القاهرة لبحث مستقبل الأقطار العربية ، بخاصة مستقبل سوريا ، فقد كانت ثمة أطراف سياسية صاخبة في المدينة ، تمثل فئات مارونية موالية لفرنسا وأنواع مختلفة من القوميين العرب . ومما أثار غضب البريطانيين ، أن اللوبي الموالي لفرنسا في القاهرة كان نشطاً ويشجعه الدبلوماسيون الفرنسيون هناك .

وسبب العلنية التي منحت للأهداف الفرنسية تعميق القلق لدى معظم القوميين السوريين . وفي مطلع شهر شباط أصدر كلايتون وثيقة مختصرة حول مستقبل سوريا ، مرفقة ببيان يظهر وجهة نظر المسيحيين السوريين غير الموارنة من جهة ، ووجهة نظر الناطق باسم القوميين العرب رشيد رضا ، من جهة أُخرى . وكانت وجهة نظر المسيحيين غير الموالية تحبذ وجود حماية بريطانية على غرار النموذج المصري ، مع توحيد مصر وسوريا (ربما فيها فلسطين وسيناء) تحت حكم سلطان اسمي . في حين سعى رشيد رضا من أجل الحصول على دعم بريطاني لنيل استقلال جميع الأقطار العربية عن الامبراطورية التركية ، ومن دون أي شكل من أشكال الحماية . رغم ذلك ، فإن كلا الطرفين عارض أي شكل من أشكال الانتداب الفرنسي ؛ وقد اقترح بأنه يجب على فرنسا أن تبحث لها عن أمكنة أخرى في العالم . وفي ضوء وجهات النظر هذه ، اقترح كلايتون بأنه يجب أن يُتخذ قرار حول السياسة المستقبلية بأسرع ما يمكن ، وإلا فأن بريطانيا قد تجد أن الالتزامات التي قطعتها على نفسها يمكن أن تسبب إرباكاً لها .

رغم ذلك ، فان المسؤولين البريطانيين في القاهرة في الوقت الذي كانوا يتعاملون فيه مع السياسة يوماً بيوم ، فإن السياسة العليا كانت تصنعها وزارة الخارجية البريطانية في لندن ، وبشكل مطلق من قبل مجلس الوزراء . وخلال ربيع عام ١٩١٥ ، بدأت الحكومة

البريطانية باتخاذ خطوات لصياغة سياسة عامة تجاه الشرق الأوسط ، غير أنه لم يتوصل إلى نتائج محددة ،وبعد بضعة أسابيع توقفت العملية في حين جرت اتصالات أوسع من جهة أخرى .

وبينما كانت مثل هذه المسائل مجمدة في لندن ، فقد كان من المستحيل وضعها جانباً في القاهرة ، حيث أن مستقبل الأقطار العربية الخاضعة لتركيا حينذاك كان يُعَّد مسألة ملحة . وكان لورنس واحداً من أولئك الأشخاص الذين كانوا يأملون إيجاد طريقة ما لتفجير ثورة قومية سورية . وسنحت له فرصة في نهاية شهر آذار لبعث رسائل غير مراقبة إلى هوغارت ، الذي كان يعتقد بأنه كان له نفوذ لدى «وايت هول» (الحكومة البريطانية) . وكانت فحوى هذه الرسائل مهمة بشكل غير عادي ، حيث كان لورنس قادراً على بحث المواضيع بحرية .

في رسالته الأولى ، حث لورنس هوغارت على المساعدة في إحياء خطة الاسكندرونة معللاً ، كما فعل العديد ، بأن الاسكندرونة نفسها كانت تقع خارج منطقة الادعاء بالنفوذ الفرنسي . وكتب يقول له : «إن الفرنسيين يصرون على سوريا ـ التي تنازلنا لهم عنها ـ وتبقى هناك الاسكندرونة ، التي تُعَّد مفتاح المنطقة كما تعلم . ومن المحتمل أن تصبح رأس خط حديد بغداد ، ولذلك فهي تُعَّد منفذاً طبيعياً لشمال سوريا والعراق ؛ وانها الطريق السهل الوحيد من سيليسيا وآسيا الوسطى إلى آسيا . . . الخ ؛ كما انها تُعَّد ملاذاً رائعاً ، ويعود الفضل في ذلك إلى رأس خانيير الواقع في الجنوب ، والذي يمكن أن يكون حصناً منيعاً . وقد اقتطع هذا اللواء (الاسكندرونة) من سوريا ، فلا هو تابع لها ولا لآسيا الصغرى (تركيا) . ولو وقع في أيدي الفرنسيين فانه سيوفر قاعدة ناجحة لشن هجمات بحرية على مصر ـ ومع إعلان الحرب والتجنيد الإلزامي في سوريا فانها ستتيح تزويد مائة الف جندي لشن هجوم ضد القناة خلال اثني عشر يوماً . . . فالمكان الوحيد الذي يمكن أن يعمل منه الأسطول ضد مصر هو الاسكندرونة ، لأنه لا يوجد هناك ميناء انجليزي يمكن أن يشكل منه حصار لها . فمن الممكن حصار كل من سميرنه واسطنبول بوساطة الجزر في البحر المتوسط . في حين أن الاسكندرونة لا تقع أمامها سوى جزيرة قبرص ، وتُعَّد مساحات المياة المحيطة واسعة جداً بالنسبة للاسطول ليقوم بعمل حصار عليها . واذا ما استولت روسيا على الاسكندرونة ، فإن الشرق الأقصى

سيصبح من اختصاصنا برمته . إلا أنه في حال نشوب حرب أخرى ، فمن المحتمل أن يصبح الفرنسيون تحت رحمة روسيا في سوريا . لذلك فانني اعتقد بانه من الضروري تماماً الاستيلاء على الاسكندرونة . . وسيعود الفضل لجبال الامانوس من أننا لن نحتاج إلى احتلال أي شيء آخر ، سواء كان ذلك في سوريا أو في آسيا الصغرى (تركيا) . وان المندوب السامي يؤيد هذا الرأي بقوة ، كذلك الجنرال ماكسويل ،عندما يكون واعياً (صاحياً) أو ثملاً . وكتشيز يضغط علينا من أجل ذلك ؛ ويبدو ونستون غير متأكد ، أشخاص آخرون في مكتب الاستخبارات يسدون ذلك تماماً واعتقد أن بامكانك التحرك في هذا المجال» واقترح لورنس إغراء تشرتشل ، الذي كان آنذاك وزيراً للبحرية ، بوجود ثروة معدنية في منطقة الاسكندرونة ؛ «فاذا ما عزم ونستون على ذلك ، فانني سأتخيل بأن يكون ذلك بمساعدة كيتشنر» .

لقد كان قبول لورنس الظاهري بفكرة الانتداب الفرنسي على سوريا تكتيكياً بحتاً ، اذ أنه توقع تماماً حدوث ثورة قومية على نطاق واسع في المنطقة اذا ما احتلت القوات البريطانية الاسكندرونة . وهذا ما ألمح إليه في رسالته سابقاً ، فقد أورد بأن «تركيا كان لديها (٥٠) ألفاً فقط من القوات غير المؤثرة في سوريا . . . وأن البلاد برمتها معبأة ضدهم» . وفي الحقيقة كانت توجد عدة مناطق أخرى كانت الاوضاع فيها ناضجة لحدوث ثورة . وكتب لورنس في هذا الصدد : «إن الادريسي في حالة حرب معلنة مع الأتراك في منطقة عسير ؛ والشريف حسين أعلن نفسه ملكاً على الحجاز ، ولجأ كل من الوالي وأركانه هناك إلى دمشق» . وهذه الملاحظة الاخيرة توحي بأن مكتب الاستخبارات البريطانية في القاهرة كان على علم بآخر أنباء النزاع بين الشريف حسين والوالي ، والذي تفاقم خلال شهر شباط عندما تبين أن ثمة خطة سرية تركية لخلع الشريف (أو ربما اغتياله) .

وكانت الرسالة الثانية للورنس في ٢٢ آذار تتضمن بشكل أكثر أفكاره من أجل قيام حركة عربية واسعة . وكانت آماله تتركز آنذاك على ثورة الإدريسي ، الذي كان يشن حرباً على إمام اليمن الموالي للأتراك .

ورأى لورنس في ذلك نقطة بداية من أجل عمل أوسع . ورغم ذلك لم يستطع

كلايتون أن يتدخل بشكل مباشر، لأن مما كان متفقاً عليه هو أن العلاقات البريطانية مع شيوخ القبائل في المنطقة الساحلية للبحر الأحمر جنوب ميناء القنفذة يجب أن تعالج بوساطة حكومة الهند عبر ممثلها في عدن. وكانت القنفذة، وهي ميناء يقع على البحر الأحمر، يسيطر عليها الادريسي تماماً، لذلك لم تكن القاهرة مخولة باجراء مفاوضات معه.

وأبلغ لورنس هوغارث بما يأتي: «تعلمون أن حكومة الهند اعتادت على الاتصال مع الجزيرة العربية، وقد قامت بذلك بشكل سيىء فلم يكن لديها رجل واحد يعرف سوريا أو تركيا وقد اقتصر تعاملها مع منطقة الخليج؛ وعلى حفظ السلام في عدن... وعقدت مصر مع أسرة الإدريسي التي يتواجد فيها بعض أعضائها، اتفاقاً صغيراً منذ بضع سنوات.

ومنذ أن بدأت هذه الحرب وحكومة الهند البريطانية تلعب دورها القديم في إقامة التوازن ما بين القوى الصغيرة هناك. وأتمنى أن يتوحدوا معاً، وأن تنضم سوريا إلى الحجاز تحت حكم الشريف، فأنتم تعلمون مدى سمعته الكبيرة في سوريا وهذا يمكن أن ينجز فقط بوساطة الإدريسي، لذا فقد رسمنا تحالفاً رائعاً، ومنحنا كل ما أراد: ورفضت الهند توقيع هذا الاتفاق. ولذلك فقد حملنا عليهم. واعتقد بأنني سأذهب أنا ونيوكمب إلى القنفذة للعمل كمستشارين للإدريسي. واذا ماكان جيداً في استعداداته كما نأمل، فاننا سنندفع صوب دمشق، ونزيل كل أمل للفرنسيين في سوريا إنها لعبة كبيرة، ولابد للمرء من لعبها في النهاية. وبالطبع فإن حكومة الهند ليس لديها فكرة عما نقوم بلعبه: واذا ما وصلنا إلى عسير فقط فانه سيكون بإمكاننا القيام بالبقية، أو أننا سنحاول القيام بذلك... إذا ما سمحت لنا حكومة الهند. فهل سيجن الفرنسيون من جراء ذلك؟.

وكان يوجد آخرون حذرين من هذا الاقتراح، فشريف مكة كان على نزاع مع الإدريسي حول ملكية القنفذة، وكان هذا النزاع يشكل صعوبة أمام اقتراح لورنس، فمن خلال دعم الإدريسي وربما تعادي بريطانيا الشريف حسين. وأخيراً خاب ظن لورنس، فقد تم التخلي عن خطة إرساله إلى القنفذة.

وفي ذلك الوقت تقريباً، كتب لورنس تحليلاً مطولاً حول العوامل الداخلية التي

يجب أن تؤخذ بالحسبان عندما يقرر مستقبل سوريا . وقد وضع أفكاراً كبيرة عديدة في هذا التحليل ؛ وارتكزت اعتباراته على معرفته بالبلاد ، وعلى مقدار ضخم من المعلومات التي تجمعت في أرشيف إدارة الاستخبارات .

فقد كان لورنس مستشاراً خاصاً لكلايتون في ما يتعلق بسوريا ، وان وجهات النظر التي كان يعبر عنها حينذاك كان لها تأثير بعيد المدى .

وبدأ تقييمه بوصف طويل ركز فيه على الاختلافات الجغرافية ، والثقافية ، والعرقية ، واللغوية ، والدينية في سوريا . ثم حول اهتمامه بعدئذ إلى المدن الرئيسة الست فيها ، مقترحا بأن اثنين منها ، وهما القدس وبيروت ، يجب أن تعاملا على حدة ، لأنهما يجب أن تدولا . فأبناء القدس ، كما قال : «مع استثناءات نادرة جداً ، يعملون في نطاق الفنادق ، ويعيشون على دخلهم من خدمة الزائرين الذين يغدون أو يعبرون المدينة . أما المسائل العربية وشؤون قوميتهم فهي بعيدة جداً عنهم كبعد النظام المعدني عن حياة تكساس» . وفيما يتعلق ببيروت ، من ناحية أخرى ، فهي فرنسية في شعورها كما هي الحال في لغتها ، ما عدا مينائها الأغريقي وجامعتها الأميركية . والرأي العام فيها يمثله التجار المسيحيون ، الرجال السمان . . . وبيروت هي باب سوريا ، وستارتها الشرقية التي من خلالها يتدفق النفوذ الأجنبي إليها» .

وتبقى هناك مدن دمشق ، وحمص ، حماة ، وحلب . . . وهي المدن القديمة التي تفتخر سوريا بها . وإنها تمتد مثل سلسلة طويلة ما بين الوديان الخصبة للسهل الداخلي ، وبين الصحراء والجبال وبسبب موقعها ، فانها تدير ظهرها للبحر وتتطلع باتجاه الشرق . إنها مدن عربية تماماً وتعرف نفسها بذلك .

«فدمشق تعتبر الأقدم ، وهي رأس سوريا ، و مقر الحكومة ، والمركز الديني للبلاد ، وتبعد مسافة ثلاثة أيام فقط بالقطار عن المدينة المنورة ، ويعتبر شيوخها زعماء في الرأي ، وهم «مكيون» جداً في آرائهم ، أكثر من الآخرين في اي مكان آخر . وسكانها نشيطون ومشاغبون ، وراغبون دائماً في الإضراب ، وهم فعالون في أحاديثهم كما هي الحال في أفراحهم ومسراتهم . وتتحرك دمشق قبل أي جزء آخر من سوريا . وقد جعلها الأتراك مركزاً عسكرياً لهم ، تماماً كما هي مركز للمعارضة العربية بشكل طبيعي . . . وهي تعد

نجمة معدنية صاغها العرب بصورة طبيعية ، والمدينة التي لا تلين بسهولة أمام أي عدو خارجي» .

وحمص وحماة مدينتان لا تشبه إحداهما الأخرى . وكل واحدة منها لها صناعاتها الخاصة بها . . . وهي صناعات مزدهرة وكثيرة ؛ وتجارها سريعون في اكتساب الفوائد الجديدة ، أو اكتساب نكهات جديدة . . . فهم يمثلون القدرة الإنتاجية لسوريا ، البعيدة عن إشراف الأجنبي . رغم ذلك ، وفي حين أن ازدهار بيروت جعلها شرقية ، فإن ازدهار حمص وحماة قد عزز مكانتها المحلية ، وجعلهما أكثر فطرية ووطنية غيورة من أي مدينة أو بلدة سورية أخرى .

وتُعَّد حلب من أكبر مدن سوريا ، ولكن ليس أكبرها ، ولا لتركيا ، أو العراق ويلتقي فيها جميع أجناس الامبراطورية العثمانية ، وعقائدها ولغاتها ويعرفون بعضهم بعضاً بروح سمحة . . . وتقف حلب بعيدة عن النشاط السياسي ولكنها لها تأثير على الأحياء العربية الكبيرة التي تقع في ضواحيها المحيطة بها ، وعلى قراها شبة البدوية . وهي قرى تعد بعد قرى دمشق ، من أعظم الأجزاء وطنية كما تعد حلب مثلنة للإحساس العربي عند بقية المواطنين على مختلف ألوانهم وأجناسهم القومية ، إلا أنها أقل نشاطاً من دمشق ، من الناحية السياسية .

وحول لورنس انتباهه التالي الى السياسيين السوريين ، إلا أنه لم يجد إلاّ إعجاباً ضئيلاً ، حيث يقول : «جميعهم يريدون شيئاً ما جديداً ، وقد اختلطت السطحية وعدم التنظيم والشرعية بعاطفة السياسة ، وهو العلم الذي يُعَّد سهلاً بالنسبة للسوريين لاكتساب السطحية وعدم الاتقان ، وصعب جداً عليهم اكتساب البراعة والتفوق . وجميعهم (السوريون) غير مرتاحين من حكومتهم آنذاك ، إلا أن فئة قليلة منهم تعرف بصدق ماذا يريدون . فبعضهم (ومعظمهم من المسلمين) ينادون من أجل انشاء مملكة عربية ، وبعضهم الآخر (ومعظمهم من المسلمين) يحبذون نوعاً من الحماية الاجنبية من دون فرض نظام أناني ، يستغل البلاد من دون التزام . وآخرون ينادون باستقلاق سوريا . ولم ير ثمة فروقاً في الشعور القومي في سوريا ، من مدينة لأخرى ، ومن قرية لأخرى ، ومن أسرة لأخرى ، ومن ديانة (عقيدة) لعقيدة أخرى ، فالغيرة الوطنية والقومية موجودة

لدى الجميع ، إلا أن الاتراك شجعوا التفرقة وان أكبر كيان سياسي محلي (تجمع) في سورية لا يتعدى عدد أعضائه عدد سكان قرية تحت أُمرة شيخها ، أو قبيلة تحت أُمرة شيخها .

وأن الدستور الذي يحكمهم هو البيروقراطية المصطنعة للأتراك . . . ونادراً ما يجري استخدام اللغة العربية في البلاد ، إلا أن هذا لا يمنع من أن يغلب الطابع العربي على سوريا . أما في منطقة الساحل فهناك القليل ، إن وجد ، من الشعور أو التقليد العربي ؛ بيد أن ذلك يزداد عند حوافي الصحراء . وفي الحقيقة ربما يكون من الناحية العرقية ، ثمة شيء ما يقال عن عرض اقتراح وضع الشريط الساحلي تحت أمرة حكومة أخرى والمناطق الداخلية تحت سيطرة حكومة أخرى .

وتطلعاً إلى الأمام ، فقد اقترح لورنس أنه توجد في سورية اليوم أو غداً حكومة عربية ، كالحكومة العربية السابقة» ، رغم ذلك ، كان ثمة عاملان اثنان يمكن أن يساعدا على توفير أساس لتلائم سياسي : أولاً ، إقامة نوع من المبدأ الوطني على أساس اللغة المشتركة بدلاً من الروابط العرقية أو الإقليمية : «فتراث القرآن والشعراء الكلاسيكيون يحافظان على جمع المواطنين الناطقين باللغة العربية . ثانياً ، يوجد وعي عربي وإدراك لتاريخ مشترك ، جرى تشويه لأمجاده القديمة وللفتوحات الإسلامية العربية تحت حكم الخلفاء ، والتي لا تزال ماثلة في ذاكرة الشعوب العربية ومخيلتها على مر العصور ، رغم تعاقب الحكومات التركية الفاسدة» . وتوصل لورنس إلى أن هذه العوامل ستكون غير ملائمة في حد ذاتها ، واقترح نوعاً من الروابط الإضافي الذي اعتقد بأنه كان ضرورياً وهو : «اتباع عامل جديد متطفل فقط ، متأسس على بعض القوى الخارجية ، أو على أساس غير سوري ، بحيث يمكن ان تكبح النزاعات الانشقاقية لطوائف سوريا وسكانها بصورة فعالة ، وذلك لمنع قيام فوضى مدمرة . وكلما كانت هذه الحكومة الجديدة غير ثابتة ، وغير رسمية وناقصة ، كان ذلك أقل تحرراً من الوهم في مؤسساتها ، ومن أجل سوريا مثالية ، بعيداً عن الدقة سوى عنصر الصخب المسيحي وهي ليست إدارة فعالة ، بل أدنى قوة مركزية لضمان السلام ، تسمح بتطوير قانون راسخ» .

ولم يظهر حل لورنس المقترح حتى الجملة الأخيرة من ورقة تحليله ، حيث يقول :

«إن الحكومة المفروضة ستجد نفسها ، في سوريا المسلمة ، في ظل أرضية وجماعة كبيرة من الملتزمين من أغلب السنة ، الذين يتكلمون العربية ، ويرغبون في عودة أيام العباسيين والأيوبيين» . ويمكن أن يؤدي تحليل لورنس إلى استنتاج واحد فقط : إن دولة الخلافة العربية المقترحة من قبل كيتشنر يجب أن تشمل سوريا الداخلية ومدنها الرئيسة . دمشق ، وحمص ، وحماة ، وحلب . كما أنه اقترح بأن السكان العرب الذين يسكنون الأراضي الداخلية ليسوا بحاجة إلى أن يكونوا تحت حكم الحكومة نفسها التي تحكم الخط الساحلي . وبعد سبعة أشهر أصبح هذان المبدأن عنصرين مهمين في السياسة البريطانية تجاه مستقبل المنطقة .

وخلال شهر نيسان أصبح عمل لورنس مطلوباً أكثر عندما بدأت الإدارة بإصدار نشرات استخبارية يومية . وكانت مهمة تحرير هذه النشرة واحدة من نشاطاته الرئيسة . وكانت تختلف وتتنوع في حجمها وطولها من صفحة إلى أحدى عشرة صفحة ، لتصل في الشهر إلى نحو مائة وخمسين صفحة . وكانت تحتوي على معلومات متنوعة عسكرية وسياسية تتعلق بكل جزء من أجزاء الامبراطورية العثمانية . وكانت توجد مصادر واسعة مختلفة : فقد كانت مواردها تستقي من العملاء ، والمسافرين الحياديين ، والاستطلاع الجوي ، والسجناء ، والوثائق المستولى عليها ، والتقارير الاستخبارية الواردة من القيادات الأخرى .

أما المشروع الأخر الذي كان يثير اهتمامه في ذلك الوقت فقد كان العمل الريادي في استخدام التصوير الجوي من أجل عمل أو رسم الخرائط . واذا ما أمكن حل المشكلات الفنية ، فانه سيكون من الممكن الوصول حتى إلى خلف خطوط العدو للقيام برسم وتصوير المنطقة . وقد نفذت هذه التجارب خلال ربيع عام ١٩١٥ ، وتحت إشراف هيئة المساحة المصرية كما أن المبادىء التي تعلمها قد طبقت ووضعت للاختبار خلال العمليات العسكرية التي جرت في غاليبولي . وقد ساند لورنس ونيوكمب هذه التجارب بحماسة فكلاهما كان مؤهلاً لهذا العمل ، نيوكمب كضابط مساحة ، ولورانس من خلال مهامه كضابط ارتباط خرائط ، ومعرفته الشخصية بالتصوير وكانت تلك التجارب ناجحة ، ولذلك ، فقد استخدم المسح الجوي بكثافة في الشرق الأوسط خلال الحرب العالمية الاولى .

في التاسع من آيار قتل شقيق لورنس فرانك خلال عملية عسكرية وقعت على الجبهة الغربية . وكتب لورنس لوالده يقول : «أن يموت المرء من أجل الوطن لهو ضرب من الامتياز ؛ فأنت وأمي ستجدان ذلك مؤلماً جداً وصعباً عليكما العيش مع ذلك المصاب ، أكثر من الذي مات نفسه ، بيد أنني أعتقد أنه في هذا الوقت من واجب المرء أن يظهر علامات يمكن أن تحزن الآخرين ، وأن يظهر محروماً لهو بالتأكيد يقع تحت هذا الشجب» . فقد كان فرانك مفضلاً لدى والدته ، لذلك كانت حزينة جداً عليه وتأثر لورنس جداً بالرسالة التي بعثتها إليه ، فأجاب عليها قائلاً :

«أمي العزيزة المسكينة

تلقيت رسالتك صباح اليوم ، وقد آلمتني كثيراً جداً . وأنك لم تفهمين ابداً ابداً أي واحد منا عندما كبرنا قليلاً . ألم تشعري بأننا كنا نحبك من دون أن نقول لك ذلك؟ واشعر بانني أبدو وضيعاً حين أكتب لك بهذه الطريقة . فاذا ما كنت تعملين فحسب أن المرء يفكر بعمق حول أي شيء ، فإنه يفضل أن يموت على أن يبوح بأي شيء حوله . وتعملين أن البشر يفعلون تقريباً ما يضحك الجميع ، لأنهم يعرفون أن الموت هو أمر مروع ، وفي طي النسيان إلى أن يأتي . أرجوك ضعي ذلك الأمر جانباً ، وتسلحي بالشجاعة أمام العالم فيما يتعلق بفرنك . وفي الوقت الذي يسود بلادنا مثل هذا التوتر المخيف ، فانه من واجب المرء الانتباه جيداً خشية أن يؤذي ويضر الناس الضعفاء ؛ وأنت تعرفين بأننا كنا دائماً الأقوى ، واذا ما رأوك منهارة فانهم سيصابون بالهلع على أولادهم في الجبهة . . .

انني لن اقول وداعاً لفرنك ، لانه لم يكن يريد ذلك . وأعرف بأن ثمة فرصة ضئيلة لأراه ثانية ؛ وفي تلك الحالة سيكون من الأفضل أن لا نفترق» . ونادراً ما كان يعبر في رسائله لأسرته عن مثل هذه المشاعر الشخصية بخاصة أنه كان يعلم أن البريد إلى إنجلترا كان يقرأ من قبل ضابط الرقابة العسكرية . وبالطريقة نفسها كان غير قادر على إبلاغ والديه بالمزيد من المظاهر المثيرة لعمله السري السياسي والعسكري في القاهرة وكان لديهما (والديه) ، في الأغلب ، لمحة جزئية عن أنشطته ومن المحتمل أنهما كانا يمتلكان فكرة ضئيلة عن قيمة دوره وأهميته وكان هذا ، على سبيل المثال ، التقييم العام لمهام مكتبه الذي أرسله إلى أسرته في ٢٣ حزيران : «لقد تسلمت رسالة منكم بالأمس

تسألون فيها إعلامكم المزيد عما أقوم به هنا . حسناً ، اقوم برسم الخرائط والإشراف على رسمها وعلى طباعتها أيضاً ، وأجلس في المكتب لأقوم بحل شيفرة البرقيات وأجري مقابلات مع المساحين ، وكتابة التقارير ، وتقديم المعلومات من الساعة التاسعة صباحاً حتى السابعة مساءً ، وبعد ذلك أتناول طعامي وأقرأ ، ثم أذهب إلى النوم . وأنا اشعر بالغثيان من حمل الأقلام والحبر والأوراق والكتابة ، وليس لدي رغبة أبداً بإرسال برقية أخرى . فنحن نرسل يومياً بالشيفرة برقيات إلى أثينا ، وغاليبولي ، وبتروغراد ؛ ونلتقي خمس مرات حول ما أرسلناه ، وهو عمل بطيء ، رغم وجود ضابط لدينا يتعامل معها . . . وهكذا فان عملنا حربي فقط تتعامل به ، ويشمل كل من تركيا الأوروبية ، وآسيا الصغرى ، وسوريا والعراق ، والجزيرة العربية ، وسيناء ، وطرابلس (ليبيا) . فالمرء يعرف الكثير عن الجغرافيا ، وبعض أسماء الناس ، وشيئاً قليلاً آخر» .

في شهر تموز وصل د . ج . هوغارت من لندن ، وكان آنذاك في أوائل الخمسين من عمره ، وعلى معرفة بجغرافية منطقة الشرق الأوسط وتاريخها غير انه لم يكن قادراً على ايجاد عمل حربي مفيد له . وقد جاء الى القاهرة آنذاك على أمل أن يمنح وظيفة استخبارية مع حملة غاليبولي الحربية . إلا أنه لم يأته أي رد في هذا الصدد ؛ وبدلاً من ذلك مكث في القاهرة لعدة أسابيع يعمل في مشروع خاص لكلايتون .

وبينما كان هوغارت هناك ، أرسل لورنس في زيارة قصيرة إلى أثينا ، وذلك لتحسين الارتباط مع الفرع الشرقي للاستخبارات البريطانية . ومكث أسبوع في اليونان ، ثم غادرها في الرابع عشر من آب . وكتب بعد ذلك إلى أسرته يقول حول تلك الزيارة : «كانت أثينا حارة جداً ، تسطع الشمس فيها بشكل مزعج . وكنت أداوم في المكتب هناك من الساعة التاسعة صباحاً (عندما تفتح الحوانيت) حتى السابعة مساءً (عندما تغلق) ؛ لذلك فلم اشترى شيئاً ، ولم أشاهد شيئاً ايضاَ ـ ما عدا الاكروبوليس من النافذة» . وبعد ذلك بوقت قصير ، وإلى أن أصبح العمل مهماً ، صار لورنس مسؤولاً عن عملية الارتباط مع فرع الشرق . وكانت رحلته إلى أثينا هي الانقطاع القصير فقط عن عمله المكتبي في القاهرة خلال عام ١٩١٥ ، باستثناء زيارة قصيرة قام بها إلى الصحراء الغربية ، حيث كان السنوسي ، الموالي لتركيا آنذاك ، يشكل مشكلة مستمرة (لبريطانيا) .

الفصل السادس

الثورة العربية

أيلول ١٩١٥ - تشرين الأول ١٩١٦

في بداية شهر أيلول عين نيوكمب بوظيفة في منطقة الدردنيل فخلفه في مكتب الاستخبارات ،لبضعة أسابيع ، العقيد أ . باركر ابن اخت اللورد كيتشنر ، الذي كان حاكماً لسيناء قبل الحرب . وكان من المحتمل أن لورنس يردد ما كان يسود عند الرأي العام عندما كتب لوالديه أن باركر كان «مفوضاً على سيناء لا أكثر» .

وقد عني غياب نيوكمب أن لورنس أصبح آنذاك واحداً من أكثر الضباط خبرة ومعرفة من المتبقين في مكتب الاستخبارات البريطانية في القاهرة . وكان أقدم الموجودين هناك باستثناء كلايتون ، إذ انتقل كل من لويد وهيربرت لشغل وظائف في أمكنة أخرى ، وكذلك ليونارد وولي ، الذي رغم بقائه في مصر ، فقد أُسندت إليه مهمة الارتباط مع الأسطول الفرنسي ، ونادراً ما كان يزور القاهرة . وقد منحت النشرة الاستخبارية التي كان يصدرها لورنس معرفة واسعة في شؤون الامبراطورية العثمانية ، والجيش التركي ومواقعه أيضاً . وكان يمر من بين يديه كل يوم كم هائل من المعلومات السياسية والعسكرية .

ورغم أن بضعة أشخاص كانوا يتحدثون علناً عن ذلك ، ومع بداية شهر تشرين الأول أصبحت حملة غاليبولي العسكرية مشكوكاً فيها . فاذا ما كان على الانسحاب ، فانه ستكون هناك قوات تركية كبيرة مستعدة للذهاب إلى أي مكان آخر ، وعليه فقد أصبح أولئك المسؤولون عن الدفاع عن مصر في قلق كبير من هذه الاحتمالية . وكانت إدارة الاستخبارات البريطانية في القاهرة مشغولة لعدة شهور بمراقبة التحسينات التي كانت تجري على الخطوط الحديدية التركية في كل من سوريا وفلسطين . وفي نهاية شهر أيلول جرى إنجاز خط من شبكة سكة حديد فلسطين يمتد إلى بئر السبع ، ومن هناك جرى إنشاء خط حديدي حتى الحدود المصرية لها قبل الحرب . وبدا من الوشيك شن هجوم تركي جديد على مصر ، إذ من الممكن أن تكون تركيا بعد وقت قصير في وضع

يسمح لها بشن هجوم كبير ضد قناة السويس .

وفي مثل هذا الوضع من التهديد أصبح موقف القوميين العرب تجاه بريطانيا مهماً جداً . فموقف الشريف حسين المؤيد لبريطانيا كان له التأثير القوي آنذاك في تحييد الدعوة التركية للجهاد ، كما أن حدوث ثورة في أي جزء من أجزاء الامبراطورية العثمانية سيكون لها قيمة دعائية ضخمة بالنسبة للحلفاء . وحتى لو حدثت اضطرابات صغيرة في سوريا وفلسطين ، فان ذلك سيدفع بالاتراك إلى تجنيد آلاف القوات من أجل حماية الأراضي الخاضعة لهم ، وأخذ الحيطة الكاملة لحماية خط السكة الحديد وغيرها من المنشآت من عمليات التخريب . ولو حدثت ثورة أكبر خطورة فان هذا سيحول قوات العدو إليها على مستوى كبير ، مما يقلل من احتمالية الهجوم على مصر .

وماذا سيحدث لو أن العرب قرروا بأن ثمة فوائد ضئيلة يمكن تجني من جراء التحالف مع بريطانيا؟ وكان من المتعذر تماماً اتخاذ موقف حيادي . فقد كان الأتراك مستعدين لدفع ثمن غالٍ من أجل التعاون في المجهود الحربي . وكان بعض زعماء العرب آنذاك يوافق على العروض التركية إضافة إلى مزيداً من التحول العام في الولاء العربي سيجعل الأتراك يتغلبون على العديد من المشكلات ومن ثم يسببون خطراً متزايداً على مصر . ومن الممكن ايضاً أن يؤدي ذلك إلى حدوث جهاد فعال .

وبدا للأركان البريطانية في القاهرة أن خطورة مثل هذا التغيير في المواقف العربية كانت تتزايد ، فبالرغم من الثقة المبكرة ، فإن الحرب لم تكن تسير بشكل جيد بالنسبة لبريطانيا ، ومن الممكن ان يغفر للعرب التفكير باتخاذ جانب الأتراك ، فأي اعتراف بالفشل العسكري في غاليبولي سيسهم في توجيه ضربة شديدة إلى الهيبة البريطانية ، وهذا بدوره سيستغله العدو دعائياً من دون رحمة . ولم يكن لدى العرب أدنى شك لو خسرت بريطانيا الحرب في النهاية ، فسيكون الانتقام التركي في المناطق الثائرة فظيعاً .

وبدت الاستخبارات البريطانية متيقنة من أن العرب كانوا متأرجحين في موقفهم مما أثر في الموقف الذي اتخذته السلطات البريطانية في القاهرة بمواصلة تبادل الرسائل مع الشريف حسين .

ويعزو الدليل المعاصر آنذاك أهمية كبيرة لبيان أدلى به هوغارت ، الذي كان على

معرفة تامة بأركان كلايتون في تلك الفترة . اذ أنه كتب فيما بعد يقول : «كان ثوماس إدوارد لورنس لديه القوة في المبادرة والجرأة الشخصية ، والحجة الفريدة في الإقناع لمستها في السنوات السابقة . ورغم أنه كان لايزال في رتبة ملازم ثان في مكتب الاستخبارات البريطانية في القاهرة ، فقد كان يمتلك مقدرة واضحة في التنبؤ أكثر من أي شخص آخر ، فهو حالياً يجذب إليه جميع الخيوط» لقد وضع هوغارت لورنس في مصاف مكماهون ، وكلايتون ، وستورز ، و وينجيت ، عندما يجري ذكر الشخصيات البريطانية التي تعاملت مع الشريف حسين .وفي مكان آخر ، كتب هوغارت يقول إن لورنس كان يشكل روحاً متنقلة في المفاوضات التي أدت إلى الثورة العربية .

رغم أن المراسلات بين ضباط الأركان البريطانيين في القاهرة كان يوقعها هنري مكماهون ، فإن كل رسالة أو رد كان يبحث كل من كلايتون ، وستورز ، ولورانس ، وغيرهم . كما كانت تحول نسخ منها إلى لفرن لإطلاع وزارة الخارجية . وكانت المراسلات التي جرت مع الشريف حسين ، بصفته كان يمثل الحركة القومية العربية تتضمن محاولة استنباط أفضل تعهدات ممكنة ، في مقابل القيام بعمل عسكري عربي ضد الأتراك . وأخيراً ، وفي شهر تشرين الأول ١٩١٥ ، وافق البريطانيون على دعم استقلال العرب في منطقة كبيرة جداً تشمل الحجاز ، ومعظم أجزاء سوريا والعراق . ورغم ذلك ، فقد طوق هذا الوعد بتحفظات مختلفة كان من بينها ، بشكل بارز ، الفقرة التي تستثني لبنان (تضمين خاص) وفلسطين ، وبيان يشير إلى أن بريطانيا يمكنها فقط أن تقدم تأكيدات فيما يتعلق بتلك الأراضي «التي لا يمكن أن تتصرف فيها من دون أخذ اعتبار مصالح حليفتها فرنسا» .

في تشرين الثاني ، تلقى لورانس أخباراً بأن شقيقه ويل قد فقد ، وكان قد رجع من الهند في ذلك الربيع لكي ينضم إلى أسرته بعد أن بدأ يخدم في فرنسا كمراقب في سلك الطيران الملكي لأقل من أسبوع ، ومضى بعض الوقت قبل أن يعلن عن موته . إلاّ أنه كان ثمة أمل ضئيل ببقائه على قيد الحياة . وقد أثر موته على لورنس بشكل عميق ؛ لكونهما كان مقربين جداً إلى بعضهما .

ويلْ قبل ذهابه إلى أداء الخدمة ، قد طلب من لورنس أن يكون وكيلاً عنه ، وهو

طلب كانت له دلالة صغيرة ، إذ كان عمهم قد توفي في مطلع شهر آيار تاركاً مبلغاً لوالدهم يقدر بخمسة وعشرين ألف جنيه استرليني (وكان يُعَدّ ثروة في ذلك الوقت) . فقرر لورنس الاب توزيع (١٥) ألف جنيه بين أبنائه . ورغم أن ويل قضى نحو سنتين في الهند ، فقد كان يرتبط بعلاقة عميقة مع جانيت لوري ، الفتاة التي شعر تجاهها لورنس أيضاً بعواطف قوية في عام ١٩١٠ . وعندما كتب ويل إلى لورنس بأنه كان يرغب بتوريث ماله لجانيت ، في حال وفاته ، أجابه لورنس بقوله : «انني سأوافق على ذلك في حال إذا ما بقيت جانيت غير متزوجة . وسمعت اليوم من الوالد بأنه من المحتمل ان تظل كذلك إلى وقت قصير فقط ، لذلك فإن ثقتي ستنتهي تلقائياً ولا أعرف ماذا سيكون شعورك في هذا الشأن ؛ إلا أنك ستفهم مع ذلك بأنه لا يمكنك أن تترك أي شيء بهذه الطريقة إلى زوجة رجل آخر» وتشاء الأحداث أن يموت ويل قبل توزيع ثروة عمه ، بل أن نصيبه أو ثروته كانت تافهة . وكتب لورنس بحزن الى ليدز يقول : «قتل شقيقي الأول وها هو الثاني يقتل . وبالطبع ، فقد كنت بعيداً عنهما منذ وقت طويل ، ولم يأت الأمر كصدمة مباشرة . . ولكن كم أصبحت إكسفورد مروعة وماذا يمكن أن تكون عليه إذا ما عاد المرء إليها ورغم انهما كانا أيضاً أصغر مني سناً ، فلا يبدو من الملائم أنه يجب علي المضي في العيش بسلام في القاهرة» .

في الربيع التالي ، وجد مكتب الاستخبارات البريطاني في القاهرة نفسه منشغلاً بأمور جديدة . فقد تم اخلاء قوات الحملة البريطانية من غاليبولي ، ولذلك فقد أصبح يوجد جيشان مع أركانهما في مصر . وكانت قوتها مجتمعة تقدر بنحو (٢٧٥) ألف رجل ، وهي تشكل أكبر جيش حليف خارج فرنسا في أي وقت خلال الحرب . وأصبحت قوات المتوسط آنذاك تحت قيادة الليفينانت جنرال (الفريق) السير ارشيبالد موراي ، في حين أن القوات البريطانية في مصر ظلت تحت قيادة السير جون ماكويل وعلق لورنس على ذلك ساخراً : «لايمكن للمرء أن يتحرك إلا بصعوبة بسبب الجنرالات! فقد كان لدينا ١٠٨ منهم . وكان مكتب استخبارات القاهرة يقوم ببعض المهام لكلا القوتين ، لذلك فقد كان من المحتمل أن يتعرض إلى إعادة تنظيم . وانتقل مقره من مكتب حربية القاهرة إلى القيادة العامة في فندق سافوي . ورغم ذلك فقد ظلت تركيبة في ذلك الوقت سليمة ، وبدا التهديد بتقليصه في أواخر شهر كانون الثاني ، عندما

انتقلت قيادة قوات المتوسط إلى الاسماعيلية .

وأصبحت تصدر عن مكتب الاستخبارات آنذاك بضعة أوراق عمل فقط ، بيد أن نشرة الاستخبارات اليومية كانت لا تزال مستمرة . وقد أظهرت أن لورنس أصبح منذ خريف عام ١٩١٥ فصاعدا ، يعالج كماً متزايداً من المعلومات حول العمليات العسكرية على الجبهة الشمالية الشرقية لتركيا (وكان يشار إليها بجبهة القفقاس) . وقد تسلم الدوق الأكبر نيقولا قيادة القوات الروسية هناك في شهر أيلول ١٩١٥ . وعندما أُبلغ بخطط الحلفاء للانسحاب من الدردنيل ، عزم على شن هجوم كبير قبل أن يجري تعزيز القوات التركية بالقوات المنسحبة من غاليبولي .

وبدأ التقدم الروسي في أوائل شهر كانون الأول ١٩١٦ ، وقد رحب به بشكل كبير القادة البريطانيون في مصر . إذ رأوا فيه إعاقة للاستعدادات التركية بالهجوم على القناة على نطاق واسع . وكان هذا خلفية لواحدة من أكثر الأحداث غموضاً في مهنة لورنس الاستخبارية .

وأرسل الأتراك قوات عربية من سوريا والعراق إلى جبهة القفقاس ، وكانت من بينها وحدات وقادة معروفين لدى مكتب استخبارات القاهرة بانها تكن عداءً سرياً للحكومة العثمانية . وكانت من إحدى مهام لورانس متابعة تحركات كل وحدة عسكرية تركية ، والتي قام بها بوساطة تدقيق وجمع المعلومات من الأسرى المرسلين من الجبهات المختلفة . ومع بدء تنفيذ الهجوم الروسي ، تيقن بشكل واضح بأنه من الممكن الاستفادة عملياً من بعض المعلومات المتوفرة لديه . وكتب حول ذلك يقول : «جعلت الدوق الأكبر نيقولاي على علم بموضوع الضباط العرب في أرضروم . وقمت بذلك من خلال وزارة الحربية البريطانية وملحقنا العسكري في موسكو» . وأرضروم كانت بلدة حصينة رئيسة تقع في شرق تركيا ، ولم تكن من ضمن أهداف الروس أصلاً . إلا انه رغم تحصيناتها القوية فقد استولى عليها الدوق الأكبر في منتصف شهر شباط .

وقد أشار لورنس إلى هذه الحادثة في عدة مناسبات بعد الحرب ، كما ألمح إليها في كتابة (أعمدة الحكمة السبعة) . وستكون ثمة معلومات مفصلة كافية في يوم من الأيام ، إذا ما كشف عن ذلك من خلال الإفراج عن الأوراق السرية المتعلقة بالموضوع . ورغم

ذلك فإن الوثائق المتوفرة حالياً لا تترك مجالاً للشك في أن لورنس كان في موقع يسمح له بتزويد الروس بمعلومات قيمة وبعد ذلك بعدة سنوات لاحظ ليدل هارت بعد إجراء حديث مع لورانس ذكر فيه أرضروم : «انه وضع الجنرال الروسي على اتصال مع ضابط الأركان العربي في تلك الجبهة» . وقد طلب لورنس من ليدل هارت عدم نشر معلومات وافية عن الحادثة ، لأنها من الممكن أن تعرض إلى الخطر أقارب الضباط العرب المعنيين والذين كانوا لا يزالون يعيشون في تركيا ، (لهذه الاسباب لا تنشر الأوراق السرية إلا بعد مرور مائة عام) .

وتقرر حينذاك بأنه لا بد من إنشاء قسم جديد في إدارة الاستخبارات البريطانية في القاهرة يكون مسؤولاً عن شؤون الضباط العرب . وسمي ذلك القسم بمكتب شؤون العرب ، وترأسه كلايتون . وحتى قبل أن يجري انشاؤه ، فقد بدأ كلايتون باختبار فريقاً من المختصين ، وكان من المحتم ان يكون لورنس من بينهم ذلك انه منذ أن قدم إلى القاهرة كان منخرطاً بنشاط في القضايا العربية . وكان كلايتون ، وماكسويل ومكماهون يثقون جميعاً في تقاريره .

ومن الأمثلة على أنشطة لورنس في ذلك الوقت إصداره مذكرة طويلة غير موقعه تحت عنوان «سياسات مكة» ، أرسلت إلى مكماهون في الأول من شباط من أجل تحويلها إلى وزارة الخارجية البريطانية وقد كتبت هذه المذكرة بوضوح لأولئك الأشخاص في لندن الذين كانوا يخشون من أن يكون نتيجة الطموح القومي للشريف حسين إنشاء امبراطورية عربية ضخمة تهدد اتصالات بريطانيا مع الهند . وقد قال فيها لورنس : «أن نشاط الشريف حسين يبدو مفيداً بالنسبة لنا ، لانه يتماشى مع أهداف المباشرة ، إذ إنه يسعى لهزيمة الامبراطورية العثمانية وتدميرها ولأن الدولة التي يسعى لاقامتها بعد حكم الاتراك ستكون غير مؤذية لنا كتركيا التي أصبحت أداة في أيدي الألمان . وحتى العرب اقل استقرارا من الأتراك واذا ما عولجوا تماماً فانهم سيبقون في حالة من التنوع السياسي ، وعبارة عن امارات صغيرة ، غير قادرة على التلاحم . ورغم ذلك فانها تكون دائماً على استعداد للتضامن ضد العدو الخارجي» .

وأخيراً في منتصف شهر آذار ١٩١٦ دمجت قوة حملة المتوسط مع القوة البريطانية الموجودة في مصر . وذكر كل من لورنس و وولي في برقيته الوداعية التي بعثها في ١٦

آذار . كما أن اسم لورنس ورد في القائمة الفخرية لقوات الحلفاء ، وكرم بذكر اسمه في قائمة الشرف الفرنسية بتاريخ ١٨ آذار .

وأصبح النشاط الاستخباري الرئيس ، من ذلك الوقت فصاعداً ، متركزاً على قيادة موراي بالإسماعيلية . وكان لورنس واحداً من سبعة فقط ظلوا تحت إشراف كلايتون المباشر في مكتب فندق سافوي في القاهرة ؛ وكان عليه أن يقسم وقته ما بين مكتب الشؤون العربية ورسم الخرائط .

ولم يمض وقت طويل على وصوله إلى مصر حتى قرر موراي التقدم عبر شمال سيناء ، مدركاً بأن قوات صغيرة يمكنها أن تحتل خط العريش أفضل من أن تحمي القناة برمتها . وسرعان ما اتخذت الاستعدادات ، وبدأت المعنويات بالتحسن .

خلال الخمسة عشر شهراً الأولى من الحرب ضد تركيا ، كانت الحملة العسكرية في العراق تجري بشكل منفصل عن العمليات العسكرية البريطانية في أوروبا ومنطقة المتوسط . وكان انزال القوات الهندية (قوات د) في شهر تشرين الثاني ١٩١٤ قد أُستهل بوساطة حكومة الهند (البريطانية) . وكان الهدف الأولي من ذلك حماية منشآت النفط البريطانية الموجودة على ساحل الخليج ، والتي كانت حيوية بالنسبة للأسطول الملكي البريطاني . وخلال ثلاثة أسابيع من الإنزال الأول للقوات ، أصبح الوصول إلى شط العرب تحت سيطرة الجيش الهندي وحتى شمال البصرة .

وكانت الأهداف السياسية البريطانية في العراق تشرف عليها من الناحية النظرية وزارة الهند من لندن ، في حين كانت قيادة الجيش الهندي في سيملا مسؤولة عن القيادة العسكرية والدعم اللوجستي . ورغم ذلك ، فإن السياسة في العراق كانت ، في الحقيقة متأثرة بقوة بوجهات النظر الانجلو ـ هندية .

وكان الحكم الاستعماري مبرراً تماماً لوجود المجتمع الانجلو – هندي هناك ، وكانت حكومة الهند معادية بشدة للحركات الاستقلالية الوطنية . وكان للحركات السرية العربية ما يماثلها في الهند ، إذ أدى الهيجان الوطني إلى حدوث «جرائم فوضوية» ما بين عامي ١٩٠٧ – ١٩٠٩ . فاتخذت إجراءات صارمة مُنعت من خلالها الاجتماعات التحريضية ، كما حظرت النشرات والمطبوعات المعادية ، وشكلت محاكم خاصة لمعالجة

الاضطرابات الناشئة . إلا أن الوضع انفجر ثانية ، رغم ذلك ، في نهاية عام ١٩١٢ . فقد القيت قنبلة خلال احتفال رسمي على الفيل الذي كان يحمل نائب الملك ، اللورد هارينغ . فأصيب بجروح خطيرة ، ولكنه نجا باعجوبة . وخلال عام ١٩١٤ ازدادت الانشطة فان موقف حكومة الهند تجاه خطط ومشاريع الاستقلال العربية كان متلوناً تماماً بصبغة المشكلات والمتاعب الداخلية . وكان من المستحيل على الإدارة الاستعمارية دعم الوطنيين في الأمبراطورية العثمانية ومساندتهم في حين تقوم بقمع الحركات المماثلة في كل مكان . فاذا ما نجحت حركة القومية العربية ، فان هذا النموذج سيكون مشجعاً لمواقف الوطنيين في الهند .

وعلى أية حال ، فقد كان للحكومة الهندية طموحات استعمارية خاصة بها في العراق ، فالسهول الخصبة الواقعة بين نهري دجلة والفرات كانت بحاجة فقط إلى الري لتفيض بالمحاصيل الزراعية مما يمكن معه الحد من أخطار المجاعة في الهند . ولم يكن في مخيلة اللورد هاردينغ شيء أخر بارسالة السير بيرسي كوكس كضابط سياسي رئيس الى البصرة سوى فرض إدارة استعمارية هندية هناك .

وكانت بلاد ما بين النهرين (وهي معروفة حاليا باسم العراق ، ورغم أنه من الناحية التاريخية انطبق فقط على الاراضي المنخفضة لدجلة والفرات) تشكل الزاوية الشمالية- الشرقية للممالك التركية العربية وكان يحدها من الشرق ايران ، ومن الجنوب الخليج العربي ؛ وكانت الحدود الغربية تعين تقريبا بنهر الفرات . وتقع ما بين بغداد ودمشق ، والى مسافة ٤٥٠ ميلاً ، صحراء واسعة . لذلك فإن القوات الهندية كانت ترى أن ثمة علاقة ضئيلة بين انشطتها في بلاد ما بين النهرين (العراق) والتطلعات العربية في سوريا ، ورغم ذلك فإن القبائل البدوية والقوافل التجارية كانت تمر بحرية عبر المنطقة المركزية وكانت مواقف شيوخها متأثرة بكل من الحركة القومية العربية في الغرب وبممارسات المحتلين الانجلو - هنود في الشرق وتصرفاتهم .

وخلال عام ١٩١٥ ، وسع الجيش الهندي من احتلاله للبلاد ، فاحتل معظم الجزء الجنوبي منها . وتقرر بعد ذلك ان تقوم فرقة عسكرية بقيادة الجنرال تاونشند بالتقديم إلى أعلى نهر دجلة صوب بلدة كوت العمارة المهمة استراتيجياً والواقعه داخل الاراضي المحتلة التركية حينذاك ، وبدا أن التقدم ملائماً لأن نهر دجلة سيوفر خطاً للمواصلات

هناك . وكان هذا الهدف طموحاً بحد ذاته ، بل أنه دُعم وعُزز آنذاك بخطة أكثر جرأة ، وهي التقدم باتجاه بغداد واحتلالها كان تقديم قوات تاونشند ناجحاً في البداية فجرى احتلال الكوت في شهر ايلول ١٩١٥ ، من ثم واصلت القوات زحفها باتجاه الشمال وخاضت معركة كبيرة في «تسيفون» ، التي تبعد عشرين ميلاً عن بغداد في ٢٢ تشرين الثاني . ورغم ذلك ، فإن القوات التي واجهته فيما بعد كانت معززة بكثافة ، فقد واجه قوات تركية جيدة التدريب حلت محل القوات العربية التي واجهها سابقاً . واضطر تاونشند إلى التراجع الى الكوت حيث كانت قواته الموجودة هناك محاصرة . وخلال الاشهر التي تلت ، فإن بقية القوات الانجلو - هندية ، التي كانت لاتزال تبعد حوالي مائتي ميل الى الجنوب ، كانت غير قادرة على نجدته .

وفي شهر آذار ١٩١٦ ، كانت وزارة الحربية البريطانية لاتزال واثقة من انه يمكن إنقاذ الوضع . وفكر كيتشنر بأنه سيكون من المفيد اذا ما جرى اختراق الخطوط الخلفية التركية ، ووفقاً لذلك فقد قرر تطبيق خطة تطلبت أقصى درجة من السرية . فقد كان يعلم وهو الذي قضى سنوات عديدة في الشرق ، أن النخبة التركية الحاكمة لم تكن متحدة الرأي في ما يتعلق بالنشاط الحربي كما كان يدرك بأن الفساد كان مستوطناً في الامبراطورية التركية لذلك فقد بدا من الممكن اذا ما دفعت رشوة كبيرة بطريقة ما أن يفُك حصار الجيش التركي عن الكوت .

وكان يوجد بضعة رجال انجليز مؤهلين لتنفيذ مثل هذه المهمة الدقيقة واستقر رأي كيتشنر على ويندهام ديدز ، الذي عمل لمدة ثلاث سنوات مع قوات الدرك التركية في شمال افريقيا ، وقضى عدة أشهر في الأستانة ملحقاً بوزارة الداخلية التركية .

إلا أنه أقترحت خطة بديلة من القاهرة : بأن تتخذ خطوات لإثارة حركة عصيان عربية في العراق . وحيث كان هناك شعور قومي بارز ، ومن الطبيعي ان هذه الحركة ستكون امتداداً طبيعياً للسياسة البريطانية تجاه الشريف حسين .

وعزم كيتشنر على اتباع كلتا الفكرتين ، واستبعد ديرز ، الذي كان غير راغباً في الاشتراك في مسألة الرشوة ، من الخطة ورغم أنه كان مؤهلاً للتعامل مع الاتراك ،فقد كان يوجد آخرون على اطلاع أفضل بالقضية العربية . واقترح كلايتون بأنه يمكن إرسال جورج

لويد ، بيد أن كيتشز رفض الفكرة ، وربما لأنه شعر بعدم وجوب اشتراك عضو في البرلمان في مثل هذه المسألة المشكوك فيها . وبدلاً من ذلك وقع الخيار على لورنس (الذي قال ، فيما بعد ، إنه قد أُختير لأن وزارة الحربية كانت تأمل بأن التعاون مع العرب يمكن أن يساعد في الكوت كما كان الأمر في أرضروم) .

إضافة الى ذلك ، كانت توجد أسباب أخرى وراء إرسال لورنس إلى العراق . فقبل بضعة أسابيع كانت جيرترود بيل قد زارت الهند ، فاقترح عليها نائب الملك هناك بانه يجب عليها الذهاب إلى البصرة ، حيث ستكون معرفتها الخاصة بالعرب مساعدة لإدارة استخبارات القوات الهندية كما أن مثل هذه الزيارة يمكن ان تساعد على إقامة تعاون مخابراتي بين العراق ومصر ، تحت مظلة المكتب العربي المنشأ حديثاً هناك . لذلك فقد كان عليها أن تصل إلى البصرة في الثالث من آذار ، وقررت بأنه سيكون من المفيد أن تمكث هناك فترة من الوقت .

وبينما كانت موجودة في القاهرة خلال خريف عام ١٩١٥ ، شاهدت كيف كانت إدارة الاستخبارات تستخدم الصور الجوية (الملتقطة من الجو) كأساس لرسم الخرائط . وكان يتوجب عليها ذكر هذا لأركان الاستخبارات في العراق ، إذ إن السلطات في البصرة كانت تطلب من القاهرة آنذاك إرسال ضابط يمكنه أن يقدم أسلوباً جديداً في هذا الشأن . وكان لورنس ، الذي قام من قبل بعمل ضابط ارتباط بين مصوري سلاح الطيران الملكي ودائرة المساحة المصرية ، من دون شك أفضل شخص مؤهل لذلك . وفي الوقت نفسه منح تفويضاً من كلايتون لبحث إنشاء المكتب العربي ومستقبل التعاون المخابراتي فغادر لورنس مصر في ٢٢ آذار ، وكتب السير هنري مكماهون إلى السير بيرسي كوكس ، رئيس المكتب السياسي في العراق يقول : «إنه واحد من أفضل أركان استخباراتنا هنا ، ولديه معرفة شاملة بالمسألة العربية من نواحيها كافة» .

وقبل وصوله إلى العراق ، جرى التخلي عن جزء كبير من مهمته ، لأن السلطات الإنجلو - الهندية هناك رفضت تشجيع أو مساندة أي نشاط قومي عربي . وقد أشار لورنس إلى ذلك بشكل غامض في كتابه أعمدة الحكمة السبعة من أن التعاون مع العرب لم يكن يشكل الوسيلة المباشرة للاطراف . . . فحتى نهاية الحرب ، ظل البريطانيون في العراق قوة معادية بشكل رئيس ، تحتل أراضٍ عدوة ، مع وجود سكان

محليين حياديين بشكل سلبي أو ضد البريطانيين بشكل غاضب . لذلك لم تكن توجد فرصة لنجاح خطة الرشوة وقضى لورنس ستة أسابيع في العراق ، كان غير قادر فيها على مساعدة الجنرال طاونشند وحل مأزقه في الكوت . وخلال المفاوضات التي جرت قبل استسلام طاونشند ، كان لورنس موجوداً في مقر القيادة البريطانية المتقدمة ؛ واجتاز الخطوط مع أثنين من الضباط البريطانيين من أجل مفاوضة الأتراك لإطلاق سراح الجرحى من قوات طاونشند . ورغم ذلك ، فإن دوره في هذه المباحثات ، كان غير مهم .

وغادر البصرة في ١١ آيار ، بعد أن قام بإتصالات مثمرة مع إدارتي الاستخبارات ووضع الخرائط هناك . وكتب خلال رحلة عودته إلى مصر بالبحر تقريراً حول الوضع في العراق . وكان يوجد بالصدفة على متن السفينة ذاتها الجنرال ويب جيلمان ، الذي أرسلته وزارة الحربية البريطانية من أجل التحقيق في الصعوبات التي كانت تواجهها القوات الهندية البريطانية . وخلال رحلة العودة التي دامت أسبوعين بحث لورنس وجيلمان كل ورقة من التقريرين اللذين اعداهما كل لجهته .

كان لورنس خلال مأساة الكوت عبارة عن مشاهد عاجز عن فعل أي شيء مشاركاً في شعور الكآبة والجزع في مقر القيادة البريطانية ، مع توارد برقيات طاونشند بالاستسلام المحتم . وقد صدم بموقف ضابط الجيش الهندي تجاه قواتهم الهندية وتجاه السكان العرب المحليين في العراق ، وجعلته زيارته يشعر بالاشمئزاز لأسلوب الإدارة الإنجلو - هندية هناك فهذا المشهد للامبريالية الأوروبية قوىّ من قناعته بوجوب منح العرب الاستقلال الذاتي وقد عارض في ما بعد إرسال قوات أوروبية إلى منطقة الحجاز ، وبذل أقصى جهده من أجل إبعاد وجهات نظر الضباط البريطانيين الاستعمارية القوية عن مسار الثورة العربية .

ولم يرفض الفلسفة الامبريالية فحسب ، بل وقيمها أيضاً . وكتب بعد الحرب ، مستعيداً تجربته في العراق ، يقول : «لقد دفعنا من أجل هذه الأمور الكثير جداً من كرامتنا ومن أرواحنا البريئة . لقد كانوا شباناً انقياء ، رائعين ، مليئين بالقوة والسعادة . ويرى فيهم المرء كم هو عظيم أن يكون منتسباً إليهم ، وللإنجليز . إلا اننا دفعنا بالآلاف منهم إلى أتون الحرب والموت ، ليس لكسب الحرب ، بل لاستغلال محاصيل الذرة والارز والنفط في العراق وجعلها لنا . وكان المطلب الوحيد هو هزم أعدائنا (من بينهم

تركيا) . . . بيد أن الموضوع برمته لم يكن يستحق ، بالنسبة لي أن يقتل إنجليزياً واحداً في سبيله» .

وصل لورنس إلى القاهرة في ٢٦ آيار فوجد أن أشياء كثيرة قد حدثت خلال غيابه الذي دام عشرة أسابيع وجرى تغيير رئيس في الإدارة ففي ٢١ آذار حصلت الموافقة على أن يتخصص الفرع الصغير للاستخبارات العسكرية ، الباقي تحت اشراف كلايتون ، في العمل السياسي المتعلق بالشرق الأدنى .

وبعد ثلاثة أيام عاد هوغارت إلى مصر ، والتحق بأركان كلايتون بصورة مؤقتة للمساعدة في إنشاء المكتب العربي . واستخدم ثلاث غرف في فندق سافوي ، التي لم تعد إدارة الاستخبارات بحاجة إليها ، لهذا الغرض ولم يكن المكتب قد مُوّل تماماً بعد ، كما انه لم تكن توجد نقود لدفع مخصصات الضباط المطلوبين . ولحسن الحظ فإن الكثير من أعماله كان من المتعذر تغييرها وجعلها تختلف عن تلك التي يقوم بها ضباط الاستخبارات المختصون الباقون مع كلايتون ، وبدأ المكتب نشاطه بمساعدتهم . وفي حين كان العمل مرضياً في هذه المرحلة المبكرة ، فقد كان ثمة مجال للنزاع مع تزايد عبء العمل في المكتب العربي . ورغم أن كلايتون كان مسؤولاً عن كل من المكتب العربي وإدارة استخبارات القاهرة ، فإن المكتب الأول كان تحت إشراف وزارة الخارجية ، ومسؤولاً أمام مكماهون . وفي حين كان المكتب الثاني جزءاً من أركان قيادة الحملة المصرية البريطانية . وكانت القيادة العامة البريطانية تدرك أن ضباط الاستخبارات كانوا يقضون جزءاً كبيراً من وقتهم في العمل من أجل مصالح المندوب السامي . رغم ذلك ، فقد كان لورنس مسروراً آنذاك بالوضع الذي أتاح له تقديم الكثير من وقته للمسائل العربية .

وكان لدى هوغارت أخبار مزعجة أيضاً فهو على العكس من الآخرين كان مطلعاً على بعض الوثائق المتعلقة بالمباحثات التي كانت جارية آنذاك بين بريطانيا وفرنسا حول مستقبل الشرق الأوسط . ففي بداية شهر كانون الثاني ١٩١٦ ، أصدر السير مارك سايكس ، عضو البرلمان البريطاني الذي كان مهتماً بالشرق الأوسط ، مع نظيره الفرنسي فرانسوا جورج بيكو مذكرة تفاهم أنجلو - فرنسية حول مستقبل تقسيم الامبراطورية العثمانية وأصبح هذا التفاهم معروفاً باسم اتفاقية سايكس - بيكو .

وبينما كانت منطقة الحجاز مستقلة عن تلك الاتفاقية ، الاّ أنها عينت مناطق

الانتداب الفرنسي على الساحل السوري (ودعيت بالمنطقة الزرقاء)، ومنطقة الانتداب البريطاني في منطقتي البصرة وبغداد (ودعيت بالمنطقة الحمراء). اما المنطقة الداخلية وشمال العراق فقد قسمتا إلى مناطق نفوذ فرنسية (منطقة أ)، ومنطقة نفوذ بريطاني (المنطقة ب) وتدار القدس والأماكن المقدسة من خلال هيئة دولية. وكان هذا الترتيب (الاتفاقية) غير ملائم بالنسبة للعرب، ولم يجر تصوره بين أركان القيادة البريطانية في القاهرة، كما لا يمكن أن يقبله الشريف حسين. فهو يمنح فرنسا منطقة نفوذ واسعة في سوريا وشمال العراق، ويسمح بوجود استعماري انجلو- هندي في العراق.

ووزعت مسودة اتفاقية سايكس - بيكو بشكل واسع في وزارة الحربية البريطانية بل إن لا أحد في موقع المسؤولية قرر استشارة مكماهون وبهذه الطريقة أُبعدت اتفاقية سايكس - بيكو عن مجال رفض الشريف حسين لها أو ممثلي الرأي العام العربي في القاهرة.

وكانت الحاجة الملحة، كما رأتها وزارة الخارجية البريطانية تتمثل في الوصول الى ترتيب مع فرنسا يمكن أن يقلص التوتر الانجلو - فرنسي ويزيل أية شكوك فرنسية مستقبلاً حول النيات البريطانية في الشرق الأوسط. وسرعان ما أصبح هذا الاعتبار الأخير مهماً. إذ صار موضوع القيام بتقدم محدود عبر سيناء إلى مواقع تضمن دفاعاً اقتصادياً أكثر عن مصر موضع بحث آنذاك، وبدا أن الهزيمة التامة لتركيا يمكن أن تتحقق بهجوم بريطاني شامل على فلسطين وسوريا.

وكان على وزارة الخارجية البريطانية أن ترى في عرب سوريا كحلفاء ملتزمين في الحرب ضد تركيا، وأن مصالحهم يجب أن تحترم. بيد أن الحقيقة كانت مختلفة: فالممثلون (النواب) السوريون لم يفعلوا أي شيء فيما عدا القيام بالضجيج السياسي والطلبات العسكرية. ولم يكن وضعهم يقارن مع وضع الشريف حسين، الذي ساند بريطانيا في حربها ضد تركيا. وانه ستكون له مملكته العربية لقاء ذلك، في حين أن السوريين، من جهة أخرى، لم يقدموا أية مساعدة عربية للحلفاء.

وانعكست الشكوك حول أي نشاط مستقبلي عربي مهم: «فإذا ما فشل المشروع العربي فإن المشروع برمته سيفشل أيضاً، وإن حكومتي فرنسا وبريطانيا ستكونان حرتان

آنئذ في تقديم أية مطالب جديدة وقد أُضيفت فقرة إلى نص الاتفاقية - (سايكس بيكو) جاء فيها : «من المفهوم أن وضع هذه المقترحات موضع التنفيذ متوقف على المساعدة الناجحة التي سيقدمها العرب وزعماؤهم في إنشاء دولة عربية ، أو اتحاد كونفدرالي عربي تحت حماية فرنسا وبريطانيا العظمى ؛ وعلى التعاون النشط مع الحلفاء أيضاً» .

وناقضت هذه الفقرة جوهر التعهد الذي قدمه مكماهون للشريف حسين قبل ثلاثة أشهر . فمن دون القيام بأي عمل حاسم من جانبهم ، فإن عرب سوريا والعراق لن يكون لهم أي ادعاء أو مطالبة بحق تقرير المصير ورغم ذلك كانت ثمة صيغة جديدة كان لها تأثيرات وجاذبية بارزة في أعين البريطانيين . فبالنسبة لفترة الحرب ستزيل اتفاقية سايكس - بيكو أي توتر انجلو - فرنسي بشأن سوريا ؛ ولكن ، اذا لم يقم العرب بأي عمل عسكري أساسي ، فسيكون الأمر فارغاً ، لأن الإمبراطورية العثمانية ستكون مقسمة آنذاك بين الحلفاء ، وحسب الخطوط الملائمة والمتفق عليها .

أما اذا ما قدمت احتجاجات أو مطالب أخرى من الشريف ، فإن ذلك سيؤدي الى ترتيب مناسب . وكان هذا من دون ريب سبباً آخر لعدم البوح بشيء للمسؤولين البريطانيين في القاهرة . فمن الآن فصاعداً يجب ان يكون دور مكماهون هو استرضاء العرب من دون تقديم تنازلات . وسيكون قادراً على القيام بهذا بشكل أكثر لباقة في حين يظل غير مطلع على بنود اتفاقية سايكس - بيكو . وسيكون من المفيد تأخير اطلاعه عليها لأطول مدة ممكنة .

وحصل نص اتفاقية سايكس - بيكو على موافقة الحكومة البريطانية في الرابع من شباط . وكان التغيير الوحيد الذي أُجري عليها هو شطب مسودة التمهيد لها . رغم ذلك ، فإن وضع العمل العربي المطلوب قد أُبقي عليه بشكل آخر ، حتى يكون فيه على نطاق أدق وأضيق . وكان جورج بيكو مفوضاً بأن يبلغ «حكومته بأنه جرى تأمين التعاون مع العرب ، وأنهم إذا ما طبقوا الشروط فسيحصلون على مدن حمص ، وحماة ، ودمشق وحلب ، وان الحكومة البريطانية لن تعارض هذا الترتيب» . وقد أثرت معرفة هذا الشرط تأثيراً كبيراً على أنشطة لورنس في أثناء الثورة العربية . وبمنأى تماماً عن التأثير المحتمل لعلاقة بريطانيا مع العرب ، فإن عدم استشارة مكماهون خلال المباحثات الإنجلو -

فرنسية كانت قد سببت استياء عميقاً بين المسؤولين البريطانيين في مصر . واختلفت المقترحات بشكل أساسي عما كان قد جرى الموافقة عليها سابقاً بينهم وبين وزارة الخارجية البريطانية . وكل ما أصبح بامكان المسؤولين البريطانيين أن يفعلوه آنذاك هو وجوب ابقاء بنود اتفاقية سايكس - بيكو . ففي الثالث من آيار بعث كلايتون برقية إلى رئيس الاستخبارات العسكرية في وزارة الحربية البريطانية يقول فيها ، «إن افشاء فحوى الاتفاقية في الوقت الراهن يمكن أن يقرر مصير علاقتنا الجيدة مع جميع الأطراف ، ومن المحتمل أن يسبب تغييراً في مواقف بعضهم ، مما سيكون امراً غير مرغوب فيه في الوقت الراهن ، وسيعيق بالتأكيد نشاطنا الاستخباري . كما أنه يمكن أن يؤذي تعاوننا المأمول به مع الشريف (حسين) ، الذي ينظر الى التغلغل الفرنسي بعين الشك فمن الصعب التنبؤ بالتفسير الذي يمكن أن يضعه على منطقتي النفوذ (البريطاني الفرنسي المشار إليهما في الاتفاقية) .

وأن مرور الوقت ، الذي يرافق تغييراً في الوضع ، من المحتمل أن يؤدي إلى القبول في المستقبل بما هو غير مستحب اليوم .

وكانت لدى الحكومتين البريطانية والفرنسية أسباب مجبرة للإبقاء على بنود اتفاقية سايكس - بيكو سرية إذ أن أجهزة الدعاية العثمانية ستفسرها بأنها دليل على الطموحات المسيحية الغربية كما أنها ستشغل الرأي العام ضد الحلفاء في جميع أنحاء العالم الإسلامي وجاءت الأخبار في الرابع والعشرين من آيار تفيد بأن ثورة الشريف حسين ستبدأ قريباً . واستقبل هذا النبأ بالترحاب في القاهرة لأنه كانت توجد خشية من أن يؤدي استسلام القوات البريطانية في الكوت إلى حث الشريف حسين على تأجيل العمل . ولكن في الحقيقة ، أن الشريف حسين دُفع للعمل بسبب التحركات التركية . فقد علم في شهر نيسان أن قوة تركية قوامها (٣٥٠٠) جندي تركي ستمر عما قريب من منطقة الحجاز في طريقها إلى اليمن ، وبالطبع فقد شك في أن هذه الحملة العسكرية كانت موجهة إليه لدفن ثورته في مهدها . ومن ناحية أخرى ، ففي مطلع شهر أيار ، وبينما كان الأمير فيصل في دمشق ، قام الأتراك ، من دون سابق إنذار ، بإعدام واحدة وعشرين شخصية قومية بارزة هناك .

كان هذا هو الموقف عندما عاد لورنس إلى القاهرة من العراق . واستأنف عمله

السابق في الحال بتحرير النشرة الاستخبارية العسكرية اليومية ، واقترح بأن يصدر ملحقاً تحت عنوان «ملخص المكتب العربي» ، من وقت إلى آخر ، يغطي فيه المناطق التي كان يتعامل معها هذا المكتب . وصدر أول هذه الملاحق في السادس من حزيران ، بعد أسبوع من عودته . ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى صدرت نشرة دورية تحت اسم «النشرة العربية» . وكان مقرراً أن يتولى هوغارت مسؤولية إصدارها بصفته نائب رئيس المكتب ؛ إلا أنه كان غائباً آنذاك ، عندما صدرت أول نشرة . لذلك فقد وقف لورنس ، الذي ظل على علاقة وثيقة بها لخمسة أشهر قادمة . وسرعان ما شعر بأنه كان يحرر نشرتين (كلاهما سريتين) ، «من أجل تقديم معلومات للحكام والحكومات» .

بدأت الثورة العربية ضد الأتراك في الخامس من حزيران ، فتولى الشريف حسين بنفسه مسؤولية الاستيلاء على مكة ، وقام ابناه فيصل وعلي بالهجوم على المدينة والخط الحديدي إلى الشمال منها ، في حين تحرك ابنه عبد الله للاستيلاء على الطائف . وتحركت قوة أخرى للاستيلاء على ميناء جدة الواقع على البحر الأحمر .

وقد كان واضحاً حتى في هذه المرحلة أن الشريف كان يعلم بأنه لم يكن يملك سوى القليل من الإمكانيات العسكرية . وقد لاحظ المراقبون البريطانيون «أن الثورة العربية كانت ذات إمكانية محدودة ، وعلى جهل بأمور الحرب الحديثة وتركت مسألة تنظيم قوات القبائل والتسليح حتى اللحظة الأخيرة لحسن الطالع فإذا ما نجح العرب ، فإن ذلك سيكون بسبب عددهم الساحق ، وبسبب عزل الحاميات التركية» .

ورغم ذلك ، فخلال الأسابيع الأولى كان العرب ناجحين تماماً إذ نظفت مكة من القوات التركية خلال بضعة أيام ، مع أن الثكنات العسكرية المحيطة بها لم تحتل حتى الرابع من تموز . وهوجمت جدة في التاسع من حزيران بمساعدة الأسطول البريطاني ، وسقطت بعد أسبوع . واستولت قوات الأمير عبد الله على الطائف بسرعة ، بيد أن الحصون التركية القوية هناك كانت منيعة ، ولم تظهر رغبة في الاستسلام . وكانت النكسة الكبيرة في المدينة ، حيث وجدت قوات فيصل المكونة من رجال القبائل نفسها قليلة العدد والعدة ، في حين جرى تعزيز الحامية التركية هناك ، وأصبحت تحت أُمرة فخر الدين باشا ، وهو ضابط اشتهر بقسوته . وبدا من خلال المعارك أن رجال القبائل كانوا فزعين من المدفعية ، التي لم يختبروها من قبل ، لذلك فقد فشلت محاولة الاستيلاء

على المدينة ، كما لم تنجح محاولة محاصرتها . ورغم أن قوات الأمير علي قامت بتخريب جزء كبير من الخط الحديدي الحجازي إلى الشمال من المدينة ، فإن الأتراك سرعان ما قاموا بإصلاحه .

وكانت «نشرة المكتب العربي» التي صدرت في ٢٣ حزيران تشير الى أنه سيكون ثمة وقت طويل من الحصار للمدينة ، رغم أن الأخبار الموثوقة التي كانت ترد إلى القاهرة عن الأحداث هناك ضئيلة . وأرسل مكماهون في ذلك اليوم برقية إلى الشريف حسين ، يهنئه فيها» بالاستراتيجية والشجاعة اللتين حققهما سموه آنذاك ومعه الأمة العربية ، التي كانت قادرة على إنجاز انتصار حاسم ، وتحقيق الخلاص من الاضطهاد والظلم الذين عانت منهما طويلاً ، واستعادة أرض أجداده منذ القدم» .

وسرعان ما أدت العمليات العسكرية العربية الى حدوث توتر بين السلطات البريطانية المختلفة المنخرطة في عمليات الدعم والارتباط ، ففي ١٥ حزيران ، بعث الجنرال موراي برقية إلى وزارة الحربية البريطانية يقول فيها : «يبدو أن الوقت قد حان للإشراف على العمليات العسكرية . فأنا كما تعلمون أقوم بتقديم أنواع المساعدة الممكنة كافة من عتاد وذخيرة ، غير أنني مدرك بأنه لا يمكن تقديم أية مسانده عسكرية . وأنا مستعد ، اذا مارغبتم ، لمواصلة مثل هذا الإشراف العسكري ما أمكن الأمر من هنا» .
وجاء الرد من رئيس الاستخبارات العسكرية آنذاك ، السير ويليام روبرتسون محبطاً ، حيث قال : «توجد اهتمامات عديدة بالحركة (الثورة) العربية ، فوزارة الخارجية ، ووزارة شؤون الهند ، والحكومتان الفرنسية والروسية جميعها مهتمة بذلك ، وتوجد تشعبات عديدة للمسألة» .

وكان لهذا القرار نتائج غير جيدة كما كتب لورنس فيما بعد يقول : «إن السير أرشيبالد موراي أراد ، وهذا كاف بالطبع ، أن لا يكون ثمة منافس أو حملات عسكرية منافسة في منطقة . وقد كره السلطة المدنية (في مصر) التي كانت تشكل عائقاً لعربته . ولم يكن بإمكانه أن يكون واثقاً بالقضية العربية ، وذلك أنه لا هو ولا أركان حربه كان لديهم الكفاءة اللازمة للتعامل مع مثل هذه المسألة الدقيقة . ومن جهة أخرى ، فقد جعل المندوب السامي يدبر حرباً خاصة سخيفة تماماً . وعندما كان يجد الفرصة فإنه يبذل أقصى جهده ليفسد ما كان يدعوه بالمشهد المنافس . وقد اتّبع أركان موراي هذه السياسة

أيضاً ، لذلك فقد وجد مكماهون سيىء الحظ نفسه محصوراً في شن حربه في الجزيرة العربية مع مساعدة ملحقه في وزارة الخارجية» .

وعندما اكتشف موراي مدى انخراط أركان استخباراته في القاهرة بمساعدة الثورة العربية ، كتب لمكماهون يقول : «لا أدري من الذي يشرف على (حملة) الشريف حسين العسكرية ضد الأتراك . فمن الواضح أنني لا أستطيع القيام بشيء فيما عدا تقديم المساعدة المادية كلما طلب مني ذلك ، كما أنه من الواضح تماماً أن فرع إدارة استخباراتي في القاهرة يمكن أن يُستخدم فقط من أجل هدف استخباراتي ، وليس عملياتي . . . وسأكون ممتناً جداً لو أنكم تبلغوني بسطر واحد فقط من هو الذي يشرف ، أو يوجه عمليات الثورة ، إذا ما كان يوجد أحد ما» .

لم يكن ثمة أي حدث بشأن اللحظة التي اختارها موراي لمعرفة الدور الذي كان يقوم به مكتب استخبارات القاهرة البريطاني . وفي صبيحة العشرين من حزيران ، وهو اليوم الذي تلقى فيه مكماهون هذه الرسالة ، غادر كلايتون مصر في زيارة عمل الى بريطانيا تستغرق شهراً إذ إنه كان عليه بحث الشؤون العربية الراهنة مع اللجنة الحربية هناك ، والمشاركة في تبادل المعلومات في وزارة الخارجية .

وأصبح موراي آنذلك مصمماً على اتخاذ موقف واضح بين عملياته الحربية وتلك التي يقوم بها الشريف حسين ، إذ أنه لم يعد ثمة مجال للتسامح مع الموقف الطموح لكلايتون . وأُرسلت ملاحظة من مكتب استخبارات الإسماعيلية في ٢٤ حزيران تشكو هيئة الأركان العامة قائلة : «يوجد تشوش كبير حول ثورة شريف مكة . ومن المستحيل أنها تحدث بقوات مصرية . رغم ذلك فإن الطلبات المادية يقدمها لنا المندوب السامي والسردار بطريقة مستقلة» .

والحقيقة المعقدة أن المكتب العربي كان تحت إشراف المندوب السامي ؛ وأن كلايتون كان وكيل السودان للسردار ، واكثر من ذلك كان الارتباط بين القوة المصرية وحكومة مصر تحت امرتنا ، لذلك فقد كان المكتب العربي يعمل عمل نفسه لمكتب كلايتون المزدوج في القاهرة ، وهكذا فقد كان من الصعب بالنسبة للقوة المصرية أن تعرف أين تقف» . وربما أن واحداً من أبرز ضابط الاستخبارات كان منخرطاً في الشؤون العربية ، فقد وجد لورنس

نفسه متورطاً في لعبة السلطة . وأشار المكتب العربي في تقريره لشهري آيار وحزيران ١٩١٦ الى يأتي : «إن عودة الكابتن (النقيب) إدوارد ثوماس لورنس من الطرق في أواخر شهر آيار قد قوّت من عزيمتنا ، رغم أنه ليس ملحقاً بالمكتب العربي بصورة ، يتعاون معه باستمرار» . فعلاقات لورنس مع مقر قيادة الاسماعيلية أصبحت سيئة ، وبدأ يخشى أن يختار عما قريب ما بين المكتب العربي أو الاستخبارات . وفي الأول من تموز كتب الى والديه يقول : «أرجو أن يكون نبأ (وكالة) رويتر بشأن ثورة شريف مكة قد أثار اهتمامكما . لقد استغرق الامر سنة ونصف ليحدث ، غير أنه يسير بشكل جيد الآن . وأنه لأمر جيد تماماً أن يساعد المرء في نهوض أمة جديدة - وأنا اكره الحكام الأتراك كثيراً ، ورؤية شعوبهم تنقلب ضدهم لهو أمر مسر للغاية . وآمل بأن تزداد الحركة (الثورة) . كما تعد بذلك . والجيش هنا (الجيش المصري) مهتاج لتركه بعيداً عن الانخراط في العمل العربي فمن المدهش أن يشغلك الناس الذين يقفون إلى جانبك ويقلقونك أكثر من العدو ذاته» . ولزيادة الأمور سوءاً ، فقد نشأ تنافس آخر بين مكماهون في القاهرة وونجيت في السودان ، الذي كان ضباط أركانه منهمكين في إرسال المساعدات إلى قوات الشريف حسين . واستمرت جميع هذه التوترات خلال صيف وأوائل خريف عام ١٩١٦ ، وأصبحت معروفة لأعضاء إدارة استخبارات القاهرة . وبالرغم من غطاء المجاملة الرسمية بينهم ، فإن العداء بين موراي ، ومكماهون وونجيت كان صاخباً ، وبخاصة في الاتصالات التي كانت جارية بينهم . وقد أعاقت هذه الصعوبات من فعالية الدعم المادي البريطاني للثورة العربية ، والتي أثرت في طلباتها الملحة .

وفي أواخر شهر تموز ، وفي أعقاب النجاح الأولي الذي أحرز حول مكة ، استولت قوات الثورة على مينائي رابغ وينبع على البحر الأحمر . أما حول المدينة ، فقد واجهت القوات معضلة خطرة . وانزل البريطانيون مساعدات في ميناء رابغ آملين بأن يكون كل شيء على ما يرام ؛ إلا أن الأخبار الواردة من الداخل كانت غامضة ومتناقضة في الاغلب ، كما أظهرت ذلك النشرة العربية .

وفي الحقيقة ، رغم أن القاهرة لم تكن تعرف ذلك بعد ، فإن الأسلحة ، والذخيرة وغيرها من المساعدات التي أنزلت في رابغ لم تنقل إلى الداخل . لذلك فقد وجد فيصل

وعلي نفسيهما في وضع صعب ، غير قادرين على القتال بفعالية أو حتى على إطعام قواتهما . وما أن وصلت أخبار هذه المشكلات إلى القاهرة ، حتى ازدادت المخاوف من أن يقوم الأتراك بشن هجوم معاكس من المدينة ، التي كانت قد تلقت حينذاك تعزيزات أساسية من الشمال . رغم أن موراي لم يكن مسؤولاً عن العمليات العسكرية لقوات الثورة العربية . فإن قيادة القوات البريطانية وقفت لتستفيد من الثورة الناجحة في الحجاز ، التي ستقلص من القوات التركية الموجودة في سيناء للدفاع عنها وفي بداية شهر تموز ، طلب روبرستون من لجنة الحرب البريطانية دراسة اذا ما كان بالامكان أن يقوم موراي باجتياز سيناء إلى العقبة على البحر الأحمر والعريش في الشمال . وقد وجد موراي أن العقبة كانت على جانب كبير من الأهمية ، إذ إن القوات التركية المتمركزة هناك كانت تشكل تهديداً خطيراً للجناح الأيمن لأي قوات بريطانية تتقدم عبر شمالي سيناء . وكانت العقبة تقع على بعد سبعين ميلاً فقط عن الخط الحديدي الحجازي ، ووجود قوات بريطانية هناك يمكن أن يكون له بعض الأهمية بالنسبة لقوات الثورة وخلصت مذكرة بريطانية صدرت عن وزارة الحربية البريطانية في الأول من تموز إلى أن تواجد قوات بريطانية في كل من العريش والعقبة «سيهدد مباشرة خطوط المواصلات التركية بين سوريا والحجاز ، وسيشجع العرب السوريين على الثورة ، في حين ستدافع هذه القوات في الوقت نفسه ، بفعالية ، عن حدود مصر الشرقية» رغم ذلك ، ولأسباب تتعلق بالطقس ، فان هذه العمليات العسكرية لا يمكن البدء بها قبل شهر تشرين الأول .

في السادس من تموز أقرت لجنة الحرب البريطانية خطتي الهجوم على العقبة والعريش من حيث المبدأ ، وأصدرت التعليمات إلى موراي وقادة الأسطول لوضع الخطط من أجل الاستيلاء على العقبة وبعد أسبوع كتب موراي إلى روبرستون يقول : «لقد قمت بدراسة مشكلة العقبة وأنا على اتصال مع الأسطول في ما يتعلق بالموضوع . إلا أنه لدي نقص في المعلومات الطوبوغرافية ، لذلك أبرقت إلى وزارة الحربية من أجل إرسال أية معلومات استخبارية لديها ، بينما أرتب من أجل القيام بالاستطلاع البحري» .

وفي مصر ، مُرر طلب موراي من أجل الحصول على معلومات إلى فرع استخبارات القاهرة ، حيث عالجه لورنس . وعندما وردت معلومات جديدة ، وبشكل بارز نتيجة

للمسح الجوي ، فقد تحقق موراي من أن الخطة كانت مستحيلة التنفيذ . ولخص استنتاجاته فيما بعد بما يأتي : «من أجل الاستيلاء على العقبة فإنه يلزم القيام بحملة بحرية وإنزال بري في الوقت ذاته . ولن يكون الإنزال صعباً ، ولكن بعد ذلك لن يكون ثمة هدف منطقي . ولن يوجد موقع يغطي الساحل ، الذي يمكن أن يقصف من التلال بشكل مستمر . فحاميات العدو موجوده بين هذه التلال ، ضمن مواقع محكمة ، مبني بعضها إلى جانب بعض في سلسلة حتى مدخل وادي القمم . وإذا ما تقدمت القوات البريطانية إلى هذه النقطة فانها لن تحرز شيئاً مادياً ، وستكون معرضة لهجوم من التلال . وسيكون الأتراك آمنين تماماً ، بسبب خطوط اتصالاتهم مع سكة حديدهم ، التي تبعد سبعين ميلاً إلى أعلى وادي العتم ، ولذلك فانهم سيكونون قادرين على زيادة قواتهم الدفاعية ، أو تغيير مواقعهم حسب رغبتهم .

وسيكون البريطانيون قادرين على حماية أنفسهم من هذه الهجمات ، وذلك باحتلال الممر الضيق الذي تبلغ مساحته خمسة وعشرين ميلاً المتاحة للعدو ، لمنعه من الوصول إلى المجال الساحلي . ويبلغ عمق وادي العتم ما بين الفين وخمسة آلاف قدم ، وعرضه أقل من مائة يارده ، ويقع بين تلال متآكلة من صخور الغرانيت والصخور البركانية المتبذرة ، ويبلغ ارتفاع جانبيه مئات الأقدام . وتتخلل بطن الوادي الذي يبلغ عرضه مائة ياردة صخور عديدة بحيث لا تسمح بمرور سوى جملين متجاورين فقط . وكان الوادي متعرجاً ومعتماً ، مما يوفر مواقع طبيعية عديدة ومنيعة من أجل الدفاع ، ولاتوجد المخابىء بين الجروف فحسب بل أيضاً بين الصخور الكبيرة المتناثرة على سطح الوادي . كما أن الوديان أو الممرات الضيقة الجانبية تتيح انسحاباً سهلاً للقوات الملمة بالمنطقة . وكانت توجد مياه في هذه الوديان الضيقة ، الاّ أن الوادي الرئيس يخلو من الماء ؛ وهذه ميزة أخرى للدفاع .

«لقد قام الأتراك بتنظيم المواقع الدفاعية في الوادي ، الموقع تلو الآخر وهم مستعدون لتغطية كل قدم من هذه الأميال المهمة القابلة للدفاع والتي تبلغ مساحتها خمسة وعشرين ميلاً . . . وهكذا فإن طريق العقبة - معان تشكل موقعاً دفاعياً طبيعياً لقوة لا تضاهى تقريباً . وقد قدرت هيئة الأركان البريطانية في مصر أن تنفيذ الهجوم حتى ضد عدو ضعيف يمكن أن يستلزم استخدام ثلاث فرق عسكرية ، وهو ما يعادل تقريباً جيش

السير ارشيبالد موراي كله ؛ بيد أن النجاح فيه سيعتمد على سرعة تنفيذ العملية ، ومن الممكن أن يكون الأتراك قادرين على تعزيز قواتهم باستخدام الخط الحديدي والطريق البري بشكل أسرع من إمكانية الأنزال البحري للقوات . وبالنسبة لمياه الشرب في العقبة فهي غير متوفرة ، ولن يكون من السهل ايضاً إنزال مثل هذه الحملة الكبيرة في خليج مكشوف غير محمي . وبالطبع ، عندما تحقق كم يتطلب ذلك من قوات كبيرة ، فقد تبخر اهتمام موراي بالخطة .

خلال الصيف قام لورنس بجمع الأخبار عن الثورة العربية ، محرراً التقارير المختصرة للنشرة العربية . كما أنه كان يساعد في تنظيم شحن المؤن والمساعدات البريطانية . وكانت من أحد مشاريعه المحببة جداً هو إصدار مجموعة من الطوابع لبريد الحجاز ، التي يمكن أن يعلن من خلالها استقلال الشريف حسين في جميع أنحاء العالم . وتقدم لورنس بهذا الاقتراح في منتصف شهر تموز ، ولم يمض وقت طويل حتى أبلغ أسرته بما يلي : «أنه لأمر ممتع ، ان يكون المرء قد كانت لديه أفكار منذ وقت طويل لما يجب أن يكون عليه شكل الطابع ، ويمكن للمرء الآن أن يستخدم ذلك عملياً . أما الأسوأ فيها هو أنها يمكن أن تكون صغيرة الشكل فقط ، غير منقوش أو مرسوم عليها شيء ، لأنه غير ممكن إضافة تفصيل آخر» . وأمل أن يوضع في البداية صمغاً جافاً على خلف الطابع ، لكي يمكن للمرء أن يلعقها من دون إزعاج ، إلا أنه في النهاية كان الورق المناسب والمتوفر في مصر هو من النوع المصمغ والمستخدم في القصاصات التي يعاد بها إعادة تلصيق الرسائل المراقبة . وكان لورنس وستوز مسرورين بالتفكير في ايجاد توضيحات ملائمة لتلك الطوابع .جرى إصدار أول مجموعة من الطوابع خلال شهر أيلول ١٩١٦ ، واستخدمها الشريف حسين خلال شهر تشرين الأول .

من جهة أخرى ، كان على الأتراك سحق الثورة العربية ، فقد كان التقدم إلى طريق السلطاني ، ومن ثم التحرك باتجاه الجنوب على الطريق الساحلي . ورغم ان الطرق البديلة من المدينة إلى مكة كانت أقصر فإنها كانت جبلية بالنسبة للقوات الأساسية . وكان العائق الوحيد أمامهم على طريق السلطاني هو قوات فيصل المشوشة وضعيفة التجهيز . إذ بدا عدم وجود عائق كبير من حدوث اندفاع تركي .

وكما توقع فيصل ، فقد أرسل الأتراك حملة عسكرية قوية في محاولة منهم

لاختراق طريق السلطاني . إلا أن تقدمهم رغم ذلك ، أُعيق بوساطة رجال القبائل الموالين لفيصل ، وبسبب الصعوبات الموجودة على الطريق الجبلي . فارتفعت المعنويات العربية ، وتعززت أكثر عندما استسلمت قلعة الطائف لقوات الأمير عبد الله في ٢٢ أيلول . وفي الوقت نفسه وصل الأمير علي ومعه ألف رجل إلى الطائف . وتقرر بأنه يتوجب عليه البقاء وإقامة موقع دفاعي هناك .

وفي نهاية الشهر اتخذت قيادة الأركان العامة البريطانية قراراً حاسماً لمنع مكتب استخبارات القاهرة من العمل لصالح مشاريع مكماهون . واستبعد كلايتون عن مهامه الاستخبارية العسكرية ، وترك يعمل في النشرة العربية ، التي كانت مستقلة تماماً حينذاك .

وكان لورنس تواقاً للبقاء مع كلايتون ، إلا انه أُنذر بأن رئيس موراي لن يسمح له بأن ينتقل إلى المكتب العربي . وقد عنى ذلك أنه سيكون في المستقبل منقطعاً تماماً عن الشؤون العربية . ولم تكن خيبة أمله شخصية فحسب ؛ فقد كان يعلم أن الثورة العربية بحاجة ماسة إلى دعم فعال من القاهرة . وكما كتب فيما بعد يقول : «لقد كنت واثقاً من النجاح النهائي للثورة العربية إذا ما دعمت . وكنت متحركاً منذ البداية ، وآمالي منعقدة على ذلك ، ولم تكن لدي الشجاعة الكافية لاشاهدها تخبو بفعل غيرة الكائدين في مصر وكيدهم من أجل مرضاتهم الذاتية» .

وفي محاولة منه لجعل القيادة تغير موقفها ، بدأ لورنس يتصرف من دون هوادة تجاه مكتب استخبارات الاسماعيلية ، فيقول في هذا الشأن «لقد استغللت كل فرصة لإثارة الجهل وعدم الفعالية (وليس الصعوبات) بينهم ، واثارتهم اكثر بانصرافي لقراءة الكتب الأدبية ، أو تصحيح «تقاريرهم» في غضون ذلك تقدم كلايتون بطلب من أجل نقل لورنس إلى إدارته الجديدة ، مرراً اياه عبر القنوات الرسمية في لندن وذلك لكي يتفوق على اركان موراي . اذ أنه كان بحاجة ماسة الى لورنس من أجل إدارة المكتب .

وبينما كان هذا التحرك مازال قائماً ، قرر كلايتون الاستفادة من خبرة لورنس في العمل العربي . وفي التاسع من تشرين الأول ، كتب إلى وينجيت يبلغه بأن ستورز كان على وشك زيارة الحجاز ، آملاً بأن يجتمع مع الأمير عبد الله ومن المحتمل مع الشريف

حسين ، وقال : «اقترح إرسال لورنس معه ، اذا ما سمحت له القيادة العامة بذلك . فمن الممكن الاستفادة منه هناك لتحسين الوضع» . وكان ستورز موظف مدني ليس لديه خبرة من ذلك النوع المتخصص الذي كان يحتاجه كلايتون . أما بالنسبة ولتجنب الصعوبات مع القيادة العامة ، تقدم لورانس بإجازة (ويبدو أن هذه كانت أول إجازة له منذ عودته إلى مصر قبل تسعة عشر شهراً) . ويقول لورنس بهذا الصدد : «لقد انتهزت هذه المناسبة لطلب إجازة لمدة عشرة أيام ، مدعياً ان ستورز كان ذاهباً إلى جدة في عمل . . وأنني أرغب في قضاء إجازة معه في البحر الأحمر . وكانوا يكرهون ستورز ومسرورين للتخلص مني أيضاً . لذلك وافقوا على الفور ، وبدأوا يعدون لنقلي الى جهة أخرى . ولا حاجة للقول ، انني لم أتح لهم مثل هذه الفرصة» ، فعند عودة لورنس ، سيكون امر نقله للمكتب العربي قد وصل . وفي غضون ذلك ، لم يكن لدى القيادة العامة اية فكرة انه كان ذاهب في مهمة استخبارية في الحجاز .

غادر ستورز ولورنس القاهرة في ١٢ تشرين الأول ، مستقلين القطار الى السويس . ومن هناك سافرا على متن السفينة «لاما» في رحلة بحرية استغرقت ثلاثة أيام عابرين البحر الأحمر إلى جدة ليواجهوا حرارة الجزيرة العربية القاسية .

الفصل السابع

مهمة استخبارية إلى الحجاز

تشرين الأول - تشرين الثاني ١٩١٦

خلال مطلع خريف عام ١٩١٦ أظهرت الرسائل الواردة من الحجاز ما بين الابتهاج بالنصر والقنوط ، وأصبح واضحاً في النهاية أن الشريف حسين نفسه لم يعد يعرف حقيقة الأوضاع . وأفاد الممثل البريطاني في جدة ، الكولونيل س . ويلسون ، أن الجيوش العربية بقيادة كل من الأمراء علي ، عبد الله ، وفيصل كانت تعمل بشكل مستقل عن بعضها تقريباً . لذلك فقد أمل كلايتون أن يعود لورنس ومعه تقييم مفيد للوضع هناك .

وكما حدث ، فقد تحسن الوضع العسكري لجيوش الشريف حسين على نحو غير متوقع في بداية شهر تشرين الأول ، وعندما تقدمت القوات التركية على طول طريق السلطاني إلى التلال ، هاجمت مجموعات إغارة مشكلة من رجال القبائل الثائرة قوافل تموينها وقد ساعد هذا جيش الأمير فيصل لتكون له اليد العليا في سلسلة من المعارك ابتدأت في السادس من تشرين الأول حول منطقة «بير عباس» ، التي تبعد نحو ثلاثين ميلاً إلى جنوب غرب المدينة . وبالرغم من تهديد الزحف العسكري التركي الجديد ، فإن موسم الحج السنوي إلى مكة قد تواصل من دون عائق .

ورغم أن مستقبل الثورة بدأ غير واضح ، فإن المكتب العربي كان مسروراً بالإنجازات الواسعة التي حدثت . فلم يكن ثمة شك في أن الثورة في الحجاز قد أضعفت من إمكانية العدو المادية لمواجهة جيش موراي في سيناء . وأمكن تلخيص الوضع بما يأتي : «لقد جرى تدمير بما يقدر بفرقة عسكرية تركية ، وقد قتل جنودها أو أسروا . واستبدل الحكم التركي في جزء كبير من الحجاز بحكم عربي حر تحت قيادة أحفاد الرسول وأعيد فتح طرق الحج من جدة ، ومن وسط وجنوب الجزيرة العربية جرى لأول مرة تشكيل حكومة متنورة ومرضية في البلاد» .

فالعرب ، ومن دون أية مساعدة من قوات غير عربية ، قد حصلوا على استقلالهم في جزء من الجزيرة العربية حيث يقع قلب وجدانهم الديني والقومي ومركزه وأكد نجاح

فيصل في «بئر عباس» على أنه لم يكن من الضروري إرسال قوات أوروبية لاحتلال طريق السلطاني في رابغ - وهي خطة كانت قيد الدراسة لبعض الوقت . ورغم ذلك كان الشريف حسين يحث على وجوب ان تكون ثمة قوات بحجم لواء على أهبة الاستعداد ، وأن أية قوات مسلحة متوفرة يجب أن تُرسل إلى حامية رابغ في الحال لتتمكن قواته من أن تستخدم في الهجوم على المدينة .

وصل لورنس إلى جدة في ١٦ تشرين الأول لمقابلة الشريف (الأمير) عبد الله وكان هناك أيضاً ممثلان بريطانيان رئيسان هما ستوز والكولونيل ويلسون واتخذ لورنس جانباً ثانوياً في المباحثات ، بيد أنه شهد المباحثات عن كثب . وكتب في ملاحظاته الشخصية للمكتب العربي ، مفيداً بأن عبد الله كان : «في الخامسة والثلاثين من عمره ، إلا أنه يبدو أصغر من سنه ، قصير القامة وممتلىء الجسم ، ذو بنية قوية ، وعينان بنيتان داكنتان مرحتان ، ووجه مستدير ، وشفتان دقيقتان ، وأنف مستو ، ولحية بنية اللون . ويبدو أسلوبه منفتحاً وفعالاً ، ومرحاً جداً ، لا يحب الرسميات ، بل يتمتع بروح الدعابة مثله مثل أي واحد من شيوخ القبائل . أما في المناسبات الجادة فانه يختار كلماته بعناية ، ويظهر نفسه ماهراً في الجدل والمحاورة . ويبدو أنه كان يعمل من أجل عظمة العائلة ومجدها ، ولديه أفكار عظيمة ، بحيث تشمل ، من دون شك ، تقدمه الخاص ويعده العرب ذا دهاء سياسي ، ورؤية بعيدة المدى» .

وكان لورنس مصمماً ، اذا امكن ، على مقابلة جميع أبناء الشريف حسين . فبعد مقابلة للشريف عبد الله في جدة ، كان عليه الذهاب شمالاً إلى الساحل ومقابلة الشريف علي في رابغ . وسيكون من الصعب رغم ذلك ، زيارة الشريف (الأمير) فيصل ، الذي كانت قواته تقاتل في الداخل فحتى ذلك الوقت لم يسمح للضباط البريطانيين الذين نزلوا أرض الحجاز بمغادرة الموانىء على البحر الأحمر إلاّ أن لورنس استطاع ذلك بمساعدة ستورز ، والحصول على تصريح بالتنقل في الداخل .

وبينما كانا لا يزالان في جدة ، تناول ستورز ولورنس طعام الغداء مع الكولونيل بريمond ، رئيس البعثة العسكرية الفرنسية في الحجاز ، الذي كان قد وصل إلى هناك في نهاية شهر أيلول . ولم يعر لورنس اهتماماً بموقف بريموند من الثورة العربية . وكتب بعد ذلك بوقت قصير يقول : «يقول رئيس البعثة العسكرية الفرنسية من بين مجمل الأقوال

بأنه لا يجب على العرب ان يستولوا على المدينة . ويمكن أن يتأكد هذا اذا ما انزلت قوات حليفة في رابغ . وعلى القوات القبلية أن تذهب إلى ديارها ، وسنتولى نحن لوحدنا أعباء الشريف في مكة كافة . وفي نهاية الحرب نعطية المدينة مكافأة له»

لقد كانت هذه بالطبع سياسة محددة ، مقابلة لمطابقة خططهم ومشاريعهم الكبرى . انه يعطل ويسحق ، كما اعتقد ، افتراض ان قوات حليفة في رابغ ستدافع عن مكة بكل جهدها . في حين أن الاتراك يكونوا قادرين على بعثرة مقاومة القبائل ، ومن ثم سيكون بامكانهم التقدم على أي من الطرف الوسطى والشرقية المؤدية الى مكة ، مخلفين القوات الفرنسية - البريطانية كنصب تذكاري منعزل على الساحل المغبر في رابغ . إن ملخص سياسة بريموند هذه كانت صحيحة تماماً . في ذات اليوم الذي قابل فيه لورنس ، ابرق إلى باريس يقول : «إذا ما استولى العرب على المدينة فانهم سيحاولون على الفور الزحف على سوريا . لذلك فانه من مصلحتنا أن لا تسقط المدينة في أيدي قوات الشريف حسين قبل انتهاء الحرب» . وكان لورنس يعلم كم سيفقد العرب إذا لم تصل ثورتهم (قواتهم) إلى دمشق ، لذلك فقد عقد العزم على أن لا تنجح سياسة بريموند . ومن أجل تحقيق هذا الهدف فقد كان يحث باستمرار على وجوب سحب البعثة العسكرية الفرنسية من جدة .

وسافر ستورز ولورنس بالبحر إلى رابغ في ١٩ تشرين الأول ؛ وقابلا هناك الشريف علي والكولونيل باركر ووصف لورنس الشريف علي على بأنه كان «قصير القامة ونحيل ، ويبدو اكبر قليلاً من سنه آنذاك رغم أن عمره كان سبعة وثلاثين فقط ، محني القامة قليلاً ، شاحب اللون ، ذو عينان بنيتان واسعتان وعميقتان ، وأنف رفيع معكوف قليلاً ، ووجه مليء بالتجاعيد ،وفم متدل ، ولحية صغيرة سوداء ، ويدان دقيقتان جداً .

أما أساليبه وعاداته فكانت بسيطة ، وكان ذا ضمير حي جداً ، يقظاً ، لطيفاً ودمثاً ، بل إنه يميل بسهولة إلى رغبات الآخرين وكان مولعاً بمطالعة الكتب ، وتعلم القانون والعلوم الدينية .

وقضى لورنس ثلاثة أيام فقط في رابغ قبل أن يبدأ رحلة مسافتها مائة ميل في أراضي الجزيرة العربية الداخلية لمقابلة الشريف فيصل . وانتابت الشريف علي الشكوك والريبة من مهمة لورنس ، ولم يكن ليدعه يمضي فيها إلا بناءً على رسالة خطية من الشريف عبد الله باسم الشريف حسين ، لتسهيل مهمة لورنس .

وخلال رحلة اليوم الأول ، سار لورنس مع أدلاّئه العرب من الساعة الثالثة صباحاً حتى منتصف الليل ، تخللتها استراحتان في منتصف النهار وعند حلول المساء ، وكان في غاية التعب والارهاق في الوقت الذي بلغ فيه معسكر فيصل في منتصف عصر ٢٣ تشرين الأول .

لقد وجد القائد العربي في حال من القنوط . فالأتراك قد استعادوا قوتهم بعد هزيمتهم في «بير عباس» ، ونجحوا حينذاك في دفع القوات العربية إلى الخلف مسافة نحو ثلاثين ميلاً الى «الحمرا» . وكانت الصعوبة الرئيسة لا تزال تكمن في نقص التموينات والعتاد . إذ إنه لم تتخذ الاستعدادات اللازمة من أجل الدعم اللوجستي قبل بدء الثورة العربية ، ونتيجة لذلك ، فقد كان توزيع السلاح والذخيرة بصورة عشوائية إلى حد كبير . ووجد فيصل نفسه مرة ثانية من دون المواد التي كان يحتاجها لمقاومة هجوم تركي محتمل ؛ فقد كان يشعر بالمرارة جراء ذلك . وافاد لورانس بانه قد قابل فيصلاً في بيت مبنٍ من الطين ، كان مليئاً بالزائرين . وكان فيصل قليل الكلام مختصراً فيه . وقبل ذهابه إلى النوم كانت له جوله طويلة ثانية مع فيصل .

لقد أثرت شخصية فيصل بشكل قوي في لورنس ، كما حدث له سابقاً مع ويلسون . وبعد هذه المقابلات الأولى ، وصفه لورنس بانه : «كان طويلاً ، رشيقاً ، لبقاً ، وملوكياً تقريبا في مظهره . ويبلغ من العمر واحداً وثلاثين سنة ، سريعاً جداً ومثابراً في تحركه . ذا شخصية قوية يفرضها على محدثيه . وبشرته نقية مثل بشرة شركسية نقية ، وذا شعر أسود ، وعينين سوداويتين حادتين قليلاً ، وأنف قوي ، وذقن قصيرة . وكان يبدو كأوروبي ، ويشبه شكل نصب الملك ريتشارد الأول الموجود في «فونتغرولت» وكان ذا مزاج حاد ، معتداً بنفسه ، برما ، فاقد الصبر ، ويخرج عن طوره أحيانا . إلا انه يمتلك جاذبية شخصية أخاذة ، وكان ذكياً جداً بشكل واضح ، ولديه قدرة على الحكم الصحيح ، والتقييم القويم . وكان طموحاً مليئاً بالأحلام ، لديه الطاقة على تحقيقها ، ذا رؤية شخصية ثاقبة وفعالة جداً» .

ولم يترد لورنس في التأكيد على أهمية سوريا أمام فيصل . إلا أن هذه الملاحظة من المباحثات لم تذكر في تقارير لورنس التي كان يرسلها إلى القاهرة : ففي مستهل إبرام اتفاقية سايكس - بيكو ، كانت مسألة العمل العربي في سوريا قد أصبحت حساسة إلى

حد كبير . ورغم ذلك ، يمكن ان يوجد بعض الشك في أنه كان قلقاً على تبديد أي شعور بالرضا الذاتي بين العرب بشأن انجازاتهم المحدودة في الحجاز . وعلى العكس من فيصل ، فقد كان يعلم ان العرب كانوا بحاجة إلى الاستيلاء على دمشق ، حمص ، حماة ، وحلب . في اليوم التالي ، وعند الساعة ٦٫٣٠ صباحاً ، التقى لورنس مع فيصل ثانية ، وكانت بينهما جولة أخرى من المباحثات انتهت بشكل ودي وكتب لورنس إلى باركر فيما بعد يقول : «يعتبر فيصل جنرالاً فاقد الصبر تماماً ، وذكياً جداً ، ويفهم الأمور جيداً وما أخشاه فقط أن يتحول في يوم ما إلى التطرف ويفسد المشهد كاملاً وذلك بمحاولة المضي سريعاً جداً . ولكن مما يلطف الأمر انه إنسان لطيف جداً»

وتجول لورنس في معسكر قوات الشريف فيصل وتحدث إلى رجاله . وكان تقريره يحتوي على صورة حية للاختلاف ما بين ثورة الشريف حسين والحملات العسكرية الأوروبية ، إذ يقول : «إن قوات الثورة مستمرة في التعبئة والتحرك والتغير ، وتمتلك العائلة السلاح ، ويتناوب أبناؤها في الخدمة العسكرية ، ربما أسبوعاً بعد أسبوع ، ومن ثم يذهبون إلى مضاربهم للتغيير أو التبديل ويُسَرَّح الرجال المتزوجون من فترة إلى أخرى لرؤية زوجاتهم ، أو أن العشيرة برمتها يسيطر عليها التعب والارهاق ، فتأخذ قسطا أو فترة من الراحة ولهذه الأسباب فإن القوات المدفوعة الأجر أكثر من القوات التي تؤدي بالخدمة ، وهذا أمر ضروري ، إذ إنه حسب العادات القبلية فإن المنازلات تعتبر قصيرة جداً ، لذلك فإن الاحتفاظ بهذا العدد من القوات أو استبقائها في الميدان ، كما هي الحال بالنسبة لقوات الشريف ، تعتبر ظاهرة لا سابقة لها .

وفيما عدا ما تبقى من قوات البيشاوي ، و«الجنود» الموجودين في رابغ ، فان هذه القوات تُعَدُّ قبيلة برمتها . منها نحو عشرة بالمئة من الهجانة ، والبقية من المشاة ، بعضهم من رجال القبائل الصحراوية وبعضهم من رجال القبائل الجبلية ، بيد أن هؤلاء الرجال قد ادهشوني باتقانهم الجيد لحرب العصابات ، فهم أقوياء وملائمون ، نشطاء جداً ، مستقلون ، وقناصون محترفون . ويخدمون فقط تحت أمرة شيوخهم ، وفي مناطقهم أو بالقرب منها وفي أثناء الحرب يعلقون أو يؤجلون صراعاتهم الدموية (الأخذ بالثأر) ، ويقاتلون جنباً الى جنب مع اعداء الدم القدماء ، اذا ما كان قائدهم الاعلى شريفاً من الاشراف . وجيوش القبائل هي عبارة عن جماعات من القناصين فقط . وكانوا قبل

الحرب البنادق (الصبنجات) القديمة ، ولم يكونوا يتقنون تماماً استخدام البنادق ذات مخازن الرصاص . وهم لا يستخدمون السنجات بل يجيدون القطع (القتل) بالسيوف . ولا يمكن لواحد أن يثق بجاره تماماً رغم أنهم يكرهون الأتراك تماماً ومن صميم قلوبهم . وهذا لن يمنعهم من التذمر من عدوهم الخاص . وبالنتيجة فإنه لا يمكن الاعتماد عليهم في الهجوم الجماعي . . . وهم يصوبون بشكل جيد من المسافات القريبة ، ولا يبدون الكثير من الذخيرة عندما يشتبكون مع العدو رغم انه يكون ثمة اطلاق نار كثير في حالات الفرح والابتهاج عندما يكونون في مضاربهم .

إن لدى العرب عقدة الخوف من المجهول . ويشمل هذا في الوقت الحاضر الطائرات والمدفعية . فصوت المدفع المدوي يجعل كل رجل يبحث عن مخبأ . وهم لا يخشون الرصاص ، أو أن يقتلوا ؛ بل أن طريقة الموت بالمدفعية فقط هي التي تقلقهم . ويعتقدون أن المدافع تحدث دماراً أكثر بكثير مما هي بالفعل ، بيد أن ثقتهم ومعنوياتهم تستعاد بسهولة ،بالطريقة نفسها التي تهتز بها . لذلك فإن وجود بضعة مدافع - صالحة أو غير صالحة - معهم ستشجعهم على تحمل المدفعية التركية ومواجهتها ، وحالما يعلمون بذلك ، فإن معظم فزعهم ينتهي . وهم يقاتلون في الوقت الراهن في الليل فقط ،حيث تكون المدافع التركية عمياء في تصويباتها .

واعتقد بأن سرية واحدة من الأتراك ، متخندقة تماماً في منطقة مفتوحة يمكنها أن تهزم قوات القبائل ، فقيمة هذه القوات هي دفاعية فقط ، ومجالها الحقيقي هو حرب العصابات . وهم أذكياء ، ونشطون جداً ، ومتهورون ، إلا انهم برمون جداً من تحمل الاوامر ؛ أو المحاربة بنظام ، أو مساعدة بعضهم البعض . وسيكون من المستحيل ، كما اعتقد أن يجري فرز قوات نظامية منهم . ومبادرتهم تكمن في معرفتهم الشاملة للبلاد ، وسرعة التحرك مما يجعلهم رائعين في التحرك بين الجبال لقتال العدو ، وهم مولعون بأخذ الغنائم . ويمكنهم تلغيم السكة الحديد وتفجيرها ، ونهب القوافل ، وسرقة الجمال أكثر من أية فئة أخرى في حين تطعمهم سلطة غربية وتدفع لهم» .

قضى لورنس ٢٤ ساعة في وادي الحمراء ليبحث هناك الوضع العسكري والاستراتيجية المستقبلية . ورجع بعد ذلك الى ينبع ، فوصلها في صباح ٢٦ تشرين الأول . ولم تظهر السفينة «لاما» في التاسع والعشرين من تشرين الأول كما هو متوقع ،

فقضى لورنس خمسة أيام اخرى منتظراً ، ومستخدماً الوقت ليكتب سلسلة من التقارير المفصلة بلغ مجموعها سبع عشرة ألف كلمة .

ولا يمكن مقارنة تقارير لورنس هذه مع تقارير الضباط البريطانيين الاخرى سواء من حيث الملاحظة المفصلة أو نوعية الكتابة ، فموهبته في الوصف قد صقلت بوساطة تهذيبيه لعمل الملاحظات المتعلقة بالاكتشافات الأثرية والمعمارية ، وقد أصبحت لديه آنذاك قدرة بارزة على تصوير ما يراه ويشاهده ، وقد علمه عمله في رسم الخرائط تسجيل شكل المناظر الطبيعية في أثناء ترحاله ، كان يحمل معه سجلاً مفصلاً لأوقات السفر وخططاً لجميع رحلاته . وقد استخدمت هذه فيما بعد ، إلى جانب مخططاته للجبال ، كأساسيات لتنقيح الخرائط في القاهرة ، وتضمنت التقارير عن الطرق معلومات عسكرية قيمة ، مثل مواقع الآبار ، ومدى ملائمة التضاريس لسير المركبات . ورغم أنه كان من الطبيعي كتابة ملاحظات عن الشخصيات ، فإن تعليقاته كانت معبرة بشكل خاص ، سواء ما يتعلق بأوصافهم الجسدية أو بتقييم شخصياتهم .

في ٣١ تشرين الأول ، رست السفينة «سوفا» في ميناء ينبع ، فقد علم الكولونيل باركر ، بوجود لورنس ، فذهب ليستعلم عن الوضع الداخلي هناك وكتب في يومياته فيما بعد يقول : «يبدو انه كان من المهم جداً أن سعادة السردار يجب ان تكون لديه المعلومات أولاً بأول حول طبيعة الوضع في البلاد ، لذلك فقد نصحت لورنس إذا ما استغل الوقت بالذهاب إلى جدة ومحاولة السفر من هناك على متن سفينة الادميرال التي من المحتمل أن تتجه إلى بور سودان ، ومن هناك يذهب لمقابلة صاحب السعادة السردار . وهذا ما فعله» .

غادر لورنس جدة على متن السفينة يوريالوس ، كانت سفينة قيادة الأدميرال ويمس ، الذي كان منذ شهر حزيران واحداً من الدعامات الأساسية ومن أفضل المطلعين والمراقبين للثورة العربية .وبعد عبور البحر الأحمر ، وصلوا إلى بورسودان في الخامس من تشرين الثاني ، وهناك قابل الأدميرال ولورنس ، ضابطين بريطانيين هما الميجر جويس والكابتن دافينبورت ، اللذين كانا متجهين مع سريتين من القوات المصرية إلى رابغ . ومن ثم ذهب لورنس من بورسودان إلى الخرطوم لمقابلة وينجيت (السردار) هناك .

وقد تصادف وصولهما مع الإعلان عن أن وينجيت سيحل محل مكماهون مندوباً

سامياً بريطانياً في القاهرة ابتداءً من شهر كانون الأول وكان مكماهون معروفاً بسياسته الموالية للعرب خلال الأشهر الماضية . وبدا بالنسبة للورنس أن تغييره غير المتوقع يُعَد انتصاراً للمصالح الفرنسية والإنجلو - هندية في لندن ؛ لذلك فقد شعر بعدم الاطمئنان بشأن مستقبل الوعود البريطانية للشريف حسين ، وكتب فيما بعد يقول : «إن إقالة السير هنري مكماهون «تؤكد اعتقادي بعدم إخلاصنا الأساسي» .

ورغم ذلك فإن مغادرة مكماهون كان يمكن أن تنهي الانقسام السخيف حول المسؤولية العسكرية والسياسية في ما يتعلق بالتعامل مع الثورة العربية ومن الخرطوم ، لم يكن وينجيت قادراً على القيام باتصال وثيق مع آخر الآراء المتعلقة في هذا الشأن ، ونتيجة لهذه التغيرات فقد كان وينجيت وويمس من أكثر الضباط البريطانيين الكبار انخراطاً بشكل مباشر في الثورة العربية ، في حين كان لورنس قد عاد للتو من مهمة استخبارية مكثفة جداً في الحجاز . لذلك كان لقاؤها (لورنس ووينجيت) مناسبة لإجراء المزيد من المباحثات حول الصعوبات الماثلة آنذاك ، والمستقبل المحتمل لقوات الشريف حسين .

وفي هذا الوقت كانت لدى لورنس وجهات نظر قوية حول هذه المواضيع وقد علق بشكل خاص من أن الجبال الواقعة ما بين المدينة ورابغ تمنح قوات فيصل ميزة طبيعية كبيرة ، وتمكنها من إعاقة تقدم قوات تقليدية كبيرة . واذا كانت القوات العربية مجهزة وموجهة تماماً فانه يمكنها تحويل هذه الجبال إلى حصن منيع ، وإن مسألة الدفاع عن رابغ لن تنشأ مرة ثانية . هذا وقد وصل لورنس إلى الخرطوم بإطار فكري متفائل .

وعلى افتراض أن رابغ كانت آمنة ، فقد ظل ثمة تساؤل طويل الأمد حول موعد الهجوم العربي ، فالهدف الرئيس سيكون هو الاستيلاء على المدينة ، آخر معقل تركي في الحجاز حينذاك . وهذه ، رغم ذلك ، ستكون عملية عسكرية رئيسة ، فقد توصل كل من ضابط بريطاني زار الحجاز إلى أنه يجب أن لا تحاول قوات الثورة مالم تحل مشكلاتها القائمة في الاتصالات ، والتنظيم والقوة القتالية . ووافق لورنس على وجهة النظر هذه . وما أن عُقد العزم على ذلك ، فإن الأمل الوحيد كان يكمن في قطع الخط الحديدي بصورة دائمة ، لجعل الأتراك في المدينة محاصرين من دون مؤن . واذا ما أمكن إنجاز ذلك ، فإن الحامية التركية هناك ستستلم في النهاية .

وبدا أنه يوجد مجالان يمكن أن يجعلا المساعدة البريطانية أكثر فعالية : الأول ، كانت ثمة حاجة ملحة للتدريب العسكري وتقديم المشورة الفنية . وقد قرر وينجيت على الفور زيادة عدد الضباط البريطانيين الذين يتكلمون اللغة العربية في الحجاز ، فإضافة إلى جويس وديغنبورت ، اللذين كانا لورنس قد قابلهما حينذاك ، كان هناك أيضاً الميجر جارلاند ، ضابط الهندسة الذي قدم من مصر ليدرب العرب على استخدام المفرقعات لتدمير الخط الحديدي . وبدا أن الثورة كانت لا تزال بحاجة ماسة إلى ضابط وأركان أكثر ، فأبلغ وينجيت وزارة الحربية البريطانية بما يأتي «ثمة حاجة ماسة لوجود عدد قليل من الخبراء العسكريين في رابغ للإشراف على وحدات القوات العربية وتدريبها وتقديم المشورة ولتقدير الوضع العسكري . ويجب إرسال الكولونيل نيوكمب ، وضابط مدفعية ، وضابط هندسة الى هناك في أسرع ما يمكن . . . واذا ما أمكن فإن مساعد الكولونيل نيوكمب لابد أن لديه خبرة سابقة بالعرب» . وعرفت المجموعة ، التي كانت تحت قيادة نيوكمب بالبعثة العسكرية البريطانية .

والمجال الثاني الذي كان بحاجة للتحسين هو الاتصال والاستخبارات . ولم يكن بوسع البريطانيين منح العرب دعماً فعالا في هذا المجال مالم يطلع وينجيت أكثر على الوضع العسكري وعلى القدرة الحقيقية لقوات الثورة .

ولم تحل هذه المسألة في لقاء الخرطوم (بين لورنس ووينجيت) ، بل في ١١ تشرين الثاني ، وبالضبط عندما غادر لورنس الخرطوم إلى القاهرة ، فقد تلقى وينجنيت برقية من روبرتسون في وزارة الحربية يبلغه فيها أنه : «نظراً لإقامة مركز استخبارات عسكرية في رابغ ، فانه يقترح بأن يباشر ضابط مختص في هذا المجال عمله في أقرب وقت ممكن من أجل تنظيم هذه الشبكة . ويعتقد براي (وهو ضابط في الجيش الهندي عاد مؤخراً إلى لندن بعد زيارة قام بها إلى الحجاز) بأن فيصلاً سيرحب بهذا الاقتراح ، اذا ما اتسم بالحكمة ، ويمكن لمثل هذه الموسسة أن تؤدي إلى حصولنا على معلومات عسكرية قيمة عن الأتراك بشكل عام ، فمن المحتمل أن يرسل «براي» لطرفكم قريباً ، ولكن مع حاجتكم له لتدريب الوحدات العربية بشكل ملح ، فانه يمكنكم ان تحصلوا الآن على ضابط من مكتب القيادة العليا في مصر لحين توفر الشخص المطلوب في السودان ويبدو لي أن كل من لورنس أو جورج لويد هما ملائمان لهذا المجال» .

ورغم ذلك فقد كانت ثمة خطط أُخرى تتعلق بمستقبل لورنس عندما عاد إلى القاهرة . وتعرض كلايتون لبعض المتاعب من أجل ضمان أعماله وخدماته وقد أشار تقرير المكتب العربي الصادر في ٣١ تشرين الأول الى أن : «الملازم الثاني لورنس ، الذي كان منذ تأسيس المكتب العربي يقدم الكثير من المساعدة غير الرسمية ، قد كان في مهمة في الحجاز . . . وعند عودته فانه سيصبح عضواً منتظماً في هيئة الدعاية والإعلام كما هو اختصاصه . وقد أُسند هذا الموضوع المهم ، الذي كان واحداً من المواضيع الأساسية الذي شكل من أجلها المكتب العربي إلى الكابتن جريفز من الاستخبارات العسكرية ، إضافة إلى مهامه العادية ، وبتحويل ذلك إلى المكتب ووضعه بين أيدي ضابط سيكرس وقته كافة له ، فانه من المؤمل أن يكون المجال واسعاً بشكل كبير» .

وعند استلام برقية روبرتسون بشأن استخبارات الحجاز ، أرسل وينجيت نسخة منها على الفور إلى كلايتون ، مضيفاً عليها يأتي : «اقترح إرسال نيوكمب إلى ينبع ، ولكن نظراً لاحتمال تأخر وصوله فإنني اعتقد أن لورنس سيقوم بهذا العمل بشكل ممتاز كترتيب مؤقت يمكن ان يؤديه جورج لويد جيداً من أجل رابغ» . وكان وينجيت يشكل في أن كلايتون سيعارض هذه الخطة كما هو واضح من البرقية التي أرسلها إلى ويلسون في اليوم نفسه ، وجاء فيها : «لقد أبرقت لك لاسألك عمن ترغب في إرسالة إلى ينبع - وفكرتي أن يتولى الأمر لورنس إلى حين وصول نيوكمب (وهو من دون شك يُعَّد الرجل الملائم لهذا العمل ، كونه يعرف فيصلاً بشكل جيد ، ملائماً جداً لهذا العمل ، إلا أنه يمكنني أن أتصور كلايتون يصرخ عالياً ضد هذه الفكرة ، إذ أنني أخشى أن يتعرض المكتب العربي لصعوبات جمة جراء ذلك» . وكان محقاً بشأن رد فعل كلايتون ، اذ أنه بعد وقت قصير تلقى احتجاجاً قوياً مفاده : «إن أهمية شبكة الاستخبارات كانت تكمن في أنها واحدة من مهام باركر . وقد أرسل لورنس إلى هناك للهدف نفسه تماماً . وأن الصعوبات في الوقت الراهن هي ، على ما يبدو ، تكمن في استحالة الحصول على ضباط بريطانيين بوسعهم التوغل في الأراضي الداخلية ، مع عدم وجود دقة ومصداقية لعناصر عربية . . . والقيادة العامة مستعدة لنقل لورنس إلى المكتب العربي واعتقد بأن معرفته الكبيرة وخبرته تُعَّدان ذات قيمة عالية بالنسبة للقيادة حيث سيكون لاغنى عنه هناك ، والشيء نفسه ينطبق على لويد ، الذي يتمتع بمزايا سياسية ، اقتصادية ، وتجارية

قوية ، فضلاً عن كونه لا يعرف العربية كما اعتقد .

«لذلك فانني أعارض إرسال هذين الضابطين ، وخصوصاً لورنس» وكانت توجد معارضة أيضاً للاقتراح المقدم من ويلسون ، الذي سيقدم له لورنس التقارير إذا ما رجع إلى الحجاز . وكانت علاقات ويلسون مع لورنس قد بدأت سيئة ، عندما تقابلا في القاهرة قبل عدة أسابيع ، فقد اختلف لورنس مع ويلسون في وجهة نظره بأنه من غير الملائم بالنسبة للأوروبيين ارتداء الملابس العربية . كما كان بينهما بعض الفتور خلال زيارة لورنس إلى جدة . وأصبح ويلسون يلح الآن على أنه إذا ما عاد لورنس إلى الحجاز فإنه يجب أن يتواجد في رابغ وليس في ينبع . وكان من دون شك يفضل الابقاء على هذا القادم الجديد غير المُجرب تحت التجربة لفحص باشراف ضابط كبير مثل باركر ورغم ذلك ، فقد أصر وينجيت على ذهاب لورنس إلى ينبع لكي يقدم تقريراً عن الوضع ويقوم بترتيب وصول المساعدات . واستخدم الحجة نفسها ليبحث كلايتون على ذلك بقوله : «انه لمن المهم بشكل حيوي أن يكون لديك ضابط يتمتع بمعرفة خاصة بالعرب ، ويكون على اتصال وثيق مع فيصل في مثل هذا الوضع الخطير ، ولكن عندما يأتي نيوكمب ، فسيعود لورنس إلى المكتب العربي حيث عَدّ أن خدماته هناك ستكون ذات قيمة عالية وسيقوم جورج لويد بجولة إلى جدة ورابغ . ومع كل من باركر ، وجويس وغيرهم في رابغ فانه من الممكن تماماً ان لا تكون خدماته مطلوبة هناك بصورة دائمة» .

وهكذا فعندما وصل لورنس إلى القاهرة في منتصف شهر تشرين الأول ، فقد كان مستقبله مشكوكا فيه . ومرت بضعة أيام قبل أن يبلغ بشأن خطة إرساله إلى ينبع ، وفي غضون ذلك كان مشغولاً تماماً بأمور أخرى . ففي مواجهة أزمات جديدة ، فإن خطة إرسال قوات أوروبية لوقت تقدم الأتراك في رابغ ، قد حبذها إلى حد كبير كل من وينجيت وويلسون وقد عادت إلى زخمها ثانية .

ولم ترغب أية هيئة أو جهة في مصر إرسال قوات بريطانية . لذلك فقد كان كلايتون مسروراً ليجد أن لورنس قد رجع من الحجاز معارضاً بقوة للخطة . وطلب لورنس كتابة مذكرة عن الموضوع ، وكانت النتيجة وضع ملاحظة قصيرة ولاذعة جداً» ، جاء فيها : «إن جميع القوات المقاتلة للثورة تتشكل من رجال القبائل ، وإنه جيش قبائلي يتراوح عدده ما بين ثلاثة إلى أربعة آلاف رجل مقاتل تحت قيادة «سيدي» فيصل ، ومنعت هذه القوات

تقدم جيش فخري باشا إلى مكة أو رابغ لمدة خمسة أشهر ورابغ ليست ، ولم تكن أبداً منيعة ، وانما لم تستطع القوات التركية الوصول إلى هناك لأن قوات القبائل الجبلية بقيادة فيصل قد تصدت لها . فاذا ما استلمت القبائل الجبلية فانه لن يقف أمام القوات التركية عائق حتى أمام الاقتراب من مكة نفسها . فهذا الوضع يؤثر في دراستنا لخطة انزال قوات حليفة في رابغ ؛ ومادامت قوات القبائل تقوم بذلك فانه ليس من الضروري انزال قوات . أما إذا ما تراجعت القوات القبلية فان القوات التركية ستصل رابغ في غضون أربعة أيام وهذا لن يتيح وقتاً لتجميع قوات بريطانية وإعدادها ونقلها لتستولي على الحصن البالغة مساحته ستة آلاف ياردة ، ويقع بين أشجار النخيل في رابغ لذلك فانه ينبغي على القوات البريطانية الوصول إلى رابغ ، بينما يكون رجال القبائل لا يزالون يقاومون القوات التركية ، إذا ما وصلت إلى هناك في الوقت المحدد . وفي الوقت الراهن ، فان وجهة نظر القبائل تعتبر شوفينية (متطرفة) . وهم أصدقاء جيدون تماماً ، في حين نحترم استقلاقهم ، وهم أيضاً ممتنون بشكل عميق من المساعدة التي نقدمها لهم ، إلا أنهم يخشون ان نقوم بخداعهم في ما بعد . وكان علينا أن نحصل على ثقتهم الحقيقية ليؤمنوا بنزاهتنا ، فهم كانوا يخشون بفزع من احتلال إنجليزي للحجاز . واذا ما نزلت القوات البريطانية بموافقة أو عدم موافقة الشريف حسين في رابغ بأعداد كافية وقوية لتقوم باحتلال بساتين النخيل وبناء موقع عسكري هناك ،فانهم سيقولون ، وانا مقتنع بذلك ، «باننا قد خناهم ، وبعثرنا خيامهم» .

وكان موراي مسروراً لشجب لورنس الصريح لخطة إنزال قوات بريطانية في رابغ . ومن دون الرجوع إلى وينجنيت ، فقد أرسل الوثيقة برمتها إلى لندن ، كما أرسل برقية مماثلة إلى روبرتسون يقترح عليه بأن يقرأها ونتيجة لذلك فقد كان اقتراح لورنس معروضاً أمام مجلس الوزراء في غضون أيام في حين كان لورنس يأمل أن تؤدي المذكرة إلى تقويض دعم خطة إنزال قوات بريطانية في رابغ ، فانه لم يكن بوسعه تخيل أن تلقى مثل هذا الاهتمام .

في ١٩ تشرين الثاني ، أبلغ لورنس بقرار إعادته إلى ينبع في مهمة ارتباط مؤقتة ، ولم يؤخذ رأيه بفكرة إعادته إذ كتب في كتابه أعمدة الحكمة السبعة يقول : «لقد أبديت عدم ملائمتي التامة لهذا العمل» . في غضون ذلك ، أُغضب وينجنيت بالأخبار التي

تحدثت عن مذكرة لورنس بشأن إرسال قوات إلى رابغ بوصولها الى لندن ، فكتب يقول : «إن الامر برمته يُعَّد زوبعة في فنجان» ، وماهي إلاّ محاولة من موراي للتخلص من أية مسؤولية بإرسال قوات إلى الحجاز واستناداً إلى وجهات نظر لورنس في أن انزال قوات غربية (مسيحية) مهما كان عددها في رابغ ، فانها ستؤدي إلى توقف أفراد القوات العربية عن القتال وعودتهم إلى بيوتهم .

«وقد يكون هناك بعض الصدق فيما يقوله لورنس ، ولكن يبدو لي أنه قد نسي أمراً مهماً جداً ، وهو أن العرب لم تَعد لديهم الرغبة في العودة إلى حكم الاتراك ثانية ، وعندما يأتي الامر حول مسألة هزيمة الإرادة العربية ، في رأي فانهم سيرحبون بأية خطوات تتخذ من أجل انقاذهم .

فليس لدي شك في أن لونس قد قام بكل ذلك بحسن نية تماماً ولكن يبدو لي بأن خياله وجنديته الهاوية قد منحتاه بوضوح فكرة مبالغاً فيها للتعبير عن وجهات نظره في الأمور العسكرية المحض» .

هكذا كتب كلايتون إلى وينجنيت بتعابير استرضائية ، واضعاً اللوم كله حول مسألة المذكرة على موراي ، حتى أنه ذهب إلى حد بعيد جداً ليدعي أن موراي قد طلب من لورانس أن يقوم بكتاباتها فلا ريب أنه شعر بأن هذه الكذبة الدبلوماسية ستكون عاملاً مساعداً له وللورنس ، حيث أن وينجنيت كان على وشك تولي منصبه رئيساً عليهما في القاهرة .

وكانت أخبار مذكرة لورنس غير مرحب بها بشكل خاص بالنسبة للكولونيل ويلسون في جدة ، الذي لم يسرّه ان يكون تقييمة بشأن الحاجة لقوات أوروبية في رابغ قد جرى تحديه من قبل ضابط صغير في القاهرة ، ويعود موقفه الحازم هذا بشكل كبير إلى تصرف لورنس ، الذي لا يعير الكثير من الاهتمام للأوامر العسكرية وكما لاحظ داوسون حينذاك أن لورنس غالباً ما يتحدى الضباط النظاميين ، وهذا ما انطبق على ويلسون . ويمكن أن يحكم على تصرف لورنس بوساطة التعليقات التي أدلى بها الكابتن بويل ، الذي أقل لورنس بسفينته من ينبع قبل ذلك ببضعة أسابيع ، فقد كتب بويل عن صلافة أسلوب لورنس قائلاً بأنه «قد دهش بعض الشيء ، عندما جاءه شخص صغير الحجم

بملابس مهلهلة لاتنم عن عسكرية منضبطة على متن السفينة التي يقوم بقيادتها بشكل دائم ، وقال ويداه في جيبيه ، ومن دون أن يؤدي التحية له : «إنني ذاهب إلى بورسودان مباشرة . . .»

ويقول بويل : «نظرت إليه فرأيت ثلاثة نجوم على كتفه ، أما الكتف الآخر فلم يكن عليه شيء ، لذلك فقد عرفت أنه ملازم ثان . . . وأبلغت لورنس بأن يقدم نفسه لذلك الضابط ، ففعل . وتحدث الملازم الذي شهد ذلك اللقاء ، قائلاً : «إنه قد أُبلغ تماماً بتصرفات لورنس الشاذة» عن معرفته بشكل أوثق ، فان ويلسون سيرى لورنس مختلفاً قليلاً ، أما في الوقت الراهن ، فقد كان يستشيط غضباً منه ، إذا انه كتب لكلايتون يقول : «يحتاج لورنس إلى الضرب بشدة ، وبذلك فإنه سيتحسن وفي الوقت الحاضر ، فانني اعده كشاب أحمق مغرور قد أفسد معرفته غير المشكوك فيها عن عرب سورية ، الخ . وذلك بجعل نفسه السلطة الوحيدة في الحرب ، والهندسة ، وتسيير أسطول صاحب الجلالة وكل شيء آخر . وقد أثار فضول كل ضابط قابله على متن السفينة العابرة للبحر الأحمر ، ابتداء من الأدميرال إلى أصغر ضابط» .

هكذا كان الوضع عندما أُرسل لورنس في مهمته إلى الحجاز ، كمساعد لويلسون هذه المرة .

الفصل الثــامن

العمل مؤقتاً مع الأمير فيصل

كانون الأول ١٩١٦ - كانون الثاني ١٩١٧

مع بداية شـهـر كـانون الأول ، كـان لورنس في ينبع . ولم يكن دوره مـعـروفـاً في البداية ، حيث أن ويلسون قد أرسل ضابطاً كبيراً ، وهو الميجور جارلان لتقديم المشورة والمساعدة في تدريب القوات العربية المتمركزه في ينبع ذاتها . فقرر لورنس الانضمام إلى فيصل في الداخل بأسرع ما يمكن .

وكان الوضع العسكري قد تغير منذ زيارته الأولى إلى الحجاز ، وبحلول شهر تشرين الثاني توصل فيصل إلى استنتاج بأن رجال القبائل سيعيقون أي تقدم تركي عبر الجبال الشمالية - الغربية للمدينة (المنورة) . لذلك فقد بدأ قادة الثورة يفكرون بتوسيع هجومهم باتجاه الشمال إلى الوجه ، وهو ميناء تركي يبعد نحو مائتي ميل عن ينبع . . فالاستيلاء على هذه القاعدة التركية سيتيح لهم الهجوم على الخط الحديدي الحجازي حول العلا ، وذلك لأن أقصى الجزء الشـمـالي من الخط لم يكن باستطاعته حامية فخري باشا حمايته ، وفي الأقل فإن هذا الهجوم سيمد من الجبهة وقلص من عدد القوات التركية المتواجدة للعمل ضد رابغ ، ومع ذلك ، فقد أمل فيصل بأن يجري قطع الخط الحديدي بشكل دائم ، مما ينجم عنه إجبار حامية المدينة بالاستسلام .

وقد تمت مناقشة تفاصيل هذه الخطة في اجتماع عقد بين فيصل وعلي وآخرين في رابغ . وكانت الخطوة الأولى ترسيخ الجبهة العربية في الجبال الواقعة إلى غرب المدينة . كما اتخذت خطوات مختلفة في ضوء هذا الهدف ، وهذا سيمنع تقدم أية قوات تركية من المدينة باتجاه ينبع ، أو الوجه أو رابغ غرب المدينة ، كما اتخذت خطوات مختلفة في ضوء هذا الهدف ، في غضون ذلك ، توجه الأمير عبد الله ، على رأس قوة كبيرة ، من مكة (المكرمة) إلى المنطقة الواقعة شرق المدينة (المنورة) . وكـان هدفه نسف الخط الحديدي هناك ، ومنع قوافل التموين المرسلة من قبل القبائل الموالية للأتراك والمتواجدة في الشرق من الوصول إلى المدينة . وأمل العرب أن هذه الإجراءات ستحتوي القوات

التركية المتواجدة في المدينة ، في حين تحرك الشريف ناصر على رأس قوة قوامها ألفي رجل إلى الوجه . وقد أثبت الشريف ناصر ، المنحدر من عائلة متنفذة في الحجاز ، أنه كان قائداً مقتدراً إلى حد كبير .

أما فيصل ، الذي كان متمركزاً في منطقة «خيف حسين» في وادي ينبع فقد كان يقوم بإعداد جيشه وتنظيمه من جديد فإذا ما أخفق الشريف ناصر في الاستيلاء على الوجه ، فإن فيصل سيكون حينئذ في وضع يمكنه من إرسال تعزيزات إليه . وفي ما بعد ، وعندما يجري تأمين الوضع العربي الحربي في جنوب - غرب المدينة ، فإن فيصلاً سينقل مركز قيادة عملياته من ينبع إلى الوجه .

وفي نهاية شهر تشرين الثاني بدأ فيصل بتنفيذ جزء من خطته ، متحركاً شمالاً إلى وادي ينبع . واعتقد بأن القوة الطبيعية لموقع شقيقه الأصغر زيد في «بير سعيد» ستتيح للقوة المتواجدة هناك مراقبة تحركات الأتراك . أما لورنس ، الذي أُبلغ بهذه الخطط ، فقد انتقل إلى الداخل في الثاني من كانون الأول متوقعاً مقابلة جيش فيصل في «ضيف حسين» . لذلك ، فقد ذهل عندما وجد أن القوة العربية هناك كانت أكثر قرباً إلى ينبع في منطقة «نخل مبارك» ، وهي واحدة من مزارع النخيل في ينبع ، وشرح لورنس هذه المعضلة في تقرير أرسله إلى المكتب العربي علي النحو التالي : «بينما كان فيصل في وادي ينبع في أوائل شهر كانون الأول ، وهو أمر غير متوقع ، فقد أصبح العرب بقيادة سيدي (الشريف) زيد بطيء الحركة ، وتركوا الطريق الفرعي بالقرب من «الخالص» من غير حراسة ، فاندفعت قوة مشاة تركية عبره إلى وادي صفرا فتحطم خط الجبهة العربي ، وعندما سمع المقاتلون أخبار وجود عدوهم على بعد ستة أميال في الخلف ، اندفعوا لإنقاذ أسرهم وممتلكاتهم في القرى المهددة . وتراجع زيد نفسه على رأس قوة إلى ينبع ؛ واحتلت القوة التركية المباغتة وادي الحمراء وبير سعيد من دون مقاومة . ونتيجة لهذا الانهيار لم يعد ثمة أي عائق أمام اندفاع قوات تركية من وادي صفرا إلى ينبع ، ولم يكن ثمة خيار أمام فيصل سوى أن ينسحب إلى الساحل» .

ولا بد أن لورنس كان مسروراً ، في مثل هذه اللحظة الصعبة ، لينضم إلى قوات الثورة كضابط ارتباط يجلب معه وعداً بالمزيد من الدعم البريطاني الفعال وسيكون أول ضابط بريطاني يقضي بعض الوقت مع جيش الشريف في الداخل ، وقد طلب منه

الأمير فيصل أن يرتدي الملابس العربية . وهذ ما ذكره لورنس في «أعمدة الحكمة السبعة» ، قائلاً «رجال القبائل سيفهمون التعامل معي ، فالذين يرتدون الملابس الخاكي هم الضباط الأتراك حسب تجربتهم ، الذين يدافعون عن أنفسهم منهم ، فاذا ما ارتديت الملابس المكية ، فانهم سيتصرفون معي مثل واحد من قادتهم ؛ كما انه يمكنني أن أدخل وأخرج من خيمة فيصل من دون حساسية ، الأمر الذي كان يفرض عليه أن يفسر للغرباء في كل مرة سبب تواجدي» . أما لورنس ، الذي كان قد اعتاد حينذاك على ارتداء الملابس العربية ، فقد وافق على الفور ، حيث أُهدي ملابس (أثواب) بيض تشير إلى مرتبة عالية .

وسرعان ما أدرك أنه كان يوجد أملٌ ضئيل - بأن تحتل قوات الأمير فيصل موقعاً له في منطقة نخيل مبارك ؛ فمعنوياتها كانت مزعزعة ، وبدا أن الانسحاب إلى الساحل أمراً محتوماً إضافة إلى ذلك ، فقد بدا من غير المحتمل أن يجري الاستيلاء على ينبع من قبل قوات فيصل ، لذلك فقد بعث لورنس برقية مستعجلة بأن ترسل السفينة «صوفا» ، التي كانت لحسن الحظ قد وصلت قبل بضعة ايام وعلى متنها ستورز . وخلال مدة قصيرة ، تجمعت خمس سفن في ميناء ينبع ، بما فيها سفينة الرصد «م ، ٣١» ، وهي سفينة صممت بشكل خاص من أجل القصف الساحلي . كما طلب لورنس ايضاً القيام باستطلاع جوي للمنطقة الواقعة حول وادي الصفا وبئر سعيد .

لقد تبخر تفاؤل لورنس المبكر بشأن دور جيش فيصل ، فكما خشي من قبل ، سرعان ما هاجم الأتراك موقع نخيل مبارك ، وفي صبيحة يوم التاسع من كانون الأول وصلت بقية قوات جيش فيصل إلى ينبع ، وكان عددها ألف وخمسمائة رجل ؛ أما بقية الرجال فقد عادوا إلى قراهم . وشكلت هذه القوة مع رجال الشريف زيد نحو ألفي رجل من أجل الدفاع عن البلدة في حين نظم غارلاند بعض الدفاعات والتحصينات الأولية ، كما رتب لورنس مهمة الاتصال مع سفن بويل .

وبدا أن ينبع ستكون في أمان مادامت السفن الحربية توجد هناك ، اذ أنه كان على القوات التركية أن تجتاز عدة أميال من الأرض الرملية المنبسطة ، وبعضها كان ناعماً منزلقاً ، قبل أن تصل البلدة ، وإذا ما فعلت ذلك ، فإنها ستتعرض لنيران مدفعية السفن في المدى القريب . في غضون ذلك ، كان كل من فيصل وزيد متمركزين في ينبع

بقواتهما ، كان عبد الله مع جيشه متمركزاً في شرق المدينة (المنورة) ، بعيداً جداً عن تقديم المساعدة ، إذا ما عزم الأتراك على التقدم والهجوم .ومن جهة أخرى كان يمكن أن تشكل قوات الشريف علي مقاومة ضئيلة . وكانت الأزمة حادة جداً ، بحيث أنه في التاسع من كانون الأول ، أمرت وزارة الحربية البريطانية موراي أن يجهز لواء عسكرياً ويضعه على أهبة الاستعداد . اذا ما قررت الحكومة إنزال قوات في رابغ .

وفي حال حدوث أي طارىء ، فإن سفن الأسطول الراسية على ساحل ينبع كانت كافية للدفاع ، إذ كان الأتراك على وشك القيام بهجوم حاسم في ليلة الحادي عشر من كانون الأول . وكتب لورنس في «أعمدة الحكمة السبعة» يقول : «بعد ذلك ، أخبرني العجوز دخيل الله أنه قد قام بارشاد الأتراك لبلوغ ينبع عند حلول الظلام ، بحيث يمكنهم القضاء على جيش فيصل دفعة واحدة ؛ بيد أن قلوبهم امتلأت خوفاً عندما وجدوا هدوءاً وأضواء السفن مسلطة على جوانب الميناء كافة ، كاشفة عن انش من الارض التي كان عليهم ان يجتازوها . لذلك فقد تراجعوا ؛ في تلك الليلة ، كما اعتقد ، خسر الاتراك الحرب» .

وبعد أسبوع ، لاحظت طائرات الاستطلاع ما بدا أنه كان انسحاباً تركياً من المناطق المحيطة بينبع وسرعان ما أكدت الأخبار ذلك خلال إخلاء منطقة نخل مبارك . وبدا أن هذا يمكن أن يكون إجراءً محلياً لتجنب المزيد من القصف الجوي بواسطة طائرتين بحريتين من طراز رافن . ورغم ذلك فإن انسحاب الأتراك قد برهن على انه كان أكثر عمومية ، إذ بدا أنهم قد يركزون قواتهم ضد قوات الشريف علي المتقدمة من رابغ ، والتي لا يمكنها الصمود طويلاً أمامهم . وفي غضون ذلك أعاد الأمير فيصل الاستيلاء على نخل مبارك وبدأ على الفور التقدم إلى الداخل ، رغم أن قواته كانت ضعيفة التجهيز والإعداد . وكان أمله يكمن في إيقاع الأتراك في مصيدة بين الجبال ، وما بين قواته وقوات الشريف علي .

وخلال تلك الأسابيع الأخيرة التي قضاها في ينبع تعلم لورنس الشيء الكثير من مشاهدة غارلاند ، وهو يقوم بتدريب الأفراد العرب على استخدام المتفجرات ، فكتب في «أعمدة الحكمة السبعة» يقول : «إن جارلاند كانت له أساليبه في تلغيم القطارات وتهديم

أعمدة التلغراف وقطع قضبان السكة الحديد ؛ كما مكنته معرفته باللغة العربية وعدم التقيد بالنظريات التقليدية من تعليم فن التدمير للبدو الأميين بسرعة وطريقة جاهزة . . . وبالمصادفة فقد علمني كيفية القيام بالتفجيرات العالية ، فعلى العكس من خبراء المتفجرات الذين يعتبرون ذلك مثل سر مقدس ، فإن جارلاند كان يصنع حفنة من قبائل التفجير في حينه ، مع الخيوط الموصلة (الشاحنة) ، والصمام الكهربائي ، ويقفز على جمله بمرح للقيام برحلة تستغرق اسبوعاً .

إلا أن صحة جارلاند كانت معتلة ، فسافر في منتصف كانون الأول في إجازة إلى القاهرة ، فخلف غيابه خللاً ، إذ أن الجهل بعمليات التفجير قد أثبتت إعاقة كبيرة للثورة ، فقد قام العرب بإزالة مساحات كبيرة من قضبان السكة الحديد بوساطة اليد ، بيد أن ترك السكة من دون خراب ، كان يجعل تصليحها سهلاً ، فالدمار الكبير يمكن أن يحدث إذا ما تمكن جارلاند من الذهاب بنفسه وقرر أين سيضع شحنات الديناميت وقد قام بتصميم ألغام خاصة بآليات تفجير أوتوماتيكية ، مما يمكن أن تستخدم في تدمير القطارات ؛ بيد أن إدارتها كانت تحتاج إلى معالجة خبير . وأمل لورنس بأن فيصل سيرى في نهاية الأمر جدوى هذه العمليات ، فقد بدا من المحتمل ، ورغم ذلك ، أن العرب سيسمحون لضابط مسيحي (لورنس) بأن يشارك في الهجمات على خط السكة الحديد المتاخم للمدينة المنورة المقدسة .

وعندما بدأ فيصل بالاندفاع قدماً باتجاه وادي صفرا على أمل أن يوقع الأتراك في الشرك ، وردت أخبار تفيد بأن قوات الشريف علي قد أصابها الرعب من جراء شائعة مزيفة قد انتشرت ، فتراجعت إلى رابغ ، لذلك ، ففي ٢٢ كانون الثاني ، رجع الأمير فيصل إلى «نخل مبارك» ، وكان غضباناً جداً لأن فرصة إيقاع الأتراك في الفخ قد فقدت . وبدا أن جيش فخري باشا كان يعيد تجميع نفسه من أجل هدف ما ، وإذا ما قرر الزحف على رابغ آنذاك ، فانه لم يكن ثمة أمل كبير بإيقافه . وكانت الشائعات والشائعات المضادة ترد من رجال القبائل في الجبال ، أما في رابغ فقد كانت ثمة خطط تجري من أجل الإجلاء عن البلدة .

خلال الأيام الأخيرة من عام ١٩١٦ ، أصبح من اللازم بالنسبة للعرب أن يقوموا ببعض العمليات الهجومية . وبما أنه لم يكن ثمة أمل في هزيمة القوات التركية المحيطة

بالمدينة ، فان الأسلوب الوحيد الملائم كان يكمن في مهاجمة خطوط الاتصالات التركية . وبدا أن أفضل خطة بالنسبة للأمير فيصل هي التقدم صوب الوجه بأسرع ما يمكن وبمعظم جيشه ومن هناك يقوم بشن هجوم واسع على خط السكة الحديد . وهذا بالتأكيد سيحول اهتمام الأتراك عن رابغ .

وكانت الخطة مناقضة تماماً للخطط التي بحثت سابقاً للهجوم على الوجه في منتصف شهر تشرين الثاني ، ولم يتخذ فيصل قراره بالزحف بمعظم قواته على الوجه إلى أن اقيمت دفاعات قوية في الجبال الواقعة الى جنوب - غرب المدينة (المنورة) . وكما كان الأمر ، فإن قوات كل من زيد وعلي لم تكن على أهبة الاستعداد تماماً . وبدا أن خطر التحرك آنذاك كان كبيراً جداً . وكتب لورنس فيما بعد يقول : «إن خوفنا لم يكن أنذاك مما هو واقع أمامنا ، بل مما يقع خلفنا . فقد كنا نفترض إخلاء وادي ينبع ، خطنا الدفاعي الوحيد ضد الفرقة العسكرية التركية الموجودة في وادي صفرا ، الذي يبعد خمسة عشر ميلاً . وكنا ذاهبين لنجرد منطقة جهينة من مقاتليها ، ولترك ينبع ، التي كانت لا تزال قاعدتنا التي لا غنى عنها ، والميناء الثاني للحجاز ، تحت مسؤولية بضعة رجال كانوا غير ملائمين للزحف شمالاً ، أو من ثم غير ملائمين لأي شيء خطير . فقد كنا ماضين لنسير مسافة مائتي ميل تقريباً ما عدا العدو أمامنا . . . فاذا قطع الأتراك الخطوط خلفنا فاننا سنصبح في فراغ تماماً» .

ورغم ذلك فقد بدا التحرك صوب الوجه آنذاك ليس وسيلة مقنعة لتأمين حصار المدينة فحسب ، بل ضرورة ملحة اذا ما أريد وقف زحف الأتراك على مكة (المكرمة) .

وبينما كان لورنس يبحث خطة الاستيلاء على الوجه مع الأمير فيصل ، كان يفكر أيضاً بطريقة أخرى لتخريب الخط الحديدي الحجازي . وكان من المفترض أيضاً أن يشكل جيش الأمير عبد الله عائقاً في الداخل أمام الأتراك . وكتب لورنس في «أعمدة الحكمة السبعة» يقول في هذا الصدد : «اذا ما قامت قوات عبد الله بتهديد حامية المدينة التركية في هذا الوقت ، فإن الحملة التركية ضد رابغ ستتوقف ، بيد أن قواته كان ينقصها الماء والغذاء ، لتقوم بمحاولة حصار المدينة من جهة الشرق ، لذا كان عليه أن يستدعي كامل قواته إلى قاعدته البعيدة في «حنيكة» . ولذلك اقترح لورنس على فيصل بأنه يجب أن تتحرك قوات الأمير عبد الله إلى الغرب صوب «خيبر» ، وهي ليست قريبة من المدينة بل

تعتبر أفضل مكان للقيام بعمليات ضد خط السكة الحديد هناك . ومن ثم كانت للورنس أفكار أخرى ، قال بأنه قد لا يكون ممكناً للأمير عبد الله أن يمكث في «خيبر» . ويبدو أن فيصلاً لم يفهم لورنس ، فقد قال متعجباً : «أتعني وادي العيص؟ . . .» لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يذكر فيها وادي العيص : فهو يقع إلى الشمال الشرقي من الساحل بالقرب من ينبع وباتجاه الخط الحديدي الحجازي ، وجرى التحدث قبل ثلاثة أسابيع حول إرسال نوري السعيد إلى هناك . ورغم ذلك ، فلا أحد فكر بأن يكون قاعدة لقوات عبد الله ؛ رغم أن الوادي كان جيد المياه وقريب من الساحل ، وسيكون من السهل الإبقاء على جيش كبير هناك مزود ومجهز بالغذاء والسلاح .

وحث لورنس فيصلاً على إرسال برقيته يطلب فيها من عبد الله الذهاب إلى هناك ، حيث أن هذا التحرك ستكون له فوائد استراتيجية كبيرة . فكما كتب في النشرة العربية ، فإن وادي العيص «كان يُعَّد حصناً طبيعياً يبعد نحو مائة كيلو متر إلى الأعلى من المدينة المنورة ، على الخط الحديدي واذا ما تركز عبد الله بقواته هناك ، فانه سيتحكم بخطوط اتصالات المدينة ولن يحدث تقدم تركي باتجاه مكة ، وينبع ، أو حتى رابغ ستكون مستحيلة عليهم إلى أن يغادر الموقع» . واذا ما تحرك فيصل بقواته إلى الوجه في الوقت نفسه ، فسيطر الجيشان على مساحة مائتي ميل من الخط الحديدي ، وستكون حامية المدينة التركية تحت رحمتهم . واقتنع فيصل بهذه الأفكار ، وأرسل رسولاً في هذا الصدد إلى شقيقه عبد الله .

وبوجود الأمير عبد الله في هذا الموقع الجديد ، فسيكون الدفاع عن ينبع مسألة بسيطة ، إلا أن فيصلاً كان لا يزال مضطرباً . ففي ٢٧ كانون الأول ، وصل ويلسون ليحثه على التقدم ، مؤكداً له أن حامية رابغ المدعومه بالأسطول الملكي ، ستكون قادرة على مقاومة أي هجوم تركي لحين سيطرة فيصل على الوجه . وكان في هذا التأكيد بعض الشك ، بيد أن كان كافياً لحث فيصل .

في اليوم نفسه ، كتب لورنس إلى المكتب العربي يعلمه فيه عن وصول البعثة العسكرية البريطانية ؛ فقد علم أن وصول نيوكمب إلى الحجاز سينهي مهمته الارتباطية مع فيصل . ورغم ذلك فسيكون من المفيد لأسباب استخبارية إذا ما قام بزيارة وادي العيص المعروف قليلاً ، وأمل بأن هذا سيطيل مكوثه واستفسر قائلا : «هل لديكم أية

أخبار عن نيوكمب؟ فالوضع مهم جداً ذلك حتى أفكر بأن أعود خائباً ، فأريد أن اتخلى عن عاداتي البريطانية وأذهب مع فيصل قليلاً . وهذا عمل ممتع ، وبلاد جديدة وعندما يكون أحدهم موجوداً هنا ليحل محلي فإنني ساذهب عندئذ» . ورغم ذلك ، فقد كان نيوكمب لا يزال موجوداً في القاهرة غير مستعد إلى الذهاب .

كانت البعثة العسكرية البريطانية متألفة من أربعة ضباط : نيوكمب ، وهو مهندس ، وضابط مدفعية ، فايكري وكوكس ، وكلاهما برتبة رائد ، وطبيب عسكري ، مارشال ، وكان برتبة رائد . وكان على نيوكمب الذهاب إلى ينبع ، في حين سيتمركز الآخرون في رابغ ؛ وجميعهم سيقدمون التقارير لويلسون . إضافة إلى أنه جرت اعادة النقيب براي إلى الحجاز مؤخراً .

وفي ينبع ، بدا أن التهديد التركي كان في تراجع مستمر ، فكتب لورنس في الثاني من كانون الأول ١٩١٧ ، في تقرير له يقول : «كان الأتراك في حالة عصبية متزايدة في وادي صفرا ، واعتقد ، بأن قوتهم الرئيسة تحركت باتجاه «الغاير» . لذلك فقد دفعنا بقوة استطلاع في منتصف الليل باتجاه وادي صفرا . فسنسمع هذه الليلة أخبار إخلاء الأتراك لوادي صفرا ، كما اتوقع ، وهذا سيعني إنهاء التهديد لرابغ . . . فخطة الوجه ماضية بقوة . . . واذا ما أعيد احتلال الحمراء ثانية ، وتحرك فيصل باتجاه الشمال ، فإن الخطة ستمضي بشكل جيدا» وفي ليلة الثالث من كانون الثاني ، ذهب لورنس مع مجموعة إغارة صغيرة للهجوم على موقع تركي في الجبال ورغم انه لم يكن ثمة اشتباك مباشر ، فإن هذا شكل أول اشتراك شخصي له في القتال .

وأخيراً غادر جيش فيصل «نخل مبارك» في اليوم التالي ، وتحرك إلى مسافة قصيرة من وادي العويص . وعاد لورنس من إغارته الليلية عندما كان الجيش متحركاً للتو ، فانضم إليه ليرافقه في جزء من المسير ، وكتب فيما بعد يقول : «كان الزحف رائعاً في تنظيمه . ففيصل في المقدمة بملابسه البيض . وكان شرف عن يمينه ، يرتدي كوفية رأس حمراء وعباءة حنطية اللون ، وكنت أنا على يساره في ملابس بيض وحمر . وكان يسير خلفنا حملة الرايات الحريرية ذات اللون الارجواني والخيوط المذهبة ، وخلفهم ثلاثة من حملة الطبول يقرعون عليها ، وتسير خلفهم كتلة ضخمة من الجمال تتألف من ١٢٠٠ جمل وعليها الحراس الأقوياء ، يسيرون جنباً إلى جنب ما أمكنهم . وكان الرجال يرتدون

ملابس مختلفة من شتى الألوان - والجمال تبدو متألقة في سروجها المزركشة - أفراد الركب كلهم ينشدون بأعلى أصواتهم بأهازيج الفخر والاعتزاز لفيصل وعائلته! وبدا المشهد وكأنه نهر من الجمال ، حيث ملأنا الوادي حتى أعلى ضفتيه ، وبلغ طول الجيش نحو ربع ميل يسير كالنهر المنهمر .

وكان دعم الأسطول سيكون حاسماً خلال تقدم فيصل باتجاه الشمال على طول الخط الساحلي بمحاذاة البحر الأحمر . كما كان ثمة نقص في جمال النقل أو التحميل ، لذلك فلم يكن بإمكان الجيش العربي حمل المؤن اللازمة . وانتظر الأمير في «العويص» ، بينما كان لورنس يرتب مع بويل تأمين المؤن الضرورية لتنزل إلى الشاطىء . وفي التاسع من كانون الثاني كان الجميع مستعداً ، ووردت برقية في اليوم نفسه من الأمير عبد الله تفيد بأنه كان متجهاً بقواته إلى وادي العيص . وتناهى إلى أسماع لورنس أيضاً بأنه سيُستدل بالتأكيد . فقبل ثلاثة أيام أبرق ويلسون إلى المكتب العربي يقول : «أعتقد بأن عمليات الوجه ستتيح فرصة جيدة لنيكومب وللضابطين الآخرين لمعرفة فيصل والشيوخ المختلفين . . . وأرغب بأن يذهب إلى ينبع حيث يتواجد لورنس ، الذي تلقى تعليمات مني بأن يسلمه مهامه . لذلك ظل لورنس في ينبع بانتظار نيوكمب بينما زحف الأمير فيصل إلى الشمال .

خلال المراحل الأولى من تحركه إلى الشمال ، عبر جيش فيصل من منطقة صديقه ، وهي أم لج ، التي تقع في منتصف الطريق ، وجرى الاستيلاء عليها مؤخراً ، وأقام هناك معسكراً حيث كان يوجد ماء كافٍ . في غضون ذلك علم لورنس بأن نيوكمب سيذهب مباشرة إلى أم لج بدلاً من ينبع ، فذهب إلى هناك بنفسه على متن السفينة «صوفا» . وكتب لأسرته بتأسف واضح من أن عمله الاستخباري كان على وشك الانتهاء ، حيث يقول في هذا الصدد : «لقد تحسنت لغتي الغربية مرة ثانية! التي نسيتها تقريباً أثناء وجودي في مصر ، حيث كنت أخشى أن اعتاد على استخدام اللهجة العامية المصرية ومفرداتها . فبعد بضعة أشهر أمكثها هنا ، سأكون مؤهلاً باللغة العربية . وأرغب في أن لا أعود إلى مصر . على أية حال»

ووضعت الخطط للقيام بهجوم مشترك على الوجه . وتقرر إرسال (٥٥٠) مقاتلاً عربياً متخصصين في القتال الخاص على متن السفينة هاردينغ ليجري إنزالهم في جهة بعيدة

عن البلدة . وكان دورهم يتلخص في منع الأتراك من الفرار باتجاه الشمال ، بينما يقوم جيش فيصل الرئيس ، الذي دعم آنذاك برجال من قوات الشريف زيد ، بمهاجمة البلدة من الجنوب . ووضعت الترتيبات للقاء بين الأسطول وجيش فيصل قبل وقت قصير من بدء الهجوم .

رغم أنه كان من المتوقع أن يصل نيوكمب إلى أم لج ، فإنه لم يصل مع مساء السابع عشر من كانون الثاني ، حيث كان الجيش العربي يتأهب للزحف في اليوم التالي . وشعر لورنس بانه كان من واجبه أن يظل مع الأمير فيصل ، على البر . وترك خلفه رسالة مبهجة لنيوكمب قال فيها : «لقد افتقدتك اليوم! إنني مريض جداً ، إلاّ أنه يجب علي رؤية وادي عمدة (حيث كان سيجتازه جيش فيصل في طريقه إلى الشمال) ، مع وجود معلومات مسبقة بأنني قد لا أرى وادي صمدة ثانية ، وسأراك بالتأكيد في الوجه . ولقد أبلغت فيصل بعناية عنك . . . إن هذا مشهد رائع : فلا تتصور أن ثمة سعادة بالنسبة لنا أكبر من ذلك ، حيث يشتد الغضب ويستمر ضد الأتراك . وسنكون خاسرين إذا ما تخلينا عن العرب . . . أما إذا ما اتخمناهم بالكماليات فاننا سنهدم أدائهم . أنها ضرب من حرب العصابات مع السبل المعكوسة كافة . بيد أن حياتها ومتعتها وتحركها في أقصى ما يمكن فهل لي أن اقترح بأن تدمج نفسك أولاً ، وتقييم الصداقات مع الزعماء أو الشيوخ قبل البدء بالتعامل معهم ، فستجد بأن أسلوبك يصبح أسهل جداً؟ وعلى أية حال ، فانها حرب عربية ، وما نحن إلا أدوات مشاركة فيها - وللعرب الحق في المضي بطريقتهم الخاصة بهم و أن يديروا الأمور وفق ما يسرهم فما نحن إلا ضيوف فحسب» .

وصل نيوكمب إلى أم لج في صبيحة الثامن عشر من كانون الأول . وحالما سمع أن الجيش العربي كان يقيم معسكراً على بعد بضعة أميال في الداخل ، حتى اعتلى جواداً على الفور وذهب لينضم إليه . وتشير سجلات لورنس اليومية أن « نيوكمب وصل في الساعة ١٥ر١ ظهراً . وهكذا فإن مهام لورنس المؤقتة مع فيصل قد انتهت أبكر مما كان يأمل . أما نيوكمب ، الذي كان يتمتع بصحبة لورنس ، فقد طلب منه بأن يبقى حتى يتم الاستيلاء على الوجه ، فالزحف الذي استمر اسبوعاً سيتيح فترة مفيدة من الاستلام والتسليم» .

كان جيش الأمير فيصل الذي يتألف من عشرة آلاف مقاتل ، نصفهم يعتلون الجمال ، يشكل مشهداً رائعاً . وارتفعت المعنويات أكثر عندما وصل مبعوث من قبل الأمير عبد الله ومعه أخبار تفيد بأنه بينما كان جيش عبد الله يتحرك إلى وادي العيص فاجأ شخصية تركية رفيعة ومعها قافلة تحتوي على حمولات قيمة فألقي القبض عليها واستدعى حسن الطالع هذا القيام باحتفال ، فتوقف تقدم فيصل صوب الشمال لفترة من الوقت .

ولابد أن هذا التأخير غير المقرر قد أعطى نيوكمب فكرة مبكرة عن طبيعة العمليات العربية المميزة . ونتيجة لذلك ، فقد نسي فيصل موعده مع ويمس قائد الأسطول ، الذي اتفق معه مع بويل من قبل حول الهجوم على الوجه ، تاركاً الادميرال ويمس في حيرة من أمره . فقد اعتقد بأن ثمة مأزقاً ما ، حيث يقول في هذا الصدد : «إن عدم ظهور فيصل وقواته جعلني في حيرة من أمري ، فيما إذا كان يجب علي القيام بالهجوم من دونه أو انتظار وصوله واخيراً قررت القيام بالخطوة الأولى ، فيما يتعلق بوجود الخمسمائة مقاتل على متن السفينة هاردينغ . فقد كان من المستحيل إبقاء هؤلاء الرجال طويلاً على متن السفينة ، وذلك بسبب صعوبة إطعامهم ، وأيضاً لأسباب صحية» . لذلك ففي ٢٣ كانون الأول جرى إنزال القوات العربية إلى البر ، وبرفقتهم كل من فايكري وبراي ، إلى شمال الوجه . ولم تكن هذه القوات من خيرة قوات فيصل ، إلاّ أنها كانت قادرة على الزحف على البلدة تحت غطاء نيران مدفعية الأسطول . لذلك فرغم أن الهجوم لم يكن على نمط القتال الأوروبي ، إلاّ أن الحامية التركية قد سقطت في النهاية . وترسخ الانتصار بانزال مجموعة من قوات الأسطول ، وأصبحت الوجه في أيدي الحلفاء في الوقت الذي وصل فيه جيش الأمير فيصل .

وبالرغم من النجاح الذي تحقق ، فإن كل من فايكري وبراي قد صدما بعمق بأسلوب الحرب العربية التي شهداها . وكان عليهما أن يقدما تقريراً حول عدم الانضباط والتخطيط . فعلى سبيل المثال ، لاحظ فايكري أن جيش فيصل رغم انه باشر زحفاً مدته أربعة أيام صوب الشمال وبموازاة الشريط الساحلي ، فضمن عشرين ميلاً فإنه فقد جزءاً كبيراً منه في الطريق ووصل متأخراً يومين عن الموعد المحدد .

وفي هذه الظروف الجديدة ، فقدت البعثة العسكرية البريطانية دورها الواضح . فهدفها الأساسي كان المساعدة في تدريب الجيش النظامي العربي في رابغ ؛ بيد أن تلك الخطة أدت إلى لا شيء ، وبعد الاستيلاء على الوجه فان الحاجة الأكبر للخبرة العسكرية كانت موجهة إلى الشمال . وفي المدى القصير ، فإن اكثر شيء مفيد يمكن القيام به سيكون المساعدة في الهجمات على خط السكة الحديد . وكان فيصل ينوي الهجوم على الخط بعد استيلائه على الوجه . ورغم ذلك فعندما وصل إلى هناك كان من الواضح أن وجود عبد الله في وادي العيص قد قلص من الحاجة إلى القيام بعمل واسع النطاق . ولذلك خطط فيصل من أجل القيام بسلسلة من الغارات الصغيرة ، وفي حين يتخذ خطوات لترسيخ موقفه الجديد وتجنيد الرجال من القبائل المحلية وربما أن الغارات التي ستشن من الوجه يمكن أن تصل إلى مسافات طويلة إلى شمال المدينة ، فقد كان ثمة ضغط متزايد على فيصل للسماح لنيوكمب وجارلاند ، الخبيرين البريطانيين في التدمير ، والذهاب إلى الداخل ، للعمل ضد الخط الحديدي .

وسرعان ما أصبح واضحاً أن الحملة العسكرية في الحجاز قد ربحت حتى قبل وصول البعثة العسكرية البريطانية . ففي الأسابيع التي أعقبت الأزمة والتي بدا خلالها أن الأتراك قد يحققون النصر في أي وقت ، فإن تغيير مواقع جيشا عبد الله وفيصل في شهر كانون الأول قد غير من التوازن العسكري لصالح العرب . فالأتراك أصبحوا ملزمين حينذاك بوضع قوات ضخمة من أجل حماية مئات الأميال من خط السكة الحديد ، خط اتصالهم الوحيد مع المدينة مما لا يدع لفخري باشا سوى القليل من القوات لشن هجوم ما ، كما كانت توجد صعوبات أيضاً في الاحتفاظ بمواقعهم المتقدمة في الجبال الواقعة الى جنوب - غرب المدينة . ففضلاً عن أن الغارات المتقطعة لرجال القبائل الجبلية على قوافل المؤن التركية خلال شهر كانون الثاني قد أظهرت ان المنطقة برمتها كانت معادية للأتراك وانه كان يلزم الكثير من القوات التركية إذا أريد توسيع الجبهة وتأمينها وأوردت «النشرة العربية» ملخصاً استخبارياً في ٢٩ كانون الثاني مفاده انه كان ثمة حينذاك تحرك تركي بارز للانسحاب من الطرق كافة التي تؤدي إلى رابغ ، ومن اتجاه ينبع أيضاً . . . وأضافت النشرة قائلة : «لقد علمنا من وسائل مختلفة أن الكثير من المواد من مختلف الأنواع قد سحبت أو هي على وشك التراجع إلى المدينة ، ويظل ثمة شك

طفيف في حدوث تحركات تركيبة معادية تجاه ينبع ورابغ ، فقد تم التخلي عن ذلك في الوقت الراهن» .

واذا ما كان الأمر كذلك ، وقام سيدي (الأمير) عبد الله بالهجوم ، وسبق ذلك بيومين أو ثلاثة أيام من معرفتنا الأولى بالانسحاب التركي من جنوب - غرب المدينة ، فلربما يحدث شيء ما . وإضافة إلى الاضطرابات في الاتصالات ونقص المؤن ، فقد كان يجتاح المدينة وباء خطير . وأصبح منذ ذلك الوقت فصاعدا أن الجيوش العربية في الوجه ووادي العيص يمكنها إعاقة أي هجوم تركي في منطقة الحجاز وصده ، ولم يكن بالإمكان تغيير هذا الوضع سوى بإرسال تعزيزات وفيرة إلى حامية المدينة ، والتي لم يكن بإمكان تركيا تقديمها .

لذلك فقد تشجعت السلطات البريطانية بشكل كبير جراء ذلك . وكتب وينجيت إلى روبرتسون يقول : «إن لدى القادة العرب دائماً خططاً جميلة يفسرونها بشكل معقول جداً بل إن بعضهم لديه خطط مدروسة فعليا ، وهذا مظهر جديد ومشجع . فقد شعر (وينجيت) أن الوقت كان ملائماً ولمحاولة القيام بعمل تعاوني مشترك من قبل جيوش الشريف حسين كافة ضد حامية المدينة التركية ، وبدأ مساعدو نيوكمب بعمل خطط مفصلة لذلك .

وكان يوجد مراقبون أخرون غير متفائلين تماماً ، إذ رغم أن الوضع العسكري التركي في الحجاز كان متداعياً ، فإن ذلك لم يكن بسبب أية تحسينات على القدرة القتالية العربية . وكانت العملية المقترحة تشمل بالاضافة إلى جيش فيصل جيوش كل من علي ، عبد الله ، وزيد . وكتب فايكري يقول حول ذلك : «إن جيوش الشريف ستكون فعالة إذا ما استغلت بطريقة ناجحة» .

وعكس هذا الرأي معارضة محاولة القيام بهجوم جماعي ضد حامية المدينة ، ومع ذلك ظلت الخطة الرسمية للهجوم قائمة . وبالرغم من ملاحظاته الخاصة ، فقد ابقى فايكري على ان : «أقصى درجة من النجاح يمكن أن تحقق عندما تعمل جميع الجيوش وفق خطة متفق عليها ويشرف عليها من جهة أو قناة مركزية واحدة . فالعمليات المتقطعة المباشرة من قبل جيش واحد غير مرتبط بالجيوش الأخرى لا يمكنها أن تقدم

نتائج أفضل» . وسيكون ثمة بعض الوقت قبل أن تفهم القيادة العليا البريطانية أن جيوش الشريف حسين كانت غير قادرة على اتباع خطة متفق عليها .

لم يكن بإمكان لورنس الشعور عميقاً بالانخراط في الانشطة العسكرية المباشرة التي جرى إعدادها في الوجه ، حيث أنه أصبح آنذاك مستعداً للعودة إلى القاهرة . ورغم ذلك كان فيصل غير راغب في رحيله ، فقد أظهر لورنس تفهماً بارزاً للوضع السياسي والعسكري ؛ بل إنه لولاه ، لما تحرك الأمير عبد الله إلى وادي العيص ،أما تقارير لورنس فقد لفتت الانتباه إلى المظاهر الناجحة لحملة فيصل العسكرية . ولم يكن يسعى لإنكار الخلل العسكري ، بل يحاول تحليل أسبابه ، والتطلع باستمرار إلى ايجاد سبل من أجل تطوير الوضع العسكري الذي لمسه هناك . وكان هذا أمراً مدروساً ؛ فاذا ما كانت تصل إلى لندن التقارير المنتقده (المحبطة فحسب ، فانها كانت ستحدث ضرراً فادحاً بالثورة العربية لأن المصالح الفرنسية والإنجلو - هندية كانت ستخسر هذه الانتقادات لتبرهن على أن الثورة العربية لم تكن تستحق الدعم . إلا أن لورنس كان يحاول ببعض الإجراءات الحفاظ على توازن الأمور .

وتحقق لورنس أن الكثير من الغضب والأثارة كان سببه الاختلافات في الثقافة مثل الاستغراب العربي من الانضباط الرسمي واجراءات الجيش البريطاني . فلم يكن الجيش النظامي أفضل استعداداً للعمل مع القبائل البدوية . إضافة إلى أن جميع الضباط البريطانيين الذين أرسلوا إلى الحجاز قد قضوا خدمتهم العسكرية المبكرة في المستعمرات البريطانية ، وبشكل خاص في الهند ، ومصر ، أو السودان . لذلك فإن موقفهم تجاه السكان الأصليين يكون مهيمناً في هذه الأماكن ، وهو أمر غير ملائم بالنسبة للجزيرة العربية ، حيث أن البريطانيين كانوا يعملون كمستشارين فحسب وليس كأسياد . وقد لاحظ لورنس ذلك بوضوح . فهو نفسه ، على العكس ، قد قضى سنواته قبل الحرب كمستخدم مدني في كركميش ورغم انه لم يكن يتعامل مع القرويين هناك على قدم المساواة ولم يكن لينحني في داخله سمو الرجل الإنجليزي فقد كان يختلط بحرية معهم كما أنه سعى إلى بناء علاقة احترام متبادل وسواء اكان الأمر في كركميش ، أو الحجاز ، فانه لم يكن يوجد تقليد أو عادة الانضباط بالمعنى والمفهوم الأوروبي ، لذلك فان رجال القبائل سيتجاهلون الأوامر المباشرة ورغم ذلك ، كما اكتشف لورنس ، فان مجموعة عمل

عربية يمكنها تحقيق نتائج بارزة ، إذا ما منحت نوعاً من التشجيع . فهذا هو الدرس الذي كان عليه تطبيقه إبان الثورة .

عندما أُبلغ بالعودة الى الحجاز قبل شهرين احتج بأنه كان ثمة عمل مفيد أكثر بالنسبة له في القاهرة . ورغم ذلك ، فانه رأى الآن كم كان الاعتماد كثيراً على ضباط الارتباط البريطانيين في الميدان . وكان ثمة أمور عديدة يمكن أن تدفع بالقضية العربية ، إذا ما بقي في الحجاز ، وكان من الواضح ان هذا سيكون مجدياً . إضافة إلى أنه قد اكتشف أن ثمة صلة شخصية كانت تربطة مع الأمير فيصل ، وحتى في مسائل وأمور تتعلق بالمزاج . فمن حيث الخلفية والقدرة فقد كانا مختلفين ، إلا أنهما كان يكملان بعضهما البعض في عدة أوجه ، كانت معرفة لورنس بالانشطة الجارية في القاهرة آنذاك والقدرة على إنجاز الأمور تتماشيان مع نشاط فيصل والقوة المقنعة بين العرب . وكلاهما كان له رؤية رومانسية للحركة القومية العربية ، قوية بشكل كاف للتغلب على الصعاب والمشكلات اليومية ، وكلاهما كان يعلم بانه يساعد في صياغة الأحداث التاريخية الهامة جداً . فاذا ما نجحت الثورة فسيكون ذلك أهم حدث في التاريخ العربي منذ الحروب الصليبية . فقد ولد فيصل من أجل هذا الدور ، وكانت له صفاته وخاصياته المتطلبة للقيام بذلك . أما لورنس ، فقد كان أجنبياً مفتوناً ، زج بنفسه في التاريخ الشرقي منذ طفولته . ففي خاتمة كتابه أعمدة الحكمة السبعة ، كان عليه أن يصنف طموحه التاريخي بين حوافزه الرئيسة إبان الثورة بقوله : «لقد حلمت ، في مدرسة المدينة باكسفورد ، بأن أندفع في بوتقتها ، في حين كنت أعيش حياة جديدة في آسيا بحيث أن الوقت كان يمر علينا بعناد» .

لقد اراد كل من فيصل ولورنس أن تستمر شراكتهما . ففي ٢٥ كانون الأول وردت برقية من جدة تبلغ المكتب العربي (في القاهرة) بما يلي : «كتب فيصل إلى الشريف حسين يطلب منه أن ترسلوا برقية افيد بأنه كان قلقاً جداً من أن لورنس يجب أن لا يعود إلى القاهرة ، إذا انه يقدم مساعدة كبيرة جداً (للثورة)» . وربما أن هذا الطلب قد جاء من الامير فيصل نفسه ، فلم يكن ثمة خيار أمام كلايتون سوى أن يقبل . وغادر لورنس إلى مصر في ٢٧ كانون الثاني ، إلا انه كان عليه أن يعود أدراجه إلى الحجاز مباشرة في مهمة ارتباطية غير محدودة هناك .

الفصل التاسع

التطلع شمالاً

لقد سر لورنس عندما علم بأنه سيُضم إلى فيصل ثانية . فكتب إلى أسرته يقول : «إن الأمور في الجزيرة العربية سارة جداً ، ورغم أن العمل الذي اقوم به يُعَّد مسؤولاً نوعاً ما ، ويكون كثيفاً قليلاً أحياناً ليجري البحث عن طريقة ما للقيام به . وقد أصبحت معتاداً على كل ذلك ، واعتقد! رغم ذلك بأنه من الرائع جداً أن أعمل خارج المكتب ، للقيام ببعض العمل الميداني ، والموقع الذي اتولاه يُعَّد غريباً من نوعه - فلا أعتقد بأن أي رجل انجليزي كان له مثل هذا الوضع من قبل» .

كان دوره الجديد يتطلب ، من بين ما يتطلبه ، وجود حساسية كبيرة في المسائل السياسية . وكانت الطموحات العربية والسياسة الإنجلو - فرنسية بعيدة جداً عن بعضها ، وقد تصبح هذه الهوة واضحة بازدياد كلما تحركت الثورة صوب الشمال . ومهما كانت الصعوبات ، فقد دفع رؤساء لورنس به لأن يبقي على الأمير فيصل إلى جانب بريطانيا بحماسة .

وكان لورنس يعلم الشيء الكثير جداً عن الوضع الحقيقي الذي لا يستخف باخطاره . ومن أجل النجاح ، فلابد أن يحول صداقته مع فيصل إلى علاقة عميقة وثقة لا تتزعزع . وحتى ذلك الوقت ، فإن مهمته الرئيسة كانت تتلخص بالقيام باتصالات فعالة مع القاهرة ؛ ففي المستقبل ، كان بحاجة إلى بذل مجهود أكبر بكثير . وبالصدفة ، فإن مبادرة فرنسية طرحت أنذاك منحت لورنس فرصة لتقوية تأثيره في فيصل . فقد اقترح في وقت مبكر من ذلك الشهر في باريس بأنه قد ترسل حملة أوروبية إلى العقبة . فهذه من الممكن أن تحفز ضد الخط الحديدي الحجازي ، وتمنع وصول الإمدادات إلى المدينة ، ومن ثم تزيل التهديد التركي لمكة . ولجعل الاقتراح أكثر فعالية ، فقد قدمت باريس عرضاً للإسهام بتقديم كتيبتين سنغاليتين من جيبوتي ، وأن ترابط وحدات بريموند في منطقة السويس .

بيد أن كل من وزارة الحربية البريطانية وموراي في لندن رفضتا هذا الاقتراح ، وأُبلغ بريمond بذلك في الرابع والعشرين من كانون الثاني . وما لم يكن بريموند ، رغم ذلك ، مقتنعاً بذلك : فلأسباب عسكرية وسياسية فقد كان يفضل إنزالاً في العقبة ، كما أنه لأسباب شخصية كان معنياً بإيجاد دور مفيد لوحدته العسكرية المرابطة في السويس . ومالم يقم بذلك ، فإن وزارة الحربية الفرنسية قد تعيد نشر هذه القوات في مكان آخر وسيترك بعد ذلك من دون قوات ولا قيادة ولا أية وسائل لغرض تأثير حقيقي في الحجاز .

لذلك ففي نهاية شهر كانون الثاني ، غادر بريموند جدة إلى مصر ، مصمماً على الحصول على موافقة للخطة الفرنسية ، فمن وجهة نظره إذا ما استطاعت القوات أن توفر من التوجه إلى رابغ ، فانه من الممكن أن ترسل إلى العقبة . وكان يعلم أن وينجيت يرى هذا كأفضل نقطة يمكن ان يهاجم من خلالها خط التموين التركي إلى المدينة . وسيتيح موراي المجال بالتأكيد اذا ما قدمت فرنسا مساعدة أساسية .

وفي طريقه إلى الشمال ، رست سفينة بريموند لوقت قصير في الوجه ، حيث عرض الخطة على كل من فيصل ونيوكمب ، وقال الأمير فيصل ، إنه حسب آخر تقارير الاستخبارات العربية ، فانه كان يوجد في العقبة نحو مائة وخمسين فرداً من الجندرمة التركية في العقبة ، وأنه هو نفسه ينوي الاستيلاء على البلدة . أما نيوكمب ، الذي زار العقبة خلال حملة مسح شبه جزيزة سيناء ، فقد وافق بحماسة عل أنها ستكون موقعاً جيداً من أجل بناء قاعدة جديدة .

وسافر بريموند إلى القاهرة ، وفي الثالث من شباط وجد وقتاً للاتصال بلورنس الذي كان مندهشاً جداً من الحاج الرجل الفرنسي (بريموند) على ذلك . وكان من أحد الأسباب الرئيسة لبريموند منع حدوث ثورة قومية عربية تمتد إلى سورية . لذلك فقد كان قلقاً بعمق من تحرك فيصل شمالاً باتجاه الوجه . إن قوة إنجلو - فرنسية تتقدم في الداخل من العقبة سرعان ما ستقنع القبائل المحلية بأن حلفاء الشريف حسين الأوروبيين كانوا يميلون إلى فرض الاحتلال الاستعماري . وستقوم وسائل الدعاية الفرنسية بتقوية وجهة النظر هذه ، وبذلك لن تحصل الثورة العربية على موالين في منطقة حساسة تقع ما بين

الحجاز وسوريا . وفي الحقيقة ، فإن إنزال قوات حليفة في العقبة ستحتوي الثورة العربية وتبقيها في داخل الحجاز .

ورأي لورنس أن ثمة احتمالاً ضئيلاً بأن موراي سيعارض الخطة الفرنسية ، حيث أن القيادة العليا البريطانية كانت تعلم ان المنطقة الواقعة ما بين العقبة والخط الحديدي ومساحتها سبعون ميلاً ، كانت وعرة وصعبة جداً ، ورغم ذلك فقد حذر لورنس من أن بريموند كان ينوي زيارة الوجه ثانية ويضغط على فيصل ونيوكمب لقبول الخطة (فمن غير المحتمل أن بريموند قد أبلغ لورنس بالرد غير الواعد لفيصل قبل ثلاثة أيام» . لذلك فقد قرر العودة إلى الحجاز في الحال . وكتب لورنس في «أعمدة الحكمة السبعة» يقول في هذا الصدد : «لم أحذر فيصلاً بأن بريموند كان رجل سياسة (ووصفه سابقاً في مسودة كتابة بانه «محتال») . وكان نيوكمب حينذاك في الوجه ، ولديه رغبة ودية في التحرك ، ولم نتحدث عن مسألة العقبة . ولم يكن فيصل يعلم شيئاً عن قبائلها ولا عن طبيعة أرضها . فالجهل بالأمر والحماسة سيكونان أذناً صاغية محببة للاقتراح . وبدا من الأفضل بالنسبة لي الإسراع إلى هناك لأضع ثقلي ضد الخطة» .

وصل لورنس إلى الوجه في السادس من شباط ، واقتصرت المباحثات على الاقتراح الفرنسي . وكان من المحتمل تحذير فيصل من النيات الحقيقية لبريموند من دون الكشف عن حقيقة اتفاقية سايكس - بيكو ، غير أن ذلك سيكون صعباً جداً . إلا أن لورنس قرر الحصول على ثقة فيصل . فقد كان سيلحق بأركان فيصل في المستقبل المنظور ، وسيكون من الأفضل إقامة ثقة متبادلة من البداية فعاجلاً أم آجلا ستظهر الحقيقة ، وإذا ما كذب الآن ، فإن علاقته مع فيصل ستكون في خطر باستمرار . إضافة إلى أنه سيكون من الصعب بشكل خاص أن يخدع رجلاً مثل فيصل . وكما كتب لورنس في ما بعد يقول : «إن الكذب هو أسوأ مناورة ضد لاعبين مرت حياتهم كلها بين ضباب الخداعات ، وكان فهمهم في أوجه» .

ويكشف الدليل المعاصر ، والبيانات التي أدلى بها لورنس في ما بعد ، أنه لا بد أن أبلغ فيصل باسهاب بأن مراسلات الحسين - مكماهون لا تقدم أي تأكيد على استقلال سوريا . فبالتأكيد أن فرنسا ستحصل على لبنان ، وستحكم أراضي سوريا الداخلية ، ومن

ضمنها المدن الرئيسة : دمشق ، حمص ، حماة وحلب ، وجميعها ذكرت في معاهدة سايكس - بيكو . فقرار الكشف عن هذه المعلومة السرية لفيصل لا يمكن أن يكون سهلاً ، إذ قد تكون النتائج المترتبة على ذلك خطيرة جداً في الحقيقة . وكان لورنس متأثراً من دون ريب بقناعته بأن فيصلاً سيصبح زعيماً عربياً وثيق الصلة ومعنياً أكثر بسوريا . فأحسن لورنس بشكل غريزي بأن ثقته لن تخان وقد تطلبت طبيعة عمله إبان الثورة العربية الكثير من مثل هذه الأحكام للشخصية ، ومن النجاح الذي حققه فانه من الواضح أنه كان نادراً ما يخطىء .

كانت معرفة بنود اتفاقية سايكس - بيكو ستحدث تغييراً أساسياً في خطط الأمير فيصل . ومن الآن فصاعداً عرف لورنس أنه كان حيوياً بالنسبة للثورة الاستيلاء على دمشق وغيرها من المدن الداخلية قبل انتهاء الحرب . وحالما تبدأ الحملة العسكرية في الشمال ، فلابد لقوات الثورة أن تولي أولوية للمناطق الواقعة شرق الأردن والمعينة من قبل كل من بريطانيا وفرنسا كمنطقة محتملة لإقامة حكومة مستقلة عربية فمحاولة الاستيلاء على مناطق مثل لبنان قد يخدم فقط تقويض تعاطف الحلفاء مع المطالب العربية الأخرى وسيكون ذلك غير مرغوب فيه ، لأن العرب سيكونون بحاجة إلى دعم بريطانيا لكي يجري احتواء المطامح الفرنسية . واقترح لورنس بأن ينصح فيصلاً على أية حال ، على ترك ساحل المتوسط لقوات الحلفاء . فالمناطق الساحلية ستكون بعيدة المنال بالنسبة للقوات العربية لقيام بغارات عليها ، والتي لم تتعود على القتال بعيداً عن المناطق الداخلية وسيكون من الصعب إلى حد بعيد على الجيش العربي غير النظامي أن يعمل بانسجام مع جيش أوروبي ، وأن أكثر شيء مفيد يمكن لفيصل أن يقوم هو بتأمين الجناح الأيمن لتقديم القوات البريطانية . وسيضمن هذا تدفق الإمدادات المالية والمادية خلال الحملة العسكرية ، وتوفر الدعم السياسي أيضاً بعد الحرب . ولن يكون بإمكان فرنسا أن تحتج على ذلك ما دامت الحملة العسكرية العربية تركز على الأهداف المحددة في مراسلات حسين- مكماهون وبنود اتفاق سايكس - بيكو .

واذا ما نجح العرب في ذلك فانهم سيؤمنون المناطق المخصصة لهم بموجب اتفاقية سايكس - بيكو ، وسيكونون في وضع قوي لتحدي بنوده . وفي أفضل الأحوال ، فانه

ستكون ثمة فرصة حقيقية في أن تساعد بريطانيا العرب على إنشاء دولة مستقلة حقيقية وقابلة للنمو في سوريا . وكتب لورنس فيما بعد يقول : «كان علي أن أفشي سر وجحود ذلك الشيء مبكراً (اتفاقية سايكس - بيكو) لفيصل ، وأن أقنعه بأنه كان من الأفضل فقط أن يوضع جانباً إذا بذل العرب جهداً مضاعفاً ضد الأتراك . . . وأن المخرج الوحيد من ذلك هو مساعدة البريطانيين بشكل كبير ، بحيث لا يكونون قادرين بعد انتهاء الحرب ، بسبب الخجل الشديد على أن لا يعيروا اهتماماً لذلك الحليف (فرنسا) بخصوص تنفيذ معاهدة سرية ابرمت معهم .

وعندئذ ، في الأقل ، سيكون ثمة تعديل على الاتفاق و بحيث يمكن بواسطته تأمين شيء ما . . . ورجوته (فيصل) بأن لا يثق بوعودنا - مع أن المرء لا يمكن أن يعرف عما إذا كانت ثقة الشريف حسين بالوعود مجرد حنكة سياسية وقبل فيصل ، الذي يتصف بالتعقل ويتمتع بمسؤولية رجل الدولة ، وجهة نظري على أنها أمر عادي بين الدول ، ولم يؤدِ اقتناعه بفراغ الوعود الى تثبيط عزيمته ورغم ذلك فلم اجرؤ على البوح بالسر للرجال الآخرين في الثورة بتلك الصراحة» .

ومع كل هذه الخلفية ، فقد عالج لورنس المسألة الأكثر إلحاحاً وهي الاستيلاء على العقبة ، فقد كان مرتاحاً لأن يسمع بأن فيصل لم يكن متشجعاً لأفكار بريموند ، بل أنه علم الآن وببعض القلق أن العرب أعدوا خططاً خاصة بهم من أجل الاستيلاء على العقبة . فالقيادة العربية وضعت خطة مشابهة -بدءاً لتلك الخطة التي نجحت تماماً في الوجه ، ورغم ذلك علم لورنس أن هذه الخطة كانت مفتوحة أمام العقبات العسكرية نفسها كالتي اقترحت من قبل بريموند . فعارضها ، مبيناً أن الهدف الحاسم لم تكن الاستيلاء على العقبة ذاتها ، بل الممر المؤدي إلى الشرق عبر وادي العتم وصوب الأعلى وصولاً إلى نجد معان . فاذا أصبح العرب يقومون بعمليات حربية في الصحارى الشمالية كما كان فيصل يأمل ، فانهم سيكونون بحاجة إلى خط المواصلات هذا . وسيكون ذلك الطريق العملي هو الوحيد لإرسال السلاح البريطاني والذخيرة ، وغيرها من الإمدادات والعتاد عبره . واقترح لورنس أيضاً أنه لا يجب أن يباشر بأي عمل عسكري ضد العقبة ما لم يكن مضموناً لأن يمنح فيصل الاستيلاء على وادي العتم أيضاً .

وكان لورنس (على العكس من فيصل، ونيوكمب، أو حتى بريموند) مطّلعاً على صور وتقارير الاستطلاع الجوي الذي جرى في عام ١٩١٦ لهذا الممر الجبلي وأوضح أن القوة الطبيعية للمواقع التركية في وادي العتم كانت ضخمة بحيث أن أية قوة تحاول التقدم من الساحل ستواجه صعوبات جمة. ولم تكن ثمة حاجة للأتراك للحفاظ على هذه الدفاعات هناك أو للإبقاء على حامية عسكرية كبيرة في العقبة (فالقرية بحد ذاتها كانت غير قابلة للدفاع على أية حال). وسيكون ثمة تحذير واسع من أي عدو يقترب من الغرب، مما سيترك هناك مجالاً كبيراً من الوقت الكافي لإرسال قوة داعمة من معان. لذلك فإن استيلاء قوات فيصل على العقبة يجب أن يتبعه الاستيلاء على وادي عتم؛ إذ أن هذا سيحبط جميع الخطط الدفاعية التركية. ونتيجة لذلك فإن الطريق الداخلية التي تعد أساسية جداً للعمليات العسكرية المستقبلية سيُفقد بشكل مثير.

إن رفض لورنس للخطة العربية كان سيحمل في طياته وزناً ضئيلاً إذا ما كان قادراً على اقتراح شيء آخر أفضل ورغم ذلك فقد كان مستعداً لتقديم اقتراح مؤقت يحمل في طياته وعداً أفضل بكثير للنجاح. فقد درس الاستراتيجية العسكرية بشكل وافٍ ليدقق في مثل هذه المسائل من أكثر من زاوية، ورأى أنه في مثل حالة وادي العتم يوجد في الحقيقة خيار بديل لذلك فالهجوم على الدفاعات التركية بقوات تنزل في العقبة من البحر سيكون مجدياً إلا أن ممر وادي العتم يمكن أن يستولى عليه بشكل جيد بواسطة القيام بهجوم مفاجىء من الداخل. فبتعبئة قوات كافية من رجال القبائل، يمكن الاستيلاء على طريق العقبة الواقع بالقرب من معان ذاتها. وهذا سيمنع القوات التركية من الخروج من معان من أجل الدفاع عن وادي العتم. واذا ما أمكن الإبقاء على عملية الإعاقة، وحتى لوقت قصير نسبياً، فستكون مسألة وقت قصير فقط للاستيلاء على المواقع التركية الموجودة على طول الطريق إلى العقبة، وبذلك تقع الدفاعات التركية المحصنة في وادي العتم في أيدي العرب من دون قتال، فلا يمكن لأية قوة أوروبية غازية أن تنفذ مثل هذا الانقلاب (الهجوم المفاجىء)، بيد أنه في الظروف الاستثنائية للثورة العربية، يمكن أن تكون الخطة ممكنة إذ أن المنطقة المحيطة بمعان كانت قليلة السكان بحيث أن قوات عربية محمولة يمكنها الوصول إلى هدفها من دون اعتراض أو إعاقة، وتضرب بسرعة وبتأثير مدمر.

ورغم ذلك فسيكون ثمة أمران مهمان : الأول يجب التكتم على ذلك بسرعة بالغة ، قبل بدء الهجوم ، إذ إن الشائعات قد تصل إلى الأتراك ، مما يجعلهم يقومون على الفور بتقوية حاميتهم في وادي العتم . ثانياً ، بعد أن يتم الاستيلاء على وادي العتم ، يجب إرسال قوة عربية كبيرة إلى العقبة وبأسرع ما يمكن . فهذا سيكون ضرورياً من أجل حماية طريق معان ضد هجوم تركي مضاد محتمل . وإن الطريقة الوحيدة لوصول مثل هذه القوة إلى العقبة في الوقت المحدد هي بوساطة البحر .

وفي هذه المرحلة لا يمكن للورنس ولا للأمير فيصل أن يتأكدا من أن الخطة كانت ملائمة في الحقيقة ، فقد كانت بسيطة ، إلا أن تحقيقها سيستدعي وجود معرفة محلية وتعاون . ولحسن الحظ ، فأنهم سرعان ما سيباشرون باتصالات مباشرة مع زعماء القبائل في هذه المناطق ، ويمكن لمثل هذه المسائل أن تُحل عندئذ . وفي غضون ذلك ينبغي أن تبقى الخطة سرية . إلا أنه لم يكن من السهل تحقيق ذلك داخل الجيش العربي ، فرجال القبائل كانوا يتحركون وينتقلون بحرية ما بين المناطق المسيطر عليها من قبل الأمير فيصل وتلك المناطق التي يسيطر عليها الأتراك وكان فيصل ولورانس يعرفان هذا ، ويستفيدان من ذلك من وقت لآخر لكي يبثا للأتراك معلومات مضللة ، ورغم ذلك فإنها غالباً ما كانت تخفى النيات الحقيقية عن حاشية الأمير فيصل لكي يكون الكشف عنها ضرورياً . كما كان لورنس حذراً جداً من إيراد هذه الخطط المتعلقة بالعقبة إلى القاهرة ، فقد كانت العقبة تشكل نقطة هامة من الناحية الاستراتيجية ، وكان لورنس يعلم أن سيطرة العرب عليها يمكن أن تلقى معارضة من بعض الجهات . وكانت توجد خلال الاشهر التالية عدة مناسبات يظهر فيها اسم العقبة في تقارير لورنس ، إلا أنه وجد من السياسة أن يبقى الأمر سراً .

في هذه المرحلة ، اعتقد لورنس أن الاستيلاء على العقبة يجب أن يكون جزءاً من تحرك عام أكبر باتجاه الشمال ، لم يكن بالإمكان بدءه مع ذلك . أولاً كان ينبغي على العرب القيام بعمليات حربية ملموسة ضد حامية المدينة التركية والتي كان مخطط لها منذ وقت طويل . وكان دور فيصل في ذلك القيام بقطع أو تخريب الخط الحديدي الحجازي بشكل دائم في منطقة العلا ،التي تبعد مسافة مائة ميل إلى الشرق من الوجه . ومن ثم يزحف جيشا علي وعبد الله ليلتقيا ويشكلا حصاراً على المدينة وعزلها . وعندما

يعزل فخري باشا مع قواته ويفقد الأمل بالنجاة ، فانه سيستلم بالتأكيد وبعد سقوط المدينة فقط يجب على قوات الثورة التحرك باتجاه الشمال ، دافعين بالأتراك على التراجع عن الخط الحديدي شمالاً ، أولاً إلى معان ، ومن ثم إلى دمشق وحلب في ما بعد . وستصبح عند هذه المرحلة قاعدة الإمداد في العقبة ضرورية .

ورغم التردد الأولي الذي حدث ، فإن شيوخ القبائل من مناطق واسعة سرعان ما اعلنوا تأييدهم للأمير فيصل ، وأصبح في منتصف شهر شباط مسيطراً بفاعلية على جميع الأراضي الواقعة ما بين بلدة الوجه والخط الحديدي .

كما كان أيضاً ، وبتشجيع من لورنس ، يسعى من أجل دعم القبائل الموجودة شمالاً حول معان . ونتيجة لذلك بدأ هناك سيل من الزائرين يتوافدون عليه . وكتب لورنس في ١٧ شباط يقول في هذا الشأن «جاء لمقابلة فيصل خمسة من شيوخ الشرارات (وهم من قبيلة كانت تسكن شمال - شرق تبوك) ، ومعهم هدايا من بيض النعام ؛ كما حضر ابن اخ ابن جازي (شيخ الحويطات الوسطى التي تسكن حول معان) ليقدم تهانيه بالاستيلاء على الوجه ؛ وابن عم نواف (ابن نوري الشعلان ، شيخ قبلة الروالي) ومعه حصان هدية من الشيخ للأمير فيصل ؛ وأحمد أبو تاجيجا ليقدم البيعة لفيصل نيابة عن قبيلة الحويطات الغربية (التي كانت تسكن في ساحل البحر الأحمر أسفل العقبة) ، وجاء عودة أبو تايه (شيخ قبائل الحويطات الشرقية ؛ التي كانت تستوطن حول معان) ، ليقدم تهانيه لفيصل ، وليتشاور معه حول ما يمكن أن يقوما به من خطط جيدة في المستقبل ، كما قدم بعض رجال عشائر البيلي و ولد علي . فالمنطقة برمتها ملئت بالوفود والمتطوعين ، وقدم الشيوخ الكبار ليؤدوا قسم الولاء لفيصل ، وانتقل مثالهم ليزيل آخر ترددات قبيلة البيلي .

وجعل فيصل شيوخ الحويطات يحلفون على القرآن بأن يحطوا اينما حط ، ويسيروا ويزحفوا اينما سار وزحف ، وأن لا تأخذهم رحمة بالأتراك ، وان يتعاطفوا مع كل ناطق بالعربية ، سواء أكان عراقياً أو حلبياً أو دمشقياً ، وأن يضعوا ضرورة الاستقلال العربي أمام أعينهم وفوق حياتهم وممتلكاتهم أو عائلاتهم . كما أنه بدأ بمواجهة بعضهم مع بعضهم الآخر ليتناسوا ويتغاضوا عن نزاعاتهم وخلافاتهم ، ويجبرهم على القسم لإنهائها

خلال مدة الحرب . إن دعم هذه القبائل للثورة كان مهماً إلى حد كبير ، ففي المدى القصير سيوسع من عمليات تدمير السكة الحديد ، ويساعد على منع الأتراك من شن هجوم مضاد على أية نقطة أو هدف ما . وفي المدى البعيد سيكون أساسياً من أجل الحملة العسكرية باتجاه الشمال . وكتب لورنس فيما بعد يقول في هذا الصدد : «إذا ما أردنا الوصول إلى ما وراء تبوك باتجاه معان أو العقبة (وكنا في حاجة ماسة لذلك) ، فقد كان من الواضح أنه ينبغي علينا ايجاد طريق دائري يصل إلى الشرق ، ولتحقيق ذلك كان يجب علينا كسب ود القبائل الموجودة هناك . وكان طريقنا يمر أولاً عبر منطقة قبائل البيلي والمهايب إلى مسافة بعيدة حتى السكة الحديد ، ومن ثم فإنه سيعبر من جزء من منطقة «الفجر» . وقد أمنا ذلك . وبعد ذلك تقع مرابض قبائل مختلفة يكنون بالولاء للشيخ نوري الشعلان ، أمير قبائل الروالي ، والذي كان يُعَّد الشخصية الرابعة في الجزيرة العربية والصحراء ، بعد الشريف حسين ، وابن سعود وابن رشيد . وتعاطفه معنا سيفتح أمامنا وادي سرحان ، الطريق الشهير ، ويوفر لنا أرضاً للتعسكر فيها ، وسلسلة من الحفر المائية أو الآبار التي تمتد من الجوف ، عاصمة نوري الشعلان ، الواقعة في الجنوب - الشرقي ، باتجاه الشرق إلى الأزرق . . . بالقرب من جبل الدروز (جبل العرب) ، في سوريا . فقد كنا في حاجة إلى تحرير وادي سرحان هذا ، للوصول إلى أصدقائنا في قبيلة الغجر وحتى مضارب الحويطات الشرقية ، ومنها عشيرة أبو تايه ، التي كان يرأسها عودة (ابو تايه) ، أعظم شخصية قتالية في الصحراء العربية . وبوسائل عودة أبو تايه يمكننا تأمين القبائل المتواجدة في معان وحتى العقبة ليقاتلوا بعنف إلى جانبنا ، وهذا سيساعدنا على الاستيلاء على العقبة وجبالها والقضاء على الحاميات التركية الموجودة فيها ؛ وبمساندة عودة الفعالة فقط يمكننا أن نزحف من الوجه إلى معان ، فمنذ أيامنا في ينبع كنا ننتظره طويلاً ونحاول كسبه إلى جانبنا . . . فهو يشكل اسماً فروسياً ضخماً ، ولكن خاصيته (نوعيته) لم تكن معروفة لدينا ، وهو أمر مهم جداً . . . لا يمكننا ارتكاب خطأ بصدده ؛ لذلك كان ينبغي عليه أن يأتي ليرانا وبذلك يمكننا أن نقيمه ونخطط فعليا للمستقبل في أثناء وجوده» . وكانت خطة الاستيلاء على وادي العتم من الشرق في غاية السرية بحيث لم يكن بالإمكان ائتمان الرسل عليها ، لذلك فقد وجهت الدعوة لعودة بأن يأتي إلى الوجه .

ورغم أنه لم تكن ثمة عملية رئيسة ضد الخط الحديدي قد بدأت بعد ، فإن الاستعدادات المتوفرة كانت تتيح فقط القيام بهجمات صغيرة متعددة وأعطى فيصل الموافقة لجارلاند ونيوكمب لمرافقة مجوعات الإغارة على السكة الحديد . فمن خلال خبرتهم بالتفجير سيزيدون كثيراً من التدمير وتخريب السكة الحديد والقطارات وحافلاتها . وكانت هذه هي المرة الاولى التي سمح فيها العرب لضابط بريطاني غير لورانس بالذهاب الى الداخل لهذا الغرض .

ولم يصل بريموند حتى ١٨ شباط . وقد حقق نجاحاً بسيطاً في القاهرة في ما يتعلق بخطته للاستيلاء على العقبة ، لذلك فقد كان الهدف الرئيس من زيارته للوجه هو زيادة دعم الأمير فيصل للخطة . وكان تواقاً جداً ليجد طريقة ما للتأثير في التخطيط العربي ، وأراد في الأقل الحصول على تقارير وافية عن أنشطة الجيش العربي في الشمال . وبعد إجراء بعض المباحثات ، وافق فيصل على قبول ثلاثة مدربين (فرنسيين) للمدافع الرشاشة . وحالما انتهت زيارة بريموند ذهب لورنس في زيارة قصيرة إلى القاهرة ، فقد كان في حاجة لأجهزة لاسلكي وغيرها من المعدات في الوجه ، وأراد أيضاً إنهاء مسألة المكتب العربي هناك وتسليمه .

ووصل إلى مصر ليجد أن هيئة الأركان البريطانية العامة قد وصلت إلى اتفاق مع وينجيت يمكنه أن يؤثر بشكل كبير على مستقبل الثورة العربية وكانت خلفية ذلك القرار التقدم الذي أحرزه موراي في شمال سيناء خلال شهر كانون الأول ١٩١٦ . وكانت القوات البريطانية تستعد آنذاك للقيام بهجوم رئيس ضد غزة - بئر السبع . وإذا ما نجح هذا الهجوم فإن الطريق سيفتح أمام تقدم القوات البريطانية إلى فلسطين في الخريف ، وسرعان ما ستتصل قوات موراي مباشرة مع العرب في فلسطين وسوريا . ولهذا السبب فقد جرت الموافقة في ٢١ شباط ، وهو اليوم الذي سبق وصول لورنس إلى القاهرة ، على أن أي نشاط من قبل العرب في المناطق الشمالية سيضبط ويوجه بواسطة موراي . كما سيكون وينجيت مسؤولاً عن العمليات في الحجاز وحتى جنوب خط العقبة - معان .

كان هذا التغير مهما جداً من وجهة نظر لورنس . إذ أنه بناءً عليه لن يكون بمقدور فيصل القيام بحملة عسكرية في سوريا من دون الدعم البريطاني ورغم ذلك فحالما تصل

القوات العربية إلى العقبة فإنها ستفقد فجأة فائدة حماسة وينجيت المخلص . وكان موقف موراي غير موثوق به تماماً ؛ فالثورة لم تكن مشهورة تماما داخل قيادة القوات البريطانية ، واذا ما نال الدعم الذي كان في حاجة إليه ، فقد كان على العرب أن يبرهنوا على أنهم يمكنهم الإسهام في نجاح موراي وقبل مغادرة لورنس للقاهرة ، وصلت أخبار تفيد بأن غارلاند ومعه مجموعة من العرب ، قد نجح في إخراج قطار تركي عن خطه خلال غارة ليلية قاموا بها على الخط الحديدي الحجازي . ورغم أن غارلاند لم يكن قادراً على تخمين الخسائر في الظلام فإن القطار قد انقلب عن خطه وسقط من على جسر صغير ، وقد فهمت هذه العملية تماماً في المكتب العربي بالقاهرة . ففي الأشهر القليلة الماضية قدرت الخسائر التركية في هذا الصدد بنحو أربعين قاطرة مختلفة فقط ، وسبعمائة عربة ، وستمائة شاحنة على كامل الخط الحديدي إلى مسافة ألف ميل جنوباً من دمشق . وهذا القطار الذي دمر لم يكن يستخدم في نقل الإمدادات إلى القوات التركية في المدينة فقط بل أيضاً في نقل التموين إلى الجيش التركي في فلسطين وسيناء . وحسب تخمينات المكتب العربي فانه كانت توجد نحو عشر قاطرات فقط تعمل على خط دمشق - بيروت . أما القاطرات الثلاثين الأخرى فقد كانت تعمل من دمشق إلى بئر السبع والمدينة . «من أجل تسيير قطار واحد في اليوم إلى كل من المدينة وبئر السبع فانه يلزم نحو عشرين قاطرة (ويبلغ وقت الوصول إلى بئر السبع نحو أربعين ساعة ، وإلى المدينة نحو مائة ساعة) . إضافة إلى أنه كان ثمة عدد من القاطرات تحت التصليح أو الترميم ، أو أنها تستخدم في أعمال الإنشاءات المحلية ، أو الأعمال العسكرية لذلك فقد كانت القاطرات التركية تعتبر أهدافاً مهمة ؛ فكل قاطرة تخرج من العمل ستقلص بشكل مهم من قدرة العدو على نقل الرجال والعتاد .

ولفت تقرير لجارلاند مرة ثانية الانتباه إلى الصعوبات التي كانت تواجه الضباط البريطانيين عند تعاملهم مع رجال القبائل . وانتقد أيضاً استخدام الجمال ، والتقدم البطيء ، وحتى رجال القبائل أنفسهم ، إذ انه قال في هذا الشأن :

«إن من الواضح بالطبع لأي واحد يعرف الغرب تماماً ، أن العمل العسكري من أي نوع معهم يُعَّد صعباً في أفضل الأحوال . فمعظمهم لايظهر أي احترام ، ويميلون إلى

الغطرسة نوعاً ما ، وأظن أن ضعفهم التقليدي يكمن في عَدّ نهب الغرباء أمراً مشروعاً ، . وفي العمليات العسكرية فانهم يقومون باستمرار بمخاطر غير ضرورية ، مثل الإنشاد (الغناء) ، والصراخ ضمن مجال سمع العدو ، ويقتربون من مواقع العدو (كما كنا نقوم به ضد الخط الحديدي) من أعلى منتصف الوادي الفسيح بحيث يمكن رؤيتهم على بعد أميال من أي موقع على أي جبل صغير قريباً من الخط الحديدي . . .

وبالطبع فانه أمر عديم الجدوى بالنسبة للبريطانيين بأن يقدموا الأفكار العسكرية في مثل هذا الجو ، أو أن يقوموا بأية طريقة للقيادة ، فقد كان جارلاند يقوم بتقديم المقترحات اللبقة فحسب ، ويأمل منهم أن يقوموا بتنفيذها فالأمر تطلب الكثير من الصبر والتحفظ ، والتحلي بالروح الودية ، إذ إنهم كانوا يمتقون بشدة اطلاق كلمة «جنود» عليهم . ورغم قيمته كخبير تفجير ، فإن الصعوبة التي واجهها جارلاند من جراء الوسائل والعادات العربية قد وضعت عائقاً مستمراً أقامه ، فحسب في ما بعد من العمليات الفدائية في الحجاز . وقد وصفه لورنس مرة بأنه «كان مريضاً ، وبرتبة رقيب سابق ، وليس جيداً تماماً ، وميالاً إلى الحفاظ على وقاره دائماً حتى في الأوقات الخاطئة . فهو لا يلائم هذا العمل» .

عندما عاد لورنس إلى الوجه في نهاية شهر شباط ، لم يكن مدركاً للمشكلة الجديدة التي كانت بانتظاره . فقد بدا أن الامير فيصل أصبح قلقاً لدى معرفته ببنود اتفاق سايكس - بيكو ، وأصبح مشوشاً في أن يتحرك بأسرع ما يمكن باتجاه دمشق ، وحمص ، وحماة ، وحلب . وكان في الوقت نفسه يتعرض لضغط من الضباط السوريين العاملين في جيشه للزحف شمالاً . ونتيجة لذلك فقد أصبحت مسألة سورية تحتل كامل انتباهه وبدأ يتخلى عن سياسة الخطوة خطوة التي نصحه بها لورنس . وأكدت التقارير أن منطقة العقبة قد أخليت تقريباً من القوات التركية ، وبدا هذا كأنه يقدم فرصة ذهبية .

خلال بضعة أيام من مغادرة لورنس ، ألغى فيصل الاستعدادات العسكرية المتعلقة بالهجوم على دفاعات وادي العتم ، وأثار موضوع العقبة مع الضابط البريطاني فايكري ، وهو الضابط البريطاني الوحيد المتبقي آنذاك في الوجه ، وكان فايكري ، مثله نيوكمب ، شاعراً بأن التحرك ضد العقبة سيساعد العرب على معالجة أمر السكة الحديد ، فكتب

الى كلايتون يقول : «سأكون ممتناً جداً إذا ما أصدرتم أوامركم بالاستيلاء على العقبة بوساطة جيش الشريف فيصل .

والشريف فيصل تواق جداً للاستيلاء على البلدة ، فكما يعتقد - مع بعض الأسباب أن الاستيلاء عليها من قبله سيكون له تأثير سياسي ممتاز في السوريين . كما أنه طلب منه الاستيلاء عليها بوساطة الحويطات ، ويُعَّد أكثر من ذلك ، وأنا متفق معه ، أنه كما زحف أكثر شمالاً افقد الأتراك خطوط مواصلات أكثر في الشمال . وإذا ما هدد الشريف فيصل الخط الحديدي الحجازي من الوجه ، ودهابه ، واستولى على العقبة . . . فلابد للأتراك أن يدافعوا عن خطهم . من دون إرسال تعزيزات فليس لهم مجال سوى أن ينسحبوا من مواقعهم في جنوب المدينة ، وبإضعاف حاميتهم في المدينة . وكلما طالت مدة حمايتهم للخط ضد الغارات جرت بعثرة قواتهم أكثر ، وسيضعفون في كل مكان ، ولن تكون لهم قوة في أي مكان . .

وقد أبلغت الشريف أنه ليس بوسعي أن أقدم وعداً أو أباشر بتقديم أية مساعدة من دون عرض الأمر عليكم . وأبلغته هذا لأنني أعلم أن ثمة بعض الصعوبات في ما يتعلق بالقيام بهجوم أو الاستيلاء على العقبة» .

ورغم أن فيصلاً قد بين أنه لا يوجد أمر ملح في هذا الشأن ، فإن هذا التقرير يظهر بأنه لم يعتقد بأن من الضروري الانتظار حتى سقوط حامية المدينة قبل الزحف شمالاً ومن خلال الحديث مع فايكري فقد أفاد بأن الاستيلاء على العقبة يُعَّد خطوة مساعدة في الحملة العسكرية ضد حامية المدينة ، وحتى لو كان هذا تحرك في الاتجاه المعاكس حقيقة وعكس نفاد الصبر هذا بالضبط مزاج السوريين في حاشية الشريف فيصل مثل نسيب البكري ، والملاك الدمسقي الذي انخرط بعمق في حركات الاستقلال العربية قبل الحرب ، فبالنسبة إليه لا يجب ان تقتصر الثورة على الحجاز فحسب ، إذ إنه بعد أن أثبتت نفسها ، فإن الهدف الحقيقي لها سيكون سوريا ، وطنه . ورأى أن حدوث ثورة في الشمال في ذلك الوقت سيأخذ الأتراك على حين غرة ، إلا أنه لم يكن يعرف سوى القليل عن المسائل العسكرية حتى يدرك كم يمكن أن تخمد الثورة مالم يتسن امداداها بالمال ، والسلاح والذخيرة ، وغيرها من الضروريات .

إن عدم انتباه الزعامة السياسية العربية منذ البداية لمثل هذه المسائل - قد أعاق العمليات العسكرية في الميدان ، ففيصل نفسه لم تكن لديه خبرة استراتيجية كبيرة ، وفي رده على نسيب البكري تمكن فقط أن يبين آراء المستشارين الأوروبيين مثل لورنس ، والتي كانت تُعَد مشكوكاً فيها حتماً .

عندما وصل لورنس إلى الوجه في الثالث من آذار لابد أنه أدرك كم كان الوضع متأرجحاً . وكان من السهل تصحيحة ، إلا أن الأمر كان ينذر بمستقبل حذر ، فبعد عدة سنوات لاحظ لورنس أن التقارير لم تلمح أو تشير إلى هذا التأرجح بشأن العقبة ، أو إلى أي شيء يتعلق بخطط شمالية لفيصل ، وباستعراض تقارير كل من فايكري ، ونيوكمب ، وغيرهم خلال المدة نفسها ، ويبين أن هذا السكوت يمكن أن يفسر فقط بأنه سياسة متقنة وكان لا بد له رغم ذلك أن يكون تواقاً لمعرفة كيف سترد القاهرة على طلب فايكري المتعلق بالمشورة والإرشاد .

وأصبحت العمليات ضد الخط الحديدي في تقدم مستمر آنذاك ففي أوائل شهر آذار علم بأن مجموعات إغارة في جيش الشريف عبد الله في وادي العيص قد قامت بتدمير جسر وعدة أجزاء من الخط الحديدي في المنطقة الواقعة إلى شمال المدينة (المنورة) . وبعد بضعة أيام علم لورنس أن نيوكمب قد دمر ما مساحته ٢٫٥٠٠ متر من الخط الحديدي ، وأوردت نشرة المكتب العربي في القاهرة في الثاني عشر من آذار أنه كانت توجد في الأقل سبع على نقاط واسعة على طول الخط الحديدي .

في صبيحة الثامن من آذار ، وبينما كان منشغلاً بترتيبات إدارية في الوجه ، وردت برقية مستعجلة من القاهرة ، فقد علمت الاستخبارات البريطانية أن الأوامر قد صدرت للأتراك بإخلاء المدينة إذ أدركوا أنه لم يكن عملياً الدفاع عن الخط الحديدي برمته ، والذي أصبح مهدداً آنذاك من الجيشين العربيين في كل من الوجه ووادي العيص . وبدلاً من ذلك ، فقد كانوا يخططون للانسحاب إلى مسافة خمسمائة ميل إلى الشمال ، وإقامة موقع دفاعي جديد في جنوب معان .

لابد أن هذه كانت تشكل أخباراً ممتازة ، فعندما ينسحب الأتراك ، ستحقق جيوش الشريف حسين الهدف التي حاربت من أجله في الحجاز ورغم ذلك فان هذا الانسحاب

المفترض لم يرحب به من قبل موراي إلى حد كبير لأنه كان على وشك القيام بهجومه على خط غزة - بئر السبع ، وقد تضيع هذه الميزة فائدتها بسهولة ، إذ إنه لم يكن لديه سوى قوات احتياطية قليلة لأن الكثير من قواته قد جرى نقلها إلى الجبهة الغربية خلال الأشهر السابقة . فإذا ما أخلى الأتراك المدينة والجزء الجنوبي من الخط الحجازي ، فسيكونون قادرين على نقل عدد كبير من الرجال المدربين والمسلحين جيداً إلى جبهة سيناء ، مما سيغير بصورة أساسية من توازن القوات هناك .

لذلك فقد أرسل كلايتون تعليماته إلى الوجه بأن ينزل كل جهد لمنع قوات الحامية التركية في المدينة من التحرك إلى الشمال . واذا لم يكن بالإمكان الاستيلاء على المدينة ، فينبغي الضغط على القوات التركية حيث تتواجد أو تدميرها إذا ما حاولت الانسحاب .

عندما وصلت البرقية المذكورة ، كان لورنس يُعّد الضابط البريطاني الكبير في الوجه . أما نيوكمب وغارلاند فلم يكونا قد عادا من غاراتهما على السكة الحديد بعد ، وكان فايكري قد غادر للخدمة في أوروبا . وكانت مهمة حث الشريف فيصل على اتخاذ عمل سريع تُعّد صعبة جداً ، لأن كلايتون لم يرد أن يعلم العرب بالانسحاب التركي المنوي من المدينة لأنهم كانوا يأملون بأن يخلي الأتراك المدينة ، ولابد أن كلايتون قد خشي من أنه إذا ما تسربت الأخبار فانه لا يمكن فعل أي شيء لوقف قوات فخري باشا من مغادرة المدينة . فطلب التقيد بعدم البوح بذلك يصدر من القاهرة كان سيطيل من الوضع الراهن في الحجاز ، وربما لوقت كبير ، وستكون هذه تضحية كبيرة بالنسبة للقيادة العربية . إذ أن الاحتلال التركي المستمر للمدينة المقدسة الثانية للمسلمين ، قد أصبح يشكل رمزاً للضعف العربي إضافة إلى أنه اذا ما أُتبعت الخطط المتوفرة ، فإن التأخر في إنهاء حملة الحجاز سيرجىء بالتالي إمكانية فيصل باتجاه سوريا .

لقد وضعت التعليمات لورانس في مأزق حرج ، اذ أن تفكير فيصل برمته أصبح آنذاك متجها صوب الشمال ، وأدرك لورانس بأنه سيكون من المستحيل حث فيصل على اتخاذ عمل فعال ضد الخط الحديدي مالم يفسر الوضع الصحيح . وبدا أن من الأسلم القيام بذلك لأنه أصبحت توجد بينهما حينذاك ثقة كبيرة وحسبما ورد في كتاب أعمدة الحكمة ، فقد كنَّ لورانس لفيصل شعوراً بالاعتزاز والفخر ، معللاً ذلك بينما كانت

بريطانيا تقوم بأشياء عديدة لمساعدة الثورة العربية فقد جاء دور موراي آنذاك ليطلب المساعدة مقابل ذلك . وفي حين أن لورنس يمكن أن يمرر طلبه وفق هذه المبررات ، فإنه قد أسقط من دون شك تلميحات الحجة الأقوى الأخرى . فقد أصبح يعلم آنذاك أن مستقبل الحملة العسكرية العربية في سورية سيعتمد على حسن نيات موراي . وإذا ما استطاع فيصل الاستيلاء على حامية المدينة ، فسيصبح موراي تحت التزام عميق تجاهه .

وافق الشريف فيصل على القيام بكل شيء ممكن وجرى إعداد خطط مفصلة بشكل سريع ، وأرسلت برقيات إلى كل من الشريفين علي وعبد الله ، وإلى زعماء القبائل أيضاً ، تطلب منهم القيام بالهجوم على خط السكة الحديد باتجاه شمال المدينة ، وتدمير أية قوات تركية تغادر المدينة ، فإذا ما أمكن تنحية خط السكة الحديد عن العمل ، فسيكون من المستحيل تقريباً على الأتراك التحرك . وحيث أنه لم يكن ضابط ارتباط بريطاني يعمل مع الشريف عبد الله ، فقد قرر لورنس الذهاب إلى وادي العيص .

وكتب إلى الكولونيل ويلسون يشرح له أن سرعة إصدار الأمر لم يترك سوى قليل من الوقت للقيام بالترتيبات الضرورية كافة ، وقال : «لقد أملت بأن أنقل ذلك لنيوكمب ، إلا أنني لم أستطع ، وتبعاً لهذه الظروف ، فقداقنعت فيصل للقيام بالعمل ، فبالرغم من أوامر الجنرال كلايتون أبلغته بشيء ما عن الوضع فقد كان من المستحيل بالنسبة لي أن أقوم بأي شيء على مسؤوليتي . إذ ينبغي على المرء إعلام القيادة العامة بذلك» .

وبعد إعطاء تفاصيل عن العمل الذي يجب أن يتخذ ، توصل لورنس إلى أن : «الخطة (موضوع الساعة ، فقد رغبت في خطة أكثر دقة) تهدف إلى التحرك فوراً ضد مصادر المياه التركية ، وإتاحة الوقت للتركيز على ذلك ، ومن أجل تحقيق هذا الهدف لا بد من تكثيف الهجمات ، والتعرض لأي هدف (تركي) من أجل كسب الوقت . ومن ثم عندما تحضر الجمال ، (التي طلبتها من أجل عملية العلا) ويتحرك الشريف علي بقواته ستكون الجيوش الثلاثة منتشرة من منطقة المدينة إلى العلا على خط السكة الحديد ، وسيجد الأتراك صعوبة كبيرة في التحرك . . . ، واخذت معي بعض ألغام جارلاند ، فاذا ما وجدت فتيل تفجير فوري ، واذا ما كان ثمة وقت ، فانني سأضعها على خط السكة الحديد الأقرب إلى المدينة ما أمكن ؛ ولهذا السبب جزئياً ذهبت بنفسي إلى

هناك ، وكان الغرض الآخر تدمير محطة الحدية (وهي المحطة الوحيدة لتزويد المياه ، وتبعد مائتي كيلو متر إلى جنوب العلا) ، واذا ما أمكن أن ينجز ذلك بأية طريقة ، فإن فيصلاً سيقوم بأي شيء بوسعه القيام به» .

ورغم أنه لم يكن لدى لورنس خبرة الضابط في الميدان ، فقد أصبح حينذاك مهيئاً للقيام بدور نشط في العمليات الحربية ، وكانت الألغام التي اخترعها كارلاند من أجل تفجير القطارات لا تزال في مرحلة التجربة ، ولم يتدرب العرب على استخدامها . وفي هذا الوضع الطارىء غير المتوقع قد يصبح من الضروري بالنسبة له أن يتسلم قيادة وحدة عسكرية عربية ، فكتب في دفتر ملاحظاته يقول : «فوضني فيصل بأن أحضر قوة من عشائر الغجر إلى عبد الله أقودها بنفسي ، أو أرسلها شمالاً ، حسبما هو أفضل كما أعتقد» .

في العاشر من آذار توجه لورنس على رأس قوة صغيرة إلى وادي العيص . وكان السير الطويل في الأراضي الداخلية وصولاً إلى معسكر الشريف عبد الله أمر غير مستحب بشكل خاص ، فقد كان مصاباً بألم شديد في ظهره ، نتيجة الحمية غير المألوفة والأوضاع المعيشية الصارمة والمتقشفة لذلك لم يمض وقت طويل حتى أصيب بالدوزنتاريا ، وبدأ يعاني من الحمى العالية . لذلك فان بعض الملاحظات التي كتبها في هذه الرحلة بالكاد تكون مفهومة .

في الليلة الثانية ، وبينما كان معسكراً في وادي قيطان ، وجد نفسه في مأزق غير سار تماماً لم يواجهها خلال الحرب برمتها . وجرى تجميع القوة الصغيرة التي رافقته على عجل ، وقد احتوت على مجموعة متنوعة من مناطق مختلفة ، لذلك كان من المتوقع حدوث نزاع بين أفرادها ، ونتيجة لشجار حدث قتل فرد مغربي أحد افرار قبيلة عقيل . وأدرك لورنس أنه يجب أن تتحقق العدالة سريعاً قبل أن يفلت الزمام من يديه . ووصف شعوره في «أعمدة الحكمة السبعة» تجاه ذلك بقوله : «أنشأ الرعب فجأة مما جعل رجل متحضر يصبح قاسياً جداً من أجل حسم الأمور . فقد كان يوجد مغاربة آخرون في جيشنا ؛ واذا ما قتل أحد منهم من قبل رجال قبيلة عقيل ، فستحدث سلسلة من الانتقامات ، مما سيعرض وحدتنا العسكرية للخطر أذن لابد من حكم إعدام رسمي ، وأخيراً ، وبشكل يائس ، أبلغت حامداً بأنه يجب أن يموت عقاباً له ، وحملت هذا العبء

على عاتقي ، عبء تنفيذ حكم الإعدام ، إذ ربما سيعدونني خارجاً عن نطاق الضغائن والنزاع . ولا يمكن أن يقع انتقام ضد أتباعي ؛ ذلك فإنني كنت غريباً هناك ولا يوجد لي أقارب» . لقد روع لورنس من تلك المهمة الرهيبة ، بيد أنه لم يكن لديه خيار آخر وأصبح آنذاك محموماً تماماً ، ويداه غير ثابتتين بحيث تطلب منه إطلاق ثلاث رصاصات لتنفيذ حكم الإعدام . وظلت ذكرى هذه الحادثة تؤرقه طوال حياته في ما بعد . فلو أن هذه الحادثة وقعت فيما بعد ، عندما أصبح متمرساً في القتال ، لكان الأمر أسهل عليه ؛ إلا أن هذا كان أول شخص قتله بين صفوف الثورة .

وصل لورنس إلى معسكر الشريف عبد الله بعد أربعة ايام وقام بتسليمه رسالة من شقيقه فيصل . وبعد القيام بشرح الخطط من أجل عمل مستعجل ضد السكة الحديد ، وانهارت قواه تماماً . فقد تبعت الدوزنتاريا أعراض ملاريا ثقيلة الوطأة ، لذلك فستكون ثمة بضعة أيام قبل أن يتعافى تماماً ويمارس نشاطه من جديد . وخلال هذه الفترة من العزلة المكرهة اتسع نطاق تفكيره في ما يتعلق بالانشغالات اليومية ، وبدأ يرى الثورة العربية من منظار أوسع .

كان ثمة تغير أساسي منذ أن فكر لورنس آخر مرة بعمق في مسألة اتخاذ استراتيجية عسكرية عربية في الحجاز فحتى ذلك الوقت ، ركزت كل خطة طويلة الأمد على الحاجة إلى إخراج القوات التركية من المدينة (المنورة) . ورغم ذلك عندما أصبح هذا الهدف في المتناول أصبح موراي ضده ، اذ صار الهدف الآن هو الإبقاء على أكبر عدد من القوات التركية بعيدة عن جبهة فلسطين . وعندما تأمل لورنس في ذلك ملياً بدأ يرى مضامين أوسع ، فلماذا يجب على القوات العربية ان تستولي على المدينة في أية حال؟ إذ أن الحامية التركية هناك لم تعد تشكل أي تهديد لبقية أراضي الحجاز ، ومادامت باقية كما هي ، فانها لا يمكن ان تستخدم ضد القوات البريطانية في سيناء . وكان على الأتراك أيضاً حماية الخط الحديدي الحجازي ، وهذا سيعني تسيير دوريات مستمرة لحماية الخط من الهجمات العربية . فمسافة خمسمائة ميل من الخط على امتداد جنوب معان وفي الصحراء ، كانت تحت رحمة غارات المجموعات العربية كيفما شاءت . وكلما ازدادت الغارات والهجمات على الخط ، كانت ثمة حاجة الى المزيد من الجنود للدفاع عن الخط ، فتعبئة المزيد من الرجال والسلاح ستكون عائقاً إيجابياً أمام الأتراك . لذلك فسيكون من

مصلحة بريطانيا الإبقاء على حامية فخري باشا في المدينة : ليس في هذا الوقت فحسب ، بل طوال فترة الحرب أيضاً .

لخص لورنس هذه النتيجة في «أعمدة الحكمة السبعة» بقوله : «لا ينبغي علينا الاستيلاء على المدينة . فالأتراك هناك كانوا معافين في عددهم وعتادهم . ولو اننا قمنا بأسرهم ووضعهم في السجون في مصر ، فإنهم سيكلفوننا كثيراً من الطعام والحراس . لذلك اردناهم أن يبقوا في المدينة ، وفي كل مكان بعيد ، وبأعداد اكبر . وكان هدفنا الإبقاء على خط السكة الحديد عاملا لا أكثر ... ان عامل الغذاء سيقيدهم ويربطهم بالخطوط الحديدية ، بل انهم كانوا مدعوين ومرحباً بهم في الخط الحجازي ، وخط شرق الأردن ، وخطوط سوريا وفلسطين خلال مدة الحرب ، مادام ذلك يمنحنا التسعمائة وتسعة وتسعين ألفاً الآخرين في العالم العربي» .

إن مثل هذه التكتيكات ستساعد أيضاً في تقليل الخسائر العربية ؛ فقد لاحظ المستشارون البريطانيون في الحجاز كم كانت المعنويات العربية تعاني من جراء الإصابات الجسيمة ، عندما تحدث ، لذلك فقد نصحوا بأن يستخدموا طريقة حرب العصابات (الكر والفر) بدلاً من القيام بالاشتباكات التقليدية . وأصبح لورنس يعتقد آنذاك ، «انه لاكتساب الوقت ، فإن الغارات العربية الفدائية يمكنها فعلياً أن تكسب الحرب .فتدمير جسر تركي ، أو مدفع رشاش ، أو القيام بتفجير كبير ، كان يشكل فائدة أكبر بالنسبة لنا من قتل جندي تركي . فمعظم الحروب كانت حروب احتكاك ، فكلا الجيشين ينخرط في القتال مباشرة لتجنب مفاجئة تكتيكية . أما حربنا فيجب أن تكون منفردة . وكان علينا احتواء العدو بصمت في الصحراء المجهولة الواسعة ، ولا نكشف انفسنا إلى أن نهاجم . ويمكن أن يكون الهجوم اسمياً ، وليس موجهاً ضد الأتراك بل ضد تمويناتهم وامداداتهم ؛ لذلك فانه سيستهدف إما قوتهم أو ضعفهم ، بل معظم مواردهم التي يمكن الوصول إليها» .

ووفقاً لهذه الاستراتيجية ، يجب أن تمتد الثورة الى أوسع ما يمكن : فلم يكن هناك أي داع لتأجيل الحملة العسكرية على سورية لحين سقوط المدينة وفي الحقيقة ، إذا ما كانت حملة الحجاز طويلة إلى حد غير معروف ، فسيكون العمل المتزامن في الشمال أساسياً . وبخلاف ذلك ، فمن الممكن أن لا تكون ثمة فرصة للعرب للاستيلاء على

دمشق قبل نهاية الحرب . وسيلائم تغير السياسة البريطانية على هذه الخطوط نفاد صبر فيصل المتزايد للقيام بعمل في الشمال ، فلابد من التخطيط للثورة في سوريا .

ولن يكون لورنس قادراً على البدء بالعمل وفق هذه الاستراتيجية الجديدة إلى أن يعود إلى الساحل . أما بالنسبة للوقت الراهن ، فقد كانت أولويته هي النظر في اتخاذ عمل ملائم لمنع الأتراك من مغادرة المدينة . وفي ٢٢ آذار أصبح قادراً على الكتابة للوجه ليقول : «بما أن المرض قد منعه من مهاجمة الخط الحديدي ، فقد كان الشيء الأكثر أهمية هو أنه قد جرى القيام بعمل ما جيد في العلا ، ومن دون التصعيد المتواصل فقد يفقد فيصل اهتمامه بالخط الحديدي ، وفي الحقيقة ، فإن هذا القائد العربي لا يمكن أن يغفر إمكانية خروج الأتراك من المدينة ،لذلك فقد بعث لورنس برسالة مستعجلة إلى الضابط البريطاني الموجود في الوجه آنذاك يقول فيها : «أرجوك أن تلتمسه بأن لا يبقى في الوجه مالم تكون ثمة ضرورة قصوى إذ ان قربة من الخط الحديدي سيكون ذا تأثير فعال على كل من العرب والأتراك على حد سواء : واذا ما خلف أحماله الثقيلة وراءه في الوجه ، فسيكون بمقدوره الرجوع بسرعة إذا ما دعت الضرورة ، ولديه طائرات حالياً لذلك فالدفاع عن الوجه سهل جداً . وأيضاً اذا ما اندفع الأتراك غرباً من العلا ، فسألتمس من سيدي عبد الله بأن يزحف إلى أعلى الخط باتجاه العلا - إذ أن ذلك سيجعل الأتراك يتراجعون . وفي الحقيقة ، فإن لدي أمل قوي جداً بأن أجده في وادي «جيداح» أو «عين شفا» (في الاتجاه الغربي من الخط) قريباً» .

فيما يتعلق بخططه الخاصة كتب لورنس في دفتر ملاحظاته في ٢٢ آذار يقول «آمل بأن أذهب إلى أسفل صوب الخط الحديدي غداً من أجل القيام باستطلاع تمهيدي له ، وسيكون بمقدوري أن أقرر ما يمكن عمله في هذا الصدد فيما بعد : ولكن بأية حال من الأحوال فسأبقى لفترة قصيرة هنا ، إذ انه من المهم جداً أن لا يكون الأتراك قادرين على إرسال قوات أكثر من حاميتهم في المدينة الى العلا (ضد فيصل) ، واخشى إذا ما بقيت هنا أن لا يحدث الكثير من العمل» .

ومما لاحظه لورنس في معسكر الأمير عبد الله بوادي العيص ، انه كان ثمة رجلان من رجال عبد الله متحمسين جداً ، هما دخيل الله الغدير والشريف شاكر ، لتدمير الخط الحديدي ، فهما اللذين قاما بتدمير الجسر الواقع على وادي حمده بالقرب من أبي

النعام . إلا أن لورنس شعر بأنه من الصعب القيام بعملية عسكرية ضد حامية المدينة التركية . وقد قوى هذا الاستنتاج فحسب من استراتيجية لورنس الجديدة بترك الأمر للزمن لمغادرة الأتراك للمدينة .

ورغم أن تقرير لورنس للكولونيل ويلسون تضمن نقداً شديداً للوضع العسكري هناك فإنه أكد أيضاً وركز على موهبة الأمير عبد الله وبراعته ، وهو يقول في هذا الصدد : « . . . لقد عاملني سيدي عبد الله كمعاملة أمير . . . فقد جئت مباشرة من مقر قيادة فيصل ، حيث يكون المرء في جو متواصل من الجهد والتفكير تجاه مجريات الحرب ، وعلى العكس من ذلك ، فقد كان المرح والسرور يعمان بين حاشية عبد الله ليضفيا على النفس سروراً أكبر . ورغم ذلك فعلى المرء ان يتذكر أن عبد الله كان قائداً لثورة الحجاز ، ولا يمكن أن يكون إخلاصه وجديته في هذا الصدد موضع شك» .

في نهاية شهر آذار أصبح لورنس متعافياً تماماً من المرض الذي ألمّ به ، واشترك لأول مرة في حملة من حملتين وجهتا ضد الخط الحديدي وجرى الاستغناء عن مهاجمة محطة الحدية (التي كانت تزود الأتراك بالماء) ، وذلك بسبب مناعتها وقوتها ، واستعيض عن ذلك بالاغارة على محطة أبي النعام . ولكن بعد القيام بمراقبة الحامية التركية هناك ليوم ونصف ، تحقق لورنس من أنه حتى تلك لم يكن بالإمكان مهاجمتها والاستيلاء عليها ، ولذلك فقد جرى اعتماد خطة مختلفة فتحت غطاء الظلام . قام لورانس بوضع شحنة من الغام جارلاند وجرى قطع أسلاك التلغراف . وفي الصباح الباكر من اليوم التالي ، وبينما كان ثمة قطار تركي متواجد في المحطة ، قامت مجموعة من القوات العربية بمهاجمته بوساطة مدفع جبلي ومدفع هاوتزر ، وأوقعت فيه بعض الخراب ، وتمكن العرب من أسر أربعة وعشرين جندياً تركياً ، بعد أن جرى الاستيلاء على جزء من المحطة . وكتب لورنس تقريراً يقول فيه : «اعتقد بأن هذا الهجوم - كتجربة- يبرر نفسه . إذ أن تأثيره سيظهر بعد ثلاثة أيام ليدفع بالأتراك إلى إخلاء كل موقع خارجي والحصون (الحاميات) الصغيرة الموجودة على طول الخط الحديدي ، والتركيز على الحاميات العسكرية الموجودة في محطات السكة الحديد المختلفة ، مما سيسهل عمل مجموعات التفجير» .

قام دخيل الله الغدير بتولي قيادة المجموعة في الإغارة الثانية على الخط فجرى تفجير

عدة نقاط من الخط ، وقام لورنس بوضع الشحنة الثانية من ألغام جارلاند . غير أنه وضع (دفن) بطريق الخطأ جهاز التفجير أعمق بمسافة انش في الأرض ، فمر عليه قطار من دون أن ينفجر . ولكن بعد حلول الظلام ، أعاد وضع الشحنة الناسفة ثانية ، فأصابت قطار تصليح تركي . ويقول لورنس حول ذلك : «إنه عمل شاق ومتعب في وضع لغم من الغام جارلاند ، إذ إنه يجب القيام بملاحظة دقيقة من على بعد مائة ياردة لأسلاك الشحنات التي تكون موصلة بمفتاح التفجير» . ورغم أنه فشل في تدمير القاطرة الأمامية للقطار ، فإن الشحنتين المتفجرتين أحدثتا أضراراً بالغة في القطار ، وأصبح لورنس قادراً على أن يظهر للقوة العربية نوعية العملية التي يمكن أن تسبب أضراراً بالغة بالقطارات التركية كما انه رتب مع كل من الشريف شاكر ودخيل الله بأنه يجب مهاجمة الخط الحديدي باستمرار ، مما يتسبب في عزل المواصلات عن القوات التركية : ويقول لورنس في هذا الشأن : «يجب أن تؤمر المجموعات العاملة ضد الخط الحديدي بنسف أكثر من خمسة قضبان من السكة في كل ليلة في الأقل ، وبذلك تحدث هناك سلسلة من التدميرات لقضبان السكة الحديد في كل ليلة مما يجعلها فعالة في الإبقاء على الخط معطلاً . فأحداث تدميرات كبيرة في الخط تجعل من الصعب إصلاحه بسهولة ، أما تدمير قنوات أسلاك البرق والهاتف والتلغراف والكهرباء فهو مضيعة للوقت والمتفجرات» .

عندما عاد لورنس إلى وادي العيص من حملته الثانية وجد بانتظاره رسالة مستعجلة مكتوبة بخط الشريف فيصل ، فقرر العودة الى الساحل بأسرع وقت ممكن .

كانت لدى الشريف فيصل أسباب مقنعة ليكون لورنس متواجداً في الوجه ، فخلال الأسابيع الماضية الثلاثة واجه صعوبات متزايدة في عدة مجالات فكما خشي لورانس ، فإن اهتمامه تحول مرة ثانية إلى الشمال ، ولم يظهر سوى القليل من الاهتمام في العمل ضد خط السكة الحديد سرعان ما وضعه هذا في نزاع مع وصول ضابط جديد حينذاك ، وهو الميجور جويس .

فقد وصل جويس إلى الوجه في ١٧ آذار ، وكان يقوم بعمل كبير الضباط البريطانيين ، ومسؤولاً عن العربات المدرعة وطائرات سلاح الجو التي نقلت من رابغ قبل وقت قصير ، حيث كان مقره هناك خلال الأشهر الأربعة الماضية .

كان جويس منزعجاً عند اكتشافه كم من الوقت قد ضاع في استقبال الوفود القبلية ، وعدم التحرك على مسرح العمليات الحربية ، ورغم الجهود التي بذلها من أجل تركيز الانتباه على منطقة العلا ، فإن جيش فيصل لم يتحرك الى الداخل إلا في نهاية شهر آذار ، فبالنسبة لفيصل نفسه ، كما أفاد جويس ، كان «يعبر على أن وجوده في الوجه أساسي جداً في الوقت الراهن لمقابلة الوفود القادمة من القبائل الشمالية والشرقية والتي تفد في كل يوم . وهو يَعُّد من المهم جداً ان يتواجد هنا (في الوجه) ليستقبلهم» ، فقد كان جويس يأمل بشكل واضح الحد من هذه الأنشطة وأشار إلى ذلك قائلاً : «إن جميع محاولات الشريف فيصل ، فيما عدا الاستيلاء الفعلي على جزء من الخط الحديدي ، تتركز حالياً على الشمال ، مع فكرة الحصول على ولاء القبائل في هذه المنطقة ليجري التعاون معها ، والقيام بهجوم عام على الخط الحديدي مابين درعا وتبوك . وربما تذهب طموحاته إلى أبعد من هذا حتى تستهدف الخط برمته الواقع جنوب دمشق .

وأشعر بالتأكيد بانه سيكون من الأجدى اذا أمكن تحديد العمليات في منطقة الحجاز بأسرع ما يمكن . فكلما امتد الأمر إلى الشمال أكثر تطلب ذلك المزيد من المال والسلاح . . . ولكي يجري تلافي الإخفاق وخيبة الأمل المحتملة فيما بعد ، فأنني أؤكد على ضرورة تحديد الهدف المنشود . ولقد حاولت إقناع فيصل على التركيز على أهداف محلية وعمليات عسكرية أخرى ، بيد أنه قام بتطوير أفكار واسعة لديه تقريباً ، وأشعر بالتأكيد بأنهم بصدد إعداد خطة شاملة» .

إن من إحد الأسباب لقلق فيصل حول الشمال كان يزداد مع ازدياد الأنشطة الفرنسية في هذا الصدد ، فحاشية فيصل من السوريين كانت على قلق متزايد بسبب الشائعات التي كانت تسري حول نية فرنسا لغزو سوريا والسيطرة عليها (فمثل هذه الأفكار تراءت لفيصل من دون شك عندما عرض بريموند إرسال قوات فرنسية إلى العقبة) . فبدا من الواضح أنذاك القيام باستعدادات محددة ، وفي الحقيقة كانت السلطات في باريس تدرس بجدية مثل هذا المشروع إذ جرى تحويل ضابط فرنسي للقيام بدراسة إمكانية القيام بإنزال قوات فرنسية على الساحل السوري ، وإجراء مقابلات مع ممثلين عرب في الاسكندرية ، والقاهرة وبورسعيد . وقد رغب في تخمين رد الفعل العربي

جراء ذلك ، ولابد أن حافز أسئلته كان واضحاً إضافة إلى ذلك فقد كانت توجد خطط ثابتة لإرسال فوج من القوات الفرنسية للانضمام إلى القوات البريطانية في فلسطين . وسيكون دورها تأكيد تلون (تنوع) القوات خلال أي تقدم عبر فلسطين ، وكان مقرراً أن تصل أول وحدة من هذه القوات الفرنسية إلى مصر عما قريب . ومن دون شك فقد سمع فيصل بأخبار هذه المبادرات الجديدة ربما من بعض الاتصالات العربية في القاهرة ، إلا أن الأمر الأكثر احتمالاً أنه سمع ذلك من المدربين الفرنسيين في الوجه .

ازداد القلق العربي عندما ظهر بريموند لفترة قصيرة في الوجه في الأول من نيسان . وكان من الممكن تقييم تلك الزيارة من خلال تقرير صدر من الوجه وكتب بعد بضعة أيام . إذ افاد بأنه تناهى أسماع فيصل إشاعات بأن الفرنسيين كانوا على وشك انزال ستين الفاً من قواتهم على السواحل السورية . وخشي فيصل أنه إذا ما كانت هذه الأخبار صحيحة فإن إنجلترا ستوقف تزويده بالسلاح والعتاد ، وان الفرنسيين سيستولون على سوريا من دون مساعدة العرب . وقد عبر عن خشية كاملة من مثل هذا الاحتمال ، وذهب إلى أبعد من ذلك ليقول إنه اذا ما حدث ذلك فانه سيكون عليه محاربة الأتراك أولاً ، ومن ثم الفرنسيين فيما بعد .

ولابد أن فيصلاً قد خشي من أن العرب سيخسرون سوريا جميعاً مالم يتحركوا بسرعة لتأمين المدن الشمالية . وحسب هذا التقرير ، فقد أُبلغ آنذاك شيوخ القبائل الشمالية ، الذين أمل منهم بأن يزحفوا شمالاً في غضون شهرين ، وانه ينبغي عليهم جميعاً بأن يكونوا مستعدين لتصعيد هجومهم على الأتراك في الموعد الذي ستقرر فيما بعد . وأن كل ما عليهم القيام به حالياً هو إعداد رجالهم والانتظار ، وفي غضون ذلك فان الشريف فيصل سيعمل على تأمين السلاح الضروري وسيرتب الأمور مع الدروز ، ومع العرب المتواجدين بالقرب من حلب ، في حماة وحمص .

كان لا يزال ثمة عامل آخر تطلب استدعاء فيصل للورنس ، ففي ٢٣ آذار علم الشريف بأن عودة أبو تايه سيصل إلى الوجه قريباً ، فقد كان شيخ قبيلة الحويطات ، وهو الذي سيكون له الرأي في خطة لورنس للاستيلاء على العقبة ، فيما إذا كانت ملائمة أم لا ، والذي سيكون تعاونه أساسياً إذا ما وضعت الخطة موضع التنفيذ .

كما أن لورنس يصل إلى الوجه سيجد أيضاً رداً من كلايتون على الرسالة حول طموحات فيصل في العقبة ، والتي أرسلت من قبل فايكري قبل خمسة أسابيع مضت . وكانت الملاحظة المرسلة إلى لورنس تقول : «إشارة إلى الرسالة المرفقة من الميجور فايكري ، فقد تغير الوضع بعض الشيء منذ أن كتبت ، وأن التحرك إلى العقبة من جانب فيصل ليس مرغوباً فيه في الوقت الراهن . وانه من الضروري أن يركز جهوده على العمليات الفورية ضد الخط الحديدي ، فالتحرك صوب العقبة كما اقترح ، يمكن أن يحوله عن هدفه هذا . . . كما أن الطائرات البحرية وسفن النقل التي طلبها ليست متوفرة حالياً ، لذلك ففي أية حال من الأحوال لا يمكن تنفيذ العملية في الوقت الراهن .

إنني اقدر مقترحات الميجور فايكري من أجل الاستيلاء على العقبة ، ولكن من جهة أخرى ، فإن مقترحاته لفيصل ، والتي تشير إلى صعوبة الاحتفاظ بالعقبة ضد هجوم معادٍ تُعَّد مقنعة في الوقت ذاته .

ومن المشكوك فيه في ما اذا كان ، في الظروف الراهنة ، وجود قوة عربية في العقبة أمر مرغوب فيه ، إلى ان تجّري تسوية الأمور بين القبائل ويصبح الوقت ملائماً» .

ولم يكن من الحكمة ، وفي الأقل تشجيع فيصل على التفكير بالاستيلاء على العقبة من دون تعليمات جديدة من القاهرة . اما نيوكمب ، الذي عرف كلايتون منذ عدة سنوات فقد كان بوسعه التخمين بوجود رفض مبطن في طيات هذه الرسالة . والحقيقة أن كلايتون ، مثله مثل العديد من المعنيين بمستقبل الدفاع عن مصر أراد أن يرى العقبة بأيدي البريطانيين ، وليس بأيدي العرب .

الفصل العاشر

تحـول مفيـد

(من نيسان - تموز ١٩١٧)

لابد أن الشريف فيصل كان مسروراً بحماسة لورنس المفاجئة للقيام بعمل عسكري في سوريا ، الأمر الذي يتفق تماماً مع إحساسه الخاص في هذا الصدد . ولم يعد لورنس يصر على تنفيذ خطة العلا لأنه أصبح لا يرى أن ثمة حاجة للاستيلاء على المدينة ، أو حتى تدمير السكة الحديد قبل عملية امتداد الثورة .

أما الضباط البريطانيون الآخرون في الوجه فقد كانوا أقل استعداداً لتقبل هذه الأفكار الجديدة . وربما أن نيوكمب كان خارجاً ، فقد عرض لورنس الأمر على جويس وبراي . وكان كلا الرجلين متأكداً من أنه إذا ما استولى العرب على العلا ومدائن صالح ، فلابد أن تسقط المدينة ومن وجهة نظر التفكير العسكري الأوروبي ، فقد بدا الوضع العسكري العربي قوياً جداً بحيث أن سقوط حامية فخري باشا (في المدينة) كانت مسألة وقت ليس إلاّ . وكل ما تبقى كان القيام بوضع تفاصيل نهائية ما بين القوات العربية المختلفة .

في مثل هذا الجو الطافح بالآمال ورفضت أفكار لورنس الجديدة فقد تقرر الهجوم على العلا في منتصف شهر آيار ، ولم يكن لدى جويس وبراي وقتاً للتفكير بشكل عميق حول إمكانية الاستفادة من هذه الاستراتيجية وعلى أية حال ، فإن السياسة البريطانية لمثل هذه المسائل كانت تتقرر في القاهرة آنذاك ، لذلك فلن يكون ثمة تغير راديكالي بالطبع من دون موافقة كلايتون ووينجيت ، اللذين يبعدان مسافة اربعمائة ميل عن مسرح العمليات .

وكان يوجد رغم ذلك ، اتفاق محدد عندما اقترح (لورنس) بأن يرسل أحد إلى الشمال لتعبئة قوة قبيلة ومهاجمة خط السكة الحديد بالقرب من معان ، فالقيام بمثل هذه الإغارات ، إذا ما كانت ناجحة سيعيق أي تحرك لمرور تعزيزات من معان إلى العلا وقد كتب لورنس في «أعمدة الحكمة السبعة» يقول : «فلا تفكيري العام . . . ولا معارضاتي

الخاصة كانت مجدية كثيراً . . . وكل ماجنيته كان سماع ، وقبول مستحسن . . بأنه من الممكن أن يكون هجومي تحولاً مفيداً» .

وبشكل خاص أصبح لورنس مقتنعاً آنذاك بأن هدفه الفوري لابد أن يكون طريق تموين العقبة - معان الذي يمكن أن يفتح الباب أمام عمليات أوسع في الشمال . وعندما تواجد شيخ قبيلة الحويطات عودة أبو تايه في الوجه آنذاك ، أضحى من الممكن أخيراً القيام بوضع خطة للزحف على العقبة براً .

وسرعان ما رأى لورنس أن عودة أبو تايه كان بارزاً كسمعته ، ويتمتع بشخصية قبلية قوية ، وبمعرفة محلية تمكنه من تنفيذ خطة الاستيلاء على العقبة . ويستند وصفه المفعم بالحيوية في كتاب أعمدة الحكمة السبعة إلى تقارير لورنس آنذاك بشكل وثيق ، حيث يصف عودة أبو تايه بقوله : «لابد أنه في الخمسين من عمره الآن ، ويتخلل شعر لحيته الشيب ، إلا انه كان لا يزال مستقيم القامة ، قوي البنية ، ونشيطاً كشاب يافع . ملامحه وتقاطيع وجهه بدوية خالصة : ذو جبهة واسعة منخفضة ، وانف حاد معقوف ، وعينان عسليتان ، وفم كبير . . . ولحية وشارب بارزان ، مع فك (ذقن) منخفض محلوق على نمط الحويطات . ويفتخر الحويطات بكونهم من البدو ، ويعد عودة جوهر قبيلة أبو تايه فضيافته زاخرة ، وكرمة أفضى به إلى الفقر لديه سجل حافل بمئات الغارات الناجحة ، تزوج ثمان وعشرين مرة ، وجرح ثلاث عشرة مرة ، وفي المعارك التي خاضها جرح جميع رجال قبيلته ، وقتل منها معظم أقاربه ، قتل نحو خمسة وسبعين رجلاً في نزاعات قبلية ، وعدداً لا يحصى من الأتراك ، منذ عام ١٩٠٠ ، وبعد معالجته لرجال طويحه أصبحوا أكبر قوة مقاتلة في الصحراء العربية الغربية . . .

بالنسبة لطريقته في الحياة ، فان عودة يُعَد متصلباً في رأيه ، وذا مزاج حاد وهو يتمتع بصبر طويل ، ويتقبل النقد النصائح (ويتجاهلها) ، أو أنه يسخر منها بابتسامة دائمة مشرقة تماماً . ولا شيء على الأرض يجعله يغير رأيه أو يطيع أمراً أو يتبع نهجاً لا يقره أو يأخذ به» ، وعندما شُرحت له خطة الاستيلاء على العقبة ، أعلن عودة أنها كانت ملائمة ، وبدأ بمناقشتها مع لورنس خلال الأسبوع الثالث من نيسان ، ووضع خطط مفصلة لها .

لَمح لورنس حول طبيعة هذه الخطة لزملائه البريطانيين فقط ، وأبقى أمر العملية سراً

في التقارير التي كان يرسلها إلى القاهرة، وكان ذلك بسبب رسالة كلايتون عن العقبة، والتي عَدَّها آنذاك لأول مرة معارضة لهجوم عربي على البلدة. ولابد أن الرجلين (عودة ولورنس) بحثا خلال الأشهر الماضية مسألة العقبة في عدة مناسبات، وأنها بالتأكيد الاعتبارات الاستراتيجية التي بنى عليها كلايتون موقفه ذاك وقد توضحت لهما من دون لبس من خلال المذكرة الداخلية التي كتبها كلايتون في ذلك الوقت تقريباً ومفاداها أن «الاستيلاء على العقبة بوساطة قوات عربية قد ينجم عنه مطالبة العرب بهذه المنطقة فيما بعد، ومن المحتمل أن تعتبر العقبة بعد الحرب منطقة مهمة للدفاع المستقبلي عن مصر من دون شك. ولهذا فمن الضروري أن تبقى العقبة بأيدي البريطانيين بعد الحرب».

لابد أن لورنس قد ساوره الشك في أنه إذا ما أبلغ القاهرة بخطته، فانه سيتلقى أمراً بالغائها حتماً إذ من أجل إفشالها، فستكون ثمة مداولة وبحث مطول لها، وقد تجري استشارة الفرنسيين بهذا الشأن، ولم يكن لديه أدنى شك حول رد فعلهم: فاذا ما لمس بريموند أي تحرك عربي صوب العقبة، فانه سيحث الحكومة الفرنسية على استخدام كل قناة تأثير ممكنة لإعاقته. وفي هذه الحال من المحتم أن يفشى سر العملية، فيتخذ الأتراك الحيطة، ويصبح من المستحيل الزحف على العقبة من البر، سواءً الآن أو في المستقبل.

وصل لورنس آنذاك إلى نقطة اللاعودة. فكتب في «أعمدة الحكمة» يقول: «لقد قررت أن أمضي بطريقي، مع أو من دون الآخرين»، فبعد أن قرأ رسالة كلايتون لم يكن بوسعه تشجيع فيصل على الاستيلاء على العقبة من دون العمل ضد الأوامر المباشرة لضباط أعلى رتبة منه. ورغم ذلك فقد كان متأكداً من أن الاستيلاء على العقبة كان من مصلحة العرب والبريطانيين على حد سواء. فكل شيء سيفقد في سوريا بالنسبة للعرب ما لم يباشر فيصل القيام بحملة عسكرية شمالاً خارج منطقة الحجاز، وبخلاف ذلك اذا لم تصل الثورة العربية إلى سوريا، فإن الجيش البريطاني سيحارب ويشق طريقه شمالاً من دون الاستفادة من مساعدة العرب، لذلك فلن يكون لورنس سهلاً إذ تكونت لديه فكرة وافية لمجال التعاون المستقبلي بين موراي وفيصل. فإذا ما نجح العرب في تنفيذ حملة كبيرة كحملة العقبة، فإن موراي سيدرك كم سيكونون قيمين.

باختصار، شعر لورنس بأنه يمكنه أن يرى تبريراً لعمله المفترض بصورة أفضل من

أولئك الضباط البريطانيين المتواجدين في القاهرة ، فرسالة كلايتون حول العقبة كان قد مضى عليها خمسة أسابيع ، ويمكن أن تفسر على أن المعارضات الفعلية هناك لم تكن تنطبق على الخطط الحربية الداخلية .وحالما يستولي فيصل على العقبة ستكون الفوائد العسكرية ذات اعتبارات عالية في ما يتعلق بمستقبل الدفاع عن مصر ، إضافة إلى ذلك ستكون العقبة حيوية لتقدم فيصل العسكري ؛ فمن دون ذلك تقيد الثورة العربية وتقتصر على الحجاز خلال مدة الحرب ، وتوصل لورنس إلى استنتاج بأنه يجب أن يستولي عليها بأسرع وقت ممكن ، ومن دون سابق إنذار ، أو مساعدة بريطانية .

كان لورنس أن يتصور بأن الهجوم على العقبة سيتبعه تقدم عربي عام على خط السكة الحديد باتجاه معان ، فالآن ، يجب أن يجري الاستيلاء عليها بعملية منفصلة ، قبل وقت طويل من تحرك قوة فيصل الرئيسة باتجاه الشمال ، لذلك فستكون مغامرة صعبة جداً وأكثر خطورة ، وعمل هو (لورنس) وعودة أبو تايه معاً لوضع خطة للتوجه إلى الشمال الشرقي مع مجموعة مقاتلة صغيرة ، للانضمام إلى الحويطات في مراعيهم الربيعية بالقرب من معان . إذ سيجري تكوين قوة قبلية جديدة هناك ، تحدث أولاً صاخباً حول معان نفسها ، ومن ثم تجري السيطرة على الطريق الموصل إلى العقبة ووصف لورنس في كتابة أعمدة الحكمة السبعة هذه الرحلة بأنها «مثال متطرف لتحول أساسي ،حيث أنه تضمن القيام برحلة صحراوية لمسافة ستمائة ميل للاستيلاء على خندق يقع ضمن سفننا : إلا انه لم يكن ثمة بديل عملي آخر . . . فقد ظن عودة أبو تايه بأن الأمور كافة ممكنة مع وجود المال والديناميت ، وأن القبائل الأصغر حجماً المنتشرة حول العقبة ستنضم إلينا كما أن فيصلاً الذي كان على اتصال معهم آنذاك واعتقد أيضاً بأنهم سيقدمون المساعدة إذا ما حققنا نجاحاً أولياً في منطقة معان ومن تحركنا بقواتنا للعمل ضد ميناء العقبة» .

وبينما كانت هذه المداولات والمشاورات جارية ، حصل لورنس بالصدفة على معلومات استخبارية قيمة بشأن وضع الدفاعات التركية في وادي العتم . وفي العشرين من نيسان أنزل الأسطول البريطاني مجموعة قتالية على ساحل العقبة ، لكي تتحقق من الشائعات التي كانت تقول بأن ضابطاً ألمانياً قد وصل إلى هناك وانه يقوم بزرع حقول

ألغام على الشاطىء ، وقامت المجموعة البريطانية باحتلال الدفاعات المحلية وأسرت أحد عشر جندياً تركياً .

أحضر الكابتن بويل الأسرى الأتراك إلى الوجه ، فأصبح بمقدور لورنس استجوابهم فأدلوا بمعلومات دقيقة عن وضع القوات التركية وقوتها في المنطقة هناك وقد تبين بأن الحامية التركية في العقبة كانت تحتوي على ما مجموعه (٣٣٠) جندياً فقط ، جميعهم من قوات الدرك ، وكان معظمهم من العرب والشيء الأفضل من ذلك ، أن المواقع التركية على طول الطريق الواصل إلى معان كانت قليلة القوات فأكدت هذه المعلومات آمال لورنس ؛ فما دام الأتراك لا يمكنهم إرسال تعزيزات عسكرية ، فإن الدفاعات عن العقبة ووادي العتم ضد أي هجوم من الداخل كانت ضعيفة ومهلهلة .

كانت تلك أخباراً ممتازة ، وشعر لورنس بأنه يجب تشكيل حملة عسكرية بأسرع وقت ممكن . وقد توصل آنذاك الى أن وجوده سيكون لاغنى عنه ، اذ انها كانت أضمن طريقة كي تحقق المجموعة العسكرية هدفها رغم أن العقبة ذاتها والطريق الجرداء الموصل اليها لم يكونا ليشكلا اغراءً للبدو في كسب الغنائم ورغم ذلك ، فقد كانت هناك أهداف أغنى تتواجد حول معان ، بحيث من الممكن ان تغري رجال القبائل .

ومن جانبه ، لم يكن بوسع لورنس ضمان تشكيل الحملة العسكرية . كما انه لم يكن بوسعه الكشف للحويطات السبب الكامل وراء خطة الاستيلاء على العقبة فقد يختار عودة تجاهله . ورغم ذلك تلاشت هذه المشكلة عندما عين فيصل الشريف ناصر قائداً للحملة . فقد كان الشريف ناصر يتمتع باحترام واسع النطاق ، واكتسب مكاناً بارزاً وموثوقاً بين قادة الجيش العربي .

كما أنه كان على إدراك كامل بالوضع الخاص للورنس لدى الأمير فيصل ، وعرف كم كانت الثورة تعتمد على المساعدة البريطانية . لذلك فقد كان من غير المحتمل أن يتجاهل مشورة لورنس .

كان ثمة سبب آخر لدى لورنس لأن يرافق الحملة العسكرية . فاذا ما جرى الاستيلاء على العقبة ، فانه ستكون ثمة حاجة ماسة لتعزيزات وامدادات ومن الممكن إرسالها بوساطة السفن البريطانية . وبطريقة ما فانه يمكن أن تصل أخبار الحملة الناجحة

إلى مصر . واذا ما وصلت سفن الدورية الى العقبة في اللحظة المناسبة ، فقد يحدث شيء ما لجلب انتباهها ورغم ذلك يجب ان توجد بدائل متوفرة . وكانت العقبة تبعد عن الوجه مسافة عدة أيام ، وحتى بوساطة الطريق الأقصر ، فيبدو من المحتمل ان لورنس قد إدرك من البداية كم سيكون من الأسرع أن يسير مباشرة عبر سيناء إلى السويس واذا ما ذهب بنفسه فسيكون قادراً على أن يبين بالضبط ما كان مطلوباً ويستخدم نفوذه في أن يرسل ذلك بسرعة .

كان فيصل وحده ومعه بعض القادة فقط يعملون ما كان يُخطط له . وبما أن البريطانيين كانوا معنيين بالأمر ، فإن حملة لورنس الشمالية كانت مسألة عربية محض ، موجهة ضد معان بشكل رئيس . وجردت هذه الحملة لأن بضعة رجال قد سحبوا من مجموعة جويس العاملة ضد الخط الحديدي . وكتب لورنس في ما بعد يقول : «كانت المغامرة فريدة من نوعها ، فلم يكن لدي أوامر للقيام بذلك ، ولم آخذ معي أي عسكري بريطاني . وزودنا فيصل بالجمال ، والمؤن ، والمتفجرات» .

كان مثل عدم الاهتمام هذا بأنشطة لورنس ظاهراً بحيث أن زملاءه البريطانيين قد اخفقوا في فهم مضامين الخطة ، حتى عندما علموا بتفاصيلها الاساسية . وفي أواخر شهر نيسان ، اصطحب ويلسون فيصلاً للقاء عبد الله في «الفجير» .

وبقي لورنس ، إلا أن عودة أبو تايه ذهب إلى هناك ، وربما ليتحدث نيابة عن القبائل الشمالية في أي نقاش موسع يجرى . وخلال الرحلة إلى الفجير ، ركب ويلسون العربة المدرعة مع عودة ، الذي أطلعه بدوره على الخطة المتعلقة بالشمال ، فكان تقرير ويلسون التالي ، يتضمن بشكل رئيس العمليات المستقبلية ضد الخط الحديدي ، واحتوى على فقرات متفرقة تتعلق بالحملة العسكرية وهو أنه كان على عودة أبو تايه أن يذهب شمالاً و مصحوبا (من المحتمل) بلورنس ؛ وسيكون الهدف الأول نسف خط السكة الحديد حول معان ، ومن ثم يجري الاستيلاء عليه ؛ وإذا جرى ذلك بنجاح ، فيمكن للقوة أن تستولي على المواقع التركية كافة . حتى أعقبه . ولم يكن ويلسون ، ولا كلايتون عندما قرأ التقرير ، يبدوان أنهما أدركا ما كان عليه الهدف رغم أن جميع عناصر خطة الاستيلاء على العقبة موجودة هناك وقد افترضا من دون شك أنها مثل العديد من الخطط العربية الطموح لن تؤدي إلى شيء .

وبينما كان فيصل وعودة خارجين استقل لورنس عربة مدرعة وذهب إلى وادي حمدة ، ليقضي هناك عدة أيام في مشاهدة حطام طائرة بريطانية ، تحطمت أثناء هبوطها . ولم يعد من هناك حتى الثالث من آذار في الوقت الذي عادت فيه المجموعة من «الفجير» .

وعلم لورنس بدهشة أن السير مارك سايكس ، أحد قطبي اتفاق سايكس - بيكو قد قضى بضع ساعات هناك في اليوم السابق لعودتهم ، وتحدث مطولاً مع فيصل محاولاً الحصول على موافقة على الاقتراحات المختلفة المتعلقة بالاتفاق ، ولابد أن فيصلاً قد أدرك تماماً الاتفاق السري الإنجلو - فرنسي بشأن سوريا . بعد ذلك غادر سايكس إلى جدة ، حيث كان سيقابل هناك الشريف حسين .

ومن المحتمل أن لورنس عرف شيئاً ما عن خلفية هذه الزيارة ، فقبل خمسة أشهر أي في أواخر شهر كانون الأول ١٩١٦ ، اتفقت بريطانيا وفرنسا على أنه عندما تتقدم القوات البريطانية باتجاه فلسطين ، فسيعين ضابط سياسي فرنسي في هيئة أركان موراي . وهذا ما حدث بعد ذلك ، فعندما علمت الحكومة الفرنسية بالهجوم المخطط له على غزة ، قامت بتعيين فرانسوا جورج بيكو في هذا المنصب .

كان توقع التعامل مع جورج بيكو أمراً غير مرحب به من قبل أركان موراي ، وتقرر بناء على ذلك أن يجري تعيين ضابط سياسي بريطاني أيضاً بحيث سيكون قناة الاتصال الوحيدة فقط لجورج بيكو مع القيادة العامة ، وعين سايكس في المرحلة الأولى في هذا العمل الدقيق ، رغم انه كان يتأمل بأن يكون بالإمكان ايجاد بديل له في ما بعد .

ومما يدعو للسخرية أن سايكس وجورج بيكو عندما وصلا إلى مصر في ٢٢ نيسان كانت لا تزال القوات البريطانية تحاصر غزة ، مع عدم وجود توقع مباشر بالتقدم صوب فلسطين . ورغم ذلك ، وقبل مغادرته إنجلترا ، قام سايكس بترتيبات لمقابلة عدد من العرب السوريين (اختيروا بعناية) . وفي القاهرة ، بدأ هو وجورج بيكو سلسلة من المباحثات مع هؤلاء الممثلين ، كان هدفهم من ذلك ايصال العرب إلى نقطة يوافقون فيها على اتفاق إنجلو - فرنسي . وفي هذه الاجتماعات طرحت فكرة أمام العرب مفادها لأن بريطانيا وفرنسا ستساعدهم بعد الحرب في إنشاء دولة مستقلة أو كونفدرالية وسيحصلون

مقابل ذلك على مساعدات مالية وغيرها ، ومن الناحية العملية ، فقد تجسد ذلك في اتفاق سايكس - بيكو ورغم ذلك فقد حرص سايكس وجورج بيكو على عدم الكشف عن وجود مناطق نفوذ إنجليزية - فرنسية تتمتع بحكم ذاتي . وكما فسر سايكس ذلك فإن المهمة كانت تهدف إلى القيام بمناورة مع الوفود ، من دون إظهار خارطة تقسيم لهم أو جعلهم يعرفون بوجود اتفاق جغرافي عملي أو مفصل ، أو التساؤل عن مدى استعدادنا لتقديمه لهم» .

أما الشريف حسين ، الذي أُبلغ مبكراً بأن ضابطاً سياسياً فرنسياً سينضم إلى جيش موراي ، فقد اكتشف بأن المباحثات كانت تجري في مصر ، فساوره الشك ، وطلب تفسيرات حول الأمر . ووفقاً لذلك ، وبعد إجراء مشاورات مستعجلة مع وزارة الخارجية (البريطانية) . جرى التوصل إلى أنه يجب أن يذهب سايكس إلى جدة ، حيث سيكشف مناحي معينة من السياسة الإنجلو - فرنسية ، وبالطريقة نفسها التي قام بها في القاهرة . كما انه يمهد إذا امكن لاجتماع آخر مع الشريف يحضره جورج بيكو . لذلك فقد غادر سايكس مصر في الثلاثين من نيسان ، ونزل في الوجه للاجتماع بفيصل ، قبل ذهابه جنوباً للاجتماع بالشريف .

وكما اتفق على ذلك مسبقاً مع جورج ـ بيكو ، فقد شرح سايكس الموقف للشريف فيصل بوجه عام ، مشدداً على أنه «يجب على العرب أن يتعاملوا مع اتفاق لا يتجزأ ؛ بحيث أنه سينشأ بموجب ذلك نظام تقدمي متنور في سورية ؛ وأن أجزاء أخرى معينة تشكل صعوبات ظاهرة ، وينبغي أن تبقى تحت وصاية خاصة في أية حال من الأحوال» .

ومن المحتمل أن سايكس وجد أن هذه المباحثات كانت غير مريحة تماماً ، ففيصل ، السياسي الماهر ، قد عرف آنذاك المزيد عن الاتفاق الإنجلو - فرنسي رغم محاولة سايكس اخفاء ذلك ، كانت أسئلته واستفساراته مؤثرة جداً من دون شك . أما سايكس ، الذي أورد نتائج تلك اللقاءات بصورة مختلفة ، فقد كتب فيما بعد يقول : «لقد شرحت لفيصل مبدأ الاتفاق الإنجلو - فرنسي في ما يتعلق بالكونفدرالية العربية . وبعد الكثير من النقاش ، وافق على المبدأ وبدا مرتاحاً» . وبعد اجتماعه اللاحق مع الشريف حسين ، أبرق سايكس إلى بيكو يقول : «إنني مرتاح للاجتماعات التي عقدتها مع الشريف فيصل والملك حسين ، حيث أنهما يقفان الآن في النقطة نفسها التي توصلنا اليها في

آخر اجتماع مشترك لنا مع الوفود السورية في القاهرة ولم يترك لورنس أي سجل للمباحثات التي أجراها مع فيصل عند عودته إلى الوجه . كما أنه لا يوجد أي تقييم في دفتر ملاحظاته للمباحثات التي جرت في صبيحة السابع من آيار ، عندما قام سايكس بزيارة قصيرة إلى الوجه في طريق عودته بعد اجتماعه مع الشريف حسين في جدة ، وتشير يوميات لورنس فحسب إلى أنه قد رأى سايكس وويلسون في ذلك اليوم . ورغم هذا الهدوء (الذي أبقى عليه لورنس ، أيضاً في كتابه أعمدة الحكمة) ، فقد كان ثمة دليل آنذاك على أنه كان متنبهاً بشكل كبير إلى الطريقة التي كان يدير فيها سايكس المباحثات مع الزعماء العرب ، كما أن التعليقات التي أثارها سايكس ، خلال ذلك الاجتماع في الوجه ، عارضها لورنس علناً .

في ذلك الحين ، أصبح عدة ضباط بريطانيين في الحجاز على علم ، أو يساورهم الشك في وجود اتفاق إنجلو - فرنسي . أما أولئك الذين كانوا يتعاملون مع العرب . مباشرة فقد عبروا عن قلقهم بشأن الوضع منذ شهور ، وأصبح العرب آنذاك يقومون بخطوات جادة لتنفيذ حملة على سوريا ، فالحاجة إلى حسم مسألة مستقبل التورط الفرنسي أصبحت ملحة بازدياد . وحل لورنس معضلة الخاصة بابلاغه فيصل بمبادىء اتفاق سايكس - بيكو . وفي شهر وكتب في هذا الصدد يقول : «أشعر بقوة تماماً بأن تسوية مسألة سوريا ، الخ . يجب أن لا تجري من وراء ظهره ، وهذا هو رأيي ، فهو يستحق ثقة الحكومة البريطانية ، وأشعر بثقة بأننا سنأسف جداً في المستقبل إذا ما بحثنا معه صراحة الآن الأمر بجمله» . ومثله مثل لورنس فقد اعتقد ويلسون أن سياسة الخداع كانت غير قابلة للإلغاء ، وأنها ستكون بالتأكيد ذات نتيجة معاكسة .

ورغم هذه التحذيرات فإن سايكس لم يذهب إلى الحجاز بهدف تطمين العرب وظل واثقاً بشكل متعمد أن سياسة الغموض والخداع يمكنها أن تستمر ولم يحاول في تقاريره ومحادثاته مع الضباط البريطانيين والفرنسيين على حد سواء ان يخفي شكه في التزامات الحلفاء للعرب وهذا ما سمعه بريموند من الملازم ميلت ، وهو ضابط كان يعمل مع البعثة العسكرية الفرنسية في جدة ويتحدث الإنجليزية واستقبله سايكس بطريقة ودية ، وقدم له ملخصاً سريعاً حول الموضوع . وأدعى السير مارك بأن جميع العشائر الموجودة حول مثلث دمشق - حلب - بغداد سيثبتون مقدرة في الحرب ، وكانوا ينتظرون

السلاح فقط لمهاجمة الأتراك ؛ وبالطبع فإن المرء سيسمح لهم بالمضي على اعتقاد منهم بأنهم سيقاتلون من أجل نيل استقلالهم ، وبالنسبة لمعارضة ميلت فان ذلك سيسبب صعوبات في المستقبل ، وقد أجاب سايكس بقوله : إنني لا أتطلع إلى المضي قدماً إلى حد كبير ، للقيام بعمل مجد ، فيجب على المرء السعي للاستفادة مباشرة . . . ففي الوقت الراهن مهمتنا هي هزيمة الألمان حيثما نستطيع . أما بالنسبة لتقسم المناطق فإننا سنكون قادرين دائماً على القيام بالترتيبات عندما تنتهي الحرب» .

ولاحظ ميلت أن سايكس بدا غير مهتم بأية تنازلات تقدم للشريف حسين والعرب بوجه عام حينذاك . وكانت استنتاجاته حول سايكس بغيضة : خشنة وفظاظة ، شعور وإحساس غير مهذب ، وسياسات تافهة بسيطة وقلة معرفة بالناس والأماكن المعنية ، وغرور ذاتي كبير» .

خلال شهر من هذه الزيارة للحجاز (وبعد اكتساب خبرة أكثر بدبلوماسية سايكس الانتهازية) ، احتج ويلسون ونيوكمب بلهجة شديدة جداً على ذلك . وكتب نيوكمب حول سياسة سايكس يقول : «إنه يلقي بمسؤولية ضخمة على عاتق حكومتنا لتظن بأن القضية العربية في طريقها للانتهاء : وبخلاف ذلك فاننا نخدع الشريف وشعبه ونلعب لعبة مزيفة تماماً ، بحيث أن الضباط (البريطانيين) الملحقين بجيش الشريف ، والملتزمين معه بشكل حتمي ، قد ساورهم القلق في هذا الشأن : في حالة التخلي عنهم (عن العرب)» .

إن الموقف المخادع الذي لعبه سايكس جعل هؤلاء الضباط البريطانيين مدركين بعمق لمسؤولياتهم الأخلاقية تجاه ذلك ، فسيكونون متوقعين بأن يقدموا أي نوع من التأكيدات المطلوبة لإبقاء العرب يحاربون إلى جانب بريطانيا ، ولكنهم بقيامهم بذلك يعرفون بأن حكومتهم لم تكن تنوي الحفاظ على وعودها للعرب . وكان لورنس أكثر قلقاً وانزعاجاً من زملائه الضباط البريطانيين ، إذ أنه كان على وشك القيام بحملة يقودها بنفسه هدفها الوحيد كان إخراج حيز الثورة من منطقة الحجاز لتمتد إلى سوريا . ونتيجة لذلك ، فقد كان على رجال القبائل البدء بالتضحية بأرواحهم من أجل البلاد التي كانت تدعي فرنسا بحقها الانتداب عليها .

ولم يكن لديه الشيء الكثير ليفكر به حول هذه المشكلة بينما كانت حملة العقبة في مراحل إعدادها الأخيرة . ففي التاسع من آيار ، وبعد يومين من لقاء سايكس ، بدأ لورنس بحملة عسكرية مع كل من الشريف ناصر ، وعودة أبو تايه ، ومجموعة مكونة من خمسة وأربعين رجلاً ، وأخذوا معهم (٢٠) ألف جنيه استرليني ذهب لتمويل الحملة ، وكمية كبيرة من المتفجرات .

وقد سنحت الفرصة للورنس بالتفكير بالأمر فقط عندما بدأت الرحلة الطويلة على الجمال ، وسرعان ما ساورته الشكوك المقلقة ، وفاقم من الوضع الحضور المرح لنسيب البكري ، السوري التمس لاستقلال بلاده ، والذي رافق الحملة في مرحلتها الأولى . وكان يسافر شمالاً لتنفيذ مهمة خاصة به وتهدف في الوقت نفسه إلى تقوية الدعم للشريف فيصل بين زعماء القبائل هناك .

بعد أربعة أيام من بدء الرحلة ، بدأ لورنس يعاني من الحمى ، وكانت شبيهة بتلك التي عاناها منذ شهرين خلال مسيره إلى وادي العيص ، إلا أن المرض لم يبعد عن نفسه الشكوك والهواجس الفكرية . وفي ١٣ آيار لوحظت عبارة مختصرة في يومياته : «إن قواي تنهار الآن . . . فالألم والكرب ينهشاني اليوم» . وبهذا المزاج والنفسية أصبحت الثقة ورفقة زملائه عبئاً بدلاً من العزاء والسلوان ، وشعر بالعزلة بازدياد . وبدا شعوره بالذنب والكآبة مؤكداً بالمرض والابتعاد عن المناظر الطبيعية من حوله خلال رحلته .

وبعد مسير عشرة أيام وصلوا إلى خط السكة الحديد بالقرب من درعا ، وقاموا بنسف جزء من الخط قبل أن يصل إلى الصحراء التي تقع وراءه . وبدأ في العشرين من آيار بعبور أرض جرداء تعرف «بالحول» . وكتب لورنس في «أعمدة الحكمة» يقول : «لقد شعرنا بالضآلة ، وكان تقدمنا عبر مساحته الشاسعة بطيئاً هادئاً . وكانت الأصداء الجوفاء هي الأصوات الوحيدة مثل وقع الأقدام على الأرصفة في الأمكنة التي تقع تحتها سراديب ، وكانت ألواح الحجارة الرديئة تنزلق تحت أرجل جمالنا ، ولا يسمع من تحتها سوى خشخشة الرمال الثاقبة . وما أن زحفنا باتجاه الغرب حتى هبت علينا رياح حارة مصحوبة برمال حصوية ، وكانت ريحاً ساكنة ، تلفح بحرارتها أحياناً ، وتعرف في مصر برياح الخماسين (الرياح الخماسينية) ؛ وكلما أشرقت الشمس أكثر ازدادت قوة ومصحوبة بغبار كرياح صحراء النفوذ ، الصحراء الرملية الضخمة الواقعة في شمال الجزيرة العربية . تلفنا

من الجهات كافة ، بل وتنعدم الرؤيا من خلال السديم (ضباب رقيق) . وعند الظهر تهب ريح جافة مما يزداد معه جفاف شفاهنا ، وتشقق جلودنا وبشرات وجوهنا ، في حين تنصب على وجوهنا الحبيبات الرملية . فوضع العرب كوفياتهم على وجوههم بإحكام ، بحيث غطوها تماماً إلاّ شق بسيط يسمح لهم بالرؤيا .

فبمثل هذه الطريقة يحفظون بشراتهم من التشقق ، حيث أنهم خشوا من أن يتحول أثر الحبيبات الرملية وجوههم إلى جروح مؤلمة : ولكن ، بالنسبة لي كنت أحب دائماً الرياح الخماسينية إذ أن أذاها بدا كأنه يكافح ضد الإنسان مع حقد واع ومنظم ، وكان ذلك أمراً مُسراً لتحديها مباشرة ، وتحدي قوتها ، والسيطرة على حدتها وكانت ثمة مسرة أيضاً في نقاط العرق المالحة الساقطة واحدة بعد الأخرى من خلال شعري الطويل على جبهتي فهي تسقط مثل ماء مثلج على خدي . وفي البداية ، كنت ألهو بامساكها بفمي ، ولكن عندما سرنا مسافة أبعد في الصحراء ومرت الساعات ، وأصبحت الرياح أقوى وأشد ، مثقلة بالغبار ، وأكثر ازعاجاً في حرارتها . فذهب معها كل ترويح عن النفس . وأصبح عدو جمالنا أكثر فعالية بفعل الرياح الخانقة المتعاقبة ، التي شقق جفافها بشرتي وجعلت حلقي مؤلماً جداً فظللت ثلاثة أيام بعد ذلك أستطيع إبتلاع قليل من الخبز الثقيل الذي كنا نتناوله . وعندما حل علينا المساء أخيراً كنت راضياً لأن وجهي المحترق ما زلت اشعر به من خلال لفح هواء الليل المعتدل» .

في صباح ٢٤ آيار ، وبينما كانوا يعبرون صحراء ذات أرض طينية جافة ومنبسطة تدعى «البسيطة» ، أدركوا بأن أحد أفراد المجموعة قد فقد . وكان جمله لا يزال محملاً ويسير مع الركب ، إلا أن سرجه كان خاوياً ، ولم يره أحد قد نزل عن جمله . وبدا كما لو أن الرجل ، الذي كان اسمه جاسم قد سقط عن جمله على الأرض ولم يكن قادراً على الانضمام إلى القافلة ثانية لانه لم يترك أثراً على الأرض القاسية ، كما أنه كان من المستحيل رؤيته من بعيد في الصحراء بسبب السراب . ومالم يرجع أحدهم للبحث عنه ، فلابد أنه سيموت بالتأكيد . وشعر لورنس بالمسؤولية تقع على عاتقه للبحث عن جاسم ؛ الذي كان أحد رجاله ، فقرر الرجوع ، لانه لم يكن ثمة أمل بأن يعود أحدهم ادراجه ليبحث عنه . ويقول لورنس في «أعمدة الحكمة» : «نظرت بوهن إلى وجوه رجالي المجهدين ، وتساءلت لبرهة إذا ما كان بإمكاني أن أغير مع أحدهم ، وارسله على جملي

عائداً لانقاذ الرجل . إذ أن تهربي من تلك المهمة سيكون مفهوماً ، لأنني كنت أجنبياً ؛ بيد أن تلك كانت ذريعة لم أجرؤ على البوح بها ، في حين يفترض بي أنني أُساعد هؤلاء العرب في ثورتهم فكان من الصعب ، على أية حال ، بالنسبة لشخص غريب أن يؤثر في أشخاص حركة قومية آخرين ، ومن الصعب أكثر أيضاً بالنسبة لمسيحي مقيم أن يثني عرباً مسلمين عن عزمهم . فيجب أن أجعل الأمر مستحيلاً بالنسبة لي اذا ما أدعيت ، على نحو متزامن ، بامتيازات كلا المجتمعين . . . ولم يكن مزاجي بطولياً تماماً ، بحيث كنت مغتاظاً جداً من خدمي ، لقيامي بدور البدوي ، كل هذا من أجل جاسم» . وبعد فترة من المسير وجد لورنس جاسماً كان شبه مجنون بسبب شمس الصحراء . وبذلك استعادت الحملة عافيتها .

وانتهى الجزء الصعب من الرحلة عندما وصلوا إلى وادي سرحان ، وهو مجموعة من المنخفضات التي تحتوي على آبار متفرقة ونباتات . وكان عودة يعلم بأنهم سيجدون مضارب الحويطات هناك ، وبعد ثلاثة أيام وصلوا إلى أول مخيم . وهنا تركهم عودة لبضعة أيام ، وذهب ليشرح هدفهم لنوري الشعلان ، الزعيم الأعلى (شيخ مشايخ) للمنطقة . وخلال غياب عودة ، تحرك الشريف ناصر والمجموعة باتجاه الشمال من مخيم إلى آخر ، ليقوموا بتجنيد الرجال من العمليات الحربية المنتظرة في معان والعقبة . وأقيمت لهم في كل معسكر وليمة قبلية ، وصفها لورنس في مفكرته بإسهاب .

لم تكن الولائم هي التي اثارت استياء لورنس فحسب ، وإنما أيضاً عملية تجنيد الرجال التي يتطلب القيام بتأكيد متواصل من أن العرب كانوا يقاتلون من أجل استقلالهم ، وبما أنه كان يعمل كضابط اتصال بريطاني مع فيصل ، فقد طلب منه مرة تلو الأخرى تقديم تأكيدات على هذه النقطة . وكتب ملاحظة في الثاني من حزيران يقول فيها : «كنا نستقبل الوفود طيلة النهار ، وتنهال علينا التحيات ، والقهوة ، وهدايا بيض النعام . ونتناول الغداء مع عودة ، ونتفوه بالأكاذيب» . ووجد (لورنس) بأن وضعه كان صعباً بشكل مستحيل ، لأنه خشي من النتائج المترتبة على اجتماع سايكس- بيكو - الحسين . إذ إنه لم يكن بإمكانه التأكد مما سيحدث ، ولكن بدا أن ثمة احتمالاً ضئيلاً بأن سايكس كان سيضع علاقات بريطانيا مع الشريف حسين على قدم وساق . وكان تعبير لورنس الأوضح لهذه المعضلة في «أعمدة الحكمة السبعة» حيث يقول : «إن العرب

يؤمنون بالأشخاص ، وليس بالمؤسسات وكانوا يَعدونني عميلاً حراً للحكومة البريطانية ، فطلبوا مني إقراراً مكتوباً . وهكذا فقد كان علي أن أنضم إلى المؤامرة ، وأن أقدم التأكيدات للرجال . . .

فمن هذا الأمل قاموا بعرض بعض الأمور الجيدة ، ولكن بدلاً من أن أكون فخوراً بما نفعله معاً ، فقد كنت خجلاً وشاعراً بمرارة باستمرار .

وكان من الواضح من البداية أننا إذا ما كسبنا الحرب فإن هذه الدعوة ستكون حبراً على ورق ، وإذا ما كنت مستشاراً مخلصاً للعرب فقد كان عليّ أن أنصحهم بالذهاب إلى بيوتهم وعدم المخاطرة بحياتهم والقتال من أجل هذا الأمر» .

وتظهر ملاحظات لورنس المعاصرة أنه سرعان ما وجد دوره في عملية التجنيد لاتطاق ، ففي الخامس من حزيران كتب يقول في هذا الصدد : «لاأستطيع المكوث يوماً آخر هنا ، فسأذهب شمالاً وأضرب هناك» . وبدت أهمية هذه الملاحظة في الرسالة الموضحة التي خلفها وراءه حيث يقول فيها «كلايتون ، لقد قررت بأن أذهب إلى دمشق لوحدي ، آملاً بأن أقتل وأنا في طريقي إلى هناك : راجياً توضيح جوانب الموقف كافة قبل أن يستفحل الأمر . فنحن ندعوهم إلى القتال من أجلنا كذباً ، ولا أستطيع تحمل ذلك» .

وبمعرفة كاملة بالمخاطر المترتبة خطط لورنس أن يقوم برحلة سرية إلى الشمال ليتوغل أعمق في أراضي العدو ، وكان عليه أن يتنقل بين قبائل كان مشكوكاً في ولائها للشريف حسين ، كما أنه كان يعلم بأن الأتراك خصصوا جائزة لقاء رأسه ، فاذا ما أخفق بالعودة فإن دفتر الملاحظات الذي كان يحتوي على رسالته إلى كلايتون يشير إلى أنه من المحتمل أن يرجع إلى القاهرة .

وعلى عكس نيوكمب و ويلسون ، فانه لم يكن جندياً محترفاً . ولم تكن لديه عادة الطاعة العمياء لتساعده على التغلب على معضلة . وبدلاً من ذلك ، فقد كان عليه أن يؤمن بالمقاييس المتصلة أو العنيدة للسلوك الشخصي وقد تصارعت هذه الآن مع الحماسة التي شعر بها بعمق . وأن الأسلوب الذي كانت تعامل فيه بريطانيا العرب لم يحمل في طياته نوعاً من علاقة فروسية الحرب التي كان يتخيلها ويحلم بها لورنس خلال طفولته . وقد أُجبر على لعب دور يشوه أسس تقديره الذاتي كافة . وكطفل غير شرعي يرث شعوراً

بالأمن أو وضع اجتماعي معين من أسرته ووضعه المستقبلي العام ، لا يقل عن احترامه الذاتي ، سيعتمد على ما صنعه لنفسه . ورغم أنه كان يمقت الحرف التقليدية فقد أمل بالحصول على تمييز مشرف ، وبدت الحرب كأنها توفر مثل هذه الفرصة له . وكتب في شهر آب عام ١٩١٤ «أنه كان يأمل أن يصبح جنرالاً ويكرم عندما يبلغ الثلاثين من عمره» . ورغم ذلك أصبح لا يتصور الآن بأنه يجب عليه قبول التكريم والتقدير بمثل هذا الأسلوب لقد أُعطيت هذه الأزمة الشخصية الحادة قليلاً من الاهتمام في كتابة أعمدة الحكمة السبعة» . ووصفت حملة العقبة في عدد من الفصول المتعاقبة لتفضي زخماً من الوصف الوافر لمناظر الصحراء خلال الرحلة وبطريقة ملحمية . وبعد تأليف الكتاب ، شرح لورنس لصديق له بأنه كان يشعر «بخطأ عند تمثيله للثورة العربية لأنها كانت مأساة شخصية بالنسبة له بشكل رئيس» . إلا أن مسودة الكتاب رغم ذلك ،تعالج بشكل أكبر وواضح أسباب رحلته الشمالية من النص النهائي للكتاب ، حيث يقول لورنس : «أردت سبباً للابتعاد عن الإرشاد الطويل لأفكار الناس وقناعاتهم والتي كانت جزءاً مني منذ وجودي في ينبع قبل ستة أشهر مضت . ولابد أنها كانت سعادة ، حرة كالهواء ، والحياة من حولي تكافح بأقصى ما يمكن حيثما تقودها روحي : بيد أن لاوعيها يخدم هدفي المسمم كل شيء بالنسبة لي . فقد يدمر الإنسان نفسه بوضوح : إلا أنه كان أمراً بغيضاً لزوم أن تجند براءة ومثاليات العرب في خدمتي القذرة لتدمر . كنا بحاجة لكسب الحرب ، وقد برهن طموحهم على أنه كان أداة جيدة . ولابد أن الجهد الذي بذلوه قد حقق استحقاقه ، ويمكن أن يكون رغم ذلك مخدوعاً - ولكننا نحن الأسياد قد وعدناهم بالنتائج الطيبة من خلال تعاقدنا المزيف معهم ، وكانت تلك صفقة مع الحياة ، وخدعة لم يكن لدينا شيء لنفعله تجاهها ولكن حتماً سنجني المرارة من جراء ذلك ، وثمرة الأسف لمحاولة بطولية .

كان مسيري طويلاً وخطراً ، ليس له مرور في عملية الثورة ، ومجرد من نتيجة كانت تستحق الحافز . . . فقد كنت أنذاك في مزاج طائش متهور لست آبها كثيراً بما كنت أفعله إذ أنه بالنسبة للرحلة التي قمت بها من الوجه ، فقد أقنعت نفسي بأنني كنت الشخص الوحيد المتورط في حقل المغامرة العربية ، التي يمكن أن تسخر لخدمة الجيش البريطاني المتواجد في مصر ، وفي الوقت نفسه مؤلفاً لنجاحه . . . وعرفت أنه عندما

نستولي على العقبة ، فإن علي أن اقود الحركة ، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة . . . ووفقاً لهذا المسير فقد خاطرت بوضع الأمل لأبرهن عن نفسي بعدم جدارتي لأكون ضامناً العرب حتى النصر النهائي . وكان الجرح الجسدي ثقباً مشكورا بالنسبة لارتباكاتي الداخلية ، وفماً يمكن أن تجد متاعبي الراحة من خلاله» .

رغم هذه التشوشات والحوافز المدمرة ذاتياً ، فقد عرف لورنس أن رحلته قد تخدم هدفاً مفيداً . وأراد تقييم روح الزعماء والشيوخ الذين بعثوا برسائل التأييد لفيصل ومصادرهم . وكتب فيما بعد يقول : «في حين مازالت أرى تحرير سوريا يجري بخطوات ، وخطوة الاستيلاء على العقبة أولاً لا غنى عنها ، وأنا أرى الخطوات القادمة أكثر قرباً تماماً ، لذلك فقد خططت لأن أذهب بنفسي في رحلة طويلة إلى منطقة الشمال لاستكشف الأمر وأستعلم تماماً لوضع خطط محددة ، ومعلومات عن سوريا كانت جيدة تماماً ، وأعرف أجزاء منها معرفة تامة . ولكنني شعرت بأخذ المزيد من المعرفة أكثر من أفكار الجغرافية الاستراتيجية التي تعلمتها من الكتب عن الغزوات الصليبية والفتوحات الإسلامية في هذا المجال ، الأمر الذي يمكنني من تسويتها ووضعها في بوتقة عاملين جديدين هما السكة الحديد المتواجدة في سوريا ، وجيش الحلفاء بقيادة موراي في سيناء» .

ونوى لورنس أن يوصي زعماء القبائل الشمالية بسياسة ضبط النفس . ففي الحجاز بدأت الثورة باستعدادات غير كافية وجرى انقاذها فقط بوساطةالبحرية البريطانية . كما أن الدعم لم يكن متوفراً في سوريا . واذا ما تمردت القبائل الشمالية أيضاً فسرعان ما ستهزم ، وستكون ثمة عمليات انتقام سريعة . وعرف لورنس أن نسيب البكري سيذهب إلى الشمال إلى شيوخ القبائل وزعمائها أنفسهم ليبلغهم بما حققه فيصل من النجاحات ويعدهم بالانتصار السريع . وخلال مجادلة مع لورنس في الثالث من حزيران ، انقلب الأخير ضدخطة الاستيلاء على العقبة ، مقترحاً بدلاً من ذلك القيام بثورة حول مدينة دمشق . إلا أن نسيباً كان ينقصه المال والسلاح ، ولكن المشاعر المناهضة للأتراك كانت قوية جداً في سوريا ، وخشي لورنس مما يمكن أن يحدث من جراء ذلك .

لخصت المظاهر العسكرية لرحلة لورنس غير العادية في ما بعد في تقرير أرسل إلى كلايتون . وبناء على هذه الرسالة ، وعلى يومياته والبيانات التي صدرت فيما بعد ، فإنه

يبدو أن مجمل مسافة الرحلة كان أكثر من ثلاث مائة ميل ، حيث بدأها من البنك ، وسار شمالاً عن طريق بورقه (الواقعة شرق جبل العرب) ، وإلى «عين البريدة» بالقرب من تدمر في نحو التاسع من حزيران . وهناك قام بتجنيد مجموعة صغيرة من العرب بقيادة الشيخ دهمي العنيزة ، وسار معهم إلى رأس بعلبك ، التي تبعد خمسين ميلاً إلى الشمال من دمشق ، فوصلها في الحادي عشر من حزيران . فنسفوا جسراً صغيراً للسكة الحديد هناك بالقرب من المحطة ، مستخدمين شحنة ناسفة تزن أربعة ليبرات ، ويقول لورنس في هذا الصدد : «بالطبع كان تأثير ذلك طفيفاً في حركة القطارات ، إلا أنه كان ذا تأثير مثير بالنسبة لسكان بعلبك ، مما جعلهم يثورون من تلقاء أنفسهم ، فصوت انفجارات الديناميت وجدناه ذات فعالية دعائية في كل مكان» . وبعد شهر من هذه الحادثة حصل ضابط استخبارات بريطاني يعمل في سويسرا على معلومات حول هذه الأحداث من ضابط تركي غادر دمشق في التاسع عشر من حزيران ومر عن طريق الأستانة بعد عشرة أيام ، فحسب تقديره ، الذي كان مبالغاً فيه بوضوح : «أن منطقة بعلبك برمتها كانت في حالة ثورة ، واحتلت بعلبك نفسها بقوات تركية جلبت من غزة . فقد سحبت ست كتائب من الفرقة الثالثة من تلك الجبهة بهدف القضاء على العصيان والتمرد في هذه المنطقة ودمرت وأحرقت المحطة في رأس بعلبك . وأرسل والي دمشق التركي ليستطلع الأمور هناك . وكان نجيب بيك ، ابن محمد سعيد ، شيخ قبيلة متولي في الهرمل ، هو المسؤول عن الثورة والهجوم الذي حدث في بعلبك» .

وتحولا صوب الشمال ذهب لورنس إلى ضواحي دمشق . وهناك قابل ، في نحو الثالث عشر من حزيران ، علي رضا الركابي ، المسؤول رفيع المستوى في المدينة ، والذي كان من الوطنيين السريين هناك ، وحذره ذلك النوع المبتور من الثورة التي يمكن أن ينادي بها نسيب البكري .

واستمر بعد ذلك في مسيره جنوباً ، حيث زار زعماء الدروز . وكان كلما مر عبر منطقة قبلية يزود برجال مرافقين جدد .

وكانت الأزرق محطته الأخيرة ، وهي واحة صحراوية تبعد نحو خمسين ميلاً عن شرقي عمان ، حيث قابل هناك الشيخ نوري الشعلان . ذا النفوذ الضخم ، بحيث أن تعاونه مع الثورة ، سواء أكان علنياً أو سرياً ، سيكون أساسياً بالنسبة لحملات فيصل

الشمالية ورغم أنه كان متعاطفاً مع القضية العربية ، فإن الرخاء الاقتصادي لقبيلته كان يعتمد على مدى الود التركي لها ، لذلك لم يكن بوسعه في هذه المرحلة أن يعلن تأييده علناً للشريف فيصل ، حتى لو أنه أراد ذلك إضافة إلى أنه مثله مثل العديد من القوميين العرب في الشمال كان لا يثق بعمق بالنيات البريطانية والفرنسية على حد سواء . وقد جرى تأجيج هذه الشكوك باستمرار بوساطة وسائل الدعاية التركية .

كان نوري ، بأي معيار من المعايير ، شخصاً متجهماً . وكتب لورنس في «أعمدة الحكمة السبعة» يقول : «كان كبيراً جداً في العمر ، شاحب اللون ، مرهقاً ، وتبدو على وجهه مسحة من الحزن والندامة مع ابتسامة مريرة هي الوحيدة التي تحرك تعابير وجهه . وتدلت أهداب جفونه على ثنايا متعبة في وجهه ، من خلال جبهة حرقتها الشمس ببطء . وكان كل شيء يشير إلى أنه في السبعينات من عمره كشعره الأشيب تماماً ، وبشرة وجهه الشاحبة . وكان نوري مطلقاً في حكمه ، وقد قتل اثنان من أشقائه في سبيل الوصول إلى السلطة ؛ ولم يكن لديه أي تملق سياسي مثل الشيوخ العاديين ، فكلمة منه تنهي كل معارضة» .

لقد وجد لورنس أن هذه الزيارة للأزرق مزعجة ، إذ أنه كتب فيما بعد يقول : «لقد فتحت جهنم أمامي فجأة . . . فعندما أخرج الشيخ نوري الشعلان وثائقه من خيمته وسألني بفظاظة عن أي من الوعود البريطانية التي يمكن أن تصدق رأيت أنني من خلال ردي سأكسبه أو أخسره ؛ وفيه يكمن خط الحركة العربية ؛ وبتقديم نصيحتي لا بد أن يثق في موعد التعهدات المتناقضة فمررت بالتأكيد إلى درجات المسؤولية ففي الحجاز كان كل شيء للشريف حسين ، وما نحن إلاّ مساعدون ثانويون ؛ ولكن في هذا الشمال البعيد يقل تأثير مكة ، ويصبح تأثير انجلترا عظيماً جداً . وتزداد أهميتها ؛ ويصبح كلامنا أكثر وزناً : وفي الحقيقة فبعد عام تقريباً أصبحت أداة رئيسة لعصابتنا» .

ويبدو أن نوري الشعلان قد حصل على نوع من التعهد الشخصي من لورنس إنه إذا ما خذلت بريطانيا العرب ، فإن لورنس سيعاقب نفسه عقاباً مهلكاً ، وربما حتى إلى حد الموت . وعندما سئل في ما بعد ، عماذا كان ذلك التعهد ، أجاب قائلاً : «أفضل أن لا أكشف عنه» . وأياً كان الأمر فإن تلك الصفقة سببت له كرباً شديداً في الحرب في ما بعد . ولكن رغم ذلك فقد بدا أنها كانت في ذلك الوقت سبيلاً للخروج من المعضلة

التي دفعته إلى القيام بهذه الرحلة .

عاد لورنس بسلام من رحلته إلى النبك في ١٨ حزيران ، وتسلم المسؤولية التي لم يكن بمقدوره أن يتجنبها . ومن الآن فصاعداً ، سيبذل كل ما بوسعه ليظهر أن بريطانيا ملتزمة بعهودها ، حيث يقول في هذا الصدد : «لقد ربطت نفسي بأمل أنه بوصول هؤلاء العرب إلى النصر النهائي ، فإنني سأعمل على ترسيخ السلاح بأيديهم ليكونوا في وضع مسيطر يمكنهم من إجبار القوى العظمى على تلبية مطالبهم . وبمعنى آخر افترضت بأنني سأشهد الحملات العسكرية ، وأكون قادراً ليس على هزيمة الأتراك فحسب في ميادين المعارك ، وإنما ايضاً بلادي وحلفائها . إنه افتراض غير متواضع . . . فمن الواضح أنه لم يكن لدي أدنى وهم لتوريط العرب في مثل هذا الخطر المجهول . وقدخاطرت بخداع اعتقادي من أن مساعدة العرب كانت ضرورية لانتصارنا الرخيص والسريع في الشرق ، وأنه من الأفضل لنا أن نكسب الحرب وننكث بعهودنا من أن نخسرها» .

في الوقت الذي وصل فيه لورنس إلى النبك ، اكتمل عملية التجنيد وأصبحت القوة جاهزة آنذاك ، وتحركت إلى منطقة «البير» . ومن هناك بدأ الشريف ناصر القيام باتصالات مع رجال القبائل في منطقة غربي معان . اذ ستكون مساعدتهم مطلوبة في العملية التي ستجري للسيطرة على الطريق المؤدي إلى العقبة وبينما كانت الاستعدادات جارية ، قام لورنس ومعه مجموعة إغارة صغيرة بنسف جزء من خط السكة الحديد الواقع في أقصى الشمال . وكان هدفه من ذلك إعطاء انطباع بأن قوة الشريف ناصر ، التي وصلت أخبارها إلى الأتراك ستتحرك عما قريب إلى حوران . فغادر منطقة «البير» في العشرين من حزيران .

بعد ثلاثة أيام ترك لورنس المجموعة الرئيسة ، وقام بتحويلة كانت أقل خطورة من رحلته السابقة ، ورافقه في هذه الرحلة واحد أو أثنان فقط ، فزار وادي اليرموك ، على أمل أن يقوم بنسف جسر مهم للسكة الحديد هناك متفرع من درعا إلى فلسطين . بيد أنه لم يحقق نجاحا في هذا الشأن إلاّ أن عملية الاستطلاع كانت مفيدة .

وعاد لورنس إلى منطقة البير في ٢٨ حزيران ليجد أن الشريف ناصر كان مستعداً لتنفيذ المرحلة الأولى من خطة العقبة ، وأن القوة الرئيسة تحركت إلى الجفر ، التي تبعد ثلاثين ميلاً عن معان ، حيث كان عليها أن تنتظر هناك على أهبة الاستعداد . في غضون

ذلك هاجم رجال القبائل الذين قام الشريف ناصر بالاتصال بهم سابقاً موقع الغويلة التركي ، واستولوا عليه ، وهو موقع كان يشرف على الممر الواقع بين معان نزولاً إلى العقبة . وبذلك فقد جرى سد الطريق المؤدية نزولاً إلى وادي اليتم .

وحالما وصلت الأخبار عن تلك العملية بدأت المجموعات الأخرى بالإغارة على شمال معان والهجوم على خط السكة الحديد الواقع إلى الجنوب . وأمل من هذه العمليات أن يجري تحويل انتباه الأتراك عن طريق العقبة ، إلا أنها أخفقت في ذلك . فقد علم الأتراك في معان بسرعة شديدة بالمشكلة التي حدثت في الغويلة ، وبالمصادفة فقد كانوا في وضع يمكنهم من القيام بعمل ما . وكانت قواتهم قد عززت مؤخراً بكتيبة جديدة ، فجرى إرسالها إلى «الغويلة» على الفور ، فقامت بإخراج رجال القبائل منها وسيطرت على ينابيع مهمة في منطقة أبي اللسان المجاورة .

عندما علم كل من الشريف ناصر ، عودة ابو تايه ، ولورنس بهذه الأخبار ، أدركوا بأنه سينبغي عليهم إما القضاء على هذه القوة التركية أو احتواؤها في الأقل . فما دامت هذه القوة طليقة الحركة ، فإن خطة العقبة ستصبح متعذرة . وبحلول فجر الثاني من تموز قامت القوات العربية بمحاصرة الكتيبة التركية في «أبي اللسان» ، وقام القناصة العرب من أمكنتهم الحصينة العالية باصطياد أفراد الكتيبة طوال النهار . وأخيراً هوجم الموقع ، عند الغروب وجرت بعثرة المدافعين عن الموقع . وكانت النتيجة مقتل ثلاثمائة جندي تركي وأسر (١٦٠) جندياً في حين فقد العرب اثنين من رجالهم فقط . واشرك لورنس نفسه في هذه الموقعة ، إلا أنه خلال القتال أطلق النار على رأس جمله خطأ فسقط على الأرض .

عندما قام باستجواب بعض الأسرى الأتراك في ما بعد علم بأن معان نفسها كانت دفاعاتها مهلهلة . وبدا أن من السهل على القوات العربية الاستيلاء على البلدة ، وكان بعض القواد متشوقاً لمحاولة ذلك لأنه لم تكن لديه مؤونة كافية ومعان توفر غنائم كثيرة . ورغم ذلك ، فقد قاوم لورنس هذا الإغراء ، إذ أنه حالما يجري الاستيلاء على معان فإنه سيكون من المستحيل الاحتفاظ بها وقد كتب في «أعمدة الحكمة» حول هذا الموضوع قائلاً «لم يكن لدينا دعم ، ولا قوات نظامية ، ولا مدافع ، ولا قاعدة قريبة منها سوى الوجه ، ولا وسائل اتصال ، ولا حتى أموال ، حيث أن ذهبنا كان قد بُدد ، وكنا قد

أصدرنا وعودنا بالدفع ، عندما يتم الاستيلاء على العقبة من أجل دفع المصاريف اليومية . إضافة إلى أنه لا يجدر بالمرء تغيير خطته الاستراتيجية من أجل تحقيق نجاح تكتيكي» .

إن قرار ترك معان كان نهاية مرحلة المغامرة ، في الحقيقة أن سقوط العقبة أصبح واقعاً . فباقامة حامية في «أبي اللسان» ، فإن القوات العربية الظافرة ستشق طريقها إلى الأسفل ، عبر القويرة وإلى وادي اليتم ، حيث أصبحت المواقع التركية مفزعة . وكانت المقاومة الحقيقية الوحيدة في «الخضرا» ، والموقع المحصن الرئيس عند مدخل الوادي ورغم ذلك ، فإن الدفاعات هنا كصمت لتقاوم الهجوم من البحر ، وليس من البر ، ولذلك فقد وجدت القوات التركية المتفوقة عدداً نفسها في وضع يائس . وبعد إجراء بعض المفاوضات ،استسلمت في السادس من تموز ، بعد ثمانية أسابيع من مغادرة الوجه ، ودخلت القوات العربية إلى العقبة .

لم يجدوا هناك (في العقبة) سوى القليل من المؤن التي كانوا يحتاجونها تاركين أولئك الأسرى الاتراك البالغ عددهم (٦٥٠) أسيراً بوحدهم . وبمعزل عن أطلال الحصن الحجري العائد إلى القرن السادس عشر ، فإن المكان كان عبارة عن قرية بيوتها من الطين والحجارة . وكانت الحاجة إلى الأغذية ملحة ، وحالما «أقيمت المواقع الدفاعية الضرورية ، قام لورنس وبرفقته قوة صغيرة برحلة على طول طريق الحج القديم ، وعبر سيناء وصولاً إلى السويس . وبذلك أنهوا رحلة طولها (١٦٠) ميلاً من العقبة دون توقف ، استغرقت (٤٩) ساعة .

لم يكن حضوره متوقعاً ، فقبل أربعة أيام ، كتب كلايتون يقول : «إن أخبار الكابتن لورنس الراهنة غير معروفة ، فقد غادر إلى منطقة معان أو إلى منطقة جبل الدروز قبل فترة من الزمن» .

انتقل لورنس من السويس إلى القاهرة بالقطار . وفي محطة الإسماعيلية ، حيث كان عليه استبدال القطار ، لاحظ مجموعة من الضباط الكبار ، كان من بينهم الأدميرال ويمس ورغم أن لورنس كان يبدو هزيلاً وغير معروف بملابسه العربية فقد عمل على لفت انتباه رئيس أركان ويمس ، الكابتن بورميستر ، وشرح له الموضوع . وخلال ساعات كانت ثمة سفينة تموين في طريقها إلى العقبة .

الفصل الحادي عشر

نتائج حملة العقبة

تموز - آب ١٩١٧

لم يكن لورنس عندما وصل إلى السويس بحلول التاسع من تموز ، على اطلاع بالأحداث التي جرت في مصر والحجاز لمدة شهرين . فخلال هذه المدة تحطمت الآمال بتحقيق أية نجاحات عسكرية على كلا الجبهتين .

ففي سيناء صُدّ جيش موراي للمرة الثانية في قطاع غزة ، وتكبد خسائر فادحة . وخلال ربيع وصيف عام ١٩١٧ وردت سلسلة من التخمينات المتشابهة من كل من نيوكمب ، جارلاند ، هورنبي ، وغيرهم من الضباط البريطانيين العاملين في الميدان هناك في الحجاز . ففي مطلع شهر آيار استنتج نيوكمب بأنه هو ومعه سبعة أفراد من القوات فقط كانوا يقومون بالعمل فعلياً هناك ضد الأتراك . وفي غضون ذلك طلب منه أن يتحلى بالصبر مع البدو ، وأن لا يكون قاسياً معهم ، فقد كان واضحاً من التقارير التي أرسلها سابقاً أنهم كانوا يبددون وقتهم هناك بدلاً من أن ينخرطوا في الحرب ، أو أن يستولوا على خطوط جديدة . وطالب بأن يجرى انضباط خاص للجيش هناك ، ولكنه بعد أن فشل في مطالبته هذه ألح بأن ينقل من الحجاز .

أدى هذا الشعور بالكآبة والقنوط في صفوف الضباط البريطانيين العاملين في الحجاز إلى حدوث شك لدى الأركان البريطانية في القاهرة بقدرة الجيوش العاملة في الحجاز على إنجاز المزيد من النجاحات ورغم ذلك فقد جرت الموافقة من حيث المبدأ على وجوب أن يشن جيش فيصل هجوماً على الخط الحديدي في الشمال اذا ما أمكنه إيجاد طريقة للقيام بذلك . فقد كانت تقع خطوط مواصلات تركية مهمة هناك ترتبط مع فلسطين والحجاز ، وسيكون أي هجوم عربي عليها مفيداً للجيش البريطاني المرابط خارج غزة .

وصل لورنس إلى القاهرة في منتصف يوم العاشر من تموز ، وذهب لمقابلة كلايتون مباشرة ، الذي دهش لرؤيته . وكان على رأس مباحثاتها مسألة إرسال امدادات وأموال

إلى الشريف ناصر ، واتخاذ خطوات ضرورية أخرى لترسيخ وضع الجيش العربي في العقبة . ولم يخصص لورنس سوى وقت ضئيل لشرح كيفية الاستيلاء على البلدة غير أنه بدلاً من ذلك سلم كلايتون تقريراً مختصراً عن الحملة العسكرية ورحلاته السرية التي قام بها إلى أقصى الشمال .

أصبح الانتصار العربي ، الذي تحقق في العقبة ، موضع حديث واهتمام القيادة العامة البريطانية في القاهرة ، خلال ساعات . فمثل هذه الأخبار كان مرحباً بها بشكل خاصة بعد إخفاق الجيش البريطاني في غزة . وعندما قورن نجاحه (لورنس) مع النتائج الكئيبة التي وردت من الحجاز أصبح من الواضح أنه كانت لديه موهبة خاصة في قيادة العناصر البدوية في الجيش العربي . ومنح الاعتراف بهذه الحقيقة اعتباراً جديداً لأفكاره حول طبيعة العمل المستقبلي ، فأعلن عن خطة يقوم بموجبها العرب السوريون بعمليات ضد الأتراك بما يسهل على الجيش البريطاني التقدم على جبهة فلسطين .

وأعرب كلايتون عن إعجابه بما قامت به قوة من رجال القبائل بالاستيلاء على العقبة من دون دعم أو علم بريطاني مسبق . لذلك فقد أخذ بعين الاعتبار هذه العروض والاقتراحات التي قدمها لورنس وبعناية تامة . وفي هذا السياق ، استدعى الجنرال اللّنبي لورنس ، أولاً ليهنئه بالانتصار الذي تحقق في العقبة ، وثانياً ليستفسر منه عن تلك الخطط الجديدة المثيرة للاهتمام . ورغم النجاحات الأخيرة التي حققها مؤخراً لا بد أن لورنس كان قلقاً إلى حد كبير بشأن ذلك الاجتماع ، إذ أن مستقبل حملة فيصل الشمالية كانت تكمن في أيدي القوات البريطانية . فإذا لم يكن اللّنبي متعاطفاً معها ، فقد تقتصر الثورة على الحجاز فحسب . لذلك فقد استعرض لورنس القيمة العسكرية المستقبلية للتعاون مع الجيش العربي إلى أبعد حدود . وكانت ثمة شائعات تفيد أن الوزارة البريطانية كانت تريد الاستيلاء على القدس مع حلول أعياد الميلاد لذلك فقد شدد لورنس على أن مساهمة الجيش العربي يمكن أن تحقق مثل هذا الانتصار وذلك بقطع خطوط المواصلات والاتصالات التركية الموجودة في درعا .

كان لذلك الاجتماع جانبه الطريق من دون ريب ، فقد كان اللّنبي جنرالاً فارساً قادماً من الجبهة الغربية للتو ، ويبلغ السادسة والخمسين من العمر حينذاك ، وكان رجلاً ضخماً ، يتمتع بصفات القائد تماماً ، تكمن قوته الأسطورية عند الغضب فلابد أنه قد

أندهش عندما وصل لورنس وهو يرتدي الثوب العربي الحريري الأبيض ويضع الكوفية على رأسه ، ومتألق بالعقال المذهب ، ويضع خنجراً حول خصره ورغم ذلك لم يكن هذا اللباس غير التقليدي بالنسبة للبريطانيين مسألة اختيار ؛ اذ أن ملابس لورنس العسكرية كانت قد أكلها العث بينما كانت مخزنة في القاهرة ، لذلك فانه لم يكن بمقدوره ارتداؤها . وفي أعقاب هذه المباحثات وُضعت اقتراحات مفصلة من قبل المكتب العربي في القاهرة . فقد أصدر كلايتون حينذاك مشروع مذكرة حول الموضوع للّنبي ، فأخذ بنظر الاعتبار وجهة نظر لورانس في أن حدوث ثورة في سوريا لم يكن تعتمد على انجاز عسكري في الحجاز ، جرى وضع الأهداف التي يمكن أن تنجز بوساطة عناصر فدائية تعمل وراء الخطوط التركية في سوريا على تدمير جسور السكة الحديد ، وإحداث أضرار أخرى في خطوط المواصلات التركية إضافة إلى أن لورنس قد اقتنع بأنه إذا ما أمكن تدمير جسور اليرموك الحديدية ، فانه سيكون من الممكن شن هجوم عام على درعا وعلى الخطوط الحديدية الثلاثة الواصلة إلى الشمال ، والجنوب ، والغرب ، من جبل حوران بوساطة قوة قوامها ثمانية آلاف من العرب والدروز . وهذه القوة بوصفها قوة عاصفة ، لابد أن تكون مكونة من رجال مقاتلين أشداء ، وتكون قادرة على الاستيلاء على معظم المنطقة والجهات المحيطة بها . وسيؤدي نجاحها إلى إحياء الشخصية الوطنية المحلية في التلال الواقعة بين الأردن والخط الحديدي الحجازي ، من درعا حتى واجهة أريحا وحدوث ثورات وانتقاضات مشابهة في التلال الواقعة على طول الطرق الموصلة بين الناصرة - دمشق .

وكان ثمة ، مع ذلك ، شرطان مهمان يجب أن يُلبيا إذا ما أريد إنجاز هذه الخطط : الأول ، يجب أن يوفر اللّنبي الدعم المادي والمالي اللازمين لذلك . ثانياً ، أن العمليات المار ذكرها تعتمد بشكل تام على قرار البدء بهجوم رئيس على جبهة فلسطين يكون متزامناً مع تحركات عسكرية عربية في هذا الاتجاه . ولكن إذا ما كانت ثمة عمليات عسكرية ثانوية في فلسطين ، فإن العمليات العسكرية العربية المقترحة آنفاً من المحتمل أن تؤدي إلى تدمير العديد من العناصر العربية الفعالة ، وبالأخص تلك التي تتعلق بالدروز ، الذين كانوا يتهيأون للعمل . لذلك فما لم يجر إشغال الجيش التركي كله الموجود في فلسطين فمن الأجدى أن يجري الاستغناء عن القيام بعمليات حربية عربية ، وبمعنى

آخر لا ينبغي للبريطانيين إشغال ثورة في سوريا ومن ثم السماح بإخمادها .

لم يعتقد كلايتون ولا اللّنبي بأن جميع الاقتراحات التي وضعها لورنس يمكنها أن تنفذ ، ألاّ أن بعضاً منها سيكون مفيداً رغم ذلك فأبرق اللّنبي حول تفاصيل ذلك إلى وزارة الحرب البريطانية ، مشيراً إلى : «أن الكابتن لورنس موثوق به تماماً بحيث يمكنه الحصول على دعمنا المادي له ، ومن الممكن تنفيذ ذلك بنجاح» . فالفوائد المحتملة للعمليات البريطانية في سيناء وفلسطين من جراء ذلك كانت واضحة . وقد كرر اللّنبي في هذا الصدد مذكرة كلايتون كلمة بكلمة ؛ من انه : «ليس ثمة شك في أن خطوط المواصلات التركية الواقعة جنوب حلب ستصاب بأضرار بالغة حتى لو جرى تحقيق نجاح جزئي لخطة لورنس ، في حين أنه لو جرى تحقيق نجاح كامل سيدمر شريان المواصلات التركية الرئيسة الواقعة بين جبهات شمال سوريا وفلسطين والحجاز ، ومن المحتمل أن تعزز ثورات محلية مكثفة في مناطق وادي الأردن كافة» .

إن الاستيلاء على العقبة منح لورنس اعتبارات عالية ، ليس أقل من أولئك الضباط البريطانيين الذين كانت لهم خبرات شخصية بالتعامل مع العرب ، فويلسون ، الذي سبقه إلى الحجاز قبل سبعة أشهر فقط كان قد وصف لورنس بأنه عبارة عن «حمار صغير مغرور جداً» ، وقد أبرق إلى وينجيت فيما بعد يقول : «أوصي بقوة بأن يمنح لورنس رتبة ضابط مهام على الفور للعمل الحالي الذي يقوم به . . . وإنني واثق من أن النجاحات التي حققها ضد قوات مدربة ، نجمت عنها نتائج ممتازة على صعيد العمليات العسكرية العامة ، تعود إلى شخصيته القوية ، وكياسته ، وشجاعته» .

إلا أن الانجاز الذي أثار اهتمام الأركان البريطانية في القاهرة أكثر ، كان الرحلة التي قام بها إلى سوريا ، فعندما أبرق وينجيت حول أخبار سقوط العقبة إلى وزارة الحربية البريطانية ، وصف هذا الاستطلاع (الرحلة) السري بأنه «عمل صغير قصير رائع» . فقد كانت أعمال لورنس البطولية موضع إعجاب في لندن ، وبعد ثلاثة أيام أعلمه وينجيت بأن رئيس هيئة الأركان العامة قد طلب منه نقل تهانيه الحارة إليه . لأنها كانت مغامرة مدهشة وناجحة تستحق تقدير خاص من المسؤولين . وتمنى له بأن يأخذ قسطاً من الراحة والنوم ، الذي كان بحاجة ماسة إليه .

كان «التقدير الخاص» الذي قصده وينجيت هو منحه وسام «صليب فيكتوريا» وأشار

في برقيته التي أرسلها إلى وزارة الحربية إلى أن الأتراك قد خصصوا مكافأة مقدارها خمسة آلاف جنيه لقاء رأسه ، فمعرفة ذلك ستعزز بشكل كبير من أعماله البطولية الرائعة ، إذ أنه كان يتنقل بين مناطق مكتظة بالسكان ، بعضها كان محفوفاً بالخطر والعداء . ورغم ذلك ، فقد استغل كل فرصة من أجل تدمير خط السكة الحديد وتخريبها ، ومقابلة رجال القبائل والحصول على معلومات تتعلق بالمنطقة والسكان ، وأخيراً إدارة العمليات الحربية بنجاح في منطقة معان ، مما نجم عنها قتل سبعمائة تركي وأسر خمسمائة آخرين وأضاف وينجيت قائلاً : «لقد أوصيت بقوة بأن يمنح وسام صليب فيكتوريا على الفور ، وقد رفعت هذه التوصية تقديراً لكفاءته ، وتحمله وصبره» .

بيد أنه من سخرية هذا الإطراء أنه قد تلاشى تماماً بسبب موقف رؤساء لورنس . فقد صدموا عندما علموا بأنه قام برحلته الشمالية أملاً أن ينهي بذلك انخراطه في الحرب (الثورة) العربية . لذلك ، فقد كان مرتاحاً عندما لم يمنح وسام صليب فيكتوريا لأسباب فنية (لأن تلك الرحلة لم يشهد عليها ضابط بريطاني آخر) . إلا أنه ، بدلاً من ذلك ، منح بعد وقت قصير «وسام الزمالة» ، ورفع الى رتبة ميجور (رائد) .ورغم أن هذا الوسام قصد منه بشكل رئيس تقدير رحلته الشمالية ، فإنه لم يعلن عن ذلك رسمياً . ورغم ذلك ، ومما يدعو للأهمية ، فإن «وسام الزمالة» منح له بأثر رجعي ، إلى اليوم الأول من شهر حزيران عندما باشر برحلته الشمالية . وقد أظهرت رسائله التي بعث بها الى اسرته رفضه الكامل لهذا الوسام .

كانت الخطوات الرئيسة التالية في خطة لورنس هي الانتقال إلى مقر قيادة الأمير فيصل في العقبة ، والقيام بالترتيبات الدفاعية الملائمة لمنع أي تحرك يأتي عبر وادي اليتم سيوفر هنا أيضاً الوصول إلى أراضي سوريا الداخلية ، ويمكن المجموعات المقاتلة من القيام بغارات على خطوط المواصلات التركية . وعلى المدى الطويل ، فأنه يمكن أن يجري إعداد سكان جنوب دمشق للانضمام إلى الثورة . وكتب لورنس فيما بعد يقول : «عندما سينضم الينا سكان حوران ، فان حربنا ستنتهي بشكل جيد» .

وكانت العملية تتطلب بناء سلم (جسر) آخر من القبائل ، بحيث يمكن تسلقه من الوجه إلى العقبة : فجسرنا الحالي هذا ستكون درجاته مكونة من قبائل الحويطات ، بني هاني ، الشرارات ، الروالي ، والسرحان ، لنصل إلى الأزرق ، الواحة الصحراوية الأقرب

إلى حوران وجبل الدروز (جبل العرب) . فقد كنا بحاجة إلى التوغل إلى مسافة أكثر من ثلاثمائة ميل داخلاً يمكنه أن يشعر بالأمان والراحة هناك ، حيث تمكن أن يكون المنطقة السيطرة عليها من قبل الهجانة العرب واسعة ، تتحكم بالبراري والصحاري المحيطة بمكة وحلب وبغداد .

وبالنسبة لوصف عملياتنا . . . فلابد أنها كانت تشبه الحرب البحرية ، في تحركاتها ، وكليتها ، واستقلالية قواعدها وانعدام الاتصالات . . . فمجموعات الإغارة الهجانة مستقلة ذاتياً ، ، كالسفن ، يمكنها أن تشن هجوماً دون أن تتعرض إلى الخطر على طول جبهة العدو الخصبة زراعياً ، والضرب أو الاغارة على خطوط مواصلاته حيثما كان ذلك أسهل أو أكثر ملائمة أو أكثر فائدة ، منع التأكد دائماً من تأمين الانسحاب إلى مناطق صحراوية لا يمكن للأتراك الوصول إليها . . . ويجب أن تكون تكتيكاتنا القتالية حسب مبدأ إضرب واهرب : أي ليس الاندفاع ، وإنما توجيه الضربات . كما أنه لا يجب علينا محاولة الإبقاء على الهجوم أو تطويره ، وإنما الانسحاب لضرب موقع آخر في مكان آخر . وينبغي علينا استخدام قوة صغيرة جداً في أسرع وقت للهجوم على موقع أكثر بعداً .

فالسرعة اللازمة ومدى حجم الضربة أو الهجوم ، إذا ما كنا سنشن هجوماً بعيد المدى ، ستكونان مقتصرتين على رجال الصحراء ، لفاعليتهم العالية في القيام بالإغارة والقتال على الجمال . . . فمؤنتنا من الغذاء تكفي لمدة ستة أسابيع ستمنحنا طاقة للتوغل مسافة ألف ميل ، ومن ثم العودة إلى منطقتنا» .

إن انتقال قاعدة فيصل من الوجه إلى العقبة كان يعني نهاية خطة العلا . غير أنه بعد إجراء بعض التداول ، حقق لورنس هدفه . ولا ريب أن فوائد الحملة العسكرية الوشيكة للّنبي للشمال حينذاك كان لها أثر في تخفيف حجم المعضلة في الشمال . لذلك فقد جرت الموافقة على أن تغلق قاعدة الوجه وأن ينتقل جويس إلى العقبة ليحتل موقع كبير الضباط البريطانيين .

وكان التغيير الرئيس المقترح الذي عرضه لورنس هو أنه يجب ان يوضع جيش فيصل في المستقبل تحت قيادة اللّنبي مباشرة . ويجب أن يتعاون هذا الجيش في الشمال مع القوات البريطانية إضافة إلى أن العقبة كانت تبعد سبعمائة ميل عن مكة ، إلاّ أنه لا تبعد سوى مائة ميل عن مقر قيادة اللّنبي المتقدمة . لذلك فقد كان من المنطقي وضع

الجيش الشمالي برمته تحت قيادة اللّنبي ، اذا ما وافق الشريف حسين على هذا الترتيب . وبناءً على ذلك توجه لورنس إلى جدة في السابع عشر من تموز للسعي من أجل الحصول على موافقة الشريف حسين ، ولإجراء مباحثات مع ويلسون حول خطط الانتقال إلى العقبة .

وصلت في اليوم التالي برقية إلى القاهرة من وزارة الحربية البريطانية تقر مقترحات لورنس فيما يتعلق بالجبهة الشمالية . وقد أظهر رد اللّنبي في التاسع عشر من تموز أن دور الجيش العربي أصبح يحتل جزءاً مهماً في الخطط الحربية التي أعدها للتنفيذ في شهر أيلول . فقد أبرق إلى الحربية البريطانية يقول : «إن فائدة التعاون مع الجيش العربي على الأساس الذي اقترحه الكابتن لورنس ، تعتبر من وجهة نظري ذات أهمية ، بحيث لا يجب أن لا يستغنى عنها أبداً» .

توقف لورنس في الوجه وهو في طريقه جنوباً إلى جدة ، آملاً أن يلتقي بفيصل . ونقل بطائرة إلى موقع القيادة في الداخل التي أنشأها نيوكمب وجويس بالقرب من خط السكة الحديد . وكان فيصل مسروراً عندما علم بأنه قد جرت الموافقة على القيام بعمليات عسكرية في الشمال ، وكتب بناءً على طلب من لورنس إلى والده يحثه على نقل قيادة جيشه إلى قيادة اللّنبي . كما أنه اتخذ خطوات لإرسال تعزيزات مباشرة إلى العقبة .

في ٢٢ تموز وصل لورنس إلى جدة ، حيث أجرى مباحثات شخصية مع ويلسون ، وعرض غيرها من المتطلبات من أجل إقامة قاعدة جديدة في العقبة . فوافق ويلسون على هذا الانتقال على الفور ، إذ أنه كان يحبذ دائماً فكرة القيام بحملة عسكرية على سوريا . وكان يعلم أن القيام بهجوم على خط السكة الحديد في الشمال سيؤثر مباشرة في الإمدادات التركية المرسلة إلى المدينة المنورة ، وأصبح آنذاك متفائلاً كلياً بوجود فرص لتحقيق نجاحات أكثر في الحجاز لذلك فقد عرض نقل خمسة من ضباط الاتصال البريطانيين ذوي الخبرة للعمل مع جيش فيصل في سوريا .

وكان ويلسون أصلاً ينوي إرسال نيوكمب إلى العقبة أيضاً ، إلا أنه بعد أن بحث الأمر مع لورنس كتب يقول : «لقد فهمت أن هذه الخدمة لن تكون ضرورية لعمليات الأمير فيصل العسكرية» . فالتقارير الراهنة ، آنذاك عن نيوكمب ، والتي اطّلع عليها

لورنس في القاهرة ، كانت تقترح بأن فترة الاستفادة منه مع العرب قد انتهت . ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى غادر الحجاز للخدمة مع القوات البريطانية في مصر .

أما مهام الضباط البريطانيين الذين نقلوا إلى العقبة فقد وضعها كلايتون على النحو الآتي : كلايتون (النقيب) لورنس يخدم مع قوات البدو ، يقدم لها المشورة ، ويوجه عملياتها إلى أقصى حدود ممكنة . المقدم جويس يقوم بتقديم المشورة ، وتوجيه القوات المتدربة بقيادة جعفر باشا والتي ستتمركز في العقبة وستشكل حامية هناك . واذا ما تطلبت التطورات في المستقبل فإن هذه القوات ستنتقل للخدمة في حوران لتقديم الدعم لقوات الدروز هناك .

وعين النقيب جوسليت ضابطاً للتموين في العقبة ، ومسؤولاً أيضاً عن جميع الامانات والودائع القادمة من مصر إلى الحجاز . والنقيب مارشال رئيساً للفريق الطبي في الحجاز . كما اسندت للضباط هوربني ، الخبير في تدمير السكة الحديد ، مهمة مرافقة جيش الشمال ، لهذا الغرض .

أُتخذت الترتيبات على الفور لنقل جزء من جيش فيصل النظامي إلى العقبة وسينقل ما تبقى من القوات هناك بقيادة جعفر باشا ، في أواخر شهر آب مع الأمير فيصل نفسه .

قبل ذلك ببضعة أيام كتب ويلسون إلى الشريف ، طالباً منه مقابلة «الكابتن لورنس الذي سمعتم عنه جلالتكم ، وقد وصل إلى هنا اليوم ؛ كان يعمل مع الشريف ناصر ، وكان نفسه يتواجد في شمالي دمشق وقابل شيوخ قبائل مختلفين . وقابل الأمير فيصل في الوجه ، كما انه قابل سعادة المندوب السامي البريطاني في القاهرة ، والقائد العام البريطاني في مصر . . . وسأذهب أنا والنقيب لورنس إلى القاهرة في غضون أربعة أيام ، لذلك أُرغب في أن تمنحونا شرف مقابلتكم قبل ذهابنا إلى مصر ، إذ أن ثمة أموراً على جانب كبير من الأهمية تتطلب موافقة جلالتكم عليها» . وهكذا فقد تشرف لورنس بمقابلة الشريف حسين في مكة لأول مرة في ٢٨ تموز .

وتوقع لورنس وويلسون بأن يضع الشريف حسين صعوبات حول انتقال جيش فيصل إلى قيادة اللّنبي . إلا أنه ، في الحقيقة ، لم يعارض الفكرة ، ووقع كتاب تعين الأمير

فيصل قائداً عام لجميع القوات العربية العاملة في الشمال من العقبة ، وكان نصه : «ستكون للأمير فيصل مطلق الحرية في التعامل مباشرة مع القائد العام البريطاني في الأمور العسكرية كافة» وقد أبقت هذه الصيغة الدبلوماسية على استقلالية قيادة القوات العربية في الواقع ، في حين جرى الضمان مستقبلاً بأنه سيكون بوسع البريطانيين التعامل مباشرة مع قيادة قوات فيصل من دون الرجوع إلى أخذ موافقة الشريف حسين وعلى نحو مميز ، فقد خصص الشريف وقتاً طويلاً من المقابلة لعرض وجهات نظره الدينية . ومع أنه رفض فكرة طموحه بأن يكون خليفة للمسلمين ، فقد كان واضحاً أنه لا يزال يأمل بتبوّ موقع له سلطة روحية أكبر في العالم العربي وقد وجد لورنس هذا النموذج غير المتوقع من الاهتمام البارز ، وكتب تخميناً مفصلاً لتلك المباحثات .

وفي اليوم التالي طلب الشريف حسين رؤية لورنس ثانية ، وخصص هذه المقابلة للتحدث عن المباحثات التي أجراها مع كل من سايكس وجورج بيكو في شهر آيار . وكان لورنس قد علم من ويلسون ومن آخرين أيضاً بأن هذه المباحثات كانت غير مرضية . وبعيداً عن صياغة وضع سياسي حقيقي وواضح ، فقد ترك كل من سايكس وجورج بيكو الأمر بشكل أكثر تشويشاً من قبل . وكان التوافق الوحيد الذي ظهر لفهم الغموض وهو أن فرنسا ستتصرف في سوريا بالأسس نفسها التي ستتصرف بها بريطانيا في العراق . وقد سرّ كل من جورج بيكو والشريف حسين بهذه الصيغة لأن كل واحد منها فسرها على طريقته الخاصة المختلفة واعتقد جورج بيكو ، المطلع على بنود الاتفاقية بأن المقصود هو أن تفرض بريطانيا حكماً مباشراً في بغداد ، لذلك فقد كان بإمكانه الادعاء بأن الشريف حسين قد وافق على فرض الانتداب الفرنسي على سوريا برمتها . من جهة أخرى ، كان الشريف حسين يعمل على أساس مراسلاته مع مكماهون ، فقد أعتقد بأن الحكم البريطاني للعراق لن يكون بشكل دائم ، وأنه بهذا المفهوم الجديد ستتخلى فرنسا عن ادعاءاتها في كل من سوريا ولبنان فهذه الصيغة المخادعة قد اقترحتها سايكس ، الذي عَدّ الاتفاقية من دون شك تشكل نجاحاً شخصياً لذلك عندما اكتشف ويلسون الدور الذي كان يلعبه سايكس تملكه الاشمئزاز .

بينما كان لورنس في جدة وصلت برقية تحذيرية من كلايتون في القاهرة تقول : «لقد ورد إلينا من عميل لنا هذا الأسبوع ، أن عودة أبو تايه (الذي كان يُعَد الساعد الأيمن

للنقيب لورنس في العمليات الحربية الجارية بمنطقة معان آنذاك) قد كتب إلى الأتراك يعرض عليهم القيام بثورة لصالحهم ، وكانت العروض قد قدمت (من قبل الأتراك) لنوري الشعلان في هذا الشأن وليس له إلا أنه أصبح الآن راغباً في أن يقوم بذلك تحت شروط معينة ، وكتب في هذا الخصوص مرتين إلى قيادة الجيش التركي الثامن في معان يطلب منها مكافأة له على ذلك» . وأدت هذه الأخبار إلى حدوث تشويش كبير . فعودة لم يعد يوثق به في الدفاع عن القويرة ، وهو موقع مهم يقع على الطريق ما بين العقبة ومعان . وكان الأتراك قد اعادوا السيطرة على منطقة «أبي اللسن» حينذاك ، ويقومون بقصف القوات العربية المتواجدة بالقرب من العقبة . لذلك ، فإذا ما تخلى الحويطات عن مواقعهم قبل وصول قوات فيصل النظامية ، فستكون ثمة فرصة ضئيلة لمنع الأتراك من الاستيلاء على وادي اليتم ومثل هذه النتيجة ستكون مميتة للحملة في الشمال برمتها . لذلك فقد ذهب لورنس إلى العقبة بأسرع ما يمكن ، ومن ثم إلى الداخل لمواجهة عودة بحقيقة هذه الخيانة إلا أنه كانت توجد تفسيرات مربكة لدى عودة ومحمد الدخيلان ، الزعيم الآخر للحويطات آنذاك . وبدا أن لورنس لم يكن مقتنعاً ببرائتها ، غير أنه شدد على كذبته بأن فيصلاً سيوزع الهبات بسخاء عما قريب ، وقد أمل من ذلك أن يؤدي إلى عدم تشجعهما على الاستمرار بأسلوب التذبذب .

بعد هذه الزيارة السريعة للعقبة ، قضى لورنس أسبوعاً في القاهرة ، حيث قام هو وويلسون باجراء مباحثات مفصلة في المكتب العربي . فقرر في ذلك الوقت أن خبراته خلال الثورة تستحق وضعها في كتاب . فقد كانت هذه الفكرة متشكلة في مخيلته منذ بعض الوقت ، إذ أن موقعه الدائم آنذاك في قيادة الأمير فيصل منذ شهر شباط جعله يقوم بتدوينات مختصرة للأحداث والشخصيات وذكر هذا المشروع لويلسون وللآخرين خلال محادثتهم في القاهرة .

كان ثمة أيضاً مشروع كتابي فوري ؛ ففي محاولة لتجاوز أسرار نجاحاته في التعامل مع العرب وضع لورنس سلسلة من الإنجازات دعيت بـ «المقالات السبع والعشرين» . ونشرت هذه المقالات في النشرة العربية في ذلك الشهر فيما بعد . وأصبح واضحاً من هذه «المقالات» أن لورنس أصبح يقوم بدور قيادي سري حينذاك ، وهو يقول في هذا الصدد : «إن موقعك يكون مثالياً عندما تكون موجوداً لا ملاحظاً . ولا تكن ودوداً أو

حميماً إلى حد كبير ، أو بارزاً جداً ، أو جاداً جداً . وتجنب أن تكون موجوداً لفترة طويلة مع أي شيخ قبيلة ، حتى لو كنت تعمل ضابط صف في الحملة (العسكرية) ولكي تؤدي عملك فانه ينبغي عليك أن تتجاوز الغيرة ، وأن تفقد الهيبة والتقدير إذا ما كنت ملازماً أو منخرطاً مع قبيلة أو عشيرة ، وان تتجاوز نزاعاتها المحتومة . فالاشراف هم فوق النزاعات الدموية والتنافسات المحلية كافة ، وتشكيل المبدأ الوحيد للوحدة بين العرب لذلك دع اسمك يقترن مع اسم الشريف دائماً وقم بنفس دوره تجاه القبائل . وعنما تأتي لحظة العمل فضع نفسك علناً تحت أوامره . فالبدوي سيكيف مع ذلك عندئذ ويتبعك .

إن الأجنبي أو المسيحي لا يُعَّد شخصاً معروفاً في الجزيرة العربية ورغم ذلك فإن الود وعدم الرسمية قد يكونان علاجاً لك ، وتذكر دائماً أن تكون مبادؤك مرنة جداً . لوح بالشريف أمامك كمثل راية ، واخف أفكارك وشخصيتك . فاذا ما نجحت فإنك ستملك مئات الأميال من الأرض ، وآلاف الرجال تحت أُمرتك ، ولهذا السبب فإن الأمر يستحق المجازفة .

وفي حين يكون من الصعب جداً دفعهم ، فأنه من السهل قيادة البدو ، اذا ما كان لديك صبر على تحملهم . وكلما كانت تدخلاتك الظاهرة معهم أقل كان تأثيرك فيهم أكثر ، فهم تكون لديهم رغبة في إتباع نصيحتك والقيام بما ترغب فيه ، غير أنهم لا يضون أن تكون مدركاً لذلك انت أو أي واحد آخر . وأنه فقط بعد إنتهاء الإزعاجات كلها تجد حسن نيتهم الحقيقية» .

عاد لورنس إلى العقبة في السابع عشر من آب ، بعد الاحتفال بعيد ميلاده التاسع والعشرين مباشرة . وبعد ثلاثة أيام أصدر دونيل دي سنيت كوينتين ، من ضباط مكتب الاتصال العسكري الفرنسي في مصر ، ملخصاً سرياً عن عمله وانجازاته لوزارة الحربية في باريس . وكتب يقول : «من المحتمل أن يكون هذا الضابط ، الذي غالباً ما ظهر اسمه من خلال المراسلات الصادرة من القاهرة ، أعظم شخصية في الجيش أو الإدارة البريطانية في الشرق الأوسط» .

الفصل الثاني عشر

الحملة الأولى على سوريا

آب - كانون الأول ١٩١٧

في منتصف شهر آب جرى تحويل العقبة إلى قاعدة عسكرية على نحو جيد . وأرسلت البحرية البريطانية إلى هناك السفينة الحربية «هومبر» كسفينة حراسة وقيادة ، وقد رفع وجود هذه السفينة وعزز من المعنويات العربية . وفي غضون ذلك كانت سفن أخرى من الأسطول البريطاني تقوم بنقل الرجال ، والدواب والمؤن من الوجه .

كان الشريف ناصر يقوم بعملية تجنيد الرجال بصورة مستمرة ، اذ عندما ضمه فيصل إلى الجيش توافد يومياً مئات المتطوعين . وكتب لورنس يقول حول ذلك : «لقد أصبح اندفاع العرب إلى الشريف واسعاً لا يصدق تقريباً ، منذ وصول فيصل (إلى العقبة) ، حتى أنه لم يعد بوسعه مقابلة جميع شيوخ القبائل من الوافدين الجدد» . إلاّ أن من إحدى نتائج ذلك كان ازدياد عدد الأشخاص في العقبة مما أصبحت معه مشكلة التموين دقيقة .

ورغم أن الأتراك قد شكلوا بعض الضغط على المواقع العسكرية العربية الخارجية ، فإنه لم يكن ثمة أي هجوم رئيس على القوات العربية . إلا أنه أصبح من المعروف أنهم كانوا يستعدون للقيام بعمل ما ، فقد كانت طائراتهم التي تنطلق من منطقة معان تحدث أضراراً بالغة في المعنويات العربية . ولكن في ٢٨ ، ٢٩ آب قامت أربع طائرات من سلاح الجو البريطاني بالإغارة على معان القويلا ، وأبي اللسن وقد فاجأت هذه الغارات غير المتوقعة الأتراك أيضاً .

كان الوضع العسكري العربي يدعو إلى القلق فرغم أنه كان بالإمكان الدفاع عن العقبة ذاتها ، فإن الخط الدفاعي المهم كان يوجد بعيداً في الداخل ومستقبل الحملة على سورية اعتمد على عناصر البدو المحليين ، الذين سيتصرفون بشكل سيىء إذا ما شنت القوات التركية الموجودة في معان هجوماً واسع النطاق .

وكان لورانس واثقاً من أن القوات التركية في معان لن تخاطر بشن هجوم واسع النطاق إلى أن يجري تعزيزها بشكل أساسي ، وقد عُدَّ أن إتباع خطة الهجوم يمكن أن يكون أفضل طريقة للدفاع عن العقبة من هجوم تركي . لذلك فقد اقترح القيام بغارة على خط السكة الحديد الواقع بين معان والمدورة ، على بعد ١١٣ كيلو متراً إلى الجنوب ، وكتب يقول في هذا الشأن : «توجد هناك سبع محطات سكة حديد لا تحتوي على مصادر مياه ، ولدي أمل بأنه يمكن بوساطة مدافع ستوكس ولويس أن نكون قادرين على القيام بشيء خطير ضد الخط الحديدي . ولكن ما أن بدأ الهجوم على السكة الحديد حتى بدأت قوات نظامية عربية بدخول جبال الشوبك والكرك (الواقعة إلى الشمال الغربي من معان) وحاولت احتلالها فاذا ما حققت هذه العمليات بعض النجاح ، فمن المحتمل أن تنسحب القوات التركية من الغويلة ، أو أن تتقلص ، وبذلك يصبح موقفنا في العقبة آمناً» .

في الأول من أيلول ، حضر كلايتون إلى العقبة وعقد جولة مطولة من المباحثات مع الأمير فيصل ولورنس حول وضع الاستراتيجي للقوات . وبينما كان هناك ، أخرج رسالة مثيرة وردت من سايكس ، أثارت جميع أنواع المسائل والأفكار المتواردة في ذهن لورنس . فقد كان سايكس منزعجاً بشكل كبير من الأحداث التي جرت في لندن خلال مدة غيابه في الشرق الأوسط . كتب يقول : «لقد وجدت أن وزارة الخارجية قد خربت بعناية كل شيء أنجزته في العامين الماضيين . وأثارت شعوراً معادياً للاتفاقية ودفعت قدماً بفكرة إجراء مفاوضات منفصلة مع الأتراك . وفي الحقيقة فقد وصلت في الوقت المناسب» .

فإذا لم يسمع لورنس بالإشاعات السارية آنذاك حول تحركات سرية لعقد اتفاقية سلام مع تركيا ، فقد كانت هذه الرسالة تشكل إنذاراً كافياً لذلك فحتى عندما كان سايكس يقوم بكتابة ملاحظاته ، كان أوبري هيربرت يجري مباحثات مع ممثلين أتراك في جنيف . وفي الحقيقة ، فانه لم ينتج أي شيء عن هذه المحادثات ، إلا أن الاتصالات بين بريطانيا وتركيا استمرت خلال ما تبقى من مدة الحرب ، وبدا في ذلك الوقت أن التوصل إلى اتفاقية بينهما كان وشيكاً .

تحقق لورنس أن مصير العرب يمكن أن يكون متأثراً بشكل كبير بمثل هذه المفاوضات فكتب يقول فيما بعد : «لقد كان لدي دائماً خوف خفي من أن من الممكن أن تتوصل بريطانيا العظمى إلى اتفاقية سلام منفصلة مع المحافظين الأتراك فقد قطعت الحكومة البريطانية شوطاً طويلاً في هذا الاتجاه ، ومن دون ابلاغ حليفها الأصغر (العرب) بذلك . فمعلوماتنا عن الخطوات المحددة ، وعن الاقتراحات (التي تُعَّد مميتة للعديد من العرب وقواتهم الذين يحاربون إلى جانبنا لم تصلني بشكل رسمي ، وإنما بشكل خاص . وكان أصدقاؤنا قد ساعدوني عشرين مرة أكثر مما فعلت حكومتنا» .

تضمنت رسالة سايكس إلى كلايتون تحذيراً من أن يحمل التحالف البريطاني الفرنسي على محمل الجد قائلاً : «ثمة سياسة واحدة ممكنة فقط ، وهي الاتفاقية (البريطانية - الفرنسية) أولاً وأخيراً ، وأن الأمة العربية تُعد وليدة هذه الاتفاقية فاجعل رجالك الإنجليز يعلمون العرب بهذا . . . فالاستعمار يُعَّد جنوناً ، واعتقد بأن بيكو وأنا يمكننا إثبات ذلك لهم . لقد كان تحرك لورانس (الاستيلاء على العقبة ، مثلاً) رائعاً ، وأرغب في مكافأته على ذلك ، فأبلغة الآن بأنه يُعَّد رجلاً عظيماً ، وينبغي عليه أن يتصرف حسب ذلك ، وأن يكون متوسعاً في وجهات نظره فبعد عشر سنوات من الوصاية والانتداب بموجب الاتفاقية (الفرنسية - البريطانية) سيصبح العرب أمة ، إذ أن الاستقلال التام سيعني الفقر والاضطراب والفوضى ودعه يأخذ هذا بالاعتبار ، كما يأمل من أجل الناس الذين حارب من أجلهم .

إن الفكرة المضادة للاستعمار الملاحظة هنا كانت تُعَّد عنصراً جديداً في رسالة سايكس البليغة ، وقد أُخذت بالاعتبار من خلال سياق الأحداث في كل مكان من العالم ، ففي الأول من نيسان دخلت الولايات المتحدة الحرب ، بسبب خنقها الشديد من مهاجمة الألمان للسفن التجارية وقد بين الرئيس الأمريكي آنذاك ، ثيودور ويلسون ، أن أمريكيا لن تكون متساهلة في موضع إقامة مستعمرات جديدة في أعقاب الانتصار في الحرب . ففي خطاب ألقاه أمام الكونغرس حذر ويلسون بقوله : «لا يمكن للسلام أن يدوم ، أو يستمر مع عدم اعتراف الحكومات وقبولها بمبدأ سحب قواتها كافة من الدول المحكومة بناء على موافقتها ، وأنه لا يوجد أي حق ، في أي مكان من العالم في نقل

سيادة على شعب ما إلى سيادة أخرى كما لو أنه من الممتلكات» .

لقد أُتخذت سياسة مشابهة أيضاً من قبل روسيا ، التي كانت آنذاك تحت سيطرة حكومة كرنسكي المؤقتة بعد انهيار النظام القيصري في شهر آذار ١٩١٧ طلب كيرنسكي تعهداً توافق بريطانيا بموجبه على سياسة تقرير المصير ينسجم مع الخطاب الذي ألقاه ويلسون في هذا الشأن . فاستجابت بريطانيا لذلك خشية من أن تتوقف روسيا عن الاستمرار في الحرب إلى جانب الحلفاء ؛ بل أنها أيضاً عبرت عن رغبتها في أن تعيد النظر ، اذا ما دعت الضرورة ، في الاتفاقات والمعاهدات القائمة لتكون متلائمة مع مبدأ ويلسون .

وكان رجال الفكر الحر الإنجليز يقرون بفكرة انه اذا ما أنهزمت القوى المعتدلة في العالم ، فإن مستقبل مستعمراتهم يجب أن يحل حسب مبدأ تقرير المصير وقد دخل هذا الشكل من أشكال المثالية بسرعة في المداولات السياسية حول أهداف بريطانيا الحقيقية من الحرب ، وكان سايكس حساساً جداً بخصوص ذلك . فاتفاقه السري مع جورج بيكو كان يُعَّد مناقضاً بشكل فاضح لسياسة ويلسون ، ومرتبطاً بمثل ذلك الإجراء الامبريالي الذي قد يشكل تهديدياً لمهنته السياسية لذلك أصدر قبل بضعة أيام من كتابته لكلايتون ، مذكرة يطالب فيها أن يطلق على الاتفاقية البريطانية - الفرنسية مستقبلاً عبارة الاتفاقية العربية - الإنجلو - الفرنسية ، وليس اتفاقية سايكس - بيكو .

كما تضمنت رسالة سايكس إلى كلايتون أيضاً الإشارة إلى المسألة الصهيونية فقد كان من المعروف أنه كان مهتماً بهذا الموضوع ، كما أن هيئة الأركان البريطانية في مصر قد عرفت أيضاً أن ثمة محادثات من نوع ما كانت تجري حول هذا الأمر في لندن . فالمطامع اليهودية في فلسطين كانت معروفة في القاهرة ، فقد كان آرون أرونسون ، وهو شخصية بارزة في الحركة الصهيونية ، يأمل في إنشاء مكتب صهيوني هناك . لذلك فقد كانت لدى لورنس أسباب مقنعة في أن يكون مهتماً في مسألة يمكنها أن تؤثر بوضوح في طموحات العرب الفلسطينيين .

في السابع من أيلول ، كتب سايكس مذكرة مطولة يطلب فيها الاستفسار عن الأهداف الصهيونية ، وعن مستقبل اتفاقية سايكس - بيكو . وأرسل هذه المذكرة إلى

كلايتون ، مع تعليق يقول : «بعضها بحاجة ماسة إلى معلومات حقيقية ، وبعضها الآخر يحتاج فقط إلى رغبة في تثبيته . . . فينبغي على المرء أن يكون لديه توضيحاً حول الشق اليهودي (من الاتفاقية) ؛ ويمكنني الاعتقاد (اذا ما انتظرنا) ، بأننا سنوضح الشق الفرنسي بأنفسنا» .

وكتب لورنس إلى سايكس يقول : «أطلعني الجنرال كلايتون على رسالة منكم احتوت على برقية لي - مما شجعني على أن استفسر منكم عن بضعة اشياء تتعلق بشؤون الشرق الأوسط . وآمل بأنكم ستكونون قادرين على منحي فكرة حول مجريات الأمور ، لأن جزءاً من المسؤولية يقع على عاتقي بشكل محتوم ، ومالم أعرف تقريباً ماذا يراد أن يكون هناك فإن الأمر يمكن أن يكون مزعجاً . وفي ما يتعلق باليهود في فلسطين ، فقد جرت الموافقة على عدم العمل ضد خط وادي عربة - البحر الميت - الأردن ، أو خط جنوب حيفا - بيسان .

وأنتم تعلمون بالطبع جذور الخلافات بين يهود فلسطين واليهود المستوطنين وإن أهمية هذا الأمر بالنسبة لفيصل تكمن في أن الفئة الأولى تتكلم العربية ، أما الفئة الثانية فإنها تتكلم لغة اليدش ، اليهودية الألمانية وهو على اتصال باليهود والعرب (فقيادتهم في صفد وطبريا تقع ضمن نطاق نفوذه) وهم على استعداد للتعاون معه بشروط وهم يظهرون عداءً وبغضاً للمستوطنين اليهود ، حتى أنهم اقترحوا اتخاذ إجراءات قمعية ضدهم . إلاّ أن فيصلاً أهمل هذه النقطة . ولم تكن ثمة نتيجة من الاتصال معهم ، فهم يقولون بأنهم اتخذوا ترتيبات مع القوى العظمى ولا يرغبون في الاتصال مع الجانب العربي . وانهم لن يساعدوا الأتراك ولا العرب .

والآن يريد فيصل معرفة (من الأفضل وصول المعلومات إلي قبل أن تصل إليه) ماهي الترتيبات القائمة بين المستوطنين اليهود (الذين يطلق عليهم أحياناً الصهاينة) وبين الحلفاء . . . وماذا وعدتهم الصهاينة ، وما هو برنامجهم أو مشروعهم؟

لقد اجتمعت بأرونسون في القاهرة ، وقال لي على الفور بأن اليهود ينوون امتلاك حقوق أراضي فلسطين كافة من غزة إلى حيفا ، وممارسة حكم ذاتي حقيقي عليها . فهل هذا الامتلاك سيكون بوساطة عمليات شراء عادلة أم بالبيع الاجباري والتجريد من

الملكية؟ فنصف الأراضي الزراعية التي يمتلكها الاقطاعيون القدماء قد تكون معرضة لذلك . كما أن العرب لا يستخدمون غالباً من قبل المستوطنين اليهود . فهل يقترح اليهود الطرد للفلاحين العرب ، أو تقليصهم الى فئة عمال ؟ وأنتم تعلمون كم يتعلق العرب بأرضهم حتى لو كانت سيئة ، وأنهم لم يتأثروا بمدى الحكم التركي . . . فالوضع سيكون مختلف جداً اذا ما كانت ثمة دولة عربية في الشمال والشرق ودولة يهودية في الجنوب (في فلسطين) ويمكنني أن أرى وضعاً ناشئاً لا يكون معه التأثير اليهودي المالي في أوروبا كافياً لردع الفلاحين العرب بسبب رفض التخلي عن أراضيهم - أو رفض أمور أسوأ» .

وفي ما يتعلق بالفرنسيين ، فقد كتب لورنس يقول : «بوسع العرب أن يتقدموا بثورتهم من دون مساعدة فرنسية ، لذلك فانهم ليسوا ميالين لدفع ثمن يكون معروفاً لديهم في المستقبل . فأنتم تقولون بأنهم سيحتاجون إلى مساعدة فرنسية لاحقاً في ما يتعلق بتطوير سوريا- ولكن هل تتخيلون حقيقة أن أي واحد في سوريا نفسها يريد تطوير سوريا بهذه الطريقة؟ ولماذا هذا الجنون من أجل التغيير؟ فالتقدم البطيء ، واستخدام فائض المصادر السورية نفسها يبدوان لي أمراً مرغوباً فيه أكثر من عملية الاقتراضات الأجنبية ، وأيضاً تشجيع الاستثمارات والمشاريع العامة : واعتقد أن وجهة النظر هذه ستكون على رأس أولويات حكومة دمشق . . .

ولا أعتقد بأن اتفاقية سايكس - بيكو يمكنها أن تتفاعل مع الأمور . فالشريف سينجح ، متيحاً وقتاً كافياً لاستمرارية مساعدتنا ، وسيتولى بجهوده الذاتية (فلا تأخذ بعين الاعتبار أعداد وكميات الدواب والذخيرة التي زودناهم بها : فالايادي والرؤوس (الرجال) كانت من عنده) المنطقة المخصصة له من قبلنا ، وهي سوريا المستقلة ، وسيتوقع الحفاظ عليها دون فرض مستشارين أجانب عليها . وبما أنه سيأخذ هذه المنطقة المخصصة له ، فإنه سيأخذ ايضاً أجزاءً من منطقة أخرى لم تخصص حقيقة للدولة العربية ، فاسمه سيكون عاملاً قوياً في ذلك - فما الذي ستفعله القوتان العظميان (بريطانيا وفرنسا) في هذا الشأن؟» .

قرر كلايتون عدم إرسال هذه الرسالة إلى سايكس . وبدلاً من ذلك ، كتب إلى لورنس يقول : «لقد أسقط مارك ، كما علمت ذلك من هوغارت ، الشرق الأدنى من

حساباته حالياً ، وأن المسألة برمتها تُعَد مهملة بعض الشيء في الوقت الراهن . ومن الأفضل تماماً عدم بعث رسالتك إلى مارك خشية أن يثير ذلك نشاطه من جديد في هذا الاتجاه . فكل ما سمعته أن اتفاقية سايكس - بيكو موضوع غير مجد من قبل معظم الأطراف . . . وأنا ميال إلى الاعتقاد بأنه أصبح هاجعاً أو سبوتاً . وفي الوقت نفسه فإننا قطعنا على أنفسنا عهد شرف لفرنسا بأن لا نوجه لها ضربة قاضية ، لذلك ينبغي علينا أن نلتزم بذلك في الوقت الحاضر ، الى أبعد حد يمكننا القيام به وباختصار ، اعتقد أنه بوسعنا في الوقت الحاضر ترك ذلك لوحده ما أمكن ليتلاشى ويموت تلقائياً . وكما تعلمون ، فإنني كنت من أتباع هذا الرأي منذ البداية . فاتفاقية سايكس - بيكو قد وقعت قبل عامين . وشهد العالم تطورات واسعة منذ ذلك الحين ، بحيث أصبحت هذه الاتفاقية الآن قديمة وبالية كمعركة واترلو ، أو كموت الملكة آن . فهي اتفاقية ميتة في الحقيقة ، واذا ما انتظرنا بهدوء ، فإنه سرعان ما سندرك هذه الحقيقة : فهي لم تكن أبداً أداة فعالة وقابلة للعمل وأنها عبارة عن صرح ميت لاحياة فية الآن ، وفي الوقت نفسه ، فإنه لا يمكننا توقع ذلك من الفرنسيين بعد ، لذلك ينبغي علينا التلاعب بذلك ما امكن إلى أن تفرض الظروف إثبات ذلك لهم» .

في السابع من أيلول غادر لورنس العقبة بقصد الإغارة على خط السكة الحديد . وكان الهدف الأكثر أهمية الذي يراد ضربه هو محطة المدورة ، حيث كان يوجد هناك مصدر مياه مهم يقع على الخط في مدى مائة وخمسين كيلو متراً ما بين معان ودحات الحاج (التي تبعد ٨٤ كيلو مترا إلى الشمال من بتوك) . فإذا ما أمكن تدمير منشآت المياه في المدورة ، فإنه سيصبح من الصعب جداً على الأتراك العمل في هذه المحطة ولاجتياز ذلك ، فإن على القطارات حمل كميات كبيرة من المياه من أجل أن يكون بالإمكان استخدامها في سفرات قصيرة . ومن وجهة نظر لورنس ، فقد كان الهجوم على المدورة له عدة فوائد الفائدة الأولى أنه سيحول المصادر التركية التي من الممكن ان تستخدم في محاولات إعادة الاستيلاء على العقبة . ثانياً ، أنه سيكون ضربة قاسية ضد خط المواصلات التركية إلى المدينة . ثالثاً ، اذا ما نفذت الغارة بنجاح فإنها ستزيد جداً من المعنوبات العربية .

وكما مألوف في مثل هذه العمليات البدوية ، فإنه قد وجد أن خطته الأصلية لا يمكن أن تنفذ . فتأمل أن يعبىء قوة مؤلفة من ثلاثمائة رجل من الحويطات في القويرة تكون كافية للاستيلاء على المحطة في المدورة . إلاّ أن هذه الخطة رغم ذلك ، أخفقت بسبب الخلافات القبلية ، وعدم الالتزام الكامل مع فيصل . والحقيقة أن بعض الرجال الذين أمل لورنس بتجنيدهم لم تدفع لهم أجورهم من قبل عودة أبو تايه منذ خدمتهم المبكرة ، وفي النهاية ، اضطر لورنس إلى الرجوع إلى العقبة . وبعد إجراء بعض المفاوضات تدبر أمر تشكيل قوة صغيرة ، ولكن عندما وصل إلى المدورة في السابع عشر من أيلول ، سرعان ما أدرك بأنه ليس بإمكانه الاستيلاء عليها . وبدلاً من ذلك انتقل إلى هدف آخر على السكة الحديد ، واستطاع في اليوم التالي تدمير قطار بنجاح ، مستخدماً للمرة الأولى أداة تفجير كهربائية بدلاً من أداة اتوماتيكية يدوية . وقد رافقه في هذه العملية المدفعيان الإنجليزيان على الرشاشات ، اللذان كانا يعملان في العقبة ، مما أسهم تصويبهما الدقيق في تحقيق نجاح كبير للعملية .

عاد لورنس إلى العقبة في الثاني والعشرين من أيلول . وكتب بعد بضعة أيام إلى صديقه في إكسفورد ت . ليدز يقول : «آمل عندما ينتهي هذا الكابوس أن أصحوا وأصبح حيا ثانية . فهذا القتل والتقتيل بالأتراك مخيف ، وتعلم بأن عليك أن تقتل المئات منهم بالطريقة نفسها قبل أن تكتشف أنه يجب عليك أن تقتل مئات أخرى عديدة ، اذا ما كان بمقدورك القيام بذلك» . في ٢٧ أيلول شن لورنس غارة أخرى ، وأخذ معه إضافة إلى رجال القبائل العرب ، النقيب بيزاني ، المدفعي الفرنسي الذي قدم إلى العقبة حينذاك ، وثلاثة من المثقفين السوريين الذين دربوا على استخدام المتفجرات . فقد أمل من تدريبهم بأن يريح نفسه من الاشتراك في الهجمات والغارات على خط السكة الحديد ، حيث سيكون من المفيد أكثر القيام بمهامه كضابط اتصال في مقر قيادة الأمير فيصل . ومرة ثانية ، فقد أحدثت هذه العملية أضراراً جسيمة في أحد القطارات ، بحيث ضمن لورنس أنه من المستحيل إصلاحه عندما عاد إلى العقبة ، في الثامن من تشرين الأول وجد لورنس بانتظاره برقية تطلب منه الذهاب إلى مقر قيادة القوات البريطانية في سيناء . وأرسلت طائرة من العريش لنقله . وفي الثاني عشر من تشرين الأول وصل إلى مقر القيادة ، التي كانت تقع في شمال العريش آنذاك . فوجد هناك كلايتون وهوغارت

وجرى بحث الخطط الهجومية الرئيسة لفصل الخريف بايجاز . وكما كان متوقعاً ، فقد صدرت الأوامر من لندن بالاستيلاء على يافا والقدس ، على أمل أن يقنع ذلك الأتراك بالخروج من الحرب .

لقد ترك قرار التقدم لورنس في مأزق كئيب ، ففي شهر تموز ، عند عرض أفكاره حول القيام بعمليات عسكرية عربية ، كان يتوقع أن يرسخ فيصل وضعه العسكري من دون صعوبات . ولكن ، في الحقيقة كانت مشاكل حادة تتعلق بالإمداد والتموين وحدوث الأمراض ، مما أصبحت معه المعنويات العربية منخفضة جداً ، وطالما أن طريق وادي اليتم كانت غير آمنة ، فإنه سيكون من المستحيل على العرب شن هجوم واسع النطاق في أية منطقة من سوريا وبعد تلك المباحثات كتب هوغارت يقول : «لم يحقق جيش فيصل عملاً كبيراً حتى الآن . ولورنس نفسه كان يتحدث بشكل يائس عن المستقبل العربي» .

وكانت توجد صعوبة أخرى تتمثل في أنه لا أحد يمكنه القول ما إذا كانت القوات البريطانية ستتقدم بشكل كبير أم لا . فإذا لم يكن الأمر كذلك فستكون الثورة العربية في سوريا معزولة بشكل مميت . ومن جهة أخرى اذا ما حقق اللَنبي نجاحاً ، فإن من المهم أن يكون العرب مستعدين ، من جانبهم ، لاستغلال أي تراجع أو انسحاب تركي يتبع ذلك وبتقرير القيام بنشاط في الشمال ، فإنهم سيكونون قادرين على تحويل الهزيمة إلى تشويش كامل للعدو وكتب لورنس فيما بعد يقول : «إن هذه ستكون لخطتنا المناسبة ، وسنكون بحاجة إلى أن نغدو مستعدين لذلك حيث سيكون وزننا وتكتيكنا أقل توقعاً بالنسبة للعدو وأكثر تدميراً له وبالنسبة لي ، فإن التركيز كان منصباً على درعا ، فهي تشكل نقطة الوصل بين القدس - حيفا - دمشق - المدينة للخط الحديدي ، وهي أسطول الجيوش التركية في سوريا والنقطة المشتركة للجهات كافة ؛ وهي منطقة بالصدفة ، تحتوي على نسبة ضخمة من الرجال المقاتلين الاحتياط ، الذين دربوا وسلحوا من قبل فيصل في العقبة . . . وكنا متأكدين ، انه تدبير تجنيد أثني عشر ألف رجل ، سيكون كافيا لاجتياح درعا ، وتدمير خط السكة الحديد كله ، وحتى الاستيلاء على دمشق بغتة» .

إن القيام بعمل حاسم ضد مركز السكة الحديد في درعا سيساعد اللَنبي بشكل

كبير ، وكما كان لورنس يعلم ، فقد كانت القبائل في غاية الشوق للقيام بذلك . من جهة أخرى ، فاذا ما فشل الجيش البريطاني فإن النتائج ستكون مفزعة . لذلك فقد واجه لورنس بمعضلة كان كل من كلايتون وهوغارت يتفهمانها تماماً فقد كتب في أعمدة السبعة يقول : «لم تكن تلك أول مرة ولا آخر مرة يضايقني فيها هؤلاء الأسياد ، فقد كنت واحداً من ضباط اللّنبي ، وحاصلاً على ثقته ، وفي مقابل ذلك فقد كان يتوقع مني أن ابذل ما باستطاعتي من أجله . وكنت في الوقت نفسه مستشاراً للأمير فيصل ، الذي كان يعتمد على إخلاص نصيحتي وكفاءتها إلى حد كبير . وغالباً ما كان يأخذ بها من دون نقاش ورغم ذلك لم يكن بإمكاني شرح الموقف العربي بكامله لاللّنبي ، ولا أيضاً كشف الخطة البريطانية برمتها لفيصل» . وتابع لورنس في مسودة كتابه يقول : «بالطبع ، كنا نحارب من أجل انتصار الحلفاء ، وحتى من أجل إنجلترا في النهاية ، وهي الشريك القيادي وكان التقدم في الحرب يعني فقط التضحية بالعرب على أرض المعركة ، وكان ذلك يجري من دون تردد ، ولكن كان من الصعب معرفة متى سينتهي ذلك ، إلا أنه كان من الضروري ، وفي هذه الحال ، أن يكلف ذلك ارواحاً وخسائر تدمر معها قضية فيصل» . واذا ما استولى العرب على درعا ، ومن ثم تخلو عنها أو انسحبوا منها فستكون هناك مذبحة رهيبة لجميع فلاحي هذه المنطقة ، لانهم يشكلون عصب قواتنا في العملية ، وهم ليسوا من البدو . لذلك يجب أن يكونوا قادرين على الانسحاب إلى الصحراء عندما تنتهي غارتنا أو حتى عندما تخفق . فقد كانوا من سكان المدن والقرى المزدهرة ، وسخروا أنفسهم وممتلكاتهم من أجل الانتقام من العدو المتوحش . ووفقاً لذلك ، يمكنهم أن يهبوا هبة رجل واحد ، ولابد أن يكون جهدهم في تلك المناسبة حاسماً . إلا أن دعوتهم الآن للقيام بذلك ستعرض أفضل قوات احتياطية ادخرها فيصل من أجل الانتصار النهائي للخطر ، على أمل أن يؤدي هجوم اللّنبي الأول إلى تدمير العدو وتمهيد الطريق لذلك» .

قرر لورنس قبل مغادرته القيادة العامة ، وبدعم من كلايتون ، أنه لا يمكن القيام في الوقت الحاضر بتحريك ثورة هناك . وبدلاً من ذلك اقترح لورنس الذهاب مع مجموعة إغارة من البدو لمحاولة تدمير واحد من الجسور الرئيسة لخط السكة الحديد عند تخوم نهر

اليرموك . فإذا ما أمكن تنفيذ ذلك في لحظة هجوم اللّنبي ، فسيحرم الجيش التركي في فلسطين من خط مواصلاته ويتقهقر باتجاه دمشق في أكثر اللحظات خطراً . ولا بد أن تحقق القوات البريطانية والأوروبية المشتركة نجاحاً ، وتكون اللحظة مناسبة جداً عندئذ للدعوة إلى قيام ثورة عامة فقدمت هذه الخطة لاللّنبي ، الذي أقرها ، وطلب أن يدمر الجسر في الخامس من تشرين الثاني ، أو في الأيام الثلاثة التي تلي ذلك . لذلك طار لورنس عائداً إلى العقبة في الخامس عشر من تشرين الأول من أجل التحضير لذلك .

لم يكن هوغارت ولا كلايتون متفائلين تماماً بفرص تدمير الجسر . وكتب هوغارت بعد ذلك بوقت قصير يقول : «أشك في ما إذا كان باستطاعته (لورنس) الوصول إلى الشمال ثانية . فالنجاحات الحالية قد تطلب وجود الكثير جداً من القوات حتى قطاع معان من خط السكة الحديد» . وبالنسبة لكلايتون ، فقد كان قلقه ينصب على سلامة لورانس الشخصية . فالإغارة على خط السكة الحديد الصحراوي كان يمثل خطراً جسدياً طفيفاً ، فيما عدا لحظة حدوث هجوم تركي مضاد . اما الآن ، فإنه يفترض القيام برحلة عبر منطقة مناطق قروية مأهولة والتوغل في أراضي العدو . وكتب جورج لويد ، الذي ذهب إلى العقبة ليرى ما كان بالإمكان تقديم أية مساعدة في هذا الشأن كتب إلى كلايتون في العشرين من تشرين الأول يقول : «إن لورنس ملائم تماماً لهذه المهمة ، إلا أنه سيواجه خطراً كبيراً أمامه . وقد فتح لي قلبه في الليلة الماضية وقال لي بأنه كان يشعر بأنه ما زال يوجد شيء كثير ليقوم به في هذا العالم . . . بحيث يبدو أنه من الرهيب إنجاز كل ذلك ، كما كان يشعر أنه بينما يقوم بالعمل يرى فرصة ضئيلة أو عدم وجود فرصة لتحقيق ذلك بنفسه . فحاولت أن انعشه وارفع من معنوياته وهو في الحقيقة يُعَّد زميلاً بارزاً جداً ، لا يقل شجاعة عن الذين يقومون بأعمال بطولية . بيد أنه ، كما قال لي في تلك الليلة ، كان يكره هذه الأعمال (العمليات) الخطرة تماماً قبل يومين أو ثلاثة فقط من القيام بها إلى أن يبدأ التحرك حيث يتملكه بعد ذلك النشاط وطبيعة الشهرة فيصبح في حالة جيدة تماماً ورد عليه كلايتون قائلاً : «إنني قلق جداً بشأن لورنس . فقد أخذ على عاتقه القيام بعمل هائل ، ويمكنني أن أراه يتمعن التفكير هذه الليلة . إن لديه قلب أسد إلا أن الأمر رغم ذلك ضخم جداً . حسناً ، إنه يقوم بعمل ضخم وهما قريب يمكن أن

ينبغي علينا سحبه من الميدان وعدم تعريضه للخطر . بيد أنه بناء على رغبته حالياً لم يحن الوقت بعد . والمسألة الحقيقية الأولى في مسرح عمليات هذه الحرب تجري حالياً ، وان الكثير يعتمد على العمليات التي ستجري في الشهر القادم» .

أمضى لورنس عشرة أيام في العقبة قبل بدءه القيام بحملة اليرموك . وقبل مغادرته العقبة بقليل جرى تغير الخطط بشكل مثير ، عندما قدم الأمير عبد القادر الجزائري إلى العقبة عارضاً مشاركة أتباعه في العملية . وكان عبد القادر من الجزائر ، يسيطر على عدد من القرى التي تقع على الضفة الشمالية من وادي اليرموك ، يسكنها مهاجرون جزائر ، إذ أنه بدعم منهم يمكن الإغارة بمجموعة صغيرة من الرجال والسيطرة على الجزء الأوسط من خط اليرموك الحديدي . وبدت ثمة فرصة جيدة تماماً لا يمكن إضاعتها ، فتقرر إشراك عبد القادر في العملية ، رغم ما يشاع عنه بانه كان متطرفاً . وجاء بعد ذلك تحذير من بريموند يفيد بأنه كان يتلقى مالاً من الأتراك ، الأمر الذي أضاف قلقاً آخر للورنس ، غير أنه لم يكن يوجد دليل يثبت ذلك ، فجرى تجاهل الأمر في النهاية . إذ أن شعور بريمond تجاه عدو معلن لفرنسا كان من الطبيعي أمراً مشكوكاً فيه .

غادرت الحملة العقبة في الرابع والعشرين من تشرين الأول بقيادة مغير مجرب هو الشريف علي بن الحسين من قبيلة حارث . وكانت أغلب القوة يتكون من عناصر قبلية شمالية ، غير أن لورنس أخذ معه مجموعة من المدفعيين الهنود ، الذين كانوا يخدمون في الحجاز منذ عدة شهور . وسيكون دورهم عند مهاجمة جسر اليرموك ، منع وصول أية تعزيزات أو نجدة تركية إلى المنطقة ، بينما تقوم قوات البدو بمهاجمة حراس الجسر . كما فكر لورنس من الأنسب اصطحاب خبير متفجرات لديه خبرة جيدة في تفجير قضبان الجسر وأعمدته الفولاذية ، فاختار الملازم وود ، مهندس الألغام الذي كان يخدم في قاعدة العقبة . وبهذه الطريقة ،فإنه ستكون ثمة فرصة جيدة لنجاح العملية ، حتى لو أدى ذلك إلى قتل لورنس أو جرحه عندما بلغوا الجفر ، وجد لورنس أنه من المستحيل أن يكون مرافقوه من رجال القبائل ، فقد تحدث في كتابه أعمدة الحكمة بغموض عن عدم اقتناعه بالحويطات بيد أن تقريراً معاصراً لذلك بيّن أنه لم يكن قادراً على حثهم للانضمام الى حملة اليرموك لأنه لم يتوقع الحصول على غنائم منها . وتحركت المجموعة إلى منطقة

البير ، حيث كان بمقدورهم تجنيد بعض الرجال من قبيلة بني هاني قبل أن ترحل الى الازرق ، وهي واحة صحراوية يمكن لمجموعة الإغارة المباشرة من هناك .

وقابلت المجموعة بعض أفراد من قبيلة السراحين الذين قاموا بارشادهم إلى مضاربهم بالقرب من الأزرق . وكانوا هؤلاء راغبين في الانضمام إلى الأمير فيصل ، غير أنهم لم يكونوا متحمسين للحملة المتوقعة ، إضافة إلى ذلك ، كانت أخبارهم عن الوضع المحلي في وادي اليرموك مقلقة . وكان هدف لورنس الأساسي ينصب على الجزء العربي من الجسر ، في منطقة الحمة التي قام باستطلاعها في شهر حزيران الماضي . إلا أن ذلك أصبح الآن مستحيلاً لأن المنطقة أصبحت مليئة بعمال قطع الأشجار الأتراك من أجل الوقود . وبموجب الخطة الحالية كان يقتضي مهاجمة أحد الجسور الرئيسة باستخدام القرويين التابعين لعبد القادر الجزائري ، بيد أن أفراد قبيلة السراحين كانوا يشكون في هذه الخطة ولا يثقون إلى حد كبير بعبد القادر . فظلت ثمة إمكانية ثالثة وهي محاولة القيام بهجوم على أقرب جسر للسكة الحديد الواقع في منطقة تل شهاب . وهذا سيكون أكثر خطورة من خطة عبد القادر ، لأن الاقتراب من الجسر سيكون من خلال منطقة مأهولة بالسكان . فإذا ما كان ثمة هطول المطر فسيكون من الصعب الفرار أو الانسحاب عبر ممر طيني . إضافة إلى ذلك فقد كان يوجد نزاع قبلي بين قبيلة السراحين والقرويين المحليين .

لذلك قرر لورنس بتحفظ شديد ، الإبقاء على الخطة القائمة ، إلا أنه لوحظ آنذاك اختفاء عبد القادر ، فخشي لورنس ، وكان محقاً في ذلك ، من أنه قد ذهب إلى الأتراك مما وضع الحملة برمتها في بوتقة الخطر ، إذ إنه (عبد القادر)كان على علم بجميع خططهم ، فأصبح من الغباء الآن الاقتراب من القرويين الجزائريين ، ومع وجود شكوك وريبة ، فقد جرى الاتفاق على أن جسر تل شهاب كان الخيار الوحيد المتبقي .

لم تعلم السلطات العسكرية في كل من القاهرة والعقبة شيئاً عن هذه التطورات غير أنها رغم ذلك ، كانت قلقة جداً ، ففي الرابع من تشرين الثاني (وهو اليوم الذي اختفى فيه عبد القادر) كتب جويس إلى كلايتون يقول : «لابد أن لورنس قد اقترب الآن جداً من هدفه آمل بأن يكون محظوظاً . ولحسن الحظ فقد اصطحب معه بعض العناصر

الذكية والجيدة في التنفيذ ، إلا أنه لا يسع المرء إلا أن يكون قلقاً . كما أن هوغارت كان قلقاً جداً حيث كتب يقول : «آمل فقط ، وإنني على ثقة بأن لورنس سيعود ، انه في هذه اللحظة يقوم بمهمته . فاذا ما أنجزها يكون قد حقق انتصاراً ، اما اذا لم ينجزها ، حسناً ، لا يهمني التفكير بذلك» .

كانت المسافة من الأزرق إلى تل شهاب تقدر بنحو ثمانين ميلاً ، حيث يكون الجزء الأخير منها محفوفاً بخطر كبير . ولن تكون محاولة للقيام بذلك قبل حلول المساء ، مما يتيح وقتاً ضئيلاً لتنفيذ الهجوم والانسحاب قبل حلول الفجر . ورغم ذلك فقد وصلت الحملة إلى هدفها بسلام في ليلة السابع من تشرين الثاني ، وجرت المراحل الأولى من العملية وفقاً للخطة الموضوعة . ومن ثم ، وعندما زحفت مجموعة التفجير إلى الجسر في الظلام سقطت بندقية من أحدهم أثار صوت ارتطامها انتباه الحراس الأتراك ، وأدى إطلاق النار الذي تبع إلى إثارة ذعر أفراد السراحين ، فخشوا من أن تنفجر المفرقعات اذا ما أصابها الرصاص ، ولذلك طرحوها في الوادي الضيق . ، ومع عدم وجود أي وسائل لتدمير الجسر فإنه لم تعد توجد أية جدوى من الاستمرار في الأشتباك ، ولذلك فقد أصدر لورنس أوامره للجميع بأن ينسحبوا بأسرع ما يمكن . وأصبح مخفقاً بشكل حاد ، إلا أنه كان ممتناً عندما انسحبت القوة المغيرة من دون خسائر .

عزم لورنس على إيجاد طريقة ما للتعويض عن هذا الفشل . إلا أنه كان لديه قليل من المتفجرات ، كما أن مدى نشاطه كان مقيداً بسبب نقص الأغذية لدى الحملة . وكان أفضل عمل أمكنه ان يقوم به هو نسف قطار بالقرب من المنغير على خط السكة الحديد الواقع بين درعا وعمان . وهذا لن يؤثر في خط السير إلى فلسطين ، إلا أن تأثيره سيكون جيداً على رفع المعنويات العربية .

لم تكن الظروف مثالية لشن هجوم ؛ ولكي يتم توفير الغذاء فقد التزم بإعادة المدفعيين الهنود إلى الأزرق ، وهذا يعني أن مجموعة الإغارة لم يعد لديها غطاء مدافع رشاشة . وكانت توجد أيضاً مشكلات أخرى عندما بلغت خط السكة الحديد ، فمضى قطاران من دون أن يصابا بأذى قبل أن يقوم لورنس بإشعال فتيل التفجير . وبين كتاب أعمدة الحكمة السبعة مدى ضآلة نتائج تلك الغارات على خط السكة الحديد ، حيث

يصف لورنس فيه هذا المشهد : «قدم قطار وهو يصفر بأعلى صوته . كان يحتوي على قاطرتين رائعتين واثنتي عشرة مقطورة ركاب ، وهو يدب على السكة الحديد بأقصى سرعته وضغطت على أداة التفجير عند مرور القاطرة الأولى ، فكان الانفجار مخيفاً وهبت عاصفة سوداء في وجهي ، فاصبحت ملابسي ممزقة وأخذ الدم ينزف من ذراعي اليسرى . وسحقت أداة التفجير التي كانت بين ركبتي وعندما انجلى الموقف وذهب غبار الانفجار بدا أن مرجل محرك القاطرة قد نجا من التدمير .

وشعرت بغباء من أنه كان بوسعي الفرار . . . ولكن عندما تحركت ، أدركت أن ثمة ألم شديد في قدمي اليمنى ، ولم يكن بمقدوري سوى أن أزحف ببطء ورأسي يترنح من الألم والصدمة . وبدأ التحرك يتوضح من خلال هذا التشوش فما أن وصلت إلى أعلى الوادي حتى أصبح الرجال العرب يطلقون النار على عربات (مقطورات) القطار المكتظة بالركاب . وأخذت أصيح بالإنجليزية والدوار يتملكني وأكرر جملة «آه ، لم أرغب في حدوث ذلك» .

وعندما بدأ العدو الرد علينا بفتح النار وجدت نفسي محصوراً بين الجانبين ورآني علي أسقط أرضاً ، فظن بأن إصابتي كانت خطرة ، فاندفع ومعه تركي ومجموعة من رجاله وأفراد من بني شاكر لمساعدتي ، فوجدهم الأتراك ضمن نطاق مدافعهم الرشاشة فأبادوا سبعة منهم في دقائق . . . فزحفنا معا عائدين نلتمس ملجأ وهناك في مكان اختبائنا ، تحسست نفسي فوجدت أنني لم أصب بأذى حقيقة ؛ فإضافة إلى الخدوش والجروح نتيجة لانفجار مرجل القطار ، أصابتني خمسة حروق مختلفة نتيجة لإطلاق النار (بعضها كان عميقاً بشكل غير مريح) ، وكانت ملابسي ممزقة إلى قطع . ومن خلال القناة المائية استطعنا أن نستطلع الأمر ، فقد دمر الانفجار رأس القاطرة وإطار المحرك . أما القاطرة الثانية فقد انقلبت في ثغرة ، واستقرت بمحاذاة المقطورة الأولى المدمرة . وأصبح هيكلها ملتوياً . فخمنت بأن القاطرتين لا يمكن إصلاحهما أما المقطورة الثانية فقد اختفت على الجانب البعيد الآخر ؛ ودمرت عربات القطار الثلاث الأولى وتحولت إلى قطع .

وكانت حالة بقية القطار سيئة والعربات متداخلة بعضها ببعض كانت إحداها عبارة

عن صالون ، زخرفت بالأعلام . . . ورآنا الأتراك هادئين جداً ، فبدأوا بالتقدم إلى سفح المرتفع . وجعلناهم يتقدمون نصف المسافة ثم فتحنا نيران رشاشاتنا عليهم فقتلنا نحو عشرين منهم وتقهقر الآخرون وأصبحت الجثث تحيط بالقطار ، إلا أن الأتراك كانوا تحت أنظار قائدهم ، فبدأوا بمحاصرتنا .

كنا قد أصبحنا آنذاك نحو أربعين فرداً ، ولا يمكننا بشكل واضح القيام بأي شيء مجدي ضدهم . لذلك فقد أخذنا نراوغهم من أجل تأخيرهم والانسحاب من أرض المعركة . . . وكان علي غاضباً مني بسبب انسحابنا ببطء وفي الحقيقة كانت جروحي تعيقني ، ولكن من أجل إخفاء هذا السبب الحقيقي عنه فقد تظاهرت بأنني كنت متساهلاً ، ومهتماً بالأتراك ومراقبا لهم . ووصلنا إلى أعلى الجبل أخيراً ،فقفز كل رجل على جمله ثم انطلقنا باقصى سرعة متوغلين في الصحراء ولمدة ساعة كاملة» .

كان لورنس محظوظاً بنجاة حياته وبعد ذلك عادت المجموعة المقاتلة إلى الأزرق ، فوصلت إليها في الثاني عشر من تشرين الثاني ولكن بدلاً من أن يعود إلى العقبة قرر لورنس المكوث في الشمال إلى أن يحين الوقت المناسب لشن غارة أخرى وفي حالة القيام بنشاط أكبر أيضاً يكون أكثر ملائمة لابد أن ينهار الأتراك تحت هجوم اللّنبي . إلا أنه مع حلول شهر تشرين الثاني ، يبدأ فصل الشتاء فأصبح لديه تخمين مؤكد بأن تقدم اللّنبي سيتوقف بسبب الطقس الرديء .

مثل فشل عملية اليرموك إخفاقاً مريراً للورنس ففي شهر تموز فكر بتقديم عرض لاللّنبي من أجل قيام ثورة عامة لمساعدة القوات البريطانية والأوروبية في التقدم ولكنه تراجع ، خشية من أن تفشل القوات البريطانية في الهجوم ، وقرر أن يقتصر نشاطة على القيام بنسف جسر للسكة الحديد . وفي النهاية ،لم يقدر على انجاز أي شيء وبقي خط المواصلات التركي بين دمشق وفلسطين سليماً لم يصب بأذى .

مضى بعض الوقت قبل وصول أخبار من العقبة إلى الأزرق بوساطة الرسل تفيد ببدء هجوم اللّنبي ، فقد حققت القوات البريطانية الأوروبية المشتركة انتصاراً على خط غزة - بئر السبع ، ولكن كما خشي العديد سرعان ما تعرض تقدمهم الصعوبات . وبالرغم من خسائرهم الفادحة فإن القوات التركية تراجعت وانسحبت بانتظام ، وسرعان

ما شنت هجوماً قوياً على مؤخرة القوات البريطانية . ولم يتوقف النبي عن التقدم بالتأكيد ، بيد أن تقدمه كان بطيئاً ومكلفاً . وفي أواخر شهر تشرين الثاني كان من الضروري التوقف لمدة أسبوعين لحين ما يتاح وصول قوات احتياطية إلى الجبهة ووصل جيش فيصل حينذاك إلى الأزرق ، فعزم لورنس على أن تبقى المنطقة بأيديهم . وكتب في «أعمدة الحكمة» يقول في هذا الصدد : «اما لأنها ستكون كقاعدة للإرشاد والتوجيه تنطلق منها حركتنا لتنتشر في الشمال ؛ وأما لأنها ستصبح مركزاً للاستخبارات ؛ بحيث سيكون من الممكن قطع اتصالات نوري الشعلان مع الأتراك . . . فالأزرق تُعَدّ مكاناً مفضلاً بالنسبة لنا ، وسيكون حصنها ملائماً لمقر القيادة إذا ما جعلناه مأهولاً مهما كان الشتاء قاسياً» .

لقد استغرق الأمر وقتاً كبيراً من أجل تسلية الزائرين وتشجيعهم على الاشتراك في الثورة . وكان علي بن الحسين متشجعاً لهذا أكثر من لورنس ، الذي قرر مغادرة المكان بعد يومين فقط ورافقه الشيخ طلال ، من قرية طفس الواقعة جنوب دمشق ، كدليل مرافق . فباشر برحلة قصيرة إلى المنطقة حوران لكي يتمكن من رؤية طبيعة الأرض بنفسه . وبعد أن قام بالالتفاف حول درعا قرر استطلاع المنشآت الدفاعية داخل المدينة ولذلك اصطحب معه في العشرين من شهر تشرين الثاني ، طلالاً واثنين من القرويين كمراقبين للقيام بالاستطلاع وبدا انه لا يوجد خطر كبير من جراء التجوال عبر بلدة منشغلة تلبس رداءً عربياً بصفة غير واضحة ، وكان لورنس نفسه معتاداً تماماً على الترحال بين السكان الفلاحين الذين يتواجدون خلف الخطوط التركية .

كان قد ضمن تخمينه الأولي عما حدث حينذاك في رسالة كتبها بعد ثمانية عشر شهراً بعث بها إلى ضابط زميل له ، بدأها بقوله : «لقد ذهبت إلى درعا لأتجسس على مواقعها الدفاعية فألقي القبض علي ، وتعرف علي حاكم درعا حاجم بيك ، من خلال الوصف الذي أطلعه عليه عبد القادر (فقد علمت كل شيء عن خيانته من خلال محادثة حاجم معي ، ومن خلال حراسي) . وكان حاجم متقداً غريزياً فأخذ يغازلني ولذلك فقد أبقى علي تحت الحراسة حتى حلول الليل ، ومن ثم حاول النيل مني» .

إلا أن هذه الرواية كانت مختلفة في كتاب أعمدة الحكمة السبعة في ما بعد ، فقد

أشار بغموض فقط إلى أنه قد جرى التعرف عليه . فالملابس العربية كانت جيدة بما فيه الكفاية من أجل التخفي في مكان بعيد ، بيد أنه لا لورنس نفسه ، ولا أي واحد من زملائه الضباط الإنجليز العاملين في الثورة ، أدعى من قبل أنه كان بإمكانه اجتياز خطوط العدو من أجل التجسس كشخصية عربية .

إضافة إلى ذلك فقد كانت شخصية لورنس معروفة جيداً للأتراك ، الذين خصصوا جائزة منذ وقت طويل من أجل القاء القبض عليه . وقد ازدادت قيمة هذه الجائزة في الآونة الأخيرة لتصبح قيمة الحصول على رأسه عشرين ألف جنيه استرليني .

ويبدو أن أول ما ألقي القبض على لورنس في درعا كان بسبب الشك في أنه فار من الخدمة العسكرية التركية وقد ادعى بأنه كان شركسياً مستثنى من الخدمة العسكرية ، إلا أن هذه الادعاء لم يقبل وجرى حجزه في غرفة حراسة . وفي المساء عندما أُخذ إلى البيك اكتشف أنه كان معرضاً لممارسة الشذوذ الجنسي معه . وكتب فيما بعد يقول حول ذلك «إن مثل هذه الحوادث تجعل التفكير بالخدمة العسكرية في الجيش التركي عبارة عن موت حي للفلاحين العرب الاصحاء كافة ، وستترتب على ذلك نتائج تعسة للضحايا طوال حياتهم وما بعدها» . لذلك فقد قاوم البيك ، واخيراً أُمر الجنود بأخذه خارجاً لتلقينه درساً لا ينساه .

لقد ضُرب لورنس بوحشية ، وعندما انهارت مقاومته جرى الاعتداء عليه جنسياً . إلا أن هذه المحنة لم تستمر طويلاً- ففي مسودة كتابة «أعمدة الحكمة السبعة ، يوحي لورنس أن عملية الضرب لم تستمر سوى عشر دقائق - بيد أنها أذته بشكل عميق . وتوقف الأمر عندما صاح حاجم بيك ، فرش الجنود الماء على وجهي ، وأوقفوني على قدمي ، ومن ثم حملوني ، ووضعوني على السرير ؛ إلاّ أنه دفعني عنه هذه المرة باشمئزاز ، وأخذ يشتمهم لغبائهم في التفكير في أنه بحاجة إلى شريك فراش مبلل ينزف دماً لذلك حملني الحراس إلى أسفل عبر درجات ضيقة وقادوني إلى الشارع . . . ومن ثم أخذوني الى مكان واسع مفتوح ، مظلم ومهجور ، يقع خلف مبنى الحكومة ، ووضعوني في غرفة فارغة مبنية من خشب وطين ، مليئة بالغبار ثم جاءوا بممرض أرمني ، فقام بغسلي وضمدني وهو شبه نائم ثم ذهبوا جميعهم ، وهمس آخر جندي

منهم لي بلهجة درزية بأن الباب المؤدي الى الغرفة التالية لم يكن مقفلاً» .

بالرغم من الجروح التي كانت تؤلمه فانه سحب نفسه لاستطلاع الغرفة الثانية ، التي خصصت كمستودع أدوية . وكان بالإمكان الخروج من نافذتها . وانتهت روايته للحادثة بقوله : «لقد فررت قبل حلول الفجر ، ولم أكن متأذيا جداً كما ظن حاجم ، الذي كان خجلاً جداً من فعلته بحيث أخفى كل شيء ، ولم يشر أبداً إلى حادثة القاء القبض علي وفراري . وعدت إلى الأزرق منزعجاً جداً من عبد القادر» .

في ذلك الوقت ، لابد أن أقوى عاطفة لديه كانت تمثل شعوره الغامر بالراحة التي افتقدها . ورغم ذلك فإن المظاهر الأخرى للتجربة في المستقبل ستسبب كدراً عميقاً ، وستظهر الأحداث فيما بعد أن هذا الاغتصاب الجنسي الشاذ الوحشي قد سبب خراباً وأزمة نفسية فظيعة له فهو كان عديم التجربة من الناحية الجنسية (ففي عام ١٩١٧ كان ذلك يمثل مبدأ بين الشباب المنتمين إلى الطبقة الوسطى) . وما نجم عن ذلك خلف لديه شعوراً عميقاً بالذنب والخجل . وقد كتب فيما بعد يقول : «لقد خدش وقاري وحيائي في درعا تلك الليلة بحيث لا يمكن محوه» .

بعد ذلك مباشرة كانت ثمة إشارات خارجية لهذا الجرح النفسي : فبعض النتائج سيستغرق فيها الأمر سنوات لتظهر جلية . فما أن انتهت الحملة (الحرب) العربية حتى ركز اهتمامه كله على مسؤولياته ، وكانت لديه فرصة ضئيلة لتمحيص حواسه . ولم يحدث ذلك إلا في ما بعد عندما انتهت الحرب ، اذ اثرت فيه حادثة درعا ، وسيطرت على معظم أفكاره وهواجسه . أما بالنسبة لجراحه النفسية ، فلم تكن أسوأ من الصعوبات الأخرى للحملة ، فقد شفي منها خلال بضعة أيام . وتحمل خلال الاثني عشر شهراً الماضية آلاماً متكررة وجرح عدة مرات ، إلا انه جعل ذلك ممارسة يقوم بها بأقصى ما يمكنه . لم يمكث طويلاً في الأزرق ، وبعد بضعة أيام بعث بتقرير حول العمليات الحربية الشمالية مع الملازم وود ، وقرر الذهاب إلى هناك (العقبة) بنفسه ، فوصل إلى المعسكر في منتصف ليلة ٢٦ تشرين الثاني ، فوجد جويس على وشك المغادرة للقيام بالاستطلاع في الداخل ، فانضم إليه وقضى بضعة أيام وهو يتجول بالعربة المدرعة ، صاعداً الجبال ونازلاً إلى الوديان . ومن ثم رجعا إلى العقبة في الثالث من كانون الأول ، وطار لورنس بعدها

الى مقر القيادة البريطانية المتقدمة ، متوقعاً أن يلقى انتقاداً حاداً لإخفاقه في اليرموك .

في الحقيقة كان كلايتون أقل إحباطاً بكثير من لورنس بشأن حملة اليرموك . فقد اتخذ وجهة نظرا أوسع حول الوضع المتطور ، وبدا انه كان يشعر بأن السلامة الشخصية للورنس كانت أكثر أهمية بالنسبة للبريطانيين من مصير جسور اليرموك ورغم أن الأمير فيصل لم يقم باسهام معين في هجوم اللّنبي ، فانه لم يكن ثمة شك من القيمة العامة للعمليات الحربية العربية ، سواء أكانت في الوقت الحاضر أم في المستقبل . وكانت قوات السراحين تقاتل بعناد مما جعل القوات التركية في حال يائسة من الدفاع عن القدس وتلقت الاستخبارات البريطانية تقارير متكررة حول إخلاء مواقع تركية ، كما أظهرت هذه التقارير أن ثمة أعداداً ضخمة من القوات التركية جرى رصدها بوساطة القوات العربية وكتب كلايتون يقول في هذا الشأن : «إن قوات العدو العاملة في المدينة وعلى خط مواصلات السكة الحديد . . . أو الجزء الأعظم فيها ، ستكون متواجدة لتعزيز الجيوش التركية العاملة في فلسطين هذا إذا لم تكن مخصصة لتتعامل مع الثورة العربية» .

كان حجم قوات حملة الحجاز والقوات الملحقة بالقيادة العامة الموجودة في تبوك ومعان يبلغ عددها أكثر من ثلاثة وعشرين الفاً ، مؤلفة من أفواج نسبة الأتراك فيها أكثر من تسعين في المائة ، وأضيف اليها بعد ذلك ثلاثة الاف جندي أناضولي تركي أرسلوا في ربيع عام ١٩١٦ . . . ورغم أن قوات الثورة لم تنجح بعد في التغلب على مقاومة القوات التركية في المدينة (المنورة) وتدمير خط المواصلات برمته ، فإن استمرار الثورة قد كلف العدو ، من خلال القتلى ، والجرحى ، والأسرى والمرضى ، خسائر بشرية تعادل فرقة كاملة . وتُعَّد قوته الحالية ملائمة من أجل المناورة السياسية والدينية ، وأنه لن يستسلم حتى آخر لحظة .

وفي الوقت نفسه تعتمد صيانة وتموين هذه القوات إلى حد كبير على قطارات وحافلات السكة الحديد ، وعلى احتياطي الأغذية ومستودعات التموين في دمشق وجرى تخصيص نسبة كبيرة منها من أجل جبهة فلسطين . لذلك فابقاء القوات التركية في الحجاز مشغولة مع القوات العربية ، فإن ذلك يُعَّد مساعدة مباشرة للقوات البريطانية في فلسطين . وأصبحت القوات البريطانية آنذاك على بعد كيلو مترات من القدس ، وكما

قال لورنس في ما بعد ، «كان اللّنبي مشبعاً بالانتصارات بحيث أن الاخفاق الذي أصابني في جسر اليرموك اختفى أثره مع ذلك ، وان بقية مشهد الاخفاق يمكن أن يظل مخيفاً» .

وبينما كان لورنس متواجداً مع اللّنبي وردت أخبار مدهشة تفيد بأن القوات التركية انسحبت على نحو غير متوقع من القدس خلال الليل ، كما حضر الموظفون المدنيون الأتراك إلى الخطوط البريطانية بحثاً على من يمكنه قبول استلامهم .

كان لورنس لا يزال في مقر القيادة العامة البريطانية في الحادي عشر من كانون الأول ، عندما دخلت القوات البريطانية إلى القدس . وكتب في مسودة كتابه أعمدة الحكمة يقول بأن «اللّنبي كان جيداً تماماً ، فرغم أنني لم أقم بأي شيء لدفع نجاحه قدماً ، فقد سمح لكلايتون بأن يأخذني معه ضابط اركان لذلك اليوم . وأعارني بعض ضباط الأركان ملابس فائضة لديهم إلى أن بديت ميجراً عادياً في الجيش البريطاني ، وأعارني دالميني الشارات الحمر ، كما أعطاني ايفانز قبعة كبار الضباط ، فبدوت في كامل زينتي ثم اشتركت في ما يُعَدُّ بالنسبة لي أعظم حدث في هذه الحرب وذلك لأسباب تاريخية .

كان من الغريب الوقوف أمام البرج مع القائد ، للاستماع الى بيانه ، والتفكير بأنه قبل بضعة أيام كنت أقف أمام حاجم استمع إلى كلماته . فنادراً ما نعير هذا انتباهاً حاداً ، وذلك بسبب خوفنا وخشيتنا وأصبحنا الآن نقف ليس في القدس فحسب ، وإنما في حيفا ، أو ربما نكون في دمشق قريباً ، أو في حلب ، ولم يترتب على أن أخشى في أكتوبر من خطر حدوث ثورة عامة ضد الأتراك هناك . وكان علي أن اعوض فشلي الذي حدث ، وان نستعد لدخول دمشق وتحريرها فالاحتفال الذي جرى عند بوابة يافا منحني عزماً وتصميماً جديدين» .

الفصل الثالث عشر

حملة البحر الميت

كانون الأول ١٩١٧ - شباط ١٩١٨

إن هذه الذروة الدراماتيكية لتقدم القوات البريطانية على جبهة فلسطين أوجدت توقعاً تاماً بالانتصار في الشرق بل بدا أمراً حقيقياً جداً وبكتابته إلى صديق له في إكسفورد ، بدأ لورنس يفكر بمهمة أو عمل له بعد انتهاء الحرب ، إذ يقول في هذا الشأن : «يخشى المرء من الانخراط بالسياسات الشرقية وتقييد نفسه ، وينبغي عليه أن يكون حراً . وإنني لم ألقب بأي شيء حتى الآن ، إلا أنني أخشى بأنهم سيلقبونني بالعربي الآن . وما أن تنتهي الحرب فانني ربما سأذهب لبناء سكة حديد في أميركا الجنوبية ، أو العمل في حقل للذهب في جنوب أفريقيا لأحرر نفسي . ولن أتمكن من العمل في كركميش حيث سأكون عدواً هناك (فالأتراك لن يسمحوا لي أبداً بالعودة ثانية إلى هناك) ، أو حتى أصدقائي العرب ، فبعد أن يكون المرء صاحب منزلة كبيرة ولا يسمح له بالذهاب للقيام بأعمال الحفريات (للتنقيب عن الآثار) .

فإنه أمر بغيض ورغم ذلك فإن الحرب لم تنته بعد ، وربما أن المرء لا يحتاج إلى أن يزعج رأسه بهذا الأمر بشكل مبكر جداً .

قبل مغادرته مقر القيادة العامة بحث لورنس الوضع الاستراتيجي مع اللّنبي فأبلغ أنه لن يكون بالإمكان حدوث تقدم بريطاني أكثر قبل منتصف شهر شباط ١٩١٨ ، وذلك بسبب الحاجة إلى امدادات وتموينات جديدة ، وأن تصبح ثمة ظروف ملائمة لذلك . وبعدئذ فإن القوات البريطانية المشتركة سترسخ وضعها بالتقدم إلى أريحا حتى يصل جناحها إلى نهاية شمال البحر الميت . لذلك فانه لن يحدث ثمة هجوم واسع النطاق إلى وقت متأخر من السنة .

وفي غضون ذلك سيكون بالإمكان استخدام القوات العربية بشكل مفيد . فقد كان الهدف الأول الذي وضعه اللّنبي هو الاستيلاء على المنطقة الجنوبية للبحر الميت بكاملها ، مغلقاً الطريق أمام أي هجوم تركي محتمل على مؤخرة جيشه وقد توقفت هذه

الخطة لبعض الوقت ، وحدث أن سمع لورنس من جويس بأن العمليات قد بدأت . وأن فكرة التحرك إلى هذه المنطقة ستغري الأمير فيصل بقوة ، الذي كان يرغب في ترسيخ دعم الثورة بين القرى المأهولة ، وستكون المنطقة قيمة بالنسبة للعرب لأنها تنتج غلالاً ، وأن خسارتها ستكون ضربة خطيرة للأتراك الذين يعتمدون على الأشجار الموجودة فيها لاستخدامها كوقود للقطارات الذاهبة إلى معان والجنوب . وشرح لورنس أن العرب سيتحركون من العقبة عما قريب بهدف الاستيلاء أولاً على الشوبك ومن ثم على الطفيلة ، وهي قرية قريبة جداً من النهاية الجنوبية للبحر الميت . وقد جرى وضع خطة متقنة تعتمد على ثلاث عمليات متوازنة من أجل تحقيق هذا الهدف من قبل كل من الأمير فيصل وجويس قبل بضعة أسابيع .

وكان طلب اللّنبي الثاني أنه يجب أن يجري ايقاف حركة الملاحة التركية الخفيفة في البحر الميت في منتصف شهر شباط ، فقد كانت تستخدم في نقل الأغذية من منطقة الكرك إلى أريحا .

وأوحى لورنس نفسه بهدف ثالث مفاده (أنه إذا ما أمكن فإن العرب سيسيطرون خلال شهر آذار على كامل المنطقة الواقعة بين البحر الميت وخط السكة الحديد . وعندئذ يكون بامكان القوات البريطانية إمداد الثورة مباشرة من فلسطين . ومن أجل الاستعداد للهجوم النهائي يمكن أن تنقل قوات الأمير فيصل الرئيسة من العقبة إلى نقطة النهاية الشمالية للبحر الميت .

هذه الزيارة التي قام بها لورنس إلى القاهرة مكنته أيضاً أن يلمّ بالمعلومات الاستخبارية حول التطورات السياسية الراهنة . وكان من أهمها وأخطرها حدوث الثورة البلشفية في روسيا في أوائل شهر تشرين الثاني . وكان النظام الروسي الجديد معارضاً تماماً للحرب ، فاتخذ خطوات فورية للوصول إلى هدنة مع القوى المركزية . مما عنى أنه سيكون بوسع تركيا قريباً نقل قوات من جبهة القفقاس إلى فلسطين والعراق .

وكان لهذه الثورة نتائج مربكة أخرى ، فخلال أيام من استيلائهم على السلطة ، نشر البلاشفة المعاهدات السرية للحلفاء بما فيها اتفاقية سايكس - بيكو وخلال الأسابيع اللاحقة ظهرت نصوص هذه الاتفاقية في جميع صحف العالم ، فأصبحت مادة دعائية

ذهبية بأيدي الأتراك ، وخشى المسؤولون البريطانيون من رد فعل عربي من جراء ذلك .

لقد ساد خوف من احتمال توقف الدعم العربي تماماً مالم يتخذ الحلفاء بعض الخطوات لاحتواء الخراب الذي نجم عن كشف النقاب عن اتفاقية سايكس - بيكو . وازداد الوضع سوءاً عندما جرى في الوقت نفسه الإعلان عن وعد بلفور ، الذي قدم وعداً لليهود بإنشاء «وطن قومي» لهم في فلسطين .

وبينما كان لورنس لا يزال في القاهرة وصلت أنباء تؤكد بأن الأتراك سيحاولون استخدام اتفاقية سايكس - بيكو كوسيلة لإبعاد العرب عن الوقوف إلى جانب الحلفاء . وبعث الشريف حسين إلى وينجيت نص الرسالة التي كان قد أرسلها جمال باشا إلى نجله فيصل مؤخراً ، مشيراً فيها إلى بنود اتفاقية سايكس - بيكو عارضاً إجراء محادثات حول الموضوع .

لم يجرِ إرسال رد من القاهرة ، بيد أنه بتمريره لهذه الرسالة ، كان الشريف حسين واضحاً في تحذيره للبريطانيين من أن لديه خياراً الآن لعقد اتفاق سلام مع تركيا . وقرر وينجيت أنه يجب على لورنس العودة إلى العقبة وبحث الأمر مع فيصل ، والتأكد من حدوث سياسة تركية جديدة ، وتبادل رسائل شفوية بين الأمير فيصل وجمال باشا . وربما اقترح لورنس نفسه القيام بذلك ، والتأكد من الأمر .

وصل لورنس إلى العقبة يوم عيد الميلاد ، وشجع فيصلاً على إرسال رد إلى جمال . فمن وجهة نظره ستوفر هذه المراسلة تأكيداً بأن المفاوضات السرية البريطانية مع عناصر محافظة تركية قد أتت ثمارها فقد أورد لورنس في مسودة كتابه أعمدة الحكمة السبعة يقول : «بعث فيصل ، بمساعدتي التامة ، أجوبة ذات أهداف معينة إلى جمال (باشا) ، تحث تماماً على مواصلة تبادل الرسائل ، فاستمر ذلك الأمر» . ومن خلال ذلك بدأ الضباط الوطنيون الأتراك الكتابة بصورة منفصلة إلى الأمير فيصل ، وأجبر جمال على الإذعان أكثر فأكثر للطلبات العربية . إلاّ أنه لم يكشف النقاب عن هذه المراسلات او المفاوضات المعقدة . وكتب لورنس يقول : «لقد خشينا من أن تهتز ثقة البريطانيين بفيصل ، وفي الوقت نفسه ، وحفاظاً على المقاتلين العرب ، فانه لم يكن بإمكاننا كشف الأوراق كافة مع الأتراك .

لم يذكر تقييم لورنس لهذه المراسلة المظهر المهم للوضع فقد خرب كشف النقاب عن اتفاقية سايكس - بيكو إلى حد كبير علاقات بريطانيا مع العرب فترة من الوقت إذا كان من المحتم على الزعماء العرب ، المهددين بالهيمنة الأوروبية بعد الحرب ، فتح قنوات اتصال مع تركيا المسلمة . وإذا ما عارض لورنس مثل هذه التحركات ، فإنه لن يكون بوسعه منعهم ، ولا بد أن هذه المسألة ستهدم جسور الثقة بينه وبين فيصل . فبدا أنه من الأفضل أن حدوث أية تبدلات ينبغي أن تكون بمعرفته التامة ، وتحت تأثيره إذا أمكن .

رجع لورنس إلى العقبة خلال فترة هدوء نسبي مشوب بالحذر في العمليات الحربية العربية فقد كانت الاستعدادات جارية للقيام بحملة العقبة . وفي غضون ذلك بدأت قوة أخرى بالهجوم على القوات التركية المتواجدة في منطق أبي اللسن .

وقد جرى تطوير قاعدة العقبة بشكل كبير خلال الأشهر الماضية . ونقلت العربات المدرعة ، التي لم يعد لها حاجة في الوجه ، إلى العقبة ، كما جرى تمهيد طريق للمركبات من العقبة عبر وادي اليتم وحتى سهل القويرة . وأنشئت قيادة متقدمة دائمة لجيش فيصل هناك .

وفي نهاية شهر كانون الأول قرر جويس محاولة القيام بغارة تجريبية على خط السكة الحديد باستخدام العربات المصفحة . فاذا ما أمكنها عبور المنطقة الواقعة ما بين القويرة والمدورة ، فإن مساحة طويلة من الخط ستكون تحت رحمتها وكان الهدف الثاني هو تحويل الانتباه التركي عن العمليات الجارية في «أبي اللسن» ونجحت تجربة الوصول إلى الخط ، وأصبحت العربات المدرعة منذ ذلك الوقت تسيطر على خط السكة الحديد الواصل إلى المدينة . ورغم هذا أصبح لورانس سعيداً ، فترة طويلة لترك العمل (نسف) على السكة الحديد بصورة متقطعة ، كما كان الهجوم على «أبي اللسان» ناجحاً جداً ، وأصبح الممر في أيدي القوات العربية مرة ثانية ابتداءً من السادس من كانون الأول . وأجبر الأتراك على التراجع إلى بعد ثلاثة أميال عن معان نفسها .

في طريق عودته إلى العقبة بدأ لورنس بتشكيل حرس خاص له . فقد ارتفعت الجائزة (التركية) لقاء الحصول على رأسه بشكل كبير وازداد الخطر على سلامة حياته عندما ينتقل من منطقة إلى أخرى ، فعاجلاً أم آجلاً سيحاول بعضهم النيل منه من

أجل الحصول على الجائزة ، كما قرر بعد تجربته في درعا عدم السقوط مرة ثانية في أيدي الأتراك حياً .

وفي العاشر من كانون الثاني توجه لورنس برفقة حراسه الجدد إلى منطقة أبي اللسن ، ومكث هناك بانتظار ورود أخبار عن العمليات الجارية في كل من الشوبك والطفيلة . وعندما سمع بأن الشريف ناصر قد نجح في قطع خط السكة الحديد هناك ، وتوجه شمالاً للانضمام إلى القوات العربية وفي الوقت الذي وصل فيه إلى الطفيلة ، كانت القرية في أيدي القوات العربية منذ خمسة أيام ؛ إذن فالهدف الأول من حملة البحر الميت قد أنجز ووصل الشريف زيد إلى هناك ليمثل الأمير فيصل ، جالباً معه أوامر تفيد بأنه يجب على الحملة العسكرية الاندفاع قدماً صوب الكرك ، التي تبعد نحو ثلاثين ميلا إلى الشمال ، وبأسرع وقت ممكن .

وسرعان ما أدرك لورنس أنه من الممكن أن يكون هذا صعباً ، إذ أن الوضع المحلي لم يكن مرضياً تماماً . فالولاء القبلي كان يعني كل شيء لدى أبناء البدو ، ومن الممكن عادة الوثوق بالرجال باتباع شيوخهم وزعمائهم أما في القرى المستقرة مثل الطفيلة ، فقد كانت الأمور مختلفة تماماً فالولاءات السياسية كانت معقدة ، والحصول على تأييد السكان لقضية فيصل (الثورة العربية) ستكون عملية طويلة ودقيقة لذلك بعث لورنس بتقرير إلى كلايتون يقول فيه : «لقد انقسم السكان المحليون إلى قسمين متعارضين بشدة ، ولذلك فهما يروعان بعضهما البعض ويروعاننا أيضاً ويوجد إطلاق نار في الشوارع كل ليلة ، وتوتر عام . . . لدينا نحو خمسمائة رجل في المنطقة ، وهذا أمر مطمئن بالطبع . . . والقمح والشعير نادران ، ومن الصعب الحصول عليهما . . . وهناك نقص كبير في وسائل النقل المحلية . . . وأصبح الشريف زيد قلقاً بشأن سلسلة المتاعب التي من المنتظر مواجهتها مستقبلاً . . . وكان مشدوداً هنا وهناك بأنواع القادمين الجدد كافة ، الذين كان بعضهم يكيد للبعض الآخر كالقطط» .

كان لورنس لا يزال يأمل أن يكون بالإمكان وضع كل من الكرك ومأدبا تحت السيطرة الشريفية (تحت سيطرة قوات الثورة العربية) بحلول السادس والعشرين من كانون الثاني . وسيعتمد ذلك على موقف الزعماء المحليين في الشمال . وإذا ما كان بالضرورة

تجنيد القرويين بالقوة فستكون ثمة حاجة إلى مزيد من الأموال من أجل رفع عدد الرجال المقاتلين ، مما سيزيد أيضاً في التأخير أكثر .

في ٢٣ كانون الثاني أرسل الأتراك على نحو غير متوقع حملة عسكرية كبيرة من أجل استرجاع الطفيلة . وجرت اشتباكات مع المواقع العربية خارج القرية في أثناء عصر اليوم التالي ، وعند حلول المساء أصبح المهاجمون يهددون القرية ذاتها ، وفي صبيحة اليوم التالي بدأت القوات العربية بشن هجوم معاكس ازدادت فعاليته بثبات . وبعد يوم من القتال الشديد ، أمكن صد القوات التركية ودفعها إلى وادي الحسا ، وهو واد ضيق شديد الانحدار يقع إلى شمال الطفيلة . وتمت ملاحقة فلول القوات التركية المنهزمة من دون رحمة من قبل السكان المحليين ، ومات العديد منهم إما بسبب إصابتهم أو بسبب العوامل الجوية . وقدر لورنس عدد القتلى الاتراك بأكثر من ألف قتيل ؛ نحو ألفي أسير واغتنام عدد من قطع مدفعية الميدان القيمة أماخسائر القوات العربية فقد كانت مقتل نحو خمسة وعشرين جندياً وجرح خمسة وأربعين .

كانت هذه أول مرة تخوض فيها القوات العربية معركة تقليدية يقوم فيها لورنس بدور المستشار ، فقد تولى دوراً رئيساً في الأحداث اليومية ، وقلب رأساً على عقب نظرية جعفر باشا ، وذلك بالتحرك من القرية (الطفيلة) إلى موقع دفاعي يقع بعيداً في الجنوب . وبعد تردد ، وضع زيد ثقله إلى جانب خطة لورنس .

ورغم أن النتيجة كانت هزيمة ساحقة للأتراك ، فإن لورنس عبر في «أعمدة الحكمة السبعة» عن أسفه الشديد على قرار خوض معركة تقليدية ، بحيث حرمه ذلك من المشاركة فيها . وكانت تكتيكاته المختارة وضيعة «حيث إنه في علمي الحساب والجغرافية بالنسبة للحلفاء كان بإمكاننا توفير المزيد من الأرواح البشرية . . . بكسب المعركة من دون خوض مواجهة تقليدية ، بل حرب عصابات تسامح العدو . . . إلا أنه بقراري خوض قتال تلقيدي ، فقد قتلت نحو ثلاثين فرداً من رجالنا البالغ عددهم ستمائة رجل ، وربما تقلص عدد الجرحى أيضاً ثلاث مرات لقد ذهب سدس قواتنا تقريباً من أجل انتصار كلامي ، وإبادة ألف جندي تركي بائس ، لن تؤثر في مجريات الحرب العامة . . . فلم يترك هذا المساء مجداً وراءه ، سوى الفزع من الجثث الهامدة لرجالنا وهي تنقل أمامنا إلى بيوتها» .

كما عَدّ لورانس تلك المعركة بأنها قد أخرت التقدم إلى الشمال واستنزفت بعض الأموال المحدودة المتوفرة فقد كان ثمة سوء تقدير منذ البداية بخصوص المال المتطلب لذلك ، وانه هو وزيد أصبحا على حد سواء بحاجة ماسة إلى المزيد من الأموال .

وقبل بضعة أيام أمرت قوة صغيرة بقيادة عبد الله الفعير بالقيام بتدمير القوارب التركية الخفيفة المستخدمة في نقل الأغذية ، والقادمة من الكرك عبر البحر الميت إلى أريحا . ولم ترد أخبار أخرى منذ ذلك الحين عن هذه القوة ، كما لو أنه لم يحدث هناك أي تقدم في هذا الخصوص ، لذلك فقد قرر لورنس الذهاب بنفسه ورؤية ما كان يحدث . ونتيجة لذلك فقد جرت العملية تحت إشرافه . وفي ٢٨ كانون الثاني جرى إنجاز المتطلب الثاني لاللّنبي ، خلال أسبوعين ، ومن دون حدوث خسائر بين القوات العربية .

قدر لورنس بأنهم كانوا بحاجة ماسة إلى نحو ثلاثين ألف جنيه استرليني إذا ما أريد المزيد من الزحف قدماً . وعندما بدأ الشتاء ينذر بتساقط الثلوج ، مما يجعل الأمور أكثر صعوبة ، قرر العودة إلى القويرة وتحصيل المال بنفسه .

تصادف وصوله إلى القويرة ، في الخامس من شباط ، مع وصول المقدم ألان داوناي ، الذي كان قد عين مؤخراً مسؤولاً عن شؤون الارتباط بين القوات البريطانية المشتركة والثورة العربية ، إذ أن ازدياد حجم الحملة العسكرية وتعقدها في سوريا استدعت وجود خبير يقوم بالاتصال ، فأُسند هذا الدور الى داوناي الذي كان عليه أن يدير فريقاً صغيراً من العرب في القاهرة . وكان عليه العمل بشكل وثيق مع المكتب العربي الذي استمر بمهامه الاستخبارية أيضاً .

أضاف هذا التعيين للثورة قوة كانت تنقصها . فسيكون الآن ثمة ضابط كبير يعمل في القاهرة بشكل خاص للثورة . وكان بوسع داوناي ترجمة الاقتراحات كافة التي يقدمها لورنس وغيره إلى خطط ومشاريع رسمية بحيث يمكن أن تنفذ بهدوء في القيادة العامة . اضافة إلى ذلك فقد كان من ضمن مسؤولياته أيضاً تلقي طلبات الامدادات ، والقيام بالاستطلاع الجوي ؛ والغارات الجوية ، الخ ، والبت فيها وتحويلها إلى الجهات المعنية وكتب لورنس فيما بعد يقول : «كان داوناي هبة اللّنبي العظيمة لنا . فقد كان جندياً محترفاً ، وضابط أركان من الدرجة الأولى في القيادة العامة . . واقترن بالحرب

وتكن الثورة في نفسه : بطريقة أصبح بها حلمي أن يكون كل ضابط مثله ففي خلال ثلاث سنوات عملية فقط نجح داوناوي . وفي زيارته الاولى لنا أمضى عشرين يوماً في العقبة والقويرة ، وعاد ومعه قوائم طلباتنا إلى اللّنبي ، مبيناً احتياجاتنا كافة (أكثر مما كنا نظنه) من المؤن والمال والسلاح ، ومن الأفراد والتوجيهات .

وفي الحقيقة فإن توليه مسؤولياتنا كان يُعَدّ ثورة في تاريخنا . وبناء عليه أضحت الثورة العربية كرجل واحد . . . ووصف ذلك اللّنبي بأنه جزء من خطته التكتيكية وتوصل داوناي الآن إلى أنه يوجد مجالٌ لنوعين مختلفين تماماً من العمليات الحربية : النوع الأول : القيام بعمليات فدائية منظمة ، يقوم بتنفيذها في الأغلب رجال محليون . فقد كانت الثورة تعتمد تقريباً على مثل هذه العمليات ، وفي المستقبل القريب ، فانهم سيستخدمون لإتمام حملة البحر الميت ثانياً : كان يوجد مجال للقيام بمزيد من العمليات الحربية التقليدية ، يُنفذ أغلبها بوساطة الجيش العربي النظامي بقيادة جعفر باشا وفي نهاية شهر كانون الثاني بلغ إجمالي القوة النظامية العربية أكثر من ثلاثة آلاف رجل جُهزوا بمدفعية ميدان ومدافع رشاشة كما كان يمكنهم الاعتماد على كتيبة المدفعية الفرنسية والعربات المدرعة البريطانية ، ومدفعي الهاون الإنجليريين الموضوعين على عربة شحن . إضافة إلى وجود ست طائرات من سلاح الجو البريطاني المتواجدة في العقبة ، والتي كانت تقوم آنذاك بطلعات استكشافية ، وعمليات قصف مؤثرة جداً .

وحتى ذلك اليوم فقد كان الجيش العربي النظامي يقوم بمهمة تأمين قاعدة فيصل في العقبة ضد هجوم محتمل من معان . إلا أن هذا الخطر قد تلاشى الآن ، واعتقد جعفر ، ونوري السعيد ، وغيرهم من كبار الضباط بأن الوقت قد حان لشن المزيد من الهجمات الطموح ومن ثم فقد جرت الموافقة على أنه يجب أن تجرى الاستعدادات من أجل القيام بهجوم ضد القوات التركية المتمركزة في معان . وستكون أهداف هذه العملية : «تدمير قوات العدو الموجودة في معان ، ومن ثم الاستيلاء على البلدة ،مع الأخذ بنظر الاعتبار عزل القوات التركية كافة الموجودة جنوب معان ، بحيث يكون استسلامها مسألة وقت فقط .

وقد حث الضباط البريطانيون على أنه يجب تجنب شن هجوم جبهوي على دفاعات معان . وبدلاً من ذلك يجب أن تحاول القوات النظامية العربية قطع خط السكة الحديد

إلى الجنوب من معان لتجبر الأتراك على ترك مواقعهم الدفاعية لكي يقوم بتخزين مؤنهم . وعندئذ سيحدث هناك قتال على الأرض تكون نتيجته في صالح العرب . واذا ما قامت المدرعات البريطانية في الوقت نفسه ، بشن هجوم على خط جنوب معان ، فستكون فرص استسلام الحامية التركي ممتازة والمظهر الآخر للعمليات السورية الذي سعى داوناي لتوضيحها كان البنية المختلفة للقيادة العسكرية للضباط البريطانيين المشتركين في العمليات ففي تقرير منفصل أشار إلى وجود ترتيبات تجرى تدريجياً لمواجهة الاحتياجات الفورية . ونتيجة لذلك فان بعض الضباط كان يقوم بتنفيذ مهام لا تمت سوى بصلة ضئيلة لمهامه الأصلية كما كانت ثمة فروقات غريبة في الرتب العسكرية .

وقد لزم الأمر بشكل خاص توضيح مهام كل من جويس ولورنس ، فخلال الأشهر الراهنة أمضى لورنس فترة قصيرة جداً في مقر قيادة الأمير فيصل ، كما قام جويس بقضاء الكثير من دوره الأصلي كمستشار عسكري . وكتب لورنس فيما بعد يقول «لقد كان جويس هو الذي يقوم بإدارة الخط الرئيس للعمليات العسكرية ، عندما أكون غائباً للقيام بغارات ، أو القيام بإعداد خطط من أجل التقدم في العمليات وكنت، أقوم أيضاً بدور مصدره الاستخباري الرئيس» .

وعلى نحو مشابه ، عندما قدم جويس إلى العقبة كانت مهمته الرئيسة هي العمل قائداً لقاعدة ، مسؤولاً عن إيجاد الدعم لجيش فيصل . كما أنه كان هناك أيضاً من أجل تقديم المشورة والإشراف على تدريب القوات النظامية لجعفر باشا والآن وبعد أن نُقل مقر قيادة الأمير فيصل إلى القويرة ، وأصبح الجيش النظامي على وشك شن عمليات هجومية ، فإن المهام الفعلية لقائد قاعدة العقبة قد أُنيطت بالميجر سكوت .

وأوصى داوناي بأنه يجب أن يعاد تصنيف جويس الذي كان يتولى قيادة القوات البريطانية كافة الموجودة في المنطقة ، وموجهاً فعليا للعمليات العسكرية العربية في الميدان كضابط خدمة خاص ، من الدرجة الأولى ، في حين يجب أن يصنَّف لورنس كضابط خدمة خاص من الدرجة الثانية .

وبعد إجراء مباحثات مع داوناي ، عاد لورنس إلى الطفيلة ومعه مجموعة صغيرة من

الرجال العرب ، يحمل كل واحد منهم ألفين من الجنيهات الإنجليزية الذهبية مخصصة للعمليات في البحر الميت . وحوّل هطول الأمطار وتساقط الثلوج رحلة الثلاثة أيام إلى الشمال عبر الممرات والطرق الطينية إلى اختبار للتحمل ، وتساقط أرضاً العديد من الهجانة ، وتأخر بعضهم عن الوصول بضعة أيام .

وما أن وصل لورنس إلى الطفيلة في الحادي عشر من شباط حتى كان في غاية الانهاك . ومما زاد في خيبة أمله أنه لم يجد هناك استعدادات جارية من أجل التقدم . وبدا أن الفائدة التكتيكية من انتصار الطفيلة قد تبددت وبعد التباحث في الوضع توصل لورنس إلى أن قوة الشريف زيد لم تَعد لديها قدرة أو رغبة في الاستيلاء على القرى الشمالية . وسيكون بالإمكان إضعاف القوات التركية بوساطة الهجمات البدوية عبر شرقي خط السكة الحديد ، والتي عزم لورنس على تنظيمها .

واعتقد أن المال الذي جلبه معه من القويرة سيكون كافياً لتمويل خطته وتلبية الاحتياطات الشرعية للشريف زيد أيضاً ؛ «فهذه الثلاثين ألفاً من الجنيهات الذهبية ستفي باحتياجات القبائل لهذا الشهر ، وتكون كافية لسد احتياجات حتى منتصف شهر آذار» .

وتحسن الطقس بعد يومين ، فقام لورنس بعملية استطلاع للساحل الشرقي – الجنوبي للبحر الميت من أجل كشف إمكانية التقدم إلى الكرك من هذه الجهة . وبعد ذلك ، قرر فحص وضع طبيعة الأرض الواقعة بين الطفيلة والتخم الشمالي للبحر الميت ، فأخذ معه شيخ من الكرك كمرشد له ، وقاما برحلة استغرقت يومين حتى نهاية حافة نهر الأردن ومن ثم عادا . وكانت النتيجة مرضية تماماً .

وسار عائداً إلى الطفيلة في الثامن عشر من شباط ، غير أنه عندما شرح الوضع للشريف زيد ، كان الأخير غير مهتم بذلك . وسرعان ما علم أنه في أثناء غيابه جرى توزيع جميع المال الذي أتى به لشيوخ القبائل المحليين . فطلب لورنس إعادته ، إلاّ أن زيداً رفض ذلك ، فلم يعد ثمة خيار أمامه سوى أن يرحل .

وللمرة الثانية ، يكون لورنس غير قادر على الوفاء بوعده الذي قطعه لأ للّنبي إذ إن خسارة مثل هذا المبلغ الضخم من المال عنى أنه لم يعد يوجد أي أمل بالاستيلاء على

القرى الشمالية . والأمر الأسوأ من ذلك ، أنه من دون القيام بأي تقدم ، فإنه سرعان ما سيستعيد الأتراك المناطق التي جرى الاستيلاء عليها .

وكان يخشى دائماً من قدوم اللحظة التي يهمل فيها المسؤولون العرب نصيحته فمثل هذا العمل قد يخرب سلطته تماماً . فقبل أسبوع فقط حذر من هذا الخطر في رسالة بعثها إلى كلايتون . والآن شعر بأن مبدأه يملي عليه أن يخرج من العمليات العربية . وربما سيكون عليه أخذ إجازة والذهاب إلى وطنه كما وعد بذلك مؤخراً ، ومن ثم العودة إلى مهامه الاستخبارية في القيادة العامة البريطانية .

وبينما كان يستعد للرحيل وصل جويس على نحو غير متوقع وبرفقته مارشال ، الطبيب البريطاني ، من العقبة . وحاول جويس حث الشريف زيد على استرجاع المال ، إلا أنه لم ينجح لذلك وافق على إغلاق شؤون لورنس وإنهاء مهمته وتسريح حراسه . وفي التاسع عشر من شباط غادر لورنس متوجهاً إلى الخطوط البريطانية في بئر السبع بمرافقة أربعة رجال فقط .

عندما وصل مقر قيادة اللّنبي وجد هوغارت بانتظاره «فبالنسبة له كانت ثمة أمور عديدة أعددتها له ، أما بالنسبة لي فقد انتهى دوري ، وقد حضرت من أجل الالتماس من اللّنبي ايجاد دور أصغر لي في أي مكان آخر . . . فالخطأ يكمن في تقييمي الضعيف ، والأمرّ من ذلك خلافي مع زيد ، أخ الأمير فيصل والرجل الذي أحببته حقاً . ولم أُخلف الآن خدعاً جديدة بوجبة في السوق العربي ، وأردت أن أوسد نفسي بالطاعة وعدم المسؤولية .

ومنذ أن نزلت إلى الجزيرة العربية كانت لدي خيارات ومتطلبات ، ولم تكن طلبات أبداً ، وكنت مفرطاً ، الى حد الموت ، بالإدارة الحرة . . كما كنت لمدة سنة ونصف في حركة دائمة ، أقطع ألف ميل في كل شهر على الجمال ، مضافاً إليها عدد من الساعات العصيبة في الطائرات المجنونة ، أو الاندفاع عبر المناطق بالعربات القوية . ولقد أُصبت في آخر خمس عمليات لي ، وأصبح جسدي متألماً جداً بسبب زج نفسي في أتون النار . وكنت جائعاً بوجه عام ؛ ومتعرضاً للبرد القارص بشكل دائم مؤخراً ، وأدت القذارة إلى حدوث تقرحات مؤلمة جداً في جسدي .

ورغم ذلك فان هذا القلق والانزعاج لم يعتمل ويتوغل في نفسي ولا في فكري : مما أدى إلى التظاهر بقيادة ثورة قومية لجنس آخر ، والارتداء اليومي لملابس غريبة ، والقاء الخطب بلغة أجنبية ، يقف إلى ما وراء ذلك شعور من أن الوعود التي عمل العرب من أجلها كانت جديرة بقوتهم المسلحة عندما تحين لحظة الإنجاز . والقيام بالخداع - إذا ما كان ثمة خداع - كان يحدث بمعرفة فيصل التامة ؛ وكان علينا إراحة أنفسنا بأنه ربما عندما يحل السلام قد نجد العرب في موقع الفائز ، وفي غضون ذلك كنا نقوم بما هو ضروري لهم ، وخوض حرب مشرفة وغير مكلفة ما أمكن . . . ولكن الآن وبسبب اثمي فان المجد الأخير قد أُخذ مني في الطفيلة . ولكي أكون مسؤولاً أمام ضميري فانني أتحمل مسؤولية أولئك القتلى العشرين من العرب والسبعمائة من الأتراك الذين قتلوا من دون سبب وجودي في وادي الحسا . ولقد تلاشت إرادتي ، وأخشى أن أكون وحيداً منعزلاً لفترة طويلة خوفاً من أن تضرب رياح الظروف أو القوة المطلقة روحي الفارغة وتطيح بها» .

بعد سنوات من ذلك ، أُبلغ لورنس ليدل هارت حول ذلك بقوله : «لقد كنت مريضاً جداً آنذاك ، وأنت تعلم ثانية ، فقد كنت في منطقة الانهيار» .

الفصل الرابع عشر

تـوقف خطــر

شباط - حزيران ١٩١٨

عندما رأى لورنس كلايتون أدرك على الفور بأنه لن يسمح له بالتخلي عن العمل مع العرب ، إذ إنه لم يكن ثمة مجال للهزيمة أو الانسحاب حسب المزاج السائد في قيادة اللّنبي آنذاك . كما اتخذت الوزارة (البريطانية) مؤخراً قراراً بأنه يجب أن يتحقق الانتصار على مسرح العمليات الحربية ، وأن يعطي الأولوية ، وحتى لو عنى ذلك عدم التمكن من شن هجوم على الجبهة الغربية ، فقد أملوا بأنه إذا ما حدث تقدم بريطاني باتجاه دمشق وحلب فإن ذلك سيجبر الأتراك على عقد اتفاق سلام . لذلك فقد صدرت الأوامر لاللّنبي باستئناف الهجوم بأسرع وقت ممكن . ووضعت خطط من أجل التقدم إلى بيروت ، دمشق ، وغيرها . وكان التعاون مع العرب أساسياً في هذا الشأن .

وأبلغ اللّنبي لورنس بمتطلباته الجديدة . فحينما تتحرك القوات البريطانية باتجاه الشمال ، فستكون ثمة حاجة لحماية جناحها الشرقي . ولن يتمكن جيش الأمير فيصل من التركيز على هذه المهمة الى أن ينتهي حملته الحالية . وهذا يعني إخراج القوات التركية من معان بأسرع وقت ممكن . وعندما يتحقق هذا الهدف ، فسيقع خط السكة الحديد كله من الجنوب حتى معان في أيدي القوات العربية .

ومما ادخل السرور إلى نفس لورنس موافقة اللّنبي حالياً على تزويد القوات العربية بسبعمائة جمل من سرية نقل الهجانة المصرية ، ومعها افرادها ومعداتها وضباطها البريطانيين كافة ، إذ سيكون بوسع القوات العربية النظامية العمل في نطاق ثمانين ميلاً بعيداً عن قاعدة تموينهم .

وستكون المرحلة الأولى للعمليات العربية هي الاستيلاء على معان . ومن ثم ستنتقل القوات إلى قاعدة جديدة تقع في شمال شرق البحر الميت ، حيث يمكنهم جلب التموين من أريحا . وإذا ما أمكن استعارة السبعمائة جمل المقدمة من اللّنبي ، فستكون هذه القوة في وضع للإغارة على قطاع واسع من خط السكة الحديد الواقع جنوب درعا .

بعد إنتهاء هذه المباحثات سافر لورنس إلى القدس وأمضى يومين مع رونالد ستورز ، الذي أصبح آنذاك حاكماً للمدينة . وخلال هذه الزيارة ، قدمه ستورز إلى شاب كان يقوم بجمع مواد من أجل إلقاء سلسلة من المحاضرات التوضيحية حول الحرب . كان هذا لويل توماس ، الصحفي الخبير والخطيب الماهر الذي وصل إلى فلسطين قبل بضعة أسابيع برفقة مصوره هاري شاس . وقد كان توماس معجباً بالثورة العربية ،لذلك فقد سر لمقابلة إحدى شخصياتها القيادية .

لم تكن مهمة توماس تمريناً عادياً في مهنة الصحافة في أثناء فترة الحرب ، فقد جرى التخطيط في ربيع عام ١٩١٧ من أجل زيادة الدعم الشعبي للمجهود الحربي في أمريكا ، والحصول علي دعم الشخصيات المتنفذة في الإدارة الأميركية لذلك فقد كانت سلطات الوايت هول (وزارة الحربية البريطانية) على أتم الاستعداد لمساعدة ثوماس ، على أمل أن يعزز عمله فهماً أفضل للدور البريطاني في الحرب . وفي شهر آب ١٩١٧ امتدح رئيس مكتب المعلومات البريطاني في نيويورك توماس و شاس أمام دائرة الإعلام في لندن بقوله : «إن هذين السيدين على وشك الذهاب إلى أوروبا بهدف الحصول على مواد من أجل ما يدعى بالقاء «محاضرات عن رحلة» ثم القيام بها . وكانت هذه مشهورة جداً في هذه البلاد ، وكان تكلف نبأ للقراءة الموضحة مع مشاهدة صور حية متحركة عن ذلك . . . وكان وزير الحربية يولي اهتماماً كبيراً من أجل نجاح هذين الرجلين . لذلك فإن أي شيء يمكنك أن تقدمه لهما سيكون موضع تقدير . . . واعتقد أنه من المهم وضع المسألة عبر العديد من القنوات ما أمكن . وبما أن هذا المشروع يحظى بمباركة الإدارة ، لذلك أعتقد أن من الحكمة أن تتاح لهما فرصة إجراء بعض المقابلات الحقيقية . فدعهم يذهبان إلى أماكن مثيرة للاهتمام ومحاولة إلقاء الضوء بشكل جيد على الثورة لمقارنتها بالثورة الفرنسية» .

كانت الزيارة الأولى لثوماس إلى الجبهة الغربية ، إلاّ أنه لم يجد سوى مادة ضئيلة تلائم غرضه . وفي العاشر من كانون الأول ، وبعد أن علم بالنجاحات البريطانية في فلسطين ، كتب إلى جون بوشان ، مدير دائرة المعلومات آنذاك ، في لندن يقول : «إنني موجود هنا في أوروبا على رأس بعثة مفوضة من قبل حكومة الولايات المتحدة لجمع المعلومات المصورة من أجل القيام بإلقاء محاضرات وطنية موضحة في جميع أنحاء أميركا

من أجل زيادة دعم البلاد الكامل للحلفاء . . . ووصلت نشرة تفيد بأن جيشكم قد استولى على القدس ، فمن وجهة النظر المادية نحن نقوم بجمع الأخبار عن هذا الحدث بأهمية بالغة ، وإذا ما أمكن الترتيب لي فإنني أرغب في الذهاب إلى هناك في الحال ، يرافقني مصوري فقط . . . وسأقوم بالقاء هذه المحاضرات بنفسي ، ومن أجل الحصول على صور فعالة فانه ينبغي ، في الاقل ، أن أقوم شخصياً برؤية الأمور على طبيعتها ، والتي لم يتيسر بعد إصدارها في نشرات عامة . ولدي رسائل من وزراء الحرب ، والبحرية ، والخارجية ، تطلب فيها تقديم التسهيلات الممكنة كافة لتسهيل مهمتي» .

وبشكل واضح ، فقد كان توماس يقدم للبريطانيين فرصة ممتازة ليظهروا في أحسن صورة ، لذلك فقد تقدمت دائرة الإعلام بطلب إلى الجيش البريطاني ووزارة الحربية ، فمنح توماس وشاس في الحادي والعشرين من كانون الأول تصريحاً لزيارة فلسطين ، فابحرا من إيطاليا في الثاني عشر من كانون الثاني .

عندما تقابل لورنس مع توماس في القدس جرى شرح ظروف المهمة له . وكان لورنس متحمساً حول الدعاية للثورة ، وفهم كم كان الرأي العام الاميركي مهماً في التسوية النهاية . كما تحدث عن التقدم العسكري وسياسات القومية العربية ، ووافق أيضاً أن يلتقط له هاري شاس صوراً .

تأثر توماس بما أُطلع عليه ، فقرر اكتشاف المزيد . وسرعان ما قام بحث اللّنبي ، بعد مغادرة لورنس ، على السماح له بزيارة القوات العربية في العقبة وكان قرار تلبية طلبه نتيجة للضغط الصادر من لندن من أجل تغطية أوضاع الثورة . وفي الثاني من آذار ، على سبيل المثال ، أرسلت وزارة الخارجية البريطانية برقية جاء فيها : «هل بإمكانكم تزويدنا بأسرع وقت ممكن بمادة جيدة عن عمليات الأمير فيصل العسكرية وذلك من أجل ترويجها عالمياً؟» .

في الرابع من آذار قام لورنس بزيارة قصيرة إلى العقبة لرؤية فيصل ، فشرح له الخطط الجديدة التي وافق عليها اللّنبي . كما بحث معه المشاكل التي تعرض لها مع زيد . فعندما غادر الطفيلة قبل أسبوعين أيقن بأنه كان باستطاعة الأتراك إعادة السيطرة على القرية من دون صعوبة . وكانت آخر الأخبار توحي بأن العدو يقوم بحشر قواته في

المنطقة ، بيد أن لورنس لم يعد يهتم بالأمر ، فقد كان انتباهه متركزاً على معان في الجنوب وعمان في الشمال ، فاذا ما قام الأتراك بإرسال قواتهم إلى الطفيلة فانهم سيضعفون قواتهم في إحدى هاتين المنطقتين أو في كليهما .

وقبل ذلك ببعض الوقت تقرر إيجاد شخص بديل ليقوم بدور لورنس ، فدوره بين القبائل أصبح مهماً جداً بحيث لم يعد بوسعه أن يغادر أو يأخذ إجازة ، كما أنه لم يكن يوجد أي شخص بإمكانه أن يحل محله إذا ما قتل أو أُصيب بجروح خطيرة . وقد أقترح (لورنس) بأن هيوبرت يونغ يمكن أن يكون خياراً جيداً في هذا الشأن . إذ أنه يتكلم العربية بطلاقة ، وكان لا يزال يخدم في الطرق ، حيث تقابلا في شهر نيسان ١٩١٦ ، ففي ذلك الحين استاء يونغ من سلوك لورنس ، وبشكل خاص ، موقفه اللامبالي تجاه الجنود النظاميين . ورغم ذلك فقد كتب لورنس الآن موصياً بأن يونغ «لا بد أن يكون الرجل المناسب : فالعمل لاارباط عليه ويتطلب تكتيكاً صارماً لا يبدو أن العديد من الاشخاص يملكونه . ونحن في وضع شحيح فيما يتعلق بعدد الرجال ونوعيتهم ، وستكون الأمور أسهل بكثير إذا قام بدوره بشكل ملائم» .

وصل يونغ إلى القاهرة في أوائل شهر آذار ، ففوجيء بمدى حجم العمليات العسكرية العربية ، وقال : «لقد وجدت أن لورنس كان الوحيد ، من بين الضباط البريطانيين العديدين الذين كانوا يساعدون العرب ، يقوم بالاشتراك في العمليات . فما أن أصبحت الثورة العربية ناضجة عسكرياً ، حتى جرى تشكيل هيئة ارتباط في مقر قيادة اللّنبي لتتعامل مع ما عرف بعمليات الحجاز . . . وعين داوناي رسمياً رئيساً لأركان الهيئة ، في حين كان جونس ، رسمياً ، كبيرا الضباط البريطانيين العاملين مع جيش فيصل . إلاّ أن لورنس عُدَّ في الحقيقة أكثر أهمية بالنسبة للأمير فيصل واللّنبي ، واستخدم ليقوم بالمهام ما بين قيادتيهما بروح نشطة .

أصبح هذا الدور الاستثنائي معروفاً من دون ريب بحيث أن لورنس رقي إلى رتبة مقدم . كما أنه منح وساماً لدوره في معركة سيل الحسا التي وقعت خارج بلدية الطفيلة . وفي الخامس عشر من آذار عاد إلى العقبة من أجل إنهاء الاستعدادات لشن هجوم عربي جديد . كما أنه جرت الموافقة على المضي قدماً بالاستعداد لمعركة معان وفقاً للخطة التي وضعها داوناي قبل ثلاثة أسابيع إذ كان على قوات جعفر باشا احتلال خط السكة

الحديد الواقع إلى شمال البلدة ، في حين يذهب جويس ومعه العربات المدرعة البريطانية إلى جنوب المدورة . وأمل جويس بأن يحدث هناك المزيد من التدمير لخطوط المواصلات التركية الواصلة إلى المدينة ، بحيث يجري تخريب الخط بشكل دائم وسيكون لورانس ، بدوره مسؤولاً عن تنظيم رجال القبائل وإعدادهم لحين عبور قوات اللّنبي نهر الأردن متوجهة إلى عمان .

بينما كان بانتظار بدء العمليات ذهب إلى منطقة الشوبك لقضاء بضعة أيام من أجل الاطلاع على الوضع . وخلال وجوده هناك وصلت إليه أخبار سيئة من علي بن الحسين ، الذي كان يقضي الشتاء في الأزرق ، تفيد بأن رجلين قد قضيا نحبهما هناك : الأول كان المدفعي الهندي ، والآخر كان علي خادم لورنس الشاب . وكان صديق علي هو الذي قدم هذه الأخبار . وكان الاثنان قد حبذا نفسيهما في خدمة لورنس في أثناء الرحلة إلى العقبة ففي «أعمدة الحكمة السبعة» (حيث أطلق عليهما اسمي داود وفراج) ، وصف لورنس روحيهما العاليتين ومزاجهما بالعملية المتواصلة ، مما كان يلطف من توتراته . إلا أن عثمان قد تغير الآن . ويقول لورنس : «لقد كانا صديقين منذ طفولتهما ، يعملان معاً ، ويناماان معاً ، ويتشاركان في السراء والضراء ، يكنان لبعضهما إخلاصاً وحباً كاملين . لذلك لم أكن مندهشاً من رؤية فراج متجهماً ، يبدو عليه الكبر عندما جاء ليبلغني بأن صديقه قد مات ؛ ومنذ ذلك اليوم وحتى انتهاء خدمته فإننا لم نضحك . وأولى عناية كبيرة ، أكبر من ذي قبل ، بجملي ، وبإعداد القهوة ، وبالاعتناء بملابسي وسروجي ، وكان يقوم بإداء الصلاة بانتظام في كل يوم . وحاول الآخرون التخفيف عنه وإراحته من كربه ، بيد أنه كان يهيم على وجهه من دون كلل ، وأصبح شاحباً وهادئاً ، ومنزوياً كثيراً» .

عاد لورنس إلى العقبة في الحادي والعشرين من آذار ، ففوجيء بوصول لويل توماس بعد وقت قصير ومعه هاري شاس ، الذي بدأ بالتقاط عدد كبير من الصور . وطلب من لورنس أن يقف في أوضاع مختلفة لالتقاط صورة له . وشرح توماس من دون التباس بأن تأثير المحاضرة الموضحة يزداد بشكل أكبر إذا ما تغيرت سلايدات الصور بشكل متكرر ، لذلك فمن الممكن أن توجد حاجة إلى عدة صور مختلفة للمواضيع نفسها . فوافق

لورنس على التقاط سلسلة من الصور ، بل إنه لاحظ بأن شاس كان يلتقط صورا أيضاً للقوات العربية وقادتها .

بعد الحرب كان توماس يلمح بأنه أمضى هو وشاس وقتاً لا بأس فيه مع لورنس ، يعمل مراسلاً معتمداً لدى الثورة العربية . كما انه إدّعى بأنه كان يشهد المعارك ضد الأتراك . بيد أن الحقيقة كانت مختلفة تماماً ؛ فقد أمضى أقل من أسبوعين مع جيش فيصل وقابل لورنس لبضعة أيام فقط . وقبل إنهاء توماس وشاس عملها في العقبة ذهب لورنس في رحلة إلى الداخل . وكتب فيما بعد يقول بأن توماس كان مهتماً بنشاطنا ، وقدم إلى العقبة (في عام ١٩١٨) لمدة عشرة أيام .

ورأيته هناك للمرة الثانية ، إلا أنني ذهبت في رحلة إلى الداخل للقيام ببعض الأعمال وأظهر ضجره للآخرين ، مما دفعهم إلا أخذه بسيارة فورد إلى البتراء ، ومن ثم رجع إلى مصر بواسطة البحر» .

وكما حدث فقد جرت زيارة توماس في أثناء إحدى فترات ركود الثورة إذ أوردت يوميات الحرب في شهر آذار لعمليات الحجاز : «بأن جيش الشريف فيصل لم يحقق نجاحاً في هجومه على الأتراك . . . وأدى تساقط الثلوج بشكل مفاجىء وعميق في الرابع والعشرين من آذار في هذه المنطقة إلى جعل القيام بمزيد من العمليات . . أمراً مستحيلاً . . وكان النشاط الرئيس ينصب على إقامة مخزون من الأغذية في القويرة وابي اللسن ، مع الأخذ بنظر الاعتبار القيام بنشاط أكبر ضد معان» . ولم تؤدِ حملتان عسكريتان جرتا في وقت مبكر من ذلك الشهر إلى أي شيء بسبب هطول الأمطار وتساقط الثلوج .

لقد مضى ثمانية عشر شهراً قبل أن يُكتشف السبب الحقيقي لقدوم توماس وشاس إلى العقبة ، فقد علم توماس ، وبغريزة الصحفي العملي ، بأنه سيكون ثمة اهتمام شعبي ضئيل في الانجازات العسكرية العربية والمطالب السياسية لسوريا ، ورغم ذلك فإن هذه الزيارة ستوفر خلفية رومانتيكية للقصة التي كانت تتشكل حقيقة في مخيلته؟ وهي أن عالم أثار انجليزي شاب قد أصبح «ملكاً غير متوجاً على الجزيرة العربية» . ولا شك في أنه كان قادراً ، مثله مثل جميع الصحفيين ، على حجب حقيقة استطلاعاته بوساطة استعراض اهتمام عميق في كل شيء يتحدث عنه الاشخاص الذين يقابلهم ورغم

ذلك فقد جرى الكشف عن نياته في الصور الساحرة التي التقطها شاس للورنس .

من المشكوك فيه أن ثوماس عمل على الكثير من التفاصيل الشخصية عن لورنس نفسه ، بل من الضباط البريطانيين الآخرين الذين عبروا بطلاقة عن إعجابهم به ، وقام بادلاء معلومات عن «جانبه الإنساني» هذا . وكتب توماس فيما بعد حول ذلك يقول : «كان من المستحيل استخراج المزيد من المعلومات من لورنس نفسه في ما يتعلق بانجازاته خلال فترة وجودي أنا وشاس في الجزيرة العربية . فقد أصر على نسب الإنجازات كافة إلى الأمير فيصل وغيره من القادة العرب ، وإلى زملائه المغامرين أمثال الكولونيل ويلسون ، جويس ، داوناي ، بازيت ، فايكري ، كورنويلز ، هوغارت ، ستيرلنغ ، الخ ، فجميعهم قاموا بأعمال بارزة في الجزيرة العربية ، لذلك فقد ذهبت إليهم من أجل الحصول على المزيد من المعلومات ، وأنا مدين لأعضاء مختلفين من هذه المجموعة اللامعة من الرجال الذين استخدمهم الجنرال كلايتون في جهازه السري للشرق الأدنى . وكانوا متشوقين لإبلاغي بانجازات زملائهم ، ورفضوا التحدث كثيراً عن أنفسهم ، رغم أن مآثرهم تضاهي أولئك الأبطال المذكورين في قصة ألف ليلة وليلة» . وعلق لورنس على هذا الكلام بشدة قائلاً : «لقد صورت له سذاجته تصديق حزمه القصص التي رويت عني . فقد جرى إطلاعه على نسخ من تقاريري الرسمية ، فعمل منها استنباطات طويلة وبالطبع إنه لم يتواجد أبداً على خطوط النار العربية ، كما أنه لم يشهد أبداً أية عملية حربية أو غارة لي» .

في الثاني من نيسان توجه لورنس من «ابي اللسن» إلى الشمال . وكان يرافقه حارسه مع جمال محملة بالأغذية والذخيرة ، إذ أن زحف الجيش البريطاني على عمان كان سيحول الانتباه عن العمليات العربية في عمق الجنوب . وبما أن لورنس لم يكن يعلم بالضبط متى سيتم هذا الزحف ، فقد خطط ليبقى في الصحراء الغربية الموازية للخط الحديدي إلى أن تصله الأخبار .

لم يكن يعلم لورنس حتى ذلك الوقت أن حملة الجيش البريطاني على عمان لم تنجح ، رغم أنه جرى الاستيلاء على السلط ، بيد أن سوء الأحوال الجوية أعاق المزيد من التقدم . وأدرك الأتراك بأن هذه الحملة كانت تشكل تهديداً لخط السكة الحديد ، لذلك

ففي الوقت الذي وقع فيه الهجوم على عمان جرى تعزيز مواقعهم . ورغم انه جرى إيقاع بعض الخسائر والتدمير ، فقد حدث هجوم معاكس أجبر القوة المغيرة على الانسحاب الفوري ، حتى أنه جرى التخلي عن السلط .

ما علم لورنس بما حدث أدرك أنه لا يمكن القيام بأي شيء مفيد في الشمال آنذاك . لذلك فقد رجع إلى الجنوب ومعه حراسه ، املاً بأن يكون قادراً على تقديم المساعدة في الهجوم على معان .

وفي طريق عودتهم ، أنحرف حراسه ليسيروا بمحاذاة السكة الحديد . وبالقرب من الغرايغرة صادفتهم دورية تركية صغيرة ، فجرت بينهما مناوشة قصيرة اندفع خلالها عثمان (وهو نفسه فراج في كتاب أعمدة الحكمة) ، الذي توفي صديق عمره قبل أسبوع فقط ، اندفع أماماً متقدماً على مجموعته ، وما أن اقترب من القوات التركية حتى سقط من جمله . وفي كتاب «أعمدة الحكمة السبعة» يصف لورنس هذا المشهد على العمود الآتي : «كنت قلقاً جداً بشأن فراج . فقد وقف جمله سالماً ووحيداً بجانب الجسر وحين وصلنا إلى هناك ، وجدنا أحد الجنود الأتراك مقتولاً وفراج ملقى على الأرض تحت القنطرة مضرجاً بدمائه ، وبدا فاقد الوعي ، ولكن عندما رفعناه حيانا ثم أغمي عليه ، ومثل هذه العلامات تصيب الرجال الذين يعتقدون أنهم على وشك الموت . وقمنا بتمزيق ملابسه ، ثم حاولنا فحص جرحه من دون جدوى ، فقد أصابت رصاصة عموده الفقري . وقال زملاؤه العرب على الفور بأنه لن يعيش سوى بضع ساعات . حاولنا تحريكه لأنه كان عاجزاً عن الحركة ، رغم أنه لم يبد عليه أنه كان متألماً . ثم حاولنا وقف النزيف البطيء الذي غطى مساحة من العشب ، ولكن ذلك بدا مستحيلاً وبعد برهة طلب منا ان ندعه لوحده ، إذ أنه كان يموت ، وسعيداً بالموت ، ولم يعد يكترث بالحياة . وفي الحقيقة كان ينتظر ذلك منذ وقت طويل ، فالرجال المتعبون جداً والحزينون غالباً ما يحبون الموت .

وبينما كنا متحلقين حوله صاح عبد اللطيف محذراً ، فقد أمكنه رؤية خمسين تركياً يسرعون على الخط باتجاهنا ، وبعد ذلك بوقت قصير سمعنا محرك شاحنة يأتي من الشمال . وكان عددنا ستة عشر فقط ، ووضعنا صعب فقلت إن علينا الانسحاب فوراً ، وحمل فراج معنا ، فحاولوا رفعه ، بعباءته أولاً ومن ثم بحرام (بطانية) إلا أن الإغماء عاد

اليه ، وطلب مسترحماً أن لا نسبب له مزيداً من الألم .

لم يكن بإمكاننا تركه هناك لوحده ، لأن الأتراك سيحرقونه حياً ، كما رأيناهم يفعلون سابقاً وكنا قد اتفقنا سابقاً بأن ينهي (يقتل) أحدنا الآخر إذا ما اصيب بجرح خطير : إلاّ أنني لم أتصور أبداً بأنه من الممكن أن أقتل فراجاً ثم ركضت إلى جانبه ، واضعاً مسدسي على رأسه بمحاذاة الأرض ، لكي لا يعرف غرضي ، بيد أنه لا بد أن يكون قد خمن ذلك ، إذ فتح عينيه وأمسك بي بقوة ، فانتظرت لحظة ، فقال لي ؛ «سيكون داود غاضباً منك» وعادت ابتسامته القديمة ، بشكل غريب ، إلى وجهه الشاحب ، فأجبته ، «بلهفة سلامي» ، فرد علي بجواب تقليدي ، «سلمك الله» ، ثم أغمض عينيه إغماضة أخيرة» .

عندما اقترب لورنس من معان وجد أن الهجوم عليها قد بدأ منذ وقت وهنا أيضاً جرى التخلي عن الخطة الموضوعة لذلك ، واستمر القتال من دون حسم لبضعة أيام في حين قامت الطائرات الحربية بقصف البلدة ودفاعاتها ومن ثم قاد نوري السعيد في السابع عشر من نيسان مجموعة اقتحام للهجوم على المواقع التركية الرئيسة المحيطة بمحطة السكة الحديد . وكانت الدفاعات التركية ضخمة ومنيعة ، فوجدت القوات العربية نفسها محاصرة بنيران المدافع الرشاشة من وراء الرشم الاسمنتية . كما أنه لم يكن يوجد غطاء مدفعي فعال من جانب القوات العربية ، لذلك فقد اجبرت على التراجع متكبدة خسائر فادحة . بعد ذلك ، لم يعد بإمكان القوات العربية سوى أن تتخندق في مواقعها خارج البلدة ، إلا أن يمكن تسوية الوضع (في معان) بوساطة الحصار . ورغم النتيجة غير المرضية ، فقد اعتقد لورنس وغيره من الضباط البريطانيين بأن الجيش النظامي قد خاض قتالاً مؤثراً .

العنصر الآخر في الخطة شن هجوم بوساطة العربات المدرعة على خط السكة الحديد في الجنوب ؛ فبدأت هذه العملية في الثامن عشر من نيسان . وكان جويس مريضاً ، فتولى داوناي القيادة . ولم تشترك في القتال المدرعات البريطانية وقوات القبائل فحسب ، أيضاً فيلق الهجانة المصري بقيادة فريدريك بيك . كما طلب من لورنس الذهاب أيضاً ، كمترجم بشكل ظاهر ، لأن داوناي لم يكن يتحدث العربية . وفي الحقيقة ، فقد كان لورنس قلقاً من أنه قد توجد خلافات بين العناصر العرقية المختلفة .

وكما كتب فيما بعد يقول : «لقد عرفت أن شجاراً واحداً يمكن ان يخرب التوازن الدقيق للجبهة العربية ، وان مثل هذا الشجار سيحدث ما لم يجر إتباع الحذر والحيطة . وكنت واحداً من قلائل قد ألفوا العرب تماماً ، أعيش لهم بشكل متواصل من دون ضجر أو كلل . لذلك فقد حاولت تبني كل حملة عسكرية مختلطة . ولم يرد داوناي في أن اتسكع» .

لقد ثبتت مخاوفه في هذه المناسبة ، فبعد الاستيلاء على محطة تل شهم في التاسع عشر من نيسان ، انشغل البدو بالغنائم كعادتهم ، وحسب تقرير داوناي «فإنه بينما كان ذلك جارياً نشأ وضع خطير بين القوات العربية والمصرية والبريطانية ؛ إلا أنه رغم ذلك أمكن تلافي الأمر ببراعة بواسطة الكولونيل لورنس» .

استمر العمل في تدمير خط السكة الحديد لعدة أيام ، وبحلول الخامس عشر من نيسان جرى تدمير مائة كيلو متر من الخط الواقع بين معان والمدورة فعلياً . ولم يشهد لورنس المرحلة الثانية من العمليات . وعندما عاد رجال القبائل الى مضاربهم ، لم يعد ثمة خطر كبير لحدوث متاعب ، مضاد (لورنس) إلى منطقة «أبي اللسن» في الثاني والعشرين من نيسان . وأصبح همه الآن أن تتعرض القوات العربية المحيطة بمعان إلى هجوم مضاد يأتي من الشمال فالخسائر المحدودة التي منيت بها القوات البريطانية في عمان قد جرى تعويضها ، لذلك فقد كان يوجد احتمال كبير بأن يقوم الأتراك بجلب تعزيزات قوية إلى معان ، حيث سيواجه جيش الأمير فيصل قوات متفوقة عليه عدداً .

ولكي يجري تأجيل مثل هذا التحرك اقترح لورنس بأنه يجب على قوات القبائل شن غارات متواصلة على خط السكة الحديد إلى الشمال من معان . ولم يكن هو نفسه قادراً على تنظيم ذلك ، لأنه كان على وشك الذهاب إلى فلسطين من أجل حضور اجتماعات للقيادة العامة البريطانية هناك . وبدلاً من ذلك طلب من يونغ القيام بتنسيق العناصر النظامية والقبلية المختلفة في المنطقة . وكتب فيما بعد يقول : «لقد أردت من يونغ أن يصبح متدرباً أكثر لكي أُعطيه فكرة عن أداء العمل» .

عندما وصل لورنس إلى القيادة العامة في الثاني من آيار ، علم بدهشة ، أن القوات البريطانية قد شنت هجوماً آخر على السلط . وقد شجع هذا الهجوم مبعوثين من بني

صخر قدموا إلى القيادة العامة عارضين عليها تقديم مساعدة كبيرة في هذا الشأن ، فجرى القيام بهجوم بريطاني على الفور ، من دون الرجوع إلى لورنس ، أو أركان داوناي في القاهرة .

وقد حذر لورنس من ذلك لأنه كان يعرف بأنه لن توجد أية مساعدة . وفي اليوم التالي تحققت مخاوفه ؛ إذ لم تُقدم أية مساعدة من العرب ، ونتيجة لذلك تمكن الأتراك من الاستيلاء على الطرق التي تقدمت منها حملة الجنرال شوفيل ؛ الذي كان محظوظاً بالنجاة ، وتكبد (١٦٥٠) إصابة فقط .

وبعد هذا الخطأ الفادح ، قررت الأركان العامة البريطانية ترك مستقبل التعاون مع القبائل إلى لورانس .

كانت ثمة أخبار مزعجة أخرى أيضاً في القيادة العامة البريطانية ، فقبل بضعة أسابيع شن الجيش الألماني هجوماً رئيساً على الجبهة الغربية ، وبدأت وزارة الحربية البريطانية باستدعاء الرجال وجلب المعدات إلى أوروبا ، وفي السابع والعشرين من آذار ، أُبلغ اللّنبي بأن لا يقوم بأي هجوم في الوقت الراهن ، وأن يتبع الدفاع النشط فقط ، مما وضع إشارة استفهام على توقيت الهجوم القادم في الشمال .

كان أي تأخير غير مرحب به بالنسبة للأمير فيصل ، الذي تزعزعت ثقته من قبل بتراجع القوات البريطانية عن السلط . كما أن أخبار الاخفاقات الكاملة أقلقته بصورة أكبر ، لذلك قرر لورنس أن يطير إلى العقبة فوراً ويشرح كيف حدث ذلك . إلاأنه سرعان ما علم بأن القلق قد سوي . فقبل يومين فقط ، أرسل الأتراك مبعوثاً لهم من معان إلى المواقع العربية كان يحمل رسالة من جمال باشا إلى فيصل ، كتبت مباشرة بعد ورود أخبار عن هزيمة القوات البريطانية في السلط ، لمح فيها إلى تقديم تنازلات للمطالب القومية العربية ، إذا ما أراد الأمير فيصل تغيير موقفه بيد أن تفسيرات لورنس أنقذت الوضع ، وأسرع عائداً إلى القيادة العامة لبحث ما يمكن عمله بشأن خطط المستقبل .

إذا ما كان لورنس يأمل بسماع أخبار أفضل فقد خاب ظنه ، إذ أن الألمان شنوا هجومهم الثاني في أوروبا في التاسع من نيسان ، فطلب من اللّنبي الآن التخلي عن أربع عشرة كتيبة أخرى من دون أنتظار ورود قوات هندسية إضافية . وجرى سحب ستين ألفاً

من الضباط والجنود من القوات البريطانية المشتركة .

وأعلن اللّنبي بأن الوحدات الهندية التي كان يتوقعها لم تكن كاملة التدريب ، وتنقصها التجربة السابقة في خوض الحروب وقد قال لورنس في هذا العدد : «عندما تأتي هذه القوات الخام فانه سيعيد تنظيمها ، أو أنه يعيد بناء وتركيب جيشه حسب النمط الهندي ، وربما يمكنه ، بعد الصيف ، أن يكون في وضع قتالي ؛ إلاّ أن هذا أمر بعيد التنبؤ به في هذه اللحظة فنحن مثل اللّنبي ، علينا التهيؤ والانتظار ، فالبنسبة إلى لورنس ، فإن عشرة أسابيع من التخطيط قد انهارت : إذ أن عليه أن يبلغ الأمير فيصل بأن وعده بانتصار مبكر قد أصبح زيفاً . فالأخبار ستكون ضربة موجعة لأن لورنس كان معولاً على تقدم اللّنبي إلى الشمال من أجل حل المعضلة العسيرة في معان . أما الآن ، فقد أصبح الأتراك طليقي الأيدي في الحشد والتركيز على قوات جعفر باشا ، فإذا ما سمح لهم بالتقدم جنوباً فمن الممكن أن يجري إبعاد القوات العربية عن نجد معان .

وعلى المدى الطويل فقد يكون للتأخير تأثير حاسم على المعنويات والإخلاص العربيين لقضية الحلفاء ، فمنذ خريف عام ١٩١٧ كان التحالف الإنجلو - عربي مهتزاً بشكل كبير . وكان السبب في ذلك معرفة العرب باتفاقية سايكس - بيكو وبوعد بلفور ، فقد أثر هذان في كل من سوريا ، لبنان ، العراق ، وفلسطين . وإذا ما جرى تحقيق ذلك فلن تبقى سوى الجزيرة العربية تمتع بحكم ذاتي . وبمعنى آخر فإن أغنى البلدان العربية وأخصبها ستوضع تحت إشراف الحلفاء (بريطانيا وفرنسا) ، وسيحرم أغلب الشعوب التي كانت خاضعة لتركيا من الاستقلال . وقد شعر الزعماء العرب بأنهم قد خدعوا إلى حد كبير بالقتال الذي خاضوه ، كما كانوا غاضبين بشدة لانهم لم يتشاروا حول هذه الاتفاقات .

وكان تعليلهم الرئيس بأن مواصلة الإخلاص مع بريطانيا هو الاعتقاد بأن الحلفاء سيكسبون الحرب ورغم ذلك ففي خلال ربيع عام ١٩١٨ أصبح الشك ظاهراً . وكان تقدم الجيش البريطاني إلى القدس وأريحا مؤثراً إلا أنه قد توقف هناك لتتبعه فقط غارتين مأساويتين عبر الأردن .

فتعززت بذلك الشكوك العربية بأنه قد يكون الحلفاء ضعفوا بسبب أخبار نجاح

الهجوم الألماني في أوروبا . وكان من المحتم لمثل هذه الإشارات أن تجعل الزعماء العرب يأخذون بنظر الاعتبار النتيجة المحتملة للحرب التي كانوا يخوضونها .

وإذا ما أُجبرت بريطانيا على إبرام معاهدة سلام مع تركيا من موقع ضعيف ، فماذا سيحدث للآمال العربية آنئذ؟ وستنهي سوريا والعديد من الأقاليم العربية الحرب مع تركيا ، وقد يترك العرب لأن يعقدوا أفضل صفقة ممكنة ، بدلاً من أن يخوضوا حرباً خاسرة . وفي الوقت الحاضر ، فإن حدوث تغير في الولاء العربي سيكون ذا قيمة لتركيا ، وفي مقابل ذلك ، فمن الممكن لفيصل بالتأكيد إجراء مفاوضات ذات نتيجة أفضل من إتفاقية سايكس - بيكو .

كان لورنس مدركاً تماماً لهذا الخطوة وخشي من أن يؤدي الجمود العسكري إلى حدوث تقارب عربي مع الأتراك . فإذا لم يكن بالإمكان القيام بأي شيء في فلسطين ، فلا بد أن يتخذ فيصل زمام المبادرة بنفسه .

كانت هذه المشكلة تؤرقه عندما قام بزيارته الثانية لمقر القيادة العامة البريطانية في الخامس عشر من أيار . وبينما كان يبحث الموقف مع اللنبي ، علم بأن لواء الهجانة الملكي ، الذي أدخل في الخدمة في شهر شباط ، سرعان ما سيعاد تنظيمه ليصبح قوة فرسان تقليدية . وبينما كان يتمعن في هذه الأخبار أدرك بأن هذا التغيير سيسرح عدداً كبيراً من جمال الركوب .

فاذا ما أمكن إعطاء هذه الجمال للقوات العربية النظامية ، التي أثبتت جدارتها في جبهة معان ، فسيكون فيصل قادراً على ضرب أهدف أكثر في الميدان لذلك طلب لورنس الجمال ، قائلاً بأنها ستمكنه من وضع ألف رجل للهجوم على درعا حينما يرغب اللّنبي في ذلك .

والأمر الأكثر أهمية هو أن مثل هذه القوة ستمكن القوات العربية من شن هجومها الشمالي ، من دون انتظار قوات اللّنبي . وفي حين من الممكن أن لا يقدروا على الاحتفاظ بما يستولون عليه ، فإنه يمكنهم إعاقة خطوط المواصلات التركية ، ومن الممكن أيضاً إثارة ثورة شعبية تدفع بالأتراك إلى دمشق وماوراءها ، وعند تلك النقطة سيكون اللّنبي متشوقاً بقوة للانضمام إلى القوات العربية ، وبذلك يترسخ الوضع العربي . وإذا لم

يفعل ذلك فمن الممكن لفيصل أن ينقذ الوضع بعقده اتفاقية سلام منفصل مع الأتراك . وعرف لورنس بأن العرب سيأخذون هذا بالاعتبار أيضاً : فبشن غارة ناجحة على دمشق يكون من المستحيل إضعاف موقفهم في مواجهة الأتراك بل على العكس من الممكن أن تعزز قوة منفعة فيصل بشكل كبير .

ورغم هذا كانت توجد مشكلة لابد من حلّها قبل وضع هذه الخطة موضع التنفيذ . وكان الرجال الذين يفكر بهم لورنس لاستخدام جمال فيلق الهجانة يمكن أن يستخرجوا من القوات النظامية العربية التي كانت تخدم آنذاك خارج معان . غير أنه سيكون من الخطأ إضعاف قوات جعفر باشا هناك ، والتي كان يقل عددها حينذاك عن عدد القوات التركية المدافعة عن معان ، ومن أجل التغلب على هذه المشكلة اقترح لورنس إحضار معظم وحدات القوات النظامية العربية التي لا تزال تخدم مع علي وعبد الله في الحجاز .

ومع هذه التعزيزات ، والرجال الإضافيين الذين كانوا يجندون في فلسطين وفي أي مكان آخر ، فانه من الممكن أن يصل عدد القوات العربية في الشمال إلى نحو عشرة آلاف رجل . وعندئذ سيقسم هذا الجيش إلى جزئين ، بحيث يواصل الجزء الأكبر منه حصار معان ، في حين يقوم الجزء الثاني والمختار بعناية بالعمل في قطاع درعا - دمشق .

وعندما كان يجري بحث تفاصيل الهجوم خارج مقر قيادة فيصل ، أصبح لورنس واثقاً من أن حدوث تحرك أولي سيكسر الجمود على جبهة فلسطين . فحتى لو حدث هناك تقدم بسيط سيضع القوات التركية في السلط في موقف حرج قد يؤدي إلى انسحابها من هناك . وهذا بدوره سيمنح السيطرة للعرب على التلال الواقعة شرق البحر الميت ، مما يتيح لهم الاتصال بالقوات البريطانية المحيطة بأريحا من أجل شن هجوم نهائي .

أمكن للورنس فقط أن يتكهن بنتيجة المراحل الأخيرة لهجومه . وكتب في «أعمدة الحكمة السبعة» يقول بأن جمال فيلق الهجانة كانت ضخمة ، وهبة فخمة منحتنا تحركاً غير محدود ، وقد أصبح بإمكان العرب الأن كسب حربهم عندما يريدون ذلك» . غير أنه ، أدرك في سره بأن الهجانة لن يمكنهم بلوغ دمشق وقد كتب فيما بعد يقول : «من الناحية العملية اقترحت بأن نستخدم عرب حوران لنتمكن من الوصول الى أريحا ، وهو

نصف الطريق لبلوغنا دمشق ، هدفنا المنشود لذلك فقد كانت خطة مكلفة إلا أنه لابديل عنها بالنسبة لكل من العرب والإنجليز في خطوطهم الحالية على مدار الشتاء» .

وسيكون ثمة بعض الوقت قبل الشروع في هذه العمليات في غضون ذلك كان من الضروري حماية وضع القوات العربية خارج معان من هجوم تركي مضاد . ففي ذلك الوقت كان يمكن إنجاز ذلك بقطع خط السكة الحديد في الشمال بصورة مستمرة . وأسندت مهام التنسيق لهذه العمليات إلى يونغ ، غير أنه سرعان مابدا واضحاً أنه لم يكن ملائماً لمثل هذه المهمة الدقيقة . وكما رأى لورنس من قبل ، فان الجيش النظامي المدرب كان يلقي مساعدة طفيفة من القوات العربية غير النظامية في أثناء سير المعارك أما بالنسبة ليونغ فأنه كانت ثمة مشكلة دائمة ايضاً ، اذ كان نافد الصبر جداً ليتعامل مع البدو بنجاح : فرغم تشوقه لإنجاز الأمور ، فإنه يصدر سلسلة من الأوامر ، يتوقع أن تطاع . وأدى هذا التوجه إلى حدوث صعوبات مستمرة ، كما أنه أنهك نفسه بالمسير جيئة وذهاباً محاولاً الإبقاء على المجموعات المختلفة العاملة متماسكة . وفي نهاية الأمر ، سقط مريضاً ، فأرسل إلى مصر . ومن ثم غادر لورنس مقر قيادة الأمير فيصل في الثامن والعشرين من أيار ليحل محله .

واتخذ لورنس في ذلك الوقت خطوات أخرى للمساعدة في تأمين وضع القوات العربية المتواجدة في نجد معان ، في أثناء آخر زيارة له إلى مقر القيادة العامة البريطانية طلب القيام بسلسلة من الغارات على عمان والقطرانه ، فاستجاب سلاح الجو لذلك بسخاء كبير . ففي «أعمدة الحكمة السبعة» كتب لورنس يقول في هذا الصدد : ؟ «نظمت غارات روتينية على الخط الحديدي الحجازي ، وحافظ سلاح الجو الملكي على ذلك باستمرار حتى استسلام تركيا . لقد قام الطيارون بهدف استراتيجي قيم ، وذلك بإحداث خسائر جسيمة وتعطيل على خط السكة الجديدة وأعاق أقامة أية حشودات كبيرة سواء في الرجال أو العتاد على قطاع شمال معان . ويعود الكثير من عدم نشاط القوات التركية إلى اضطراب وتعطيل المواصلات على سكة حديدهم بسبب قصفنا الجوي لها . فباستخدام مهبط متقدم للطائرات بالقرب من القويرة ، كانت طائرات سلاح الجو البريطاني تقوم بطلعات إلى مناطق شمالية بعيدة حتى منطقة الجرف ، في حين كانت الطائرات القادمة من فلسطين تهاجم خط السكة الحديد جنوب عمان . كما كانت

طائرات سلاح الجو تقوم بمهام متكررة لعمليات الاستطلاع ، وتقدم معلومات دقيقة عن تحركات قوات العدو .

إن تأثير هذه العمليات المكثفة على الأرض وفي الجو كان يُعَدّ كل شيء تمناه لورنس . وبعد وقت قصير قضاه مع المجموعات المغيرة شمالي معان ، توصل لورنس إلى أن هذه (المجموعات) ستكون ملائمة لمنع أي هجوم تركي مضاد لمدة شهرين في الأقل . وكان ثمة شيء قليل يمكن أن يسهم به شخصياً ، لذلك حوّل انتباهه صوب الهجوم العربي المنتظر . وخلال الأسبوع الأول من شهر حزيران ، نفذ عملية استطلاع لنجد مؤاب ، الواقع ما بين خط السكة الحديد والبحر الميت ، ثم رجع إلى «أبي اللسان» .

وبينما كان لورنس خارجاً ، وصلت رسالة أخرى من جمال باشا إلى مقر قيادة القوات العربية . وبدأ فيصل هذه الاتصالات مع الأتراك وبشكل جاد من دون إبلاغ لورنس بذلك . وكتب لورنس فيما بعد يقول في هذا الصدد : «كان جمال راغباً في منح الاستقلال للجزيرة العربية ، والحكم الذاتي لسوريا ، ونصف ثروة تركيا لفيصل ، إذا ما انضم الجيش العربي إلى الأتراك ضد البريطانيين» . وبعد ذلك بسنوات ، بحث لورنس موضوع هذه المفاوضات السرية مع ليدل هارت ، الذي كتب ملاحظات عن الحادثة . وتُعَدّ هذه المذكرات الموجزة مشوشة ، ومن المحتمل أن لورنس قدم عنها تقريراً موجزاً فحسب . ورغم ذلك ، فان هذه الملاحظات تشير بوضوح إلى الوضع الذي كان سائداً في شهر حزيران ، حيث يقول فيها هارت : «لم يبلغ فيصل لورنس مطلقاً بشأن مفاوضاته التي أجراها في شهر حزيران ١٩١٨ وكان بالتأكيد يتخلى عنا» . فقد اعتقد أن البريطانيين كانوا ينهارون . . . سمع لورنس ذلك من خلال عملاء له في المعسكر . وقد أوقف فيصل هذه الاتصالات عندما وصلت إلى مرحلة خطرة ، وتظاهر بأنه ما قام بها كجزء من تكتيك سياسي : فلم يكن بإمكانه الاستمرار بها عندما علم البريطانيون بذلك» .

حدث اتصال دبلوماسي آخر بينما كان لورنس خارجاً ، وذلك عندما زار الدكتور حاييم وايزمن ، وهو قيادي صهيوني بريطاني إذ كان وايزمن قد وصل إلى فلسطين على رأس لجنة صهيونية مفوضة من قبل اللجنة الشرقية لوزارة الحرب . وكان من بين أهداف اللجنة «إنشاء علاقات جيدة مع العرب ومع الهيئات غير اليهودية الأخرى في فلسطين» .

وأمل كلايتون ، الذي كان منخرطاً بشكل وثيق في الإدارة البريطانية في فلسطين ، بأن تسمح هذه المهمة في تقليص حدة العداء بين العرب واليهود . وكتب إلى لندن في الرابع من شباط يقول : «لقد حثثت لورنس للتأثير في فيصل وإقناعه بضرورة التحالف مع اليهود . إلا أن فيصلاً كان ميالاً لطريقة أخرى ، وكان لوجود أناس في القاهرة لم يدخروا جهداً في وضعه ضدهم» . ومن ثم أبلغ لورنس كلاثيون بما يلي : «بالنسبة لليهود ، فعندما التقي بفيصل في المرة القادمة سأحدثه في هذا الشأن ، وسيكون الموقف العربي متعاطفاً ، في ما يتعلق بمدة الحرب في الأقل وتذكر بأنه لا يدير المملكة العربية لوحده» . وسينصح فيصلاً بزيارة القدس ، عندما يسمح الوضع بذلك . ولم يتيسر للورانس مقابلة وايزمن سوى عندما قام بزيارة لمقرة قيادة اللّنبي .

بعد زيارة قصيرة إلى العقبة غادر لورنس إلى مصر في العاشر من حزيران . وبينما كان في طريقه إلى القاهرة أجرى محادثات مع وينجيت حول إحضار القوات العربية النظامية من الحجاز . وتوجه بعد ذلك إلى القيادة العامة من أجل بحث التفاصيل النهائية للهجوم الشمالي . وعندما وصل إليها في التاسع عشر من حزيران وجد أن مزاج هيئة أركان اللّنبي قد تغير تماماً . فقد اظهر برنامج التدريب السريع للقوات الهندية الجديدة نتائج ممتازة ، وتقدمت الخطط تقدماً ملحوظاً أكثر مما بدا ممكناً قبل بضعة أسابيع . لذلك فقد تقرر أنه سيكون بالإمكان شن هجوم جديد في شهر أيلول . وهذا دلّ على أنه لم يعد ضرورياً الاعتماد على مبادرة لورنس العربية في الهجوم ، بكل مخاطرها .

الفصل الخامس عشر

الاســـــتعدادات

حزيران - أيلول ١٩١٨

استغرق اتخاذ القرار بشن هجوم رئيس في خريف عام ١٩١٨ أربعة أيام فقط قبل وصول لورنس إلى القيادة العامة ، إلاّ أنه لم يجر وضع خطط مفصّلة بعد . رغم ذلك فلم تتغير متطلبات اللّنبي في شرقي الأردن . وسيكون الهدف الرئيس للقوات العربية نقطة اتصال خط السكة الحديد في درعا . فاذا ما جرى عزلها سيتم قطع خطوط مواصلات الجيشين التركيين السابع والثامن في فلسطين .

وجد لورنس المكتب العربي متوتراً بسبب ما أعلنته وزارة الخارجية البريطانية بشأن اتفاق سايكس - بيكو . فقبل بضعة أسابيع وصلت مذكرة مرسلة من سبعة سوريين مقيمين في القاهرة ، ادعوا فيها بأنهم كانوا يمثلون جمعيات ولجان سرية في دمشق ، ومن ثم أربعة أمثال أو أكثر من إجمالي سكان سورية . وقد احتج هؤلاء السبعة ، الذين فضلوا عدم الكشف عن أسمائهم ، احتجوا بشدة حول اتفاقية سايكس - بيكو وتقسيم البلدان العربية إلى مناطق بريطانية وفرنسية . وطلبوا توضيحاً حول إعلانات الحكم الذاتي التي أعلنها جورج لويد ، والرئيس الأميركي ويلسون ، كما طالبوا بتأكيدات بأن بريطانيا ستمنح العرب استقلالاً تاماً في الجزيرة العربية ، والعراق .

كان الرد متقناً بعناية من لندن ، فقد بدأ بتقسيم المناطق العربية إلى أربع فئات . كانت المنطقتان الأوليان تتمتعان بالاستقلال والحرية قبل الحرب ، والمناطق الأخرى التي حررت من السيطرة التركية بوساطة القوات العربية خلال الحرب الراهنة . ففي هذه الحالات ،ستعرف الحكومة البريطانية بالسيادة والاستقلال التام للسكان العرب فيها ، وستساندهم في نضالهم من أجل الحرية .

وبالنسبة للفئة الثالثة ، فقد كانت تعني «المناطق التي احتلتها قوات الحلفاء خلال الحرب الراهنة . وهنا كان يكمن غموض كبير : فانه يتوقف على رغبة بريطانية في أن

الحكومة المستقبلية يجب أن ترتكز على «مبدأ موافقة المحكوم» . أما الفئة الأخيرة فهي المناطق التي كانت لاتزال تحت السيطرة التركية» ،حيث كانت توجد رغبة وتمنيات بريطانية أيضاً بأنه يجب أن يحصل العرب على حريتهم واستقلالهم فيها» . فمن أول نظرة كانت هذه الوثيقة تناقض بشكل واضح اتفاقية سايكس - بيكو ورغم ذلك ، فبفحصها بشكل دقيق يمكن الكشف عن غموض بارع فيها .

كانت المسألة الحاسمة هي ما إذا كانت أية مناطق أخرى من سورية ولبنان جرى الاستيلاء عليها بوساطة القوات العربية قبل انتهاء الحرب ستُعدّ من ضمن مناطق الفئة الثانية : «المناطق المحررة من السيطرة التركية بوساطة القوات العربية خلال الحرب الراهنة» . فاذا ما كان ذلك ، فقد أصبح البريطانيون متعهدين بالاعتراف» بكامل الاستقلال والسيادة في هذه المناطق ، بالرغم من استهلالات سايكس - بيكو المبكرة .

ورغم هذا فقد عين السير مارك سايكس ،الذي أعد مسودة الرد ، احتمال تطبيق التفسير الثاني في الحرب الراهنة . ففي حين أن المعنى الواضح كان يعني «خلال الحرب الحالية برمتها» ، إلا أنه أعد صياغة الوثيقة بعناية لكي يمكن فهم هذه الفقرة الحيوية على انها تعني «خلال الحرب الحالية وحتى الآن» . وحسب هذا التفسير البديل فقد استثنت سوريا من منطقة الاستقلال المكفول . ومن المحتمل أن سايكس عَدَّ هذا الغموض قابلاً للتسامح ، لأنه أقنع نفسه من الجو السياسي السائد آنذاك بانه لا يمكن لبريطانيا أو فرنسا محاولة فرض حكم استعماري في المناطق المنصوص عليها باتفاقية سايكس - بيكو .

بعد بضعة أيام تسلم وينجيت استفساراً غاضباً من ممثل الشريف حسين في القاهرة بشأن الوضع الحالي لاتفاقية سايكس - بيكو . وبما أن الشريف قد علم بالاتفاق منذ بعض الوقت ، فقد خشي وينجيت أن يؤدي رد الفعل المفاجىء إلى محاولة حدوث نزاع مع بريطانيا . فأبرق إلى وزارة الخارجية البريطانية قائلاً بأنه «قد نصح ممثل الشريف بأن يقول إن البلاشفة وجدوا هذه الوثيقة في سجلات وزارة الخارجية الروسية سابقاً ، تتعلق بمحادثات قديمة وتفاهم مؤقت (وليس معاهدة رسمية) ما بين بريطانيا ، فرنسا وروسيا ، وهي ليست سوى عبارة عن مذكرة تفاهم بين هذه الدول ، عقدت في بداية الحرب من أجل منع حدوث متاعب وصعوبات بين القوى العظمى لمتابعة الحرب مع تركيا . كما أن جمال (باشا) ، سواء كان متعمداً أم على جهل منه ، قد حذف منها البنود المتعلقة

بموافقة السكان الأصليين للبلاد وحماية مصالحهم ، وتجاهل أيضاً حقيقة اندلاع الثورة العربية ونجاحها وانسحاب روسيا من الحرب ، مما نجم عنه تغير تام في الوضع . وتساءل وينجيت قائلاً : «هل بإمكاني إضافة اننا نعتبر الاتفاق ميتاً من كافة النواحي العلمية؟» فأقرت وزارة الخارجية البريطانية الخط الذي انتهجه وينجيت ،غير أنها رفضت طلبه الأخير ، مشيرة إلى أنه ما لم تعدل اتفاقية سايكس - بيكو ، فإن بريطانيا ستكون ملتزمة ببنودها .

وجرى ترتيب اجتماع مع اثنتين من الشخصيات السورية في الخامس والعشرين من حزيران ، وقرأ عليهما هوغارت إعلان الحكومة البريطانية ،والرد الذي بعث به وينجيت إلى ممثل الشريف حسين أيضاً . ونتيجة لذلك جرى تعميم هذه المذكرات بشكل واسع . ويأخذ الأمر بمجمله فقد دفعت محتوياتها بالعديد من الناس ، بما فيهم لورانس ، إلى الاعتقاد بأن اتفاقية سايكس - بيكو كانت عبارة عن وثيقة ميتة ، وأن الامر يجب أن يؤخذ بقيمة مظهره .

ورغم أن الدور الذي كان يلعبه جيش فيصل بموجب خطة اللّنبي الجديدة سيكون أقل مشقة من هجوم التحرير ، فإن لورانس كان لا يزال يعتقد بأنه سيكون من الحكمة الحصول على قوات نظامية إضافية من الحجاز ، فهي ستساعد على تأمين الوضع في معان حتى فصل الخريف ، كما أنها ستمكن العرب من إرسال قوة كبيرة باتجاه الشمال ، عندما يبدأ الهجوم . وعزم لورنس على المضي قدماً في زيارته إلى منطقة الحجاز وبسط الموضوع أمام الشريف حسين شخصياً .

ورغم ذلك ، وحتى هذا الوقت ،فقد بدأ يدرك بأنه ربما كان من الصعب جداً حث الشريف حسين على نقل هذه الوحدات ، فالحجاز كانت تعج بالنزاع ، آنذاك ، مع ابن سعود ، زعيم منطقة نجد الوهابي ، المتاخمة لمنطقة الشريف حسين .

وكان ابن سعود مثل الشريف حسين ، معلناً الحرب على تركيا ، إلا أنه لم يخض قتالاً شاملاً معها ، إذ أن القوة التركية في الجزيرة العربية كانت تتركز على طول الخط الحديدي الحجازي الواقع في أراضي الشريف حسين . وبينما كانت قوات الشريف تحارب في معارك طويلة وشاقة ، كان ابن سعود يركز جهوده على زيادة نفوذه الشخصي في الجزيرة العربية .

ورغم أنه كان على علاقات ودية ظاهرياً مع الشريف حسين ، فقد كان ثمة توتر على طول الحدود المشتركة بينهما ، ووقعت عدة حوادث اشتباك بين قواتهما .

كان الشريف حسين لا يخفي طموحاته في الحصول على نوع من السيادة على أرجاء العالم العربي كافة ، وكانت بريطانيا ، في رأيه ، تتحمل قسطاً كبيراً من المسؤولية بسبب الصعوبات التي كان يواجهها مع ابن سعود ، فقد كان الأخير يتلقى دعماً مفتوحاً من حكومة الهند البريطانية ، التي كانت تتبع سياسة «فرق تسد» ، لذلك كانت تهيىء ابن سعود بشكل متعمد ليكون قوة موازية للشريف حسين في الجزيرة العربية .

أبحر لورنس إلى جدة في الحادي والعشرين من حزيران ،حاملاً معه رسائل للشريف من وينجيت واللّنبي يعربان فيها عن دعمهما لطلبه في تحريك قوات إلى سوريا . ولكنه سرعان ما أدرك أن مهمته كانت يائسة بسبب الصعوبات العديدة التي كانت قائمة آنذاك . ولم يتسن للورنس مقابلة الشريف ، لعدم إمكانية خروج الشريف من مكة في شهر رمضان إلا أنهما تحدثا بالهاتف ، ولكن لم يتوصلا إلى نتيجة ، وانقطع الخط بينهما ، وبذلك فشلت مهمة لورنس . وعندما أيقن بأنه من العبث ملاحقة الأمر ،غادر جدة في الأول من تموز ، ووصل إلى القاهرة بعد خمسة أيام .

ومن القاهرة ذهب إلى فلسطين لبحث تفاصيل الهجوم المقبل مع اللّنبي وداوناي . وكانت القوات البريطانية المشتركة قد أضحت في هذا الوقت متوفقة على القوات التركية ، وعرف اللّنبي ذلك . إلاّ أن عنصر المفاجأة سيكون مفتاحاً رئيساً لتحقيق انتصار سريع وبأقل خسائر ممكنة . وكما حدث من قبل ، فان اخفاق الهجوم على كل من عمان والسلط في ذلك الربيع قد حفز الأتراك تجاه القوات البريطانية المشتركة في الهجوم على هذا القطاع . وقرر اللّنبي ، الذي كان يعلم بالتقرير التركي هذا من مصادر استخبارية ، القيام بكل شيء ممكن لإطالة هذا التخمين . وفي غضون ذلك فانه سيحشد قواته بصورة سرية على طول ساحل البحر المتوسط . فالخطة الحقيقية كانت القيام بالهجوم هناك بقوات ساحقة في التاسع عشر من أيلول . وكان يتوقع أن تقوم القوات العربية بعزل درعا قبل بدء الهجوم بثلاثة أيام . ومن ثم سيؤدي هذا إلى إقناع الأتراك بأن هجومه الرئيس سيكون في الشرق .

عند عودته إلى القاهرة وجد لورنس متسعاً من الوقت للرد على رسالة تلقاها من فيفان ريتشارد ، هذا الصديق الذي خطط معه مرة لإنشاء مطبعة إذ أنه قبل تسعة شهور ، وفي شهر أيلول ١٩١٧ بالذات ، ذكر لأسرته بأنه ربما يعيد فكرة إنشاء مطبعة مرة ثانية بعد انتهاء الحرب . فقد كتب يقول حينذاك : «يمكنني القول بصدق بأنني لم أر أحداً يقوم بشيء أكثر فائدة من أن يقوم المرء بطباعة الكتب الجديدة» .

والآن ، رغم ذلك ،كانت مشاريعه غير مؤكدة تماماً . فقد كان مقتنعاً ،كما شرح ذلك بضجر لريتشارد ، بأن نوع الحياة التي كان يفكر بها في القيادة كانت مسيطرة عليه . وربما كانت هذه الرسالة تُعَّد وثيقة مبكرة وحية تعكس المزاج الذي دفعه فيما بعد لينخرط في سلاح الجو البريطاني . ويقول لورنس في رسالته لريتشارد : «لقد خمنت بحق بأن العرب يسيطرون على إعجابي ومخيلتي ، فهم أمة ذات حضارة قديمة ومزدهرة ، والتجرد من المواد والعناصر يُعَّد شيئاً مهماً ،كما أنه يحمل ظاهرياً نوعاً من التجرد الأخلاقي أيضاً . انهم يفكرون للحظة ، ومن ثم يحاولون الإنزلاق عبر الحياة من دون التحول إلى الزوايا أو تسلق الجبال . وقد يكون ذلك نتيجة لإرهاق فكري ومعنوي . كما أنهم جنس مجرب ، ولتجنب المصاعب فانهم يطرحون وينبذون الكثير مما نعتقد بأنه شجاعة وتشريف : ورغم ذلك وبطريقة ما نشاركهم وجهة نظرهم . واعتقد بأنه يمكنني فهم ذلك تماماً بالنظر إلى نفسي وإلى غرباء آخرين من خلال اتجاههم ، ومن دون شجبهم ، وأعلم بأنني غريب عنهم ، وسأكون دوماً كذلك ؛ ولكنني لا استطيع الاعتقاد بأنهم سيئون أكثر من أن يكون بوسعي تغيير أساليبهم وطرقهم . . . وعلى أية حال ، فإن هذه السنوات من التجرد قد عالجتني من أية رغبة في القيام بأي شيء من أجل نفسي . وعندما يسرحونني فإنني لن أجد في نفسي أي حافز للعمل . . . فبيت من دون عمل يفرض على المرء هدوءاً ، وحرية في التفكير والإقناع عن الرغبات . فأعتقد أن الإمتناع وترك كل شيء وحيداً ومراقبة الآخرين لا يزالون يسيرون الى الماضي ، فهذا ما أنشده اليوم ، اذا ما توقفوا عن دفع المرء . . . فتلك الكلمات – السلام ، الهدوء ، الراحة ، وغيرها – تتخلل الضجيج والقلق والضجر كمثل نافذة مضيئة في الظلام . . . والهدوء الطويل مثل عملية التطهير ومن ثم التأمل واتخاذ القرارات المستقبلية ، فهذا هو التطلع إلى الأمام .

وإذا ما ثبتت استحالة تحقيق ذلك ، فسيحاول الهجانة إحداث خسائر ضخمة في خط السكة الحديد جنوباً .

وستكون القيمة الحقيقية لهذه الحملة نفسية . فمن المحتمل أن لا يدرك الأتراك بأن هذه الهجمات المتفرقة والواسعة تقوم بها القوة نفسها .

ونتجة لذلك ، فأنهم سيكونون مشوشين أكثر من قبل بخصوص القوة الحقيقية للأمير فيصل . ومن ثم فستكون رد الفعل الطبيعية اتخاذ حذر إضافي ، وهذا ما سيجعلهم يفكرون ملياً قبل أن يشنوا أي هجوم جنوباً باتجاه معان .

أما المسألة الأخرى التي بحثها لورنس وداوناي فقد كانت خطة الاستيلاء على درعا ،إذا تغيرت عدة عوامل منذ أن طور لورنس خطته لشن هجوم بوساطة قوات محمولة على الجمال ، وقد اقترح الآن انه يجب أن يجري سحب خمسمائة جندي نظامي فقط من معان ، ومن ثم تقوم هذه القوة بالمسير إلى الازرق شمالاً ، آخذة معها مؤنة مكونة من ألف وخمسمائة جمل وترافقهم مدفعية فرنسية ، ومدافع رشاشة ، وعربتان مدرعتان وطائرتان . وستعمل هذه القوة كوحدة مستقلة ، تحمل معها المؤن والامدادات كافة التي لا يمكن الحصول عليها محلياً . وسيستغرق الأمر أسبوعين للوصول إلى درعا عن طريق الأزرق ، وأسبوعاً آخر لقطع خط السكة الحديد بمساعدة أبناء قبيلة الروالي .

قبل ذلك بعدة أسابيع وجد داوناي أنه توجد حاجة لضابط بريطاني اضافي لتنظيم خط المواصلات في الداخل المار من العقبة . وكان من الواضح أن عمليات جعفر باشا سيجري مساعدتها بشكل كبير اذا ما جرى إرسال المزيد من قوافل التموين والإمداد بشكل أكثر فعالية ، وان أي نوع من الهجوم على الشمال سيكون أكثر تأثيراً وفقاً لمصادر النقل . لذلك ففي اوائل شهر حزيران ، اقترح داوناي على جويس بأن هيوبرت يونغ سيكون مناسباً لهذا العمل : «إذ أن عقليته العسكرية النظيفة ستكون متكيفة بشكل خاص مع هذا النوع من العمل ؛ كما أن إجادته اللغة العربية لن تضيع هباءً ، حيث سيكون متعاملاً ، بشكل مباشر وكبير مع أبناء العرب ، إضافة الى أن وضعه الأسمي الحالي الموضوع تحت الدراسة ليحل محل لورنس مازال يحظى ببعض الرضى ، ولست متأكداً ، مع أخذ العامل الشخصي بالاعتبار ، أنه من المحتمل أن يصبح بديلاً للورنس» .

وكان ثمة ضابط بريطاني آخر ، هو الميجر ستيرلنغ ،على وشك الانضمام إلى أركان جويس ، واقترح داوناي تقسيم المسؤوليات على النحو التالي :

جويس : مسؤول عن العمليات مباشرة كافة .

لورنس : إدارة العمليات المتميزة ، وتنفيذها كالعادة .

يونغ : يتولى أمور المواصلات والإدارة .

ستيرلنغ : مسؤولاً عن تنقل الوحدات البريطانية في العمليات الشمالية ، والقيام بعمليات الاستطلاع .

وصل يونغ في أواخر شهر حزيران . وكما كان من قبل ، فقد أثبت قدرته إلاّ أنه كان قائداً ملماً جداً في طلباته ، فوجد صعوبة في التعامل مع العرب المستقلين فكريا في ما يتعلق بمسؤولية قوافل التموين . وخشي جويس من حدوث شجار مستمر حول هذا الشأن ، غير أن داوناي حثه على استخدام مقدرة يونغ على أفضل وجه ممكن .

واشتكى جويس أيضاً من أنه كان غير فعال في ما يتعلق باستشارة الخطط المقدمة من قبل لورنس إلى قيادة العامة ، رغم أن عليه لعب دور كبير في تنفيذها . وقال : «إنني مستعد تماماً لقبول أية مسؤولية تتعلق بجميع الأفراد البريطانيين والأوروبيين . . ولكوني كبير الضباط هنا ،فهذا من اختصاصي بالطبع . وبالنسبة للأمر برمته فأعتقد أن الكولونيل لورنس يجب أن يقبل المشاركة في المسؤولية ، فهو يُعَد القناة الموصلة مع القيادة العامة ، ومن ثم يختفي ويترك العمل وتفاصيله لاشخاص آخرين . وهذا قد يتماشى أو لا يتماشى عندما يوضع في التطبيق» . ورد عليه داوناي بأنه قد بحث المسألة مع الجنرال بارثولوميو ، وقال «أعتقد بأنه يمكنك أن تثق الآن تماماً بأنه لن تقرر أية خطة رسمياً في المستقبل حتى تدقق ويوصى بها من قبلك . هذا ، ورغم أن الخطط «غير الجاهزة» يمكن أن تناقش - من الناحية الاكاديمية - من قبلهم ، فإنه لا بد من موافقتكم عليها بعد تدقيقها من قبلنا جميعاً .كما أعتقد بصدق أن هذا ما يريده لورانس نفسه ،إذ أنه مرضٍ في طاقته الخلاقة بالأفكار تماماً ،كما أنه قانع تماماً بترك العمل للآخرين في ري الحقول» .

وبالرغم من هذا التأكيد ، لم يستشر جويس بخصوص الخطط الجديدة لعملية درعا وغارة سلاح الهجانة عليها إلى أن جرى وضع الخطوط النهائية لها ورفعها إلى القيادة

العامة . ونقلت التفاصيل إلى العقبة بوساطة ستيرلنغ ، الذي أوصلها في التاسع عشر من تموز .

وعندما تسلم جويس هذه الخطط أبرق إلى القاهرة طالباً منها عدم اتخاذ قرار نهائي بشأن العمليات الشمالية حتى يتم ايجاد خطة بديلة في القويرة . ومن ثم ،عندما عاد لورنس إلى العقبة في الثامن والعشرين من تموز بعد غياب دام سبعة أسابيع كشف عن خطة مكونة من تسع صفحات أُعد أغلبها من قبل يونغ ، وتضمنت برامج مفصلة (إلى حد حمولة آخر جمل) من أجل نقل المؤن والأغذية والذخيرة والعلف ، التي ستخزن في مستودعات مسبقاً في الأزرق . وكانت خطة التموين معقدة جداً بحيث أن «الرتل السريع» لا يمكنه أن يباشر انطلاقة حتى التاسع والعشرين من أيلول ، وسيصل إلى الأزرق في السابع أو الثامن من تشرين الأول .

لا بد أن لورنس قد لاحظ بأن الخطة كانت مستحيلة ومعقدة . فبرنامجها الدقيق المحدد سيتقلص بشكل محتم العمليات الحربية العربية . وأعلن بصراحة بأنها غير عملية حسب اعتقاده . إضافة إلى أنه حتى لو حدثت معجزة ونجحت الخطة ، فستصل القوات النظامية إلى درعا متأخرة ثلاثة أسابيع أيضاً تلبية لخطة اللّنبي . لذلك فقد أصر لورنس على إتباع خطة بديلة كان قد وضعها مع داوناي .

استعر جويس غضباً من جراء الواقع الجديد ، ففي النقاش الذي تبع ذلك وقف إلى جانب يونغ ، الذي أمضى عدة ساعات يقوم بحساب برنامج النقل . وأصر ، مع إبداء بعض الأسباب ، على أن خطة التموين لم تكن ملائمة ، كما أنها ستضعف العمليات العربية بشكل رئيس . ورفض لورنس التراجع ، فأصبح الجو مشحوناً بالتوتر . كما كان ثمة اختلاف أيضاً بشأن غارة سلاح الهجانة .

في بداية شهر تموز وضع الأتراك نهاية للحصار العربي لخط السكة الحديد في شمال معان ، وبدأوا باصلاح الخط . وكان كل من داوناي ولورنس يعرفان أنه من الحيوي منع الأتراك من شن هجوم على قوات جعفر المتواجدة حول معان قبل بدء هجوم الخريف المنتظر للقوات البريطانية . وخلاف ذلك . فان الخطة المتعلقة بالشمال يمكن أن تنهار برمتها ؛ فمن غير الممكن لفيصل أن يحرك قواته النظامية تجاه درعا مادام خط مواصلاته

من العقبة إلى نجد معان يقع تحت التهديد . وبالتفكير بهذه المشكلة اقترح داوناي على لورنس بأن تستخدم كتيبتان من سلاح الهجانة لتقوم بعمليات الاستطلاع للقوات شرقي الأردن .

وافق لورنس على الفكرة فوراً ، فقام داوناي بطلب الموافقة من هيئة الأركان العامة ، فجرت الموافقة شريطة أن يُعاد رجال الكتيبتين ، إذا أمكن إلى فلسطين بحلول الخامس والعشرين من آب ، ليكونوا متواجدين هناك مع بدء هجوم اللّبني في الخريف . وللسبب نفسه ، فانهم لن يستخدموا في أية عملية يمكن أن تسبب خسائر فادحة .

وقام كل من لورنس وداوناي بعمل تفاصيل خطة لهجوم طويل الأمد يقوم به فيلق الهجانة ، الذي سيقوم مابوسعه لإغلاق الأتراك فيما تبقى من الوقت القصير . وقررا أن الهدف الأول يجب أن يكون منشآت المياه في محطة المدورة ، والهدف الثاني هو جسر السكة الحديد أو النفق الموجود بالقرب من عمان . ورغم ذلك فقد كان يعرف الشيء القليل عن هذه الأهداف الشمالية . كما أن ترتيبات النقل التي وضعت من قبل يونغ ، سيجري تقليصها بسبب الهجوم القادم ، لذلك فقد علل الأمر بأنه لن توجد طاقة احتياطية لتوضع في المستودعات المتطلبة بوساطة سلاح الهجانة . وقال جويس إن النتيجة ستكون تأخير أكثر لحملة الخريف الرئيسة .

ويبدو أن هذا الخلاف لم يصل إلى أية نتيجة فورية . فكتب يونغ فيما بعد يقول : «أصبحت العلاقات بيننا وبين لورنس متوترة آنذاك ، ولم يلطف ذلك منظر الرجل الصغير وهو يقرأ رواية موت أرثر في زاوية من خيمة الطعام وعلى وجهه ابتسامة شيطانية» . وأوحت الوثائق بأنها تعود إلى ثلاثة أيام قبل أن يستلمها جويس . فأبرق إلى دواناي في الأول من آب يقول : «من الواضح بعد انتهاء المباحثات مع لورنس ، أن العمليات يجب أن تكون مستعجلة . . . فالخطة التي وضعناها قد أُلغيت واستعيض عنها بخطة مفصلة . . . فالوقت لا يسمح بأن يكون ثمة مجال لمستودعات متقدمة للتموين . لذلك فإن حسابات تموينا بالنسبة للأفراد والدواب تُعَّد غير ملائمة تماماً . ففي السابق ، كانت الغارات (الهجمات) غير المدعومة لها تأثير سيىء على تحركات القوات العربية . . . والشريف (الأمير) فيصل مستعد للقيام بالمحاولة غير أنه يتوقع نتيجة للدعم الكامل حدوث عمل انتقامي من جانب القبائل المعنية بالأمر» .

وسخر يونغ نفسه ليسير على نهج لورنس في إنجاز الأمور . فركز انتباهه على خطوط تموين جعفر باشا ، فحصل على ثناء سخي في كتاب «أعمدة الحكمة السبعة» ،حيث كتب لورنس عنه يقول : «لقد استخدم كل طاقته ، إلا أنه صارع التشوش والفوضى . ولم تكن لديه مستودعات لأرتال تموينية ، ولا خيول ، ولا كتبة ، ولا بيطريين ، ولا أدوية ، مع سواقين ، لذلك فإنه كان من المستحيل تسيير قافلة منتظمة ومتجانسة ؛ إلا أن يونغ أنجز ذلك تقريباً ، بطريقته الفذة . فشكراً له ، لأن مشكلة تموين القوات العربية المتمركزة على نجد معان قد حلت على يديه» .

وصلت مجموعة الإغارة لسلاح الهجانة إلى العقبة في الحادي والثلاثين من تموز . ومع أن لورنس لم يكن مشتركاً في هجومهم المنتظر على المدورة ، إلاّ أنه أرشدهم وقادهم في المرحلة الأولى من الرحلة إلى وادي رم ، وخلال هذه الرحلة أقام بما أطلق عليه بصداقة أخيرة مع قائدهم روبين بوكستر ، الذي درس مثله التاريخ في جامعة إكسفورد . ووضع بوكستر انطباعاته عن لورانس في رسالة بعث بها إلى إنجلترا جاء فيها . «يبدو وكأنه صبي يتمتع بأسلوب رزين جداً ، ورأسه جميل إلا أن جسده هزيل . وهو معروف لكل عربي في هذه البلاد لشجاعته الشخصية وتدميره للقطارات والسكة الحديد . ولا أدري ما إذا كانت جرأته ، أو لامبالاته أو غموضه قد جعلت العرب مغرمين به ،أم بسبب نجاحه في ايجاد القطارات الغنية لنسفها ونهبها . وبعد نجاحه في نسف قطار يقول لي أن الجيش مثل عرض بارنوم يتفسخ تدريجياً . وعلى أية حال فإن انجازاته كانت رائعة مع حجم الإمكانيات المتواضعة جداً التي كانت بين يديه .

وكان تأثيره مدهشاً ليس على السكان الأصليين فحسب ، وإنما أيضاً ،كما أعتقد ، على أخوانه من الضباط ورؤسائه . وبعيداً عن وطنه فإنه يعيش هناك مع العرب تماماً ، يرتدي ملابسهم ، ويتناول من غذائهم فقط ، ويحمل الأعباء كافة التي يحملها الأقل شأناً منهم وهو يسافر دائماً في ملابسه البيض ، مما يذكر في الواقع بأمير مكة أكثر من أي شيء آخر . وسينضم إلينا ثانية فيما بعد كما آمل ، إذ أن وجوده سيحفزنا جميعاً ، ويشعر المرء بأن الأمور لا يمكن أن تمضي بشكل سيىء إذا ما كنت متواجداً هناك» .

أما من جانب لورنس فقد كان انطباعه عن رحلته مع سلاح الخيالة الذي وضعه في

كتابه أعمدة الحكمة السبعة كالتالي : «لقد مكثت في وادي رم مع هؤلاء الهجانة في اليوم الأول من رحلتهم ،شاعراً بعدم الحقيقة هناك من وجود هؤلاء الجنود البريطانيين الأصحاء . الذين يشبهون تلاميذ المدارس في قمصانهم وسراويلهم القصيرة . . . وقد أدى مكوثهم في مصر وصحراء سيناء إلى حرق وتغيير لون وجوههم ، بحيث أصبح لونها بنياً غامقاً - وأصبحت عيونهم الزرق واهنة مثل فجوات في السماء ، مقارنة بعيون رجالي السود المتفرقة . وكانت وجوههم عريضة ، متلبدة المظهر في مقابل الوجوه المتفسخة للعرب الذين تمتعوا بأشكال متعرجة جميلة شحذت جيلاً عن جيل ، وهي تعود إلى عهود أقدم من عهود بني قومي الأنجليز ، ذوي الوجوه البسيطة المبثورة . . .

لقد تركتهم في وقت متأخر من اليوم التالي ، واتجهت إلى العقبة ماراً ثانية من خلال الصخور الشاهقة لوادي اليتم ، إلا انني كنت وحيداً في هذه المرة مع أتباعي الهادئين الذين كانوا يسيرون خلفي كالظلال ، المتجانسين والغارقين في رمالهم وأجماتهم وجبالهم ، فاجتاحني حنين للوطن ، يذكرني بقوة حياتي المنبوذة بين هولاء العرب ، لاستغلال مثالياتهم العالية وجعل حبهم للحرية أداة لتساعدنا في تحقيق النصر على أعدائنا .

أصبح الوقت مساءً ، وغابت الشمس خلف صحراء سيناء ، وكانت كرتها تشع تبهور في عيني لأنني كنت تعباً حتى الموت من الحياة ، متشوقاً منذ وقت طويل إلى السماء المسالمة في إنجلترا . كانت أشعة قاسية ، مثيرة ، ومتوحشة . وقد أحيا توهجها ألوان الصحراء مثل خارطة - كما تفعل في الحقيقة كل مساء ، مع أنها تبدو في كل مرة معجزة قوة وحرارة في حين أن توقي الشديد كان إلى الضعف والفتور ، وإلى الغموض المبهم ، وذلك حتى لا يمكنني أن أكون شفافاً واضحاً ، متأكداً جداً من الخطأ الذي كنت أقوم به .

ونحن الإنجليز الذين عشنا سنوات في الخارج بين الغرباء نبجل بلادنا بشكل عالٍ ، إلاّ أنه عندما نعود إليها ، نشعر أحياناً بفتور قصير تجاهها . وعندما نكون بعيدين عنها فإننا نعتز بتراثنا وتقاليدنا ، ونشعر بأن بلادنا أفضل وأعظم من كل البلدان في العالم ، مستعدين أن نموت على أن تمس صفحة من تاريخها ، أو أن يجري عليها من أجل هزيمتها . وهنا ، في الجزيرة العربية ، ومن أجل متطلبات الحرب ، فقد كنت أبيع صدقي

وشرفي من أجل مؤازرتها . . .» .

إن الشعور بالذنب بشأن دوره لم يبتعد عن أفكاره أبداً ، وكان بإمكانه تخيل الاتهام الشخصي المضاد الذي يمكن أن يتبع ذلك ، فالعرب عندما تنتهي الحرب سيحرمون مما وعدهم به ، وهذه الهواجس المنذرة بأكثر أصبحت تنتابه بشدة ، ولهذا السبب كان عليه رؤية نوري الشعلان لكي يبحث معه الدور الذي سيقوم به رجال قبيلة الروالي في الهجوم على درعا ، فهو لا يمكنه نسيان التعهد الذي قطعه على نفسه في آخر لقاء بينهما قبل عام . وأصبح نوري يعلم الآن ، بعد أن جرى الكشف عن اتفاقية سايكس - بيكو ، أن لورانس لم يتكلم الحقيقة كاملة ، ومن الممكن أن يطلب الاستفسار عن المزيد من الاتفاقية التي جرت بينهما (بين إنجلترا وفرنسا) . وكتب لورنس فيما بعد يقول : «كان ثمة سبب معين ومخيف جداً (لم ينشر) سبب ألماً لي في تلك اللحظة» .

في السابع من آب طار لورنس من القويرة إلى الجفر ، حيث كان سيعقد محادثات مع نوري الشعلان . وكان القلق واضحاً من الوصف الذي قدمه لرحلته بالطائرة في كتابه أعمدة الحكمة إذ يقول : «كان الهواء خفيفاً ومتخبطاً ، بحيث أننا كنا نحلق بصعوبة فوق قمة جبل شتار (وهو رأس الممر الواقع بالقرب من أبي اللسن) . وجلست أتساءل عما إذا كنا سنتحطم ، آملاً بذلك تقريباً . وشعرت بالتأكيد بأن نورياً كان على وشك الادعاء بعدم صدقنا والوفاء بوعدنا وبعقد شبه صفقة يبدو تنفيذها خبيثاً أكثر مما يعتقد . إذن فالموت في الجو سيكون هروباً نظيفاً ، ورغم ذلك فنادراً ما تأملت ذلك ليس بسبب الخوف ، لأنني كنت تعباً جداً حتى أخشى الموت ، وليس أيضاً بسبب الشك والحيرة ، لأن حياتنا بدت لي خاصة بنا تماماً ،لحفظها أو التفريط بها : ولكن كالعادة ،خاطرت بنفسي فقط عندما بدا الأمر في صالح قضيتنا .

كان تفكيري منشغلاً ، واجداً غريزتي وعقلي في حرب شديدة . فالغريزة تقول «مُت» غير أن العقل يقول إن ذلك فقط كان لتغيير مجال العقل ، وإطلاقه صوب الحرية : فالأفضل هو السعي إلى بعض الموت العقلي ، فالتبرير البطيء للعقل يغوص تحت هذه الارباكات ، وكانت الحادثة وسيلة أكثر منها خطأ متعمداً . واذا لم أتردد بالمخاطرة بحياتي فلم هذا الاعتراض والاحتجاج لتلويثها؟ ورغم ذلك فقد بدت الحياة والصدق في خانتين مختلفتين ، وغير قادرة إحداهما على التفريط بالأخرى : فالبنسبة للصدق أو الأمانة ألم

أفقدهما منذ سنة مضت ، عندما أكدت للعرب بأن إنجلترا تحفظ عهدها لهم؟»

ومما اراحه ، عندما وصل إلى الجفر ، وترحيب نوري الشعلان به بشكل ودي ، ولم يذكر أي شيء عن وعده له . بيد أن زعيم الروالي لم ينس مباحثاتهما السابقة ، فأخرج نسخة من اتفاقية سايكس - بيكو وإعلان الشخصيات السورية السبع في القاهرة . وكتب لورنس في ما بعد يقول في هذا الصدد : «عاد الشيخ نوري الشعلان إلي حاملاً ملف وثائقه ، مستفسراً في حيرة من يمكنه أن يصدق . وكا رددت من قبل ، قلت أن هذا «أصبح بالياً» . وكان الأمير فيصل حاضراً هذا الاجتماع أيضاً ، فشارك لورنس جهوده لمدة ساعتين في مهمة حث شيوخ قبيلة الروالي على الاسهام في الثورة . وطار لورنس بعد ذلك عائداً إلى القويرة ، وعند طلول الليل توجه إلى العقبة .

وردت أخبار تفيد بأن سلاح هجانة بوكستن قد نجح في الاستيلاء على المدورة ، لذلك الموقع التركي الذي صمد أمام العديد من الحملات العسكرية السابقة . فقد هوجم قبل حلول الفجر ، وجرى الاستيلاء على المحطة بعد مقتل سبعة من الرجال فقط . وعند حلول المساء دمرت الآبار ومنشآت السكة الحديد .

بعد ذلك توجهت القوة البريطانية شمالاً إلى الجفر . وذهب كل من لورنس وجويس ليجتمعا هناك في الحادي عشر من آب ،عقد اجتماع ليجري تقرير أي من الأهداف الشمالية يجب مهاجمتها . وفي النهاية اختاروا الهدف الأكثر صعوبة وهو : جسر السكة الحديد بالقرب من عمان .

وعني هذا القيام برحلة أخرى مسافتها (١٢٠) ميلاً إلى ماوراء الخطوط التركية . وبما أن هذه الغارة ستجمع ما بين قوات بريطانية ورجال قبائل عرب ، فقد كان لا بد أن يرفقها لورانس .

عندما وصلت قوة الهجانة إلى منطقة البير في الخامس عشر من آب وجدت أن الأمكنة التي خزنت فيها الإمدادات قد جرى نهبهما من قبل البدو . وكانت الخسارة خطيرة ، إذ أدى ذلك إلى تقليص عدد المجموعة المغيرة .

كان اليوم التالي يصادف عيد ميلاد لورنس الثلاثين ، غير أن درجة حرارته وفقاً لملاحظات بوكستين كانت مرتفعة ، فاختار أن يمضي وقته وحيداً ، مفكراً بما قام به في

حياته . فخلال الأشهر السابقة أصبح ميالاً للتأمل والتفكير ،خاصة عندما يكون في حالة حمى ، اذ أن هذا التمرين على الحكم الذاتي منحه بعض الرضى .

واصلت قوة الهجانة تحركها شمالاً ، فأصبحت في العشرين من آب على بعد ثمانية أميال من عمان . إلا أنه خلال المرحلة الأخيرة من الرحلة أصبح ثمة خطر عندما شوهد الرتل من قبل طائرتين ألمانيتين : فعرف بوكستين بالنتيجة أن هجومه لم يعد مفاجأة للأتراك ومما زاد الأمور سوءاً إن إحدى القبائل التي لم تكن منضمة إلى الثورة بعد قد وضعت مضاربها في المنطقة التي كان على قوة الهجانة اجتيازها للوصول إلى جسر السكة الحديد . فارسل شخصان من العرب للكشف عن الوضع هناك ، فأفادا أنه كان يوجد هناك أيضاً ثلاث دوريات تركية قوية في المنطقة .

وبأخذ ذلك كله ، فإن العوامل قد زادت بشكل كبير من خطورة حدوث قتال شديد وخسائر فادحة . ورغم أنه لم يجر تحقيق الهدف ، فإن المجموعة المغيرة قد حققت هدفاً رئيساً ، إذ سيطرت الشائعات المبالغ فيها على الأتراك بشأن حجم هذه القوة ، ولذلك سرعان ما حولوا طاقاتهم للدفاع عن عمان بدلاً من الهجوم على قوات جعفر باشا .

في السادس والعشرين من آب عاد لورنس إلى «ابي اللسن» ، ليجد أن الاستعدادات قد تمت للهجوم على درعا . ورغم ذلك فإن هذا الزخم الجاد قد أحدث تشوشاً بين صفوف الأمير فيصل ، وذلك بسبب بيان غير متوقع من الشريف حسين صدر في صحيفة «القبلة» ، التي كانت تصدر في مكة ، يشير إلى أن جعفر باشا لم يعين أبداً قائداً عاماً لجيش الشمال ، ولم يسند إليه هذا المنصب . فالحقيقة أن تعيين جعفر قد جرى من قبل الأمير فيصل في عام ١٩١٧ ، إلا أن الشريف لم يقر بذلك .

ونتيجة لذلك أعلن جعفر عن استقالته على الفور ، وهكذا فعل جميع ضباطه . ومن وجهة النظر البريطانية ،كان الموقف في غاية الخطورة .

فما لم تتحرك الأرتال باتجاه الأزرق من دون تأخير ، فانه لن يحدث الهجوم على درعا في الوقت المحدد الذي طلبه اللّنبي . ولذلك كان لابد من القيام بكل شيء ممكن لحث الشريف على الرجوع عن قراره حتى يتسنى القيام بالهجوم الشمالي . وأصبح الضباط البريطانيون ، في هذه الأثناء ، يتولون زمام القيادة مباشرة في منطقة «أبي

اللسن» . وأبرق لورنس إلى القاهرة في الثلاثين من آب يقول : «حسب الخطة فإن القافلة والحرس المتقدم لخطة أيلول ستمضيان قدماً في تحركه وفقاً لأوامرنا . . . واعتقد بأنه يمكن السيطرة على الوضع لمدة أربعة أيام . وإذا ما أصبح فيصل مقتنعاً حينذاك فقد تستأنف العمليات ، وإذا لم يستطع فسأقوم بكل ما يمكنني عمله» . وفي غضون ذلك تحركت قافلة التموين والرتل الهجومي الاول ، مصحوبين بمدفعية بيزاني ، في الثالث من أيلول ، متأخرة يوماً واحداً عن موعدها .

وفي غضون ذلك ، كانت ثمة مراسلات مستمرة مع الشريف حسين ، الذي لم يكن في سرعة من أمره لسحب إعلاناته . وكان لورنس غاضباً بشدة لأن العديد من الخطط يمكن أن تتعرض للخطر فقد كانت هذه فرصة العرب الوحيدة للانتصار في الشمال ، وانهم سيفقدون الشيء الكثير إذا ما تخلوا عنها .

كانت البرقيات العربية المشفرة تمر من بين أيدي مشغلي اللاسلكي البريطانيين وتحل بسرعة قبل توصيلها للسكرتارية العربية . فاستفاد لورنس من ذلك بأن أعاد نسخها ، وبذلك جرى تغيير الأمر . وأخيراً ، في الرابع من أيلول قرر بأنه لا يمكن تحمل المزيد من التأخير . وكتب في «أعمدة الحكمة السبعة» يقول : «قدمت من هناك برقية طويلة ، يحتوي الجزء الاول منها على اعتذار وسحب للإعلانات التي نشرت ، أما الجزء الثاني فقد احتوى على تكرار للهجوم في شكل جديد . ونزعت الجزء الأخير ، وأخذت الجزء الأول المكتوب على رأسه «عاجل جداً» إلى خيمة فيصل» .

وأنهى هذا التدخل الأزمة التي لم يرد أي واحد أن يراها تطول أكثر وبعد بضعة أيام أرسل جويس إلى القاهرة يقول : «غادر كل من لورنس وناصر الشمال في السادس من أيلول . . . والبرقيات المرضية الحالية قد حسنت من الوضع بشكل كبير . . . وما لم ينشأ أي شيء غير متوقع ، فأنني أتوقع بالتأكيد أن تكون المغادرة في التاسع من أيلول مع فيصل» .

الفصل السادس عشر

انتصــار فــارغ

أيلــول ١٩١٨

غادر لورنس وناصر إلى الأزرق في عربة مدرعة ، ومعها اللورد ونترتون ، وضابط هجانة كان قد وصل مؤخراً الى عمليات العقبة . وكان الشريف ناصر هو الذي يتولى قيادة القوات النظامية العربية في هذه الحملة . وقد كتب لورنس في ما بعد يقول في هذا الشأن : «كان لا بد لفيصل أن يبقى في الخلف ليكون في نجدتنا إذا ما ساء الوضع ،أو حتى إذا ما حققنا انتصاراً . لذلك فحتى ذلك الوقت ، كان من الضروري ملء مكانه ، وكنا بحاجة إلى شريف مشهور وذي خبرة ،حيث أننا كنا سنسطحب معنا رجالاً من قبيلة روالي ، والسراحين ، والدروز ، ومن الحويطات . إضافة إلى رجال قرويين ، سواء أكانوا خيالة أم مشاة ، من قرى حوران» . وتجمعت هذه القوة العربية الضاربة خلال بضعة أيام في الأزرق استعداداً للهجوم . وكان قوامها نحو ألف رجل ، من بينهم وحدات متخصصة بريطانية ، فرنسية وهندية .

كانت العملية على وشك النجاح التام ، لو لم تكن ثمة معضلة غير متوقعة ورغم أن لورنس لم يكن مشاركاً في الابتهاج العام لهذه الحملة ، فإنه بدأ يفقد الشعور بالفائدة التي كانت تدفعه ، ففي كتابة «أعمدة الحكمة» كتب يقول : «كان كل واحد يبدو قوياً ويتمتع بصحة جيدة ، ما عدا أنا ، فالحشد قد دمر سروري في الأزرق ، فذهبت إلى الوادي ، واستلقيت هناك بين أشجار التماريسك النخلية ،حيث كانت الريح تلعب بأغصانها الخضر المغبرة وتحدث أصواتاً كما تفعل بالأشجار في إنجلترا . ليبلغني بأنني كنت تعباً حتى الموت بهؤلاء العرب ؛ الساميين ضعفي الخبرة والتجربة الذين بلغوا الأوج والأعماق قبل بلوغنا لها . وأدركوا جوهرنا من خلال قدرتهم على التمييز ما بين الخير والشر ؛ لذلك كنت خجولاً من مرافقتهم على مدار سنتين .

واليوم توصلت إلى نتيجة نهائية بأن صبري في ما يتعلق بالو ضع المزيف الذي قدت

إليه قد نفد . فبعد أسبوع ، أو أسبوعين ، أو ثلاثة ، سأصر على الاستراحة . فقد تحطمت أعصابي ، وسأكون محظوظاً إذا ما أمكن إخفاء ذلك لوقت طويل» .

إن الحافز الذي أبقاه حتى هذه الحملة النهائية كان شخصياً إلى حد كبير . فقبل أن يذهب إلى مكتب الاستخبارات في القاهرة عام ١٩١٤ ، كان يحلم في جلب الحرية والعزة للقرويين في سوريا ، وهم السكان الذين استغلوا لعدة عقود من قبل الإدارات التركية الفاسدة . ويبدو أنه قد زرع هذه الفكرة في ذهنه بسبب الصورة البسيطة غير الملطخة لصديقه وراعيه في كركميش ، داحوم - ذلك الفتى الذي ساعده مرة في إنقاذ حياته . فعند مواجهة الصعوبات والرعب في ميدان المعركة ، فإن معظم الرجال يستمدون قوتهم المعنوية من مثل هذا المفهوم ، رمز القيم والولاءات التي كانوا يحاربون من أجل ذلك الذي يمكن أن يبقى راسخاً في الذهن . فالعديد وجدوا هذه الصورة في العقيدة الدينية أو ذكرى حب لأشخاص في الوطن . ولكن في هذا الوقت لم يكن لدى لورنس سوى قليل من النزعة الدينية ، وكان يعيش بعيداً عن إنجلترا منذ عام ١٩١٠ . كما لم تكن ولاءاته الشخصية الوثيقة في إكسفورد ، وبل في كركميش ،حيث كان يعيش هناك بسعادة كبيرة قبل الحرب .

كتب لورنس في نهاية كتابه أعمدة الحكمة السبعة يقول : «إن الحافز الأقوى طوال الوقت كان شخصياً . . . بدا لي ، كما اعتقد ، في كل ساعة من ساعات هاتين السنتين» . كما ظهر هذا الحافز الخاص أيضاً في صفحة الإهداء لهذا الكتاب ،حيث يقول : «لقد أحببتك ، لذلك فقد سحبت مد هؤلاء الرجال وجزرهم إلى يدي . . . لأكسبك الحرية» . ووضحت هاتان الفقرتان في رسالة كتبت بينما كان يعد مسودة كتاب أعمدة الحكمة السبعة ، حيث يقول : «لقد أحببت الإنسان العربي كثيراً جداً ، واعتقدت بأن الحرية لهذه السلالة ستكون هدية مقبولة» .

عند بدء الهجوم النهائي ، علم لورنس بأن دحوم قد مات . وهذا واضح من البيانات العديدة التي أصدرها بعد الحرب . فقد قال ، في سبيل المثال ، إن الحافز الشخصي المشار إليه في صفحة الإهداء قد خطر له قبل بضعة أسابيع من الاستيلاء على دمشق . كما أوحى بعض الإشارات بأن هذا لا يشير إلى تاريخ موت دحوم ، بل إلى التاريخ الذي علم فيه بموته . فقد أبلغ ليدل هارت بقوله : «حدث أمر محزن قبل وقت طويل من دخولنا إلى

دمشق» . وكتب بعد الهدنة بسنتين يقول : «لقد مات دحوم قبل بضع سنوات ، من جراء الحمى ، في أثناء الحرب» .

وفي الحقيقة ، قد يكون دحوم مات قبل ذلك بوقت طويل . ففي عام ١٩١٦ ،حدثت مجاعة شديدة في شمال سوريا تبعها وباء التيفوئيد . إذ أن ليونارد وولي ، الذي ذهب إلى منطقة طرابلس في نهاية عام ١٩١٨ ، وجد أن نصف القوة العاملة القديمة في كوكميش قد هلكت من جراء ذلك ،كما أنه قيل له بأن ثلث السكان تقريباً قد ماتوا خلال عام ١٩١٦ .

كان دحوم قد بقي في الموقع كواحد من الحراس ، وتظهر كشوفات الأجور للسنتين الأوليتين من الحرب أنه كان يعمل هناك حتى شهر تشرين الأول عام ١٩١٦ . وبعد ذلك ، لم توجد سجلات أو كشوفات غير أن تقارير وولي الصادرة بعد الحرب تبين أنه لا أحد ، سوى حمودي ، من الرجال الذين عينوا أصلاً لحراسة الموقع كان يتواجد هناك خلال الفترة الأخيرة من الحرب .

وتقع كوكميش على بعد نحو مائتي ميل إلى الشمال من دمشق ، ومن المحتمل جداً أن لورنس قد سمع بهذه الأخبار مباشرة من هناك . ومن جهة أخرى ، فقد كانت الاستخبارات البريطانية تتلقى فيضاً متواصلاً من المعلومات المحلية من الأسرى واللاجئين والأتراك . كما أن مكتب الاستخبارات العربي في مقر قيادة اللّنبي المتقدمة الذي أنشأه هوغارت ، كان مهتماً بأية أخبار تأتي من كركميش . فإذا ما علم بموت دحوم ، فأنه سيكون حريصاً على إبلاغ لورنس بذلك .

علم لورنس أن وجود قوة كبيرة في الأزرق لا يمكن أن يبقى خفياً عن الأتراك ورغم ذلك ، فقد كان واثقاً من أنهم سيعدون ذلك برهاناً أكبر يمكن أن العرب كانوا على وشك شن هجوم على عمان ، وذلك بسبب تواجد القوة غربي الأزرق وقريبة جداً منها ، أقرب من الهدف الحقيقي ، وهو درعا ، وقد جرى التركيز بعناية للإبقاء على هذا الانطباع ، إذ أنه سيعزز التوقع التركي بأن القوات البريطانية - الأوروبية المشتركة كانت تخطط لشن هجوم ثالث على السلط .

وفي الوقت الذي تجمعت فيه القوات العربية كان من الواضح أنها لن تكون قادرة

على شن هجوم على درعا بالطريقة التي تمناها لورنس . فقد كانت خطته تكمن في الاستيلاء على البلدة بوساطة شن هجوم مباشر ، وتحت غطاء من القصف الجوي ؛ إلاّ أن البرقيات الواردة من فلسطين آنذاك حذرت من أن سلاح الجو البريطاني لن يكون قادراً على توفير دعم جوي كبير . إضافة الى أن عدداً كبيراً من قوة قبيلة الروالي التي كان من المتوقع حضورها ، لم تجد وقتاً كافياً للمجتمع ، ويعود ذلك بشكل كبير إلى التأخيرات التي سببتها مسألة صحيفة القبلة لذلك ففي الاجتماع الذي عقد في الحادي عشر من أيلول جرى الاستغناء عن الخطة الأصلية . وبدلاً من ذلك أصبح على القوات العربية شن هجومات طيارة على خط السكة الحديد في شمال درعا وغربها ، وجنوبها .

وكانت الخطوة الأولى قطع خط السكة الحديد ما بين عمان ودرعا . وهذا من ثم سيقوي من المخاوف التركية بتهديد عمان ، ويمنع إرسال تعزيزات إلى درعا من الشمال . وغادرت القوة المغيرة المؤلفة من قوات بيك المصرية وشاة غوركا الأزرق في الثالث عشر من أيلول من أجل تنفيذ هذه المهمة ، تساعدها العربات المدرعة ورغم أن الحملة تعرضت لبعض المشكلات فقد جرى قطع الخط بنجاح في السادس عشر من أيلول . وفي غضون ذلك ، واصل الرتل الرئيس تقدمه بهدف قطع خط السكة الحديد ما بين درعا ودمشق وجرى تنفيذ هاتين العمليتين بنجاح ، قتل فيها جندي عربي فقط . ويقول لورنس في كتابه أعمدة الحكمة السبعة في هذا الصدد : «وهكذا أصبحت مسافة طولها عشرة أميال من خط السكة الحديد إلى دمشق تحت سيطرتنا . . وكان يُعَد الخط الوحيد الواصل إلى فلسطين والحجاز ، ويمكنني الاعتقاد بأن الخط أصبح إلى جانبنا؟ وأننا وفينا بعهدنا لا للّنبي بالسرعة والتمام» . فالدمار الذي أحدث في الخط الحديدي كان كثيفاً جداً بحيث سيظل مغلقاً خلال عدة أيام حيوية .

وبقطع خط السكة الحديد في الشمال والجنوب ، فانه لم يبق سوى الخط الغربي الواصل إلى فلسطين . فأرسلت قوات نوري السعيد النظامية لمهاجمة هذا الخط ، وانضم إليها لورنس مع حراسه كما تعرضت محطة فريريب ، الواقعة إلى غرب درعا ، إلى الهجوم . وأفاد لورنس فيما بعد يقول : « بينما كانت قواتنا تقوم بتدمير خط حديد دمشق ، ولم يكن بإمكاننا القيام بتوسيع الهجوم ،سوى تنظيف المحطة ، وإحراق قاطرات

وحافلات السكة الحديد وشاحنتين ، وتدمير النقاط ، وزرع الإلغام تحت الخط» . كما قام لورنس ويونغ بقطع خطوط التلغراف الرئيسة الواصلة إلى فلسطين ، وهو يُعَّد جزءاً رئيساً للاتصالات العسكرية التركية . ومن المحتمل أن لا يجري تصليح الأعطال قبل بدء هجوم اللّنبي المباغت .

وفي وقت متأخر من تلك الليلة ، أخذ لورنس مجموعة إغارة إلى بعد بضعة أميال إلى الغرب ، آملاً بنسف جسر السكة الحديد في تل شهاب ، حيث فشل هناك قبل سنة مضت . واقتربوا من المكان تحت ضجيج الظلام ، بيد أنهم وجدوا قطاراً محملاً بجنود احتياط ألمان وأتراك كان قد وصل للتو من فلسطين . للمرة الثانية كان على لورنس ترك الجسر سالماً ؛ إلا أن خيبة ظنه قد لطفت بعلمه أن هذه القوات قد أرسلت إلى درعا لتعزيز القوات التركية هناك ضد الهجمات العربية ، وإنها ستضعف المقاومة التركية غربي الأردن .

وفي صبيحة التاسع عشر من أيلول عادت الحملة بسلام إلى المعسكر العربي المتواجد في «أم طي» في جبل الدروز (العرب) . وكان ذلك اليوم موعد هجوم اللّنبي المنتظر ورغم أن المواقع المتقدمة العربية بدت جيدة الاختيار عندما وضعت خطط الهجوم ، فإنها اثبتت انها قابلة للسقوط أمام الهجمات الجوية التركية إذ كانت القوات العربية من دون حماية جوية ، فالطائرتان البريطانيتان اللتان رافقت هذه القوات . كانتا خاضعتين للصيانة والتصليح آنذاك (وذلك بعد خوضهما معركة بطولية ضد طائرات العدو) .

وجرى ترتيب إرسال طائرة من سلاح الجو البريطاني من فلسطين إلى الأزرق في الحادي والعشرين من أيلول ، وذلك لجلب أخبار تقدم القوات البريطانية المشتركة . وذهب لورانس ليراها ، آملاً بالطيران إلى مقر قيادة اللّنبي وترتيب أمر غطاء جوي . وجلبت الطائرة أخباراً عن تحقيق انتصار ساحق . فكلما جرى التخطيط شنت القوت البريطانية المشتركة هجوماً ضخماً في الساعات الأولى من صباح التاسع عشر من أيلول ، آخذة القوات التركية على حين غرة . وكانت ثمة مقاومة تركية ضئيلة ، إلا أنه مع حلول ظهر ذلك اليوم قام العدو بانسحاب منظم عندئذ قامت وحدة الفرسان التابعة للالّنبي بعملية اختراق خطوط الانسحاب الرئيسة للعدو باتجاه الشمال . وبقي طريق النجاة الوحيد باتجاه الشرق فقط عبر الأردن ، فأمل اللّنبي بأن تقوم القوات العربية بسده .

نقلت الطائرة عدة رسائل ، واحدة منها من اللّنبي إلى فيصل ، تقول : «أبعث بتحياتي لسموكم وبتهاني القلبية بالإنجاز العظيم التي حققته قواتكم الشجاعة حول درعا ، مما جعل خطوط اتصالات العدو مشوشة ومقطوعة ، وهو أمر مهم لنجاح عملياتي الحربية . وشكراً لجهودكم المشتركة ، فالقوات التركية أضحت منهزمة في كل مكان ، وفي تراجع كامل . . . وتعاني القوات التركية المتواجدة في تركيا حالياً من الهزيمة المحتمة . والأمر يتوقف علينا الآن ، لمضاعفة طاقتنا بالهجوم ، وتحويل الهزيمة إلى دمار» .

وكانت توجد أيضاً رسالة من داوناي إلى جويس تضمنت تعليمات اللّنبي الجديدة للقوات العربية . فكتب داوناي يقول : «جميع القوات التركية في المصيدة ، وسدت جميع الثغرات ، باستثناء ، ربما ثغرة شرق الأردن المؤدية إلى وادي اليرموك . فإذا ما استطاعت القوات العربية سد هذه الثغرة أيضاً - وسدها في الوقت المحدد - فعندئذ لن يكون بمقدور أي رجل أو مدفع ، أو عربة الفرار» .

ومضى يسرد متطلبات اللّنبي وهي : (١) إنه يريد تدمير خط السكة الحديد جنوب درعا ، وسحقه تماماً إذا أمكن ، وذلك لكي يزيل ذلك الجناح تماماً ، (٢) يريد من قوات القبائل إغلاق الثغرة عبر وادي اليرموك الواقعة ما بين بحيرة طبرية ودرعا ، والتي قد تستخدم من قبل وحدات الجيش الثامن التركي من منطقة عمان ،أو من قبل بقايا القوات التركية الأخرى التي نجحت في شق طريقها من الغرب إلى الأردن . وفوق كل ذلك لم يرد أن يندفع الأمير فيصل بقواته ، وبطريقته الخاصة ، إلى دمشق أو أي مكان آخر - «فسنكون قادرين قريباً على وضع قواته للمشاركة في عملياتنا الحربية . ولكن إذا ما أندفع بقواته من دون علم اللّنبي وموافقته ، لضمان حقه ،فإنه سيكون أمراً فادحاً في ما بعد ،من الممكن أن يفسد عربة التفاح كافة . لذلك استخدم كل نفوذك وتأثيرك ، واجعل لورنس يقوم بذلك أيضاً ، لمنع فيصل من الاندفاع باتجاه الشمال ، مما يجعل الأمور تفلت من أيدينا وتسير في الاتجاه الخطأ فالوضع في أيدينا تماماً الآن ، لذلك لا داعي لفيصل أن يخشى شيئاً ، شريطة أن يثق بنا وأن يكون صبوراً . ودعه فقط أن لا يتحرك شمالاً من دون استشارة الجنرال اللّنبي - وإلاّ فإن ذلك سيكون خطأً فادحاً . وانتهت الرسالة بالقول : «حظاً طيباً لكم جميعاً ، ياجويس ، وافضل تهاني لكم جميعاً مرة

ثانية ، وبلغ فيصلاً رسالة تحية حارة مني ، وأرسل حبي وتقديري الى كل من لورنيزو ، وفرانك وستيرلنغ» .

وكما تمنى لورنس ، فقد كان قادراً على الطيران إلى مقر القيادة العامة . وكان محظوظاً لأنه قام بذلك ، لأن الوضع العسكري كان متغيراً من ساعة إلى ساعة ، والمعلومات التي وصلت إلى الأزرق كانت قديمة حينذاك . وخلال ليلة العشرين من أيلول ، حاولت قوة كبيرة من الجيش السابع التركي ، مع ما تبقى من الجيش الثامن ، الفرار باتجاه الشرق . وجرى وقف هذا التحرك في فجر يوم الحادي والعشرين من أيلول ، وعندما أفاد الطيارون البريطانيون بوجود طابور طويل من العربات يتحرك باتجاه وادي فارا من نابلس باتجاه وادي الأردن . فهوجم الرتل من الجو بشكل مؤثر ومدمر ، أما الجنود الذين تمكنوا من الفرار فقد كانوا منهمكين ومن دون أغذية ووسائل نقل ، فأُلقي القبض على معظمهم من قبل القرويين العرب . وبذلك لم يعد من الضروري أن تقوم القوات العربية بهذه المهمة .

كان النصر في فلسطين مؤزراً مما جعل اللّنبي يقرر الاندفاع قدماً على الفور ، قبل أن يتسنى للأتراك تجميع قواهم . وكان هدفه التالي الوصول إلى درعا ودمشق اللّنبي كانت تدافع عنها حاميات تركية نظامية ، إضافة إلى أية بقايا يمكن أن تصل إلى هاتين المدينتين من الجيوش التركية المهزومة في فلسطين . ورغم ذلك فقد كان يتواجد في الجنوب الجيش التركي الرابع المنتشر في شرق الأردن ، ومعان وعمان والسلط . ولم يخض هذا الجيش أية معارك ، سوى بعض المناوشات مع المجموعات العربية المغيرة حول درعا . فما أن تحقق قواده مما حدث في فلسطين ، حتى ضمنوا ما هي خطة اللّنبي التالية ، ورأوا أن ثمة خطراً في عزلهم . فكان عليهم أن ينسحبوا إلى الشمال ،على أمل أن يتمركزوا في كل من درعا ودمشق . وكان اللّنبي متنبئاً بهذا التحرك ،لذلك فقد كان هذا هو السبب لطلبه من من الأمير فيصل بأن تدمر قواته خط سكة الحديد جنوب درعا .

وأبلغ لورنس بعد ذلك بأن وحدات الفرسان التابعة للقوات المشتركة ستجتاز نهر الأردن قريباً . وستقوم القوات النيوزيلندية بقيادة الجنرال شايتور بالاستيلاء على السلط وعمان ، وعلى أمل اعتراض انسحاب الجيش الرابع التركي . كما ستتحرك القوة الهندية ، بقيادة الجنرال بارو إلى درعا ، في حين أن القوات الاسترالية بقيادة الجنرال

شوفيل ستتقدم باتجاه القنيطرة ، في أقصى الشمال . وعندما يجري الاستيلاء على هذه المناطق ، ستطبق قوات كل من شوفيل وبارو على دمشق ، في حين تواصل قوات شايتور عملياتها في عمان .

وبالنسبة للوقت الراهن ، كان على القوات العربية التعاون مع هذه التحركات ، وبشكل خاص العمل ضد الجيش التركي الرابع . وشدد اللّنبي مرة ثانية على أن لا يكون ثمة هجوم عربي مستقل . وأُبلغ لورنس بشكل ثابت بأن لا يقوم بمثل هذا «الهجوم على دمشق ، إلى أن نكون مجتمعين سوياً . وأكد له ، مع ذلك ، بأن فيصلاً سيمنح فرصة تشكيل حكومة في دمشق .

وقبل مغادرته مقر القيادة العامة ، طلب غطاءً جوياً ، كانت القوات العربية بحاجة ماسة إليه . فأرسلت على الفور طائرتان مقاتلتان إلى قاعدة متقدمة تقع بالقرب من درعا ؛ وطار لورنس على متن إحداهن .

إضافة إلى أنه جرى ترتيب قيام طائرة قاذفة من طراز هاندلي بيج برحلات من أجل التزويد بالوقود وقطع الغيار .

في ذلك الوقت ، وصل الإنجاز الذي قامت به القوات العربية الى لندن . ونوقش ذلك في اجتماع لوزارة الحرب في العشرين من أيلول . ويشير سجل محضر الاجتماع إلى أن «انتباه وزارة الحرب كان مرتكزاً ثانية على النشاط الذي كان يقوم به لورنس مع القوات العربية ، وكلف الجنرال ويلسون بالقيام بالاستعلام عن التقرير المناسب الذي سيمنح للورنس لقاء خدماته القيمة» .

وفي حين أن هذه المرة الأولى التي بُحث فيها موضوع لورنس في الوزارة البريطانية ، فقد كان لا يزال غير معروف تماماً على الصعيد العام . ورغم ذلك فقد نشر اسمه بعد أربعة أيام ، في صحيفة فرنسية ، هي «صدى باريس» ، وبعد ذلك بدأت الصحف البريطانية بنشر أخباره مباشرة . وقامت صحيفة «ايفننج ستاندرو» ، من بين عدة صحف ، بترجمة ما نشرته الصحيفة الفرنسية ، تحت عنوان «لورنس التاريخي» : جنباً إلى جنب مع الجنرال اللّنبي والكولونيل الفرنسي دي بيباب (قائد الوحدة العسكرية الفرنسية في فلسطين) ينبغي علينا ذكر الكولونيل لورنس ، كونه يلعب دوراً في غاية

الأهمية في الانتصار الذي تحقق في فلسطين . فاسم الكولونيل الفرنسي ، الذي وضع في مصاف القادة الإنجليز ، بسبب خبرته وتجربته وموهبته في التنظيم ، سيصبح تاريخياً في بريطانيا العظمى . «فعلى رأس قوة الفرسان التي شكلها من البدو الدروز ، استطاع قطع (تدمير) خط السكة الحديد في درعا ، وبذلك جرى قطع خطوط اتصالات العدو ما بين دمشق وحيفا وبين الجزء الشرقي لنهر الأردن» .

كانت من إحدى النتائج غير المتوقعة لتقدم اللّنبي أن تركز الانتباه في كل من لندن وباريس فجأة على مستقبل سوريا . ففي الثالث والعشرين من أيلول ، طلب السفير الفرنسي في لندن مقابلة بلفور ، وزير الخارجية بريطانيا آنذاك . ولاحظ بلفور في ما بعد بأن السفير الفرنسي ،كامبون ، قد تحدث «عن الوضع الذي من المحتمل أن ينشأ في المستقبل القريب بعد النجاح الذي حققه اللّنبي في فلسطين . فالقوات التركية في ذلك البلد قد دمرت آنذاك على مايدو ، وبدا أن ثمة احتمالات قوية من أن اللّنبي سيندفع باتجاه سوريا التي كانت ، كما ذكرني السيد كابون ، ضمن مجال النفوذ الفرنسي ،حسب اتفاق سايكس - بيكو ،كما كانت في غاية الأهمية من وجهة النظر الفرنسية ، وهذه الحقيقة يجب أن لا تغيب عن بال الجنرال اللّنبي في أية ترتيبات يقوم بها ،كونه القائد العام بالنسبة لإدارة البلاد التي كان على وشك الاستيلاء عليها» .

واستجابة لذلك سلم بلفور لكامبون بياناً حول موقف مجلس الوزراء البريطاني مفاده : «أن الحكومة البريطانية ملتزمة بسياستها المطلقة في ما يتعلق بسوريا : وبشكل رئيس إذا تعلق ذلك بمجال مصالح قوة أوروبية ،خاصة فرنسا . كما انهم يعتقدون بأن هذه السياسة يجب أن تكون واضحة تماماً في فرنسا وأي مكان آخر على حد سواء .

إن النهج الصحيح الذي يجب أن يتبع من قبل الحكومتين (الفرنسية والبريطانية) في حال دخول قوات اللّنبي الى سوريا يجب أن يبحث على الفور في باريس أو لندن . ولكن كان من المفهوم أنه في أية حال ، عندما يتطلب من الضباط تولي مسؤوليات مدينة ، فان هؤلاء الضباط يجب أن يكونوا فرنسيين وليسوا بريطانيين (ما لم تعبر الحكومة الفرنسية عن رأي معاكس)؟ من دون التسبب في أي أذى لسلطة القائد الأعلى في البلاد المحتلة عسكرياً» .

أرسل هذا البيان إلى اللّنبي برقياً في الخامس والعشرين من أيلول ، ومع التركيز ببنود اتفاقية سايكس - بيكو المتعلقة بسوريا .

وفي الوقت نفسه ،كان قد أرسل نص برقية وزارة الخارجية إلى باريس ومفاده : «إذا ما تقدم الجنرال اللّنبي إلى دمشق ، فإنه سيكون من المرغوب فيه جداً أنه انسجاماً مع الاتفاق الإنجلو - فرنسي المعقود في عام ١٩١٦ ، يجب أن يعمل إذا أمكن من خلال إدارة عربية بوساطة مكتب اتصال فرنسي» .

ومن الواضح من السجلات أن هذه الخطوات قد فرضت على الحكومة البريطانية بشروط فرنسية بأن اتفاقية سايكس - بيكو يجب أن تطبق في الحال . ولم تعكس هذه أية حماسة في لندن بالنسبة للطموحات الفرنسية ، التي عُدّت آنذاك مربكة جداً تجاه العرب .

في الثاني والعشرين من أيلول عاد لورنس إلى الأزرق حيث قابل الأمير فيصل وشرح له الحاجة إلى تدمير خط السكة الحديد جنوب درعا ، وذلك لكي يجري ايقاف أي تحرك شمالاً للجيش التركي الرابع . لذلك خلال اليومين التاليين هاجمت قوة مكونة من عربتين مدرعتين وقوات نظامية عربية ورجال قبائل ، هاجمت خط السكة الحديد عدة مرات ، حتى أصبح من المستحيل سير القطارات عليها ما بين عمان ودرعا .

وكما تنبأ اللّنبي ، فقد قرر الأتراك التخلي عن معان ، وبدأوا بالانسحاب شمالاً بالقطار ، ولكن قبل أن يتمكنوا من الوصول إلى عمان ، كانت قد أُخليت أيضاً . ولكن عندما وصلت هذه القوات المنسحبة إلى نقطة تخريب السكة الحديد ، كان عليهم أن يواصلوا رحلتهم في الطريق . ونتيجة لذلك ، سرعان ما أصبح تحركهم بطيئاً جداً وغير منظم .

بينما أصبح الخط الحديدي جنوب درعا مخرباً وغير قابل للتصليح ، وجه لورنس اهتمامه صوب الخط في الشمال . فاذا ما اتخذت القوات العربية موقعاً لها في شمال درعا ومنعت مرور القطارات إليها ، وستجد الحامية التركية نفسها واقعة في صعوبات جمة . وسيكون أمامها خياران : إما الانسحاب بوساطة الطريق البري ، تاركة معظم مستودعاتها ومعداتها في الخلف ، أو التمركز في البلدة ،التي سرعان ما ستحاصر بقوات

بارو . وخطط لورنس ، بعد قطع السكة الحديد ، للتحرك باتجاه شمال - غرب درعا إلى منطقة شيخ سعد ،حيث ستكون القوات العربية قادرة على مراقبة خط التراجع التركي . فمن هذه النقطة المسيطرة ، يصبح بإمكانهم مهاجمة أية وحدات للجيش التركي الرابع تحاول التوجه شمالاً ، وأيضاً مهاجمة أية بقايا من الجيوش التركية التي كانت لا تزال تنسحب عبر وادي اليرموك .

وبينما كانت هذه الخطة ماضية ، لم يكن ثمة أي غرض من الإبقاء على القاعدة الموجودة في جبل الدروز (جبل العرب) ، كما أن العربات المدرعة التي لا يمكنها العمل في منطقة حوران ، ستعاد إلى الأزرق . وستنفذ العمليات في الشمال بوساطة قوات نوري السعيد النظامية وقوات القبائل .

في الخامس والعشرين من أيلول ، كتب لورنس إلى القيادة العامة يقول : «يقدر عدد القوات التركية القادمة من عمان بنحو أربعة الاف رجل . ويمكننا إبادة نصفهم تقريباً ، وأعتقد أن الباقين لن يتمركزوا في درعا (حيث سيجدون هناك بقايا القوات المنسحبة من فلسطين) ، وانما سيتوجهون إلى دمشق في الحال . فارجو أن تبلغوا القائد العام بانني أتبع هذه الفكرة واقوم بحماية الجانب الغربي من حوران . . .» .

وهل يمكنكم إبلاغي بأخبار نيات الجنرال اللّنبي بأسرع ما يمكن ليتسنى لي متابعة تحركات الأتراك؟ حيث يمكننا القيام بذلك ، واعتقد بأنه نقوم به شمالاً ، ولكن سنكون ممتنين بأن تكون معنا قوة من الفرسان البريطانيين .

في اليوم نفسه أصدر اللّنبي تعليمات جديدة ، فقد علم بأن القوات العربية قد أنجزت الكثير من مهماتها السابقة ، وأن لورنس كان يتحرك شمالاً . وأصبحت وزارة الخارجية البريطانية متأكدة آنذاك من أنه يجب، أن تكون ثمة إدارة عربية في دمشق ، ولأنه لم يعد يوجد أي سبب لوقف الأمير فيصل من التوجه إلى هناك . لذلك فقد أرسل اللّنبي رسالة مستعجلة إلى الامير فيصل يقول فيها : «لا يوجد اعتراض على دخول سموكم إلى دمشق بأسرع مما تعتقدون أنه ممكن مع توخي السلامة .

ولقد أرسلت قوات إلى دمشق ، وآمل بانها ستصل إلى هناك في غضون أربعة أو خمسة أيام . وأنني واثق من أن قوات سموكم ستكون قادرة على التعاون ولكن لا يجب

التقليل من الضغط في قطاع درعا ، حيث أنه في غاية الأهمية وقف القوات التركية المنسحبة شمالاً من معان ، وعمان والسلط» .

وأُرسلت هذه الرسالة إلى الأمير فيصل بالجو ، غير أنه يبدو أن لورنس لم يعلم بها إلا بعد عدة أيام .

بعد ذلك بوقت قصير أرسلت خطط اللّنبي الإدارية بخصوص سوريا بصورة مختصرة إلى لندن كالآتي : «فيما يتعلق بمنطقة(أ) (المخصصة للنفوذ الفرنسي) ، وبشكل رئيس مدينة دمشق ، فانني ساعترف بوجود إدارة عربية محلية فيها ،كماسأعين ضابط اتصال فرنسي هناك كما هو مطلوب . وآمل بوساطة الإجراء المذكور أن أصون المصالح الفرنسية والعربية ، في حين ستظل السيطرة العليا في يدي كقائد عام» . ورغم ذلك فقد أصبحت الطريق مفتوحة آنذاك أمام الأمير فيصل لتشكيل حكومة عربية في دمشق يمكنها تولي المسؤولية المدينة في أعقاب مغادرة الأتراك لها .

اتخذ اللّنبي خطوات أخرى لضمان تنفيذ ذلك ، ففي آخر اجتماع له مع قادة الوحدات العسكرية في التاسع والعشرين من أيلول أوضح بأنه ينبغي على القوات الأوروبية المشتركة أن تبقى خارج دمشق . وأُعطيت أوامر مضنية للقوات المحيطة بالمدينة تتضمن : «بينما يجري التعامل مع العدو حول دمشق ، فانه يجب أخذ العناية لتجنب دخول المدينة ما أمكن . . . وما لم تقم أية قوة بذلك لأسباب تكتيكية ، فلا ينبغي لأية قوات دخول دمشق . وعلى جميع العمداء (القادة) ترتيب الإجراءات اللازمة للطرق المؤدية إليها لضمان الأمن فيها . . . ويجب أن تترك دمشق تحت الإدارة المدنية ، وأن لا يرفع عليها أي علم وطني لأية دولة من دول الحلفاء المشتركة في الحرب» .

بعد وصول القوات العربية إلى قرية شيخ سعد بوقت قصير وردت أخبار بأن الأتراك كانوا يخلون درعا وينسحبون عن طريق البر . وبعد ذلك قامت طائرة بريطانية بالقاء منشور يفيد بأن رتلين من القوات التركية كانا يقتربان من القوات العربية . وكما كتب لورنس فيما بعد يقول : «كان الرتل الأول القادم من درعا يحتوي على ستة الآف رجل ، والرتل الثاني قادم من مزيريب يحتوي على ألفي رجل . وقدرنا بأن الرتل الثاني يعادل حجم قواتنا ،فأرسلنا له قواتنا النظامية لتشتبك معه عند شمال قرية طفس ، في حين

أرسلنا فرسان حوران للالتفاف حول الرتل التركي الكبير . بيد أننا كنا متأخرين جداً (حيث أننا في الطريق تعاملنا مع كتيبة مشاة تركية) في منع الرتل التركي القادم من مزيريب في الدخول إلى قرية طفس ، إذ قامت القوات التركية باستعراض عضلاتها هناك ، وكما حدث في قرية طورا ، وهي آخر قرية دخلتها القوات التركية ، فقد اغتصبوا كل امرأة أمكنهم الإمساك بها ؛ فهاجمناهم بكل الأسلحة التي كانت لدينا ، عندما كانوا خارج القرية فيما بعد ، وجعلنا مقدمة رتلهم تنحرف تجاه قرية تل عرار . وعندما رأى شريف بيك ، قائد مؤخرة الرتل التركي الذي كان لا يزال في القرية ، ذلك ،أمر بقتل جميع سكانها . وشمل ذلك عشرين طفلاً (قتلوا بالحراب والبنادق) ، ونحو أربعين امرأة ولقد لاحظت بشكل خاص امرأة حاملاً بُقرت بطنها بحربة . ولسوء الحظ كان طلال ، شيخ قرية طفس ، الذي كان قمة في القوة والشجاعة منذ البداية ،في المقدمة مع عودة أبو تايه ومعي ، عندما رأى هذه المشاهدة ، فصرخ صرخة مدوية ، ومن ثم لف وجهه بكوفيته وانطلق بفرسه باقصى سرعة إلى وسط الرتل التركي المنسحب، ففتحت عليه النار من مدفع رشاش بغزارة ، فسقط هو ومهرته بين حرابهم .

وتمكنا بعد ذلك ، بمساعدة عودة أبو تايه من قطع الرتل التركي إلى ثلاثة اجزاء فقاوم أفراد الجزء الثالث بشدة ، بسبب وجود مدفع رشاش ألماني معهم ، واستطاعوا الإفلات ، ولو مؤقتاً . . . أما الجزء الثاني والفئات القيادية المتواجدة معه ، فقد تمت إبادته تماماً بعد قتال عنيف . وأمرنا قواتنا بعدم أخذ أسرى من العدو ، فاطاعت ذلك ، ما عدا سرية من قواتنا قامت بأسر مائتين وخمسين رجلاً (كان من ضمنهم العديد من ضباط الصف الألمان) . إلا أن أفراد السرية ، وجدوا في ما بعد واحداً من رجالنا قد كسرت رجلاه ومزقتا بفعل حراب ألمانية ، فوجهوا صوب الأسرى مدفع رشاشاتنا من نوع هوتشيس ، فأبادوهم عن بكرة أبيهم وكان التضليل الشائع بأن الجندي التركي نظيف ورحيم ، قد دفع ببعض القوات البريطانية الى انتقاد النهج العربي في القتال ، في ما بعد - إلا أنهم لم يدخلوا قريتي طور وطفس ، أو يشاهدوا القوات التركية يجرون الجرحى من العرب بأيديهم وأرجلهم بعربات السكة الحديد الحارقة . فبالنسبة إلى هؤلاء القرويين ، فقد عانوا هم وآباؤهم وأجدادهم من الاستبداد التركي لمدة خمسمائة سنة .

أرسل فرسان عرب في تلك الفترة إلى درعا ، ومعهم أوامر بإبادة أية تشكيلات عسكرية تركية تواجه على الطريق ، والاستيلاء على البلدة . ولم يتبعهم لورنس مباشرة ، لأنه كان عليه الرجوع إلى قرية شيخ سعد . وعندما عاد إلى درعا في فجر الثامن والعشرين من أيلول وجد البلدة في فوضى بسبب أعمال القتل والنهب فيها ؛ فبدأ هو والشريف ناصر بترتيب أول إدارة عربية فيها . وجرى تعيين حاكم عسكري لها ، وتشكيل قوة شرطة فيها ، ووضع حراسة على ما تبقى من مستودعات فيها .

بعد ذلك اتجه لورنس إلى الغرب للاتصال بقوات الجنرال بارو ، الذي كان يتقدم على طريق درعا من دون معرفة أن الأتراك قد غادروها . وكانت مهمة إيقاف فرقة عسكرية ، على هبة الاستعداد للهجوم ، ليست بالسهلة ، فقد أبلغ لورنس ليدل هارت فيما بعد قائلاً : «لقد كان وضعاً صعباً في تنفيذ ذلك ؛ فأخذت رجلاً واحداً فقط معي وتصرفت برباطة جأش وتكلف مسرحي . وعوملت كعدو أولاً ، ومن ثم كأحد السكان ، وكجاسوس فيما بعد» .

ورغم ذلك وجد طريقه إلى أركان قوة الجنرال بارو . كان يوجد ثمة خلاف عندما ذهب الجنرال بارو إلى درعا . إلاّ أن لورنس كان دوماً يأمل بالاستيلاء على البلدة قبل وصول القوات البريطانية الأوروبية المشتركة إليها ، وإقامة إدارة مدينة عربية هناك . ورغم ذلك لم يكن بارو يعلم شيئاً حول السياسات العربية ، وكان يفكر فقط فيما يتعلق بإعادة النظام والأمن للبلدة . وكان العديد من القوات العربية المتواجدة في درعا ، التي شهدت مأساة قرية طفس ،ما زالت تقوم بأعمال انتقامية من الأتراك وفزع بارو عندما وجد أنهم قد نهبوا مستشفى القطار الذي جرى الاستيلاء عليه هناك بعد قطع خط السكة الحديد . وكتب حول هذا الشأن فيما بعد يقول : «وجد السائق في قمرة القيادة ملقى ميتاً ورجل الوقود مصاباً بجروح خطيرة . وكان الجنود العرب يقومون بتمزيق ملابس الجنود الاتراك القتلى منهم والجرحى .

أوضح لورنس أنه لم يكن يريد من بارو السيطرة على درعا . وقد برز ذلك فيما بعد مشدداً على الحاجة إلى جعل العرب ينشئون حكومتهم الذاتية ، إذ يقول : «كان تفكيري يعمل بسرعة كاملة في تلك الدقائق ، فأما أن يكون الآن أو لا يكون أبداً لوضع العرب

في السلطة ، ولمنع تلك الخطوات الأولية المميتة من الحدوث ، وحرمان السكان الأصليين من تولي مسؤوليتهم ، وخلق وضع يصعب التخلص منه لعدة سنوات .

وكانت للعبتي غايات عالية أكثر مما يتوقعه بارو ، ولم أهتم بما كان يفكر به بشأني فلكوني معارضاً شخصياً للرجال العظام ، فإنني أحول غضبهم عن قضيتي إلى أسلوبي ، وأحصل منهم بذلك على كل ما أريده ، رغم أن ذلك لم يكن لذاتي» . ورغم احتجاجات لورنس ، فقد أمر الجنرال بارو رجاله بإعادة النظام في محطة السكة الحديد .

في هذه الاثناء أصبح سلوك لورنس وتقييمه منهكين تقريباً ، لأنه لم ينم سوى الشيء اليسير جداً خلال الليالي الأربع الماضية . وكتب فيما بعد لستيرلنغ ، الذي كان رفيقه خلال الأيام الأخيرة من التقدم ، يقول : «كنت مرهقاً جداً قبل بلوغ النهاية ، أتحرك وأنا بدوار ، وكان من الصعوبة معرفة ما أقوم به . فقد حاربت تقريباً حتى بلغت درعا ؛ وبعد ذلك حُلت الأزمة لصالحنا بوضوح ، وكان التقدم الأخير ودخول دمشق عبارة عن شكليات . وكان لا بد للأمور أن تمضي بطريقها ، بل لم يتطلب الأمر استعداداً أو تفهماً . الم تلاحظ بأنني كنت فارغاً ثلاث مرات آنذاك؟ . .»

في التاسع والعشرين من أيلول بدأت قوة فرسان بارو برحلة السبعين ميلاً إلى دمشق . وجرى الاتفاق على أن تقوم قوات نوري السعيد النظامية بالزحف على خط السكة الحديد لتغطية جناحه (بارو) الأيمن ، بينما تواصل القوات العربية غير النظامية ملاحقة الطوابير التركية التي تحاول الانسحاب شمالاً .

هذا وبقي لورنس في درعا لاستقبال الأمير فيصل ، الذي كان من المتوقع أن يصل إلى درعا في وقت لاحق من ذلك اليوم .

في صبيحة اليوم التالي باشر برحلته مع ستيرلنغ في مركبة رولز رويس للحاق بالقوات العربية والانضمام إليها ، وعلى بعد نحو عشرة أميال من جنوب المدينة (دمشق) التقى لورانس بوستيرلنغ مع قوات عربية غير نظامية» .

كانت لا تزال تقوم بالقضاء على ما تبقى من طابور تركي . وفي تقريره عن هذا التقدم النهائي وصف لورنس المصير الذي لقاه الجيش الرابع التركي على أيدي العرب بقوله : «لقد قتلنا نحو خمسة آلاف منهم ، وأسرنا نحو ثمانية آلاف . . . وجرى

الاستيلاء على نحو مائة وخمسين مدفع رشاش ، ومن خمسة وعشرين إلى ثلاثين مدفعاً» .

ورغم ذلك تمكن طابور تركي مؤلف من نحو ألف رجل من الفرار إلى الشرق .

إلا أنه بعد بضعة أيام التقى بقوات تابعة للقوات البريطانية المشتركة ، وبحلول ليلة الثلاثين من أيلول جرى إغلاق جميع طرق النجاة الواصلة إلى دمشق تماماً . فقد كانت قوات شوفيل الأسترالية في ناحيتي الشمال والغرب ، وقوات بارو في الجنوب والغرب . وفي تلك الليلة عسكرت القوات العربية في الكسوة التي تبعد بضعة كيلومترات فقط إلى جنوب دمشق . أما أولئك الأتراك داخل المدينة ، والذين لم يتسن لهم الفرار ، فقد وقعوا في الفخ .

لقد بدا أنه لم يكن ثمة داع لدخول القوات العربية إلى دمشق في تلك الليلة ، فقد كانت أوضاع الطرق خطرة ،كما أن وصول القوات بحالة منهكة سيضيف تشويشاً للوضع . ورغم ذلك جرى ايفاد الرسل للاتصال بأتباع فيصل سراً . وأراد لورنس التأكد من إقامة إدارة (حكومة) مؤقتة هناك ، وذلك لكي تقع المدينة تحت السيطرة العربية قبل وصول ممثلي اللّنبي إليها . وكما يبدو أيضاً أنه خشي من أن توجد مقاومة من بعض العناصر المتطرفة الغاضبة المحلية للقوات المسيحية (الأجنبية) ، وذلك بسبب الشائعات حول اتفاقية سايكس - بيكو . وكتب فيما بعد يقول في هذا الصدد : «من الممكن أن يندفع الأستراليون (القوات الأسترالية) إلى داخل المدينة ،رغم الأوامر في هذا الشأن ، فإذا ما حاول أي واحد مقاومتهم فسيفسد الوضع مستقبلاً . ومُنحنا ليلة واحدة لجعل أهالي دمشق يستقبلون القوات البريطانية كحلفاء لهم» .

على أية حال ، كان لورنس يعلم أنه سيسمح لجيش فيصل بالاستيلاء على المدينة . وذهب كل من الشريف ناصر ونوري السعيد إلى المدينة في نحو السابعة والنصف صباحاً ، في الأول من تشرين الأول ، وكان من المقرر أن يرافقهما كل من لورنس وستيرلنغ ، إلا أنهما تعوقا في الطريق واستذكر ستيرلنغ ذلك فيما بعد بقوله : «أوقفنا المركبة على ضفة جدول صغير لنغتسل ونحلق لحانا . ولم نفرغ من اغتسالنا حتى قدمت دورية من الجنود البنغاليين من وراء التل ، وأخذتنا أسيرين . كان لورنس في ملابسه

العربية الكاملة ، بينما كنت أنا أضع كوفيه على رأسي ، وارتدي عباءة تخفي تحتها ملابس الكاكي الرسمية . ولم أكن اتحدث لغة الأردن لسوء الحظ ، بيد أنني حاولت أن أبين بأنني ضابط بريطاني عندما خلعت العباءة وأريتهم رتبتي العسكرية ، إلا أن ذلك لم يجد نفعاً معهم .

وساقونا كالأسرى إلى أن أصبحنا محظوظين في مقابلة أحد الضباط البريطانيين ، فشرحنا له أمرنا» .

وكانت الساعة التاسعة صباحاً عندما وصل لورنس وستيرلنغ إلى دمشق ، وكتب لورنس يقول بأنه قد وجد الطرقات مليئة بالأهالي ، الذين كانوا يرقصون ويغنون ويقدمون عروضاً بالسيوف والخناجر واطلاق النيران في الجو . وكانوا يحييوننا بأسمائنا ، أنا والشريف ناصر ونوري الشعلان ، وعودة أبو تايه ، ويرشون الأزهار العطرية علينا من البيوت ، ويقبلوننا .

عندما وصلوا إلى قاعة بلدية المدينة علموا بأنه قد جرى الإعلان عن تشكيل حكومة عربية في عصر اليوم السابق ، وحتى قبل أن تغادر آخر القوات التركية والألمانية المدينة ، وتوقع لورنس أن الحكومة الجديدة قد شكلت برئاسة علي رضا الركابي ، الذي كان يتمتع بشعبية واسعة ، كما أنه كان من كبار المسؤولين في دمشق إبان الحكم التركي وخلال معظم فترة الحرب . ورغم ذلك أستدعي علي رضا إلى مقر قيادة بارو في التاسع والعشرين من أيلول ، واستبدل بشخصية وطنية أخرى ، وهو شكري الأيوبي ورفرف العلم العربي على دار الحكومة ، وأعلنت الحكومة الجديدة ولاءها للشريف حسين ، ملكاً على جميع العرب .

لم يكن يتواجد في قاعة البلدية الشريف ناصر ونوري السعيد وشكري الأيوبي من الزعماء العرب فقط ، بل كانت هناك أيضاً مجموعة منافسة بقيادة الجزائريين ، عبد القادر الجزائري وشقيقه محمد سعيد . وكان لورنس قد عانى شخصياً من خيانة عبد القادر ، وعلم أن الشقيقين كانا يعملان مع الأتراك لآخر لحظة . فقبل مغادرته دمشق . عين جمال باشا محمد سعيد حاكماً على المدينة . ورغم ذلك ، أعتقد الأخوان الجزائريان بأن السياسات تتغير ، ووضعا نفسيهما على رأس الحكومة . إلاّ أنه بناءً على أوامر لورانس

جرى إبعادهما . بعد ذلك بوقت قصير توجه الجنرال شوفيل إلى المدينة ، بعدما علم أن لورنس كان موجوداً هناك . وتقابلا في قاعة البلدية ، وقدم لورنس شكري الأيوبي بوصفه حاكماً عسكرياً ، قائلاً له بأن القوات العربية تتولى المسؤولية في المدينة وحفظ النظام . وحث لورنس شوفيل على إبقاء القوات الأسترالية خارج المدينة .

وكتب شوفيل إلى القيادة العامة حول هذه الترتيبات . فكما فهمها هو كانت أوامره تتلخص «في تكليف الوالي بتـولي الإدارة المدنيـة في المدينة ، ووضع قـوة من الحـرس والشرطة تحت تصرفه عندما تدعو الضرورة لحماية الممتلكات ، وأشار في تقريره : «عند وصولي إلى دمشق في الساعة التاسعة والنصف صباحاً ، قابلت هناك المقدم لورنس ، الذي قدمني بدوره لشكري باشا ، وقال لي إنه حاكم عسكري . وفهمت بأن هذا المسؤول كان هو الوالي ، فأصدرت له تعليماتي من خلال لورنس بتولي الإدارة المدنية في المدينة ، وأبلغته بأنني سأوفر له أي حرس عسكري وقوة شرطة يطلبها .

وعرض المقدم لورنس مساعدته ليرشدني أي من الحراس كانوا مطلوبين ، وللإشراف على تنفيـذ هذه التعليمـات . فطلبت منه المساعدة في هذه الأمـور لانه لم يكن لدي ضابط سياسي في وحدتي حينذاك . وعاد المقدم لورنس إلى مقر قيادتي عند الساعة الخامسة مساءً ، وأبلغني بأن شكري باشا لم يكن كما اعتقدت ، الوالي الأصلي ، إلاّ أنه عين من قبله في هذا الصباح . . فجميع المسؤولين الأتراك قد فروا من دمشق عند نحو ظهر الثلاثين من أيلول . وأعلن عرب دمشق ولاءهم لملك الحجاز في مساء الثلاثين من أيلول .

وقلت بأنه ليست لدي تعليمات بهذا الخصوص ، بيد أنني كنت متفقاً مع المقدم لورنس على وجود حاكم عسكري يقوم بتولي الإدارة المدنية ، كإجراء مؤقت لحين تسلم تعليمات لاحقة من القيادة العامة» .

كما أرسل لورنس بتقرير أيضاً عن الوضع إلى القيادة العامة جاء فيه : «لقد عين شكري باشا الأيوبي حاكماً عسكرياً ، إذ أن جميع الموظفين المدنيين السابقين قد غادروا مع جمال باشا في اليوم السابق . وأُعلنت الأحكام العرفية ، ونظمت قوة شرطة ، وجرت السيطرة على المدينة . . إلا أنه ليست لدي أوامر بخصوص الترتيبات السياسية التي

يجب أن تتخذ في دمشق ، وسيستمر الوضع كما كان من قبل لحين ورود تعليمات أخرى منكم . . أما قائد فرقة الخيالة (شوفيل) ، المتواجد مع فرقته خارج المدينة ، فقد وافق على مساعدتي في إدارة المدينة لحين ورود تعليمات أخرى» .

يبدو من الواضح من خلال التخمينات المستقبلية التي قدمها كل من شوفيل ولورنس أنه كان يوجد توتر بين الرجلين ، إذ أن شوفيل لم يكن يعرف أكثر من الجنرال بارو عن الوضع السياسي العربي . وقد صدم بمشاهد عدم الانضباط والسلب في المدينة ، وكان غاضباً لرؤيته لورنس ، وهو ضابط صغير نسبياً ، يتولى المسؤولية باسم فيصل ، وكانت قواته قد خاضت قتالاً شديداً خلال الأيام الماضية ، فعزم على أن قواته يجب أن تكرم كفاتحي المدينة . وبالرغم من أوامر اللّنبي ، فإن بعض وحداته وجد مبرراً للمرور عبر ضواحي المدينة في ذلك الصباح الباكر ، وبذلك أعلنت القوات الأسترالية بفخر عن دخولها أولاً إلى المدينة . لذلك كان شوفيل منزعجاً عندما أشار لورنس إلى أن العرب استولوا على دمشق قبل ساعات من دخول أية قوات أوروبية إليها .

قرر لورنس بعد ذلك أن ينهي دوره مع العرب بأسرع وقت ممكن . ففي مساء الأول من تشرين الأول ، كتب تقريراً قصيراً عن الأحداث التي جرت في الأيام الثلاثة الماضية أنهاه بقوله : «إذا لم يكن العرب بحاجة إلى عسكرية في المستقبل من الفيلق الصحراوي ، فأنني أرغب بالعودة إلى فلسطين ، فأنا أشعر بأنني إذا مابقيت هنا طويلاً ، فسيكون من الصعب جداً إيجاد خليفة لي» .

وكافح لورنس خلال اليومين الماضيين لضمان أن العرب حققوا بعض النظام ، فكتب في «أعمدة الحكمة» يقول : «كان هدفنا الواجهة وليس أساس البناء . وكان يسير بشكل أحسن عندما غادرت دمشق . . فقد أصبح للسوريين حكومة أمر واقع» . إضافة إلى ذلك رغب في إنشاء مبدأ يقوم بموجبه العرب . باستلام مساعدة فنية أو غيرها عندما يطلبون ذلك فقط ، بدلاً من فرض سيطرة أوروبية عليهم . إلا أن هذه المهمة لم تكن سهلة ، لأن الأتراك قد خلفوا صعوبات حادة خلفهم .

أما المشكلة الأخرى فقد كانت الفوضى العامة ، ومعظمها كان يتسبب بها الفلاحون الدروز خارج المدينة ، الذين عَدُّوا الانتصار مناسبة لإثارة الشغب والنهب والسلب . ورغم ذلك فقد كان يوجد ايضاً صراع سياسي ، ففي ليلة الأول من تشرين الأول حاول عبد

القادر الجزائري وشقيقه محمد سعيد القيام بتمرد ضد العناصر الموالية للشريف (الشريف حسين) وحلفائهم المسيحيين . غير أنها أخمدت من قبل الجيش العربي في اليوم التالي ، وجرت أخيراً السيطرة على الوضع عند الظهر ، وسُيِّرت دوريات في الشوارع من قوات شوفيل وعلى رأسها مجموعة عربية في غضون ذلك أُخليت بيروت أيضاً من الأتراك ، وفي الثلاثين من أيلول ، وقبل وصول لورنس إلى دمشق ، أرسل محمد سعيد رسالة إلى الوطنيين هناك يحثهم فيها على الإعلان عن قيام حكومة عربية فيها . وأيدت هذه الخطوة بحماسة من قبل سياسيين دمشقيين آخرين من ضمنهم علي رضا الركابي . ولم يعلم لورنس بذلك الى اليوم التالي ، متأسفاً لذلك لانه كان يعلم بأن ذلك سيسبب متاعب مع الفرنسيين .

عندما زار اللّنبي وعدد من أركانه دمشق في الثالث من تشرين الأول ١٩١٨ ، وافق على الترتيبات التي وضعها لورانس ، كما أقر بتعيين رضا الركابي حاكماً عسكرياً على المدينة . وفي ذلك الوقت تلقى تعليمات مفصلة من لندن بخصوص الوضع السياسي للعرب ، والموقف الذي يجب أن يتخذه تجاه أية إدارة يشكلونها : «وفقاً للترتيبات والاتفاقات التي عقدتها حكومة صاحب الجلالة مع ملك الحجاز ، والسياسة المتفق عليها معهم ، فيجب ، بناءً على ذلك ، الاعتراف رسمياً بسلطة حلفائنا العرب على أي جزء من أجزاء المناطق الواقعة ضمن منطقتي «أ» و «ب» المحدودتين في الاتفاقية الإنجلو - فرنسية عام ١٩١٦ ، حيث يمكن أن توجد أو تنشأ ، أو يمكن أن تنشأ ، نتيجة للعمليات العسكرية الجارية حالياً . وبذلك أصبح وضع العرب القتالي من أجل تحرير أراضيهم من الحكم التركي معترفاً به الآن . ووفقاً لذلك ، فانه حسبما تسمح به المقتضيات العسكرية ، يجب أن تعامل المناطق المحررة كأراضٍ حليفة تتمتع بوضع الدولة المستقلة (أو دول اتحاد كونفدرالي) لأصدقائنا العرب ، وليس كأقليم (مناطق) عدوة لاحتلال عسكري مؤقت . .

وكان من المرغوب فيه تمييز الاعتراف وترسيخ الحكم العربي الوطني بعض الرموز الرسمية الواضحة مثل رفع العلم العربي وتحيته . «يجب أن تكون سياستنا تشجيع إقامة حكومة مركزية أو إقليمية عربية ، والعمل من خلالها تماماً ولو بشكل ظاهري . ومن أجل هذا الغرض ، فإنه لم تكن ثمة حاجة للتردد بقبول سلطة اسمية فحسب حيث لا يمكن

إيجاد بديل آخر حالياً» .

ورغم هذه التنازلات إلى الحكم الذاتي ، فإن التعليمات واصلت تقول : «وإذا ما طلبت السلطات العربية مساعدة أو هيئة مستشارين أوروبيين فنحن مقيدون بموجب الاتفاقية الإنجلو - فرنسية بأن تكون تلك فرنسية في المنطقة «أ» . ومن المهم ، من وجهة النظر هذه ، أنه يجب أن تقتصر الإدارة العسكرية على الأعمال والوظائف التي توصف بأنها عسكرية تماماً ، وذلك لكي لا يكون ثمة مجال لوجود موظفين فرنسيين والشيء نفسه ينطبق على المنطقة «ب» ، التي تمتد من شرق البحر الميت وغور وادي الأردن ، وذلك لكي لا تكون ثمة حجة أو ذريعة فرنسية لأية مطالب فرنسية أكثر في المنطقة «أ» .

كان على اللّنبي الوصول إلى دمشق لانجاز هذه التعليمات ، كما جرى الترتيب لوصول الأمير فيصل إلى المدينة في اليوم نفسه . وتقابل الرجلان لأول مرة في فندق فيكتوريا ، وكان حاضراً ذلك اللقاء كل من شوفيل ، نوري السعيد ، الشريف ناصر ، جويس ، لورنس ، سترلينغ ، يونغ ، وكورنواليس .

ولم يورد لورنس سوى الشيء اليسير في كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» ، وذكر فقط «أن اللّنبي سلمني برقية من وزارة الخارجية تعترف فيه للعرب بوضع المحاربين ، وأبلغني أن أترجم ذلك لفيصل ، غير أن كلانا لم يعرف ما كانت تعنيه هذه الكلمات بالإنجليزية ، فكيف يكون ذلك بالعربية» . وكان فيصل يبتسم من خلال دموع الفرح لترحيب الجماهيرية ، إلا أنه رغم ذلك انبرى ليشكر اللنبي على الثقة التي منحه إياها ولثورته وكان الرجلان على تناقض في مظهرهما : ففيصل كان ذا عينين كبيرتين متعبتين مثل خنجر حاد ، أما اللّنبي فهو ضخم ، ذو لون أحمر مرح ، ملائم ليمثل القوة . .»

إلاّ إنه أوردت ملاحظات أوفى عن اللقاء من قبل شوفيل . ولكن مما يدعو للأسف ، أنها لم تدم وقتاً طويلاً حتى جرى تغييرها بعد سنوات وتوجد تناقضات بين هذا النص والوثائق الموجودة حالياً ، ذلك أن ملاحظات شوفيل لا يمكن عَدُّها موثوقة تماماً . إذ إنه كتب يقول : «كان لورنس يقوم بدور المترجم وشرح القائد العام لفيصل ما يأتي :

(أ) إن فرنسا ستكون القوة الحامية على سوريا .

(ب) يتولى الأمير فيصل ، بصفته ممثلاً عن والده ، الملك حسين ، إدارة سوريا (باستثناء فلسطين ولبنان) تحت إشراف ودعم مالي فرنسيين .

(جـ) يشملِ النطاق العربي أراضي سوريا الداخلية فقط ، وأنه ، الأمير فيصل ، وليس له أية سلطة على لبنان ، والشريط الساحلي ، الذي يمتد من شمال فلسطين (من صور) وحتى رأس خليج الاسكندرونة .

(د) إن عليه قبول ضابط ارتباط فرنسي في الحال ، سيعمل في الوقت الحالي مع لورنس ويتوقع منه أن يقدم له كل مساعدة .

«عارض فيصل ذلك بقوة . وقال إنه لم يكن يعلم شيئاً بشأن دور فرنسا ؛ وأنه مستعد لقبول مساعدة بريطانية ، ذلك أن ما فهمه من المستشار الذي أرسله اللّنبي إليه هو أن العرب سيسيطرون على كامل سوريا بما فيه لبنان ، ولكن باستثناء فلسطين ، إذا إن بلاداً من دون ميناء كان أمراً غير مجدياً بالنسبة له ، كما أنه (الأمير فيصل) رفض أن يكون ثمة ضابط ارتباط فرنسي ، أو الاعتراف بالتوجيه الفرنسي ، في أية حال من الأحوال . «والتفت القائد (اللّنبي) إلى لورنس وقال : «ولكن ألم تبلغه بأن الفرنسيين سيتولون الحماية على سوريا؟» فأجاب لورنس «كلا ،ياسيدي لا أعلم شيئاً في هذا الشأن» . ومن ثم قال القائد : «ولكنك تعلم بتأكيد بأنه ، فيصل ، ليس له شأن في لبنان؟» فأجاب لورنس : «كلا ، ياسيدي ، لم أعلم بذلك» .

«وبعد إجراء بعض المباحثات ، وقال القائد لفيصل بأنه هو السير أدموند اللّنبي ، كان القائد العام ، وهو الذي يصدر الأوامر التي يجب أن تطاع . .»

وبعد ذهاب فيصل أبلغ لورنس القائد بأنه لن يعمل مع أي ضابط اتصال فرنسي ، وأنه اصبح لزاماً عليه أن يمضي في حال سبيله ويذهب إلى إنجلترا» . ويبدو ، لأول وهلة ، أن التصريحات المتعلقة بالاتفاقية الإنجلو - فرنسية ، والتي تشير إلى لورنس في هذه الوثيقة ، تبدو لافتة للنظر . ويضمن شوفيل أيضاً ، أن كل من فيصل ولورنس أنكرا أية معرفة باتفاقية سايكس - بيكو ، بيد أن الاتفاقية كانت شائعة على الصعيد العام في ذلك الوقت ومعلناً عنها منذ سنة تقريباً ، فمن المستهجن إذن لا يعلم كل منهما (رغم أن

الأمير فيصل يمكنه القول بأنه لم يُبلّغ رسمياً عن الاتفاقية) . ويبدو أن شوفيل قد أساء فهم وتفسير ما سمعه ، لذلك فانه يجب أن يؤخذ بالحسبان بأنه لم يكن يعلم شيئاً ، في ذلك الوقت ، بشأن الخليقة السياسية للمباحثات التي جرت . والتفسير المحتمل لهذه التغيرات هي أن لورنس وفيصل قد سماها لأول مرة فقط بالترتيبات المؤقتة لسوريا ، والتي وافقت عليها كل من حكومتي بريطانيا وفرنسا مؤخراً . فلا بد أن التفاصيل التي أعلنها اللّنبي قد أحدثت في نفسيهما صدمة ، فبدا عليهما أنهما قد وقعا ضحية للاتفاقية الإنجلو - فرنسية ، ورغم حقيقة أن رؤساء لورنس قد أبلغوه بشكل متكرر بأن الاتفاق كان في حكم الميت .

أما الملاحظة التي عزاها شوفيل إلى فيصل بخصوص لبنان فلا بد أنها عُدّت في سياقها الحقيقي . إذ أن فيصلاً لم يكن قادراً على القبول ، وبشكل خاص أمام الزعماء العرب ، بأنه مستعد للاعتراف بأي شكل من أشكال بالمطالب الفرنسية في لبنان ، فمثل هذا التنازل سيؤدي إلى حدوث خلاف وشقاق مع والده ، ومع الشخصيات العربية الوطنية في أنحاء سوريا كافة . لذلك ، فإذا ما وردت مثل هذه الملاحظة في ذلك الاجتماع ، فلا بد أن تُعَد كدليل على موقف سياسي ، أكثر منها أنعكاساً لمعرفة ، أو رأي فيصل الخاص في هذا الصدد .

الفصل السابع عشر

موتمـــر الســـلام

تشرين الأول ١٩١٨ - أيلول ١٩١٩

عندما غادر لورنس دمشق كان يعلم بأن وضع الأمير فيصل صعبٌ للغاية . كما ستكون ثمة مشكلات مع ضابط الاتصال الفرنسي والسياسيين السوريين الطامحين للاستقلال التام .

وجعل اللّنبي وكلايتون الوضع أكثر سوءاً بمحاولة منع فيصل من الانخراط في السياسات العامة . فأولاً قيداه من الناحية العسكرية بجعل علي رضا باشا حاكماً على جميع المناطق المشار إليها في منطقتي «أ» و «ب» في اتفاقية سايكس - بيكو . وكان عليه أن يراجع اللّنبي مباشرة . وهذا ماثبت أنه كان خطأ تكتيكياً ، حيث أن علي رضا كان زعيماً سياسياً سورياً وليس لديه أي مبرر للشعور بالولاء لبريطانيا .

وكتب لورنس في ما بعد يقول : «عند الاستيلاء على دمشق فقدنا فيصل وأنا السيطرة عليها ، فقد تولى علي رضا وأبناء البكري المسؤولية في جميع أرجاء البلاد ، ولكن بصورة رمزية على منطقة الساحل . وكان هدفي هو الاستيلاء على الساحل من طرابلس إلى الاسكندرونة ، وقد أبلغت فيصلاً بأن عليه في خضم الاضطراب والفوضى التي ستتبع الانتصار ، وان يستغل الفرصة ويضم هذه المنطقة إلى المملكة السورية . وكنت ما أزال أعتقد بأنه كانت توجد إمكانية لتحقيق ذلك ، وأن التعجل بالاستيلاء على لبنان وخاصة بيروت قد أطاح بآمال الأهالي هناك ، إذ أن علي رضا أرسل شكري (الأيوبي) إلى بيروت ، ليتولى المسؤولية هناك . وكنت منشغلاً جداً في التغلب على المصاعب الموجودة في دمشق لأحاول التعامل مع علي رضا» .

وصل لورنس إلى القاهرة في الثامن من تشرين الأول ، وغادرها بعد أسبوع إلى إنجلترا . وبالصدفة كان أحد المسافرين على متن الرحلة البحرية من بورسعيد إلى تورنتو ، الايزل ونترتون ، الذي كتب إلى اللورد روبرت سيسلي - مساعد وزير الخارجية

البريطانية ، يقول : «إن لورنس ، كما تعرفونه ، كان يعمل ضابطاً سياسياً مع الأمير فيصل ، ويمكن أن يوصف بأنه «روح الحجاز» . . ولكن بالنسبة إليه فإن الحركة العربية لا يمكنها تحقيق النجاح . وهو متلهف لرؤيتكم ومقابلة آرثر بلفور (وزير الخارجية) . فهل لي إحضاره الى وزارة الخارجية؟ وهل يمكنكم تكليف سكرتيرتكم يالكتابة إلى في مجلس العموم حتى يكون بإمكاني مقابلتكم ، إذ أن لورنس حلم بكل شيء عن الأوضاع في دمشق - بيروت - حلب أكثر من أي شخص آخر ، ولديه معرفة شخصية فريدة بالعرب والثورة العربية» .

سافر لورنس من تورنتو شمالاً بوساطة القطار . وبما أن الرحلة بقطار الجنود كانت غالباً ما تستغرق عشرة أيام ، فقد تدبر أمره قبل مغادرته مصر لترقيته إلى رتبة عقيد ، مما أهله ذلك للسفر على متن القطار السريع ، والذي وصل إلى «لوهافر» خلال ثلاثة أيام فقط .

ووصل إلى إنجلترا في نحو الرابع والعشرين من تشرين الأول ، ومن ثم ذهب إلى «اكسفورد» لرؤية أسرته . وكانت تلك المرة الأولى التي يذهب فيها إلى منزل الأسرة منذ نحو أربع سنوات . وفي يوم الأحد الذي تلا باشر بالعمل ، مستغلاً التقديم الذي أوصى به ونترتون . وكان هدفه رؤية اتفاقية سايكس - بيكو وقد أسقطت . وبعد مقابلته ، كتب سيسل يقول : «أعطاني الكولونيل لورنس انطباعاً بأن فيصلاً والعرب (والذي يشير إليهم دائماً بكلمة نحن) قد استولوا على بيروت واللاذقية وغيرها من دون مساعدة قوى أجنبية . كما أنه أعلن بأن دمشق تحت سيطرة فيصل من الناحية العسكرية منذ شهر تشرين الثاني من العام الماضي ، وكان بوسعه الاستيلاء عليها من قبل ، وعقد معاهدة سلام مع الأتراك بشروط ملائمة جداً . كما صرح (لورنس) بأنه قد اطّلع على رسائل متبادلة بين جمال (باشا) وفيصل . وشجب اتفاقية سايكس - بيكو ووصفها بأنها اتفاقية طائشة ، وغير عملية وسخيفة تماماً .

وتحدثت معه عن العراق ، فألح بأنه يجب أن يوضع تحت حكم عربي ، واقترح بأن يتولى حكمه أحد أبناء الملك حسين ، والأمير عبد الله ملائم جداً لذلك . وكان ضد الفرنسيين بعنف ، واقترح انه إذا ما كان ثمة قوى محافظة يجب التعاون معها ، فسيكون من الأفضل التعامل مع ممثلي العرب والصهاينة ، ومع الأميركان والايطاليين أيضاً .

وقام لورنس بزيارات أخرى خلال ذلك الأسبوع الأول في إنجلترا ، آملاً بالحصول على العديد من الأصدقاء ما أمكن إلى صف القضية العربية . ففي التاسع والعشرين من تشرين الأول خاطب اللجنة الشرقية لوزارة الحرب . ومما زاد في غضبه ، أن بدأ اللورد كارازون ، ورئيس اللجنة ، بكيل المديح لإنجازاته في الجزيرة العربية . إذ أن لورنس لم يكن لديه مزاج كمثل هذا المديح ، فكان رده جافاً . وطلبت منه اللجنة أن يستعرض وجهات نظر الزعماء العرب في ما يتعلق بإيجاد تسوية للأراضي المحررة ، والعلاقات العربية الفرنسية بشكل خاص ، فبدأ إجابته بوصف موقف فيصل المؤيد لبريطانيا ، وتعاونه اللّنبي الذي ستساند فيه بريطانيا المطالب الفرنسية . ممثلو فرنسا أوضحوا لفيصل تماماً بأنهم ينوون إنشاء إمبراطورية استعمارية في الشرق . . . واعتمد فيصل والزعماء العرب على إعلاننا الذي أصدرناه في شهر حزيران ١٩١٨ (للزعماء السوريين السبعة) ، في ما يتعلق بإدارة جميع المناطق التي جرى الاستيلاء عليها بوساطة القوات العربية ، ففي هذا الإعلان قدمنا وعداً لفرض سيادة عربية غير محدودة على مثل هذه المنطقة» .

ومضى لورنس ليقدم سلسلة من الاقتراحات حيث قال : «يجب أن يكون عبد الله حاكماً على بغداد والعراق الأسفل ، في حين يتولى زيد حكم العراق الأعلى ، ويولى فيصل على العراق . وسجلت محاضر اللجنة ما يأتي : «في ما يتعلق بمنطقة العراق الأعلى ، الذي جاء منه أفضل ضباط ورجال فيصل في جيشه النظامي ، فقد كان لورنس مقتنعاً بأن تقام فيه مملكة أو أقليم مستقل عن كل من العراق الأسفل وسوريا . وأضاف لورنس بأن فرنسا قد دخلت إلى سوريا تحت جناح الجنرال اللّنبي ورغم أن فيصلاً لم يرغب في ذلك ، فانه كان على استعداد لأن يترك بيروت ولبنان للوصاية الفرنسية ، شريطة أن لا تكون ثمة مسألة ضم فرنسية لسوريا . أما طرابلس ، فهو جزء حارب العرب من أجله حيث أن خط طرابلس – حمص الحديدي – يُعَّد الخط التجاري الحقيقي الوحيد بين البلدين أما في ما يتعلق بالمستشارين الفرنسيين ، فقد أبدى فيصل وجهة نظره في هذا الشأن ، وقال بأنه حر في اختيار ما يراه مناسباً من المستشارين وكان متلهفاً للحصول على مساعدة من البريطانيين والأمريكيين على حد سواء . وسيكون اليهود مقبولين بالنسبة للعرب بشروط . وفي أعقاب هذا النقاش ، طُلب من لورنس كتابة مذكرة يضع فيها اقتراحاته بشكل مفصل .

لا بد أن لورنس سرعان ما أدرك أن الحكومة قد وجدت من الصعب تقديم دعم كامل لفيصل . وكانت بريطانيا راغبة في عرض عدة مسائل وقضايا أمام مؤتمر السلام من بينها مسألة الموصل في شمال العراق (المخصصة لفرنسا بموجب اتفاقية سايكس - بيكو) ، وفلسطين (الموضوعة بموجب الاتفاق تحت الإدارة الدولية) ، فكلا هاتين القضيتين تستلزم تنازلاً من فرنسا ، وسيكون من غير الملائم لبريطانيا أن تعارض الأطماع الفرنسية في سوريا أيضاً إضافة إلى ذلك ، إن وزارة الخارجية البريطانية اذ ما تعاطفت مع الأمير فيصل ، فإن وزارة الهند لن تفعل ذلك . فاللوبي الإنجلو - هندي كان لا يزال ينوي إضافة العراق إلى الإمبراطورية ، ويعارض الزعماء الوطنيين العرب أينما كانوا . لذلك فقد رأى لورنس أن أفضل أمل بالنسبة للاستقلال العربي يكمن مع الأمريكيين ، وفي مؤتمر السلام ، سيفعل الرئيس الأمريكي ويلسون بالتأكيد وجود حق تقرير المصير للعرب على فرض استعمار أوروبي عليهم . بعد مضي يوم على مقابلته للجنة الشرقية ذهب لورنس إلى قصر بكنجهام لمقابلة الملك جورج الخامس . وكان اللنبي قد أوصى بمنحه وسام الفروسية غير أن لورنس أبلغ السكرتير العسكري في القصر الملكي بأنه لا يريد أي تكريم .

وعندما وصل إلى القصر وجد على مضض منه أن المقابلة كانت خاصة لتقليد رتبة ، إذ أن مباحثاته التي أجراها في وزارة الدفاع خلال الأيام الماضية لم تسفر عن أي شيء لإضعاف معارضته للحصول على أية ديكورات (وسام أو رتبة) . وحسب ملاحظة أدلى بها السكرتير الخاص للملك فيما بعد ، فإن لورنس قد أبلغ الملك التزاماته بالوفاء بتعهده للأمير فيصل ، وأن الحكومة البريطانية كانت على وشك التخلي عن العرب لتنفيذ اتفاقية سايكس - بيكو . وأنه (لورنس) كان بمثابة أمير بين العرب ، وأنه يشاركهم في السراء والضراء ، ومستعد لأن يقاتل الفرنسيين من أجل إنقاذ سوريا إذا دعت الضرورة .

وقال الكولونيل لورنس بأنه لم يكن يعرف بما قد أُعلن عنه أو ما هي قواعد البروتوكول في مثل هذه الأمور ، بيد أنه أمل في أن الملك سيغفر له من جانبه لعدم قبوله الوسام والرتبة «ويبدو أن الملك لم يتخذ موقفاً عدائياً من لورنس ، وتظهر الرسائل اللاحقة

في هذا الصدد بأنه لم يحمل شعوراً معادياً للورنس ، بل أن هذه الحادثة أصبحت من القصص المحببة للملك جورج الخامس ، وفقاً لما قاله لورنس في السنوات اللاحقة وتطورت إلى تقييم يأخذ منحىً إيجابياً وسلبياً أحياناً ، إلا أن لورنس رغم ذلك ، اعترف بأن الملكة كانت «ساخطة جداً» من موقفه .

وفي حين كانت مشاعر لورنس مخلصة في هذا الشأن ، فإن موقفه كان غير لائق ، فقد استغل هذا من قبل المعارضين السياسيين ، الذين قاموا بنشر الشائعات خلال الأشهر التي تبعت ذلك ، إلى درجة أنهم أشاعوا بأنه قد رفض تلقي وسام التقدير في اجتماع عام ، وأنه سبب بذلك إرباكاً للملك . «سببت هذه الشائعة للورنس أذى كبيراً ، رغم أنه قام بلفت الانتباه في بعض الأوساط عن شكوكه بالممارسات البريطانية تجاه العرب .

أمضى لورنس عطلة نهاية الأسبوع اللاحقة في عمل مذكرة للجنة الشرقية ، فقد كانت هذه أهم فرصة للتأثير في الحكومة . وقدمت هذه المذكرة في الرابع من تشرين الثاني . وكانت بدايتها تحتوي على ملخص للأحداث التاريخية (كتبت من الذاكرة ولم تكن دقيقة تماماً) ، وقدمت قضية الهاشميين بدعم قوي ، إذ شدد لورنس على الأخطار التي تعرض لها الشريف حسين بسبب ثورته على الأتراك ، والتضحيات التي قدمها العرب خلال الثورة ، وإسهامهم في انتصار اللّنبي . ومن ثم عرضت مذكرته المناطق الرئيسة التي طمح العرب باستقلالها ، كما عرض وجهات نظره بخصوص التسوية بالتفصيل .

تجمعت الأحداث السياسية خلال الأيام الأولى من شهر تشرين الثاني ، إذ ركزت حكومات الحلفاء ومجموعات الضغط المعنية وسعت جميعها لزيادة تأثيرها في مؤتمر السلام القادم . كما كانت توجد بعض التوقعات حول إجراء محادثات حول المسألة السورية قبل عقد موتمر السلام . وفي الثامن من تشرين الثاني بعث لورنس برسالة مستعجلة إلى الشريف حسين مفادها : «اعتقد بأنه ستكون ثمة محادثات في باريس في غضون خمسة عشر يوماً ما بين الحلفاء بشأن القضية العربية . وأرسل لي الجنرال اللّنبي برقية تفيد بأنكم ترغبون في ارسال مندوب إلى هناك . فإذا ما كان الأمر كذلك فإنني

آمل بأن تكلفوا الأمير فيصل بذلك ، إذ أن انتصاراته الرائعة قد منحته سمعة شخصية في أوروبا بحيث سيكون نجاحه أسهل في هذا المجال . وفي حال موافقتكم أرجو ارسال برقية له ليكون على استعداد لمغادرة سوريا في خلال شهر ، وأن تطلبوا من اللَنبي إرسال سفينة لنقله إلى فرنسا .

في غضون ذلك ينبغي عليكم الإبراق إلى حكومات كل من بريطانيا العظمى ، فرنسا ، أمريكيا ، وإيطاليا تبلغوها بأن نجلكم سيتوجه إلى فرنسا في الحال كممثل لكم» .

ظهر في اليوم التالي اعلان إنجلو - فرنسي ، كان قد جرى بحثه في شهر آب ورغم أن هذا البيان قد صيغ في قالب قانوني ، فإن وزارة الخارجية أملت بأن يهدىء هذا من المخاوف العربية بشأن نيات الحلفاء . وجاء في الفقرة الأخيرة منه ما يأتي : «إن الهدف الذي تسعى إليه بريطانيا العظمى وفرنسا في الشرق هو التحرير التام والنهائي للشعوب التي أُضطهدت طويلاً من قبل الأتراك ، وإنشاء حكومات وطنية تستمد سلطتها من الاختيار ، أو الانتخاب الحر للسكان الأصليين .

ولكي يجري إعطاء تأثير لهذه النيات ، فقد وافقت بريطانيا العظمى وفرنسا على تقديم التشجيع والمساعدة لإقامة حكومات وإدارات وطنية في كل من سوريا والعراق ، اللذين حررا مؤخراً من قبل الحلفاء ، وفي المناطق التي سيجري تحريرها فيما بعد . كما أنهما وافقتا على الاعتراف بهذه الحكومات بأسرع وقت ممكن عند قيامها . وبعيداً عن الرغبة في فرض مؤسسات أو هيئات معينة على سكان هذه المناطق ، فإن الهدف الوحيد هو ضمان أن يجري اختيار هذه الحكومات بالطرق الحرة والديمقراطية بمساعدتهم ودعمهم الفعالين .كما أن المهمة التي ستقوم بهما الحكومتان الحليفتان في المناطق المحررة هي ضمان العدل والمساواة والنزاهة للجميع ، لتسهيل التطوير الاقتصادي للبلاد وذلك بتشجيع المشاريع المحلية ، ونشر التعليم ، ووضع نهاية للانقسامات الطويلة جداً التي أستغلت بوساطة السياسة التركية» .

ورغم أن هذا الإعلان سيضيق وجود حكم استعماري مباشر في أعين البريطانيين ، فإن «المهام» المطالب بها من قبل الحلفاء كانت غامضة التعريف والتحديد جداً ، بحيث يمكن استخدامها لتبرير أي من أشكال الاستعمار . فمن وراء الستارة كانت وزارة

الخارجية البريطانية» تطالب بتنفيذ اتفاقية سايكس - بيكو المعقودة مع بريطانيا في عام ١٩١٦ ، مهما استدعى ذلك من ترتيبات إدارية مؤقتة من أجل تحرير الوضع العسكري» .

في الحادي والعشرين من تشرين الثاني حضر لورنس اجتماعاً آخر للجنة الشرقية وكان مؤتمراً للسلام على وشك الانعقاد ، وكل واحد سيحضره كان يفهم الحاجة إلى الوصول إلى قرار ثابت حول السياسة القادمة من دون أي تأخير . وكان هدف لورنس الرئيس في هذه المرحلة هو حصول فيصل ، الذي كان في طريقه إلى اوروبا آنذاك ، على ضمان سماع رأيه في أية مباحثات دولية حول مستقبل الولايات التركية (العثمانية) . وستكون أميركا في وضع مسيطر لإدارة مثل هذه المباحثات . كما أن المثالية العسكرية للرئيس الأميركي ويلسون آنذاك تحمل في طياتها القليل من الجذب لكل من فرنسا وبريطانيا ، إلاّ أنها من الممكن أن تثبت مسار وخط حياة بالنسبة للعرب . وكان لورنس أقنع الأعضاء الرئيسيين في اللجنة الشرقية قبل انعقاد هذا الاجتماع بأنه سيكون من مصلحة بريطانيا حضور فيصل مؤتمر السلام . وأن الشريف حسين هو وحده الذي يمكنه التأكيد للرئيس ويلسون بأن العرب يريدون استمرار بريطانيا في انتدابها على كل من العراق وفلسطين .

في الأول من كانون الأول وصل كل من رئيسي وزراء فرنسا وإيطاليا إلى لندن ، وجرى تكريمهما رسمياً وشعبياً . وعقد لويد جورج ، رئيس وزراء بريطانيا آنذاك ، اجتماعاً مغلقاً مع كليمنصو ، رئيس وزراء فرنسا ، في السفارة الفرنسية . وحسب ما أفاد به سكرتير الحكومة ، فقد سأل كليمنصو لويد جورج عما يمكن بحثه ، فاستغل جورج الفرصة ، وقال «عن فلسطين والعراق» . . فسأل كليمنصو : «أخبرني ماذا تريد؟» فقال لويد جورج : «أريد الموصل» ، فقال كليمنصو : «ستحصل عليها» . وسأله ثانية : «أي شيء آخر؟» فأضاف لويد جورج : «نعم ، أريد القدس أيضاً . فقال كليمنصو : «ستحصل عليها ، بيد أن بيشون سيضع صعوبات بشأن الموصل» .

كان هذا الفصل يُعَد مثالاً نموذجياً للويد جورج ، السياسي الداهية ، الذي كان يعرف ما يريد ويستغل الفرصة عندما يراها مناسبة . فقد قام بهذا العمل على نحو مميز دون إطلاع وزارة الخارجية أو إشعارها بذلك ، كما أنه لم يقدم تقريراً بهذا الخصوص رغم أهمية هذا «الاتفاق الجنتلمان» الشفوي .

والأسوأ من ذلك أنه أحتفظ بالغموض بشأن التنازلات التي قدمها في المقابل . إلا أنه ، في ما بعد ، أصبح معروفاً بأن كليمنصو طلب من لويد جورج بأن لا تعارض بريطانيا بفرض انتداب فرنسي على أنحاء سوريا كافة ، بما فيها المناطق الداخلية المخصصة للإدارة العربية المستقلة . وبقدر ما كان لويد جورج معنياً بذلك ، فإنه لم تكن مصالح بريطانيا مهددة بهذا الطلب ، لذلك فقد كان على استعداد للموافقة عليه .

ولا شك في أنه أعتقد بأنه قد عقد صفقة قيمة ، اذ أن كل ما تمناه منذ زمن طويل هو فرض الانتداب البريطاني على فلسطين . وفي الحقيقة ، فالاتفاق ، رغم ذلك ، كان أكثر مما توقعه كليمنصو . إلا أن خوف فرنسا الأعظم كان من أن تقوم أميركا بإحباط اتفاقية سايكس - بيكو . فإذا ما حدث ذلك ، وقرر مصير الشرق الأوسط على أساس مبدأ تقرير المصير ، فستفقد فرنسا سوريا بالتأكيد ، ومن المحتمل لبنان أيضاً . ومن جهة أخرى ، فإن بريطانيا ، وبتأييد من الشريف ، ستحصل على انتداب في كل من فلسطين والموصل . أما الآن ، وبعد معالجة لويد جورج لمسألتي فلسطين والموصل ، فقد تحقق ما كان يريده رئيس الوزراء الفرنسي تماماً . ففي المقابل حصل على التزام قاطع حطم آمال أولئك العاملين في وزارة الخارجية الذين تمنوا إلغاء اتفاقية سايكس - بيكو برمتها . وكان هذا بالضبط نمط التسوية الثنائية الذي سعى لورنس لتجنبه . فصحيح أنه تحقق ما تمناه البريطانيون في منطقتين ، بيد أن هذا لن ينجز إلا بالتضحية بآمال العرب .

بعد ثلاثة أيام ، وقبل تقديم التنازل الفرنسي على فلسطين والموصل ، الذي لم يكن معروفاً سوى للمقربين من لويد جورج ، حضر لورنس اجتماعاً آخر للجنة الشرقية . وكان يوجد على جدول أعمالها مستقبل السياسة البريطانية في ما يتعلق بسوريا . وأظهر محضر الاجتماع أن أولئك الذين حضروا الاجتماع لم تكن لديهم أية فكرة عن الأمر الذي تقرر ما بين لويد وكليمنصو ، من وراء ظهورهم .

ورغم ذلك فقد أصبح واضحاً بعد انتهاء الاجتماع أن الحكومة البريطانية كانت مستعدة للتضحية بعرب سوريا مقابل لا شيء سوى التعاطف . ومن جهة ثانية فإنها ستكون راغبة في مساعدة الأمير فيصل في إلقاء كلمته في مؤتمر السلام ، وتفاهم ضمني بأنه سيدعم فرض انتداب بريطاني على كل من العراق وفلسطين . فإذا ما استغل هذه

الفرصة للسعي من أجل مساعدة أميركية لإحباط اتفاقية سايكس - بيكو، فسيكون ذلك من شأنه .

ومن هذا المنطلق كان الأمير فيصل حراً في رأيه، وكانت أهدافه خلال المؤتمر مستقلة تماماً عن تلك التي لبريطانيا ورغم ذلك اعتقدت الخارجية البريطانية أنه من المهم إضافة شخص ما إلى حاشيته بحيث يمكنه حثه على دعم المصالح البريطانية ما أمكن . ففي الخامس من كانون الأول، صرح السير أري كراو، وهو من كبار موظفي وزارة الخارجية، بقوله : «لقد أوصيت بقوة بأنه يجب أن يكون الكولونيل لورنس متواجداً في المؤتمر لأغراض تقديم المشورة فيما يتعلق بالقضية العربية التي يعرفها أكثر من أي واحد آخر .

ويبدو أن الكولونيل لورنس كان متلهفاً لأن يكون مع الأمير فيصل، ولدينا كل شيء لتحقيق فائدة من مثل هذا الترتيب . وتكمن المسألة فيما إذا كان يجب أن يكون لورنس في باريس بصفته عضواً في حاشية فيصل (فقد تلقى تعييناً منه بهذا الصدد)، أو أن يكون هناك بصفته مستشاراً في الوفد الفرنسي . ولقد فضلت الترتيب الأخير، ورغم أنه لا يوجد مانع من تحقيق الخيار الأول» . وأبدى اللورد هاردينغ ملاحظته في هذا الشأن بقوله : «يجب أن يكون الكولونيل لورنس في باريس بالتأكيد ليقوم بدور المستشار . فمن المحتمل أنه سيكون قادراً على تقديم المشورة بشكل أكثر فائدةً . وبذلك أضيف اسم لورنس إلى قائمة الوفد البريطاني، «كمستشار في المواضيع الخاصة» .

وبينما كانت هذه المشاورات جارية، كان فيصل في طريقه إلى إنجلترا من فرنسا، حيث كانت رحلته طويلة رسمياً وبشكل متعمد .

وفي السابع من كانون الأول سافر لورنس إلى باريس لاصطحابه إلى إنجلترا ووصلا إلى لندن بعد ثلاثة أيام .

وبعد بضعة أيام اصطحب لورنس الأمير فيصل لمقابلة الملك جورج الخامس كما رتب له مقابلة مع كبار السياسيين . وبعد ذلك ذهبا في جولة رسمية إلى كل من أدنبره وجلاسكو .

وبدأ لورنس، في ذلك الوقت، بدعم قضية فيصل في الصحافة البريطانية . ففي

الخامس عشر من كانون الأول بعث بمقالة حول الشؤون العربية إلى صحيفة التايمز ، وكتب لورنس في الرسالة المرفقة للمقالة ما يأتي : «من المحتمل أن يتواجد فيصل في لندن يوم الخميس ، وسأحاول بعد ذلك أن أرتب لكم شيئاً يكون مفيداً» .

وتابع يقول : «إن الأمر الذي صدمني هو أن العرب دخلوا الحرب معنا من دون إبرام معاهدة ، كما أنهم رفضوا الاستماع إلى الإغراءات المقدمة من القوى الأخرى . ولم يكن لديهم مراسل صحفي ، أو أنهم حاولوا أن يضيعوا قضية لأنفسهم ، وإنما حاربوا بجد وشدة ما أمكنهم (وأنني أقسم على ذلك) ، كما أنهم عانوا من صعوبات في ثلاث حملات عسكرية ، وتكبدوا خسائر كبيرة . وحاربوا وحبال (المشانق) حول أعناقهم (فقد كانت الجائزة التركية للحصول على فيصل حياً عشرين ألف دولار ، وميتاً عشرة آلاف دولار وأنا بالمقدار نفسه ، والشريف ناصر عشرة آلاف دولار ، وعلى الحارث ثمانية آلاف دولار) ، فهل توجد رغبة ، كما اعتقد ، أكثر من رؤية العرب أحراراً . وهل ثمة محنة أكثر من محنة رجل جليل كالشريف حسين الذي قام بثورته ، ومن ثم فهو يُهاجم الآن بعنف من قبل الصحافة في الهند وتركيا ، وعلى أُسس دينية» .

ورغم هذه الجهود التي بذلت ، فإن عام ١٩١٨ لم تكن نهايته سارة بالنسبة للأمير فيصل ، الذي سرعان ما أبلغ رسمياً بأنه «إذا ما أصرت الحكومة الفرنسية على تحقيق حقوقها بموجب اتفاقية سايكس - بيكو ، فإن الحكومة البريطانية لن تكون في موقف يمكنها من رفض ذلك» .

وصل لورنس إلى باريس لحضور مؤتمر السلام في التاسع من كانون الثاني ١٩١٩ . ونزل في فندق كونتننتال ، الذي يبعد خطوات عن فندقي ماجستيك وستوريا حيث كان سينزل فيهما الوفد البريطاني . وكان عليه البقاء في باريس بعد انتهاء المؤتمر ، ليكافح من أجل القضية العربية ، حتى نهاية شهر آيار . وبعد ذلك بوقت طويل وصف هذه الأشهر بأنها كانت من «أسوأ أيام حياته ، كذلك الأمر بالنسبة لفيصل . رغم أنه تعلم منها فنون السياسة برمتها ، وربما أنا كذلك أيضاً» .

كان لورنس منذ عام ١٩١٥ يعيش ويعمل بين أناس كان مستقبل سوريا بالنسبة لهم يمثل مسألة مركزية . وفي باريس ، تركز الانتباه على من ألمانيا والنمسا ، أما تفكيك

الإمبراطورية العثمانية فقد أُعطي أهمية ضئيلة . وبدا أن مصير سوريا لا يحظى بأي اهتمام ، أو أنه مطروح رسمياً على جدول أعمال المؤتمر .

وبينما كان يوجد مجال ضئيل لإجراء مباحثات رسمية ، كانت ثمة العديد من الفرص لإثارة قضية استقلال الدول العربية في اجتماعات خاصة مع الرسميين والصحفيين . لذلك فإن معظم عمل لورنس كان وراء الكواليس .

ففي البداية كان يوجد نشاطاً مكثفاً للورنس مثل ترتيب المقابلات والقيام بدور المترجم للأمير فيصل ، ولكن بعد مضي أسابيع على ذلك استخدم وقت فراغه للبدء في عمل أول مسودة تقييم للثورة العربية . فما بين العاشر من كانون الثاني ومنتصف شهر أيار كتب لورنس الأجزاء من ٢ – ٧ والعاشر من كتابه أعمدة الحكمة السبعة .

وفي حين لم يكن ثمة تقدم كبير تجاه إيجاد حل للمسألة السورية فإنه قدمت عدة مذكرات للمؤتمر من قبل الأطراف المعنية ، وقد وزعت العديد من هذه الأوراق بشكل واسع وجرى بحثه . كما لخصت مواقف كل من بريطانيا ، فرنسا ، أميركا ، والعرب في هذه المذكرات أو الوثائق .

ومهما كانت المشاعر الخاصة للوفد البريطاني ، فقد قررت الحكومة البريطانية البقاء حيادية بالنسبة للنزاع العربي – الفرنسي ورغم أنه كان من المحتمل أن تحصل فرنسا على لبنان ، وإذا ما تولت أميركا الأمر وجرى ترسيخ مستقبل سوريا على أساس مبدأ تقرير المصير ، فإن التوقعات لفرنسا بدت مشكوكاً فيها . وبقيامها بدور المراقب غير المهتم ، فقد رفضت بريطانيا إتخاذ أي دور في سوريا ، أو أن تقر أي تحرك او توقف لفرنسا يمكن معه تخريب قرارات المؤتمر . ومعنى هذا ، من الناحية العلمية ، أن الحكومة البريطانية ترفض نقل السيطرة العسكرية على سوريا لفرنسا ، أو حتى السماح لها بزيادة عدد القوات الفرنسية المتمركزة هناك . وحصر الاشتراك الفرنسي في إدارة سوريا بوجود مستشارين معنيين بموجب التفاهم الإنجلو – فرنسي الذي جرى التوصل إليه قبل الاستيلاء على دمشق . وكان دافعو الضرائب البريطانيين هم الذين يتحملون تكلفة وجود قوات اللّنبي في سوريا . وقد أوضح لويد جورج هذا الأمر في بداية انعقاد المؤتمر ، آملاً بأن يتقرر مستقبل هذه المناطق بأسرع وقت ممكن .

وبالرغم من الموقف البريطاني الرسمي ، فإنه كان ثمة اختلاف واسع بين وجهات النظر بشأن المسألة السورية داخل الوفد البريطاني . فقد أولى أغلب أعضاء الوفد عناية رئيسة بمستقبل أوروبا ، وشعر بأن المصالح الحيوية البريطانية لم تكن متركزة في سوريا ، وان النزاع حول هذا الأمر سيؤذي العلاقات الإنجلو - فرنسية .

أما الخط المتشدد من ممثلي الإمبريالية الإنجلو - هندية مثل السير آرثر هيرتزل ، مسؤول مكتب الهند ، فقد رغب بتحويل العراق الى مستعمرة بريطانية كما أنه اعتقد بأن تقديم تنازلات الى درجة مبدأ تقرير المصير سيكون لاشيء سوى أداة تجميلية ، وأن العرب سيكونون راضين بالتأكيدات المبهمة المتضمنة في الإعلان الإنجلو - فرنسي . كما أن لفرنسا طموحات مشابهة في سوريا ، وبما أن مسألة الموصل قد حلت آنذاك ، فإنه لم يبق سوى اختلاف بسيط في وجهات النظر الإنجلو - فرنسية .

كان الموقف الفرنسي في بداية مؤتمر السلام مفاده أنه لن يكون ثمة تقديم تنازلات فيما يتعلق بالشرق الأوسط وفقاً لما جرى الاتفاق عليه بين كليمنصو ولويد جورج . فعلى العكس كانت فرنسا مضنية بالحصول على الاعتراف بالمبدأ الذي قبل به لويد جورج وهو أن إدارتها الاستعمارية ستنطبق على كل أجزاء سوريا كوحدة واحدة . ولهذا السبب فقد كانت توجد إغراءات تغيير صفة الانتداب ، وفق ترتيبات سايكس - بيكو ، على أرجاء سوريا كافة ، وفي هذه الحالة سيكون من المحتمل إزالة الفرق بين منطقتي الساحل الداخل المشار اليها في اتفاقية سايكس - بيكو من أجل إدارة عربية مستقلة وبدأت الخارجية الفرنسية بالضغط من أجل إجراء هذا التعديل .

كان تصنت الحكومة الفرنسية في ما يتعلق بسوريا يأتي بضغط كبير من قبل الشعور المحلي العام . فجماعات الضغط التي لها مصالح خاصة في لبنان شنت حملة منظمة في الصحافة الفرنسية . ونتيجة لذلك ظهرت عدة مقالات تهاجم بريطانيا ، وفيصلاً ، وحتى لورنس ، وأصبحت المسألة السورية تثير اهتمام الرأي العام الفرنسي .

وهكذا فقد أدت جهود الأمير فيصل على هامش مؤتمر السلام الى تعميق العداء بين بريطانيا وفرنسا . ففي البداية ، بدت التوقعات العربية معقولة جداً ؛ وبمساعدة لورنس أصبح فيصل قادراً على وضع قضيته أمام كبار أعضاء الوفد الأميركي والصحافة

الأمريكية . ولم يكن من الصعب بالنسبة للأمريكيين الشعور بالتعاطف ، فالعرب ، الذين قدموا تضحيات ضخمة لمحاربة مضطهديهم الأتراك أصبحوا الان ضحايا لجشع الاستعمار الفرنسي . وكان الأمير فيصل غالباً ما يرافقه لورنس ، الذي كان يقوم بإعداد أوراق مذكراته ، ومراسلاته ، وبرقياته ، كما كان يقوم بدور المترجم في لقاءاته العامة والخاصة .

وبدا الأمير فيصل أنيقاً وموهوباً ، في حين حامت القصص المدهشة حول لورنس مثل : «فاتح دمشق ذو الثامن والعشرين ربيعاً ، بوجهه الصبياني وابتسامته الدائمة تقريباً - هو الفائز الأعظم ، وهذا ما كان يقوله كل واحد ، في أرجاء المؤتمر» .

وكانت التقييمات الأمريكية للأمير فيصل ولورنس في ذلك الوقت تنصب في قالب رومانطيقي : «كان لورنس يوصف بأنه أعظم شخصية بريطانية ، طالب تاريخ القرون الوسطى بكلية مجدولين ، وقد اعتاد على النوم نهاراً والعمل ليلاً وأخذ قسطاً من الراحة في منتزه عام في الرابعة صباحاً . وكانت استراتيجيته لكسب أصدقاء أمريكيين ناجحة جداً بحيث أن المراقبين الفرنسيين أصبحوا قلقين جداً في هذا الشأن ، واتخذت خطوات لتقديم وجهة نظر فرنسية حول الموضوع للرئيس الأمريكي ويلسون .

والمشكلة الأخرى بالنسبة لفيصل كانت تكمن في التحالف التكتيكي الذي كان يشجعه عليه لورنس لتشكيله مع يهود أمريكيا . فرغم أن هذا قد بدا في البداية بأنه وعد بالحصول على مكاسب عظيمة ، فإنه سرعان ما أصبح عائقاً كبيراً اكثر منه مكسباً . فالحداثة الظاهرة لوجهات نظر الزعيم الصهيوني حاييم وايزمن ، والاجراءات الأولية لتنفيذ وعد بلفور ، وقد ألقت بظلالها على مؤتمر السلام إضافة الى ذلك ، فقد كان ثمة تناقض فاضح بين مبدأ تقرير المصير ، ليطبق على سكان فلسطين العرب ، وبين المطامح الصهيونية . فالعديد من زعماء الصهاينة كانوا يتحدثون علناً عن أمالهم بالاستيلاء على فلسطين وحكمها في سبيل مصالح التجمع اليهودي المنتظر وصوله إليها .

كان اللوبي الصهيوني قوياً في أمريكيا كما هي الحال في بريطانيا ، واستمرت القوى العظمى بتجاهل هذا النزاع من حيث المبدأ ، وعدم تشجيع أولئك الذين يثيرون الانتباه إليه . وارتبك ستيفن بونسال ، أحد المساعدين في الوفد الأمريكي ، عندما أحضر له لورنس مذكرة يعبر فيها فيصل عن قلقه في هذا الشأن . وكان أهم ما جاء في المذكرة ،

حسب مذكرات بونسال ، إنه إذا عُرضت وجهات نظر المتطرفين الصهاينة أمام مؤتمر السلام ، فستكون النتيجة حدوث اهتياج واضطراب كبيرين ، وستحدث هناك في فلسطين حرب أهلية عاجلاً أم آجلاً . لكنني آمل بأن لايساء فهمي . وإنني أؤكد بأن العرب لا يكنون عداءً دينياً أو عرقياً ضد اليهود ، الذين لسوء الحظ سادوا في مناطق عديدة أخرى من العالم . كما أنني أؤكد بأن اليهود الذين يعيشون في فلسطين منذ عدة عصور تجمعنا معهم علاقات ممتازة . غير أن القادمين الجدد من اليهود سيشكلون نوعيات مختلفة جداً عن أولئك الذين يدعون «بالمستوطنين القدماء» ، كما ندعوهم بذلك ، والذين كان بمقدورهم العيش معهم وحتى التعاون معهم بأسس ودية . وبالتعبير بكلمات أفضل ينبغي عليّ القول بأنهم سيأتون بصفة مستعمرين جدد وبروح إمبريالية إلى أرض فلسطين . وهم يدعون أننا نسيطر على وطنهم ، الذي سلبناه منهم منذ زمن طويل ، بالقوة خلال إخلائه ، وإذا ما كنا حكماء فيجب علينا القيام بذلك بسلام من دون إبداء أية مقاومة بما هو متعارف عليه أمام العالم المتحضر» .

وفي العشرين من آذار اتخذت القوى العظمى قراراً على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للقضية العربية . فقد اقترح الرئيس ويلسون بأنه يجب أن تزور لجنة من الحلفاء سوريا لكي تقوم بالإطلاع على رغبات الشعب هناك فهذا القرار الذي كانت وزارة الخارجية البريطانية تأمله منذ وقت طويل ، قد أحل الحكومة من أي وعد أو التزام يسبب لها أرباك حول هذه المسألة ، وستمضي بريطانيا في الحفاظ على موقف محايد تماماً ، لأنه من المؤكد أن اللجنة ستجد أن فرنسا ستكون غير مقبولة لأغلب السوريين كقوة انتداب وعندئذ سيجري التسليم برغبات الأمير فيصل في هذا الصدد .

ولا حاجة للقول ، بأن فرنسا قد استخدمت كل طريقة ممكنة لإعاقة هذه الخطوة . فقد اقترح كليمنصو فوراً بأنه يجب أن تزور اللجنة ، أيضاً ، العراق وفلسطين ، إضافة إلى سوريا . وعندما علم الصهاينة بأن اللجنة ستستشير العرب الفلسطينيين ، فانهم رموا بكل ثقلهم ضدها . إضافة إلى ذلك فقد عارضت وزارة الهند (البريطانية) زيارة اللجنة للطرق . وخلال أيام عُبئت حملة كبيرة من الرأي العام ضد مشروع اللجنة المقترحة .

في السابع من نيسان ، أُحبط تركيز لورنس على مثل هذه الأمور ، عندما وردت إليه

برقية تبلغه بأن والده مريض بشكل خطير بالسل . فغادر إلى إكسفورد على الفور ، إلاّ أنه ما أن وصل إليها حتى وجد أن والده قد توفي . ولم يمض وقت طويل حتى رجع إلى باريس ولكن بعد أسبوع عاد إلى وطنه ثانية ، وعندئذ فقط علم وفد الحجاز بما قد حدث . فقد كتب فيصل في يومياته يقول : «إن أعظم شيء رأيته فيه ، جدير بأن يذكر كواحد من مناقبه الرئيسة ، هو صبر وجلد ، وتعقله ، وحماسته ، وتفضيله المصالح العامة على مصلحته الشخصية . فعندما جاء إليّ لأخذ إذن بالمغادرة سألته عن السبب ، فقال : «يؤسفني القول بأن والدي قد توفي وأريد الذهاب لرؤية والدتي» . فسألته متى توفي والده فأجابني منذ أسبوع - فقد تلقيت برقية تقول بأنه كان مريضاً ، فغادرت على الفور ، ولكن عندما وصلت إلى هناك وجدته قد مات منذ ساعتين . ولم أمكث في إنجلترا إلى حين تشييع الجنازة لأنني أدرك بأنك ستكون هنا لوحدك ، وثمة المزيد من الأعمال يجب أن تنجز . فلم أرد أن أكون بعيداً عنك ، في حال حدوث أمور في غيابي . كما أنني أُخبرك بهذا في حينه لأنني لم أرد إزعاجك لذلك أُبلغك به الآن . وسأعود يوم الجمعة» فتأملوا هذا الإخلاص ، والوفاء ، وهذا التكريس للواجب ، ومثل هذه السيطرة التي يمتلكها المرء على مشاعره الشخصية! فهذه هي الصفات الأسمى للإنسان ، التي لا تتوفر سوى لدى فئة ضئيلة من الأشخاص» .

في أواخر شهر نيسان غادر الأمير فيصل إلى دمشق للتحضير لوصول اللجنة اليها ، ولم يكن ثمة شيء كبير ليعيق لورنس من كتابة تقييمه للثورة . وما أن بدأ العمل بذلك حتى أدرك أنه كان بحاجة الى زيارة المكتب العربي في القاهرة لكي يدقق رواياته مع الرسائل والملاحظات المحفوظة في ملفاته .

سلاح الجو الملكي البريطاني كان على وشك إرسال خمسين طائرة قاذفة من طراز هاندلي - بيج من فرنسا إلى مصر ، فقد رتب السفر معها ، وفي منتصف شهر أيار انضم إلى رحلة الى أول سرب من الطائرات يقلع إلى هناك . وأبلغ لورنس زملاءه في الوفد البريطاني بأنه ذاهب إلى القاهرة لإعادة اشيائه من هناك ، وانه سيعود خلال أسبوع .

في الثامن عشر من أيار أبرقت السفارة البريطانية في روما إلى وزارة الخارجية بأن «إحدى طائرتي هاندلي - بيج كان على متنها العقيد لورنس وصلت الليلة الماضية الى

مطار روما ليلاً . فاصطدمت الطائرة التي كان على متنها بشجرة وتحطمت . إلاّ أن العقيد لورنس قد نجا من الحادث ببعض الرضوض . بيد أن ملاح الطائرة قد قتل في الحادث . أما الطيار الثاني فقد توفي في المستشفى نتيجة كسور بالجمجمة . كما نجا اثنان من الميكانيكيين . وسيبقى لورنس في المستشفى لمدة أربعة أو خمسة أيام ومن ثم سيمكث هنا الى أن تنتهي فترة نقاهته . أما الطائرة الثانية فإنها هبطت بسلام» .

كانت جروح لورنس طفيفة ، فعند فحصه الطبيب تبين أنه أُصيب ببعض الرضوض في كتفه وبعض عضلاته . وبعد أربعة أيام من الحادث بعث السفير البريطاني في روما بتقرير مفاده : «إنه (لورانس) موجود حالياً في المستشفى العسكري ، بيد أنني آمل بنقله إلى السفارة في غضون بضعة أيام فمن وجهة النظر الطبية أنه سيشفى بعد نحو ثلاثة أسابيع . ورغم ذلك فانه يلح على مواصلة مهمته في وقت أبكر من ذلك إذا أمكن» .

وفي التاسع والعشرين من أيار أصبح لورنس في حال جيدة تماماً تمكنه من مغادرة روما على متن إحدى طائرات هاندلي - بيج . ورغم أن يده اليسرى كانت في الجبس ، فإنه كان قادراً على الكتابة ، فأمضى وقته في كتابة مسودة مقدمة كتاب أعمدة الحكمة السبعة . وفي تورنتو كان ثمة تأخير على الطائرات بسبب أعمال الصيانة . وبعد ذلك طار السرب بسلام ، وهبط في أثينا لمدة أسبوع . ومن ثم وصل إلى جزيرة كريت في بداية شهر حزيران ، إذ قرر قطع رحلته لزيارة أثار كنوسوس ، ثم سافر الى مصر على متن إحدى طائرات الأسراب اللاصقة .

في منتصف شهر حزيران علمت وزارة الخارجية البريطانية بأن لورنس كان ينتظر ، في خليج سودا بجزيرة كريت ، قدوم طائرة تحمل دبلوماسياً من لندن إلى مصر . وتبين أنه كان جون فيلبي ، الذي كان ذاهباً في مهمة مستعجلة للتوسط من أجل إنهاء النزاع الحدودي المستمر بين الملك حسين وابن سعود . فأنضم إليه لورنس للذهاب إلى لندن .

كان نزاع الشريف حسين مع ابن سعود ناشباً منذ أشهر ، مع تكرار الغارات الحدودية من الجانبين . وفي أواخر شهر أيار هوجم جيش الشريف بينما كان أفراده نياماً في الخيام . لذلك فقد كانت الحكومة البريطانية مربكة في هذا الصدد ، إذ أن الشريف حسين كان يُعّد شخصية رئيسة في السياسة الشرق أوسطية ، في حين كان ابن سعود

محسوباً على حكومة الهند . لذلك فقد تقرر وجوب حث الطرفين على قبول التحكيم .

وأصبح لورنس نفسه منخرطاً في هذا الأمر ، ففي الخامس من حزيران أبرق وزير الخارجية البريطاني إلى اللّنبي (الذي كان قد أصبح آنذاك المندوب السامي البريطاني في مصر) يقول : «نظراً للأهمية القصوى لتحديد مدى التهديد الوهابي للأماكن المقدسة وصعوبة تقديم دعم ملائم للملك حسين ، فإنني اقترح بأنه يجب أن تقدم له كل مساعدة لتنظيم قواته على أفضل وجه . وان الكولونيل لورنس بخبرته التي لا تقارن في إدارة العمليات العربية ، سيكون في رأيي عنصراً قيماً في الحجاز ، لذلك أوصي بوجوب أن يسافر لورانس إلى جدة خلال أسبوعين للمساعدة في عمليات الشريف حسين» . وقد وافق اللّنبي على هذا الاقتراح ، بيد أنه لم يكن قادراً على عمل أي شيء إلى أن يصل لورنس . وفيما بعد ، جرى الايحاء في لندن بأنه يجب أن يقوم لورنس بدور الوسيط ، لكن بما أنه لم يكن قد وصل إلى القاهره بعد ، فقد أرسل فيلبي بدلاً منه .

وبحلول الثامن والعشرين من حزيران كان لورنس وفيلبي متواجدين في القاهرة ، حيث نزلا في دار المندوب السامي . وكما خُطط أصلاً ، فقد ظل لورنس في مصر لبضعة أيام قضى معظمها في البحث بين ملفات المكتب العربي .

لقد حدثت في أثناء غيابه تطورات مهمة أثرت في المسألة السورية . فقد رفضت فرنسا الاشتراك في لجنة الحلفاء ما لم تستبدل القوات الإنجليزية المتواجدة في سوريا بقوات فرنسية . فوضعت هذه الخطوة لويد جورج في وضع مربك ، فقرر إنه إذا لم يذهب مندوبون فرنسيون في اللجنة ، فانه لن يذهب مندوبون بريطانيون أيضاً . ونتيجة لذلك فإن اللجنة تكونت من مندوبين أمريكيين هما الدكتور كينج وكرين . ورافقتهما مجموعة صغيرة من المستشارين وأمضت اللجنة مدة أسبوعين في فلسطين قبل وصولها إلى دمشق في الخامس والعشرين من حزيران في زيارة استغرقت عشرة أيام .

ورغم ذلك فقد كانت نتائجها حينذاك ذات اهتمام أكاديمي تماماً إذ أدرك معظم المراقبين بأن ثمة احتمال ضئيل بأن تقبل أميركا أية انتدابات في الشرق الأوسط . فالسوريون كانوا لا يزالون يطالبون بصخب بالانتداب البريطاني ، غير أن لويد جورج كان مقيداً باتفاق الجنتلمان الذي عقده مع كليمنصو ، رئيس وزراء فرنسا . وقرر تبرير موقفه

بإظهار أن الحكومة البريطانية لن توافق بفرض الانتداب على سوريا في أية حال من الأحوال . لذلك فالاحتمال الوحيد المتاح هو توجه سوريا صوب فرنسا .

عندما عاد إلى باريس وجد لورنس أنه لا يوجد أي شيء يقوم به ، فذهب إلى إكسفورد - وفي العاشر من حزيران انتخب في عضوية أبحاث التابعة لكلية أوول سولز . وتركزت أبحاثه على عملي الآثار والأعراق ، وعلى تاريخ الشرق الأدنى القديم والحديث . وكان يتلقى مكافأة سنوية مقدارها مائتا جنيه استرليني ، وهو دخل مريح لشخص عازب . وكان عليه الاستمرار سبع سنوات ليتسنى له الحصول على حيز (كرسي دائم) في الكلية .

ومع بداية شهر أيلول لم يكن ثمة أي توقع بصدور قرار أميركي يتعلق بقبول الانتداب ، كما أن الرئيس ويلسون أصبح معتل الصحة ، ومنشغلاً في المصاعب السياسية المحلية . كما أن لويد جورج لم يكن راغباً في تمويل قوات اللّنبي في سوريا إلى مالانهاية ، مدركاً بأن البلاد ستذهب إلى فرنسا بالتأكيد . لذلك فقد أعلن بأنه سيسافر إلى فرنسا عما قريب لمحاولة تسوية المسألة السورية . وبناء على أقتراح الوفد البريطاني طلب الأمير فيصل العودة إلى أوروبا على جناح السرعة ، ورغم أنه لم يكن بوسعه الوصول إلى هناك في الوقت المحدد لإجراء مباحثات .

ولم يُستدع لورنس للاشتراك في المباحثات ، وعندما علم بالاجتماع المقبل بين لويد جورج وكليمنصو خشي من أن فرنسا ستحصل في النهاية على اتفاق ثنائي مع بريطانيا كانت تسعى إليه منذ ما قبل انعقاد مؤتمر السلام . وتحت مظهر الانتداب وغطائه فإن حكمها الاستعماري سيمتد ليشمل أرجاء سوريا كافة .

فمهما كانت شوائب اتفاقية سايكس - بيكو وعيوبها ، فإنه كان أفضل من هذا الأمر . وفي الثامن من أيلول كتب لورنس مقالاً إلى رئيس تحرير صحيفة التايمز ، يحثه فيها على أن الوضع يجب أن يحل من خلال إعادة النظر في الإتفاقية الإنجلو - فرنسية ، وأن العرب أنفسهم يجب أن يشتركوا في هذه العملية . إلاّ أن لورنس أخفق في تأجيل أي نشاط مهم يتعلق بسوريا إلى أن يصل الأمير إلى أوروبا . ففي الثالث عشر من أيلول أبلغ لويد جورج كليمنصو بأنه في ظل غياب قرار من مؤتمر السلام في ما يتعلق بالانتداب ، فإن بريطانيا ستسحب قواتها من سوريا عما قريب . وظهرت مذكرة حول هذا

الموضوع في ذلك مفادها أنه قد أُتخذت خطوات فورية للتحضير لإخلاء الجيش البريطاني من سوريا ولبنان وأرسلت مذكرة . في هذا الشأن إلى الحكومة الفرنسية والأمير فيصل حول النية ببدء جلاء القوات الفرنسية عن سوريا ولبنان في الأول من تشرين الثاني ١٩١٩ .

وجاء في المذكرة أيضاً : «تقريراً إلى من ستحول إليه المسؤولية في المناطق المنسحب منها ، فإن ذلك يتوقف على موقفي الحكومتين البريطانية والفرنسية ، ولن يقتصر عليهما فقط ، وإنما على ما يجري الاتفاق عليه بينهما وبين العرب .

ومواصلة لهذه السياسة فإن الحاميات العسكرية البريطانية المتواجدة في غرب سوريا بموجب خط سايكس - بيكو والحاميات المتواجدة في كل من دمشق ، حمص ، حماة ، وحلب فإنه ستحل محلها قوات عربية .

وبعد إتمام انسحاب القوات البريطانية ، فانه لن يكون للحكومة البريطانية ولا للقائد العام البريطاني أية مسؤولية داخل المناطق التي انسحب منها القوات» .

الفصل الثامن عشر

تسوية مشرفة

أيلول ١٩١٩ - آب ١٩٢٢

بالرغم من احتجاجات فيصل والحاحه فإن بريطانيا لم تتمكن من الاستمرار في تحمل مسؤولية الشؤون السورية . وعندما وصل إلى لندن شرح له بأن سبيله الوحيد هو الوصول إلى إجراء تسوية أفضل مع فرنسا إذا أمكنه .

أما لورنس ، الذي وجد نفسه غير قادر على مساعدة العرب بأية طريقة ، فقد تأثر بعمق بعزلته السياسية المفاجئة . وفي باريس تأثر المراقبون بشخصيته ، وذكائه ، وطاقته . وبحلول الخريف وصل الزخم إلى نهايته ، فقد أصبح يعيش في إكسفورد ، مقسماً وقته بين كلية أوول سولز وبيته الواقع في شارع بولستد . واستذكرت والدته في ما بعد كيف أنه «أحياناً كان يجلس من وقت الإفطار إلى الغداء في الموضع نفسه ، من دون تحرك ، والتعبير نفسه منطبع على وجهه» .

ولا بد أن كآبته قد ازدادت عند معرفته في ما بعد بشأن هوية والده . فحتى وفاة والده لم يبحث مطلقاً في هوية والده الحقيقية مع أي من والديه . ورغم ذلك ، فقد استمع الآن إلى رواية والدته عن تاريخ العائلة . ويبدو من المحتمل أنه منذ طفولته قد شك في ما إذا كان السيد لورنس هو والده الطبيعي . فإذا ما كان الأمر كذلك ، فلا بد أنه قد أدرك بشعور مختلط بأن الرجل الذي عرفه باسم السيد لورنس قد كان هو السير ثوماس شابمان ، وارث العقارات الكبيرة في إيرلندا . فشابمان قد هجر زوجته وأطفاله ، ووضعه الاجتماعي وثروته لكي يقضي بقية حياته مع المرأة التي أحبها .

وتعكس رسالة كتبها لورنس بعد بضع سنوات ، من دون شك ، الأمور التي أخبرته بها والدته في حينه ، إذ قال : «كان والدي على مقدار كبير من التسامح ، والخبرة ، والتهور ، والمهابة ، والدعابة ، والمهارة بالتحدث ، وهو مشابه للوردات ، ورياضياً ، راكب خيل جيد ، وشارب خمرة . . . وكان على والدي أن يمكث مع والدتي ، في ما بعد ، وأن

يتخلى عن حياته السابقة ، وجميع أصدقائه . وبذلت هي بدورها أقصى جهدها لتكون برفقته دائماً؟ وكانت الأمور الاجتماعية تعني الكثير بالنسبة لوالدي ،غير أنهما لم يلبيا أية دعوة مطلقاً ، أو يقومان معاً بزيارات . فقد اعتقدا دائماً أنهما كانا يعيشان في إثم ، واننا سنكتشف ذلك في يوم من الأيام . في حين أنني قد عرفت هذا عندما أصبحت في العاشرة من عمري ، ولم يبلغاني بذلك أبداً : بعد وفاة والدي تحدثت مع والدتي بشيء مما أشعر به واعلم به . وعندما جرى جمع جميع المعلومات والإشارات كافة بشأن عدم شرعية لورنس من خلال رسائله ، فإنها لم تدع مجالاً للشك في أنه كان على علم بوضعه الاجتماعي .

ومن دواعي السخرية أنه بينما كان يحاول التغلب على الفشل في باريس ، كان معجبوه في لندن ينظرون إليه نظرة رومانطقية ،خاصة خلال تجربته إبان الحرب ، ففي هذه اللحظة قيل لهم ، «إنه يوجد في مكان ما في لندن ، مختبئاً من معجبيه من الجنس اللطيف ، ومن الصحفيين ، والناشرين ، ومن هواة جمع التواقيع ، ومن كل شيء يجعله بطلاً محبوباً . هو ذلك الشاب ، الذي سيدخل اسمه التاريخ إلى جانب السير فرانسيس دراك ، والسير والتر رالف ، واللورد كليف ، وشارلز جوردون ، وغيرهم من أبطال بريطانيا العظمى المشهورين السابقين . فهذا الشاب يطير من جهة إلى أخرى في لندن ، ويرتدي ملابس المفتي ، ويضع على رأسه قبعة حجمها ثلاثة أضعاف ترتخي على عينيه ، محاولاً الفرار من الجنس اللطيف . إن اسمه هو ثوماس إدوارد لورنس» .

«كان الألمان والأتراك متأثرين جداً بانجازات لورنس في الجزيرة العربية ، بحيث أنهم عبروا عن أعجابهم وتقديرهم له بتقديم جائزة مقدارها أكثر من مائة ألف جنيه استرليني لقاء رأسه - حياً أو ميتاً . غير أن أولاد أسماعيل الشرسين قد قدروا مساعدته وإخلاصه في القضاء على مضطهديهم . لذلك فانهم لم يكونوا على استعداد لخيانته والإيقاع به لقاء كل كنوز الملك سليمان . .

«ومن خلال الملاحظة الشخصية ، وأيضاً من خلال شهادات الضباط البريطانيين المغامرين والجريئين الذين رافقوه ، فقد وجدت أن لورنس قد أنجز المزيد من الاتحاد واللحمة بين أبناء الجزيرة العربية . . .

لقد كان نجاحه العظيم عائداً إلى معاملته ومعالجته العبقرية للرجال ، وخبرته

المتميزة ، مما جعل الأمر ممكناً بالنسبة له لأن يحول نفسه إلى عربي» .

كان المتحدث هو لويل ثوماس ، الصحفي الأميركي الذي زار العقبة في شهر آذار ١٩١٨ ، باحثاً عن مواضيع محاضرات يمكن أن تساعد في تشجيع أبناء بلده على دعم الجهود الحربي . بيد أن مشروعه لم ينجز غرضه الأصلي ، إذ إنه رجع إلى إميركا بعد وقت طويل من الهدنة . فحينذاك كان ثمة اهتمام ضئيل بالجبهات الأوروبية . ومنح مجالاً لإلقاء محاضراته التوضيحية في نيويورك ، إلا أنه وجد أن الاشخاص الوحيدين الذين كانوا مشهورين فقط هما اللّنبي في فلسطين ، ولورنس في الجزيرة العربية .

وبالصدفة شاهد هذه المحاضرات ، المنتج السينمائي الإنجليزي بيرسي بيرتون ، الذي أدرك بدوره بأنه يمكن أن تكون ثمة شعبية بريطانية لروايات رومنطقية للحملات والمعارك التي جرت في فلسطين والجزيرة العربية . فلبى بذلك متطلبات ثوماس ، وبذلك افتتح أول عرض لمحاضرات مصورة في دار الأوبرا الملكية في الرابع عشر من آب .

ونجحت امال بيرتون وتوقعاته ، فقد كتبت صحيفة الديلي تلغراف ما يأتي : «ثوماس لورنس ، عالم الآثار ، الذي ذهب إلى الجزيرة العربية ، ولم يُساعد عملياً ، أوجد لأول مرة في التاريخ جيشاً عربياً عظيماً ومتجانساً . فعلينا أن نفكر من الذي قام بمهامهم في تلك السنوات الخمس النشطة من الحرب . وحتى مع واقع أن الاتراك ، وبتحريض من أسيادهم الألمان قد خصصوا جائزة مقدارها (٥٠) ألف دولار لقاء رأس هذا الإنجليزي ، الذي (ايقظ الجزيرة العربية من سباتها العميق) ، والذي قد نسي أمره تقريباً . أما الآن ، فشكراً للسيد لويل ثوماس وصوره المتحركة . فثوماس لورنس أظهر بالتأكيد بأنه واحد من النخبة . وفي رأي المحاضر الأميركي الشاب ، فإن إسم ثوماس لورنس سيمضي قدماً ليوضع إلى جانب أسماء الرجال القلائل الذين هيمنوا على التاريخ»

أما لورنس ، الذي لم يلعب أي دور كان في هذه الحملة الدعائية في لندن ، فقد كان مضطرباً جراء ذلك . إلا أن هذه المحاضرات قد أثارت انتباه الأوساط كافة لعدة شهور ، ورغم أن أسلوبها كان غير مستساغ وكثير من محتواها سخيف . فخلال جولته في فلسطين ، أُطلع لويل ثوماس على نسخ من النشرة العربية ، كما أنه أطلع على تقارير تفاصيل الغارات التي كان يقوم بها لورنس . وفي سلسلة من المقالات التي نشرت في

ذلك الخريف في مجلة آسيا الأميركية ادعى ثوماس بأنه كان يرافق لورنس في حملاته التي كان يقوم بها ضمن الخط الحديدي الحجازي ، مضيفاً إلى ذلك تفاصيل مثيرة ، ودعى لورنس هذا «بالكذب الصريح» ، وحث ثوماس على شطب معظم اختراعاته (تلفيقاته) قبل نشر هذه المقالات في إنجلترا . وفي مقابل ذلك ، أبلغ ثوماس بعض الشيء عن خلفيته ، بما فيها رواية تاريخ أسرة والده الذي يعود إليها شيئاً من الحقيقة التي اكتشفها مؤخراً . وبحجة هذه المعلومات وقوتها فقد ادعى ثوماس في ما بعد أن لورانس ساعده في كتابة هذه المقالات .

ومع ازدياد شهرة لورانس أرادت بعض الشخصيات ربط نفسها بأسطورته ، حتى أولئك الذين خذلوه من قبل . فقد قدمت المقالات التي كان يكتبها ثوماس في مجلة ستراند بتعليق من لويد جورج مفاده : «إن كل شيء يقوله السيد لويل ثوماس بشأن الكولونيل لورنس هو صحيح . ففي رأيي أن الكولونيل لورنس يُعدّ واحداً من أعظم الشخصيات الرومنطقية في العصر الحديث» .

يمكن أن نقيم رد فعل لورنس الحقيقية في هذا الخصوص من خلال رسالة أرسلها حينذاك يقول فيها : «إنني أدرك بألم عما يقوم به السيد لويل ثوماس ، فقد قدم إلى مصر على حساب الحكومة الأميركية ، وأمضى أسبوعين في الجزيرة العربية (ورأيته مرتين حينذاك) ، وهناك أدرك مدى قيمتي «كنجم» لفيلمه . وعلى أية حال ، فمنذ أن بدأ محاضراته في أميركا ولندن ، وكتب سلسلة من ست مقالات عني ، لحساب ناشرين أميركيين وإنجليز . أصبحت حياتي صعبة جداً ، إذ إنه لا يوجد لدي المال الكافي ولا الرغبة في الحفاظ على استمرار شخصيتي كمشعوذ التي صنعها لي» .

إن لديه مجموعة كبيرة من المعلومات الصحيحة ، مليئة بالقصص المروية عن الضباط ، أو من نسج الخيال . . وقد طلب مني أن أُصحح براهينه ، بيد أنني قررت بأن هذا كان مستحيلاً ، إذ لم يكن بوسعي تمرير واحدة من عشر منها ، وكان يجعل معيشته خارجة عنها . ومن ثم سألني عن وجهة نظري تجاه البيانات الكاذبة ، فقلت له بأنني لن أؤكد أو أكذب أي شيء علناً . بدت الأحاديث بالنسبة لي كونها أحاديث صحافية واضحة لا تؤخذ على محمل الجد . . وكنت أجلس هادئاً حينما كان يدعونني

بالايرلندي ، أو أمير مكة ، أو غيرها من الألقاب ، وبدا من الصعب البدء بوضع الأمور في نصابها الصحيح» . ورغم ذلك فقد أقر لورنس أيضاً بتأثير معين له مع ثوماس ، إذ يقول : «لم أعره أي اهتمام . . ولكن بوسعي أن أقلب الدنيا على رأسه إذا ما أزعجني ، لذلك فقد كان مؤدباً معي وفي الحقيقة فقد كان شخصاً مؤدباً - غير أنه صحفي أميركي ، مططن» .

انتشرت سمعة لورنس بين الأوساط الحكومية في نهاية الحرب بحيث أمكنه بسهولة الحصول على شهرة شخصية في هذا الخصوص ، كما أراد ذلك . إلاّ أنه نادراً ما كان يجري مقابلات صحفية ، باستثناء ما يتعلق بالمسائل العربية ، وغالباً ما كان يقدم مواداً صحفية شريطة عدم ذكر اسمه . وقد أجرى معه أحد الصحفيين مقابلة في شهر كانون الأول ١٩١٨ ، وبعد عودته إلى إنجلترا بوقت قصير ، فكتب يقول : «إن الكولونيل لورنس ، مثله مثل معظم الرجال الذين «فعلوا أشياءً» ، وإنه رجل ذو سلوك ساحر متواضع ، ويجعل مدى تواضعه الكبير وعدم رغبته في التحدث عن نفسه مهمة الذين يجرون اللقاء معه صعبة بعض الشيء . وتدعو ملاحظاته الأولى ، في الحقيقة ، إلى ضرورة إبعاد القصص والأحداث التي تتعلق به والتي ظهرت في الصحف ، على أساس أنه لا يريد تسليط الأضواء عليه ، فهو يقول : «إن القصص التي تروى عني أغلبها غير صحيح . وهي ليست عادلة تماماً ، إذ إنني لم أكن كبير الضباط هناك . فقد كان ثمة أربعة أو خمسة عقداء أقدم مني في الخدمة ، وفي الحقيقة هم ظلوا هناك وجئت أنا إلى الوطن مما أفسد ذلك توقعات رؤسائي ، الذين بقوا في الشرق» . وعلى نحو مناقض ، فإن شهرته بالتكتم والتحفظ الشخصي قد زادت آنذاك من شعبيته .

لقد ذهب أكثر من مليون شخص ، بما فيهم أفراد العائلة المالكة وكبار السياسيين ، إلى محاضرة لويل ثوماس المصورة في لندن . ومن أجل زيادة الحجوزات ، فقد انتقل العرض من دار الأوبرا الملكية إلى قاعة ألبرت ، ومن ثم إلى قاعة فيلها رمونيك ، وأخيراً إلى قاعة الملكة . وقد أطلق ثوماس في البداية على المحاضرة عنوان «مع اللّنبي في فلسطين ، بما فيه الاستيلاء على المناطق المقدسة وتحريرها» . ومن ثم ، وبعد أن أصبح إسم لورنس مشهوراً ، أصبح العنوان «مع اللّنبي في فلسطين ولورنس في الجزيرة

العربية» . ولا بد أن النجاح الضخم للمحاضرة قد عزي إلى مهارة ثوماس في الأداء ، وإلى جودة السلايدات والصور المتحركة المعروضة . غير أنه كانت ثمة رومانسية أيضاً في ما يتعلق بالحرب في فلسطين والجزيرة العربية ، والتي قدمت للمشاهدين اراحة مرحب بها من الأهوال التي حدثت على الجبهة الغربية . وأُطلق على الحملات العسكرية في فلسطين لقب «آخر الحروب الصليبية» ، ومن هذا المنطلق الديني تقريباً كان لورنس قد وجد نفسه حينذاك عبارة عن بطل قومي . وبعد إلقاء محاضراته لأكثر من أربعة أشهر ، قام ثوماس بجولة في المقاطعات البريطانية لهذا الغرض ، ومن ثم في ما بعد في أجزاء الإمبراطورية البريطانية . وخلال السنوات اللاحقة ، فإن أكثر من أربعة ملايين قد حضروا محاضراته الملحمية عن مغامرات لورنس في الجزيرة العربية .

وكانت من إحدى نتائج هذه الشهرة المفاجئة أن بدأ لورنس يتلقى أعداداً كبيرة من رسائل توسل ، بعضها من معجبين ذكور ، وبعضها الاخر من نساء رغبن في الزواج منه ، وبعضها من أشخاص كانوا يأملون بأن يجد عملاً لهم ، وبعضها الآخر من معتوهين . ووجهت له دعوات لحضور العروض الاجتماعية ، ودعوات من الجامعات البريطانية ومن جامعات ما وراء البحار لإلقاء محاضرات .

وعلى نحو مفهوم ، فإنه لم يرد كل ذلك ، وقد أجاب على بعض من هذه الرسائل فقط . ورفضت كل الدعوات تقريباً . فلم يكن يريد الشهرة ، كما أنه أصبح يتجنب الصحافة بتعمد . وقدم اللورد نورث كليف مبلغاً ضخماً لبيرسي بورتون مقابل أن يؤمن له مقابلة شخصية مع لورنس لتنشر في صحيفة التايمز . فرفض لورنس ذلك ، وكتب معلقاً على ذلك يقول : «أخشى إلاّ أستطيع القيام بذلك ، فلم أهتم أبداً بما يقوله الناس عني ، بل إنني لم أساعدهم على القيام بذلك ، وإنني لن أفعله بنفسي ، وإنه لن يسرني رؤية المرء في الصحافة – بالرغم من الطريقة الجميلة التي يقوم بها لويل ثوماس في هذا المجال . وإنني أرغب بأن يدعني خارجاً عن عرضه بشأن فلسطين . فأنا متأسف جداً على ظهوري بمظهر البليد جداً» .

إن الصداقات التي سعى إليها لورنس في العالم خلال تلك الفترة كانت في مجالي الفن والأدب . وبما أنه كان راغباً في تحسين مؤلفه أعمدة الحكمة السبعة ، فقد أمضى

الكثير من وقته في قراءة الأعمال المعاصرة للكتاب والمؤلفين ، محاولاً تحليل أساليبهم الكتابية . فبعد مأدبة غداء جرت في كلية أوول سولز في شهر تشرين الثاني ، قابل لورنس الشاعر روبرت غريفز ، الذي أصبح عضواً في كلية سانت جون فقد كان يهتم كثيراً بشعره وتعليقاته القيمة بالنسبة له . وكتب غريفز في ما بعد يقول بأن لورنس كان الشخص الوحيد لعدة سنوات الذي تمكن من القيام بالنقد العملي لشعره . فقد كان حاذقاً في اكتشاف الأخطاء ، ورغم ذلك ، «فإنني لم أتبن دائماً تعديلاته ، وكنت نادراً ما أوافقه على نقطة خطأ وردت في شعري» . وخلال صداقته هذه مع غريفز عرّفه على روبرت بريدج ، أدموند بلوندين ، وربرت نيكولس ، وغيرهم من الشعراء . سعى بالطريقة نفسها إلى التعرف على الكتاب والرسامين .

وبنهاية تلك السنة تقريباً . انهي لورنس مسودة كتابه أعمدة الحكمة السبعة تقريباً . وبقيت فقط الفصول التي تغطي فصلي الربيع وصيف عام ١٩١٨ . وقام بإرسال مخطوط الكتاب إلى ألن داوناي ، الذي كان يدرس في كلية ساندهرست آنذاك ، من أجل تصحيحه . وفي إحدى الأيام من شهر تشرين الثاني ذهب إلى كامبرلي لبحث انتقادات (تصحيحات) داوناي معه . وكان عليه بعد ذلك العودة بالمسودة إلى إكسفورد . وبما أنه لم يكن لديه شيء ليحمله ار به ، فقد أعاره داوناي حقيبة رسمية لهذا الغرض . وكان على لورنس في مقاطعة ريدنغ تغيير القطار ، فبقي ينتظر في كفتيريا . إلاّ أنه ، بينما كان خارجاً ليلتقط قطار إكسفورد ، نسي الحقيبة . وعند وصوله إلى إكسفورد هاتف محطة ريدنغ ، غير أنه لم تكن توجد أية إشارة لحقيبة مفقودة أو لمحتوياتها . فقد أخذت من قبل لص ولم تسترد أبداً . لقد كان فقدان الحقيبة خطراً ، لأنها احتوت على كل أجزاء الكتاب الأحد عشر ما عدا ثلاثة أجزاء ، وعلى الصور والملاحظات المتعلقة بالفصول الأخيرة . فهذه ستكون ضربة أليمة في أية حال من الأحوال ، بل أن لورنس أصبح كئيباً . فعندما هاتف داوناي ذلك المساء كان مهتاجاً .

وخلال أيام من حدوث ذلك قال هوغارت (وكان واحداً من ثلاثة رجال قاموا بقراءة النص المفقود للكتاب) بأنه يجب على لورنس أن يعيد كتابة «أعمدة الحكمة السبعة» . وذلك فقد بدأ لورنس في الثاني من كانون الأول بإعادة كتابة مذكراته . ولم يقم بهذا

العمل في كلية أوول سولز ، حيث كان يوجد الكثير العقبات ، وإنما في غرفة تقع في الطابق العلوي من شارع بارتون ، في وستمنستر وكان هذا المنزل ، الذي يقع في شارع هادئاً بالقرب من مبنى البرلمان البريطاني ، من أملاك مدرسة وستمنستر ، إلا أنها أجرت كمكاتب للسير هيربرت بيكر ، الذي كان واحداً من كبار المهندسين في تلك الأيام . فقد قابل بيكر لورنس في إكسفورد ، وقال له إنه ليس بحاجة إلى الطابق العلوي الواقع في منزله بشارع بارتون ، وعرض عليه بأن يكون ذلك كقاعدة له في لندن .

كتب لورنس خلال الشهرين الأولين من عام ١٩٢٠ نسخة جديدة من كتاب أعمدة الحكمة السبعة . وقد أشار فيما بعد إلى أنه أعاد كتابة (٩٥٪) من النص في غضون ثلاثين يوماً . وكان أكبر مساعد له في هذه المهمة هو النشرة العربية التي كان يصدرها ، والتي احتوت على العديد من أفضل تقاريره خلال فترة الحرب . وبوساطة دمجه كل شيء تقريباً كتبه في النشرة يتعلق بكتاب أعمدة الحكمة ، فقد كان قادراً على كتابة قسم كبير من النص بسهولة تماماً .

إذ أن التقارير فيها كانت مفصلة ، ووفرت أسس أوصاف وتفاصيل الحملات والغارات والرحلات التي قام بها تقريباً كافة . كما أنه كان قادراً على استخدام الملاحظات القليلة التي احتفظ بها وكانت موجودة لديه ، وبعضها كان أصلياً ، والآخر نُسخ أو صور في عام ١٩١٩ من ملفات المكتب العربي في القاهرة . ورغم ذلك ، فإن النسخة الجديدة من «أعمدة الحكمة السبعة» اختلفت قليلاً عن النسخة التي فقدت . ومن أجل اغنائها بالمعلومات ، فقد استخدم فيها أسلوب الوصف الوافر ، حيث يقول في هذا الصدد : «إن الإحساس بطبيعة البلاد وجوها ومناخها وتضاريسها الطبيعية قد أسرني وشدني بحيث أنني وضعت الكثير من ذلك في روايتي ، على أمل أن أجعلها تبدو حية» .

كانت حياة لورنس في الشقة التي عاش بها في شارع بارتون متقشفة على نحو متعمد ؛ إذ اعتقد بأن قوته الإبداعية ستكون مكثفة مع الجوع وعدم النوم ، كما أنه فضل النوم ليلاً ، مرتدياً ملابس طيار لتقيه من البرد .

لأن الغرفة في الطابق العلوي التي يعيش فيها كانت تحتوي على أثاث قليل ، ولم يكن ثمة مطبخ مرفق بها ، لذلك فقد عاش على «الساندويشات» التي كان يشتريها من محال المرطبات الموجودة في المحطات القريبة ، كما أنه كان يستحم في الحمامات المحلية العامة . وكتب يقول في هذا الشأن : «كنت التجىء الى موقعي . . . وأمتع نفسي بالجوع والبرد وعدم النوم أكثر مما كان يفعله* دي كوينتي مع أفيونه» .

وتفرغ خلال فصل الخريف لتصحيح النص ، وبذل كل جهده ، معتمداً مرة ثانية على النشرة العربية القيمة في هذا المجال . وحاول بكل جد أن يكون النص دقيقاً من الناحية التاريخية ، وكتب فيما بعد بوقت طويل يقول : «كانت جميع الوثائق التي تتعلق بالثورة العربية مأخوذه من أرشيف وزارة الخارجية ، وهي متوفرة أمام الدارسين ، الذين سيكون بإمكانهم تدقيق قصصي ورواياتي المطروحة ، وأتوقع منهم أن يجدوا أخطاء صغيرة ، وأن ينفضوا مع الأحداث الرئيسة لروايتي» . ورغم ذلك فقد لزم الصمت بشكل معتمد حول مظاهر معينة ، على سبيل المثال نشوب القتال بين قوات فيصل والقوات الفرنسية في سوريا ، فقد استبعد بعناية الخوض في تفاصيل معينة في أمور هذه الموقعة .

لم تكن هذه الوسيلة الوحيدة فحسب التي عكست فيها «أعمدة الحكمة السبعة» قلقه بشأن المطامح الاستعمارية الفرنسية . وقد أصبح للكتاب آنذاك دور سياسي قوي ، إذ كان يؤدي دوره كسجل للجهد الحربي العربي ، مبرراً مطالب الأمير فيصل بالحكم الذاتي . كما أن لورنس لم يخف تماماً الاخفاقات العربية خلال الحرب ، غير أن معالجته لها كانت عاطفية ، لذلك كانت ثمة اخفاءات كثيرة للأمور . وتظهر الوثائق أن كتاب أعمدة الحكمة لم يكن يروي الحقيقة كاملة في الأغلب ، مخفياً الأمور المسيئة من الناحية السياسية . ولم يبرز لورنس أيضاً الإسهام الكبير للقوى غير العربية تجاه الثورة العربية . فهو لم يقيّم إنجازات المدفعيين الهنود ، والدور الذي لعبته المصفحات ، ووحدة المدفعية الفرنسية ، وفوق كل هذا دور سلاح الجو البريطاني ، حيث كانت عمليات القصف والاستطلاع التي قامت بها عاملاً حاسماً خلال الحملة الشمالية .

---

* كاتب وناقد انجليزي عرف بإدمانه على الأفيون .

إن هذا التركيز على الإنجاز العربي لا يمكن أن يبرر على أن لورنس كان يكتب عن تجربته الشخصية في الحرب . فهو كضابط اتصال انخرط بصورة مباشرة ومتواصلة مع الإسهام غير العربي في الثورة . كما أن قراره لتقديم هذا التقييم من جانب واحد يعكس من دون شك مدى مرارة تجربته في مؤتمر السلام والتزامه بالقضية العربية . ورغم ذلك فمن الممكن أن تخفي الرسالة السياسية نفسها ، مع مقدار أقل من النقد ، وذلك بالتشديد على انه كانت ثمة درجة كبيرة من الاعتماد المتبادل . فبينما كان نجاح فيصل يعزى إلى الدعم والمساعدة البريطانية ، فإن القوات البريطانية الأوروبية المشتركة قد عزت الكثير من نجاحها إلى الأمير فيصل وقواته . فحاجة الجبهة الغربية للقوات قد جعلت جبهة اللَّنبي شحيحة بها ، لذلك فمن دون إسهام القوات العربية في جبهة شرق الأردن ، فإن تقدم قواته من فلسطين كان صعباً للغاية ، إن لم يكن مستحيلاً .

في أواخر شهر نيسان عاد لورنس إلى إكسفورد بعد إنهائه مسودة كتاب أعمدة الحكمة السبعة . ولم يمض وقت طويل حتى أنخرط ثانية في سياسة الشرق الأوسط . إذ إنه لم ينجم عن مؤتمر السلام أي اتفاق بشأن الانتدابات ، وحول الأمر إلى اجتماع آخر يعقده الحلفاء في سان ريمو . وكما كان متوقعاً فقد حصلت بريطانيا على فلسطين والعراق ، في حين حصلت فرنسا على كامل سوريا وبعد إجرائه لمفاوضاته التي أدت إلى تسوية مؤقتة مع كليمنصو في نهاية عام ١٩١٩ ، عاد فيصل إلى دمشق في شهر كانون الثاني ليجد نفسه محاطاً بمعارضة داخلية . فخلال فترة غيابه في أوروبا ، ساء الوضع الداخلي بصورة مضطردة .فاذا ماكان السياسيون السوريون أقل قصراً للنظر ، فقد كان عليهم أن يدركوا بأن أملهم الوحيد للإبقاء على أي شكل من أشكال الحكم الذاتي ، هو الوصول إلى تسوية مع فرنسا . ورغم ذلك فقد استسلم فيصل للمتشددين . وبعد مناورات استغرقت بضعة أسابيع تخلى عن التفاهم الذي توصل إليه مع كليمنصو ، وبذلك انهارت الثقة تماماً مع فرنسا .

في الشامن من آذار أعلن المؤتمر السوري العام تنصيب فيصل ملكاً على «سوريا المستقلة والموحدة» ، والتي كان من المفترض ان تشمل أيضاً لبنان وشمال العراق وفلسطين . ولم يسبب ذكر هذه المناطق الأخيرة غضب واستياء فرنسا فحسب وإنما استياء

بريطانيا أيضاً ، الأمر الذي جرى رفضه تماماً في مؤتمر سان ريمو . وعدت وزارتا الخارجية والهند البريطانيتين دمشق بأنها أصبحت مركزاً ساخناً للقومية المتزايدة مما يهدد الوصول إلى تسوية شاملة في المنطقة .

وازداد الأمر سوءاً بعد حدوث سلسلة من الهجمات على الأشخاص والممتلكات في سوريا مما حمل الحكومة الفرنسية على الإيضاح بأنها لن تتسامح مع مثل هذه الممارسات ، لذلك فقد بدت نهاية نظام فيصل أنها مسألة وقت فحسب .

وبما أن فرنسا وحكومة الهند كانتا معنيتين بالأمر ، فإن تخصص الانتدابات في مؤتمر سان ريمو كان عملية اقتسام للمكاسب الاستعمارية تماماً . فقد أنكر هذا العمل المطالب القومية العربية ، وجعل كل شيء هراء عما قيل في بريطانيا والولايات المتحدة حول الحكم الذاتي . وكتب لورنس يقول في هذا الشأن : «لقد كانت اتفاقية سايكس - بيكو الملاذ العربي الأخير . فهكذا رأتها فرنسا ، وعملت بشكل مسعور من أجل إيجاد بديل لصيغة الانتداب . وبعقد صفقة منحطة . وقد أيدت بريطانيا فرنسا في هذا الأمر من أجل أن تحصل على العراق . فبموجب اتفاقية سايكس - بيكو حصل الفرنسيون على منطقة الساحل فقط ؛ وكان مقرراً أن تكون ثمة حكومة عربية تدير كل من مدن حماة ، حمص ، دمشق ، وشرق الأردن . إلا أنه وبخدعة الانتداب حصلت إنجلترا وفرنسا على كامل الحصة . لذلك فقد كانت اتفاقية سايكس - بيكو سخيفة ، من حيث الحدود التي عينتها ، غير أنها اعترفت بمطالب السوريين بالحكم الذاتي» .

كان الحنق العربي بشأن قرارات مؤتمر سان ريمو متوقعاً بالنسبة إلى لورنس ، في الأقل . فقد كان يعبر ، ومنذ سبعة أشهر خلت ، عن قلقه حول مدى تأثير الأساليب الإنجلو - هندية في العراق ، فكتب يقول : «إذا لم نقم بتعديل وسائلنا ، فإنني أتوقع حدوث ثورة هناك بحلول شهر آذار المقبل» . واعتقد آخرون ، أيضاً ، بأنه يجب أن تغير الإدارة الأنجلو - هندية في العراق . وكان من بينهم السير هوغ ترينشارد ، قائد سلاح الجو البريطاني . فقد أثبتت القوة الجوية نجاحها وأسلوبها الرخيص نسبياً في الإبقاء على النظام في الصومال ، لذلك فقد كان ترينشارد حاذقاً ليمد عملياته بالقيام بمهمات مشابهة في العراق . ففي الحادي والعشرين من نيسان بحث أفكاره مع لورنس ، الذي كتب بدوره

إلى اللورد ونترتون (الذي كان حينذاك نائباً عن حزب المحافظين في مجلس العموم) يقول : «اعتقد بأنه على حق في جميع الأمور ، فبعد إجراء محادثات مستفيضة معه شعرت بالحافز لدعم خطته . فهي تعني تعيين سالموند مندوباً سامياً في العراق بالإضافة إلى تعيين مسؤول إسمي ، ووجود جيش عربي تحت أمرة قيادة عربية - بريطانية للدفاع عن البلاد . ويبدو بالنسبة لي أن ترنيشارد نظيفاً ومخلصاً . . وسيلعب دوراً عادلاً مع السكان المحليين ، فهو يعتقد بأنه لا جدوى من القصف الجوي الذي قمنا به» .

بعد ذلك بشهر كان لورنس واحداً من الشخصيات البارزة السياسية وغير الرسمية التي حثت لويد جورج على تولي مصالح بريطانيا الشرق أوسطية بنفسه ، ونقلها من يد وزارتي الخارجية والهند . وقام لورنس بجمع تواقيع تأييداً لهذا الأمر ، فكتب إلى فيلبي يقول : «لقد حانت الفرصة المناسبة من الناحية السياسية وللضغط باتجاه إحداث دائرة الشرق الأوسط ، بوزارة الخارجية ، وأرفق هنا صورة عن رسالة إلى لويد جورج ، وهي خطوة اتخذت بناءً على نصيحة ، لتضيف ضغطاً من الخارج الى ما يحدث في الداخل . وقد طلبوا مني بأن أضيف اسمك إلى القائمة : ويوجد خبراء آخرون مدعوون مثل هوغارت ، ليونيل كورتس ، أرنولد توينبي ، وأنا . فليس لدي شك في أنك ستوافق ، لذلك لا داعي لحثك على ذلك . وإنها تُعد خطوة ضرورية قبل اتخاذ سياسة خارجية ، وعندما يجري ذلك ، سنقوم بفتح قناة من المشورة مع الرجال الجدد» .

وبعد ذلك أراد التأثير على الحكومة ، فوجد لورنس فجأة أن شعبيته ستكون مفيدة في هذا الشأن . كما أن الصحف كانت راغبة جداً في نشر أي شيء يكتبه عن الشرق الأوسط . وفي الثامن والعشرين من أيار بدأ لورنس حملته الصحفية بمقال في صحيفة الديلي أكسبرس ، تبعته عدة مقالات في صحيفة الصنداي تايمز وفي صحف أخرى .

خلال الفترة الفاصلة ما بين انتهاء مؤتمر السلام والنهج الجديد للسياسات الشرق أوسطية ، قام لورنس بإعداد خططه المستقبلية . ولإنجاز ما عزم عليه في السنوات السابقة ، اشترى أرضاً كان صديقه فيفيان ريتشارد قد استأجرها في منطقة بول هيل بمقاطعة بول هيل بمقاطعة إيكس ، بالقرب من غابة إيبنغ . وكانا ينويان إنشاء مطبعة عليها ، بعد تخرجهما من جامعة إكسفورد . وبدخله من كلية أوول سولز ، إضافة إلى

خمسة آلاف جنيه منحها له والده في عام ١٩١٦ أصبح حلم طباعة مجلدات ومؤلفات انيقة في المتناول بالنسبة إلى لورنس . وازدانت غرفته في كلية زوول سولز بالكتب الأنيقة الصادرة عن دور نشر خاصة كبيرة مثل : مجموعة كلمسكوتس ، بما فيها دار شوسر الشهيرة ، ومطبعة دوفز للإنجيل ، وآخر ما أصدرته دار آشندين ، وغيرها من الأعمال الشهيرة للمحترفين . كما بدأ لورنس بالتحدث عن إنتاج طبعة جديدة من أشعار مليغر ، مترجمة عن اللغة السريانية الأصلية .

وكان ريتشارد لا يزال يقدم بالتدريس في مدرسة تقع في شينغفورد ، لذلك فقد بدأ يفكران ، آنذاك ، بإنشاء مبني في بول هيل ليجهز كمطبعة ، ويضم أيضاً مرافق معيشة للعاملين فيها . إلاّ أنهما لم يتوقعا بدء العمل فيها قبل أوائل عام ١٩٢١ .

وتعهد لورنس بأن يقدم أموالاً كافية لتمويل المشروع ، وتبين رسائله الصادرة في أوائل شهر شباط ١٩٢٠ أنه كان ينوي تأمين ذلك من خلال إصدار طبعة شعبية مختصرة من كتاب أعمدة الحكمة السبعة في الولايات المتحدة .

وفي نهاية شهر حزيران اتخذ المشروع شكلاً محدداً ، فقد قدم لورنس الكتاب إلى الناشر ف . دوبلداي ، الذي قابله في لندن بعد إنتهاء الحرب بوقت قصير .

شعر لورنس في منتصف ذلك الصيف بأن إعادة كتابة «أعمدة الحكمة» كان أمراً صحيحاً تماماً ليكون أساساً لرواية مختصرة للكتاب ، لذلك قرر قضاء شهري آب وأيلول في كلية أوول سولز ، ليعمل على كتابة نص مختصر أكثر . ودعا ريتشارد إلى زيارته هناك كلما سنحت له الفرصة ، حيث كتب له يقول : «إن مساعدتك ستكون ذات قيمة ، فأنا لا أريد أن يكون كتاباً مبتذلاً ، لأنه سيحمل اسمي» .

وأكمل لورنس عدة فصول من الكتاب المختصر خلال شهر آب . إلا أنه توقف عن ذلك فجأة في الاسبوع الأول من شهر أيلول . فقد كان ثمة دليل ضئيل تماماً يتعلق بهذا القرار ، والذي كان مع ذلك نقطة تحول في مهنته . والتفسير الأكثر احتمالاً لذلك هو إيجاد طريقة أبسط لجمع المال من أجل تمويل إنشاء مطبعة في منطقة بول هيل ، كما أنه يبدو من المحتمل ، أنه قد بدأ يشك بأن الكتاب سيجني مقداراً المال الذي كان يحتاجه ، لذلك لم يعد ثمة سبب للاستمرار في ذلك .

كان الوضع المالي للورنس في ذلك الوقت أقل بكثير مما كان يتوقعه معظم الناس . فمن حيث المبدأ ، كان دخله السنوي يبلغ مائتي جنيه استرليني من كلية أوول سولز ، ومائة وخمسين جنيهاً أخرى كفائدة من استثمار مبلغ خمسة آلاف جنيه التي منحها له والده . إلاّ أن مبلغ ٣٥٠ جنيهاً في السنة كان كافياً تماماً في ذلك الوقت لشخص عازب ، ففي شهر آذار وصف لورنس نفسه بثقة قائلاً : «إنني شخص لا يعير اهتماماً للمال تماماً ، ولم يحاول جمعه بكد - لقد كان والدي جيداً معي ، فلم ينفق المال الذي ورثه عن والده ، وحين أتزوج وأنجب أطفالاً فان وضعي المالي سيكون على ما يرام .

وإضافة إلى مصادر الدخل هذه فلابد أن لورنس كان لديه مبلغ ضخم من رأس المال نتيجة لرواتبه المتراكمة من الجيش خلال سنوات الحرب الخمس ما بين شهر تشرين الأول ١٩١٤ ، وحتى شهر آب ١٩١٩ . فهذا الفائض من المال يمكن أن يقدر بألفي جنيه ، وإذا ما استثمره ، فإن دخله سيكون أربعمائة جنيه في السنة . ولكنه لم يفعل ذلك ، فمجموعة الأراضي التي قام بشرائها في «بول هيل» من المحتمل أنها كلفته أكثر من ألفي جنيه ما بين شهر أيلول ١٩١٩ وشهر أيار ١٩٢٠ . وخلال الفترة نفسها قام باقتناء مجموعة نفية من الكتب كلفت مئات الجنيهات ، وحتى بالأسعار السائدة حينذاك . كما امتلك لوحتين زيتيتين للأمير فيصل رسمها الفنان أوغسطوس جون . ولم يعرف أو يسجل الثمن الذي دفعه لقائهما (وثمة رواية تقول إنه قايضهما بألماسة) . ففي ذلك الوقت كان سعر اللوحة الواحدة منهما يكلف ستمائة جنيه استرليني .

وبحلول صيف عام ١٩٢٠ أنفق لورنس جميع ما استلمه من رواتب في أثناء فترة الحرب . ولم يكن هذا بالأمر الخطير جداً ، إلا أنه في تلك الفترة تقريباً بدد أيضاً جزءاً كبيراً من المال الذي أخذه من والده .

وكانت الهبة الجيدة بالنسبة له هي التي منحها إليه شقيقه ويل الذي قتل في الحرب ، حسب وصيته فقد طلب من لورنس بأن يكون منفذاً لوصيته ، قائلاً إنه يريد أن يهب جميع ماله إلى جانيت لوريه . فقد كان ذلك اتفاقاً سرياً بين الشقيقين ؛ ولم يكن يوجد ذكر لجانيت في الوصية المكتوبة ، التي ذكرت اسم لورنس كونه هو المستفيد الوحيد . وبعد موت شقيقه نفذ لورنس ، ومن دون شك ، طلب شقيقه الخاص ، بيد أن

المبلغ المخصص كان مجهولاً لأن ويل توفي قبل وقت قصير من تقسيم والده مبلغ الـ (١٥) ألف جنيه بينهما .

خلال ربيع عام ١٩٢٠ ، لا بد أن يكون لورنس قد علم بأن جانيت لوريه تزوجت حينذاك ، وكانت بحاجة إلى المال . ويبدو أنه قد أعطاها ثلاثة آلاف جنيه وهو المبلغ الذي كان يتوقع ويل أن يستلمه من والده . وهذا التصرف غير العادي من السخاء لا بد أنه عكس عاطفته تجاه ويل ، الذي كان مقرباً جداً إليه ، وتجاه جانيت أيضاً ، التي ربما كانت الفتاة الوحيدة التي شعر تجاهها برابطة عميقة .

وبتلك الهبة السخية التي منحها لورنس لجانيت فقد انخفض دخله ، وكانت توجد دلائل وفيرة على هذا الفقر المفاجىء الذي أصابه من خلال رسائله التي أرسلها خلال صيف عام ١٩٢٠ وخريفه . ففي ظروفه المالية الجديدة هذه سيكون بحاجة الى رأسمال كبير أكثر من قبل إذا ما أراد إنشاء مطبعة خاصة في بول هيل مع ريتشارد . ورغم أنه لم يتوقع قط أن تكون المطبعة ذات مردود مربح . وإضافة إلى تكلفة البناء والمعدات فإنه سيحتاج إلى دخل استثماري كافٍ لتغطية مصاريفه الشخصية كافة . ولتغطية هذه النفقات فانه كان بحاجة حينذاك إلى مبلغ خمسة آلاف جنيه في الأقل .

ولم يكن أ . وات ، وكيل لورنس الأدبي ، راغباً في هذه المخاطرة في ما يتعلق بنشر كتاب «أعمدة الحكمة» المختصر إلى أن ما يرى عينة منه . وفي نهاية شهر آب أنهى لورنس سبعة أجزاء منه ، وقام بإرسالها إلى وات من أجل التقييم قبل أن يقوم بإرسالها إلى دوبلداي ، الذي كان مقرراً وصوله إلى بريطانيا في منتصف شهر أيلول .

أراد لورنس اقتصار إصدار الكتاب على أمريكيا فقد ، وبسبب ذلك كان تقدير وات مثبطاً للعزيمة تقريباً ، فلورنس العرب كان مشهوراً في بريطانيا ، في حين أنه كان لا يزال مجهولاً في الولايات المتحدة . وإذا ما أريد جني المال الكافي فإن الكتاب يجب أن يكون الأكثر مبيعاً في بريطانيا . وبذلك فلن يكون ثمة وكيل أدبي مستعد لضمان ذلك . ولا بد أن وات قد أبلغ لورنس بأن الدخل الذي كان يأمل بالحصول عليه يفرض عليه نشر الكتاب في الأسواق البريطانية .

وعارض لورنس ذلك تماماً . وقد كتب يقول في هذا الصدد : «إنني أفضل أن أجوع

على أن ينشر الكتاب في لندن . فهدفي الأخير هو جني المال من الولايات المتحدة ، وتجنب الشهرة السيئة من بيعه في إنجلترا» . ورأى بأنه كان ثمة هدف ضئيل من مواصلة كتابة مختصرة للكتاب . إضافة إلى أن المهمة التي وضع نفسه فيها كانت تثبت أكثر الصعوبة التي توقعها؟ فبعد أكثر من شهر وضع نصاً في حدود (١٥٠) ألف كلمة وجرى انجازه ، فغض النظر عن هذا المشروع ، وبدأ بعد ذلك ، في شهر أيلول ، بكتابة نسخة منقحة جديدة من كتاب أعمدة الحكمة السبعة كاملاً .

وكان خلال سنتين سابقتين زائراً منتظماً لصالات لندن الفنية ، وتابع أعمال أوغسطوس جون ، وليام أوبرين ، ديرونت وود ، ووليام روثنستين . فقد فكر باستخدام الصور فضلاً عن اللوحات والرسومات ، وذلك لتدعيم كتاب أعمدة الحكمة في نصه الكامل .

من أجل هذا الغرض قام بالاتصال مع أريك كينفتون ، الذي كان عمله كفنان حرب رسمي ذا اعتبار عالٍ . وسأله فيما إذا كان من الممكن رسم صور لشخصيات عربية إعتماداً على صورهم الفوتوغرافية ، لتوضع في كتاب أعمدة الحكمة السبعة .

أما كينفتون ، الذي كانت معرفته السابقة بلورنس نابعة من محاضرات لويل ثوماس ، فقد رحب بهذا المشروع ، غير أنه رفض فكرة العمل اعتماداً على الصور الفوتوغرافية . واقترح ، بدلاً من ذلك ، بأنه يجب أن يزور الشرق الأوسط ويقوم برسم الشخصيات العربية على الطبيعة . وشرح له لورنس كم سيكلفه هذا من المال ، بيد أن كينفتون قال بأنه سيجني عما قريب مالاً كافياً من عمل آخر يمكن أن يغطي هذه النفقات .

وفي بداية شهر تشرين الأول كتب لورنس تقديماً للطبعة الجديدة لكتاب دوفتي «رحلات في الصحراء العربية» . مما أتاح هذا نتيجة ناجحة لحملة طويلة من أجل إعادة طبع الكتاب . وقد امتلك المكتب العربي خلال الحرب نسخة من الطبعة الأصلية . إذ إن تقرير دوفتي قد أثبت صحته ليكون مصدراً قيماً للمعلومات ، فمنذ أن عاد لورنس إلى أنجلترا حث الناشرين على طباعته قائلاً : «إن الكتاب برمته يُعّد ضرورياً لأي دارس لشبه الجزيرة العربية ، بل أنه يُعّد أكثر من ذلك ، فإنه واحد من أعظم الأعمال النثرية في اللغة الإنجليزية ، كما أنه أفضل كتاب رحلات في العالم . ولكن لسوء الحظ فقد كتب

بأسلوب غريب وغامض يستلزم العناية والتدقيق ، لذلك فقد اكتسب شهرة واسعة بين النخبة» .

وفكر كينفتون في البدء باقتناء طبعة جديدة صادرة عن المطبعة الحكومية في القاهرة ، ولكن ثبت أن هذا كان مستحيلاً . ورغم ذلك ، فقد كان مخطوطاً جداً عندما راجع الجمعية الطبية ، التي كانت أصدرت عدداً من الطبعات الأنيقة المحدودة . وهناك قابل جوناثان كيب ، الذي كان يعمل في الجمعية إلاّ أنه كان معنياً بطباعة نسخ خاصة به وجرى الاتفاق أخيراً على أن يقوم كيب والجمعية الطبية بإصدار طبعة جديدة من الكتاب ، شريطة أن يكتب لورنس المقدمة . وصدرت الطبعة في شهر كانون الثاني عام ١٩٢١ بسعر تسعة جنيهات للنسخة الواحدة . فإذا ما جرى بيع الطبعة الأولى (وعددها خمسمائة نسخة) بسرعة ، فإنه سيغطي نفقات الطباعة بحيث من الممكن إصدار طبعة أقل سعراً .

واصل لورنس خلال صيف عام ١٩٢٠ وخريفه حملته الصحفية من أجل إيجاد تسوية في الشرق الأوسط ، فكتب مقالات على أعمدة صحيفتي التايمز والأوبزيرفر . فقد كانت حركة التمرد على أشدها في العراق حينذاك ، وبين أن الإدارة البريطانية – الهندية التعسفية لم تفعل شيئاً لانتزاع التعاطف العربي معها ، إذ أنها قامت بمنع المتعلمين العرب من تولي الوظائف المسؤولة في جهاز الخدمة المدنية أو في الجيش ، فارضةً شكلاً من الحكم الاستعماري الذي كان أقل تعاطفاً مع الطموحات المحلية من سابقة الحكم التركي ما قبل الحرب . كما حزن بشكل كبير عندما قام الفرنسيون ، الذين شجعوا من دون شك ، من قبل هذه الإدارة الأنجلو – هندية ، باسقاط حكومة فيصل العربية في دمشق .

وتقرر في نهاية السنة أن يجري تعيين ونستون تشرشل وزيراً للمستعمرات ، كما مُنح مسؤولية العراق ، وساحل فلسطين ، وشرقي الأردن وفي الثامن من كانون الثاني دعا لورنس إلى الانضمام إليه كمستشار للشؤون العربية . إلاّ أن رد لورنس الأولي لم يكن متحمساً لذلك . حيث أنه بعد إخفاقه في مؤتمر السلام قرر بأن لا يقوم بأي دور آخر يتعلق بالسياسة أو الإدارة العربية ، وأصبحت أفكاره آنذاك تنصب على الكتابة والطباعة

بشكل رئيس . فقبل ذلك باسبوع فقط ، كتب يقول : «لقد تخليت عن السياسة» . ورغم ذلك فقد قبل المنصب في اخر الأمر ، عاداً إياه فرصة لإنقاذ سمعة بريطانيا ، في العالم العربي ، في الأقل . كما حاول أولاً وضع شرط يجعل بريطانيا تحترم وعودها للعرب التي قطعتها على نفسها إبان الحرب . إلاّ أن هذا الشرط رفض ، وكتب فيما بعد يقول بأنه قد قبل بالمنصب فقط لأن «ونستون (تشرشل) قد أتاح لي بحث أية نقطة معه ، ومنحني حرية مطلقة ، تحت حمايته . فكان هذا أفضل من أي شرط آخر ، لأنه أراد وجود أفضل تسوية ممكنة للشرق الأوسط ، بعيداً عن الوعود والمعاهدات كافة التي عُقدت» .

كان تشرشل لا يعلم سوى الشيء القليل عن العالم العربي ، ورغم ذلك فقد كانت حاجته الأعظم هي تقليص تكلفة الإدارة الاستعمارية في العراق . وقد أكد له لورنس بأنه يمكنه إنقاذ الملايين ، وذلك بتحويل البلاد إلى مملكة عربية مستقلة بزعامة فيصل ، وبما أن الأخير كان متواجداً في لندن آنذاك ، فقد طلب تشرشل من لورنس بحث الخطة معه بشكل خاص .

كانت ثمة مشكلة وهي أن فرنسا عارضت بشدة فكرة تنصيب الأمير فيصل ملكاً على العراق . وكانت العلاقات الإنجلو - فرنسية قد توترت في الشرق الأوسط خلال شتاء عام ١٩٢٠ . ففي شهر تشرين الثاني من ذلك العام تحرك الأمير عبد الله بقواته إلى معان من الحجاز ، بقصد تشكيل جيش كبير لإخراج الفرنسيين من سوريا . وسرت شائعات حول هذه النشاطات فالتقطتها كل من الاستخبارات البريطانية والفرنسية . لذلك فقد أمل تشرشل بأن يساعد الأمير فيصل في ذلك باستخدام نفوذه لتهدئة الوضع .

بدأ لورنس العمل في وزارة المستعمرات في الثامن عشر من شباط . وأوكل إليه في ذلك اليوم برنامج وعمل من سبع نقاط وذلك لعرضه في مؤتمر الشرق الأوسط المنعقد في القاهرة حينذاك ، فأمضى معظم أيام الأسبوع اللاحق مضيفاً تفصيلات إلى هذا الإطار ، مشتغلاً بشكل وثيق مع هيربرت يونغ ، الذي كان يشاطره العمل في المكتب . وعَدَّ برنامج العمل هذا قد صيغ بطريقة بحيث يمكن للمؤتمر أن يصل إلى نتائج مرغوب فيها وبعد ذلك بعدة سنوات أبلغ لورنس كاتب سيرته الذاتية ليدل هارت بأن كل شيء قد

رتب قبل بدء اجتماعات المؤتمر . فهو لم يسو فقط المسائل التي ستبحث ، وإنما أيضاً القرارات التي سيجري التوصل إليها ، وقال : «إننا لم نترك أية نقطة يمكن أن تبحث» .

وبما أن تشرشل واصل دعمه إلى لورنس ، فإنه لم يكن بالإمكان أن يفشل . فإنه لم يكن ثمة أي شيء يقلقه في هذا الشأن ، فأداء تشرشل في المؤتمر كان هو ما يتمناه ، وجرت الموافقة بالإجماع على جدول أعمال المؤتمر برمته . وقدم فيصل للشعب العراقي في انتخابات عامة كزعيم لإدارة البلاد ، بمساعدة مستشارين بريطانيين ، من أجل الانتقال بالبلاد إلى الحكم الذاتي .

في أوائل شهر آذار ، وبينما كانت مباحثات مؤتمر القاهرة ماضية قدماً ، وردت أنباء بأن الأمير عبد الله قد اجتاز الحدود إلى شرق الأردن ، وأصبح آنذاك في عمان ، فتقرر بأنه يجب أن يعرض عليه دوراً سياسياً ، وهو حكم تلك البلاد ، وإذا ما رفض ذلك فسيجري تعيين حاكم آخر بموافقته وبناء على طلب تشرشل سافر لورنس من مصر إلى شرق الأردن ، حيث قابل هناك الأمير عبد الله وشرح له الخطوط الرئيسة للسياسة البريطانية في المنطقة . ومن ثم ذهب الرجلان الى القدس مباشرة ، حيث جرى عقد سلسلة من المباحثات مع تشرشل . وكانت النتيجة قبول الأمير عبد الله بحكم شرق الأردن وبذل جهده في وقف الأنشطة المعادية للفرنسيين كافة . ومقابل ذلك سيتلقى دعماً مالياً وعسكرياً من بريطانيا ، وتقرر أن يجري ترتيب ذلك في غضون ستة أشهر إلى أن يجري انتخاب فيصل ملكاً على العراق .

كان أحد القرارات الرئيسة لمؤتمر القاهرة هو تبني خطة ترينشارد باستخدام سلاح الجو لفرض النظام والقانون في الطرق ، فهذا الدور لما وراء البحار سيكون مهماً بالنسبة لوضع سلاح الجو البريطاني خلال السنوات القادمة ، ولم ينس ترينشارد بأن لورنس كان واحداً من أعظم مؤيديه في هذا الشأن كما رغب بأن يجري تطبيق هذا الإجراء في شرقي الأردن ، الذي كان غارقاً في القلاقل بعد انتهاء إدارة فيصل في دمشق . وسيكون من الضروري إتباع سياسة فعالة لكي يجري وقف استمرار الغارات المواجهة ضد الفرنسيين في سوريا ، فجرى إنشاء قوة عربية نظامية مدربة حينذاك لهذا الغرض . في غضون ذلك ، جرى توطيد السلطة في شرق الأردن بدعم من المصفحات وسلاح الجو البريطاني من فلسطين .

عاد لورنس إلى لندن في الحادي عشر من آيار ، فقد جرى إنجاز كل شيء كان يأمله منذ أن انضم لوزارة المستعمرات . ففي العراق ، أتخذت الإدارة هناك الخطوات الضرورية لتأمين اختيار فيصل ملكاً على العراق من قبل الشعب العراقي . وفي شرقي الأردن ، «ثم الايفاء بالوعود البريطانية تجاه الثورة العربية» ، كما يقول لورنس ، وبذلك تم إسقاط الانتصار الذي حققته وزارة الهند في عام ١٩١٩ .

وكتب لورنس فيما بعد يقول : «لقد قمت بمعظم خطوات السيد تشرشل لتهدئة الأوضاع في الشرق الأوسط بنفسي . إذ كانت لدي المعرفة والخطة بهذا الشأن . وكان لديه (تشرشل) الخيال والشجاعة لتبني ذلك ومعرفة الإجراءات السياسية لوضعها في قالبها» . وقد عَدَّ لورنس التسوية التي جرت على أنها أعظم إنجاز في حياته .

ومع انه وافق ليظل سنة أخرى مع تشرشل ، إلا أنه لم تكن لديه أية طموحات سياسية أخرى في ما يتعلق بالشرق الأوسط . ولم يكن الروتين اليومي في وزارة الدفاع نقطة جذب بالنسبة له ، وعلم في ما بعد بأنه سيجري إرساله إلى الخارج ثانية بعد وقت قصير ، مع أن الغرض الرئيس لمهمته الجديدة كان غير جذاب . وكانت مهمته تتعلق بوزارة الخارجية ليقوم بإجراء مفاوضات من أجل ابرام معاهدة ما بين بريطانيا والشريف حسين .

وعندما تم إنشاء إدارة الشرق الأوسط بوزارة الخارجية ، تمنى تشرشل بأن تكون الحجاز من ضمن مسؤولياتها . ومع ذلك ، فقد بينت وزارة الخارجية بأن هذا يمكن أن يفسر من قبل البعض على أنه دليل بأن مملكة الشريف حسين لم تكن كاملة الاستقلال . لذلك فقد كانت وزارة المستعمرات ملتزمة بأن تأخذ موقف الشريف حسين بالاعتبار لضمان ، اذا امكن ، موافقته لقرارات مؤتمر القاهرة في العراق ، وشرق الأردن ، وفلسطين . وتم إعداد مشروع معاهدة لتغطية هذه النقاط من قبل وزارة الخارجية . وفي مقابل التعاون مع الشريف حسين ، قدمت الخارجية البريطانية مساعدات مالية وضمانات عسكرية ضد اعتداءات ابن سعود .

في الثامن من تموز ، توجه لورنس إلى جدة حاملاً معه ما كان يصفه كورزون على أنه «تفويض خاص كامل بموجب صك ملكي ، يفوضه بإجراء أية مباحثات والتوصل إلى

اتفاق مع أي طرف من أطراف حكومة صاحب الجلالة ملك الحجاز ، وبحث إمكانية التوصل الى إبرام معاهدة بين المملكة المتحدة ومملكة الحجاز ، لتسوية الامور المعلقة كافة بين البلدين» . وفي حالة أن الملك حسين وجد بنود المعاهدة المقترحة غير مقبولة ، فإنه كان على لورنس الرجوع إلى كروزون . إضافة إلى أنه كان عليه حث الملك حسين على توقيع معاهدة فرساي والإعلان الذي يعترف بالوضع الفرنسي في سوريا . وبينما يكون متواجداً في المنطقة ، فمن الممكن أن يرسل إلى عدن ، والتي كانت قد أصبحت آنذاك من ضمن مسؤولية وزارة المستعمرات لإجراء مفاوضات من أجل التوصل إلى تسوية ما بين بريطانيا وإمام اليمن .

وستكون المرحلة الأخيرة من مهمته العودة إلى شرق الأردن . إذ أن مدة الستة أشهر التي وافق ان يقوم الأمير عبد الله خلالها بتولي الحكم كانت ستنتهي في شهر أيلول ، وكان هناك بعض الشك بما قد يحدث بعد ذلك .

وتبين في ما بعد بأن مهمة لورنس كانت ضئيلة النجاح ، نتيجة لمواجهته صعوبات جمة في المفاوضات مع الملك حسين ، وعندما توقفت المباحثات إبان فترة الحج ، انتهز لورنس الفرصة لزيارة عدن ، بيد أن الوضع هناك لم يكن ملائماً بعد القيام بأية مبادرة سياسية . ثم رجع إلى جدة ، إلا أن مهمته قد تعقدت كثيراً حينذاك إعتمد رغم تدخل كل من الأميرين علي وزيد لحل المشكلات القائمة . وبدا أن الوضع ميئوس منه ، وافقت الخارجية البريطانية على ذهاب لورنس الى شرق الأردن ، تاركاً الأوضاع على حالها وما يمكن أن تؤول إليه مستقبلاً ، بعد أن تسحب بريطانيا دعمها للملك حسين . وأصبح لورنس مخيباً للظن بعد فشله في مهمته ، وقد عبر عن المرارة التي شعر بها في هذا الصدد في كتابه أعمدة الحكمة .

ووصل إلى القدس في الثاني من تشرين الأول ، وبعد قضاء عشرة أيام فيها ذهب إلى عمان ، حيث وجد أن الوضع هناك كان أفضل مما كان يتوقعه فقد تم جمع الضرائب ، وتوحيد الأمن الداخلي . وأضحى الأمير عبد الله أكثر استعداداً ليبقى مدة أطول في حكم البلاد .

تولى لورنس القيام بمهمة ممثل بريطانيا في شرق الأردن ، عاملاً على توحيد موقع

الأمير عبد الله . كما أنه رتب أيضاً باستئناف المفاوضات التي أجراها في الحجاز ثانية ، على أساس أن عبد الله سيكون ممثلاً للحجاز فيها . وخلال الأسبوع الأخير من شهر تشرين الثاني تمت الموافقة على إجراء تعديلات إضافية على النص الذي وافق عليه . وفي الثامن والعشرين من الشهر ذاته أبرق لورنس إلى تشرشل قائلاً : «كون عبد الله محدود الصلاحية فقط ، فأن توقيعه من دون تصديق ملكي سيكون عديم القيمة كما هو الحال بالنسبة لي . فقد يقبل عبد الله المعاهدة على انها معدلة بواسطة برقياتي . . . وهو يقسم بأن الملك حسين سيقرها . . . إلا أن الشكوك تساورني بهذا الصدد . ومع ذلك ، فمن الممكن أن يكون من الانسب القيام بمحاولة معه . فإذا ما تلقيت إشارة تدل على الوصول إلى اتفاق بينكما ، فإنه سيكون بوسعنا توقيع المعاهدة في الأيام القليلة القادمة قبل القدوم إلى أرض الوطن» . ووقعت المعاهدة بين الأمير عبد الله ولورانس في الثامن من كانون الاول . وبعد أربعة أيام غادر لورنس إلى مصر ، ووصل إلى لندن عشية عيد الميلاد .

بنهاية عام ١٩٢١ ، أصبح فيصل ملكاً على العراق ، وبقي في الحكم الى حين وفاته في عام ١٩٣٣ . كما رسخ الأمير عبد الله حكمه في شرق الأردن ، حيث أصبح هو أيضاً ملكاً في عام ١٩٤٦ . ورفض الملك حسين اقرار المعاهدة الإنجلو - هاشمية . وفي عام ١٩٢٤ ، حرم من الدعم البريطاني ضد القوة المتنامية لابن سعود ، فأُجبر على التنازل عن العرش؟ وتوفي في المنفى بعد سبع سنوات . واستولت قوات ابن سعود على مكة في عام ١٩٢٤ ، وضمنت الحجاز في نهاية المطاف إلى المملكة العربية السعودية المنشئة حديثاً . وواجه الحكم الاستعماري الفرنسي في سوريا مصاعب متزايدة ، وانهارت الحكومة تلو الأخرى أمام مواجهة المعارضة الداخلية .

وفي عام ١٩٣٦ ،أقامت فرنسا حكومة عربية هناك حسب الأسس التي وضعها كل من تشرشل ولورنس في العراق .

وبذلك أُغلق الملف العربي بالنسبة للورنس ، وعاد في أواخر ايام عام ١٩٢١ إلى وزارة المستعمرات ، آخذاً باعتباره بأن السنة التي وعد بها تشرشل في العمل لم يبق منها سوى شهرين فقط .

الفصل التاسع عشر

القــــرار

كانون الثاني - آب ١٩٢٢

في بداية شهر كانون الثاني ١٩٢٢ كتب لورنس إلى السير هوغ ترينشارد ما يأتي : «تعلمون بأنني سأحاول ترك ونستون (تشرشل) في الأول من شهر آذار . ومن ثم يلزمني شهرين آخرين لترتيب أموري الخاصة ، ثم أرغب بعد ذلك بالانضمام إلى سلاح الجو الملكي ، برتبتي ، طبعاً .

ولا يمكنني القيام بذلك من دون مساعدتكم . فأنا في الثالثة والثلاثين من عمري ولست كفوءاً بالمعنى الذي تريدونه . ومن المحتمل أن لا أجتاز فحصكم الطبي . فمن الغريب أن أكون كبيراً جداً على هذا العمل ، ولم أفعل ذلك عندما كنت شاباً صغيراً . ورغم ذلك فإن صحتي جيدة فأنا دائم التدريب من الناحيتين الجسدية والفكرية ، ولا أعتقد شخصياً بأنني سأكون تحت معدل سن مجنديك (قواتك) في كلتا الحالتين فاذا ما فكرت بذلك فإنه سينهي الأمر .

وستستغرب لما كنت عليه ، فالأمر هو أنني مذ كنت في السادسة عشرة من عمري كنت أكتب ما يأتي : إنني غير راضٍ عن نفسي من الناحية الفنية ، ولكنني أسير صوب الأفضل باضطراد . وإن كتابي الأخير عن العرب يعدُ جيداً تقريباً . وإنني أرى من المناسب لي أن أنضم لقواتك ، ولا أكتب هذا من منطلق كوني ضابطاً . ولم أخبر أي واحد بذلك بعد ، إلى أن أرى رأيك ، ومن المحتمل أن تلاحقني الصحافة في هذا الخصوص ، وأنا اريده أن يكون أمراً سرياً . فلن يكون بوسع الناس استيعاب ذلك .

إن هذا طلب غريب ، وربما من الصعب أن يكون واقعياً ، بيد أنه من الممكن أن يكون واقعياً ، ولكن يمكن في الوقت ذاته أن يكون واحداً من الاستثناءات التي تقرونها أحياناً . وأطلب منكم استخدام نفوذكم ليمكنني من اجتياز مكتب التجنيد . وأقدم اعتذاري لهذا الأمر : وإذا ما أجبتم بلا فإنني سأكون مسروراً وليس حزيناً» .

وأظهرت الرسائل الأخرى التي كتبها لورنس في ذلك الوقت بأنه لم يكن يخطط للبقاء طويلاً في سلاح الجو . ونوى بعد انقضاء فترة فاصلة أن يعود إلى مواصلة اهتمامه بكتابه . «أعمدة الحكمة السبعة» ، ومشروعه الخاص بإنشاء مطبعة خاصة . ولم يمض وقت طويل بعد كتابة هذه الرسالة لترينشارد ، حتى كتب إلى أريك كينغتون يقول : إن المشكلة الحقيقية تكمن في كتابي ، فهو ليس جيداً ، ليس جيداً تماماً لإصداره . فهو طويل وممل وليس محدداً ، وليس لدي القوة الكافية لأراه يباع بسعر واحد ، أو القدرة لإصداره كلياً . فبعد أن تركت وزارة المستعمرات واخذت استراحة لبعض الوقت عاد اهتمامي بالكتاب ثانية ومن ثم المضي به في اتجاه جديد» .

إن الحافز الذي كان يكمن وراء قراره بالانضمام إلى سلاح الجو كان معقداً . فهو نفسه قد اعترف بأنه لم يكن من السهل إعطاء تفسير لذلك ، وكتب بعد بضعة شهور لصديق له يقول : «لا أستطيع أن أقول لك بصدق لماذا انضممت بالضبط إلى سلاح الجو ، فقبل ليلة من اتخاذي هذا القرار جلست وقمت بكتابة الأسباب كافة التي استطيع أن أراها أو أشعر بها بنفسي تجاه ذلك . بل إنها جاءت كخطوة ضرورية فرضت على أرضية الواقع ، برغبة مني لأجعل من نفسي إنساناً كبيراً بعض الشيء ، وبتلهف مني لأجعل من نفسي إنساناً عادياً في خضم الرغبات . وأيضاً فأنا محطم بسبب تبدد المال . هذه هي الأسباب ، ولكن ما لم تكن متراكمة فإنها ستكون غير ملائمة بشكل بائس ، إذ إنني أريد أن أنضم إلى سلاح الجو ، هذا كل ما في الأمر . . . وهو أمر سيكون سباتاً للفكر ، وقد توصلت إليه بشكل غريب أكثر من المضي فيه» .

وبما أنه قد نبع من حوافز مدركة وشبه واعية ، فلم يكن يوجد سوى الشيء الضئيل لمحاولة وضع هذه الأمور في إطار منطقي خارجي . ولذلك فمن الممكن تعريف العديد من هذه العوامل التي أثرت عليه في ذلك الوقت وكانت كراهيته ونفوره إن يتبع النهج التقليدي ، وهو موقف ورثه ، من دون شك ، عن والده . وقد قوت من نهجه هذا السنوات التي قضاها في الشرق ، جاعلة إياه يزدري الممتلكات والثروة . وكتب في عام ١٩١٨ يقول : «إن إنجيل التجرد في المواد هو شيء جيد» .

ولم يكن لديه طموح ليظل في وزارة المستعمرات ، فعلى أية حال ، كان اتجاهه

العقلي موجهاً إلى السياسة لا إلى الخدمة المدنية . ولكنه بعد أن زالت الظروف السياسية الخاصة بالحرب ، أصبح حراً في إمتاع نفسه ، ولم تكن لديه رغبة في تبني أو إنجاز أفكار لا يحبذها ، وكتب فيما بعد يقول عن هذا الموضوع : «إن الحياة السياسية ترهقني ، وترمي بعبئها الكبير عليّ . كما أنه ليس لدي مناعة كافية ضدها ، ولدي الكثير من الارتياب واضطراب الضمير تجاهها . فليس من الجيد رؤية زاويتين من المسألة والتفكير بهما عندما يكون عليك (رسمياً) إتباع واحدة منها» .

ومن الممكن أن الحياة الأكاديمية بدت بديلاً طبيعياً له ، غير أنه لم يشعر أبداً بالانجذاب إلى فكرة أن ينال منصباً جامعياً ، وقد رفض هذا الخيار قبل الحرب . ومن ثم حاول العيش في كلية أوول سولز خلال عامي ١٩١٩ -١٩٢٠ ، إلا أنه أصبح قلقاً هناك وأمضى معظم وقته في الشقة بشارع بورتون . وقرر بعد ذلك ترك غرفته في الكلية .

وبما أنه كان عالم آثار فإن حماسته كانت تنصب في العمل الميداني بدلاً من الدراسة الأكاديمية . فبعد وقت قصير من الهدنة ، بدأ يتحدث عن انضمامه إلى وولي ثانية من أجل القيام بحفريات في كركميش . ورغم ذلك ، وبانتهاء مؤتمر السلام ، استولت فرنسا على سوريا ، وأصبح من الواضح بأنه لن يسمح له بالعودة إلى هناك .

وأخيراً فإنه من الجدير بالملاحظة أن لورنس كان يتحدث أحياناً عن نفسه كشخص نادراً ، ما يتحرك وفق طموحه . وكتب بعد ذلك بسنوات يقول في هذا الشأن : «عندما أريد شيئاً ما فأنا مستعد أن أفقد كل شيء أحصل عليه . ولهذا السبب فإنني أنجح عندما أريد ذلك . ولكن نادراً ما يحدث ذلك براحة وسلام لحسن الحظ» .

في عام ١٩٢٢ كانت لديه رغبة واحدة فقط ، فبالرغم من المشكلات التي كان يواجهها في كتابة أعمدة الحكمة السبعة ، فانه كان لا يزال يتمتع بسمعة طيبة ككاتب . ولم يكن ثمة شيئاً جديداً بشأن طموحه الجديد هذا . وحتى منذ أن غادر إكسفورد في عام ١٩١٠ فقد كان عليه الانشغال بمشاريع أدبية من نوع معين . فآخر مشاريعه ، وهو كتاب ألّفه عن سلاح الجو البريطاني ، كان واقعياً بالتأكيد ، وخطرت له فكرة تأليف كتاب عن سلاح الجو على شكل رواية . وبينما كان من غير المحتمل أن يجند لورنس في سلاح الجو لهذا السبب وحده ، فقد تولى المشروع بصورة جادة تماماً من دون شك ، ويبدو

أنه لعب دوراً مهماً بوعي معقول على خلفية اتخاذ قراره .

وكان الحافز الآخر هو الخوف من العزلة . إذ لم تكن لديه علاقة وثيقة مع أي من أعضاء أسرته الباقين على قيد الحياة ، ولم يكن لديه أولاد أو أتباع يعيلهم أو حتى لديه الأمل بالزواج . فبعد عملية الاغتصاب الشاذة التي وقعت في درعا في شهر تشرين الثاني ١٩١٧ ، أصبح الزواج صعباً بالنسبة إليه . فقد خلفت لديه هذه الحادثة مقتاً شديداً تجاه الاتصال الجسدي ، والذي لوحظ من قبل العديد من أصدقائه . لذلك فمنذ نهاية معارك الصحراء وحملاتها كان غالباً ما يركن إلى الوحدة والعزلة بشكل مكثف . كما أن الشهرة الشعبية التي أوجدها له لويل توماس قد دفعته صوب العزلة بازدياد ، وقد أمضى أشهراً منفرداً لوحده في الشقة الواقعة في شارع بارتون يعمل في كتاب أعمدة الحكمة . وقد تضرر في مناسبات أخرى عندما تعرض لهجومات من خصومه السياسيين . فمثله مثل معظم الموظفين السابقين بدأ بالتشوق إلى روح العِشرة التي عرفها إبان الحرب ؛ تلك الروح التي نادراً ما وجدها في الحياة المدنية .

وحسب لورنس فإن فكرة التطوع في سلاح الجو خطرت له أول مرة عندما كان يعمل مع القوات البريطانية خلال المراحل الأخيرة من حملة الصحراء ، إذ يقول عن هذا الموضوع : «إن النزهات (الجولات) التي كنا نقوم بها بالمصفحات وبمرافقة طياري سلاح الجو قد شكلت الحافز بالنسبة لي على أن سلاح الجو هو الأفضل لمستقبلي ، فاذا ما خرجت حياً من الحرب فإنني ساتطوع فيه» . كما كتب أيضاً يقول : «إن طموحي للخدمة في سلاح الجو يعود ، بشكل ملموس ، إلى عام ١٩١٩ ، بل إلى عام ١٩١٧ بشكل غامض ، قبل أن يكون ثمة سلاح جو» . يوجد دليل ما يؤكد على أن فكرة الخدمة في سلاح الجو كانت ماثلة في ذهنه منذ عام ١٩١٩ ، إلاّ أنه في ذلك الوقت كان لا يزال يبحث في احتمالات أخرى مثل مشروع المطبعة . ويبدو أن القرار النهائي لانضمامه إلى سلاح الجو عائد إلى بداية وعام ١٩٢٢ .

وكما اعترف بنفسه فإن هذه الحوافز العقلانية لتطوعه في سلاح الجو كانت كافية تماماً ، وقد تأثر أيضاً من دون شك بعوامل أخرى كانت دون درجة الوعي نوعاً ما . وكانت من بينها أيضاً مشكلات نفسية عاشها لبعض الوقت . ورغم أنه نادراً ما ألقى بالضوء

على عدم شرعيته ، فإنه في مناسبات معينة كان يتحدث عن ذلك بمرارة شديدة مع أصدقائه المقربين . وكان أيضاً مدركاً بدقة لقصر قامته . فقد كتب في «أعمدة الحكمة» يقول : «إنني خجل من نفسي ، ومن وضعي الجسدي ، وشدة نحولتي ، مما جعلني بلا صديق أو رفيق» . ومن المحتمل أنه قد علم بأن الناس كانوا يشيرون إليه بـ «لورانس الصغير» ، ويبدو أنه أعتبر عدم شرعيته وقامته القصيرة كمعوقين حقيقيين قد يمنعانه بطريقة أو بأخرى من تبوء مكان بارز بين النخبة الحاكمة .

لقد ارتفعت حساسيته حول هذه المسائل من جراء الكآبة التي أصابته ، وعانى منها عندما عاد إلى إنجلترا في شهر كانون الأول ١٩٢١ . كما أن صحته قد اعتلت لبعض الوقت مما زاد في شعوره بالوهم تجاه الزعماء العرب . فقد أنجرف إلى مزاج سلبي جعله محبطاً من نتيجة مفاوضاته الدبلوماسية ، كما أنه غضب جداً من أخطاء كتابه أعمدة الحكمة . وخلال عمله مع تشرشل فقد نضبت طاقاته في بذل جهوده من أجل تحسين الكتاب . ورغم ذلك فانه أحيا أسوأ تجاربه الحربية ، والتأكيد على صياغتها ثانية تحت مثل هذه الأوضاع غير المفضلة مما أوجد لديه تشوشاً فكرياً . فقواه غير الواعية ، والتي كان قادراً بطريقة أو بأخرى أن يتعامل معها ، قد بدأت تلعبه دوراً مهماً ومتزايداً في تحفيزه .

ومثله مثل العديد من الجنود الذين شهدوا المعارك المرعبة وجربوها ، فقد كان يعاني من تأثيرات ما بعد الحرب ، إذ إنه تعرض لعدة سنوات إلى كوابيس في نومه . ورغم أن هذا كان عادياً نسبياً ، فإن القلق والضيق فهمهما الطب بشكل غير ملائم في ذلك الوقت ، ولم يكن لهما علاج على نطاق واسع . وقد اعترف لورنس بذلك ، سواء بين نفسه أو أمام العديد من اصدقائه .

وفي وصفه الكئيب هذا كانت حادثة ما كفيلة بالهيمنة على تفكيره وكان بوسعه أن يضع حادثة درعا خارج نطاق تفكيره خلال زخم حملة ، غير أنه ، ومنذ عودته إلى الحياة المدنية ، وجد نفسه منشغلاً فكرياً بهذه الحادثة ، فقد تركته يقع تحت شعور عميق من وصمة العار ، والتشوش والذنب . وكان تقييمه لها من بين الفصول الأولى «لأعمدة الحكمة السبعة» . وقال فيما بعد بأنه قد أعاد كتابة وصف الحادثة تسع مرات . وفي النسخة التي أنجزها عام ١٩٢٢ كتب بأنه كان يشعر بالتشوه ، والنقص ، وبأنه نصف

إنسان ، وبأنه قد نزل إلى مستوى منحط كالبهائم عندما كان يفكر بذلك ولازمه ذلك الشعور مصحوباً بالقهر والكآبة الشديدة» . وقد سببت له هذه الأفكار شعوراً متزايداً بالأذى والضرر النفسي والشخصي .

إن شعوره بالانحطاط إلى هذا المستوى المنخفض بدا منعكساً في التجرد الذي أبداه خلال دورة في الحرب مع العرب . ولم تستطع تسوية تشرشل أن تعفيه من مسؤولية الأكاذيب التي تفوه بها ، ولا من نتائجها المزعجة . وهو لن يكون قادراً أبداً على نسيان التضحيات التي قام بها من أجل أولئك الذين أحبوه . فالذكريات المؤلمة التي حملها مثل موت خادمه الشاب عثمان ، قد وضعها بشكل مؤلم في كتابه أعمدة الحكمة السبعة ، ولا بد أنها لازمته وذكرته بالأعمال التي قام بها .

لقد كانت معرفة مصدر هذا القلق هي التي جعلت التملق العام لا يكاد يحتمل كثيراً . فالترابط بين الثناء والذنب قد تشكل في دمشق ، حيث قابلته الجماهير هناك بالترحاب كمحرر ، اعتقاداً منها بأنه قد ساعد في منحهم الحرية النهائية . وأصبح الآن يائساً من الفرار من هذه السمعة الشعبية ، واعتقد أن بوسعه القيام بذلك بانتحال اسم جديد .

إن فكرة الاسم المستعار بدت طاغية في نفسه ، فكتب في «أعمدة الحكمة السبعة» يقول : «كان ثمة جذب خاص لبداية جديدة ، كمحاولة دائمة لتحرير شخصيتي من التعاظم ، وجعلها لاتعيق عملية اعتدال جديدة . . . وقد عكست النفس المخبأة الشيء الأوضح في الماء الراكد لعقل إنسان آخر غير مبال . فالأحكام المدروسة ، التي احتوت بين طياتها الماضي والمستقبل ، لم تكن جديرة بالمقارنة من أول نظرة ، مع الانفتاح أو الانغلاق الغريزي للإنسان على أنه بدا في حال من الغرابة . ومن هنا جاءت رغبتي في التخفي أو تبني اسم مستعار» .

وإن الرغبة الملحة في إظهار عمر شخصيته أو إخفائه كانت مظهراً من «الميل تجاه مستوى منخفض ، وعلى تلهف لجعل نفسي عادياً بين العامة من الناس» ، فقد أدلى لورنس بذلك عندما تقدم للتجنيد في سلاح الجو . كما أن هذا الشعور بحث في كتاب أعمدة الحكمة ، حيث جاء فيه : «لقد أحببت الأشياء التي هي دوني واستمد منها

مسراتي ، ومغامراتي ، وانحداراتي . وبدت هذه كمستوى من الشك في الانحلال والتفسخ ، كأنها سلامة نهائية . ويمكن للإنسان البروز إلى أي علو ، ولكن توجد ثمة نقطة حيوانية تقع في الأسفل لم يتمكن من السقوط اليها . ولقد كان ذلك رضا ثابتاً يرتاح المرء اليه . وإن قوة الأشياء ، والوقار المصطنع تلاشى عني شيئاً فشيئاً ، بيد أن ثمة تحمل بعد تذوق طعم الحرية الحقيقية لمدة اسبوعين اثنين في بور سعيد ، والتجوال بالقوارب البخارية نهاراً مع متسكعين آخرين من ثلاث قارات ، والنوم على ناحية تمثال ديلسبس ، وأمواج البحر تلامس رأسي» .

لقد اختار لورنس قضاء أجزاء كبيرة من مرحلة رجولته بين أناس لم يكونوا من ضمن بيئته الأصلية . وقد اعترف بهذه الحقيقة وسعى إلى فهمها ؛ رغم أن تفسيراته لهذا «الإلحاح باتجاه الأسفل» . تبدو غير ملائمة ، خاصة في ما يتعلق بانضمامه الى سلاح الجو ، وإذا ما فكر بذلك على نحو عميق فلا بد أن يدرك بالتأكيد بأن تجربته وخبرته ستكفلان له دائماً موقعاً خاصاً بين الضباط . لذلك ، فإن ميله تجاه المستوى المنخفض من الناحية العلمية ، سيقوده إلى أوضاع يكون فيها تفوقه الفكري بسيطاً وغير منافس . ومن الواضح من رسائله المتعلقة بانضمامه إلى سلاح الجو بأنه لم يحاول تجنب هذا الوضع الخاص ، فهو على العكس يبدو أنه قد رعاه وغاه ويولي هذا النمط من السلوك بأن لورنس عانى من شعور عميق بعدم الأمن والاطمئنان .

ويصف أيضاً في كتابه أعمدة الحكمة السبعة بشكل موسع أدواره المطولة التي كانت ثانوية ومحتقرة ذاتياً في الحقيقة ، فهو يقول في هذا الصدد : «لقد حاولت دائماً من خلال عملي أن أودي ذلك . . . فهو جزء من إخفاقي في عدم إيجادي رئيس يستخدمني أبداً . فجميعها كانت ضعيفة ، وأتاحت لي من خلال عجزي أو خوفي أو رغبتي حرية كبيرة . ولقد تمنيت دائماً وجود سيد لاستطيع القتال من أجله حتى أرتمي تحت أقدامه ساجداً ولقد استغليت نفسي بحيث لم يفعل ذلك أي رجل آخر ؛ ولكنها سيطرت علي بشكل أصعب وأشد قسوة ، وغلفتني حتى آخر نسيج من قوتي . واستطعت أن أقدم له مثل هذه الخدمة كما كان الأمر لبضعة أسياد ، وقدمتها له بحماسة ، فبالنسبة للعبودية الطوعية فقد كانت فخراً عميقاً لنفس مريضة» .

يبدو أن هذا البيان الغريب الملفت للنظر يطرح تعليقين مختلفين تماماً . الأول ، هو أنه من الواضح من «المقالات السبعة والعشرين» ، وغيرها من الكتابات ، أن لورنس كان بعيداً عن كونه تابعاً أو ثانوياً عندما كان يعمل كمستشار سري للرجال المتنفذين . فمن خلال مهنته السياسية والدبلوماسية حاول أن يؤثر في رؤسائه لكي يحقق أهدافه الشخصية . فمع الأمير فيصل وتشرشل عَدَّ نفسه قوة من وراء الستار» . ولم يعرف اللّنبي شيئاً عن حوافز لورنس الشخصية في الثورة العربية . ورغم ذلك ، ومن خلال لورنس ، ساعد على دفع القضية العربية قدماً . ومن هنا فإن الفقرة التي أُقتبست أعلاه تُعَّد مُضللة في هذا المجال .

ورغم ذلك ففي عام ١٩٢٢ يبدو أن الرغبة المشوشة من أجل شكل من أشكال الإذلال الذاتي قد أصبح عنصراً قوياً في حالة لورنس العاطفية . ففي رسالة بعث بها إلى صديق له بعد وقت قصير من تجنيده في سلاح الجو ، جاء فيها : «عادياً بالنسبة لي» . وكانت ثمة إشارات عديدة إلى هذا الحافز خلال السنوات القليلة التالية ، أوحت بهذه الأوهام فيما بعد بأنها شكلت جزءاً من تشوش انحرافي جنسي رئيس ارتبط بتجربته التي حدثت في درعا .

كانت هذه هي الحالة العقلية للورنس في شهر كانون الثاني من عام ١٩٢٢ . ويبدو أنه اعتقد بأن تطوعه في سلاح الجو سيساعد على علاج محنته ، وأبلغ روبرت غريفس بأن تطوعه كان مختلفاً قليلاً عن الذهاب إلى دير .

رد ترينشارد على رسالة لورنس في ما يتعلق بانضمامه الى سلاح الجو بما يأتي : «إشارة إلى غرضك الشخصي فإنني أفهمه جيداً ، وأنت تفهمه أيضاً كما اعتقد . وأنا مستعد أن أقوم بكل ما طلبته مني ، إذا ما ابلغتني كم من الوقت تريد أن تقضي في سلاح الجو ، غير أنني أخشى أن لا أتمكن من القيام بذلك من دون ذكر ذلك لوينستون (تشرشل) ، ولوزير خارجيتي ، ومن ثم فيما إذا كان بوسعي أن أُبقي على ذلك سراً ، لا أعلم . . وما هي الدولة التي ترغب في الخدمة فيها ، وكيف؟ وسأبذل ما بوسعي لتسهيل الأمور . فدعني أعلم فيما إذا كان من الممكن أن أذكر ذلك لوزيري خارجيتي ، وأحضر لتراني» .

لم يلب لورنس الطلب على الفور ؛ لا سيما في ذلك الوقت الذي كان لا يزال يعمل فيه في وزارة المستعمرات . ورغب قبل أن يتخذ أي توجه جديد في أن يكمل مراجعة كتاب أعمدة الحكمة وتنقيحه وبما أنه فقد المسودة السابقة للكتاب فقد قرر عمل عدة نسخ من الطبعة الجديدة . وعلم أنه بالإمكان طباعة النص بمطبعة «إكسفورد تايمز» ، وبأشكال صغيرة . حيث أنه كان منجذباً الى هذه الفكرة غير العادية ، وجرت خلال ربيع عام ١٩٢١ طباعة ثماني مجموعات من الكتاب ذات الورق السميك وكان من مستهلات الكتاب الإهداء ، إذ إنه وجهه إلى كل من «س و أ» . ولم يعرف ماذا كان يعني بحرف (أ) ، إلاّ أنه في عام ١٩١٩ ، صرح قائلاً : لقد تمنيت له الحرية من أجل إضاءة عينيه الحزينتين ؛ بيد أنه مات وهو بانتظاري . لذلك فقد طرحت بهجتي جانباً ولم أجد حتى الراحة والسلام» . كما كان يوجد بعض الشك في أن الحرف «أ» قد مثل أو عُني به دحوم ، الذي كان اسمه الحقيقي هو أحمد .

وفي عام ١٩٢٢ قدم لورنس تفصيلاً كبيراً لفكرة هذا الإهداء ، فهو قد قلد شكسبير ، الذي أهدى سونيتاته الغنائية إلى مجهول تحت اسم «السيد و . هـ» ، فأصبح رمز المهدى اليهما في «أعمدة الحكمة السبعة» هو «س ، أ» . ومن الصعب التوصل إلى حل من خلال تصريحاته المختلفة في هذا الشأن . ولكن يبدو أن رمزي «س ، أ» أصبحا معروفين على نطاق واسع بأنهما يجسدان عاطفة لورنس تجاه دحوم وشعوره تجاه سوريا وشعبها .

سمح تشرشل في نهاية الأمر للورنس بأن يترك وزارة المستعمرات في الأول ،من حزيران ، في حين أبقى عليه لبعض الوقت كمستشار فخري له . وكتب لورنس بعد ذلك يقول : «لقد أحببت وينستون كثيراً جداً ، واحتفظت له بالاحترام ، وقررت أن أغادر فقط نزولاً عند موافقته ، التي استغرقت وقتاً طويلاً» . وفي الرابع من تموز أرسل لورنس استقالته الرسمية إلى تشرشل ، الذي رد عليها بعد بضعة ايام . ونشرت الرسالتان المتبادلتان في صحيفة «مورنينغ بوست» .

وبعد أن حصل على استقلالته اتصل لورنس بترينشارد وفي ٢١ تموز وافق تشرشل ووزير الطيران على انضمامه إلى سلاح الجو . وبعد ثلاث أسابيع قدم لورنس نفسه إلى

مكتب التجنيد ، في الثالث والعشرين من آب .

خلال الأسابيع الأخيرة من تركه لوزارة المستعمرات أضاف لورنس مزيداً من الصور إلى كتابه أعمدة الحكمة السبعة . وكانت تتعلق بزملائه البريطانيين الذين شاركوه في العمليات الحربية . وقد أبلغ كلايتون بقوله : «ذهب كينفتون شرقاً من أجلي ، وجمع نحو عشرين صورة لعرب ؛ وأنا أردت نحو عشر صور لإنجليز من أجل موازنتهم» .

وجميع الإنجليز يبدون متشابهين في ملابسهم على أية حال ، لذلك فمن أجل حصول اختلاف إضافي فقد خرجت لأحصل على رسومات مختلفة يقوم برسمها عشرة فنانين مختلفين . وكان من ضمنهم نيوكمب ، ألن داوناي ، هوغارت ، بويل ، وبارثولوميو» ، وقد جرى رسم هؤلاء من قبل الرسامين وليام روبرتس ، وليام روثنستين ، أوغسطوس جون ، أريك كينغتون ، وكولن جيل ، ورُسم كلايتون من قبل وليام نيكولسون ، كما فوض لورنس آخرين للقيام بالرسم ، وهو كل من جون سيرجنت ، هنري لامب ، فرانك روبسون ، وجيلبرت سبنسر .

وفي عملية جمع الصور والرسومات لكتاب أعمدة الحكمة ، فقد أصبح لورنس في نهاية المطاف واحداً من أعظم الفنانين المعاصرين في بريطانيا حينذاك .

إضافة الى ذلك فإن هذا السخاء لم يكن متعلقاً بكتابه بشكل خاص ، وانما أيضاً بذل جهده لوضع أعمالهم ضمن المقتنيات الوطنية ، فعلى سبيل المثال قام بشراء تمثال نصفي لأوبرت سيتويل نحته فرانك روبسون ، كما قدم صورة لداونتي رسمها أوغسطوس جون ، والذي كلفه بذلك بنفسه إلى متحف الصور الوطني .

في أواخر آب سلم مجلدو الكتب أول ثلاث نسخ من كتاب أعمدة الحكمة السبعة ، فأرسل لورنس نسخة منها ، بشكل خاص ، إلى أدوارد جارنت ، وهو رئيس تحرير وناقد معاصر آنذاك . وكان جارنت يعمل مستشاراً لدار نشر جوناثان كيب جديدة التأسيس آنذاك . وعندما امتدح جارنت الكتاب رد لورنس بصراحة تامة بشأن طموحاته الأدبية : «هل تذكر عندما أبلغتك مرة بأنني قد قمت بجمع وترتيب رف (ضخم) من الكتب ، مثل الأخوة كارامازوف ، زاراثوسنا ، وموبي ديك . حسناً ، فإن طموحي هو إصدار نسخة إنجليزية منها . وستلاحظ بأن التواضع يأتي أكثر من خلال الأداء وليس

الهدف . . . وكانت لدي آمال طوال الوقت بأن ذلك سيكون عملاً كبيراً ، كتبته بنفسي ، ومن ثم عندما انتهى (مؤقتاً) وأرسلته إلى المطبعة أعيد إلي بقالب جديد فرأيت بأن ذلك لم يكن جيداً» .

أما الناقد الآخر الذي طمح لورنس بأن يراجع له كتابه أعمدة الحكمة فكان برناردشو ، الذي قابله بالصدفة في أوائل ذلك العام . وعندما كتب له يستفسر فيما إذا كان بإمكانه أن يرسل الكتاب إليه ، وافق شو على ذلك ، إلاّ أنه طلب منه أن يؤجل ذلك إلى شهر أيلول .

واقترب موعد انضمام لورنس إلى الجو ، إذ تلقى تعليمات مفصلة بهذا الخصوص من نائب قائد سلاح الجو السير أوليفر زوان ، وكان في الوقت نفسه مسؤولاً عن إدارة تجنيد الأفراد . وكان على لورنس الذهاب إلى مكتب التجنيد الواقع في «كوفنت جاردن» في نحو الساعة العاشرة والنصف صباحاً ، في الثلاثين من شهر آب . ومما جاء في رسالة الدعوة ما يأتي : «ستقول بأنك ترغب في رؤية السيد ديكستر ، الذي ستأخذ منه كتاب تعيينك . فالملازم طيار ديكستر سيقابلك ويقوم بملء النماذج اللازمة - وعليك أن تبلغه بالخصوصيات التي اتفقنا عليها (ولا تخبره بالحقيقة كاملة ، ولا باسمك الحقيقي) . وسيقوم بإرشادك إلى أي قسم أو إدارة ستعمل بها (فديكستر يعلم بأنك منضم ، بشكل خاص ، وسيعمل على مساعدتك ، غير أنه لا يعلم جميع الحقائق التي لا تهمه) . ومن ثم فستجري فحصاً طبياً في مستشفى يقع في شرع هنريتا ، فلا تذكر لهم أي عجز أو إعاقة تتعلق بك . وإذا لم تجتز الفحص فإن الملازم ديكستر سيعالج الأمور .

كما أن عليك أن تشير إلى شخصين اثنين يعرفانك منذ سنتين في الأقل فهم لن يقوموا بالاستقصاء عنك ، ولكن من الضروري لك أن تعبىء ذلك حتى لا يقول أي واحد كان بأن اوراقك ناقصة . ومن ثم فسترسل إلى اوكسبرايد ومعك أوراق التجنيد . وهناك ستجري فحصاً طبياً . وعليك أن تشهد بأن ما أدليت به وكتبته في نموذج التجنيد هو صحيح ، إذ إنك ستؤدي يمين قسم الولاء للتاج البريطاني . وسيجري اختبارك ثقافياً بشكل بسيط إذا ما أردت الانضمام إلى سلاح الطيارين .

وأعتقد بأنه لن تكون ثمة صعوبة بعد مغادرتك شارع هنريتا ولن سيعرفك أحد .

ولكن إذا ما نشأت هناك صعوبة ما ، في آخر لحظة ، فاطلب من السيد ديكستر أن يتصل هاتفياً» .

أصبح اسم لورنس في سلاح الجو هو روس ، وهو اسم مستعار استخدمه مع الغرباء منذ أوائل عام ١٩٢٠ ليفر من الشهرة التي أوجدها لويل . كانت صحة لورنس قد ساءت عندما التمس من ترنيشارد الانضمام إلى القوات الجوية في شهر كانون الثاني . وفي نهاية شهر آب أصابه توتر شديد نتيجة لإتمامه كتاب أعمدة الحكمة ، بحيث لم يكن بعيداً عن الانهيار العصبي . وكتب حول ذلك فيما بعد يقول : «لقد أوشكت على الإصابة بالجنون في هذا الربيع بلندن ، بسبب ذلك الجيشان الذي سببه لي كتابي البغيض» . لقد عاش لورنس عدم الاستقرار الفكري هذا عدة أشهر من دون طعام أو نوم كافيين . ونتيجة لذلك فإنه لم يكن في وضع صحي يؤهله لاجتياز الفحص الطبي اللازم للانضمام إلى سلاح الجو ، كما أنه كان لا يزال أقل تقبلاً لدخول دورة التدريب القاسية في هذا المجال .

الفصل العشرون

الملاح الجوي روس

أيلول ١٩٢٢ - كانون الثاني ١٩٢٣

في الرابع من أيلول ١٩٢٢ أوردت صحيفة الديلي ميل ما يأتي : غادر ثوماس إدوارد لورنس ، الضابط البريطاني الذي نظم الجيش العربي ضد الأتراك خلال الحرب ، غادر لندن إلى جهة ما في الخارج» . ولكنه في الحقيقة ، كان قد قدم نفسه في الثلاثين من آب إلى مكتب تجنيد سلاح الجو البريطاني الواقع في شارع هنريتا ، بمنطقة كوفنت جاردن .

وكان يأمل بالانضمام إلى سلاح الجو من دون استخدام الترتيبات الخاصة التي وضعت مسبقاً ، بيد أنه أخفق في الفحص الطبي ، ولكنه بعد تدخل زوان قُبل في نهاية الأمر ، وسجل تحت رقم (٣٥٢٠٨٧) واسم روس ، وأُلحق بموقع تدريب سلاح الجو الواقع في أوكسبرايد لتلقي تدريبات أساسية لمدة ثلاثة أشهر .

وبدأ على الفور بكتابة ملاحظاته لمشروع كتاب جديد له يتعلق بسلاح الجو . وكان الجزء الأول منه يتناول دورة التدريب ، غير أن التجربة التي سجلها خلال هذه الأسابيع جاءت صادمة ، فالمجندون في موقع تدريب أوكسبريد كانوا خاضعين لعملية تدريب شاقة ، وبعد ذلك يقضون الكثير من وقتهم في الراحة نتيجة التعب والإرهاق الشديدين . وكانت ثمة الكثير من المهام بغيضة ، بحيث لم يكن متسع من الوقت للقيام بأعمال خاصة أو إضافية للمجندين . وفيما لو كانوا يستخدمون بشكل مفيد أم لا ، فإن مهامهم كانت تستلزم الطاعة العمياء من دون تردد أو احتجاج .

وسواء كان من الناحية الجسدية أو حسب المزاج ، فلم يكن لورنس ملائماً للنظام المتبع في أوكسبريدج . فذلك التدريب الذي خصص للشبان الصغار الأقوياء قد أدى به إلى نقطة الانهيار تقريباً ، لذلك فغالباً ما شعر برغبة في الفرار فقد كان عليه الخضوع لانضباط قاسٍ مترافق مع انضباط ذاتي أقوى ، إلا أنه لم يستسلم ، إذ يقول في هذا

الصدد : «كنت مصمماً على الانخراط في سلاح الجو إلى الدرجة التي أكون فيها مصوراً لبعض أسرابه» .

إن مقته وبغضه للتدريبات في سلاح الجو لم تجعله ينس كتابه أعمدة الحكمة وانتظر بتشوق ردود الأفعال الأولى لمجموعة قراء كتابه وحكمهم على النص . ولكن مما فاجأه أن أحد ردود الأفعال كان عبارة عن سلسلة من المشاهد المضحكة مثل : «لقد انتقل كينغتون إلى مرح متضارب ، بعد قراءة كتابي ، وخطرت لديه فكرة رسم عدد من الكاريكاتيرات . أما بالنسبة لي فانها كانت فكرة نادرة ، مفاجأة وجديدة بالنسبة لي مثل كعكة الخوخ ، تسيغ مرحاً على النص ككل . فمن الجيد أن يجد المرء شيئاً مضحكاً ضمن رواية بطولية ساخرة مليئة بالغرور ، إنه اختراق حاد من قبل كينغيتون لفكرتي وخيالي» .

أما رسائل إدوارد جارنت في هذا الصدد فقد استمرت بمدحها وثنائها الكامل على الكتاب ، فقبل ذلك بعدة سنوات لخص إدوارد رواية دونتي «تجوالات في الصحراء العربية إلى نحو النصف من أجل إصدار طبعة شعبية ، ومن ثم فقد قدم هنا عرضاً لاختصار «أعمدة الحكمة السبعة» بالطريقة نفسها وكان لورنس لا يزال غير راضٍ عن كتابه ككل ، فإذا ما اختصر بشكل جيد فإنه سيتيح له دخلاً خاصاً . فوافق على ذلك بحذر قائلاً : إنه لشيء جيد منك أن تكون راغباً في محاولة القيام باختصار الكتاب . فاعتقد بأنني قد أنشر شيئاً ما بعد هذا كله ؛ إذ إنني بلغت سناً عتياً من هذه الحياة القاسية الشديدة . فقد حصرت نفسي لمدة طويلة في غرفة فارغة ، أو في سرير منفرد» . وأرسل له نسخاً غير مجلدة من الكتاب من أجل العمل بها .

وانتهت المسودة الأولى (المختصرة) للكتاب خلال خمسة أسابيع فقط ، وزارت لورنس جارنت في لندن لجمع الأوراق المختصرة من الكتاب . بعد ذلك بأسبوعين يقول : «مع كل هذه الرسومات (التي بلغت أكثر من خمسين رسماً) أشعر بأنني أقل ميلاً أكثر فأكثر لإصدار الكتاب ككل ، كما قررت تقريباً عدم إصدار أي شيء آخر . ففكري حائر ما بين الحاجة للمال والرغبة بسحب الكتاب ، إنه استعراض يثير الشفقة من جانبي . فأنا أتمنى لو أن هذا الكتاب البغيض لم يكتب» .

وبعد عشرة أسابيع فقط من دورة التجنيد أرسل لورنس إلى مدرسة التصوير التابعة لسلاح الجو في فارنبورو . وقبل مغادرته أوكسبريدج بدا يرى في التدريب الأساسي نوراً جديداً . فهو يعزز روح التعاون بين الرجال ، الأمر الذي لم يتوقعه . وفي الوقت الذي عين فيه في فارنبورو أضحى متحمساً للعمل في سلاح الجو . كما أصبح طليقاً في كتابة ملاحظاته بحرية عن أوكسبريدج عندما انتزعوه منها» .

وسرعان ما أدرك بأن ملاحظاته عن اوكسبريدج ستشكل افتتاحاً قاسياً لدراسته لسلاح الجو . وأصبح الكتاب واحداً من تبريراته الرئيسة للانضمام إلى سلاح الجو ، بيد أنه شعر حينذاك بعدم تعيين حول مستقبله . وفقد لبعض الوقت الاهتمام بذلك وتخلى عن كتابة الملاحظات وبدلاً من ذلك أصبح فكره منصباً على فكرة إصدار طبعة مختصرة من كتاب أعمدة الحكمة السبعة . وقال في هذا الشأن : «إنني سأحتقر نفسي إذا ما فعلت ذلك . فمواجهة خمسة وثلاثين سنة فقط من شرور الفقر حتى أكثر من سحق احترامي الذاتي . وقد كرهت بصدق هذه الحياة القذرة ؛ وبسبب احتشام ولياقة الاشخاص الاخرين ، فإن قذارتها الكاملة لم تواجهني بشكل عادل» . وقد أذته فكرة الطلب منه ترك السلاح في الصميم ، حيث يقول : «اليس هذا إشارة وهن وضعف بي ، لأصرخ ضد حياة الجندية والثكنات العسكرية؟ فهذا يعني أنني خائف (خائف من الناحية الجسدية) من رجال آخرين؟ فحياتهم الحيوانية الشرسة تبدو لي أنها من أكثر المرافقين فزعاً لتنتاب الإنسان ؛ كما كرهت ضجيجهم . فالضجيج يبدو لي مثلهم بالتأكيد . فما الذي يجعلني حساساً جداً ومستعداً جداً للصراخ ، ومن ثم مستعداً جداً لجلب الكثير من الأذى لنفسي؟»

إن فكرة أصدار طبعة مختصرة من كتاب أعمدة الحكمة السبعة جعلته غير مهتم بازدياد بمستقبله في سلاح الجو . ففي شهر تشرين الثاني كتب بثقة بالغة لزوان ، يشكو له من دورة التدريب . ووصل في إحد الأيام إلى فارنبورو متأخراً جداً من أجل البدء بدورة تصوير ؛ فبدلاً من السماح له بالانضمام إلى الدورة ، أقره قائدها بأن ينتظر حتى الدورة القادمة بعد شهرين . فكتب لورنس رسالة احتجاج مرة ثانية في التاسع عشر من تشرين الثاني ، مبلغاً زوان بصراحة أنه إذا لم يكن بإمكانه الانضمام إلى الدورة في

الحال فإنه سيكون راغباً في التحول إلى جهة أخرى . فعمل زوان (الذي كان يعر ف بأن واسطة لورنس في السلاح هو ترنيشارد) على الاتصال فوراً طالباً من قائد قاعدة فارنبورو أن ينضم المجند روس إلى دورة التصوير في الحال .

كانت هذه المبادرة واحدة من الأعمال التي ساعدت على كشف هوية لورانس فقائد دورة التدريب في فارنبورو ، قائد الجناح ي جيولفيول دهش لأن زوان كان مهتماً كثيراً في أمور المجند روس . وعندما نظر بتمعن إلى روس ، تيقن بأن ثمة تشابهاً غريباً بينه وبين الكولونيل لورنس الشهير . ولم يمض وقت طويل حتى تأكد هذا الشك ، عندما كُشف أمر روس بأنه لورنس من قبل ضابط زائر للمعسكر كان قد خدم في القاهرة خلال الحرب . وواثق كل من جيولفيول ومساعدة تشارلز فيندلي على الاحتفاظ بهذا السر ، على أمل أن يجتاز لورنس دوره تدريبه في مدرسة التصوير من دون وقوع أي حادث .

ورغم ذلك فقد بدا لورنس انه مكشوف الأمر في ذلك الوقت إذ أبلغ بعض الغرباء بأنه كان يخدم في سلاح الجو . وعرف بعض الأشخاص ، من ضمنهم إدوارد جارنت ، اسمه المستعار وعنوانه على نحو لا يصدق ، وقد كتب لورنس حول تجنيده السري إلى صديقه ر . بلومينفيلد ، رئيس تحرير صحيفة الديلي اكسبرس ،جاء فيها : «ستكون هذه الرسالة مفاجأة مذهلة لك ، راجياً الإبقاء عليها سراً ، مني لك . . . لقد وجدت الهدوء على الصخور ، لذلك فقد تجندت ، بشكل سريع وسهل ، فهل لك أن تحتفظ بهذه المعلومات لنفسك . فلا أجد في المعسكر من يعرف من أنا ، ولا أريدهم أن يعرفوا ذلك أيضاً . لذلك فإن مثل هذا النمط من الكشف قد أوجد من المؤكد شائعات ولغط حول تجنيده وصلت إلى آذان لا تؤتمن» .

ولكي يكون قادراً على زيارة لندن ، فقد اشترى لورنس دراجة نارية مع عربة جانبية لهذا الغرض . وغالباً ما كان يعيرها لرجال سلاح الجو الآخرين ليذهبوا بها إلى المدينة ويعودوا . وأصبح هذا التحرك مهماً بازدياد بالنسبة له .

وكانت رسالته الثانية إلى بلومنيفيلد ، الذي قدم له عمل ما ، أكثر من كونها طائشة ، وقد جاء فيها : «لا ، أرجوك لا تنشر سري . فسيكون خبراً عادياً في يوم ما ، ولكن الأفضل أن يبقى الآن سراً من أجل راحتي في الجندية . وكما قلت ، فإن الأمر

يبدو مثل ميلودراما رخيصة ، لم يحدث مثلها طيلة حياتي الغريبة . وسأبلغك في يوم ما بقصتي الحقيقية - إذا ما أردت سماعها .

في غضون ذلك ، أنا أفكر بتأليف كتاب جديد - لن يكون شخصياً - يتعلق بسلاح الجو ، السلاح الأكثر أهمية ، وآمل أن استفيد من غموض شخصيتي الآن في إنتاج نسخة مختصرة من كتابي القديم حول الحرب في الجزيرة العربية (أعمدة الحكمة السبعة) .

بدأ لورنس بسلوكه المتعجرف داخل سلاح الجو بمواجهة مع السلطات . واعتقد بأن سلطة الضباط في معسكر فارنبورو كانت منخفضة جداً بحيث لم يكن لهم سلطة على الرجال الذين كانوا تحت أمرتهم ، ولم يكن ليخفي ازدراءه بذلك . واستذكر فيندلي مناسبة ما عندما «كان علي تأنيبه (لورنس) بسبب حادثة سخيفة وغبية أقترفها . إذ أن ضابطاً محافظاً شاباً ، كان يقوم بتفتيش عادي على الأسلحة والملابس قبل نشر الحرس ، فأبلغ أحد رجال الجو بأنه لم يكن راضٍ عن وصفه . فرد الرجل (وكان لورنس) على الضابط بلغة أجنبية ، مما أثار ضحك زملائه الاخرين من الحرس . ولم يكن هذا بالتأكيد حفاظاً على رغبته في أن يظل غير ملاحظ» .

لقد عرض لورنس نفسه للخطر بسبب هذه الغطرسة ، لأنه قرر حينذاك إصدار نسخة موجزة من «أعمدة الحكمة السبعة» ، والذي كان سيدعى «حرب في الصحراء» . فأبلغ برنارد شو في تشرين الثاني بأن لا يزعج نفسه بقراءة الكتاب الكامل لأعمدة الحكمة ، وبعد ذلك بيومين كتب إلى جارنت ثانية حول كتابه المختصر ، يقول : «أذكر اسم الكتاب لكيب ، بكل ما يعني ذلك ، ولكن ابلغه بأن إصداره سيكون مكلفاً ، وأنني قد أوكلت ذلك إلى كيرتس براون لإصدار الكتاب ، وسأكون مسروراً بالطبع اذا ما قام بذلك ؛ ولكن يبدو لي ذلك بأنه مضاربة ضخمة غير مبررة بالنسبة لموارده» .

بعد وقت وجيز وصلت رسالة من شو إلى لورنس مفادها : «الصبر ، الصبر ، . . .الحقيقة أنني لم أقرأ كتابك بعد فعلي أن أُدققه . . . وقد تولت زوجتي القيام بذلك أولاً ، لتقوم بحرثه (تدقيقه) من الألف إلى الياء لذلك فهو سيستغرق شهوراً عدة . إلاّ أن الوقت الذي سيستغرقه يجعلني أنظم أعمالاً أخرى حتى يتسنى لي وقت كافٍ للبدء

فيه . . ورغم ذلك فأنا أعلم بما فيه الكفاية عنه الآن بشكل يثير الدهشة وهو يحتوي ثمة أمور واضحة لا يمكنك نشرها . ورغم ذلك يوجد العديد منها لا يمكن أن يموت . . وإتخاذ خطوة تجاهها تُعَّد واضحة تماماً . وأن لدى مجلس أمناء المتحف البريطاني مجموعة كبيرة من الكتابات المحظورة يمكن أن يكشف النقاب عنها بعد مائة عام . . وأنت تقول بأن لديك أربع أو خمس نسخ من كتابك العتيد .

ويجب أن تحفظ نسخة واحدة منه في الأقل ، ويودع الباقي في كل من بلومسبوري ونيويورك . . . بيد أن الكتاب المختصر سيوزع بشكل عام . وثمة ضرورة من أجل إصدار تاريخ رئيس للحملة لأغراض عملية» . ولا بد أن هذه النصيحة بدت كإقرار قيم لمشروع جارنت ، وإذا ما كان لورنس لا يزال لديه شكوك في هذا الشأن ، فلا بد أنه قد طرحها جانباً . إذ كتب يبلغ شو عن النسخة المختصرة ، وعن التحاقه بسلاح الجو أيضاً .

أخيراً ، بدأت صحف شارع الصحافة بالتحقيق في أمر الشائعات التي تفيد بأن لورنس يخدم في مرتب سلاح الجو ، ولم يستغرق الأمر منهم طويلاً من خلال تتبعه إلى معسكر فارنبورو . وفي السادس من كانون الأول بعث جيولفيول إلى زوان يقول له بأن صحافيين من جريدتي الديلي ميل والديلي اكسبرس قد زارو المعسكر . وستكون مسألة وقت قبل أن تصبح القصة منشورة على الصفحات الأولى من الصحف ، ولم يكن بوسع جيولفيول سوى الانتظار حتى نشوب العاصفة .

عند سماعه بكتاب أعمدة الحكمة المختصر والمقترح ، بدأ برناردشو بالقيام بالمبادرات من جانبه ، فكتب في السابع عشر من كانون الأول مبلغاً لورنس عن المبادرات التي قام بها مع ناشريه دار كونستابل للنشر ، ليحفزهم على الاهتمام بكتاب أعمدة الحكمة . إلاّ أن الرسالة لم تصل إلى لورنس حتى يوم عيد الميلاد ، إذ إن ترتيباته من أجل النشر كانت في مرحلة متقدمة في غضون ذلك ، مع دار نشر كيب ، وكتب لورنس في الحادي والعشرين من كانون الأول إلى بوكستون يقول : «لقد عزمت على بيع النسخة المختصرة من كتابي (أقل من الثلث تقريباً) عن الجزيرة العربية ، أي ببضعة الالف (ربما ستة آلاف جنيه استرليني) في العام القادم . وبعد ذلك فأنني من المحتمل أن أترك سلاح الجو ، وفي غضون ذلك فإنه لن يكون لدي مزيد من المصاريف سوى الدفع للفنانين وشراء دراجة

نارية» . فقد أصبح انذاك واثقاً جداً من نفسه . وكتب في يوم عيد الميلاد الى هيربرت بيكر بأنه كان يعاني في فارنبورو من أمور عدة جاءت متأخرة ، وكان يثير مضطهديه بالضحك عليهم . ولكنه لم يكن يقوم بذلك بطريقة خنوعة .

ورغم هذا كشف النقاب أخيراً عن تطوعه في سلاح الجو . فقد ظهر على الصفحة الديلي اكسبرس ، التي كان يرأس تحريرها بلومنيفيلد ، العنوان الاتي : «الملك غير المتوج» يصبح جندياً خاصاً : لورنس العرب ؛ بطل الحرب الشهير يصبح جندياً ؛ ساعياً للسلام ؛ وينتهز الفرصة لتأليف كتاب» وبالرغم من هذه الافتتاحية الحساسة ، فإن المقالة لم تفصح عن مكان وجوده ، وربما أشارت فقط إلى أنه كان يخدم في الجيش .

أما القصة التي تبعت ذلك في اليوم التالي فقد كانت أكثر تخريباً إذ كشفت عن أن لورنس كان يخدم في سلاح الجو في قاعدة فارنبورو تحت إسم مستعار هو روس ، وقدمت تفاصيل مختلفة عن حياته هناك ، تستند تماماً إلى تخمينات .

إذ إن من الممكن تصوره أن بلومنيفيلد قد قدم فقط إشارة وتحذير لهذا الكشف . وفيما بعد ، وبتخمين مشوش ، أدعى بأنه بينما كان خارجاً «علم أحدهم في مكتبه بالقصة التي لم يكن من الممكن إبقائها سراً لمدة طويلة» .

في السابع والعشرين من شهر كانون الأول ، وبعد يوم واحد من نشر قصة الديلي نيوز» ، رد لورنس على رسالة برناردشو بخصوص كتاب أعمدة الحكمة ، موضحاً بأن كيب كان له المجال الأول في نشر كتابه . وقبل تسلمه هذه الرسالة : علم شو من مقال نشر في صحيفة الديلي نيوز بأن المفاوضات مع الناشر كيب كانت في مرحلة متقدمة . ويبدو أنه كان منزعجاً إلى حد كبير من أن مسعاه لصالح دار نشر كونستابل قد أخفق . وكتب إلى لورنس ثانية ، مرفقاً المقالة التي ظهرت في «الديلي نيوز» ، يقوم : «لقد خرج القط من الحقيبة الآن ، ويمكن أن يفترض أن الناشر جوناثان كيب قد حصل على ذلك بموافقتك . ولا يمكنني الانتظار حتى الانتهاء من الكتاب قبل أن أقدم لك رأيي وبقوة . فيجب أن ينشر من دون اختصار تماماً . ويمكن أن يفكر فيما بعد بالكتاب المختصر . ولكن على أية حال فلا ينبغي عليك الآن أن تروج لفكرة الكتاب المختصرة أولاً ، إذ أنه لن يكون ثمة ناشر ما يقبل بأن ينشر الكتاب كاملاً ؛ لذلك فإنني أكرر ثانية : يجب أن ينشر

الكتاب برمته . وإذا لم يكن كيب مستعداً لذلك ، فهو ليس بالرجل المناسب لك ، مهما تكن ارتباطاتك معه» .

ولم يقدم شو أي سبب لهذا التغيير المفاجىء ، فقبل أربعة أسابيع أبلغ لورنس بأنه يجب أن تنشر النسخة المختصرة من الكتاب ، مع وضع نسخ من النص الكامل في غرف مغلقة بمكتبات مختارة . أما الان ، فان حجته هي أن النسخة المختصرة من الكتاب ستمنح نشر النص الكامل للكتاب مستقبلاً . وليس من الصعب إدراك ذلك ، إذ إنه يكمن وراء الانتقادات المتكررة لكيب ، رغبة في انكار نجاحه ، ولتأمين كتاب أعمدة الحكمة لناشرين خاصين به (بشو) .

ومهما كان حافز شو ، فإن تأثير خطابه في لورنس لا بد أنه كان صاعقاً . فشو كان واحداً من أعظم الشخصيات الأدبية في ذلك العصر . لذلك فقد أصبح جارنت مستشار لورنس الموثوق به ، في حين كان شو البطل والناطق الصريح لحقوق المؤلفين . وقد شعر لورنس دائماً بالشكوك والارتياب بشأن النسخة المختصرة للكتاب . أما الآن فقد بدأ يشعر بالخوف من أنه كان يقع ضمن مناورة وفخ تجاري ما بين كيب وجارنت ، والأسوأ من ذلك كان عليه أن يختار بين إعطاء موافقة دائمة لإصدار النسخة المختصرة أو النص الكامل لكتاب أعمدة الحكمة . وبحث خلال عطلة نهاية الأسبوع من نهاية ذلك العام الوضع مع عملية ريموند سافيج ، ومن ثم كتب في الأول من كانون الثاني إلى كيب ليبلغه بسحب مشروعه .

أن لورنس لو كان قد تلقى رسالة شو بعد بضعة أيام ، لكان قد وقع عقد النسخة المختصرة . ولأصبح لديه عندئذ المال الذي كان بحاجة إليه ليترك سلاح الجو ويواصل مشروعاته الأخرى . فقرار عدم نشر النسخة المختصرة من الكتاب تركه من دون دخل ، وعنى ذلك أنه سيظل في الخدمة بسلاح الجو ، أو يسعى من أجل الحصول على عمل ما . ومن دون إدراك ذلك ، ومن أجل حوافز كانت تافهة في أفضل الأحوال ، فإن شو قد كبح جماع لورنس في لحظة قراره . وبعمله ذلك فقد غير مجرى حياة لورنس .

ولم يكن لدى شو أدنى فكرة عن الضرر الذي قد سببه للورنس وفي الحادي والثلاثين من كانون الأول ، كتبت شارلوت ، زوجة شو ، إلى لورنس ، ولأول مرة ، فيما

عُدَّ بوضوح أنها محاولة لدعم وجهة نظر زوجها ، قائلة : «كم يمكن أن يُخيل أو يُصور بأن رجلاً يمكنه كتابة أعمدة الحكمة السبعة تكون لديه شكوك حول ذلك؟ فإذا لم تكن تعلم بأنه كتاب عظيم ، فما فائدة أن يخبرك بهذا أي واحد آخر .

لا بد أن يُنشر الكتاب برمته . ألا ترى ذلك صحيحاً؟ يجب إصداره كما هو عملياً ، بطبعة جيدة ، وبكميات كبيرة . وأنا متأكدة من أن دار نشر كونتسابل ستقوم بذلك . وأنني وبرناردشو لدينا خبرة طويلة في الكتب ، لذلك فاننا سنخرجه لك على أكمل وجه» .

ولم يمض وقت طويل حتى كتب له شو ثانية في الرابع من كانون الثاني يقول : بالنسبة للكتاب ضع أمرين في مُخيلتك فيما يتعلق بي . أولاً ، أنا رجل كبير السن ومحترف متمرس ، وانت مازلت هاوياً في لغة الأدب ، وتتساءل فيما إذا كان عملك الأول جيداً بما فيه الكفاية لأن ينشر ، وفيما اذا كان أسلوبك جيداً أم لا . أنا كفيل بتصحيحه لغوياً ، وعندما أقول بأن العمل يجب أن لا يصدر مختصراً ، فإنني لا أعني بأنه يجب أن يصدر بفقرات ترفع باناس مضيئين إلى أن يتخذوا موقفاً منك أو أنهم يستسلمون . وسيولى الناشر عناية جيدة بذلك إذا ما كنت غير مهتم بهذا الشأن . فلا بد أن تعتاد على الأضواء ، وللناس حقوق أيضاً في هذا الشأن ، فهم يريدون منك الظهور دائماً لتمجد نفسك وتصرخ عالياً وتقول : «ها أنا ، لورانس ، أمير مكة» . فالعيش بين الضباب يغضب الله .

فارفع من معنوياتك ؛ وقم بواجبك تجاه الكتاب ، ورتب الأمر من أجل إصداره في الحال . فهو لن ينجز خلال خمس دقائق ، كما تعلم . فلديك عالم النشر برمته تحت أمرتك ، مثل الناشرين كونستابل ، الذين لديهم ربما رأسمال أقوى من دار نشر كيب . وبناء على ذلك ، يمكنك الاختيار أين ستنشر كتابك» .

احتج كيب ، الذي لم يكن على علم بأنشطة شو ، بشدة على لورنس بسبب الغائه المفاجىء غير المبرر لإصدار النسخة المختصرة من كتاب أعمدة الحكمة السبعة ، ولكن في ذلك الوقت كانت لدى لورنس أسباب أخرى بحيث لم يفعل شيئاً ، فقد زار ترنيشارد فارنبورو في الثالث من كانون الأول وحذره من أن وضعه في سلاح الجو كان قد أصبح

حرجاً . وبعد أربعة أيام كتب لورنس إلى كيب يخبره بأنه لايمكنه نشر أي شيء بينما لا يزال في سلاح الجو . وهذا الأمر سيستغرق وقتاً على أية حال .

كان فكره مشوشاً ، فغالباً ما كان يقول بأن الهدف من إصدار طبعة مختصرة هو من أجل الفرار من سلاح الجو ، لكن شيئاً ما قد تغير الآن فقد اكتشف لأول مرة ما كان يمكن أن يكون مشابهاً لهدف كشف الصحافة الحساس ، فحتى ذلك الوقت كانت الصحافة في حيرة من أمرها ، وهذا أدى به إلى وهم خطير بأنه يمكنه التأثير فيها حسبما يريد . فلا شيء من الدعاية التي تلقاها بعد الحرب قد هيئته لتلقي الصدمة نتيجة وضعه الحالي . وعندما اكتشفت شخصيته شعر الضباط بالحرج والارتباك ، غير أن معظم الرجال وقفوا معه وحموه من الصحافة بالتضامن معه ودياً . وكتب لورنس يقول في هذا الشأن : «من الصعب أن يظل المرء غير إنساني في حين يثير ويحرك طوال الأيام والليالي حشداً من الرجال البسطاء النظيفين . ويوجد هنا شيء ما ، لم أواجهه في حياتي من قبل ، أحلم به بصعوبة» وبدا سلاح الجو فجأة كملاذ بالنسبة له ، فتشبث به بشكل يائس .

ورغم أنه لم يدرك ذلك فقد بدأت بعض مظاهر وضعه تمثل الحياة التي تمتع بها كثيراً في كركميش ، والصداقتين الخاصيتين اللتين ارتبط بهما مع كل من تشامبرز وجاي . وكان تشامبرز ذكياً وذا عقل معلوماتي مما أكسبه مكاناً بارزاً في الجامعة . وأدرك لورنس مقدرته مشجعة على تعليم نفسه من خلال القراءة . أما جاي فقد كان أقل ذكاءً . رغم أنه أحب القراءة أيضاً . فتمتع لورنس بهذه الرفقة ، وكتب عنه مرة يقول : «إن الرجل الصغير يجد رتب سلاح الجو كما أتصوره» .

وكان أوحي من قبل كتاب رأوا فقط جزءاً صغيراً من المراسلات الباقية التي جرت بين لورنس وجاي ، بأنها صداقة بنيت على أساس شذوذ جنسي ، ويستمد هذا الادعاء من مسألتين : الأولى حول طبيعة علاقة لورنس مع جاي . والثانية في المسألة الأكثر عموماً لميل لورانس الجنسي خلال هذه السنوات في سلاح الجو . وفي ما يتعلق بجاي ، فإن إيحاء جاذبية شذوذه الجنسي تكمن في ثلاثة أدلة : مظهر جاي الجميل ، الالقاب التي كان يدعوه بها لورنس ، وفقرة مأخوذة من إحدى رسائل لورنس إليه .

المسألة الأولى التي تتعلق بمظهر جاي ، كانت قد بحثت في سيرته الذاتية التي كتبها جون ماك تحت عنوان : «أمير اضطرابنا» فقد اقتبس عن جوك تشامبرز قوله إن جاي كان «وسيماً مثل إله اغريقي» وقبل بضعة أسابيع من مقابلة جاي أدلى تشارلز بتصريح مشابه لي مفاده أن لورنس مزح معه مرة واصفاً مظهر جاي بأنه ملائكي تقريباً ، بيد أن تأثيره وبهجته يتلاشيان عندما ينطق بلهجة بيرمينجهام البغيضة» فإذا ما أخذت هذه الملاحظة على محمل الجد ، فانها تُعَدّ دليلاً على عاطفة جنسية شاذة .

كان جاي ، القصير وذي الشعر الأشقر يُطلق عليه في مرتب سلاح الجو اسم «الأرنب» أو «الدمية» ، اذ إن من الشائع أن الأسماء المستعارة كانت تستند إلى المظهر . وغالباً ما كان الخيار قاسياً : ففي مناسبات عدة كان يطلق على لورنس نفسه لقب «القصير» . وقد ألمح عدة كاتبي سير ذاتية إلى أن لقبي «الأرنب» و «الدمية» قد استخدما بشكل خاص من قبل لورنس ، من دون إدراك أن هذه الألقاب كانت تُعَدّ عادية .

وكان جزء من الدليل الآخر يكمن في رسالة بعث بها لورنس إلى جاي ، فوفقاً لأحد كتاب السير الذاتية ، وردت في الرسالة عبارات جنسية مثيرة تشير إلى ارتباطهما الوثيق . ورغم ذلك ، فإنه لمن التضليل أن تذكر هذه الرسالة من دون تفسير المحتوى . فقد كتبت بعد نحو عام من ترك لورنس لفارنبورو . وكان عليه مقابلة جاي لوقت قصير قبل المغادرة ببضعة أسابيع ، وعند الفراق كان لا بد من التفوه بعبارات تشير إلى انهما من الممكن أن لا يلتقيا ثانية . ومن الجائز تماماً أن هذا ما كان يعنيه لورنس في الحقيقة ولأن مراسلاته اللاحقة مع جاي تظهر أنه لم يبذل سوى جهد بسيط ليبقى على اتصال معه .

لقد قيّم جاي صداقته مع مثل هذه الشخصية الشهيرة ، غير أن هذا لم يكن حافزه الوحيد لرغبته في إبقاء اتصال مع لورنس ففي كل معسكر كان ثمة أفراد يتلهفون لسخاء لورنس ، لذلك ، فإن شهية جاي للحصول على نقود كانت دائمة من خلال مراسلاتهما . فقد كان ينوي الزواج من فتاة في بيرمنجهام ، فمنحه لورنس على الفور مبلغاً متواضعاً من المال لمساعدته . ولكن بعد أن نوى لورنس الوداع ، احتج جاي على ذلك بوضوح في رسالة بعث بها إليه . وعندما رد عليه لورنس (ومن المحتمل أن ذلك كان

في عيد الميلاد) فقد قصد بذلك تأكيد اتصاله بجاي رغم بعد المسافة بينهما . وهنا لابد من ملاحظة عبارة : «عندما قلت هذه آخر مرة أراك فيها ، فقد عنيت بذلك باننا سنفترق لمدة محددة . ولم تجد الرسائل ولا اللقاءات العشوائية في إطالة اتصالهما . ويقول لورنس في هذا الصدد : «إن الناس لا يمكنهم بناء صداقات الى أن يقولوا كل شيء يمكنهم قوله ، وأن يكونوا قادرين على الجلوس معاً ، سواء أكان في العمل أو في أثناء فترات الراحة ، ولمدة ساعة من دون كلام ، ولم يكن أبداً كذلك ، ولكننا كنا على وشك أن نفعل ذلك يومياً . . ومنذ أن مات أحمد (دحوم سوريا) فإنني لم أخض أية مخاطرة» . لذلك ، فعندما يؤخذ هذا بفحواه ، فإن معنى ملاحظة لورنس يُعَّد معاكساً تماماً للتغيرات التي أوحيت من قبل بعض كاتبي السير الذاتية .

وهكذا فإنه لا يوجد دليل قاطع على أنه كانت توجد علاقة جنسية شاذة بين لورنس وجاي . فحينما يبدو جاي أنه كان مستعداً لطلب المال ، فإنه كان واحداً فقط من أشخاص عديدين ساعدهم لورنس مالياً .

كان ثمة مقدار كبير من التخمينات حول مسألة توجه لورنس الجنسي خلال سنوات خدمته . فالعلاقات الوثيقة بين الأشخاص من الجنس نفسه كانت شائعة في جميع مناحي الحياة ، وهي شيء محتم في التجمعات التي تشمل جنس واحد مثل الخدمة العسكرية . فمن السخافة الظن بأن جميع الصداقات لا بد أن تكون علاقات جنسية شاذة ، وهذا هو جوهر العديد من المزاعم التي أثيرت حول لورنس . يوجد اعتقاد شعبي بأن بيئة الخدمة مهيئة لحدوث شذوذات جنسية فيها ، ولكن في الحقيقة ، أن عدم وجود الخلوة يجعل من الصعب إقامة علاقات شاذة بين أفراد الجيش قياساً على ما هي عليه الحال في الحياة المدينة . وقد عالج لورنس هذا المفهوم الخاطىء في صحيفة «مينت» ، قائلاً : «تتهمنا التقارير باللواط ، أيضاً فأي واحد يستمع إلى مثل هذه الشائعات عن رجال سلاح الجو تُعَّد أمراً مشيناً وعاراً . ورغم ذلك فإننا نعقد صداقات حميمة ، ونتلطخ جسدياً أيضاً ، ويعجب أحدنا بالآخر . ففي المعسكرت تعد الأمور كافة وحتى لو لم تكن عامة ، معروفة بشكل عام . فخلال إقامتي المؤقتة في أربعة معسكرات لم يكن ثمة سوى خمسة أفراد يتصرفون بوحشية ظاهرة . ولا شك في أن طبيعتهم

كانت ميالة للجنس الآخر ، إلا أنهم كانوا يكبحون التعبير عن غرائزهم كرجال جو عاديين ، ولا يبدون رغبتهم تجاه النساء» .

تأثر لورنس بعمق طوال حياته بالمُثل الأخلاقية التي تعلمها في طفولته ، كما أنه وضع قيمة عظيمة للوقار في تعاملاته مع الأشخاص الآخرين ، خصوصاً أولئك الذين كانوا يلجأون اليه . لذلك فمن المتوقع أنه كان يصدم بشدة ويشعر بالخجل اذا ما شك في أن ثمة أي دافع جنسي يكمن وراء صداقاته في سلاح الجو . وفي السنوات الأخيرة ، عندما توصل الى اعتقاد بأن الاتصال الجنسي لعب دوراً مهماً في الدوافع الانسانية كافة ، بدا انه أخذ يتجنب إقامة أية علاقات وثيقة مع أي شخص كان .

في عام ١٩٢٧ وصف لورنس نفسه في رسالة بعث بها إلى صديق بأنه «أعزب حقيقة» ؛ ومعنى يقول : «العزوبية ليست طبيعية ، في المعنى الحقيقي ، وأنها تقلب توازن الإنسان : إذ إنها أما أن ترمي به في طيات نفسه (ليمارس العادة السرية) ، أو تدفعه لبناء صداقة ما وذلك لاشباع عاطفته . ومن السهل أن تتحول هذه الصداقة إلى انحراف جنسي . وإذا ما نسيت هذه الأمور كافة ، كما آمل وكما يبدو أنك تقترح ذلك ، فعندئذ سيكون كل شيء جيداً ، وسأكون محظوظاً تماماً . فلم يكن من السهل إنجاز ذلك ، إذ إن ذلك كل الدلائل توحي بأنه خلال تلك السنوات التي تلت انتهاء الحرب ، كان لورنس يشعر بانجذاب عميق تجاه المظاهر الجسدية للجنس ، ورغم قوة وجهة نظره الشخصية في هذا الشأن ، فقد ابتعد عن انتقاد تصرفات وسلوك الأشخاص الاخرين موحياً إلى أن ذلك لم يكن يعنيه . ورغم ذلك ، فإن هذا التسامح لا ينطبق على موافقته الشخصية أو انخراطه . ففي هذه المسألة ، كمسألة الامبريالية ، كان موقف لورنس منها متقدماً في حينه .

خلال شهر كانون الثاني ١٩٢٣ ، استمرت شهرة وجوده في سلاح الجو . وبدا مستقبله في هذا السلاح غير مؤكد إلى حد كبير ، وشغلته ثانية فكرة جمع المال من كتابه أعمدة الحكمة السبعة . وبعد أن تنبه إلى نصيحة شو ، بدأ يفكر بإصدار نسخة كاملة من الكتاب . وهو يقول في هذا الصدد : «لذلك فقد أوعزت إلى دار نشر كيب بإمكانية طبع ألفي نسخة ، تحتوي على التوضيحات والرسومات كافة التي صممها ووضعها لي نحو عشرين فناناً شاباً» .

رد كيب بسرعة ، مرسلاً عقداً جديداً ليوقعه ، ولكن قبل أن يفعل لورنس ذلك قرر سلاح الجو بأن الضابط روس يستحيل وجوده في معسكر فارنبورو وأرسل لورنس في إجازه قصيرة ، وفي نهاية شهر كانون الثاني سُرح من سلاح الجو وأصبح مدنياً ثانية .

ومنذ ذلك الوقت فصاعداً أصبح لغزاً في الصحافة العالمية ، . التي كانت دوافعها وتأثيراتها مفتوحة أمام التخمينات كافة التي لا تنتهي ؛ غير أن تصرفاته وسلوكه لم تلب هذا الأمر . فقبل عام ١٩٢٢ ، سعى لجذب انتباه الصحافة من أجل مناصرة القضية العربية ، غير أن الحملة قد طالت وبدت نتيجة الدعاية ميتة بعد ذلك . وفي أعقاب اكتشاف انضمامه الى سلاح الجو تعلق بقناعة ساذجة مفادها أن محرري شارع الصحافة الذين أقام صداقات معهم في الماضي سيساعدونه ، إلا أنه من وقت إلى آخر كان يلتمس منهم أن يتركوه وشأنه ، بيد أن ذلك لم يكن بشكل نهائي مطلقاً ، وسرعان ما فرض تهديد الدعاية غير المرحب به قيوداً حقيقية تماماً على حريته الشخصية ، رغم أن محاولاته للفرار منها جعلت الأمور أسوأ ، على نحو ثابت تقريباً .

الفصل الحادي والعشرون

الجندي شــو

كانون الثاني ١٩٢٣ - كانون الأول ١٩٢٤

رغم أن لورنس كان شبه متوقع لقرار سلاح الجو، جاء كصدمة له أيضاً، فلجأ إلى المناشدة. كتب أولاً إلى ترنيشارد، ومن ثم إلى السير صموئيل هورز، وزير الطيران؛ بيد أن هورز كان متصلباً في هذا الشأن، ورغب في أن يجد لورنس عملاً أكثر ملائمة لمواهبه.

وذهب لورنس ليختبىء في فندق صغير يقع في «فرينشام»، بمقاطعة شوري، ومن هناك أرسل مناشدة أخرى إلى ريتشارد يقول فيها: «لقد بحثت حولي، في الأيام القليلة الماضية، فلم أجد شيئاً سوى الفراغ، ولا يوجد ثمة شيء يمكنني القيام به، وبالنتيجة لا شيء أقوم به! فأقصى شيء حصلت عليه من سلاح الجو لا يعادل ما فقدته بسببه. إلاّ أن رد ترنيشارد كان سلبياً. فقد قدم للورنس رتبة في سلاح الجو من قبل، وهو الآن يقترح عليه عملاً كضابط في سلاح المدرعات. ورغم ذلك فقد قرر لورنس أن يعود للعمل في الجيش.

وفي الوقت نفسه تقريباً كتب إلى جارنت يعرب له عن تخليه عن نيته في نشر كتابه، قائلاً له: «بالطبع لقد أنتهى كل شيء يتعلق بكيب وكتاب أعمدة الحكمة. فإنا أشعر الآن بأنني غبي لا أحلم بإصدار ونشر أي شيء كان». ورغم ذلك فقد أصبح الكتاب يحتل اهتمامه الرئيس في الحياة. ومع أنه لم يكن لديه سوى قليل من المال، كتب إلى عدة منافسين (رسامين) لإجراء رسومات جديدة.

في السابع عشر من شباط عام ١٩٢٣، كتب السير فيليب شيتود من وزارة الحربية يقول إنه من الممكن بالنسبة للورنس أن يجند في سلاح المدرعات كجندي خاص. ولم يكن سلاح المدرعات يبدو بديلاً ملائماً لسلاح الجو. إضافة إلى ذلك فقد كان لورنس يعلم بأنه يسمح للعسكريين أحياناً بالانتقال من سلاح المدرعات إلى سلاح الجو. وكتب

شيتود يقول بأن الكولونيل السير هوغ اليس ، قائد مركز التدريب لسلاح المدرعات الواقع في بوفينفتون بمقاطعة دورست ، سيكون في لندن في الأسبوع التالي ، واقترح بأن لورنس يجب أن يقابله هناك . واختتم شيتود رسالته بقوله : «فإذا ما توصلت إلى اتفاق مرضٍ معه عليك بالذهاب إلى وزارة الحربية لتقابل الجنرال فيسي قائد السلاح ، حيث توجد هناك أمور معينة لا بد أن نرتبها معك قبل التحاقك بالسلاح» .

كان من أحد هذه الأمور هو اختيار اسم مستعار جديد للورنس . فالاسم السابق كان جون هيوم روس ، قد اختبر قبل أن يحبذ لورنس في سلاح الجو ، ولكن عندما ذهب لإجراء الترتيبات الإدارية من أجل إعادة تجنيده ، قال له ضابط التجنيد في وزارة الحربية» يجب أن أسجل اسماً جديداً . ويقول لورنس إنه استغل هذا الوضع وقال للضابط بأن يسجل اسمه الجندي ثيودور إدوارد شو وتحت رقم (٧٨٧٥٦٩٨) .

وقبل أن يعود إلى مرتب الجيش ، أودع مخطوطة كتابه أعمدة الحكمة السبعة في مكتبة بولديان بجامعة إكسفورد . فقد كان على معرفة بأمين المكتبة الدكتور كاولي ، منذ حقبة ما قبل الحرب . وكتب بعد ذلك يقول : «باعطائي مخطوطة الكتاب إلى بولديان بما أكون قد تصرفت بطريقة غير هزلية ، معتبراً نفسي جاداً أكثر لكاتب كلاسيكي . فكاولي كان موازياً للمناسبة ، ولم يبتسم أبداً في مراحل تحويل المخطوطة له كافة . فسواء كان لديه (هذه المخطوطة) ثروة أم لا فالقرن القادم يمكن أن يبين ذلك» .

في الثاني عشر من آذار وصل لورنس إلى معسكر بوفينفتون ، حيث يقضي معظم المجندين في هذا السلاح وقتهم بتلقي تدريبات أساسية فيه لمدة ثمانية عشر شهراً . وبما أنه كان مجنداً في سلاح الجو فقد تعرض لمقدار كبير من الرعاية المناوءة للجيش ، فحتى قبل أن يصل إلى بوفينفتون كان يتوقع عدم رضا عن وضعه .

وكتب بعد أسبوع إلى ليونيل كيرتس ، وهو صديق له حين كان في كلية أوول سولز ، يقول : «خطر لي في هذا الصباح أن أكتب لك رسائل متسلسلة لتكون أكثر روعة من رسائل دي مون مولين ، فماذا يجب أن يكون الاستهلال بذلك؟ وما هي قصة انضمامي إلى سلاح المدرعات؟ فكلما تعلم لا أعرف ذلك بالضبط! فعندما فسرت ذلك لداوناي قلت له إنه «انتحار فكري» .

وكشفت الرسالة التي تبعتها بعد عدة شهور ، بوضوح ، عن وضع لورنس المشوش ، فهو يقول : «ربما كان ثمة حل يمكن أن يوجد في شخصية متعددة . فإنه رأى الذي يشجب الكتاب والثورة ، والقوميات الجديدة ، لأن الخاتمة العقلانية لحجة الإنسان هي التشاؤم مثل تشاؤم هاردي ، الذي يشبه إلى حد كبير أرض بور كثيبة ، لنباتات مستنقعية ذابلة وأشجار عارية . وفي ما يتعلق بنا فإن ما أقوله هو أن العقل يثبت بأنه لا يوجد ثمة أمل» . وكان آنذاك قد أعاد قراءة روايات توماس هاردي ، ولا بد أن مزاج هذه الرسالة قد أظهر تأثيره بفلسفة هاردي الذي كان يعيش على بعد بضعة أميال فقط عن معسكر بوفينفتون وكان لورنس متشوقاً لمقابلته . ففي العشرين من آذار كتب لورنس مقابلة روبرت غريفز . وبعد أسبوع ، وفي رسالة أخرى بعثها إلى كيرتس ، عكس لورنس رأيه بشأن الاختلافات التي وجدها ما بين أفراد سلاح المدرعات وأولئك الذين عرفهم في سلاح الجو ، حيث يقول في هذا الشأن : «كنا هناك متشوقين لجيشنا إلى الخدمة . وكنا نتحدث ونتساءل عن المستقبل ، وبشكل خاص تقريباً . . وكان الزملاء هناك متحفظين ، غير أنه لديهم أمل بأنهم كانوا يعملون لمستقبلهم» .

أما هنا فإن كل رجل انضم إلى السلاح أما بسبب أنه محبط أو منبوذ فلا أحد يتحدث عن الجيش أو عن الترقية ، أو عن الكفاءات والانجازات . فنحن هنا جميعاً كآخر ملجأ ، وكل واحد منا يقيم الآخرين على أنهم رخيصين كمن يعرف نفسه من يكون» .

ومضى في حديثه ليتوصل إلى استنتاجات كان قد بناها حول ضحالة المدينة : «فهل يمكن أن تكون ثمة فائدة ، أو حقيقة ، في جميع هذه النماذج والعلوم والفنون التي تتعلق بنا؟ فالعالم الفارغ منذ مئات ، أو ربما آلاف السنين كان يعمل بغيرة ويسجل تقدم كل جيل لنقطة بدأ للتالية - وهنا توجد حشود من الحيوانات ، جدية وشهوانية مثل أصولها قبل أن يقدم كل من افلاطون والمسيح وشيلي ودستويفسكي تعاليمهم وأفكارهم . وفي مثل هذا الحشد يبدو من الواضح منذ البداية كم هو قصير مدى المعرفة ، وكم هم مرشدو الناس العادين بائسون» .

لقد طبق لورنس هذه النظرية على نفسه ، وبصرامة عميقة ، معداً «النشاط بأنه بنية ضخمة خادعة تخفي تحتها جوهر أسود من الوحشية» . وتوصل إلى استنتاج لم يظهر في

كتاباته من قبل وهو أن : «ليس بذاءتها هي التي تؤذيني ، لأنه لا يمكنك دعوة البذاءة والفسق كملاحقة الكلبة للكلب ، أو كأعشاش الطيور المجدلة في الربيع ، ولكنني استلقي على السرير ليلة بعد ليلة مع هذه الهرة التي تموء وتعبث في الغرفة أعلى وأسفل ، وتقتات من بقايا طعام اثني عشر داعراً (جندياً) ، وينشغل فكري بقساوتها . . فنحن جميعاً مذنبون على حد سواء ، كما تعرفون . فإذا لم تكن موجوداً فإنني لن أكون موجوداً من دون هذه الشهوانية . وكل شيء مع اللحم غليظة هو انجاز اللحظة عندما يمر التفكير الشهوة في العنبر رقم (١٢) إلى عمل وتخيل . فالأعمال الفاسقة كافة ، وبالتحديد العنبر رقم (١٢) يبين لي الحقيقة الكامنة وراء نظرية فرويد . فالجنس مرتبط فينا جميعاً ، وكلما كنا أقرب إليه ، كان ذلك أكثر استمراراً ، وأكثر تكاملاً لإنتاج ذلك الرباط . وهؤلاء الأشخاص هم الحقيقة ، وأنت وأنا اعتدنا أن نلتقي في لندن ونتحدث بأمور تافهة ، وهي مغلقة في جوهرها مثل أولئك الزملاء» .

إن المفاهيم الرومانسية الفيكتورية التي تبناها برغبة في شبابه قد تساقطت الواحدة تلو الأخرى . كما أن مسيحيته الانجليكانية قد تلاشت قبل الحرب ، وكان قد كتب وهو في أوكسبريد ما يأتي : «لقد سرق مني الوقت سنة تلو الأخرى العقيدة الدينية ومبادءها ، ولم يبق حتى الآن سوى أربع كلمات» . وإن رؤيا «النبيل الشرس» ، وهو المبدأ المرشد خلال السنوات إقامته في كركميش ، قد تفتت وتلاشت خلال الثورة العربية ، فيقول في هذا الصدد : «لقد سئمت حتى الموت من هؤلاء العرب ، ذوي الأجسام النحيلة الذين حققوا أعلى درجات العلم والتقدم قبل أن نصل نحن إليهم ، رغم أن هذا ليس ببعيد عن رؤيتنا» . إلاّ أن لورنس تخلى عن اعتقاده في تقدم الجنس البشري ، الذي كان من مبادئه الأساسيةالناتجة عن تنشئته الفيكتورية ، وقد توصل الآن إلى استنتاج بأن الحب الرومانسي ، كمفهوم موقر ، وأصبح لا شيء أكثر من كونه شهوة حيوانية . وكغيره من أبناء جيله فقد تقبل هذه القيم من دون انتقاد . وأدى به عدم التكامل في اعتقاداته إلى حافة العدمية .

وبما أنه كان يسمح للمجندين الجدد بمغادرة المعسكر ، فقد أحضر لورنس دراجته النارية إلى بوفينفتون ، وكلما وجد فسحة من الوقت كان يقودها في نزهة إلى الريف .

وكتب إليك ديكسون ، وكان برتبة عريف في المعسكر ، في ما بعد يقول في هذا الشأن : «في عصر أحد أيام الأربعاء ظهر برنارد شو من وراء أسلاك المعسكر ومعه دراجة نارية آخر موديل (من نوع بروف) ، وكانت تعود للجندي الخاص (لورنس) وقيمتها تعادل راتب سنتين . وأخذ ضباط الصف يتساءلون هل جاء هذا الأحمق شو ليقل ذلك المتنزه (لورنس) ؟ .

وبعد ثلاثة أيام ظهرت دراجة بروف ثانية عند الأسلاك المحيطة بالمعسكر ، إلاّ أنه كانت ملحقة بها عربة جانبية ، فحملق بها ضباط الصف ، واخذوا يحسبون كلفتها . كما أندهش المجندون وعبروا عن اعجابهم بهذه اللعبة ومدى كلفتها . وتحلقوا حول السياج ليشاهدوا الدراجة النارية في حين كان صاحبها يرتدي بدلة طيران من الجلد الأسود . وكانت ثمة همسات خجلة بين المشاهدين ، وبعضهم همس بكلمة «قيادة ممتعة» . وكان شو في هذه المرة يرتدي قفازاً وقبعة ، والتفت اليهم وعلى وجهه ابتسامة عريضة وقال لهم «قيادة ممتعة ، بالطبع ، من يريد أن يكون الأول؟» .

وهكذا استقل المجندون العربة الجانبية للدراجة واحد تلو الآخر ، مسافة سبعون ميلاً ولمدة ساعة لم تكن تعني شيئاً بالنسبة لشو ، وخلال أسبوع اشتهر في أرجاء المعسكر باسم «بروفي» شو ، وقد أصبح إسماً مستعاراً لازمه طوال تردده على بوفنيفتون» .

وبما أنه استطاع آنذاك القيام بزيارات إلى خارج المعسكر ، فقد كتب إلى روبرت غريفس أن يقدم له توصية إلى السيدة توماس هاردي ، قائلاً : «أشعر بالخجل لأنه لا توجد لدي أية مؤهلات لتبرير رؤيتي للسيد هاردي . ولدي فقط الكثير من الاعجاب له . فشهره جيد تماماً وإنني أتذوقه . ومما يضيف إلى ترددي أنني جندي خاص في سلاح الدبابات» . وردت السيدة هاردي مرحبة به . وفي التاسع والعشرين من آذار ذهب لتناول الشاي في منطقة ماكس حيث يقع منزل هاري . وكانت هذه أول زيارة من سلسلة من الزيارات كانت ثمة أمور أخرى تنتزع لورنس من حياة معسكر التدريب ، وهي النسخ الخمس لكتاب أعمدة الحكمة التي أصدرتها «إكسفورد تايمز» ، والتي كانت لا تزال توزع وتعمم على القراء ، الذين أبلغوه بأنها كانت عملاً بارزاً . ولتأكيد مهارته ككاتب ، فقد كتب لورنس إلى جوناثان كيب يطلب منه القيام بترجمة عمل أدبي له من الفرنسية إلى الإنجليزية .

ولا بد أن جارنت قد سمع بهذا الطلب ، إذ إنه حاول أن يعيد لورنس إلى التفكير بكتابة أعمدة الحكمة ، فأجابه لورنس بقوله : «هل نفتح الكتاب؟ وهل تعلم بأنني قد توصلت الآن إلى نقطة سعيدة لكوني متأسف حقيقة من أنني لم أكتبه من قبل . فأقدم اعتذاري لذلك : ولا بد أنني متلهف لاستئناف العمل به : ولكن ماذا يمكنني أن أفعل بشأنه؟فأية فكره للعمل به ثانية لا بد أن تدعو للتريث ، فهذا جو معادٍ لكل شيء» .

كان من المحتم أن يكون لورنس ملاحظاً في المعسكر . فقد سجل أليك ديكسون في مذكراته يقول : «كان توقعي الوحيد بشأن الجندي الخاص شو (لورنس) يدعو للفضول عندما وجدت أنه مجهد نفسه - أو يبدو أنه مجهد نفسه - للتأثير بشكل كبير في زملائه الجنديين . وأصبح واضحاً لي أن سلوكه الهادىء الرزين قد سيطر على مخيلة الرجال الذين عاش معهم» . وانطلاقاً من تجربته في فارنبورو ، فقد عرف لورنس بأن الكشف عن هويته لن يسبب له أذى بين صفوف الجيش ، لذلك فبعد بضعة أسابيع من وجوده في بوفينفتون ترك سره ينكشف .

وجد لورنس أن سلاح المدرعات ترك له مجالاً كبيراً ليعتني بأموره في النهار وقاده هذا إلى موقف جديد مفاده أن حياة الخدمة كانت غير مثيرة للاهتمام ، إلاّ أنها كانت أيضاً توفر له الغذاء والمأوى ، وتتيح له حرية التفكير بأمور أخرى . وفي الثاني عشر من أيار طرح فلسفته التي استمرت عدة سنوات وهي : أنني على ما يرام ، وأن نوع العمل الذي أقوم به لا يزعجني ، إذ إن المغامرات والاهتمامات تكمن في رأسي ، ويتيح لك الجيش التفكير بنفسك طوال الوقت .

وأنني أقر بأنه لا يمكنك الحصول على الرضا في الحياة خارجاً عن العمل من أجل الحياة . فبالنسبة لحالتي فأنني أحاول الكتابة ، وأقرأ في نصف وقت فراغي ، كما أنني أهتم بما يفعله الآخرون ، وأتساءل لماذا فعلوا ذلك ، فهذا ما يدعوه بالتفكير المنعكس ، ولقد وجدت أن الوسيلة تكمن في حرية الرأي . فامنح العالم ما يحنيه جسدك واحتفظ بما تبقى لنفسك» .

ورغم هذا التبرير الذاتي فقد عانى لورنس من كآبة عميقة . فقد أبلغ ليونيل كيرتس : «إنني أقضي النهار في التأمل والتفكير ، والكتابة والقراءة ومن ثم التفكير

ثانية ، ثم أعدو فكرياً في عشرين طريقاً مختلفاً في نفس الوقت ، منفرداً ووحيداً كما كنت أفعل في غرفتي البسيطة بشارع بورتون . وعندما يعود إلى مزاجي الحار ثانية أجد نفسي خارجاً عن سيطرتي ، فأستقل دراجتي النارية وأسرع بها عبر الطرق المتعرجة وغير المتساوية لعدة ساعات حتى تصبح أعصابي منهكةً إلى حد الموت ، بحيث أنه تمر ساعات خطرة لتعود إليها الحياة ، ومن ثم تصل إلى سعادة كئيبة» .

في نهاية شهر أيار ، نفذ جوناثان كيب طلب لورنس بترجمة عمل ما ، إذ بعث إليه بعرض مخيف وهو النص الإنجليزي لرواية ألف ليلة وليلة لمادروس ، والتي تقع في أربعة آلاف صفحة . فكان لورنس متحمساً لهذه الفكرة لأن النص الإنجليزي كان متقناً في هذا الشأن ، واصفاً إياه بأنه فرصة عظيمة . في غضون ذلك طلب منه كيب ترجمة رواية «الشجرة الضخمة» ، وهي رواية لأدرين لوكوربو ، يصف فيها مراحل نمو شجرة ضخمة من فصيلة الصنوبريات . فوافق لورنس على ذلك ، ولكن حالما بدأ بالعمل فيها ، وجد أن الترجمة الأدبية كانت تتطلب الشيء الكثير أكثر مما اعتاد عليه .

وكتب إلى كيب بعد شهر يقول : «لقد بدأت سعيداً بالعمل ، فترجمت اثنتي عشرة صفحة إلى الانجليزية مباشرة ، ومن ثم رجعت إلى قراءتها ثانية ، فوجدت الأمر فظيعاً ، إذ بدا النص ضعيفاً جداً . لذلك الغيتها ، وقمت بترجمتها ثانية بشكل منمق . فالكتاب قد كتب بأسلوب عادي من قبل رجل يتمتع بخيال خصب وفكر سيىء وغير يقظ . ومن ثم فإن أسلوبه مبتذل وفكرته عادية ، إلا أنه مثير للدهشة في موضوعه . ومما يغيظ أن تجد فيه أشياء خارقة من الدرجة الثانية ، وكتابة لامبالية غير دقيقة لفكرة جيدة وغير عادية تماماً . فأود لو أنني ألوي رقبة كاربو على هذا العمل» .

وأرسل نصف ترجمة الكتاب إلى كيب في الحادي عشر من آب ، قائلاً له : «لا مازلت أشعر بأن الكتاب غير ملائم تماماً ، سواء بترجمته إلى الإنجليزية أو كعمل أدبي خيالي . ورغم ذلك فإنني أشعر أيضاً بأنه أفضل من النص الفرنسي . ولو أن المؤلف استخدم فيه أسلوب الدعابة والفكاهة لخرج الكتاب بشكل أفضل . وتبع هذا الكتاب ، الذي أطلق عليه لورنس اسم «الغابة العظيمة» ، كتاب آخر عرضه كيب عليه للترجمة بعنوان «ستورلي» ، من تأليف بيير كوستوس . كما جرى الاستغناء عن إصدار كتاب

«ألف ليلة وليلة» ، عندما اكتشف كيب أنه قد ترجم من قبل بويز مادروس وأنه بصدد إصداره ، فخاب أمل لورنس وعلق على هذا الأمر قائلاً : «إنني أسف لمادروس ، فلقد قدمت لك شيئاً جيداً تماماً للنشر» . وكانت هذه نقطة تحول ، إذ إنه تحول كلياً لتنقيح كتابه أعمدة الحكمة بشكل نهائي .

كان لورنس دائم التذكر بكتابه ، خاصة عندما قرأته السيدة هاردي وأثنت عليه . وفي الخامس عشر من آب كتب للسيد هاردي يقول : «إن الكتاب يتضمن قصة تاريخية حقيقية لتحرك سياسي كان جوهره الخداع - بمعنى أن قادتها لم يؤمنوا بالحجج والبراهين التي حركوا بها الجنود والضباط؟ وأيضاً بالتاريخ الحقيقي للحملة ، ليظهروا بشكل غير محبب ما يجب أن تكون عليه عقلية القائد . لذلك فإن ما تقولينه قد قلب اعتقادي رأساً على عقب وأذهلني . فهل لك أن تقولي لي ماذا ستفعلين لو أنك قمت بتأليف مثل هذا الكتاب أو السيد هاردي - فهل ستنشريه أو تتركيه خاصاً؟ وأقدم اعتذاراتي لازعاجك في هذا الأمر ؛ بيد أن قيمة الكتاب ستمنحني دخلاً تجعلني أتخلى عن الجيش ؛ وأنني أتساءل منذ يوم الأحد فيما إذا أكون قادراً على التمتع بذلك» .

في غضون ذلك حث جيروترود بيل لورنس بقوة على إصدار كتابه أعمدة الحكمة السبعة بأي شكل كان ، وبدأ يفكر بالمشروع ثانية . وبعد وقت قصير كتب إلى كنينغتون يقول : «لقد طلبت من بعض الأصدقاء أن يجدوا لي مليونيراً مهتماً يمكنه أن يدفع ألفي جنيه ، ويجعلني أصدر طبعة خاصة من الكتاب مع الصور والرسومات كافة التي يحتويها . وتوجد فرصة لذلك في المستقبل القريب» . وبحث كل من هوغارث ، ألن داوناي ، وليونيل كيرتس ، الذين كانوا جميعاً يقيمون في إكسفورد الوضع ، وقروا أن أفضل مشروع للكتاب أن تصدر منه ثلاثمائة نسخة وبسعر عشرة جنيهات للنسخة ، وعلى شكل اشتراكات . بيد أن لورنس لم يستسغ فكرة رفع سعر الكتاب من خلال الاشتراكات ؛ فكتب إلى جيرترود يقول : «لقد حولت رأيي إلى البديل ، وهو إصدار النسخة المعدلة لجارنت ، والتخلي عن فكرة نسخ الاشتراك» .

وطلب من كيب أن يرسل له مسودة كتاب «حرب في الصحراء» قائلاً : «لقد أحببت أن أقرأه ثانية ، وأرى إمكانية الضغط على نفسي لإصداره» . ومن ثم ففي ٢٣

آب كتب إلى هوغارت يقول : «ماذا علي أن أفعل؟ هل أصدر النسخة المختصرة لجارنت رغم كل شيء مع مثل هذه الاشتراكات التي تبدو ملائمة لي ، وأن استغل عائداتها لإصدار نسخة كاملة موضحة ومحدودة من الكتاب ، أم لا أصدر شيئاً على الاطلاق؟ .

في ١٣ أيلول ، أتم لورنس ترجمة كتاب «الغابة العملاقة» ، وأرسله إلى كيب ، وكتب له يقول : «لقد انتهى العمل في هذا الكتاب الغبي أخيراً» .

ولقد وجد من المستحيل التركيز على ترجمة الكتاب في المعسكر ، فشارك اليك ديكسون السكن في منزل خاص في منطقة موريتون ، الذي يبعد بضعة أميال عن المعسكر . وكان مقرراً لديكسون أن يغادر بوفينفتون ، فاضطر لورنس للبحث عن مكان آخر ليعمل فيه . وسرعان ما سمع عن وجود كوخ في «كلاود هيل» ، يبعد نحو ميل إلى الشمال من معسكر بوفينفتون . وكان يعود إلى عقارات موريتون ، وبني في عام ١٨٠٨ ككوخ مزارع . ومنذ ذلك الحين ، أصبحت حالته بائسة جداً ، واستأجره رقيب في سلاح المدرعات ، هو أرثر نويلز ، مع أرض مجاورة له ، مبني فيها منزلاً من طابق واحد لأسرته . وكان شرط عقد الايجار أن يُعاد الكوخ الأصلي ، وبدأ العمل على الفور عندما سمع لورنس للوهلة الأولى بأن الكوخ أصبح جاهزاً . جرى خلال ذلك الصيف عقد اتفاق جديد يقوم لورنس بموجبه باستئجار الكوخ بمبلغ عشرة شلنات في الشهر وأن يدفع مبلغاً من المال من أجل إتمام التصليحات اللازمة له . وأتاح له هذا المكان مكاناً منفرداً دائماً ليختبىء فيه بعض الوقت في أمسيات الشتاء .

أصبح لدى لورنس نقصاً في المال خلال الخريف فكان عليه أن يبيع الدراجة النارية مما جعله يفتقد الأوقات الممتعة مثل زيارة أسرة هاردي ، ومن متعة الانطلاق بالدراجة . والأسوأ من ذلك أنه كان لا يزال يخصص كثيراً من وقت فراغه إلى الترجمة ، ونتيجة لذلك لم يكن لديه سوى وقت ضئيل للقراءة ، وهي واحدة من المتع القليلة التي كان يشحذ بها أفكاره . كما أنه مضى وقت طويل لم يذهب فيه إلى حفلة موسيقية أو يستمع إلى الحاكي الفوتوغراف . وبعد أن تمتلكه الكآبة كتب إلى ليونيل كيرتس يقول : «تتركز أفكاري أكثر فأكثر على الموت بسلام ، بعد انتظار طويل له . فهل تعتقد بأن ذلك نتيجة الكبر أخيراً؟ وهل أن كبار السن يرضخون بسرية لنهايتهم المحتومة؟

أما المتعة الوحيدة التي ظلت باقية لدية فهي الكتابة . وأبلغ جارنت عن «التوق الشديد إلى نمط الكلمات التي تصبح حقيقة . فهل تعلم أنني قد وجدت متأخراً رضائي الاعمق في تنظيم الكلمات العادية جداً وتوضيح أنها لا يمكن أن تعني أي شيء لكتاب ينهك الفكر : إلا أنه يمكنني أن استخرج مادة عميقة من الكتاب . وربما يكون ذلك من تسلسل معين للحروف الساكنة واللينة تتضمن أكثر من غيرها ؛ بأن الكتابة من هذا النمط تحتوي على موسيقى في طياتها؟ فلا أريد أن أؤكد هذا ، ورغم ذلك فإنني لا أنكرها : ذلك أنه إذا ما كانت الكتابة لهامعنى (وهي كذلك) ومعنى ، فلما لا يجب أن تحتوي على نمط ما أيضاً؟ ويبدو أن سياقي في الكتابة مستقلاً عن السمع ، ليفرض نفسه من خلال عيني فقط . فلقد انجزت كثير منه في رواية «العملاق» ، إلا أنه كان مصادفة في معظمه» .

في بداية شهر تشرين الأول ، اقترح روبين بوكستن كتاباً بديلاً «لأعمدة الحكمة السبعة» . فمن الممكن إصدار مائة وعشرين نسخة تتضمن التوضيحات وصور لورنس كافة ، لتباع بوساطة الاشتراك لقاء (٢٥) جنيهاً لكل نسخة . وطلب لورنس من ليونيل كيرتس أن يجتمع مع بوكستون ويبحث معه الفكرة . وفي حين كان يجري بحث هذه المشاريع ، كان لدى لورنس متسع من الوقت لترجمة كتاب «ستورلي» ، وهو رواية تتناول الحياة تحت سطح البحر . وكتب إلى كيب موافقاً على القيام بهذه المهمة في الحادي عشر من تشرين الأول ، مع تنبيه يشير إلى أن «ترجمة الكتاب يستغرق وقتاً ليخرج بشكل جيد ، لأنه يحتوي على نماذج لا تحصى من أنواع السمك الفرنسي ، وأن لغته الفرنسية ليست واسعة لتشمل على الأسماك» .

بنهاية شهر تشرين الثاني ، انتهى العمل في تصليح سقف الكوخ في «كلاودز هيل» . وكان المبنى بسيطاً إلى حد كبير : وقد جرى فصل الطابق الأرضي عن الطابق الأول المدخنة المركزية ، والتي كانت تحتوي على درج نجاة خلفه . وكانت توجد في كل طابق غرفة كبيرة تحتوي على مدفأة حائط ، وغرفة صغيرة تقع إلى جانب الدرج . وبالنسبة إلى لورنس فقد استخدم فقط غرف الطابق العلوي ، وقام بتخزين الحطب ونشارة الخشب في الطابق الأسفل . كما قام ببيع خنجره العربي الذهبي الذي كان

يحمله إبان الثورة إلى ليرونيل كيرتس ، واستخدام المال لإجراء تحسينات على الكوخ في «كلاودز هيل» . وكانت توجد خطة أيضاً لإضافة حمام ، إلا أن هذه الخطة قد جرى تأجيلها .

وفي الخامس من تشرين الثاني كتب إلى جوك شامبرز يقول : «يكفي في الوقت الحاضر أن يكون ثمة كرسي وطاولة . وآمل أن تكون لدي خزانة كتب في هذا الأسبوع ، وسرير في الأسبوع القادم ، غير أنه لا توجد نقود كافية لذلك» .

وفي غضون ذلك قبل لورنس تقريباً مشروع هوغارت - داوناي كيرتس لإصدار ثلاثمائة نسخة من «أعمدة الحكمة» بسعر عشرة جنيهات للنسخة الواحدة . فمبلغ ثلاثة آلاف جنيه سيغطي كلفة طباعة النص الكامل مع التوضيحات والصور والرسومات . وستحتاج شركة ويتنجهام وغريجس ، وهي شركة طباعة متخصصة في هذا المجال ، ستحتاج إلى سنة لإعادة إنتاج الصور بنوعية عالية من الألوان ، وبذلك تمنح لورنس وقتاً لمراجعة النص واختصاره .

ورغم ذلك ، كان روبين بوكستون لا يزال يطوف في تلك الأثناء على الأصدقاء من أجل إيجاد مائة وعشرين مشتركاً يدفعون سعراً عالياً للنسخة . وشجعه لورنس على ذلك قائلاً : «أفضل أن يجري إصدار نسخ قليلة لأنني أكره فكرة نشر هذا الكتاب البغيض» .

إن خطة إصدار كتاب أعمدة الحكمة بطبعه اشتراك مكلفة قد أدت إلى يتخذ لورنس قراراً راديكالياً في هذا الشأن . ولم يكن بإمكانه تحمل فكرة أن المشتركين قد يظنون أن السعر العالي للنسخة يعكس جشعاً من جانبه . ولا ينبغي لأي واحد القول بأنه كان يجني المال خارجاً عن أسطورته ، ولذلك فقد قرر عدم اتخاذ فخر من الكتاب . وأصدر هذا القرار الاستثنائي الذي تضمن أسباب الفخر ، كمسألة مبدأ ، وأبلغ الناس مرات عديدة بأنه لا يمكنه قبول مال من ريع الكتاب أو أي جزء آخر فيه لمشاركته في المغامرة (الحرب) العربية . وبناء على ذلك ، فإن «أعمدة الحكمة السبعة» كانت تشكل استثماراً يمكنه أن يحوله في أية لحظة إلى ثروة شخصية ، وذلك بتوقيع عقد نشر ببساطة . وعلى العكس ، فستتيح له خطة الاشتراك طباعة الكتاب بشكل مكلف ، غير أنها ستمنعه من تحقيق ربح وفير . وفي المستقبل ، إذا ما رغب في التسريح من الجيش ،

فسيجني المال من مصادر أخرى .

وخلال شهر تشرين الثاني ، قيم كل من هوغارت ، كيرتس ، وبوكستون ، فرص خطتهم في إصدار نسخ إشتراك . وبنهاية ذلك الشهر ، سمع لورنس من بوكستون بأنه بالإمكان دفع مبلغ ثلاثة آلاف جنيه نتيجة لطبعة الاشتراك . ورغم ذلك فإنه لم يكن بوسعه أن يطلب منهم دفع كامل المبلغ مقدماً ، لذلك فإن دعم بوكستون سيكون حاسماً في هذا الشأن . كما سيساعد بنك ليفربول ومارتن ، الذي كان يعمل فيه كرئيس فرع ، بتمويل إصدار الكتاب .

اجتمع كل من لورنس ، كيرتس ، هوغارت وداوناي في إكسفورد في التاسع من كانون الثاني ، واتفقوا على أنه يجب أن يصدر من كتاب أعمدة الحكمة مائة نسخة ، تقدم كاشتراكات بقيمة ثلاثين جنيهاً للنسخة الواحدة . ورغم ذلك ، أبلغ لورنس روبين بوكستون بأنه نفسه «كرجل وهمي» ، كان مسؤولاً وحيداً عن عمليات الطباعة ، والإنتاج ، وتوزيع الكتاب . وهذا لكي لا يكون ثمة تشهير محتم به . إذ إن أعمال التشهير المدني قد انهارت بسبب عدم وجود مال لديه ، فالجريمة والسجن لم يكونا أسوأ بالنسبة له من العمل في سلاح المدرعات . ويقول لورانس في هذا الصدد : «إنني أشرح في رسالتي لكل مشترك بأن النسخ المائة الموزعة تستند إلى مبلغ ثلاثة آلاف جنيه من أجل تغطية تكاليف الإنتاج (الإصدار) مع هامش بنسبة عشر بالمئة من أجل احتمالات أخرى . ولكن إذا ما كلف الكتاب أكثر من ذلك ، فإنني سأوزع أقل من مائة نسخة؟ فالمطلوب بالضبط ثلاثة آلاف جنيه لتعادل الكلفة الإجمالية للكتاب» .

إن قرار إصدار كتاب أعمدة الحكمة قد منح لورنس مشروعاً أساسياً للعمل ووضعه في مركز بالغ المسؤولية من الناحية الشخصية . فمبلغ ثلاثين جنيهاً لقاء النسخة من الكتاب هو مبلغ عالٍ جداً ، ولا يمكن مقارنته مع كتب أخرى من حيث السعر . فعلى هذا الأساس ، فإن اشتراك الكتاب في عام ١٩٩٠ ، مثلاً ، سيكون (٦٥٠) جنيهاً ، وبذلك يكون إجمالي المبلغ يعادل (٦٥٠) ألف جنيه . فهذا يعد مشروعاً إستثمارياً ضخماً لجندي إضافة إلى مهام مراجعة النص والإشراف على طباعة الكتاب وإصداره .

بدأ كل من هوغارت ، كيرتس ، وبوكستون بإيجاد مشتركين ، مظهرين ثقتهم بأن

لورنس سيدرك مدى حجم المشروع . وإذا ما فشل ، فإن ضمانهم الوحيد كان نسخة جارنت المختصرة ، التي من الممكن أن تنشر لمواجهة التزاماته كما أنها أيضاً ستعوض المشتركين الذين خاب املهم . ولهذا السبب وافق لورنس في اجتماع عقد في اكسفورد على تعيين هوغارت وصياً أدبياً له .

وبينما كان أصدقاء لورنس يبحثون عن مشتركين ، كان لورنس يحضر لإصدار الكتاب . فرتب مع مانيننغ بايك ، وهو مطبعي قدم له من قبل كنينفتون ، ليشتري آلة طباعة مع معداتها . وعندما تم طبع صفائح (بلاتيتات) الصور من قبل «ويتنجهام وغريجز» ، عزم لورنس على بيع بعض مقتنياته الثمينة الأصلية ، وبشكل بارز صورة فيصل الزيتية . وبما أن الصور كانت من ممتلكاته فقد توقع حدوث توازن في حسابه الشخصي في البنك ليكون حسابه ملائماً خلال سنة .

ووجد هذه الترتيبات لإصدار كتاب «أعمدة الحكمة السبعة» مرضية جداً ، إذ يقول في هذا الصدد : «سيكون الكتاب مجلداً جميلاً ، وما لم أكن مخطئاً ، فانه سيحتفى به يوماً ما» . واحتفاءً بهذا التوقع ، فقد اشترى دراجة نارية جديدة فوديل بروف ذات نوعية عالية ، وهي الدراجة الثانية التي يشتريها من هذا النوع . فالدراجة القديمة كان قد اقترضها أحد الجنود في بوفينفتون من دون استئذان ، وقد خُربت ، إذ يقول : «لقد حاولت لمدة ستة أسابيع أن أتدبر أمري من دون القيام بنزهة بالدراجة ، وقد وجدت أنها كانت في الحقيقة صمام أمان كان علي أن افكر به» . وقد كلفت الدراجة الجديدة مبلغ (١٥٠) جنيهاً ، ودبر لورنس جزءاً من قيمتها ببيع نسخة من مخطوط شكسبير الرابع من مكتبته الشخصية .

وبمنتصف شهر كانون الأول ، بعد شهر من اتخاذ قراره بالنشر ، جرى تأمين عشرة اشتراكات . غير أن مزاج لورنس المتفائل سرعان ما طغى على الحقائق المقيتة للحياة في سلاح المدرعات . فكتب إلى هوغارت في شهر كانون الثاني يقول : «إن مشهد عيد الميلاد في المعسكر قد أفقدني السحر الذي كنت أشعر به في أكسفورد» ، وقد أبلغ وقيل بأن الاحتفالات بعيد الميلاد كانت مثل : «النوم - أو الاستلقاء - في المراحيض العامة الناضبة بالماء ، وحتى أنه كان أسوأ من المراحيض العادية ، حيث بدأ كأنه بحر كثيف ،

وكان جميع المدعوين بحاجة إلى خدم» . وأصبح كوخه في كلاودز هيل ملجأ أساسياً له ، إذ يقول : «عندما تكون الأمور صعبة أطير في المساء وأمتع نفسي بسماع الموسيقى المسجلة حتى ينهك فكري» .

في الثاني من كانون الثاني ، وبينما كان برنارد شو وزوجته يزوران «بورغاوث» ، حضرا ليزورا لورنس في الكوخ . وبعد بضعة أيام تلقى رزمة من الكتب مرسلة من شارلوت شو ، وكانت تلك هبة من هبات تلقاها من هذا النوع . فبدأت تظهر مكتبة صغيرة في الكوخ .

ورغم أن كتب مطبعته الخاصة بقيت مخزونة عند فيفيان ريتشارد في «بول هيل» . وسرعان ما احتاج بايك إلى مراجعة النص ليبدأ العمل بطباعة كتاب أعمدة الحكمة السبعة ، بيد أن لورنس كان مشغولاً بكتابات أخرى . وكان لا بد من ترجمة كتاب ستورلي بنهاية شهر كانون الأول ١٩٢٣ إلاّ أنه قد أوقف العمل به بينما كان يجري ترتيبات لإصدار كتاب أعمدة الحكمة . إضافة إلى ذلك فقد طلب منه إدوارد جارنت كتابة تقديم لكتابه «شفق الالهة» ، وهو مجموعة من القصص القصيرة ألفها والد جارنت ، ريتشارد ، وقد صدرت آنذاك بطبعة جديدة موضحة . وبعد أن أدرك بأن قد ألزم نفسه زيادة عن اللزوم قطع فجأة العمل بالترجمة ، وكتب إلى كيب يخبره بأنه قد أحرق صورة كتاب ستورلي المقترضة .

وعندما بدأ أخيراً بمعالجة كتاب أعمدة الحكمة صدم بنوعية كتابته ، إذ نظر إليها الآن من زاوية مختلفة . فقد تغير أسلوبه في الكتابة بصورة كلية ، وبدا أن الأسلوب الملحمي الذي أتبعه في إحدى المرات أصبح مزيفاً وموهناً . فقد علمته الترجمة أن يرى النص باستمرار من خلال تظاهر أدبي . إضافة الى ذلك ، فقد أصبح فكره متناغماً مع أبسط شكل من أشكال اللغة الإنجليزية من خلال اتصاله اليومي برجال السلاح المدرعات . وقد أدرك أن «أعمدة الحكمة السبعة» ، قد كتب بأسلوب غير مشابه تماماً لأسلوب الأدب المعاصر الذي أُعجب به .

وقد احتفظ بالرسائل التي كتبها له جارنت وأشخاص آخرون حول كتابه أعمدة الحكمة ، فأعاد قراءتها ، ولا بد أنه تحقق بأنهم قد تجنبوا السؤال عن أسلوبه فتعليقاتهم

كانت منصبة على العموميات ، مثنية على خاصيات الكتاب الذي تضمن مشاهداته وتأملاته الذاتية . أما الآن فإنه ينظر إلى النص بصورة مختلفة ، فوجد قليلاً من الراحة بالنسبة لوجهات نظره الحالية .

ورغم ذلك فقد استلم رسالة في منتصف شهر شباط مختلفة تماماً عن الرسائل الأخرى تتعلق بكتابه أعمدة الحكمة السبعة ، أُرسلت من قبل إدوارد مورغان فورستر (الروائي الانجليزي الشهير) ، احتوت على تعليق مفصل . وكانت رسالة فورستر مطولة ، تتضمن انتقادات لفقرات مأخوذه من نص كتاب لورنس . وكانت من أحد الانتقادات المطروحة هي أن أسلوبه التأملي لم يكن مسيطراً عليه تماماً . ويقول فورستر : «فعندما تصف أفكارك تصبح غامضاً ، كما أن المعنى المشوب قليلاً بالكلمات التي تقرضها لا تخرج لك جملاً غنية ، ولا تضفي لوناً وورنقاً عليها بل جموداً» .

إذن لم يدرك لورنس الآن مشكلة الأسلوب فحسب ، وإنما أيضاً وجد أحداً ما يمكن أن يساعده . فقد كتب فيما بعد يقول في هذا الشأن : «إن النقد المفصل يُعَّد المادة الوحيدة الجديرة بالاهتمام - المدح المهب يُعَّد عديم الجدوى ومادة مملة في العالم - غير أن الأشخاص الوحيدين الذين يمكنهم تقديم نقد مفصل هم ملائمون لمساعدتك ، وهم من المحترمين الذين يعملون لصالحك» .

تشير الرسائل العديدة التي كتبها لورنس ما بين شهر شباط إلى شهر أيار ١٩٢٤ ، إلى مرضه الذي كان خطيراً إلى درجة وضعته على قائمة المرضى في المعسكر ، والمرض الذي لم يشف منه تماماً لغاية بضعة أسابيع .

وعندما عاد إلى العمل ثانية فانه لم يشغله كتاب أعمدة الحكمة ، وإنما أيضاً الواجبات الكتابية الكثيفة التي قام بها في المعسكر . وكما يحدث غالباً ، فإن المرض الجسدي قد أوجد فيه كآبة نفسية ، نعاني من ضيق عمق منذ ذلك الحين . ورغم روح دعابته الظاهرة التي وجهته تجاه مراسلين صحافيين معينين ، فإن المزاج العام لرسائله كان يتصف بازدياد السوداوية لديه أكثر فأكثر . ومن أحد العوامل في ذلك هو يأسه الذي كان لا يزال يجذب اهتمامه على أنه «لورنس العرب» . فقد اكتشف هذا ثانية من قبل مراسل لصحيفته الديلي اكسبرس ، الذي نشر في (٢٧) شباط تفاصيل عن حياته في

بوفنيفتون . وكان العامل المؤثر الآخر في مزاجه هو الإحساس المستمر بالانحلال والانحطاط الموجودين في سلاح المدرعات . ففي الأول من آذار ، وبعد عام من طرده من سلاح الجو ، ناشد برنيشارد بأن يُسمح له بالعودة إليه .

كانت كآبته متفاقمة من دون شك بسبب مهمة تصحيح كتاب أعمدة الحكمة ، الذي كان موضوعه مؤلماً بالنسبة له ، وكان أسلوبه مخيفاً للظن بشكل مستمر إضافة إلى ذلك بدت الخطط ، خلال الأشهر الاولى لعام ١٩٢٤ ، تشير إلى أن سعر الاشتراك في النسخة الواحدة من الكتاب سيكون ثلاثين جنيهاً ، وهو أمر مثير للتفاعل وفي منتصف شهر آذار ، وبعد ثلاثة أشهر من بدء المشروع جرى إيجاد ستة وعشرين مشتركاً فقط ، في حين أن التكاليف المترتبة على طباعة الكتاب كانت أعلى من المتوقع .

وحيث أنه غمر بهذا القلق ، تحولت أفكار لورنس إلى الأساس . ففي ٢٦ آذار وبعد أن شفي مما بدا أنه كان مرض الملاريا والانفلونزا أرسل رسالة إلى شارلوت عرض فيها مزاجه بوضوح . وكان جوهر الرسالة فقرة وردت فيها تظهر كم كان متأثراً بعمق نتيجة الاغتصاب الجنسي الذي تعرض له في درعا قبل ست سنوات مضت . فكتب يقول : «إنني خائف دوماً من أن أتعرض للأذى ، وبالنسبة لي ، فان ذكرى تلك الليلة لا تزال تسبب لي ألماً يحطمني ، ويجعلني مستسلماً . إنها وجهة نظر شخصية . لا يمكنك أن تشاركيني إياها .

«أما بشأن تلك الليلة فلا يجدر بي أن أذكرها لك ، لأن الرجال المحتشمين لا يتحدثون عن تلك الأمور . وإنما أردت أن أوضح ذلك في كتابي ، وأُصارع الأيام من أجل احترامي لذاتي الذي يقلقني باستمرار . ولكوني أخشى من أن أوذي ، أو حتى أن أرجىء الألم الذي يدفعني الجنون لبضع دقائق ، فقد طرحت الشيء الوحيد الذي امتلكه للعالم ، بكل وقارنا الجسدي . إنه وضع متعذر نسيانه ومعالجته ؛ وهو ذلك الذي جعلني أحيا بخجل ، وممارسة مواهبي وكفاءاتي الوضيعة .

ويمكنك أن تدعى هذا بحال مرضية ؛ بل التفكير بالعدوانية ، وكثافة التفكير بحالتي طوال تلك السنوات . وأنها تطوقني طالما كنت حياً ، وبعد ذلك إذا ما بقيت

شخصياً قائمة . وعُدّي نفسك تتجولين بين أرواح محتشمة في الحياة الآخرة ، وهي تصرخ . «بخس ، آثم»! فلا يوجد إنسان نظيف لا أرغب في أن أتمثل به . فربما لا يكون ذلك الكولونيل لورنس ، وانما ما أعرفه هو ذلك الوسام ، وابغض وجهه المزيف تماماً ، ذلك أنني أكافح مثل أرنب وقع في مصيدة لمدة ليست طويلة . فمن جانبي إنني أتجنب المسرات عبر عدم وجود الصحراء . فهناك كفارة لذلك» . هذه هي الأفكار التي تنتاب لورانس في كل يوم .

رد ترنيشارد في أواخر شهر نيسان على مناشدة لورنس بإعادته إلى سلاح الجو بعرض غير متوقع . إذ إن وزير الطيران آنذاك كان اللورد ثومبسون ، وهو اشتراكي ، كان غير راغب ، كما كان هورس من قبله ، بالسماح للورنس بالانضمام إلى سلاح الجو ثانية . وبدلاً من ذلك ، فقد قدم ترنيشارد عملاً للورنس ابتداءً من شهر أيار لإنهاء مجموعة «حروب الجو» ، وهو كتاب تاريخي رسمي ، مات مؤلفه بعد أن أتم المجلد الأول . إلا أن لورنس رفض ذلك . فقد علم أن هذا المشروع قد طوق بصعوبات سياسية ، لذلك لم يكن لديه رغبة في تحمل مثل هذه المسؤولية .

والآن ، وبعد أن يتقن بأنه لن تكون ثمة عودة إلى سلاح الجو ، فقد أصبح أكثر كآبة . ومما فاقم من هذا الوضع اعتلال صحته ، ووجود المزيد من المشكلات حول كتابه أعمدة الحكمة . وفي منتصف شهر أيار ، وبعد خمسة أشهر من قراره بإعادة طبع «أعمدة الحكمة» ، كان لا يزال يوجد (٣٤) مشتركاً فقط ، وهذا الرقم يشكل ربع العدد المطلوب . وبدأ بوكستون يخشى من عدم الوصول إلى الهدف المنشود ، وأن ينتهي المشروع بخسارة مالية كبيرة . إضافة إلى الخطة الأصلية لإتمام الكتاب في غضون سنة كانت غير حقيقية بوضوح .

ورغم ازدياد كآبة لورنس وتفكيره فقد بدأ بالتفكير في عدم شرعيته . وكتب إلى هارلي جرانفيل باركر يقول : «إن الأحرف الأولى من اسمس هي : ت .أ .س ، وقد أصبحت (س) (ل) لورنس عندما صرت شاباً ، والتحقت بجامعة إكسفورد ، ومن ثم ذهبت إلى الحرب . وبعد الحرب أصبحت أسطورة ، ومن أجل المراوغة بالأسطورة فقد غيرت أسمي إلى (ر) ، إلا أن حمله أصبح ثقيلاً جداً . أما الان فقد أصبحت كنيتي

شو ؛ فأي واحد يمكن أن يستخدم من أي شخص كان . وفي الثالث من آب ، عندما كان يراسل جوك شامبرز ، وقع تحت أحرف ت . أ . س ، إلاّ أنه ولعدة أشهر كان يوقع رسائله بحرفي ث .أ (ثوماس إدوارد) . ومن ذلك الوقت فصاعداً أبلغ الناس بأن اسم لورنس قد أصبح اسماً مزعوماً .

في ١٨ آيار ، وبينما كان لورنس يتعافى من نوبة حمى أخرى ، لخص مأزقه في رسالة بعث بها إلى إدوارد جارنت يقول : «إنني مريض حالياً ، في جسدي وفكري - وأبغض نفسي وجميع ظروف الحياة» . ورغم ذلك فقد قطع شوطاً في مراجعة كتاب أعمدة الحكمة . وفي نهاية شهر حزيران جرى طبع جزئين من الكتاب . وقادته حماسته لإصدار طبعة أنيقة إلى التدقيق الكبير في كل صفحة ، ونتيجة لذلك فقد تحمل المشروع نفقات إضافية . وتطلب الأمر إلى المزيد من المشتركين لتغطية النفقات الزائدة ، فقرر لورنس طباعة مائتي نسخة .

وأخيراً فقد جرى طباعة ثمانية أجزاء من الكتاب في نهاية شهر أيلول . وأرسل لورنس نسخاً إلى عدة أشخاص مؤهلين لوضع ملاحظاتهم ونقدهم على معيار الطباعة . كانت من بينهم شارلوت شو ، التي عرضت تقديم المساعدة بقراءة النصوص . ومما أسره أنها عرضت هذه النصوص على زوجها (جورج برناردشو) . وقد أفادته فيما بعد بأنه قد أولى عناية فائقة بالنصوص كما لو كانت له . ويبدو من المحتمل أن هذه كانت المرة الأولى التي أولى بها شو عناية جادة لأي جزء من أجزاء الكتاب . وأعاد نسخ التصحيح بعد عشرة أيام ومعها رسالة ، ينتقد فيها التنقيط أو التشكيل الذي قام به لورنس في الكتاب ، وفوق كل ذلك التشهيرات والطعونات التي ظهرت ، حيث قال له : «لقد قضيت خمس عشرة سنة من حياتي ، وأنا أكتب انتقادات عن أناس ، إلا أنني كنت حذراً جداً مما يجب أن أقوله أو لا أقوله . فجميع الانتقادات تُعَدّ تشهيراً من الناحية الفنية ، إلا أنه توجد ضربات تحت الزنار ، ووقاحة ، وتعبير عن الازدراء الشخصي ، وبالطبع المساس بالسمعة والشرف» .

واقترح شو أيضاً أنه يجب إلغاء الفصل الأول من الكتاب ، مما سبب بعض الشكوك لدى لورنس . فقد تضمن هذا الفصل بياناً عن موقعه وعمله في الجزيرة العربية ، كما

تحدث عن أعمال الضباط البريطانيين الذين خدموا هناك . وكتب لورنس إلى شارلوت شو يقول : «إنني آسف لفقدان القائمة بأسمائهم . . فقد كان هذا الفصل هو الباب الوحيد للثناء والتقدير لزملاء ساعدوا في العمليات التي جرت هناك . وربما يمكن إيجاد هذا الفصل في يوم من الأيام في مكان ما . وقد بدأت الكتاب بذلك الفصل المعوم ، إذ إن تلك الجمل الرنانة تُعَدّ مدوية جداً بالنسبة لأسلوب . فأنا أحب ان تمضي الأشياء بهدوء» . ولم يكن لورنس متأثراً بخطة التشكيل والتنقيط التي وضعها شو له ، ولم يتبناها .

كما أن بروفة الكتاب قد أُرسلت إلى روبين بوكستون ، الذي أظهر اهتماماً زائداً بالأمور المالية لمشروع وتقدمه البطيء جداً . ففي رسالة بعث بها لورنس إلى بولستون في السابع من تشرين الأول اعترف فيها له بأن العائدات المجنية من اشتركات مائة وعشر نسخ لن تغطي التكاليف . ومن أجل احتواء هذه المشكلة ، فقد قدم لورنس أرضاً كان يمتلكها في منطقة شينغفورد كضمان لأخذ قرض من البنك . إضافة إلى أنه رفع مرة ثانية من احتمالية إصدار نسخة مختصرة من الكتاب ، إن يقول : «الفكرة التي تدور في رأسي هي أن أوكل للبنك حقوق نشر الكتاب المختصر ، وتخفيض عائدات بيع النسخ لتغطية أية نفقات تترتب علي ، وما تبقى من فائض يعود لشقيقي ، بالطبع ، الذي سيرث موجوداتي كافة إذا ما كانت هناك أية موجودات» .

فهذه الصعوبات والمؤثرات التي استغرقت عملاً زاد عن سنة ضاعفت من مرض الكآبة الذي كان يعاني منه لورنس . وفي نهاية عام ١٩٢٤ لم يعد فكره متوازياً ، وجرفته القوى المعقدة الى الحضيض ، وأدت به حتى إلى أشكال عديدة من الانحطاط الذاتي .

كان لا بد من مضي سنوات عديدة لمعرفة هذا السر في الاختلال التفكيري للورنس . ففي شهر أيار ١٩٦٨ ، تقدم جون بروس ، الذي خدم مع لورنس في سلاح المدرعات بشهادة حساسة في هذا الصدد لصحيفة الصنداي تايمز . إ ذ إدعى بأنه كان بشكل عنصراً رئيساً في حياة لورنس ما بين الأعوام ١٩٢٢ - ١٩٣٥ . وبعد إجراء بعض المفاوضات حصلت الصحيفة على خمس وثمانين صفحة مطبوعة تحتوي على أحداث مزعومة اشترك فيها لورنس . وكان جزء من هذه الاوراق ملفقاً بوضوح ، فعلى سبيل

المثال أشارت إلى أن بروس رافق لورنس في حملات تجسس في الهند حيث تخفيا هناك بملابس هندية . وهناك اجزاء أخرى احتوت على ادعاءات خارقة لا يمكن التأكد من صحتها . لذلك فمن أجل حماية نفسها فقد طلبت صحيفة الصنداي تايمز من بروس أن يقدم إقراراً قانونياً يعترف فيه بأنه يقول الحقيقة وأية نتيجة تظهر أن هذه المعلومات كانت تلفيقات فأنه سيجري اتهام بروس بالحنث باليمين .

وبعد أن جرى استخلاص فقرات من وثيقة بروس ، وحذف أخطاء واضحة فيها جرى نشرها في الصحيفة في ٢٣ حزيران ١٩٦٨ .

ومما جاء فيها أن بروس قد قابل لورانس في عام ١٩٢٢ ، وأنه انخرط معه في عمل مشابه لعمل الحارس الشخصي ، بينما كانا يخدمان في سلاح المدرعات ، وأنه قد شهد سلسلة من الانهزامات الأولى .

ويوجد دليل مستقل على أن لورانس قد عمل على أن يكون لديه انهزام نفسي ، في عدد من المناسبات وفي عدة سنوات (فقد ادعى بروس بأنه شهد الاختلالات (الاخفاقات) التسعة التي ما بين الأعوام ١٩٢٣ - ١٩٣٥) .

بحث هذا الدليل من قبل جون ماك ، وهو استاذ في علم النفس ، في كتابة «أمير اضطرابنا» . إذ توصل نتيجة مفادها أن الاختلالات كانت ناجمة عن عدم توازن لورنس العقلي في محاولة تأقلمه مع حادثة الاغتصاب الجنسي التي تعرض لها في درعا عام ١٩١٧ . ورغم ذلك ، فإن ماك لم يوح بأن هذا كان الحافز الوحيد للورنس ، إذ اشار إلى عوامل نفسية أخرى يمكن أنها كانت موجودة .

إذن فالمسألة معقدة تماماً بوضوح ذلك أن لورنس لم يترك أي تفسير لها كما أنه ليس ثمة أية فرصة لوجود بيان نفسي مفصل ، وتكهنات تبين أسباب هذا التصرف يمكنها أن تؤدي إلى نتيجة قاطعة في هذا الخصوص . فقد قال لي الأطباء إنه إذا ما أصاب أحدهم مرض نفسي أو أنه خاض تجربة جارحة بعمق ، فان ذلك سيكون له رد فعل تقررها بطريقة ما العوامل المؤثرة في نفسية هذا الشخص . فمثل رد الفعل هذه قد تكون غير عادية وتنعكس على تصرف الشخص وتؤدي به الى حافة الجنون . ورغم ذلك ، فإن

غرابة سلوكه ربما تظهر للآخرين فقط ، في حين أن الشخص يمكن الإبقاء على توازنه النفسي .

إذن لا توجد لمحاولة للتكهن في هذه السيرة الذاتية التاريخية بشأن مسألة نفسية قد بحثها ماك بتفويض محترف كبير . والحجة بعدم القيام بذلك تُعَّد قوية بشكل خاص لأن علماء النفس يشددون على أن السلوك الخاص لهذه الطبيعة لا ينعكس بالضرورة على تصرفات الشخص اليومية . أما في حالة لورنس ، فلا أحد كان يعلم بذلك سوى بضعة أشخاص مطلعين مباشرة على ذلك ، ويبدو أن خضوعه للانحطاطات (الانهزامات) لم يؤثر في حياته العملية . بل كانت عارضاً مرضياً أكثر منها سبباً لحالته العقلية . فكما كتب ماك يقول : «يوجد اغراء في هذا العصر من العلم وعلم النفس لمحاولة تفسير كل شيء يتعلق بالإنسان ، أو لإظهار كيف أن كل جزء من أجزاء شخصية الإنسان يتعلق بالاجزاء الاخرى . وثمة مبدأ علمي مزيف في ذلك ، فنحن لسنا متكاملين في شخصياتنا إلى نفس المدى تقريباً كما نكون في أجسادنا . وبعض الخاصيات الموجودة فينا جميعاً - وبالتأكيد في لورنس - ينبغي أن تبقى موجودة بحد ذاتها من دون تفسير .

الفصل الثاني والعشرون

الطموحات المنجزة

كانون الثاني ١٩٢٥ - كانون الأول ١٩٢٦

أمضى لورنس وقتاً طويلاً في كتابه أعمدة الحكمة ، ولكن مع بداية عام ١٩٢٥ ، أي بعد سنة من بداية مشروعه ، لم ينته من طباعة كتابه سوى ثلاثة أجزاء من أحد عشر جزءاً ، ولم ترسل أية بروفة نهائية للطباعة . ورغم ذلك ، فقد أبلغ شارلوت شو عن آماله بطباعة النص بحلول شهر أيلول ، وأن يوزع الكتاب قريباً . إلاّ أن الأحداث أظهرت بأن هذه التقديرات الجديدة لم تكن سوى تفائلاً زائفاً كالذي من قبله .

وأصبحت حالته العقلية أنذاك مختلة بحيث أنه فكر أن ينضم إلى سلاح الجو ثانية ، إذ إنه عُدَّ ذلك بمثابة مستقلة في الحياة . ففي السادس من شباط كتب إلى ترنيشارد رسالة مطولة ، يطلب فيها منه أن يحقق له ذلك قائلاً : «أرجوك أن لا تخذلني لأنك قد فعلت ذلك في العام الماضي . فلا أعتقد في الحقيقة بأنك سترفضني إلى الأبد لأن الناس يطلبون شيئاً يدوم طويلاً وأنا أطلب بالحاح أن أعود الى سلاح الجو . وأخشى فقط أن لا يأتي دوري إلى أن أصبح كبيراً في السن . فذلك ما جعلني أكتب إليك ملحاً» .

وبعد أسبوعين كتب إلى بوكستن يشكره على مساعدته في إنجاز مسودة كتاب أعمدة الحكمة . بيد أن البنك لم يكن على استعداد لاستمرار تقديم أي قرض زيادة عما قدمه في هذا الخصوص . فأدرك لورنس بأن عليه أن يتدبر أمر المال من أي مصدر آخر ، إذ إنه لن يكون له أي مجال للاسراع بطباعة الكتاب ، الذي كان سيطبع في مطبعة يدوية صغيرة . واعتقاداً منه بأن الكتاب سينتهي طبعه بحلول عيد الميلاد ، فقد افترض أنه لو اقترض مائة جنيه من بوكستون ، مع تدبير ثلاثمائة جنيه على أمل أن يبيع بعض الكتب النادرة ، وبذلك سيتحقق طبع الكتاب . فكتب يقول : «إنني مستعد لأن أخسر نحو ألف جنيه من أجل تحقيق إصدار الطبعة هذا إضافة إلى سحب (١٣٠٠) جنيه ، مع الفائدة ، فسيترتب علي مبلغ (٢٥٠٠) جنيه في كانون الثاني القادم . فلدي أشياء

سأبيعها من أجل تغطية ذلك . وإذا لم أفعل ذلك قبل حلول عيد الميلاد ، فإنني سأتحول لعرض طباعة الكتاب المختصر ، الذي يعادل نصف كتاب أعمدة الحكمة تقريباً ، وسألتجىء إلى كيب ، الذي كان راغباً في دفع سبعة آلاف جنيه سابقاً ، ومن المحتمل أنه سيدفع ثلاثة آلاف جنيه في هذه المرة ، لإبرام اتفاق محدود ، الأمر الذي سيلائم بعض طموحي في هذا المجال» .

وتفاقمت هذه المشكلات مع طابع كتابه ، ماينِنغ بايك ، الذي ابتلى بزواج غير سعيد وأصبح غير راغب في العمل ولو بصورة مؤقتة . وعلم لورنس بأنه لا أمل من ذلك سوى أن يقوم بمواساته وتشجيعه .

في شهر آذار قرر أن يعيد ثانية فكرة الكتاب المختصر . ورغم خيبة أمله السابقة فإن كيب كان مهتماً بهذا المشروع ، فوافقا على نص كتاب يتألف من (١٢٥) ألف كلمة ، وهو أقل من نصف حجم كتاب أعمدة الحكمة ، لينشر تحت عنوان مختلف في ربيع عام ١٩٢٧ . وأقترح كيب إبرام عقد يدفع للورنس مبلغ (١٥٠٠) جنيه عند التوقيع ، ويدفع له بعد ستة أشهر مبلغ (١٥٠٠) جنيه أخرى . فباشر لورنس العمل لاتمام النسخة المختصرة في شهر آذار ١٩٢٦ ، مما عني أنه سيعالج ذلك بعد إيجاد مشتركين للكتاب أعمدة الحكمة السبعة . وعندما جرت الموافقة على إبرام عقد الكتاب المختصر ألغي بيع كتبه الخاصة ، إذ يقول في هذا الصدد : «كان علي الاحتفاظ بهم أكثر من أي شيء آخر أملكه» .

بعد شهر من ذلك بدا أن مناشدته لترنيشارد أثمرت . فقد جرى انتخاب حكومة بريطانية جديدة في شهر تشرين الأول ١٩٢٤ ، وأصبح صموئيل هوار وزيراً للطيران مرة ثانية . فوعد ترنيشارد بإثارة موضوع عودة لورنس إلى سلاح الجو عندما يعود الوزير إلى إنجلترا في شهر أيار بعد جولة طويلة كان يقوم بها فيما وراء البحار .

كانت هذه الأخبار منعشة إلى حد كبير لمعنويات لورنس ، فأبلغ بوكستون في ٢٦ آذار بما يأتي : «لقد بعث لي بروف بأخبار جديدة ورائعة . وإنني ماض لأضرب كيب بمبلغ مائتي جنيه وفقاً لذلك» . وبالشعور بالغبطة نفسه ، فقد أخبر شارلوت شو حول إمكانية عودته لسلاح الجو بقوله : «إن مثل هذا الشيء سيدفعني إلى المستوى السابع من السعادة . فشهر أيار هو شهر اتخاذ القرار . فربما قد يحدث شيء جيد أخيراً» .

ومن ثم في ١٦ أيار ، سمع لورنس بأن هوارس رفض مرة ثانية السماح له بالعودة إلى سلاح الجو ، فتحطم نتيجة لذلك ، وكتب لبوكستون يقول : «لقد قرر سلاح الجو أخيراً وعقد الغرم على عدم عودتي للخدمة فيه ثانية ، فهذا بالطبع سيؤثر في وجودي في الجيش حالياً ، من خلال طرح الحافز لذلك .

ومن هنا فإنني سأُسخر نفسي طوال فصل الخريف ، وبشكل مكثف لأنهاء العمل بكتاب أعمدة الحكمة . وبعد الانتهاء منه فسأكون قادراً على تحديد مقدار طبعه ، ومن ثم إزالة جميع العقبات التي ستقف أمام إصداره . وأنا ممتن جداً لك ولبنكك لإتاحة التسهيلات كافة الممكنة لي ، وعلى ثقتك بي وعدم خيبة أملك بما أقدمه» .

لقد أزال قرار عدم رجوعه إلى سلاح الجو الآمال كافة التي كان يعلقها على ذلك في الأسابيع التي مضت . وعادت إليه الكآبة السوداء ثانية . وكان مستعداً للقيام بأية محاولة أو خطوات يمكن أن تلغي هذا القرار . وبمعرفته أن جون بوشان كان صديقاً لرئيس الوزراء ، فقد كتب إلى ليونيل كيرتس قبل بضعة أيام يقول : «هل قابلت جون بوشان من قبل؟ وهل يمكنني ذلك؟ من دون إبداء رغبة ظاهرة في ذلك؟ وطبيعياً فالأمر يختلف» . فقد كان من المستحيل ترتيب مقابلة قبل أن يعود هوراس عن قراره ، ولكن في يوم الأحد الموافق ١٧ أيار ، وبعد يوم واحد من علمه برفض هوارس ، قابل لورنس بوشان في لندن . وبالطبع فقد التمس المساعدة منه ، وأتبع ذلك برسالة بعثها له بعد يومين يقول فيها : «لا أعرف بأي حق ناشدتك يوم الأحد ، فقد حدث ذلك لساعته . فأنت تعرف بأنني منذ سبع سنوات لدي طموح بأن أنضم الى سلاح الجو ولهذا لن أتمكن من تحقيق ذلك خلال ساعة ، ومن ثم فإنني سأتحدث عن ذلك لمعظم الناس الذين سألتقي بهم» . وكتب بوشان لبولدوين في هذا الخصوص ، بيد أنه لم يستطع أن يحدث إلاّ تأثيراً طفيفاً في رأي هوراس .

بدأت عملية طباعة «أعمدة الحكمة السبعة» تجري على قدم وساق عندما انضم للمطبعي بايك مطبعي آخر ذو خبرة هو هيربرت هودغسون .

وكان أول عمل قام به هودغسون هو تركيب محرك كهربائي للمطبعة ، وقد برهن على أنه رجل مهنة جيد في مجال الطباعة مثله مثل بايك . ونتيجة لذلك فقد جرت طباعة النص وتوضيحاته المرفقة بكفاءة كبيرة .

والآن وبعد توفر المال اللازم من طباعة الكتاب المختصر قرر لورنس إضافة المزيد من التوضيحات . وعندما جرت طباعة النص على صفحات مقسمة أمكنه رؤية أين تقع الفراغات في نهايات الفصول . فاستغل هذه الفراغات بملئها برسومات كل من كنينغتون ، بول ناش ، ووليام روبرتس فيما بعد .

ورغم أنه كان لا يزال مشغولاً بالعمل خلال عام ١٩٢٢ بنص الكتاب ، وإجراء المراجعات والتصحيحات على أجزاء طباعة جديدة ، فقد كان عليه آنذاك تصحيح ثلاث أو أربع مراحل من بروفات الكتاب . وكان العمل يقتضي منه خمس ساعات في اليوم إضافة لمهامه في سلاح المدرعات . وبحلول منتصف شهر حزيران كان على وشك الانتهاء من المراجعة والتصحيح ، وإتمام الجزء الخاص بالحادثة التي تعرض لها في درعا ووصفها بأنها أحداث كئيبة . وكتب إلى إدوارد جارنيت بحالة يائسة من الكآبة يقول : «ياله من أمر قذر ، لا سبيل لمعالجته وإصلاحه! فكيف بحق السماء يمكنك التفكير بأنه يمكن أن يمر؟ فوجهة نظري الكئيبة تتعمق تجاهه في كل مرة أتذكر تلك الحادثة . وإذا ما أردت رؤية كم كانت الأوضاع ، والشخصيات ، والمواد الجيدة غير متقنة ، فارجع إلى أية صفحة» من هنا وهناك ، في هذا الخصوص ، بحيث لا يوجد كاتب سخيف في شارع الصحافة لا يريد فتح المزيد من النار على كل فقرة من الكتاب .

لقد سحب ترنيشارد معارضته لعودتي إلى سلاح الجو . وحصلت على سعادة قصوى لمدة أسبوعين ؛ ولكن بعد ذلك عاد هوارس من العراق ورفض هذه الفكرة . هذا ، وباطلاع وثيق على كتاب أعمدة الحكمة (الذي أعرفه حالياً أكثر من أي وقت مضى) قد اقنعاني سوية بأنني لست لعيناً جيداً . لذلك فإنني سأنسحب من ذلك ، ولكن بأسلوبي المضحك المألوف في طباعة الكتاب مع كيب كما آمل ذلك . فلا شيء يشبه الإصرار ، والنظام والتنظيم في هذه الأمور . وسأجعلك وصياً على ملاحظاتي التي كتبتها خلال وجودي في سلاح الجو . فإنها ستخيب ظنك» .

لا بد أن لورنس قد كتب هذه الرسالة بقصد جعل أصدقائه يقومون بعمل ما لصالحه وكان يعلم أن التهديد بالانتحار سيكون سلاحاً عاجزاً ضد هوارس ومن الطبيعي أن يكون جارنت محترساً ، فكتب إلى برنارشو على الفور من أجل المساعدة . ومن ثم مرر

شو الرسالة إلى بالدوين ، مشيراً إلى أنه إذا ما نفذ لورنس تهديده فستكون تلك فضيحة مروعة .

وكما حدث ، فقد ازداد الاهتمام العام بلورنس في تلك اللحظة . في شهر أيار نشر هوتشينسون سيرة ذاتية تحت عنوان «مع لورنس في الجزيرة العربية» من تأليف لويل ثوماس ، وهي تستند إلى محاضراته السابقة في هذا الخصوص . وكان جزء كبير من هذا الكتاب أما ملفقاً أو يعتمد على الشائعات ، حسب ما أفاد به لورنس ، غير أنه كان له تأثيراً بإعادة الاهتمام العام والتفكير بلورنس .

وفجأة وبشكل غير متوقع علم لورنس من بوكستون بأن نائب مارشال الجو السير جيوفري سالموند (الذي كان يعرفه لورنس إبان الحرب) قد أعلن بأن سلاح الجو كان يدرس إعادته للسلاح . وكتب لورنس إلى بوكستون بالمقابل يقول : «هل يمكنك سؤاله عن ذلك؟ فقد علمت بأنني قد رُفضت في نهاية الأمر ، إذ كنت قد بنيت جميع مشاريعي على هذا الأساس» . وعلم بعد أسبوع بأن إعادته ممكنة ، فكتب إلى شارلوت شو يقول : «إنني أعيش في شك من أمري . فقد أبلغني ترينشارد أن أذهب لأراه يوم الأربعاء ، لاتلقى الحلوى . ولا يمكنني أن أخمن ما هي . فهو يعلم أنني أريد عملاً سيئاً منه ، ليس مناسباً لي» .

خلال مقابلته في لندن في الأول من تموز أُبلغ بأن بامكانه الانضمام ثانية إلى سلاح الجو . وكتب فيما بعد يقول : «أشعر الآن بالعجز في الراحة والاستقرار ، كما لو أنه لا يوجد المعني أبداً بالمزيد من الرحلات . فأعتقد أن ثمة شيئاً ما يشبه سفينة لجأت إلى مينائها أخيراً . وأنني قد وعدت بأن العمل بالكتاب سينتهي بحلول عيد الميلاد . فيمكنني أن أعيش على ذلك لمدة سنة اعتباراً من الآن ، فلما العجلة إذن؟ ولا توجد أيضاً أية حاجة لوجود الكتاب ، ورغم ذلك فقد أنهيت ملحقات الكتاب كافة .

فلا تقلقوا في هذا الشأن : فبعد بضعة أيام ستجدني في المعسكر ثانية ، وسأكون متأكداً من إنهاء أعمالي كافة المتعلقة بالعرب قبل التحاقي بسلاح الجو .

فكما ترى ، إذا ما استطعت إنهاء عملي هذا المتعلق بالكتاب فسيكون بإمكاني الالتحاق إلى سلاح الجو . وربما يمكن أن يمضي تفكيري إلى السبات . على أية حال

يجب أن أكون عادياً أكثر مما كنت في الآونة الأخيرة . وستكون الراحة انتهاء القلق» .

وعمل خلال الأسابيع الأخيرة بجد وتعب في مراجعة وتصحيح ما تبقى من نص أعمدة الحكمة وتصحيح البروفات . وسيكون ثمة القليل من الوقت من أجل العمل في الكتاب ، إذا ما توقع أن توجد إعادة للتدريب الأساسي ولمدة شهرين عندما يعود إلى الانضمام الى سلاح الجو . وبحلول السابع والعشرين من تموز أكمل مراجعة الجزء التاسع من الكتاب ، وجرت طباعة الفصول الأربعة عشر الأولى ، وطباعة النص حتى نهاية الجزء الثامن (وهذا يشمل ثلاثة وثمانين فصلاً) ، وبقية الفصول كانت في مراحل مختلفة من البروفات . وقبل مغادرته بوفنيفتون أرسل آخر جزئين متبقيين إلى الطباعة .

عاد لورنس إلى قاعدة أوكسبريد التابعة لسلاح الجو في ١٨ آب ، وكان قد بلغ حينذاك السابعة والثلاثين من عمره . وبعد ثلاثة أيام صدرت الأوامر بالتحاقه إلى الكلية الجوية في كارنويل بمقاطعة لينكو لنشاير . فُسر لذلك ، واحتفل بهذه المناسبة بطلبه دراجة نارية جديدة من نوع بروف ومن آخر موديل . فكانت تلك الدراجة الرابعة الحديثة التي يقتنيها .

وفي كارنويل انضم إلى السرب (ب) ، الذي كان يتألف من خمسة عشر رجلاً ، من ضمنهم ضابط صف برتبة رقيب ، وعريف . وكان لورنس يعمل كاتباً وساعياً . والآن وبعد أن عاد إلى سلاح الجو وشارف المشتركون في كتاب أعمدة الحكمة على إكماله ، فقد أصبح لديه الوقت للالتفاف إلى الأمور القديمة .

ورغم أنه كان مُقراً بسعادته بسبب توقع مكوثه خمس سنوات أخرى في سلاح الجو ، فإنه بعث إلى شارلوت شو بواحدة من أكثر رسائله كآبة يقول فيها : «هل تعلمين ماذا يمكنك أن تفعلي عندما تجدين أن حياتك كلها معرضة للدمار؟» وكان السبب في هذا التغيير المفاجىء في مزاجه أنه قد قابل الأمير فيصل في لندن ، الذي كان في زيارة لإنجلترا آنذاك ، وتناولا طعام الغذاء مع اللورد ونترتون . «بالطبع فقد تحدث ونترتون عن الأيام الماضية ، تلك التي كنت مرافقاً له فيها ، وتخيلنا أنفسنا وكأننا نزحف ثانية صوب دمشق . وتحدثت بدوري حتى النهاية ، رغم أنني شعوري بأنني مضحك وأنا بملابس سلاح الجو ، بل إنني شعرت بعدم مقدرتي على الاستمرار . فقد تغيرت لأن لورنس

الذي كان ودياً ومألوفاً مع هذا النمط من الناس قد مات . بل إنه أسوأ من ميت ، فقد أصبح غريباً عما كان عليه قبل ، فمن الآن فصاعداً ستتغير طريقتي في الحياة وفقاً لزملائي هنا ، وسأحط من نفسي (ذلك أنني أرى في أعينهم وعين ونترتون نظرة الانحطاط) على أمل أنني سأشعر في يوم ما بأنني منحط حقيقة ، بالنسبة لمستواهم . وأنني أتوق إلى أن ينظر الناس إليّ نظرة منحطة ويحتقرونني ، وأنني خجل جداً لأن أتخذ خطوات قذرة تشعرني بالخجل بصورة عامة ، وتضعني في موقف محتقر .

إنني أريد أن أشوّه نفسي ولو ظاهرياً ، لذلك أنه يمكن أن تعكس شخصيتي القذارة الخيفة تماماً ، وأن أنكمش عن القذارة الخارجية ، بينما آكل وأكل بشراهة كل مقدار ضئيل من القذارة تطرح صدفة في طريقي . ويبلغني عقلي الذي يضطرب ويضج ليلاً نهاراً طوال الوقت ، بإحساس مفاده كيف علي أن أدمر حياتي ونفسي وأن أمضي خاطئاً من دون أمل : وبأمل أن لا أعود أبداً ، وهذا ما أردته» .

وبالرغم من كل ذلك ، فإن رسائل لورنس تظهر أنه سرعان ما وجد رضا وقناعة في قاعدة سلاح الجو بكارنويل . فهو لم يخف شخصيته هناك ، وسرعان ما عُرف . وفي الثالث من تشرين الثاني أصبح قادراً على الكتابة لإدوارد جارنت بأنه كان يشعر «بسعادة سخيفة» .

أصبح آنذاك يعمل في المراحل الأخيرة من كتاب أعمدة الحكمة ، وفي ١٧ تشرين الثاني ، كتب إلى شارلوت شو متشوقاً بأنه يتطلع إلى إنهاء مهمته ، قائلاً : «أليس عجيباً أن يكون العمل قد شارف على الانتهاء؟ فلقد شارفت على الانتهاء من تصحيح البروفات لأجزاء الكتاب الأخيرة ، بما فيه الملحقات ، ومن ثم طباعته ، وإصداره بسلام» .

وأمضى عطلة عيد الميلاد وحيداً ، إذ أن بقية أفراد السرب (ب) كانوا في إجازة ، وهو يقوم بتصحيح البروفات والقراءة . وبدا في نهاية العام أن النص الجديدة لكتاب أعمدة الحكمة يمكن أن ينتهي ، بعد مضي وقت طويل ، خلال شهر ، رغم أنه كان لا يزال ثمة عمل لا بد من إنجازه يتعلق بالتوضحات . وحوّل لورنس انتباهه بعد ذلك إلى الكتاب المختصر الذي سيصدره كيب وبموجب بنود العقد ، فقد كان عليه تسليم النص في نهاية شهر آذار ١٩٢٦ ، وبدأ العمل به شهر كانون الثاني ، حاذفاً منه بعض الفقرات . ولحسن

الحظ كانت المهمة سهلة فقد اختصره مرتين من قبل (في عام ١٩٢٠ ، وفي عام ١٩٢٢ مع جارنت) بهذه الطريقة .

وبالرغم من بياناته المقتضبة فيما بعد بشأن النسخة المختصرة للكتاب ، متضمناً أنه لم يعره اهتماماً كبيراً ، فإن طبيعته قد دفعته إلى أن يجعله عملاً جيداً بقدر ما أمكن في طبعته الجديدة . وكان هذا يمكن أن يكون أول عمل مهم يصدر باسمه ، وأنه لن يخاطر بنشوء وجهات نظر معادية بإصدار نسخة غير دقيقة . وفي الحقيقة فقد كان مشروع كيب تحدياً خاصاً . وشعر أنه قد فشل في خلق عملٍ هائلٍ من خلال كتاب أعمدة الحكمة ، لذلك فإن هدفه الأكثر تواضعاً في النسخة المُختصرة كان ابتكار قصة مغامرات غير مكتملة . وكان مصمماً على النجاح في هذا المضمار الأسهل ، ليس فقط من أجل اعتباره الذاتي ، وإنما أيضاً لأنه كان معتمداً على إصدار النسخة المختصرة من أجل تسديد ديونه .

في الثامن من آذار أنهى تصحيح آخر بروفات كتاب أعمدة الحكمة ، غير أن ملحق التوضيحات كان لا يزال خارج برنامجه . وأبلغه الناشران ويتنجهام وجريفز بأنهما لا يستطيعان إتمام دورهما في العمل قبل شهر تموز .

فكان من الأفضل له أن ينتهي تصحيح النص ، إلا أنه بعد عشرة أيام كُسرت يده اليمنى . إذ إنه تعرض لحادث أثناء معالجته لمحرك سيارة . ولحسن الحظ فقد كان قد أنهى النسخة المختصرة التي سيصدرها كيب . ولم يستطع استخدام يده اليمنى في الكتابة نحو شهر ، ومن ثم استطاع الكتابة بصعوبة ، إلا أنه غالباً ما كان يطلب من أحد الأشخاص في سلاح الجو القيام بعمل كتابي له .

وعندما انتهى من العمل في النسخة المختصرة التي سيصدرها كيب في أواخر شهر آذار قرر أن يواصل العمل بالمسودة وبمساعدة اثنين من أصدقائه ظهرت بروفة أخرى من كتاب أعمدة الحكمة مع اختصاراته وكافة والفقرات الرابطة من أجل اصدار النسخة المختصرة . وقد اتاحت هذه العملية ، التي قامت بشكل رئيس على شطب فقرات بالحبر الهندي الأسود ، الدافع الأساسي في التصريح المضلل والمتعمد الذي أدلى به فيما بعد لصحيفة دار كيب المسماة «الآن وفيما بعد» ، ومفادته : «أن النسخة المختصرة قد قام بها خلال سبع ساعات في كارنويل في السادس والسابع والعشرين من آذار ١٩٢٦ ،

وبمساعدة اثنين من أصدقائه في سلاح الجو ، هما أ . نويلز و أ . ميلر» . وعندما وافق في البداية على إصدار الطبعة المختصرة لدار كيب ، كان يخطط في الوقت نفسه لأن تظهر بعد عدة شهور وبعد توزيع كتاب أعمدة الحكمة الكامل للمشتركين ، غير أنه بدا الآن من غير المحتمل أن يحدث هذا ، إذ إن العمل كان لا يزال قائماً في ملحق التوضيحات مما سبب تأخيراً في ذلك .

علم لورنس في نهاية شهر أيار بأنه سينقل للعمل في الهند في خريف ذلك العام . وقد بدا هذا ملائماً له ، لأنه يعني أنه سيكون بعيداً عن ساحة الدعاية التي ستحيط بإصدار نسخة كيب المختصرة . إلاّ أن العمل لم يستمر بكتاب أعمدة الحكمة (الكامل) . وعندما أثر الإضراب العام حينذاك على سوق العمل ، وتوقفت دار نشر ويتنجهام وجريفس عن العمل ، أعاد لورنس حساباته لاحتمال أن لا ينتهي العمل في الطبع حتى شهر أيلول .

واعتقد لورنس في نهاية شهر آب أن نسخ «أعمدة الحكمة السبعة» ستكون جاهزة لإرسالها إلى التجليد في الخامس عشر من أيلول . إلا أنه رغم ذلك كانت لا تزال توجد تأخيرات أخرى ، وأن النص كان لايزال غير جاهز في الخامس والعشرين من أيلول ، عندما علم أنه قد يكون طعناً وتشهيراً غير متعمد برونالد ستورز . فالفقرة الطاعنة قد أُعيد كتابتها ، وثم تنفيذ أربع صفحات وروجعت وأعيد طباعتها . ومما زاد في مشكلاته ، فقد وجد كنينغتون أخطاءً في بعض صفائح الطباعة (البليتات) . ونتيجة لذلك فإن موعد التجليد قد تأجل إلى نهاية شهر تشرين الأول . ورغم ذلك ، فقد كانت توجد أخبار سارة ، عندما حصل ريموند سافاج على عروض للنشر بقيمة ألفي دولار من صحيفة الديلي تلغراف ومجلة آسيا ، لنشر الكتاب المختصر على حلقات . كما أن سافاج قد رتب أيضاً حقوق طبع النسخة الأميركية لكتاب أعمدة الحكمة على أن تطبع بوساطة دار نشر جورج ودوران ، التي كانت قد أصدرت طبعة كيب المختصرة في نيويورك . وكان العقد ينص على امتلاك اثنتين وعشرين نسخة ، منها نسختان من أجل إيداع حقوق الطبع . أما ما تبقى من النسخ فقد كانت مكلفة جداً بحيث لم يكن بالإمكان بيعها . وبهذه الطريقة فقد ظل كتاب أعمدة الحكمة تحت قائمة الطباعة لدى دار دوران ، كما ستبقى حقوق الطبع محفوظة لها .

في ١٨ تشرين الثاني كتب لورنس إلى بايك يقول : «أبق الأمر على ما هو ، فنحن في المرحلة الأخيرة حقيقة . وقم بعمل قائمة محتويات الكتاب ، واختر صفحة العنوان التي ترغب فيها ، ولا ترسلها لي : ومن ثم ابدأ بالطبع ، وأطبع وأطبع» . وبدأ في الرابع من تشرين الثاني إجازة لمدة شهر قبل أن يتهيأ للذهاب إلى الهند . كما خطط للقيام بزيارات أخيرة للعديد من أصدقائه قبل غيابه الذي سيدوم خمس سنوات فيما وراء البحار . غير أن العمل في كتاب أعمدة الحكمة أخذ منه الأولوية .

وتم الإنتهاء من تجليد خمس نسخ من الكتاب خلال شهر تشرين الثاني ، فأرسل لورنس أول نسخة منها إلى المكتبة الملكية في وندسور ، مصراً على ارجاع الشيك الذي يحتوي ثمنها والذي أرسل مسبقاً إلى أمين المكتبة الملكية . وأرسل نسخة مجانية أخرى ، مع إهداء خاص ، إلى ترنيشارد ، وكتب له يقول : «هذا جزء لأفضل تعبير من معجب قانع ، وخادم مطيع ، إنما كان بالامكان» . ورد عليه ترنيشارد قائلاً : «هذه لفتة سارة من أكثر شخص مهلك غير مطيع عرفته من قبل» .

ومر شهر الإجازة بسرعة ، إذ أمضى لورنس معظمه في مساعدة بايك على مقارنة نصوص النسخ المتبقية ، وترتيب الصفحات وصفائح الطباعة (البليتات) كما قام بزيارة قصيرة إلى كوخه السابق في كلاودز هيل وأمضى ساعة مع ثوماس هاردي ، وكانت تلك آخر مرة يلتقيان فيها . وطلب منه كنيفتون بأن يصنع لنفسه تمثالاً نصفياً من البرونز ، فاستغرق ذلك منه خمس جلسات . وفي لندن التقى ببرناردشو وزوجته وببضعة أصدقاء . وكهدية للمغادرة فقد قدمت له شارلوت شو دفتر مذكرات سجلت فيه تأملاتها الفلسفية .

ثم قام ببيع دراجته النارية التي كانت قد خربت من جراء انزلاقتها خلال هذه الإجازة ولم يمض وقت طويل حتى أرسل شهادة في هذا الشأن إلى جورج بروف ، مُصنعها ، مفيداً بأنه قد قطع بالدراجة مسافة مائة ألف ميل منذ عام ٩٢٢ ، وعلى خمس دراجات رفيعة المستوى من نوع بروف ، وأنه سيسافر إلى الخارج عما قريب ، «لذلك فإنني اعتقد بأنه ينبغي علي أن أنهي ذلك ، وأشكرك على سعادة الرحلات التي قمت بها بهذه الدراجات» .

وخلال آخر أيام له في لندن قام لورنس بإعطاء حقوق الطبع للكتاب المختصر الذي ستصدره دار كيب للنشر تحت عنوان «ثورة في الصحراء» ، ورصد ريعه للأعمال الخيرية ، وعين كل من روبين بوكستون ، د. ج. هوغارت وإدوارد إليوت (وهو محام من لندن أوصى به بوكستون لهذا الغرض) كأمناء على ذلك ليبعد نفسه عن إغراء العدول عن قراره ، إذا ما حقق هذا الكتاب أرباحاً طائلة .

إن هذا الحرمان سيحرم لورنس في نهاية الأمر من تحقيق ثروة معتبرة ، إلاّ أنه كان متضمناً في قراره الذي اتخذه في عام ١٩٢٣ بأن لا يتخذ أي مبلغ شخص لقاء أية نسخة من مشترك في كتاب أعمدة الحكمة السبعة . وسيكون من غير المفكر فيه الاستفادة من النسخة المختصرة التي كان يخشى المشتركون أنه سينخفض من استثمارهم المكلف فيه . واقترح أنه إذا ما نجحت عائدات فائضة من بيع الكتاب ، فإنها يجب أن تحول إلى الصندوق الخيري لسلاح الجو الذي أُنشىء من قبل ترينشارد في عام ١٩١٩ . وفي الوقت المناسب ، فإنه يجب على لجنة الوصاية لريع كتاب «ثورة في الصحراء» أن يقوموا بانشاء صندوق للتعليم ، يدار بوساطة الصندوق الخيري لسلاح الجو ، وذلك لصالح أبناء ضباط سلاح الجو الملكي البريطاني ، في الماضي والحاضر ، وتعطى الأفضلية في هذا الصدد لأطفال الضباط الذين ضحوا بحياتهم أو الذين أصيبوا بإعاقات نتيجة للخدمة في هذا السلاح» .

وفي رسالة أخرى بعثها إلى غارت أعرب لورنس عن أفكاره لهيئة الوصاية بقوله : «لا توجد قوة على الأرض يمكن أن تسألكم عن كيفية إيداع المبالغ النقدية من ريع الكتاب . لذلك فدعونا نلهو بجزء يسير منه ، بحيث لا يمكن أن يزعج ذلك كل من اليوت وروبين ولا يزعجك أيضاً . ودعونا نأمل بأنه سيجنى من بيع الكتاب آلاف الجنيهات . وكلما كان الدخل أكثر ، فسيكون ذلك ساراً أكثر بالتأكيد . وأفضل رياضة هي طرح الأمور جانباً . فهنا في سلاح الجو أرى العديد من الحالات الصعبة التي من الممكن أن تلطف بدفع مبلغ من المال . ورغم ذلك فأنا أعد بأن لا أزعجكم بذلك . لأنني أحسدكم على هذا العمل .

فانه سيمضي ، كما تقول ، لسنوات حتى وفاتي ، ويعاد طبع كتاب أعمدة الحكمة ثانية» .

في الأول من كانون الأول ، كتب إلى والدته يقول : «هذه آخر ليلة حرة لي في إنجلترا ، وأنا أكتب إليك في ساعة متأخرة ، من شقة تقع في أعلى شارع بارتون ، حيث سمح لي بيكر أن أمكث هناك طوال هذا الشهر . فلا بد أن أتركها ، استعداداً للذهاب إلى ما وراء البحار ، ولكن بالنسبة لي فقد كان شهراً من العمل الصعب في ذلك الكتاب الكبير العائد لي . إنه لم ينته بعد : ولكن كل نسخة منه موجودة تحت التجليد ، لذلك فعملي به قد انتهى . وكل ما تبقى هو إرسال النسخ للمشتركين ، وسيتولى هذا عني المطبعي بايك فانهاؤه كان راحة كبيرة لي . لقد أنفقت عليه (١٣) ألف جنيه بالتمام والكمال ، وكانت مسؤوليته ثقيلة علي» .

بعد أسبوع أبحر إلى الهند على متن سفينة لنقل الجنود «ديريبشاير» .

الفصل الثالث والعشرون

المنفــى الطــوعي

كانون الثاني ١٩٢٧ - كانون الثاني ١٩٢٩

وصل لورنس في السابع من كانون الثاني إلى محطته الأخيرة ، وهي مستودع تابع لسلاح الجو البريطاني يبعد سبعة أميال عن كراتشي . وأظهرت رسائله الأولى التي بعث بها من هناك ردود أفعال مختلطة ، حيث جاء فيها أن مرافق العمل والسكن كانت «مريحة ، ومتينة البناء تقريباً ، ومبردة . ويبدو أنه مكان هادىء ، رغم أن الأرضيات الحجرية والأسقف العالية كانت صاخبة وبعيدة مثل مستشفى ، بعد تشرد كارنويل» . ورغم ذلك فبعد أسبوعين وجد المستودع «كئيباً ، إلى درجة جعلتني ارتعش .

إنها صحراء تشبه صحراء الجزيرة العربية إلى حد بعيد ، توجد فيها صور وأشكال الصحراء كافة (كقطيع الحمير ، والرجال بملابسهم الملونة والممزقة ، وأجمات نباتات الدفلى المزهرة في الوادي ، وسروج الجمال ، وأشجار التاماريسك الشوكية الرفيعة) كلها تحاول أن تذكرني بما كنت فيه لمدة ثماني سنوات أكافح فيها فكرياً بشكل يائس . حتى أنني بدأت أشك فيما إذا كان مجيئي هنا كان حكيماً .

ورغم ذلك لا توجد فرصة كبيرة ، ولا بد أن تصنع ، وستفعل ، بسهولة ، في الحقيقة» . وكان قد أُسند للورنس وظيفة كاتب هناك في قسم تصليح المحركات ، حيث يرسل جميع محركات طائرات سلاح الجو البريطاني الموجودة في الهند لإجراء تصليح شامل عليها .

كان الخدم الهنود يتولون ترتيب أسرة البريطانيين وينظفون أحذيتهم وأنياتهم . إلا أن لورنس لم يكن راغباً في هذا النوع من الخدمة العرقية فكتب إلى فريدة عقل ، التي علمته اللغة العربية في جبيل قبيل الحرب ، يقول : «هذه البلاد ، الهند ، ليست جيدة . إذ يبدو وأن سكانها يشعرون بأنفسهم وضيعين . فهم يمشون بطريقة مقهورة ومقموعة ، قذرة أيضاً ، مع كثير من قذارة الحركة الصناعية الأوروبية ، ومع كل أمورها البدائية المخفقة ، أو بكونها متساوية بقوة مع الأوضاع الغربية . وسأكون سعيداً فقط عندما يعودون

للوطن ثانية» . لذلك فقد عزم على أن لا يغادر المعسكر .

وبالروح نفسها تقريباً ، كان يحاول ، بعض الوقت أن يحث والدته وشقيقه الأكبر بوب على أن يكفا عن العمل التبشيري في الصين ، الذي سخر له حياتهما منذ مطلع العشرينات . ويبدو أن تجدد الاتصال بالموضوع العرقي قد أضاف مرارة إلى وجهات نظره . فقد كان مسروراً لأن يرى أن ثمة ميلاً لمناهضة الأجنبي في السياسة الصينية ، فكتب إلى والدته يقول : «إن الخلاص يأتي من داخل الأمة ، ولا يمكن أن تكون الصين على الطريق الصحيح إلى أن تقوم بما قامت به روسيا ، بأن تغلق أعينها وسمعها للتعليم (التبشير) الخارجي ، وأن تتبع فطراتها الذاتية حتى حدودها المنطقية والسخيفة على حد سواء فكلما سمحت للأجانب بالتعليم والوعظ ضمن حدودها ، أصبحت بالتأكيد أمة ضيعة . وينبغي أن تفهمي ذلك ، فالشعوب يمكنها أن تأخذ من بعضها بعضاً ولكن لا يمكنها أن يعطي أحدها الآخر» .

احتاج لورنس إلى أن يملأ أوقات فراغه في كراتشي ، ولكن الآن وبعد توقيعه عقداً يمنح بموجبه حقوق طبع ثورة في الصحراء إلى وديعة خيرية ، فقد وجد نفسه شحيحاً بالمال ، فالمسؤولون هناك لم يدفعوا له سوى مخصصاً ضئيلاً إلى أن تصل أوراقه من إنجلترا وفي الوقت نفسه كانت تكلفة بريده لمراسلاته العادية تشكل عبئاً ثقيلاً . كما أنه أراد اقتناء تسجيلات حديثة للحاكي (الجرامافون) . لذلك كتب في الأول من شباط إلى كيب يطلب منه عملاً في الترجمة .

كان أول بريد وصله من إنجلترا حمل معه رسائل من متسلمين لكتابه أعمدة الحكمة السبعة . من بينها رسالة من اللّنبي ، يقول فيها : «أهنئك على هذا العمل العظيم ، وهو تسجيل ملائم لانجازاتك الرائعة في الحرب» . وقد ارتاح لورنس لهذه الرسالة ، فأبلغ شارلوت شو بقوله : «لقد كانت أخاف بأن شعوره بالانسجام (حيث كان يتمتع بالاتزان والصرامة) قد أرتبط بشخصيتي نوعاً ما مع سمعة سخيفة نشأت حول ذلك بشكل مألوف . وإنك تفهمين بأن جهودي الحربية والقتالية كانت مهملة تماماً في أعينهم . فكل ما كان يطلبه منا هو تحويل الرأي العام الداخلي للسكان من الأتراك إلى البريطانيين . وقد استفدت من حاجته تلك لأجعل منه أباً للحركة القومية العربية – هذه الحركة التي لم يفهمها ولم يولها سوى تعاطفاً ضئيلاً» .

وقد عملت لجنة الوصاية على كتابة «ثورة في الصحراء» على عرض النسخ الأصلية من ملحق توضيحات كتاب أعمدة الحكمة في صالات عرض ليسستر . وقد أملت من ذلك أنه في حال بيع الصور فسيتوفر المال اللازم لتغطية نفقات طباعة الكتاب . ومن دون استشارة لورنس قام برناردشو بكتابة مقدمة لكتالوج الكتاب ، إلاّ أنها أحتوت على عدة أخطاء حقيقية ، بما فيها تصريح بأن نسخ كتاب أعمدة الحكمة مقتصرة على المشتركين وفي حدود مائة نسخة . ولكن كانت توجد في الحقيقة (١٧٠) نسخة «كاملة» ، كما أن لورنس كان قد سمح بإصدار (٣٢) نسخة «غير كاملة» ، تنقصها بعض الألوان . ورغم ذلك فإن عدم دقة لورنس قد ساعدت على ازدياد قيمة نسخ المشتركين ، حيث ارتفعت خلال أسابيع إلى أكثر من عشر مرات عن سعرها الأصلي .

كما أن شو استخدم مقدمة صالات عرض ليسستر لتكرار وجهة نظره بأنه يجب على الحكومة توفير دخل للورنس . إلاّ أن لورانس أحتج على ذلك وكتب لشارلوت يقول : «آمل من كل قلبي بأن لا يحصل جورج برناردشو على راتب تقاعدي . فأنا بمقدوري أن أرتب شؤون حياتي بشكل جميل ، كما يبدو لي . وكحكم عام ، لا بد أنك توافقين على أن الشؤون المالية لا تشغل بالي بشكل كبير» . ورغم ذلك ، فإن الأمور المالية ، ففي سياق آخر ، كانت تشغل باله كثيراً .

فقد قام برهن كل شيء كان يملكه لدى البنك ، وذلك لقاء إنهاء طباعة أعمدة الحكمة . وكان وضعه المالي في المستقبل يعتمد بشكل تام على نجاحه في كتاب ثورة في الصحراء الذي نشر في شهر آذار . وإذا ما فشل الكتاب فإن لورنس سيقع في دين يائس ، ومن ثم يجبر على ترك سلاح الجو (وهو الذي دخلته برضاي وقناعتي) لجني المال ، وأصبح قادراً على إبقاء ديوني» . ولو لم يقم بذلك فإن البنك كان سيبيع أرضه الواقعة في بول هيل . ولم يكن بمقدوره أن يمنع ذلك من الحدوث ، إذ أنه أمل بأن رأس المال هذا سيوفر له يوماً ما دخلاً معتدلاً عند تقاعده .

كان أصدقاؤه قلقين على ما سيشغل نفسه به ، بعد أن انتهى من كتابه أعمدة الحكمة . ولا بد أن لورنس نفسه كان يفكر بذلك إلاّ أنه سرعان ما وجد الإجابة ، عندما كتب له بوكستون يدعوه إلى أن يكتب أسرار حياته ومشاعره . فأجابه لورنس بقوله :

«حسناً ، أشعر بأن الكتابة عن أمور معقدة قد مضى وقتها ، كما ذهبت معها مسؤولية ما كانت أقوم به في الجزيرة العربية . وقد وضعت ، أبان عملي مع ونستون (تشرشل) ، بناء على طلبه ، الوضع الفعلي السائد في الشرق الأوسط آنذاك ، وبرضا كامل مني . وفي كتاب أعمدة الحكمة سجلت خبرتي وكفاءتي . لذلك فكل شيء قد انتهى الآن ، وعدت شخصاً عادياً مرة ثانية .

وعندما تجرفني صحتي إلى مسار معين (أو يجرني ترينشارد إلى ذلك) ، فسأحاول أن أحصل على عمل ما هادىء بالقرب من لندن ، وهو المكان الذي أحبذه . مثل حارس ليلي ، أو بواب ، أو أي عمل مشابه لعمل السائق ، رغم أنني سرعان ما سأصبح كبيراً جداً لأي شيء يعرض علي . فالكمال سيكون أن لا أفعل شيئاً : بأن أملك شيئاً يشابه جنيهاً في اليوم لقاء استثمارات ، والعيش من ذلك ، بقدر ما أستطيع . فالرغبات والطموحات والآمال والحسد ، هل نعلم بأنه لم يعد لدي المزيد منها في نفسي؟ فأنا أكون سعيداً عدما أجلس بهدوء ، وأغرق بفراغ تام في التفكير . وقد يبدو هذا بالنسبة لك أنانية تامة ، ولكن الزملاء الآخرين يجدونني إنساناً ، ويعملون على العيش معي بشكل حسن ، وإنني أرغب جداً بأن أكون أو أُترك وحيداً ، ذلك لأنني أميل أيضاً الى ترك الآخرين لوحدهم أيضاً» .

نُشر كتاب «ثورة في الصحراء» في إنجلترا وأميركا في أوائل شهر آذار . وقد جرى الإعلان عن الكتاب والدعاية له بشكل واسع ، كما أن الدعاية له في أميركا عادت إلى لويل ثوماس بشكل كبير . وأثنى النقاد والمراجعون الانجليز على الكتاب مما حمل دار كيب للنشر على إصدار ثلاث طبعات . وأرسلت شارلوت شو إلى لورنس قصاصات من الصحف التي أشادت بهذا العمل . ورد عليها في السابع من نيسان قائلاً : «إن الضربة الحاسمة لهذا الأسبوع كانت حزمة وجهات النظر حول كتاب ثورة في الصحراء التي أرسلتيها لي . إنها شيء لا يصدق لأنني أعلم بأنني لست أي شيء من الأشياء التي وصفوني بها» . وكان رد فعله الأول نوعاً من الاستفسار الذاتي : «أعتقد بأن وجهات النظر حول الكتاب تقلقني ، فقد كنت غير متوقع فحسب مما رموا إليه بكلمة «عبقري» ، التي ترددت عدة مرات . فمن هم حتى يحكموا علي بالعبقري؟ فلست مدركاً لأي

شيء من هذا في نفسي . إنها الموهبة ، أو تنوع المواهب ؛ ولكن ليس صفات أخرى تذهب بالموهبة ، وتخفي بريقها» . إلا أن الثناء ، الذي كان مألوفاً تقريباً ، قد قوى من ثقته الذاتية بالكتابة . وأصبح مفتوناً بوجهات النظر ونقد الكتاب ، وعلق بتفصيل واسع على بعض الانتقادات التي وردت . ورغم ذلك وأضحى كتاب «ثورة في الصحراء» الكتاب الأكثر مبيعاً في كل من بريطانيا وأميركا . وتوقع لورنس أن يسدد ديونه خلال سنتين أو ثلاث من ريع مبيعات داري نشر كيب وداربن مجتمعتين ، اذا ما جرت تغطية المال المسحوب من البنك خلال أسابيع . وأن كتاب ثورة في الصحراء سيحقق فائضاً ضخماً قبل نهاية عام ١٩٢٧ .

كما أن ردود الأفعال على كتاب أعمدة الحكمة السبعة لم تكن أقل مسرة . فقد كتب تشرشل في شهر أيار ، يقارن هذا الكتاب مع المجلد الثالث من مذكراته حول الحرب ، بعنوان «الأزمة العالمية» (الذي نشر قبل أسبوع من نشر كتاب ثورة في الصحراء ، وكان أيضاً من كتب الموسم الأكثر مبيعاً) ، وقال : «عندما قرأت كتاب أعمدة الحكمة شعرت بالحرج من التناقض ما بين مهنتي الصحفية التي تملي علي ، ومساهمتك الضخمة والدائمة في الأدب الانجليزي . ولا يمكنني أن أبلغك بالشغف الذي شدني إلى قراءته . فقد ذهبت في زيارة الى باريس لمدة ثلاثة أيام ، فلم أغادر شقتي إلاّ لتبادل الطعام ، وأنا منشغل طوال النهار ومعظم الليل في قراءة كتابك الضخم . فالتعبير الذي استخدمته كان ضخماً . وأعتقد بأن كتابك سيكون على قدم المساواة مع كتابي رحلات جليفر وروبنسون كروز» .

فكما قال لورنس من قبل ، فإن نقد كتاب ثورة في الصحراء وإستعراضه أثار موجة جديدة من التطفل العام بشأن حياته ، فبدأ يستلم رسائل عديدة من غرباء . وكان نادراً ما يرد عليها ؛ إذ إن عزلته في كراتشي كانت تقوده إلى أن يكتب المزيد من الرسائل إلى أصدقائه وأوجدت احدى مراسلاته ، بشكل ما ، أساساً جديداً خلال الأشهر الأولى لعام ١٩٢٧ . فلمدة سنتين كان يتبادل الرسائل بصورة منتظمة مع شارلوت شو بشأن بروفات كتاب أعمدة الحكمة السبعة . والان وهو يقيم في الهند ، فقد أرسلت له شارلوت رزم من الكتب ، فكان لورنس يقرأها ويعلق عليها . وهو يقول في هذا الشأن :

«إن مثل هذه الراحة تمكن المرء من الكتابة عن الكتب . وستحل هذه مشكلة مراسلاتنا المستمرة ، وبخلاف ذلك لكان الأمر صعباً» .

لم يكن لبرناردشو وزوجته شارلوت أولاد ، لذلك فقد كان لورنس صغيراً بما فيه الكفاية ليكون أبناً لشارلوت . وكان لورنس معجباً بها كما كان معجباً بجروح برناردشو ، وأصبحت تدريجياً واحداً من أكثر مراسليه الحميمين . وكان يوحى بأن لورنس هو الذي أخذ زمام المبادرة في صداقته لها ، ولكن العكس كان صحيحاً . فالمبادرة كانت من شارلوت ، إذ كانت تكتب إليه على الأغلب أكثر مما كان يفعل ، وترش عليه بهبات الكتب ، واسطوانات الحاكي وسلال الأطعمة . وقد أولت أهمية عظيمة لعلاقاتهما ، مستخدمة رموزاً خاصة في يومياتها لتشير بها إلى تواريخ إرسال رسائلها وطرودها إليه ، وتلك الردود التي كانت تتلقاها منه .

أما من جانبه (لورنس) فقد كان يوجد عنصر تحفظ دائماً فعلى سبيل المثال أبلغ م . فورستر أن «تقييمها لعملي يذهلني ، ويجعلني أخشى من أنها تعلق ذلك كعباءة على وتد شخصيتي ، ومن ثم تريد زيادة تقدير العباءة ، وذلك من أجل أن أكون قادراً على الشغف بالوتد . فويل لي لأن هذا الوتد لا يثق بكافة مشاعر البشر» . وكان يكتب لها (شارلوت) بصورة منتظمة ، ولكن غالباً ما يجد صعوبة في إيجاد شيء يثير اهتمامها مثل : «ربما إذا ما وضعت القلم جانباً قد أكون قادراً على توفير شيء مهم أبعثه لك فليس من الصحيح أنه يجب علي أن أقدم شيئاً أجوف لك . فما هو الشيء الجيد بالنسبة لشخصين يتصلان إذا لم يكن ثمة شيء يقوله الواحد للآخر؟» ورغم أن شارلوت كانت تعلم بأن لورنس كان يتلف جميع الرسائل التي ترسلها له تقريباً ، فإنها كانت تحتفظ برسائله لها بعناية .

وكان لورنس يتقبل هدايا شارلوت شو ، غير أنه كان يؤكد بأنه ليس مديناً لها بشيء . وقدم لها على مدى سنوات عدة مخطوطات ، إضافة الى نسخة من كتاب إكسفورد لأعمدة الحكمة السبعة ، الذي تركه عندها لقاء قرض غير محدد . فعلى نحو مطلق تفوق القيمة المالية لهذه الهبات كثيراً قيمة هداياها له . وكان يرى نفسه كمتبرع لأعمال الخير ، وليس كمتعلق ، وعندما تحسن وضعه المالي عمد إلى أن يرسل مالاً إلى

برايفت بالمر ، وهو صديق له حينما كان في سلاح المدرعات ، ومن ثم في سلاح المدرعات ، ومن ثم في سلاح الجو ، وكان يأمل في ترك السلاح وتأسيس نفسه في الحياة المدنية ، وإلى ماياننغ بايك ، حيث كان عمله في الطباعة على وشك الانهيار .

في شهر نيسان ، كتب لورنس إلى إدوارد إليوت ، وهو محام كان قد عينه وصياً على كتاب ثورة الصحراء ، يطلب منه القيام بالإجراءات اللازمة لتغيير كنيته قانونياً الى شو . وعندما أجاب اليوت بأن العملية كانت سهلة ويمكن أن تنجز من دون إعلان ، قرر لورنس المعنى قدماً في ذلك . ويكشف في الرسالة التي كتبها إلى إليوت في السادس عشر من حزيران ، والتي وصف فيها وضع أبويه ، يكشف شيئاً عن إحساسه بنسبه قائلاً : «يساورني بعض الشك في إسمي السابق ، ذلك أنني لم أر شهادة ميلادي مطلقاً ، فوالدي ووالدتي دعوا نفسيهما بلورنس ، منذ عام ١٨٩٢ فصاعداً في الأقل . ولا أعلم فيما إذا كانا فعلاً ذلك عندما ولدت أم لا . وبالطبع إذا ما سجلني والدي تحت اسم شابمان فهذا ملائم ، ولا حاجة لأن أدخل اسم شو إليه ، بينه وبين إسم لورنس ، وفي نهاية الأمر أعتقد أن اسم شابمان سيسود . وثمة أرض كبيرة مسجلة تحت هذا الاسم ، ولا أريد أن تذهب سدى ، حيث كان قد منحها رالف راليف ، الذي أكن له احتراماً معيناً ، لوالد جدي الأول الايرلندي . لذلك فلدي شعور بأنه يجب أن يحافظ عليها» .

شعر لورنس بازدياد بأن إتمام كتاب أعمدة الحكمة السبعة قد أغلق فترة في حياته . وعندما تحقق بأن المبالغ المسحوبة من البنك ستسدد قبل نهاية العام طلب من الأوصياء الثلاثة وقف نشر الطبعة الانجليزية من كتاب ثورة في الصحراء بأسرع ما يمكن ، على أمل أن هذا سيهدىء من الاهتمام العام به ، فيعجل من تاريخ إمكانية عودته إلى انجلترا .

لم يكن كتاب ثورة في الصحراء يباع بشكل جيد في الدول الناطقة بالانجليزية فحسب ، بل أنه تُرجم ونشر في عده لغات ، فخلال حياة لورانس أُعيدت طباعته المختصرة عدة مرات باللغات الفرنسية ، والألمانية والايطالية . وفي شهر حزيران ١٩٢٧ بيع من كتاب ثورة في الصحراء (٣٠) ألف نسخة في إنجلترا ، و (١٢٠) ألف نسخة في أميركا . ولا بد أن لورنس قد سخر مرة تلو الأخرى فلو أن هذا الكتاب المختصر قد نشر قبل خمس سنوات لكان قد عاش آنذاك في أوضاع مختلفة .

وكانت دارا نشر دوران وكيب حاذقتين في استغلال قيمة لورنس تجارياً ، فقررنا إصدار طبعة شعبية من سيرته الذاتية . ولكن عندما كتب هوغارت إلى لورنس في هذا الخصوص في منتصف شهر أيار ، كان لورنس متنبهاً إلى ذلك فقال : «يتملكني شعور غامض ومؤكد بأن لايتون ستراشي سيحاول الكتابة عن حياتي من بعدي : إلا أنني لا أتوقع أن يكون ثمة جهد مثمر في هذا المجال ، خلال حياتي ، أكثر مما قام به لويل ثوماس ويوجد العديد من الأمور في حياتي لا أريد أن تروى» . وتحولت أفكارهم الى روبرت غريفز ، الذي كان بحاجة إلى المال دائماً . وبالصدفة خطرت نفس الفكرة لأصدقائه في إنجلترا . وفي الثالث من حزيران أرسل غريفز برقية الى لورنس يقول فيها : «يريد كيب ودوران أن يصدروا نسخة مدرسية من كتاب ثورة في الصحراء ، فهل لي أن أمنع ذلك من دون حصول موافقة رسمية منك على الطبع ، بل أضع خطراً على المخطوط الذي سيقدمه كنيفنتون في هذا الخصوص» . ورد لورنس على ذلك بكلمة واحدة وهي «نعم» ، وكتب فيما بعد يقول : «ربما يكون ثمة مال جراء ذلك ، واني أرغب في أن تحصل عليه . وأسف على جميع وجهات النظر الأخرى فيجب أن يكون لدى دوران إحساس أكثر بذلك ، فأود أن أرى نصك ، إذا ما سمح الوقت بذلك ، قبل إرساله الى المطبعة : ويفضل أن يكون مطبوعاً على الآلة الكاتبة . وتوجد أمور معينة لا ينبغي أن تقال فلست أنا الذي اهتم بذلك ، وانما وجهات نظر الأخرين الغريبة . وخاصة فيما يتعلق بالعرب من الناحية السياسية ، فثمة نقطة أو اثنتين كان علي أن اقترحهما عليك للإضافة . فمن المحتمل تماماً أن لا يكون كتابك كنسخة مدرسية : فاذا ما كان كذلك فقد أحاول أن أحثك على العمل مثل مركبة في تصحيح بعض الأخطاء التي وضعها الرأي العام فيما يتعلق بتوجه آمالي» . كان من أحد الأمور الرئيسة التي تقلق لورنس بشأن إصدار سيرة ذاتية مستقلة هي مسألة خلفية أسرته ، إذ أن الحقيقة يمكن أن تكتشف بسهولة تماماً .

لم يكن غريفز صديقاً للورنس فحسب ، بل كان يعد أيضاً في عداد المدينين له بشكل رئيس . وبما أن غريفز منح وقتاً قصيراً فقط لاتمام الكتاب ، فقد أرسل له لورنس ملاحظات مفصلة عن سيرته الذاتية . وتضمنت هذه الحقيقة عن والديه ، مضيفاً ما يأتي : «بما أن الأرملة الأم مازالت على قيد الحياة ، فإن هذه القصة ليست للنشر . فعليك أن تتفادى موضوع ولادتي بشكل ما» .

كانت هذه الملاحظات عنصراً مساعداً ودقيقاً تماماً على حد سواء ، فلم يكن غريفز يأمل بمثل هذه المساعدة . ويبدو أن لورنس قد اعتقد في هذه المرحلة بأنه يمكنه الاعتماد على ممارسة التحفظ وحسن النية قائلاً : «إنه زميل محتشم لا يعرف الكثير عني . وسيفكر بتفسير معقول من الناحية النفسية لانحرافاتي الروحية : ولذلك فسيساعد ذلك على الابقاء على شبح صعب يبدو أنه مكث في انجلترا عندما أغادر إلى الخارج» . وعليه فبقليل من التوجه الحاذق يمكن لغريفز أن يخرج كتاباً مفيداً ومقبولاً . فكما كتب لورانس بصراحة في شهر آب يقول : «إن غريفز أصغر مني ، لذلك فإنه سيفعل بشكل رئيس ما أطلبه منه» .

أصبح المشروع أكبر بكثير على الفور أكثر مما توقعه غريفز . فقد أعلن ناشرو لويل ثوماس أن نسخة الأطفال من كتابه «مع لورنس في الجزيرة العربية» ، سيطلق عليها اسم «الحياة الطفولية للكولونيل لورنس» ، وسينشر في أيلول . وبما أنه كان من غير المحتمل أن يجري تسويق كتابي الاطفال عن لورنس في خريف ذلك العام ، فقد وافق كيب ودوران على أن كتاب غريفز يجب أن يحول إلى إجراء دراسة عامة مطولة عنه . فقد كان مطولاً ثلاث مرات عن الحجم الذي افترض أصلاً له ، ويعادل تماماً ثلاثة أرباع حجم كتاب أعمدة الحكمة ، بعد صياغته من جديد وبذلك ، فإنه في الوقت الذي كان يباع فيه كتاب ثورة في الصحراء ، فإن كيب كان سيستفيد من الكتاب البديل ، كما أن غريفز سيستفيد من المشروع الجديد .

بعد التأكد من نجاح كتاب ثورة في الصحراء ، أصبح لدى لورنس مشاريع كتابية أخرى في مخيلته إذ كان قد نشر في صحيفة «المشاهد» سلسلة من وجهات النظر ، وكتب إلى ف .ن . دوبلديه طالباً منه ترجمة هذا العمل قائلاً : «أود أن أجني مالاً ، وذلك لإضافة دخل إلى دخلي من سلاح الجو وهو جنيه في اليوم ، وخارجاً عن الكتابة فإن المشكلة هي أنني بعيد عن لندن بحيث أن يوجد تأخير كبير في أي شيء أفعله . ورغم ذلك فإذا ما فكرت دار نشر هينمان بترجمة ما من اللغة الفرنسية ، بوساطة مترجم لا يذكر اسمه ، فانني سأكون ممتناً للقيام بهذه الفرصة» .

ولكن لورنس قبل أن يتسلم رداً من دوبليديه قام بمشروع أدبي من جانبيه ،

فالملاحظات التي دونها في عام ١٩٢٢ عن مجندي سلاح الجو في أوكسبريد لم تمس منذ وقت طويل ، ولكن وبعد وصوله إلى الهند بوقت قصير طلب من صديق له أن يرسلها له بالبريد . لذلك فخلال شهري حزيران وتموز . وبينما كان غريفز يعمل في كتاب السيرة الذاتية للورنس في إنجلترا ، بدأ لورنس بمهمة صعبة في الهند لتحويل الملاحظات إلى عمل نثري .

استلم لورنس الثلث الأول من مسودة كتاب غريفز المطبوع على الألة الكاتبة في السادس والعشرين من تموز ، ثم أعادها بعد أربعة أيام مدوناً عليها ملاحظاته . ولكنه خيب أمله بمدى إعادة الصياغة من كتاب أعمدة الحكمة ، ووضع ملاحظة لغريفز بأن لديه بعض الاستفسارات حول حقيقة النص ، حيث أن بإمكان وولي أو لويل ثوماس أو أي شخص آخر معني بالأمر أن يرشده إلى تصحيح الانحراف . وقال له : «لقد وضعت لك بعض الهوامش ، وذلك لكي تدخل ذوق القارىء الشعبي فإنني أرغب في أن لا تكون في عجلة من الأمر ، وأن يكون لديك وقت كاف لكتابة تاريخ الثورة العربية بوقار وعلى أن أضع مساهمتي الشخصية في الكتاب من وراء الستار .

لم يكن غريفز قادراً على مقاومة الإغراء ليأخذ مواداً أخرى من كتاب أعمدة الحكمة الذي هو غير مألوف بالنسبة لقراء كتاب ثورة في الصحراء ، كما أنه قد أخذ أيضاً من نص كنيفنتون المطول ، الذي كان موجوداً في جامعة إكسفورد . ومما أفزع لورنس أيضاً أن الدفعة الثانية من المسودة التي أرسلها غريفز أحتوت على المزيد من هذا الأمر غير المستحسن به فكتب لورنس إلى غريفز في الثالث من آب يقول : «أخشى أن لا أكون قد أزعجتك باقتراحي أن لا يعتمد كثيراً على نص كتاب أعمدة الحكمة . ولكن يبدو لي من المنطقي فقط بأن كتاب ثورة في الصحراء قد أحتوى على كافة ما أراد أن يعرفه الناس لذلك . فخذ باعتبارك الاعتماد على كتاب ثورة في الصحراء إلى أقصى حد ، وأن تكمل المعلومات الأخرى فقط من كتاب أعمدة الحكمة السبعة . راجياً بأن لا يكون ثمة انتقاد لهذه الطبعة» . وفي اليوم التالي كتب لورنس حول هذا النص إلى شارلوت شو يقول : «لقد كرهت قراءته . وأدخلت عليه بعض التصحيحات ، وشطبت بعض الفقرات ، وأضفت فقرات أخرى . فلقد تجنب نصيحة جورج برناردشو ، لذلك أنه أعاد رواية قصتي فحسب بأسلوبه الخاص» .

ولكن بعد قراءة الدفعة الأخيرة من مسودة الكتاب بعث لورنس إلى غريفز يخفي فيها خيبة أمله من هذا العمل بقوله : «لقد أخرجتني بشكل جيد بالطبع ، إلاّ أنني لم أهتم في الحقيقة بوضع غطائي على ذلك . فالأمر الذي كان مهماً حقيقة بالنسبة لك هو أن تثبت نفسك بشكل جيد حقيقة ، ولا أشعر بأن ذلك يخص مستوى أعمالك النثرية الأخرى . ولا يمكن أن يكون ذلك بوساطة ظروف مندفعة : وإنك من دون شك لن تجمعها معاً في أسلوب منقح» . وكانت رسالته إلى شارلوت شو في اليوم التالي أكثر صراحة حيث يقول : «إن كل صفحة من صفحات كتاب روبرت غريفز كانت غير دقيقة . فقد قمت بتصحيحها إلى أن أصابني الغثيان ؛ وتركت الكثير من الأخطاء البسيطة فنحو ثمانين بالمئة من الكتاب يمكنني أن أدعوه مجرد اسلوب تقليدي ، أو خلاصة للوقائع الأساسية في كتاب ثورة في الصحراء . ولا أعتقد أنه كان صحيحاً تماماً بأن ينافس عملاً آخر» .

وبالرغم من تحفظاته ، فإن موقف لورنس تجاه السيرة الذاتية كان فلسفياً فحسب . إذ إنه سيطيل الدعاية البريطانية التي أمل أن تهدأ من جراء سحب كتاب ثورة في الصحراء ، ولكن كان لا يمكن تجنب إصدار مثل ذلك الكتاب . وكان يمكنه أن يغري نفسه بفكرة أنه من «الممكن أنه كان من الأسوأ أن يحدث ذلك خمسة آلاف مرة بوساطة ما حساس فحسب» . وكما كان الأمر ، فحتى غرائز غريفز التجارية قد أثبتت بأنها مادة خام على غير توقع ؛ فعلى سبيل المثال احتوت مسودة كتابه الأول على حادثة درعا التي تعرض لها لورنس . فعندما صدر كتاب لورنس والعرب في نهاية الأمر ، في شهر كانون الأول ١٩٢٧ ، أبلغ لورنس غريفز أنه «كان الكتاب الوحيد عني الذي سالتمس المساعدة عليه» . بل أنه بعد بضع سنوات قدم مساعدة كلية لدراسة أكثر جدية للمؤرخ العسكري ليدل هارت في هذا الشأن .

ورغم ذلك يبدو أن لورنس قد جنى بعض المنفعة من مشروع غريفز فمهمة استعراض حياته ، وخاصة مع العرب ، تبدو أنها قد ساعدته على التغلب على المسائل الأخلاقية التي أزعجته منذ مدة طويلة لذلك فلم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى عبر عن ندمه ومرارته من الدور الذي قام به في أثناء الحرب ، والذي غالباً ما عبر عنه في رسائله بعد الحرب مباشرة .

بالنسبة لعمله في مكتب قسم تصليح المحركات سرعان ما أثبت لورنس جدارة فيه ، فمنح ترقية صغيرة نتيجة لحسن أدائه . كما لاحظت المحطة القريبة من المركز (المستودع الذي كان يعمل به لورنس) أن المذكرات التي تتلقاها يغلب عليها الطابع الأدبي المميز ، والتي تأتي من قسم الهندسة ، لذلك فقد كلف لورنس بعمل إضافي نتيجة لذلك ، من أجل المساعدة في الأعمال الكتابية في مكتب الطلبات وعندما أخذ في العمل على ملاحظات أوكسبريد ، شعر لورنس بأنها لا يمكن أن تنشر لوحدها ، فقد قدمت صورة كئيبة جداً للحياة في صفوف سلاح الجو ، ولتخمين ذلك فقد أصبح يخطط لجزء نهائي يصف فيه خبراته كرجل طيران كفوء في قاعدة كرانويل . وكان قد كتب بضع صفحات من الملاحظات حينما كان في كرانويل ، أرسل بعضها إلى شارلوت شو معلقاً عليها بقوله : «إنها مازالت صفراء صغيرة ، تتناول الاستعراض المتنوع ، والحرس ، والاحتفال بقائد الجناح جاكو . ويوجد بضع مئات من الكلمات فقط ، هذا كل ما في الأمر ، كما أعتقد» . وطلب منها أن تنسخ هذه المعلومات له بحيث يمكن أن تشكل موضوعاً . وثمة فصل آخر مرتكز على مقالة كان كتبها في كرانويل حول سباقه لطائرة وهو على دراجته بروف . وكان قبل أشهر قد أرسل المقالة إلى مجلة الدراجات ، إلاّ أنها رفضت رغم ذلك .

كان في ذلك الوقت قد استقر به الأمر في كراتشي بصورة مريحة . فقد وجد فيها مكاناً جيداً لقضاء الوقت ، حيث كان الطعام جيداً ، ولا توجد محاولة لتوجيه سلوكنا في المعسكر . وقد وجدت ملجأ للعمل كان يجنبني من القيام بالاستعراضات ، وخاصة في الصباح ، ومن الاحتفالات العسكرية أيضاً» . حتى أنه اخترع نظاماً لتسخين الماء باستخدامه خمسة عشر صالوناً وحمام كهربائي ، وذلك لكي يتمكن من أخذ حمام ساخن في كل يوم .

كان أصدقاؤه يرسلون له الكتب بانتظام إلى الهند ، وكان هو يعيرها مجاناً للرجال الاخرين . وكتب في ذلك الخريف إلى شارلوت شو يقول : «إنه يمكنني أن أحتفظ بأشياء خاصة ، فأغلق عليها بالمفتاح في صندوقي حيث يوجد رف في الحائط خلف سريري لذلك فإنها تبدو كملاحظات غير مرئية في الحائط ، تقول «خذ واحداً منها إذا سمحت» . فحياتنا هنا مشتركة ، كما تعلمين مشتركة في كل شيء . فجميع الرجال

المتعطشين لقراءة الكتب (متعطشين لأكثر مما تقدمه لهم المكتبة من كتب أدبية) ، ينسلون بهدوء ليستعيروا مني كتباً ومن ثم يعيدونها . وحتى أننا نقوم بقراءة الكتب وأيدينا ملطخة بالأوساخ ، بحيث أن بعض الكتب تقرأ حتى تتلف . وأعتقد بأن كان لدي مائة وخمسين كتاباً هنا ، ثلثاها منك تقريباً . وربما منها الآن خمسون كتاباً مقترضاً ؛ ويمكنني أن أحصي ما تبقى منها على قيد الحياة الآن ، نحو ثمانية وثمانين كتاباً ، بما فيه العديد من كتبي المفضلة . ولا يمكنني إعارة مؤلفات سبنسر ومالوري وموريس في كثير من الأحيان . هذا ورغم أن خبير المراجل البحرية القادم من جلاسكو ، الذي قرأ منذ مجيئه كتاب الهندسة العلمية فقط ، فقد انضم إلى البقية في قراءة كتاب «بئر في نهاية العالم» . فأتمه من ستة أسابيع تقريباً حيث قرأ كل كليمتر فيه . فجعله ذلك يشعر بالسعادة . لأنه ذكّره بجلاسكو ، كما قال ، ولم يؤثر خط الكتاب في أحد كما أثر فيه كما تمتع لورنس بإعارة الكتب لرجال سلاح الجو ، حيث يقول في هذا الشأن «إنهم يقرأون ، بنهم ونشاط ، أي شيء يقع في أيديهم ،ولا يوجد مرشد لاختيار الكتب لهم ؛ فهناك الكثير منها . وكل واحد يقرأ أي كتاب عندما يكون تعباً وحيداً في المعسكر . إلا أن كتبي منتقاه وتختلف عن مكتبة القيادة التي تحتوي أكثر من ألف كتاب أدبي ويعود الفضل لي في ارشادهم إلى الكتب المفيدة والصالحة لهم» .

كان ثمة كثير من الناس قد اعتقدوا بأن مواهب لورانس تذهب هباءً بين صفوف الجيش ، خاصة بعد إتمام كتابة أعمدة الحكمة السبعة ونجاح كتابه ثورة في الصحراء . فلأول مرة منذ عام ١٩٢٣ ، كان في وضع يكسبه الكثير من المال إذا ما اختار ذلك . وقد تلقى خلال عام ١٩٢٧ عدة عروض للقيام بأعمال مدفوعة الأجر . ففي شهر تشرين الثاني ، على سبيل المثال ، تلقى عرضاً بمبلغ مائة ألف دولار من أجل إلقاء محاضرات في الولايات المتحدة لمدة سبعة أسابيع ، وبعد شهر من ذلك قدم له شخص أميركي مبلغ خمسة آلاف دولار (وهو مبلغ كافٍ لأن يتقاعد من الجيش) لقاء نسخة واحدة من النسخ الباقية في مكتبة جامعة إكسفورد لكتابه أعمدة الحكمة السبعة . غير أن طموحه الظاهر كان ، بعد أن ينهي سنواته في سلاح الجو ، هو القيام بعمل حارس ليلي في لندن . فقد كان يذكر أصدقائه من وقت لآخر بهذا قائلاً : « لا تنسوا أنني سأعتمد على شخص ما ليوصي بي للعمل كحارس ليلي في أحد المكاتب أو الأبنية في عام ١٩٣٥ : وهو الوقت

الذي سأنهي فيه عملي المأسوف عليه في سلاح الجو ، في شهر آذار ١٩٣٥» .

في التاسع من تشرين الثاني تلقى برقية من بوكستون يخبره بأن د .ج . هوغارت قد توفي ، فتملكه حزن عميق وقال : «لقد كان يشكل خلفية حياتي قبل التحاقي إلى الجيش وسلاح الجو . فهوغارت تكفلني منذ البداية عندما أرسلني إلى سوريا ، ومن ثم وضعني بين أبناء بعثة التنقيب عن الآثار في كركميش ، الذي كان مكاناً ذهبياً بالنسبة لي . ومن ثم نقلني إلى سيناء ، التي كانت سبباً في انتقالي الى وزارة الحربية ؛ التي أرسلتني بدورها الى القاهرة لأخدم بين أركان حرب القوات البريطانية فيها . وهناك عملنا معاً في مكتب الشؤون العربية ، حتى انتهاء الحرب . ومنذ ذلك الحين كلما وقعت في وضع خطر كنت أرجع إليه لأستشيره وآخذ بنصيحته ، فقد كان حكيماً جداً بالنسبة للأخرين ، ومتفهماً جداً ، ومريحاً ، إذ إنه كان يعرف جميع عيوب العالم وشوائبه وخدعه ومراوغاته وذرائعه ، وكان ضدها وفي مواجهتها بلطف جميعها . واذا ما تسنى لي القول ، فانه لم يكن يعرف الشر ؛ لأن كل شيء بالنسبة له كان ملائماً لأن ينظر فيه ، أو لأن يتصل معه . ورغم ذلك فقد كان له موقفه الخاص ومبادؤه ، التي لا يتزحزح عنها . وإلى أن انضممت إلى الجيش كان يعمل كل شيء من أجلي . وكان ذلك أول شيء قمت به من جانبي تماماً . وبعد ذلك كان اتصالي معه قليلاً : إلاّ أنني شعرت دائماً بأنه إذا ما عدت للعيش في الحياة المدنية ثانية فإنني سأكون قادراً على الاتصال به ثانية» .

لم يحرز لورنس سوى تقدماً بسيطاً بالنسبة لملاحظات أوكسبريد ، خلال شهري تشرين الثاني وكانون الأول ، بعد موت هوغارت ، ورغم ذلك يبدو أنه قد قرر أن يصنع لها عنواناً خلال تلك الفترة ، حيث أشار إليها بعنوان «المصنع» في رسالة بعث بها إلى إدوارد جارنت في الثلاثين من تشرين الثاني . وقد عني بهذا العنوان الطريقة التي ينقل بها المجندون الخام (الجدد) في أوكسبريد إلى سلاح جو . وأبلغ لورانس ترينشارد فيما بعد أنه أطلق اسم «المصنع» على الملاحظات «لأننا كنا جميعاً نختم بعد تصويرنا وأخذ عناويننا» . من ناحية ثانية ، قُدم عمل أدبي من دون علم لورنس . واستمدت أصول هذا العمل من بروفات كتاب أعمدة الحكمة السبعة ، التي كانت أُرسلت إلى دوران في نيويورك قبل ثمانية عشر شهراً من أجل استخدامها كنص لطباعة النسخة الأميركية .

وعندما انتهت الطباعة الأميركية أرسل دوران البروفات الانجليزية الى صديق له أرسلها بدور إلى بروس روجرز . كان روجرز واحداً من منضدي الحروف (الطباعين) البارزين في العالم . وكان مشهوراً في إنجلترا كما هو في أميركا ، حيث عمل لفترة من الوقت كمستشار طباعة لدي مطبعة جامعة كامبردج . إلاّ أنه في عام ١٩٢٧ أصبح يعمل مستقلاً ، كما أنه كان يكلف من قبل دار نشر راندوم بعمل تصاميم ، والقيام بطباعة أنيقة لأي كتاب مهم يختاره . وقرر بعد تفكير طباعة الأودية لهومر .

وفي البدء كما شرح ذلك لورنس ، كان يفكر باستخدام إحدى الترجمات الموجودة للنص ، ومن ثم ، كما يقول ، «فقد خطرت لي فجأة أنه إذا ما جرت معالجته النص الإنجليزي لأعمدة الحكمة السبعة ، الذي استحوذ على اهتمامي ، فإنه يمكن أن يطبق ذلك على الأوديسة ، بحيث يمكننا الحصول على نسخة تكون مختلفة تماماً عن الترجمات الأخرى الموجودة» .

لم يكن روجرز على معرفة شخصية بلورنس ، إذ إنه لم يقابله أبداً ، بيد أنه كان يعرفه عن طريق أحد معارفه ، وهو رالف إيشام الذي كتب إلى لورنس : «ستكون مسروراً لأن تعلم أنهم لا يريدون استغلال اسمك وإنما ترجمتك فحسب . فهم يرغبون في إما أن تختار الاسم الذي تستخدمه حالياً ، كمترجم ، أو أن لا تقدم أي اسم بتاتاً ، حسبما ترغب في ذلك . ولا أعلم عن مقدرتك في اللغة اليونانية ، إلا أنني أعتقد بأن هذا المشروع يمكن أن يكون ملائماً لخطتك الحالية للأمور ، وأن المكافأة الشرفية التي تبلغ قيمتها ثمانمائة جنيه لن تنمو مع كل شجرة موجودة في الهند» .

كان هذا العرض مغرياً إلى حد كبير للورنس : فقد كان مطلعاً على رواية الأوديسة جيداً ، ولديه النص اليوناني لها كما أن كتابه «المصنع» كان على وشك الانتهاء ، وكان يفكر لبعض الوقت أن يخوض مشروع ترجمة جديدة . فالأوديسة لن تكون رواية سريعة الزوال أو النسيان مثل روايتي «الغابة العملاقة» «وستورلي» : كونها واحدة من أعظم الاعمال الأدبية في العالم ، وأن هذه المهمة ستكون جديرة بكل جهد يمكن أن يبذله . لذلك فقد رد على ايشام في الثاني من شهر كانون الثاني قائلاً : «عندما تلقيت رسالتك انزلت كتاب الأوديسة من على رف الكتب (فهو يذهب معي ، دائماً ، الى كل معسكر

أذهب إليه ، لأنني أحبه) وأحاول أن أرى نفسي عالقاً على ترجمته مجاناً إلى اللغة الإنجليزية . وأقول بصدق ، فإنه سيكون من الصعب جداً القيام بذلك . ولدي فكرة عن الإيقاع والوزن الشعري الأغريقي ، إلا أنه لا يمكن ترجمته مباشرة إلى اللغة الإنجليزية . كما أنني لست باحثاً أو دارساً له ، وإنما أقرأه لمجرد المتعة ، بيد أن ثمة قاموساً في متناول يدي . وأنني أنكر بالترجمات الأخرى التي صدرت لهذا الكتاب ، وأقر بأنها لم تكن من الطراز الأول ، فترجمات بوتشر ولانج تُعَّد قديمة جداً وترجمة صموئيل تبلر قليلة التعبير جداً رغم أنها تُعَّد أفضل من غيرها . إما ترجمة موريس فتعد أدبية جداً . فهذه كلها تظهر العمل كما هو فحسب . فلما لايكون عملي (ترجمتي) أفضل من جهود هؤلاء الرجال؟» .

كان لورنس مسروراً لفرصة العمل هذه مع بروس روجرز ، الذي سيجعل الكتاب مشهوراً بنشره له ، وحتى لو كان متواضعاً . فهو معجب به منذ سنوات ، وحتى أنه كان يشتري إنتاجه من الكتب من فترة لأخرى . وخلص لورنس في رسالته إلى رالف ايشام إلى القول : «دعني أضع شروطاً قاسية ، على أمل أن يوفض هذا الشرف لي والذي أشعر أنه عظيم جداً بالنسبة لي على أن أقوم به بنجاح . فلا يمكنني رفض مثل هذا ذي المنفعة الكبيرة جداً لي .

أولاً ، إنني أحتاج إلى سنتين من أجل إنهاء الترجمة ، بعد أن أبدأ العمل بها .

ثانياً ، لا أشعر بأنه لا توجد لدي القدرة على القيام بالعمل كما يحب هومر أن يكون ذلك ، وسأشعر بالحزن إذا ما تحول إلى عمل غير متقن .

ثالثاً ، لا يمكنني أن أضع اسماً من أسمائي المستعارة السابقة عليه . إذ ينبغي أن لا يكون موضوعاً على الكتاب اسم مترجم .

رابعاً ، سأقوم بترجمة الكتاب الأول من النص خلال ستة أشهر من أتمام العقد مع الناشرين ؛ وإذا لم تكن الترجمة مرضية لهم ، فإنني سأوافق عندئذ على المعنى بالعقد ، عند دفع المكافأة لي ومقدارها ثمانمائة جنيه فقط ، وهذا ما يشترط عليه العقد ككل .

ونصيحتي المشددة لك هي أن تبحث عن شخص أفضل ، ليقوم لك بأداء حسن» .

في نهاية شهر كانون الثاني كان لورنس على وشك إنهاء ثلثي كتاب «المصنع» .

وكما حدث له مع كتاب أعمدة الحكمة ، فقد واجه صعوبة في إعادة الروح لمسودته الأصلية التي اعتمد عليها في تأليف الكتاب . وهو يقول في هذا الشأن : «إنها فصول مؤلمة ، استغرب كيف ذهبت لكتابتها ، فهي عاطفية جداً بالنسبة لتفكيري الحالي» . وبعد أسبوعين تمت طباعة نصف الكتاب على الآلة الكاتبة ، كما أنه تمت مسودة الفصول المتبقية من الكتاب . وأمل لورنس بأن يتم الكتاب في نهاية شهر آذار ، فقد أظهرت رسائله أنه كان مشغول الفكر بإزدياد حينذاك بترجمة كتاب الأوديسة . فعلى سبيل المثال كتب في الخامس والعشرين من شباط يقول : «إن ترجمة هومر لعب بالكلمات ، والتي كما تعلم تجذبني إليها : لألعب بها كما يلعب الأطفال بالقرميد . في غضون ذلك يتأرجح عليها كتاب المصنع القديم . واعتقد أن لدي اهتمام تاريخي ، حيث تعود الوثيقة إلى تجنيدي في سلاح الجو عام ١٩٢٢ . فسلاح الجو يقدم الوثائق لكل واحد من الرجال الذين خدموا فيه ، وأنا قد عملت وثيقة (كتاباً) من أجلهم . وقد لا يقولون شكراً لك! فحتى ذلك ما زال عدلاً ، حيث لا نريد أن يشكروننا على ذلك : فهم غالباً ما يسجلون الأخطاء الصغيرة ويعتبرونها «جرائم» . رغم أنني آمل بأن يكون شعوري تجاه سلاح الجو عاكساً أمثلة مناقضة للجمهور معبراً فيها عن حبي له» .

لقد أنهى الملاحظات في مساء الرابع عشر من آذار ، فكتب إلى شارلوت شو بعد يومين من انتهائها يقول : «لقد قمت باستعراض الكتاب حتى ساعة متأخرة ليلة أمس ، محاولاً تقييمه : فوجدته نثراً جيداً . إلا أنه ممل ورتيب . فهكذا هي الحياة في سلاح الجو . مرتابة في الحياة تعتبر أمراً جيداً ، بيد أنها في الكتب تبدو سيئة . على أية حال لقد جعلت العمل صالحاً للطباعة بشكل ناجح . فجميع الأشخاص هم حقيقيون ، رغم أن الأسماء ليست كذلك ، أو ثمة فقط بضعة أسماء حقيقية» .

عزم لورنس على عرض مخطوط المصنع على إدوارد جارنت ، الذي شجعه على هذا المشروع منذ البداية . فكتب يقول له : «أتساءل ماذا سيفعل جارنت بهذا الكتاب . إنها هدية مربكة بالتأكيد؟ فعندما طلب مني القيام بذلك ، في عام ١٩٢٢ ، لم أكن مستعداً لذلك ، وهو لم أيضاً يعتقد بأنه سيكون عملاً كبيراً على هذا النحو . لذلك فإنه سيصطدم» .

عندما وصل كتاب «المصنع» إلى انجلترا وافق ترنيشارد على قراءته، رغم أنه كانت لديه تحفظات على محتواه، بسبب الضلالات الذي احتواها. فقد علق ترينشارد على ذلك بقوله: «أشعر بأن ما كتبته هو قابل للفهم بالنسبة لي ولك، فنحن كلانا نفهم الموقف برمته فقط، ولكن ماذا يمكن أن يكون الوضع بالنسبة للصحافة، وكيف ستأخذ الأمر؟ فسيقولون كم كان يائساً سلاح الجو هذا وكيف كان يدار بشكل سيىء - وكم كان ضباطه بائسين، إلخ. فأعلم بأنك لم تقصد هذا أبداً، رغم أنني لم أقرأ بعد ما كتبته. وأنا متأكد بأنك ستعتقد بأن مثل هذه المادة كان يمكن نشرها في الصحافة، لو لم تجعلها في كتاب.

إن سلاح الجو مازال فتياً، لذلك لا يمكنه تلقي السخرية من أي شخص كان بصورة مستمرة، ولدي ما يكفيني من الأحداث التي وقعت فيه. إلا أنني لا أشعر بأي أنزعاج تجاهك. فقد كنت أشعر دائماً بأنك ستقوم بذلك، رغم أنني قد أملت بأن لا تقوم به. على أية حال أنا ذاهب لأرى جارنت عندما يتسنى لي ذلك، وآمل بأنه لن ينشر الكتاب أو يسمح له بأن يُنشر».

إلا أن لورنس طلب من جارنت أن يقدم الكتاب إلى كيب من أجل نشره قائلاً له: «هل لك أن تتدبر هذا الأمر معه، كونك أحد قراء هذا الكتاب؟ فلا أجد قراءه غيرك (وديفيد جارنت): وأريده أن يرفضه حتى يخلصني من الفقرة الموجودة في عقده للكتاب ثورة في الصحراء، الذي يفيدني بأن أعمل له كتاباً اخر. فأنا أكره أن أكون مقيداً وحتى لو كان الأمر بالتزام خيالي». ومن أجل التأكد من أن يرفض كيب الكتاب، فقد طلب لورنس مبلغ مليون جنيه مقدماً.

في ١٢ نيسان كتب برناردشو عن كتاب «المصنع»، محاولاً إخفاء عدم استساغته للكتاب، قائلاً: «بما أنه لم يكن من الممكن نشره كعمل أدى، فالشيء الوحيد الذي يؤخذ بالاعتبار هو كيف وأين يمكن تصفيفه وحفظه من التلف. ويكون هذا قد أنجز، فكل شيء سينجز، بعد ذلك، ومن الممكن أن تفكر به قبل انجازه، فلربما ستطرحه جانباً ولا تفكر به، وتبحث عن شيء آخر. ومازلت، رغم ذلك، تتأرجح ما بين مفهومك للأمر على أنه تقرير حرفي من أجل حفظه بالأرشيف وبين كونه عملاً فنياً، فاعتقد أنه

كان من الأفضل طرح الاحتمال الأخير ما لم تكن مستعداً لإعادة كتابة الكثير منه بأسلوب طريف بما فيه الكفاية لجعله محتملاً محتشماً تماماً ليمكن تقديمه كعمل» . واقترح شو طرقاً مختلفة لحفظ النص كسجل تاريخي ، بيد أن رسالته قد أظهرت بوضوح أن وصف لورنس للحياة الباهتة بين صفوف مرتبات سلاح الجو قد خالف فرط الاحتشام في شخصيته .

ولم يكن لدى جارنت مثل هذه التحفظات . فعندما قرأ مخطوط الكتاب الأول مرة أرسل برقية إلى لورنس ، يصف فيه الكتاب بأنه «تقليدي» في مضمونه . وأتبعها برسالة مشجعة تقول : «حسناً ، أنت المعني بذلك وانجازه في هذا الوقت . أو أن تتجاوز مظاهر الوهن والضعف لكونك لست كاتباً ، الخ ، الخ ، حتى آخر كسرة فيه . فهو يعد قطعة عظيمة كاملة من الكتابة . ولقد وصفته بالعمل التقليدي او «الكلاسيكي» . وهو مرن ، قوي ، مصقول ، ومحكم ، ويعبر عن روحه ومضمونه بأسلوب واضح ، ومتلازم ومتناغم تماماً في النص بأكمله . كما أنه أصيل تماماً في مضمونه ، إذ يقدم لنا موضوعاً أساسياً وحياً في موضوعه ، ويفتن المرء كثيراً ، وخاصة في وصفه للرجال ، حيث صور ذلك بأسلوب شيق ، ومشاهد مختصرة ، تشملها الدقة . ومن ثم فإن جو الرواية يذهب بعيداً صوب الشمال الشرقي حيث يوسم الرجال (يختمون) في مجال عملهم . فلا يوجد مثل هذا الشيء في اللغة الانجليزية في الأقل . وربما يكون موجوداً في اللغة الفرنسية لذلك فالكتاب يحتوي على توازن روحي كامل . فلا أحد يشعر بأنه ملاحظات تماماً . والرونق الذي أضفته له قد أطاح تماماً بأي تشويش واضطراب فيه . فالحوادث فيه متسلسلة واحدة تلو الأخرى تماماً» . وخوفاً من أن يقوم ترنيشارد بإتلاف مخطوط الكتاب بعد قراءته ، فقد عمل جارنت على الاحتفاظ بنسخ مطبوعة على الآلة الكاتبة منه .

في التاسع عشر من نيسان ، أو قبل ذلك بقليل ، قرر لورنس على نحو مفاجىء أن يقدم طلباً للانتقال إلى معسكر آخر . فكتب إلى السير جيفري سالموند ، قائد القوات الجوية البريطانية في الهند ، طالباً منه الانتقال إلى مقاطعة أخرى ، ربما إلى بيشاور الواقعة على الحدود الشمالية الغربية للهند . وبعد أسبوع من ذلك فسر طلبه في رسالة خاصة بعث بها إلى ترنيشارد يقول فيها : «لا شيء يمضي خطأ بعد ؛ ولكن بما أنك بعيد

عني ، فلست معنياً بالقيام بأي شيء سأبلغك به . فقد جرت مناقشة بين ضابط وشخص مدني في نادٍ بعد طعام الغذاء ، فظلت تلازمني بشكل غير معقول . ولم يتحدث الضابط معي مطلقاً . كما أن ضباط القسم الذي أعمل فيه - وعددهم ستة - كانوا محتشمين معي . وأعتقد بأنني أستحق ذلك ؛ لأنني أعمل بكد ، وبذكاء أيضاً . ورغم ذلك فإن هذه الحادثة قد أثرت فيّ . فقد كان ذلك بعد الغذاء . والجميع كان قد تناول الغذاء . وليس لدي وسائلي ، أو رغبة في أن أدقق في القصة . ولكنني قد سئمت من الجار ، ومن خوض المخاطر ، وان تاريخي يجعل خدمتي سريعة الزوال . فالناس يشكون بسهولة برجل كان ضابطاً غير تقليدي وهو لا يفضل الان أن يكون ضابطاً . لذلك فأنني سأهرب لانتقل إلى سرب طيران يشكل رجاله فريقاً صغيراً ، وضباطه يمتزجون مع العاملين فيه ، كما أنهم ليس من المحتمل أن يسيئوا الحكم على زميل لهم . وقد أبلغت سالموند بأن لدي أسباباً خاصة لذلك ، فلا تظنني جباناً . فهو حذر ولديه حيطة مسبقة ليس إلا في أسوأ الأحوال» .

ولكن في الحقيقة ، كان للورنس سببه الكافي لأن يأخذ الحذر مما قد سمعه ، رغم أنه لم يكن متأكداً مما إذا كان عليه أن يأخذ ذلك على محمل الجد . فالشخص المعني بذلك ، والذي لم يذكر هويته ولم يكشفه سواء لسالموند أو لترنيشارد ، كان على ما يبدو هو قائد تلك المحطة .

في السادس والعشرين من آيار نقل لورنس من كراتشي إلى بيشاور . وبعد يومين من ذلك أُرسل إلى ميرانشاه ، وهو موقع يقع في وزيرستان بالقرب من الحدود مع أفغانستان ، وعلى بعد سبعين ميلاً الى الجنوب - غرب . كانت الوحدة التابعة لسلاح الجو الذي التحق إليها تُعَدّ أصغر وحدة عسكرية في الهند ، حيث يقول في هذا الصدد : «كنا ستة وعشرين شخصاً فقط ، جميعنا من الأفراد مع خمسة ضباط ، وكان يوجد منها سبعمائة من الكشافة الهنود (من الجنود شبه النظاميين) ، في حصن مبنٍ من القرميد وتحيط به الأسلاك الشائكة والمدعمة بالكشافات (الأضواء الكاشفة) والمدافع الرشاشة . وكانت يحيط بنا ، وعلى بعد بضعة أميال ، تلال منخفضة ذات صخور بورسلانية ملونة ، لها حواف حادة تبدو في الأفق وكأنها زجاجات مكسرة . وكانت أفغانستان على بعد عشرة

أميال عنا . كان المكان هادئاً وبشكل غريب وكأنه ينذر بالسوء . ويمكنني القول تقريباً : إنه بالنسبة للكشافة الهنود ولنا نحن الذين نعيش في مرافق مختلفة في الحصن ، لم نجتمع معاً أبداً ، ولذلك فإنه لم تكن ثمة أصوات أو جلبة للرجال ؛ ولا أصوات طيور أو حيوانات - ما عدا صوت ابن آوى الذي يصدر لمدة خمس دقائق في نحو الساعة العاشرة من كل ليلة ، عندما تبدأ الأضواء الكاشفة بالعمل . فيأخذ الحراس الهنود بتسليطها على السهل ، املين بأن تصل أشعتها إلى أعين الحيوانات . وبذلك كنا نراها أحياناً .

ولم يكن يسمح لنا أن نجتاز إلى ما وراء الأسلاك الشائكة في النهار ، أو أن نخرج إلى خارج أسوار الحصن في الليل . لذلك فإن الإغراءات الوحيدة في ميرانشاه كانت الضجر والوحدة . لقد تمنيت الهروب من الموقع الأول ، والتمتع في الموقع الثاني ؛ ولقد عملت بشكل شاق في كراتشي ، وكدت أموت من التعب .

أما هنا فإنهم يستخدمونني في المكتب بشكل رئيس . فأنا جندي سلاح الجو الوحيد الذي يمكنه الضرب على الآلة الكاتبة ، لذلك فإنني أقوم بطباعة الأوامر الروتينية اليومية الرسائل ، وأقوم بعمل ساعي البريد ، ومحاسب لدفع الرواتب ، وغاسل زجاجات في الأوقات العادية . وقد مضى على وجودي هنا مدة شهرين ، فحصلت على الراحة : ولكنني سأحاول أن أخرج من هنا . فهو موقع أشبه بالحلم ، كما لو أن المرء قد وقع خلف العالم ونسي متاعبه ومشاكله . فهدوءه يؤرقني كثيراً ، حتى أنني أفرك أُذني ، وأتساءل عما إذا أصبحت أطرش» .

إن تقليص عبء العمل على لورانس في سلاح الجو كان مرحباً به جداً . فعندما غادر كراتشي تطلب الأمر أن يحل اثنان مكانه في العمل . أما الآن فقد أصبح طباعاً كفوءاً ، وأن سمعته في القيام بالمراسلات الروتينية وأعمال الإدارة دلت على أنه قد وضع في المكان المناسب حالماً وصل إلى ميرانشاه .

أستغل لورانس وقت فراغه للبدء في ترجمة نماذج من الأوديسة لصالح بروس روجرز . وكان النموذج الذي اختاره من الكتاب الأول (إذ إنه يتألف من أربعة وعشرين كتاباً أو جزءاً) ، أصل أن ينتهي من ترجمته ، في نهاية شهر تموز . وسيأخذ منه العمل

كتابة خمس مسودات ليصل إلى مستوى مقنع للنص . كما أنه خطط للقيام بمراجعة نهائية عندما ينتهي كل جزء من الكتاب . وكان في ميرانشاه يشكل مناخاً ملائماً لمثل هذا النوع من العمل . وقد ساعدته شارلوت شو بارسالها له مجموعة ترجمات مختارة للأوديسة .

كان تقدمه في ترجمة العينة يجري بشكل أسرع مما توقعه ، فقد أنهى الكتاب (الجزء) الأول وأرسله إلى رالف ايشام في الثلاثين من حزيران . مؤكداً له بأنه لن يكون عدوانياً إذا ما رفض نموذج الترجمة ، رغم أنه كان عملاً صعباً . وقال له : «إن مقدار الأجر الأول يمكنه فقط أن يرضيني بمتابعة ترجمة الأربع وعشرين الأخرى بمثل هذا : وإنني سأكون ممتناً إذا ما أعلنوا بأنه عمل غير جيد تماماً . فهومر يُعَد رائداً عظيماً لذلك فإن ترجمة كتابه تتطلب جهداً عظيماً» . إلاّ أن الخدمات البريدية البطيئة ما بين الهند والولايات المتحدة عنت بأنه سيمر شهران في الأقل قبل أن تصل أية أخبار في ما يتعلق بقرار الناشرين .

لقد وجد في ميرانشاه اطمئناناً جديداً ، وبالنسبة للوقت الراهن ، فلم تبدو أن ثمة حياة أكثر جذباً من هذه الحياة . فقرر لذلك أن يطيل مكوثه في سلاح الجو لأطول مدة ممكنة . وأن السنوات السبع لخدمته قد حُسبت من التاريخ الذي انضم فيه إلى سلاح المدرعات ، في الثاني عشر من اذار ١٩٢٣ ، بدلاً من انضمامه إلى سلاح الجو في عام ١٩٢٥ . لذلك فقد أمكنه توقع أن تتقاعد من سلاح الجو في ١٢ آذار ١٩٣٠ . ورغم ذلك فمن الممكن أن يطيل خدمته إلى نحو خمس سنوات ، وعزم على فعل ذلك .

في الأسبوع الأول من شهر أيلول وصله رد بشأن عينة ترجمة جزء من الأوديسة ، إذ كتب له ايشام يقول : «إنني متحمس جداً وكذلك الناشرون لترجمتك للنص ، كما أخشى أن تكون ثمة فرصة ضئيلة لأبعادك عن هذا العمل من خلال أي أمل لك بأن يكون الجواب «لا» . ورغم أن ترتيبات النشر لم تسو بعد ، فإن ايشام طلب من لورنس أن يمضي قدماً في ترجمة الكتاب ، مقدماً ضمانته الشخصية من أن بنود العقد ستكون مرضية له . وكان المشروع يقوم على أن روجرز يطبع عدداً محدوداً من نسخة أنيقة ، يتبعها إصدار نسخة تجارية عامة يتلقى لورنس بموجبها دفعات إضافية مقدماً أو فيما بعد

إضافة إلى دفعة الثمانمائة جنيه . وقد أرفق ايشام شيكاً بمبلغ (٣٥) دولاراً لقاء ترجمة العينة ، ومعها أيضاً قصاصة من مقال في صحيفة أميركية زعمت فيه أن لورنس منخرط في مهمة دبلوماسية سرية حيث جاء فيها : «متخفياً في ملابس عربية ، غير أنه معروف لكل شيخ قبيلة تتواجد في الصحارى والجبال الواقعة ما بين قناة السويس وحدود افغانستان ، يواصل الكولونيل السابق لورنس رحلاته في الشرق الأوسط» . فمثل هذه التقارير كانت عادية ، وغالباً ما يكون مصدرها الصحافة الفرنسية ، التي دأبت على تصوير لورنس كعميل سري يعمل من أجل تقويض المطامع الاستعمارية الفرنسية . فعلى سبيل المثال أُدعي قبل بضع سنوات بأن لورنس كان يشكل لها المتاعب في المغرب خلال ثورة الريف هناك .

وفي الهند أشارت الصحافة آنذاك إلى حقيقة أن لورنس كان يخدم على الجبهة الشمالية - الغربية . وقد مثل هذا رأي الصحفيين العاطفيين الذين ينتهزون فرصاً ذهبية ، ففي ٢٦ أيلول ، وتحت عناوين رئيسة أربعة ، نشرت صحيفة «أخبار المساء» اللندنية تقييماً مثيراً لنشاطاته تقول : المهمة السرية للورنس العرب تشمل أنشطة حمراء في البنجاب ويقوم بدور القديس حيث يكافح الحسد ويشفي الأمراض .

كما نشرت صحيفة ايفننج نيوز تلغرام ، من بومباي يوم الأربعاء تقول : «لورنس العرب - الذي درس بجامعة إكسفورد ، ومن ثم أصبح ملكاً غير متوج للصحراء العربية» ، وكولونيلاً في الجيش البريطاني ، ثم بعد ذلك ميكانيكياً في سلاح الجو ، الذي جُند فيه عام ١٩٢٢ ولمدة سبع سنوات تحت إسم الجندي الجوي شو - يقوم الان بوظيفة جديدة . ومثلها مثل معظم الأعمال التي قام بها لورانس خلال حياته الملونة ، فإنها تُعَد وظيفة غير عادية . وهو ، حسب الرسائل الواردة من لاهور ، ينتقل حول البنجاب متخفياً ليقوم بتتبع ودراسة أنشطة العملاء الشيوعيين ، الذين قيل أن مركز قيادتهم موجود في اريستار . فمن المعروف ومنذ وقت طويل أن البلاشفة (الشيوعيين) لهم عين - بل عين واسعة - على الهند .

ويوجد منزل لورنس حالياً في بيت غريب يقع في شارع مهجور في اريستار . ويحتوي على أثاث فاخر ، ومن بين الضيوف الذين يترددون على المنزل نساء جميلات

ورشيقات يجلبن أطفالهن إليه ليقوم بطرد الأرواح الشريرة عنهم ، كما تطلب النسوة نصيحته في الشفاء من الأمراض .

إن لورنس يقوم بدور ولي أو مرشد روحي (محمدي) زار عدة بلدان مسلمة وقبور جميع القديسين الكبار . كما تقول الشائعات أنه رجل دين قويم يقوم دائماً بإعادة تقييم مآثره . إلا أنه من غير محتمل أن يقوم لورنس «بإعادة تقييم مآثره» ، إذ أنه لا بد أن ثمة بالتأكيد هدف خفي وراء هذا العمل» .

كانت هذه المقالة سخيفة بشكل واضح ، حتى إنها لا تسبب أدنى ضرر ؛ وفي الحقيقة اثارت رسائل للصحافة من أناس لا يعرفون شيء عن الهند وحتى أن موضوع التجسس في أمريستار لا قيمة له . فلا يوجد شيء للتجسس عليه هناك ، رغم أن ذلك قد تردد في كل من أميركا وأماكن أخرى أيضاً . وكانت صحافة المعارضة حاذقة أيضاً في التقاط هذه القصة ، فبعد أربعة ايام . فُبركت هذه القصة الخيالية في قالب جديد من قبل صحيفة الصنداي اكسبرس تحت عنوان «مهمة لورنس العرب السرية في أفغانستان» . فقد زعمت : «أن التحركات الغامضة الدائمة للكولونيل لورانس قد عُمقت في الليلة الماضية بتقرير وزع في الأوساط المطلقة في لندن ، بأنه منخرط في مهمة سرية في أفغانستان محاولاً تسهيل الأمور لإجراء مفاوضات لإبرام معاهدة بين بريطانيا العظمى وذلك البلد . وفي وقت مبكر من هذا الأسبوع ورد أن الكولونيل لورنس كان يتواجد في امريستار ، للقيام بدور ولي (محمدي) ، إلا أنه في الواقع يقوم بتتبع الأنشطة الشيوعية في المنطقة .

ويؤكد هذا التقرير حقيقة أن الكولونيل لورنس ، الشخصية الرومانسية التي (جمّعت القبائل الرحل في الصحراء العربية وقادتهم ضد الأتراك) ، متواجد في أفغانستان ليقوم بدراسة الحياة الأفغانية لصالح الحكومة البريطانية . إذ أن الكولونيل لورنس يقوم وجهات نظر سكان الجبال والتجار والفلاحين في هذا الصدد . ويعيش بينهم ، متخفياً في ثوبه وكوفيته وعباءته التي أشتهر بها . وسارت هذه المقالة في النمط نفسه ، عارضة التضمينات السابقة نفسها لدور لورنس المفترض . كما أنها كررت في الصحف الأميركية ، إلا أنه لم توجد دلائل أخرى على ذلك ، وبدت القصة ميتة .

وبما أن هذه المزاعم قد مست سياسة الحكومة البريطانية ، فقد جرى بحثها في وزارة الهند ، وفي الأسابيع التي تلت كانت ادعاءات صحيفة الصنداي اكسبرس موضع بحث متبادل بين وزارة الهند ووزارة الخارجية ، وبين الوزير البريطاني المفوض في كابول ، السير فرانسيس همفري .

إلاّ أن الشائعات لم تمت ، حتى أن مسألة أنشطة لورنس قد نُقلت إلى صحيفة برافدا ، التي علقت على ذلك بقولها : «إن ظهور الكولونيل لورنس في أي بلد مسلم يظهر على الدوام أن ثمة مؤامرة واستفزاز امبريالي بريطاني» . وبعد بضعة أيام صرح مسؤول في وزارة الهند بقوله : «إنه لن يكون شيء اذا ما كان بمقدور عامل جوي إيجاد عمل له في سلاح الجو ، أو في أي مكان آخر على الحدود الشمالية الغربية» .

كانت قد حدثت ثورة في أفغانستان ، وأصبحت أخبارها منتشرة على مستوى عالمي . لذلك فقد أصبح من الواضح أن يكون ثمة رد مناسب حول المزاعم التي تفيد بانخراط لورنس في الثورة التي حدثت هناك . فصدر أول تصريح شبه رسمي وبلغة قوية في الهند ، دحض الشائعات كافة ، وقال بأنها مصطنعة . وفي الرابع عشر من كانون الأول فُوض السير فرانسيس همفري لتكذيب وجود لورنس في أفغانستان . إلاّ أن القصة أصبحت آنذاك خارج السيطرة . ففي السادس عشر من كانون الأول نشرت صحيفة «الأمبيرنيوز» ، وهي صحيفة واسعة الانتشار تصدر في مانشستر ، أنباءً تؤكد وجود لورنس في افغانستان ، وهو خبر كانت تنتظره الصحافة العالمية .

وقد استندت في معلوماتها تلك إلى ما أفاد به الدكتور فرانسيس هافلوك ، وهو طبيب بعثة تبشيرية مشهور كان عاد للتو من جبال أفغانستان الوعرة» . وأشارت المقالة الصحفية إلى أن هافلوك قد قابل في أفغانستان كل من لورانس (الرجل الأكثر غموضاً في الامبراطورية ، وقنصل بريطانيا المطلق في الشرق) وتربتش لينكولن (الجاسوس السابق ، وعضو البرلمان السابق والمزور السابق ، وأداة الحكومة السوفيتية في الصين) . لقد كانت هذه المقالة خيالية تماماً ، بيد أن مادتها قد نُقلت في ٢٧ كانون الأول من قبل وكالة الصحافة ، والخدمات الصحافية البريدية الحرة ، ووزعت في جميع انحاء العالم . وقد أُدعي أن لورنس ولينكولن كانا يحاربان مع جانبين متعارضين في أفغانستان ، وقيل :

«إن المعركة الآن ناشبة بين ملاك البغض وملاك السلام . ويوجد لدى لينكولن الذهب والبنادق . ويحب أبناء الجبال كلاهما . ولدى لورنس مصادر مجهولة ولسان فضي» .

ولفترة من الوقت ظل لورنس غير مدرك لتلك العاصفة المتفاقمة . فقد أتم في أواخر كانون الأول ثلاثة أجزاء من الأوديسة . وبعد مراجعتها كتب في يوم عيد الميلاد إلى ايميري وولكر يقول : «لقد أمضيت خمسمائة ساعة في ترجمة أربعة عشر ألف كلمة ، فوصلت إلى ضرب من الترجمة النهائية - إلى عمل مُحسن ، بعد مراجعة النص كلمة كلمة عدة مرات . وبدأ العمل في الجزء الرابع في يوم الإهداء (وهو اليوم الذي يلي عيد الميلاد وتقدم فيه الهدايا إلى سعاة البريد) ، علي أمل أن يكون قادراً على إنهاء الجزء السادس في نهاية شهر آذار .

ورغم ذلك فإن وجوده الهادىء في ميرانشاه قد وصل إلى نهايته آنذاك ففي الثالث من كانون الثاني ١٩٢٩ أبرق السير فرانسيس همفري إلى دلهي ولندن مشيراً فيها الى المعلومات المتزايدة حول أنشطة لورانس التي تظهر في الصحافة الهندية وتردد في أفغانستان ، حيث تثير الشكوك حول وجود دعم بريطاني سري لثورة شينواري ، التي تدعم وتشجع بشكل طبيعي من قبل السفيرين الروسي والتركي ، وقد أُبلغت بذلك ، حتى من قبل زميلي الفرنسي . . . فالتناقض حول هذا الهراء لن يجدي نفعاً ، لذلك فإنه يجب أن يزال هذا الارتباك إذا ما كان بالمستطاع نقل لورنس إلى مكان بعيد عن الحدود الأفغانية إلى أن تنتهي الحرب الأهلية هناك وتخمد» .

لذلك ففي الثامن من كانون الثاني جرى نقل لورانس من ميرانشاه إلى لاهور . وكان هذا الأمر في صالحه ؛ فقد وفر له الفرصة ليختصر من خدمته البالغة خمس سنوات فيما وراء البحار . فأبحر على سفينتة الركاب «راجبوتانا» ، إلى انجلترا في الثاني عشر من كانون الثاني .

وكانت لا تزال هناك الادعاءات قائمة حول دوره في أفغانستان ، في الصحافة اليومية والعالمية على حد سواء .

الفصل الرابع والعشرون

عمله في بلايموت

كانون الأول ١٩٢٩ - شباط ١٩٣١

أمضى لورنس رحلة عودته البحرية إلى انجلترا وهو يعمل على ترجمة الأوديسة ، فاستطاع ترجمة ثلاثة أجزاء أُخرى من الكتاب وبما أن وزارة الطيران كانت تعلم بأن الصحافة ستحاول إجراء مقابلات معه حينما يصل إلى إنجلترا ، فقد قررت أن تأخذه من السفينة عندما ترسو في ميناء بلايموت في الثاني من شهر شباط ، قبل وصولها إلى وجهتها النهائية في «غرافسند» .

وقد رافقه في أثناء رحلة العودة قائد الجناح سيدني سميث ، الذي كان قد قابله أول مرة في ظروف مختلفة خلال مؤتمر القاهرة في عام ١٩٢١ . إلاّ أن محاولات سميث للإبقاء على مكان وجود لورنس سرياً ذهبت أدراج الرياح ، فما أن استقلا القطار إلى لندن ، حتى جرى التعرف عليهما ، وعند وصولهما إلى بادينفتون كانت بانتظارهما جمهرة من الصحفيين ، كما تعرضا الى ملاحقات مضحكة في أثناء ذهابهما بسيارة أجرة ، استمرت مدة ساعة . إلاّ أنه ، على الرغم من ذلك ، أخفق الصحفيون في اللحاق بهما .

في غضون ذلك كان التشوش حول نشاطات لورنس قد انتشر بين أعضاء مجلس العموم البريطاني . فالنائب العمالي أرنست ثارتل ، قد وجد تساؤلاً حول تجنيد لورنس في سلاح الجو تحت اسم مستعار . وتبعت ذلك عدة استفسارات برلمانية ، وبدأ الأمر من غير المحتمل أن المسألة ستخمد . لذلك فقد رأى لورنس أنه من الضروري مواجهة التساؤلات مباشرة فقام بزيارة إلى المجلس العموم وشرح الأمر بنفسه للأعضاء العماليين في المجلس ومن ضمنهم ثورتل .

أُبلغ لورنس بعد ذلك بأنه سيكمث في قاعدة كيت ووتر التابعة لسلاح الجو في بلايموت . ورغم ذلك فقد كان مقرراً له أولاً أن يأخذ إجازة لمدة شهر ، إذ قرر فيها القيام

بزيارة أصدقائه القدامى . وقد حُلت له مسألة التنقل عندما استلم رسالة تعلمه أنه كانت توجد بانتظاره دراجة حديثة من نوع بروف ، جرى شراؤها له من جهة غير معروفة .

ورغم أن هذه الدراجة النارية كانت موضع ترحيب بالنسبة له حيث ستمكنه من التنقل بسهولة ، فإنه مقت هذه الفكرة بعمق ، وقبول مثل هذه الهدية المكلفة . فرغم أنه كان بإمكانه الحصول على دخل أساسي بسهولة ، فإنه اختار أن يعيش في فقر ، إذ بدى له أن مثل حجم هذه الهبة يعد صدقة ليس له الحق بقبولها . وضمن بأن شارلوت شو كانت وراء هذه الخطة . فهي لأكثر من خمس سنوات قد أغرقته بالهدايا الثمينة ، ورأى بأن قبول دراجة بروف ستضعه تحت التزام أعمق . لذلك فقد عقد العزم على رفضها .

أفصح المتبرعون أو المانحون عن اسم بوكستون كناطق باسمهم ، فذهب لورنس في السادس من شباط لرؤيته . وكما حدث فقد كان ثمة مال كافٍ في حساب لورنس لشراء الدراجة . إلاّ أنه ، رغم ذلك ، كان يخطط لإتمام شراء منزل (كوخ) كلاودز هيل . فإذا ما استخدم رصيده لشراء دراجة بروف فمن المحتمل أنه سيحتاج للاقتراض من أجل شراء الكوخ . وعرض عليه بوكستون منحه قرضاً إضافياً من البنك لشراء كوخ كلاودز هيل ، لذلك فقد طرحت مسألة قبول الدراجة كهبة جانباً .

وخلال وجوده في لندن قام لورنس بعدة زيارات لأسرة برناردشو ، كما قابل بروس روجرز لأول مرة . وقام في طريق عودته إلى بلايموت برؤية كوخ كلاودز هيل ثانية ، حيث «وجده رائعاً كما كان من قبل» . وسدد في ذلك اليوم ثمن شرائه المتبقي وهو مبلغ (٣٥٠) جنيهاً .

كانت قاعدة كيث ووتر الجوية واحدة من أكثر المحطات إمتاعاً بالنسبة للورنس ، فهي صغيرة ومنعزلة بحد ذاتها وقد كتب إلى س . أيد يقول في هذا الشأن : «كان يتواجد نحو مائة من رجال سلاح الجو في كيث ووتر ، وهي شبه جزيرة ، في الواقع ، تقع على جبل وتنحدر باتجاه بلدة بلايموت . وكان البحر على بعد ثلاثين ياردة من كوخنت من جهة واحدة ، وعلى بعد سبعين ياردة من الجهة الأخرى . ويبدو أن ضباط المعسكر مسالمون وهادئون ، لذلك فمن المعقول أن يكون الأفراد سعيدين بذلك . فهذه أخبار جيدة بالنسبة لي ، إذ سأشاركهم نصيبهم الجيد» .

وكانت القاعدة العسكرية الأساسية قد أُغلقت في كيت ووتر بعد وقت قصير من انتهاء الحرب العظمى (الحرب العالمية الأولى) ، وأُرسل سيدني سميث إلى هناك لإعادة افتتاحها أو تشغيلها كمحطة للطائرات البحرية . وجرى إلحاق لورنس بقسم القيادة في المحطة ، وكان عمله الرئيس خلال الأسابيع الأولى كتابياً . إذ إن خبرته ككاتب أو موظف في قسم إصلاح الحركات في كراتشي قد أثبتت كفاءتها وقيمتها ، وملائمتها للورنس في هذه المحطة الجديدة . وعندما لا يكون لديه عمل مكتبي ، كان يعمل ضمن الطواقم التي تقوم باستخدام القوارب في نقل الطائرات البحرية إلى المرسى .

لم يكن يوجد وقت فراغ كثير بالنسبة للورنس في كيت ووتر مقارنة بما كان عليه الأمر في الهند . فالعطلة الأسبوعية كانت تبدأ في الساعة الواحدة من ظهر يوم السبت ولغاية منتصف ليلة الأحد . مما جعل الأمور غير عملية لزيارة أصدقائه في لندن . وكان يعوض عن ذلك بصداقته لقائده . فقد كان سيدني سميث آنذاك يعرف لورنس تماماً ويحبه ، كما كان يعتمد عليه بشكل كبير ويُعِدُّه مساعداً له موثوقاً به . لذلك فقد كان يكلف لورنس بأعمال تفوق مستوى ما يسند إلى فرد في سلاح الجو . إضافة إلى ذلك ، قام لورانس بزيارات عديدة إلى منزل سميث ، وسرعان ما أصبح صديقاً مقرباً للأسرة . وأصبحت هذه العلاقة متميزة بعض الشيء في قيادة القاعدة ، ولها بعض التأثير في حياة لورنس في كيت ووتر .

وبعيداً عن مهام قاعدته ، فقد عُين سميث من قبل سلاح الجو كممثل له في اللجنة الجوية الملكية التي أنشئت آنذاك لتنظيم سباق دولي للطائرات البحرية . وكان مقرراً أن يجري التنافس فوق منطقة سولنت في أوائل شهر أيلول . فأخذ سميث معه لورنس كمساعد شخصي له للقيام بهذه المهمة . وأصبح الرجلان خلال شهر نيسان منخرطين في ما يمكن أن وصفها بالمهمة الإدارية الرئيسة . وكان لورنس يحضر الاجتماعات التي كانت تجري في لندن أو في أي مكان آخر ، يقوم بكتابة الرسائل وتدوين محاضر الجلسات ، ولكونه كاتباً في قسم الورش البحرية منح لورنس مكتباً مستقلاً ، كما أنه تدبر أمره في أوقات الفراغ لأنهاء جزئين آخرين من كتاب الأوديسة خلال شهري آذار ونيسان ، وقرر إرسالهما إلى إيميري وولكر في نهاية شهر نيسان .

إلا أنه ، رغم ذلك ، تعكر صفو هدوئه ففي ١٣ نيسان بسبب مقالة معادية نشرت

في مجلة أسبوعية شعبية تدعى جون بول ، إذ زعمت بأنه لم يكن يزعج نفسه كثيراً بالقيام بواجباته ومهامه ، بل أنه قسم وقته بين مغادرته الخاصة وغيابه في لندن ، ليقوم بجولات على دراجته وبالعمل الأدبي ، وكان هذا يعني ترجمته للأوديسة إلى اللغة الإنجليزية وكانت هذه هي المرة الأولى التي تعرض فيها لمثل هذا الأستخفاف من قبل الصحافة البريطانية ، وقد أثر فيه ذلك . وبعد نشر مقالة ثانية من هذا النوع كتب لصديق يقول : «بالنسبة لصدمتي من الصحافة - فمن سيرشدني كيف أقوم بالرد عليها سيكون لي صديقاً مدى الحياة ، لأنني لم أفعل شيئاً فتحدثوا عني وحين قمت بشيء ما تحدثوا عني أيضاً . وأحاول الآن أن أعوّد نفسي على قول الحقيقة التي من المحتمل أن تقال عني طوال حياتي ، وحتى بعد مماتي أيضاً» .

إن تجدد الكتابة عنه في الصحف جعله في مزاج يبعده عن الانكباب لمتابعة ترجمة الأوديسة . لذلك ففي الأول من آيار كتب حول هذا الوضع إلى بروس روجرز يقول : «لقد كان مقرراً أن أُرسل اليك اليوم الجزئين السابع والثامن من ترجمة الأوديسة؟ ولكن بدلاً من ذلك لا بد أن أعبر لك عن قلقي ، فقد نشر في مجلة جون بأنني أقوم بترجمة كتاب الأوديسة ، ومنذ ذلك اليوم لم أقم بكتابة حرف واحد ، فانا لم أتوقع هذا الازعاج أبداً ، قبل نشر الكتاب . ولكن كنت أتوقع ذلك بعد نشره ، ولهذا آمل بأنك ستدرك بأنه لن يكون بوسعي متابعة ذلك .

وإذا كان بإمكانك رؤية وولكر وميرتون ، فاشرح لهما الصعوبات القائمة ؛ فأنا أريد أن أكون معقولاً ومساعداً ما أمكن ، وآمل فقط بأن يجدا من خلال خبرتهما المتزنة طريقاً للخروج من ذلك ، بدلاً من تعميق الهوة» .

إن هذه الرسالة ، التي تضمنت تلميحاً صريحاً بأن لورنس قد يتخلى عن الترجمة ، كانت صعبة التصديق . فخلال الأشهر السابقة كان قد وصف هذا المشروع علناً لأصدقاء له في الوسط الأدبي الإنجليزي ، معظمهم له ارتباط بالصحافة . فحقيقة أن مؤلف «أعمدة الحكمة السبعة» كان يعمل آنذاك على ترجمة الأوديسة لا بد أن تثير الشائعات ، وتنتج عنها حتماً حملة دعائية واسعة وكان بروس روجرز قد حذر لورنس منذ البداية بأن إخفاء اسمه يمكن أن يحافظ عليه ، ولا بد أنه تأكد تماماً من أن لورنس هو

المسؤول عن تسرب الأخبار إلى الصحافة ، وكان يخشى أن تؤدي تعليمات صحافية أُخرى الى احتمال طرده من سلاح الجو .

وأصدر بروس روجرز رداً حذراً بحث فيه المشكلات التي جربها بنفسه مع الصحافة . وأكد ايضاً على أنه هو نفسه (لورنس) ومعه أشخاص آخرين كانوا متورطين في القضية ، إذ يقول : «لقد حولت رسالتك إلى كل من وولكر وميرتون لقراءتها وكان كلاهما منزعج بشكل كبير من جراء ذلك» . وكان قد جرى اتفاق مبالغ كبير حينذاك على طباعة مسودة الكتاب على الآلة الكاتبة وعلى الورق الخاص بذلك أيضاً . وخلص روجرز إلى القول : «أعتقد بأنه يجب علينا المضي بذلك ، بأي شكل كان . واذا لم يكن بوسعك القيام بمزيد من الترجمة في الوقت الراهن ، فدع ذلك لبعض الوقت ، فلدينا الآن نسخ كافية من الكتاب لتلبية الطلب لبعض الوقت ، وان دوري الخاص بالعمل يكمن بعيداً عن برنامجه المعد . فهذه الشائعات المثارة لن تدوم ، وانهم سينسونها قبل أن يظهر الكتاب في الأسواق» .

وكان رد لورنس يوحي أيضاً أن ثمة سبباً آخر محاولته التخلي عن الترجمة وهو احتمال ازدياد عبء العمل عليه في سلاح الجو . فكتب يقول : «إنني متفهم ، وأن علي اتمام الترجمة بقدر ما أستطيع ، ومن المحتمل أن يكون ذلك بحلول شهر نيسان في العام القادم . فهم قد أضافوا أعمالاً أخرى علي هنا ، لذلك لم يعد لدي سوى وقت فراغ ضئيل . وإنني لم أترجم أي شيء منذ أن كتبت لك آخر رسالة محاولاً استئناف ذلك في أقرب فرصة ممكنة» .

ومع اقتراب استعراض شايدر تروفي البحري الجوي أصبح لورنس منشغلاً أكثر فأكثر ، إذ إن رسائله في بداية الصيف كانت لا تشير إلاّ إلى التعب والارهاق الذي كان يعانيه من جراء العمل في ذلك . وكتب إلى بروس روجرز في نهاية شهر حزيران يشرح له أنه قد توقف عن ترجمة «الأوديسة» في الوقت الحاضر ، وذلك استعداداً للسباق الجوي المزمع إقامته ، وإن وقته مسخر تماماً لهذا الغرض وحتى منتصف شهر أيلول ، فهذا السباق الجوي (شايدر تروفي) كان سباقاً دولياً رئيساً استحوذ على اهتمام دولي آنذاك . فهو يعتمد فيه على تحطيم أرقاق قياسية سابقة وتسجيل أرقام جديدة .

كانت قواعد السباق تتطلب اجتياز (١٥٠) ميلاً بحرياً في الأقل . أما في ذلك العام ، فقد كان على المتسابقين أن ينطلقوا (يقلعوا) بطائراتهم على التتابع ويقومون بالتحليق سبع دورات ضمن نطاق خمسين كيلو متراً وعلى شكل الماسة ، ويبدأون من منطقة سولنت ، وينتهون عند جزيرة وايت . ورغم أنه كانت توجد أربع دول مشتركة في السباق ، فإن الفريقين الفرنسي والأميركي انسحبا منه ، ولم يتبق سوى فريقي بريطانيا وايطاليا فقط لخوضه . وفاز فريق طائرات تروفي في السباق ، وللمرة الثانية على التوالي .

وبالنسبة لاجراءات تنظيم مثل هذا الحدث الشهير ، فقد كانت سمعة نادي الطيران الملكي على المحك . لذلك فإن كل من سميث ولورنس لعبا دوراً مركزياً مهماً خلال التحضيرات النهائية التي جرت في «كالشوت» وعلى اليخت كارن الذي أُستخدم مقراً لقيادة السباق . وكتب لورنس فيما يقول في هذا الشأن إن «الأيام والليالي كانت غير منفصلة عن العمل في «كالشوت» ، فنادراً ما كنت أعرف طعم النوم ، ولا أتذكر أنني أكلت بشكل جيد . ورغم ذلك فإن ما أراح الجميع هو أن السباق مر بشكل جيد ، ومن دون توقف أو إعاقة» .

كان اليخت كارين قد جرى أستعارته بواسطة الميجر كولن كوبر . كما استخدم أحد قواربه في القيام بنقل المهام خلال السباق ، وهو القارب السريع المسمى «بيسكاين بيبي» الذي صنع في أميركا من قبل شركة بوردي للقوارب . وكانت طاقته في حدود (٤٥) عقدة ، إلا أن محركه كان بحاجة إلى عناية خاصة . أما لورانس الذي تمتع بشكل كبير بسياقة القارب فقد عرض على أن يعمل له صيانة شاملة ، إلا أنه فوجىء عندما قرر الميجر كوبر أن يقدمه كهدية ، الى كل من لورنس وسميث بصورة مشتركة حيث اطلقا عليه اسم «بسكويت» .

إن وجود لورنس في السباق قد انطوى على مخاطرة القيام بدعاية عامة عنه ، بيد أن الصحافة المعتمدة قد أُبلغت بأن لا تلتقط ولا تنشر صوراً له ، أو تتحدث عنه في الصحف البريطانية . إلا أنه ، لسوء الحظ لم يكن هذا كافياً ليرضي اللورد ثومسون . فحينما كان يزور كالشوت أمسك بلورنس يقوم بدور المشرف ويتحدث مع الشخصيات المهمة الزائرة . وبما أن ثومسون ، الذي كان ضابطاً برتبة رفيعة قبل وإبان الحرب ، فقد كان يعارض تماماً وجود لورانس في صفوف سلاح الجو البريطاني . وتقابلا لفترة بسيطة خلال

السباق ، ويبدو أن هذه المصادفة قد تركت رغبة قوية لدى ثومسون في التعرف على سلاح الجو بسبب وجود هذا الرجل غير التقليدي (لورانس) الذي يخدم فيه . وعاد لورانس إلى بلايموث تتملكه الهواجس ، وبعد أسبوع تأكدت له هذه الهواجس ، فقد كتب إليه ترينشارد يطلب رؤيته . وكما خشي من ذلك فقد أُبلغ بأن مستقبله في سلاح الجو أصبح مشكوكاً فيه ثانية ، لذلك لجأ إلى أصدقاء له متنفذين في لندن ، طالباً منهم أن يتولوا قضيته . كان من بينهم السير روبرت فانسيتار ، الذي أصبح آنذاك سكرتيراً لرئيس الوزراء . ولم يكن فانسيتار يحبذ لورنس كثيراً ، بيد أنه كان يعرف بأنهما كانا أولاد عم من الدرجة الثانية (من جهة والد لورنس) ، لذلك فقد وعده بمساعدة جيدة . أما الشخص الآخر المهم الذي كان يعرفه وله اتصالات سابقة معه فقد كان الكابتن ليدل هارت ، المؤرخ والاستراتيجي العسكري ، والذي بدأت مراسلاته مع لورنس في عام ١٩٢٧ ، بعد إسهامه في الموسوعة البريطانية . وبما أنه كان آنذاك مراسلاً عسكرياً لصحيفة الديلي تلغراف ، فقد كان وضع ليدل هارت جيداً ليتحدث بسرية مع الجهات والمسؤولين العسكريين رفيعي المستوى في وزارة الحربية البريطانية .

في الثلاثين من أيلول ، أُبلغ لورنس من قبل ترينشارد بأن خروجه من سلاح الجو قد أُرجىء ولكن بشروط وهي : أن خدمته مستقبلاً في سلاح الجو لن تتعدى القيام بمهام أكثر من مهام فني جوي ؛ وأنه لا ينبغي عليه مغادرة المملكة المتحدة (بريطانيا) . كما لا يجب عليه زيارة أحد أو التحدث مع أي من الشخصيات السياسية المعارضة الكبيرة مثل ونستون تشرشل والليدي أستور ، وسُر لورانس عندما علم أن هذه المقاطعة أو الحظر لا تشمل برناردشو ، ولكن على ما يبدو ، عندما سمع شو بذلك ، شعر بأن عليه تجاهله نوعاً ما . وللمرة الثانية في ذلك العام ، تجنب لورنس وبصعوبة إخراجه من سلاح الجو . وكان عليه أخذ إجازة طويلة ، فقرر قضاؤها في لندن ولمدة سبعة أسابيع تقريباً يقضي فيها معظم وقته بشقة في شارع بارتون لمتابعة ترجمة الأوديسة .

علم خلال زيارة قام بها إلى ليدل هارت ، بأن جوناثان كيب قد أوحى بأنه كان يوجد مجال لعمل سيرة ذاتية أُخرى له . وسأله ليدل هارت ماذا سيكون ردة فعله حول الموضوع ، مؤكداً على اهتمامه الذاتي بدوره العسكري في الثورة العربية .

وبما أن لورنس لم ينبذ هذا المشروع مباشرة ، فقد كتب له ليدل هارت في اليوم التالي

يسأله عما إذا كان مستعداً للمساعدة في إعداد مثل هذه السيرة الذاتية . إلا أن رد لورنس لم يكن متحمساً هذه المرة ، وخاصة أنه علل ذلك بأن العمل في كتاب جديد سيزيد من صعوباته مع سلاح الجو . إلا أنه عرض مع ذلك أنه سيقوم بتبيان أو الإشارة إلى الأخطاء عند عرض المذكرات عليه . غير أن ليدل هارت لم يك ولا بد متشجعاً من إجابته ، لأنه علق المشروع ثلاث سنوات أخرى .

في هذا الوقت ، بدأ لورنس يتطلع قدماً إلى عام ١٩٣٥ ، عندما تنتهي مدته أو خدمته في سلاح الجو . وكان قد قرر موخراً بيع أرضه الواقعة في «بول هيل» ، بالقرب من شبنغفورد ، عندما انتقل فيفيان ريتشارد إلى عمل جديد في ويلز ، فاذا ما استثمر هذا المال من جراء بيعه للأرض ، فمن الممكن أن يجني من ذلك دخلاً كافياً للعيش منه .

كانت قيمة الأرض تقدر بنحو سبعة آلاف جنيه إذا ما بيعت إلى تاجر بناء ، بيد أن لورانس كان يأمل دائماً بأن تصبح هذه الأرض في يوم ما تابعة لغابة ايبنغ وتضم إليها . لذلك فقد قدمها لهيئة هذه الغابة لقاء مبلغ أربعة آلاف دولار .

وفي طريق عودته إلى بلايموث بعد انتهاء إجازته عرج على كوخه في كلاودز هيل . وبدأ يفكر بإجراء تحسينات عليه بعد تلقي المال المتوقع . فطلب من شركة محلية بأن تصنع مخططات لاضافة غرفتين إليه ، حيث يقول : «إن هذا الجناح الصغير لن يفكر أو يشوه منظر هذا الكوخ الصغير الهادىء ، أو يغير من بساطته» .

استقر في ذلك الشتاء لإنهاء ترجمة الأوديسة . وكما فعل مع ترجمة كتاب الغابة العملاقة من قبل ، فقد وجد أن من أجل إخراج ترجمة جيدة عليه التبصر بامعان في النص الأصلي . لذلك فإن رضاه عن العمل كان يكمن في معالجة الصعوبات التي تواجهه في اللغة اليونانية ، حيث يقول في هذا الشأن : «يالها من ديباجة كان يصور بها الاغريق أنفسهم . وبالنسبة لي فقد كنت أضع خطاً تحت جميع الكلمات القوية ، ومن ثم أُزيل بواطن الضعف منها ، وذلك حتى لا تكون ترجمة النص نسخة مطابقة جداً أو ترجمة ميكانيكية . وإنني أحاول أن أضفي رونقاً على الروايات والقصص الضعيفة لأجلها تتماشى مع النص . كما إنني أحاول أن أصل إلى الايقاع أو الوزن الشعري للعمل . أُنقح ترجمة أبيات الشعر عدة مرات ، فأُترجم خمسة أبيات فقط في الساعة .

وقد أمضيت في العمل مدة أربعين ساعة في الأسبوع طوال الأسابيع الثلاثة أو الأربعة الماضية بترجمة الأوديسة ، إضافة الى ثمان واربعين ساعة بالعمل في سلاح الجو أيضاً» .

لقد كان منشغلاً جداً بالترجمة بحيث أنه كان من الصعب عليه ملاحظة تأثير القيود التي فرضها عليه اللورد ثومسون . وعلى أية حال ، فبعد قضائه سنتين في الهند كان سعيداً بعودته إلى انجلترا . وكتب في ذلك الربيع يقول : «ثمة شيء ما يكمن في جنوب إنجلترا بحيث يجعلني أميل ، وأنا موجود في كل وادي أو على كل سفح ، إلى القول «آه أُريد مكاناً هنا لأجلس فيه واتمتع بالنظر إلى المناظر الطبيعية الخلابة المتواجدة هنا وهناك» .

وأمضى خلال الأشهر القليلة التي تلت معظم وقته في متابعة ترجمة الأوديسة إلا أن هذا العمل لم ينظر إليه بحماسة من قبل أصدقائه في الوسط الأدبي ، الذين اعتقدوا بأن عليه أن يقوم بتأليف شيء ما جديد من خاصته . فارتبك لذلك ، لأنه غالباً ما قال لهم أن تلك الترجمة كانت فقط من أجل كسب المال ، وزيادة دخله . بيد أن الرسائل التي بعث بها الى كل من شارلوت شو وبروس روجرز ، أظهرت ، رغم ذلك مدى اهتمامه الكبير بذلك العمل . حيث أن الترجمات العديدة السابقة التي صدرت للأوديسه باللغة الانجليزية لم تصل إلى روحها الفعلية ، وقد تجلى له ذلك من خلال النص ، فشعر بازدياد بأن المترجمين قد فشلوا في ذلك . ولهذا كان طموحه ، آنذاك ، يكمن في إخراج ترجمة جديدة أفضل .

لم يكن لديه وقت كبير ليقضيه في المطالعة خلال تلك الأشهر ، رغم أنه غالباً ما رغب في تتبع أو متابعة الأعمال الصادرة عن الروائيين المعاصرين حينذاك . ورغم ذلك ، كان عليه في نهاية شهر كانون الثاني ١٩٣٠ ، قضاء ثلاثة أيام في لندن الأمور تتعلق بسلاح الجو ، وبينما كان متواجداً هناك ، اشترى نسخة من رواية تتحدث عن حياة الخنادق على الجبهة الغربية إبان الحرب . فقد كان شغوفاً بهذه الرواية ، بحيث تمنى لو أن كتابه «المصنع» كان بالمستوى نفسه . وربما أن مؤلف هذه الرواية اتخذ اسماً مستعاراً وهو «خاص ١٩٠٢٢» ، فقد خمن أن مؤلفها كان فريدريك مانيننغ من خلال أسلوب الثابتة . وتأكد له ذلك فيما بعد خلال مكالمة هاتفية مع ناشر الكتاب ، بيتر ديفز . فكتب لورنس

إلى مانيننغ بحماسة ، وأصبحا صديقين نتيجة لذلك .

وكان لورنس يصدر بيتر ديفز أيضاً ، وقد سمح له بإصدار ثناء مكتوب عن رواية «نحن خصوصياتها» المار ذكرها ، كما أنه أعارهما نسختين مطبوعتين على الآلة الكاتبة من كتاب المصنع .

إن من أحد الأسباب التي دفعت بلورنس إلى اختيار حياة العسكرية كان بسبب ما تقدمه من شعور بالزمن ، إلاّ أنها لم تحميه ، رغم ذلك ، من المتاعب المالية . فبعد أن استخدم رصيده في البنك ، قبل سنة ، ليتمكن من دفع ثمن دراجة بروف ، كان عليه بعد ذلك أن يقترض لكي يدفع ثمن كوخ كلاودز هيل . وكان يتوقع أن يسدد هذه النفقات كافة من جراء بيعه لقطعة الأرض في «بول هيل» ؛ غير أن مسؤولي غابة ايبنغ قد أجلوا عملية البيع ، وانقضت خمسة أشهر أخرى ، ولم يبد أن ثمة نهاية في الأفق لهذا التأجيل . وأصبح دينه للبنك حينذاك ستمائة جنيه ، وكان يزداد باستمرار مع تراكم الفائدة المترتبة عليه . لذلك فقد أصبحت معنوياته في وضع سيىء ، كما حدث له من قبل في عام ١٩٢٥ ، عندما تعرض لمصاعب بسبب نفقات إصدار كتابه أعمدة الحكمة السبعة . وظهر عليه القلق في عدة جوانب ، ولكن أكثرها وضوحاً يكمن في معارضته لمغادرة المعسكر . إذ إنه كلما فعل ذلك أنفق مالاً هو في حاجة ماسة إليه ليدخره . وإدراكاً منه بأنه كان مشهوراً ويمكنه كسب المال الذي يحتاجه بسهولة ، فقد كان ذلك يشكل مصدر راحة له ، إلا أنه بدلاً من ذلك كان مصدر سخط وغضب له . وكتب إلى جوناثان كيب بمرارة يقول : «ياالهي ، علي كتابة عشرين رسالة في هذا الأسبوع . كل واحد بقيمة عشرين جنيهاً (فقد كانت تلك قيمتها بالنسبة للحياة في ذلك الوقت) ، وهذا يكلف أربعمائة جنيه علي أن أبددها ، كما أنه لا حاجة للقول عن الوقت المستغرق في كتابتها عبثاً» .

بيد أن شهرته ظلت سليمة ، خاصة عندما تلقى ، على سبيل المثال ، رسالة من رسالة من جامعة القديس اندروز تعرض فيها عليه منحه دكتوراه فخرية . وظن في البداية أن هذا العرض كان عبارة عن خدعة (أو مزحة) من طالب ما ، فأعادها مع عدم إرفاق رفض رسمي لذلك . ومن ثم وصلته رسالة أخرى ، وكانت هذه المرة من رئيس

الجامعة ج . باري ؛ فأيقن لورنس عندئذ بأن رده الأول كان غير ملائماً ، فأبدى اعتذاره للجامعة . ورغم ذلك ، فلم تكن لديه نية لقبول هذه الدرجة العلمية (الدكتوراه الفخرية) . إذ إنه بغض النظر عن صعوبة مغادرته للمعسكر من أجل حضور الاحتفال المقرر لذلك ، فإنه من المحتمل أيضاً أنه لم يكن مرحباً به بشكل عام .

رغم متابعة مع اللورد ثومسون ، فقد أبقى لورنس على علاقات طيبة وودية مع أرنست ثورتل . وبما أن حزب العمال البريطاني قد وصل إلى الحكم آنذاك ، فقد قام ثورتل بحملة ضد عقوبة الإعدام بسبب الجبن او الخوف التي طبقت إبان الحرب . فساند لورنس هذه الحملة بكل جوارحه . فخلال سنوات خدمته في سلاح الجو بذل أقصى جهده لتحسين أوضاع الخدمة العسكرية ، فعلى سبيل المثال حثه لترينشارد على تعديل الزي الرسمي المستخدم من قبل الرتب أو الكوادر الأخرى لذلك فقد شجع الجهد الذي كان يقوم به ثورتيل آنذاك ، حتى أنه أرسل له ببيان يمكن أن يدلى به في البرلمان جاد فيه : «لقد قضيت وقتاً طويلاً تحت النيران (رغم أنه لم يكن سريعاً تماماً ليلائمني في ذلك الوقت) لأجرؤ على رمي حجر على كائن خائف أو جبان جداً . فأنا كما ترون ربما . أوذي نفسي في عيني من جراء ذلك» . لذلك فقد كان مسروراً عندما جرى إقرار الإصلاح كقانون في نهاية الأمر ، ومع إجراء تغييرات مقترحة أخرى ، منها إنهاء العروض العسكرية الإلزامية أمام الكنائس .

وفي أواخر شهر آذار أضطر مرة ثانية لأن يسخّر معظم وقته لمهامه في سلاح الجو . كما أنه خلال الأشهر الأربعة الماضية لم تسجل دراجته بروف سوى قطع مسافة ستة وثمانين ميلاً فقط . وكتب يقول : «حتى أن كتاب هومر (الأوديسة) قد جُمد . فقد أوكل لي قائد الجناح مزيداً من العمل المتأخر ، كما أن القارب الأميركي السريع (المسمى بسكويت) أصبح على وشك الاستعداد الآن ، وأُجريت اللمسات الأخيرة عليه . أما الأوديسة فانها قد أُرجئت لأنه ليس بوسعي متابعة ترجمتها في الوقت الراهن» . وفي بداية شهر نيسان ، اكتملت صيانة القارب بسكويت وقد منحه امتلاك مثل هذا القارب نوعاً جديداً من الحرية . وبدأ يقضي الساعات فيه باستطلاع خلجان وممرات بلايموث المائية ، حتى أنه كان أحياناً يجتاز حدودها المائية . وكتب في عيد الفصح يقول بأن القارب بسكويت كان يعتبر «سيارة بحرية في الحقيقةو يحتوي على مقعدين . وقد

حصلت على رضا كبير عندما كنت أخرج لأجوب المياه به» . وكان غالباً ما يذهب بالقارب لوحده ، إلا أنه كان يأخذ معه أحياناً السيدة سيدني سميث أو إحدى صديقاتها . أما بالنسبة لدراجته بروف فقد كان يحب من فترة لأخرى أن يشغلها ويختبر سرعتها ، ولكن غالباً ما كان يقتنع بمعرفة مدى قوتها فحسب .

كانت ثمة ناحية مهمة أخرى أصبحت تقلقه ثانية أكثر من الفقرة التي أعقبت الحرب مباشرة ، وهي دوره غير الأخلاقي إبان فترة الحرب ، والتي اقلقته بعمق . فقد كتب إلي مانيننغ يقول : «لقد قمنا بهذه الاشياء بحالة فكرية مبتذلة ، غير متقنة ، أو حتى بلا وعي . وقد كنا غير مبالين بما كنا نقوم به . وحدثت الأمور ، فبذلنا جهدنا لكي نثبت على سروجنا» .

في بداية شهر أيلول جرت صفقة بيع أرضه في بول هيل . فطلب من بوكستون أن يسدد ما عليه للبنك وأن يستثمر الباقي بحيث يحقق فائدة ما بين سبعين إلى ثمانين جنيه في السنة ، ويزداد المبلغ مع مرور السنين» .

أمضى بضعة أيام من إجازته ، في ذلك الخريف ، في منطقة كليستون على الساحل الأسكتلندي . وكان واضحاً أن هذه الزيارة قد شكلت نوعاً من الضيق النفسي الذي كان يعاني منه ذلك العام . وقد أُسند إلى جون بروس ، الذي كان مسؤولاً عن عمليات أو عقوبات الجلد في سلاح المدرعات قبل بضع سنوات ، مهمة بتنظيم الروتين اليومي للسباحة والسباق . وفي نهاية مكوثه هناك ، حسبما أفاد به بروس ، فإن لورنس قد تلقى ضربة شديدة .

ويبدو هذا الفصل أو الحلقة إظهار آخر للسلوك غير العادي للورنس والذي أُشير إليه في الفصل الحادي والعشرين . فخلال السنوات المقبلة ، عمل لورنس على اخفاء نفسه في عدة أوضاع خاصة . فعلى سبيل المثال كان يكتب تحت اسم مستعار إلى مدرب سباحة أو سباق ، طالباً منه إعطائه دروساً خصوصية «لأبن شقيق له» ، كما كان يطلب إعطاء تقارير وافية عن التقدم الذي أحرزه «ابن الأخ» هذا ومدى سلوكه ؛ ولم يكن «أبن الأخ» هذا سوى لورنس نفسه . ولم تكن هذه الأنشطة تأديبية من الناحية الجسدية ، ولكن غالباً ما كان يلاحظ وترسل تقارير عنه . وكانت هذه التقارير تعاد الى العم الوهمي حيث لا يطلع عليها سوى لورنس نفسه» .

إن هذا العالم الخيالي الذي يمكن أن يوحي بأن لورنس كان غير متزن من الناحية العقلية ، لم يكن لينتابه في حياته اليومية وعمله . ويبدو من المحتمل أن هذا كان ناشئاً عن أشكالات معينة من التشوش والاختلال الماسوشيسي (العقابي) جراء عنف الاغتصاب الجنسي الذي عانى منه في درعا عام ١٩١٧ . وربما تكون هذه بديلة عن عمليات الجلد ، التي كان يلقنها لنفسه بين الفنية والأخرى ، أو ربما تكون عوضاً عن غرفة التأديب القاسية الموجودة في الثكنة ، والتي لم تعد مظهراً مهيمناً على حياته في الخدمة العسكرية .

بعد قضائه أسبوعا في أسكتولندا أمضى بضعة أيام في لندن ، ومن ثم عاد إلى جبل باتن (وهو الأسم الجديد لكيث ووتر) مساء الثاني من تشرين الأول . وبعد ثلاثة أيام سرت شائعات في المعسكر تقول بأن منطاداً بريطانياً جديداً تحت رقم (١٠١) قد سقط وتحطم . وكان يحمل أشخاصاً مشهورين عديدين . وعندما تأكدت هذه الأخبار ، كتب لورنس يقول : «كانت ليلة أمس فظيعة وقد حاولت متابعة ترجمة الأوديسة ، ومن ثم المطالعة ؛ بيد أن الرياح والمطر (فقد كنت ضمن طاقم المهام ، ومسؤولاً عن المراكب الراسية في كيث ووتر) منعت أي أمل في حدوث هدوء كما أن حادثة سقوط المنطاد لم تفارق مخيلتنا أبداً . فقد كنت أعلم بأن العديد من الاشخاص كانوا على متنه . وأتساءل عمن يمكن أن يكون قد أُنقذ منهم» . وكان من بين أولئك الذين قتلوا في هذه الكارثة اللورد ثومسون .

في بداية شهر تشرين الثاني تلقى فجأة مناشدة ملحة ومستعجلة من بروس روجرز بشأن ترجمة كتاب الأوديسة ، فقد بدأت التأخيرات تسبب صعوبات جادة له . ورد عليه لورنس بأنه سيحاول إنهاء ترجمة الكتاب بحلول شهر آذار ، وعزا ذلك التأخير إلى أوضاعه في سلاح الجو ، حيث لم يتوفر له أي وقت فراغ . وأنه سينجز ذلك ، بالطبع ، باسرع ما يمكنه من الوقت . لذلك فقد عاد للترجمة ثانية ، منشغلاً بها نحو خمس وأربعين ساعة أسبوعياً .

في الرابع من شباط صدف ان كان لورنس يقف على بعض الصخور الساحلتين لجبل باتن ، عندما رأى طائرة ركاب تابعة لسلاح الجو تتحطم في البحر بينما كانت قادمة للهبوط . فأسرع إلى أحد قوارب النجاة . إلا أن الطائرة غرقت في عرض البحر على

مسافة ستة وعشرين ميلاً وجرى انقاذ نصف الطاقم ، أما البقية فقد انحشروا في داخل الطائرة . ولم يكن بوسع طاقم الانقاذ سوى مشاهدتهم وهم يغرقون .

لقد سبب هذا الحادث حزناً ومرارة في جبل باتن . فقد كان قائد الطائرة المنكوبة ضابطاً كبيراً ، وهو قائد الجناح توكر . وكان قد رفض أن يسلم مهام الهبوط الى الطيار ايلي . فعلق لورنس على حادث تحطم هذه الطائرة قائلاً «إنه كان عائداً إلى القيادة السيئة لها ، وهو من جانب رجل (كما نعرفه جميعاً) لا يجب عليه أن يطير بطائرة ركاب . فهو لم يكن طياراً حربياً مؤهلاً لهذا العمل . ولحسن الحظ أنه قد مات في الحادث مع البقية» .

وكان من المأمل بعد انجلاء حقيقة هذا الحادث نتيجة لإجراء التحقيق اللاحق له ، أن تفرض أوامر وانظمة على الكبار الضباط بالتقيد بالتعليمات . وكتب لورنس إلى صديق له حول هذا الموضوع يقول : «لقد كان علي أن أُدلي بما شاهدته ، وما عنى ذلك بالنسبة لي . فأعتقد أن من الأفضل ألا يحدث مثل هذا الأمر ثانية ، ولدي حقائق كافية لمنع حدوثه ثانية ، إذا ما صُرح لي بالإدلاء بها» .

وإضافة إلى التحقيقات التي أجرتها وزارة الطيران في هذا الشأن ، فقد كان ثمة تحقيق عام في الحادث دعي إليه لورنس كشاهد فيه . وفي سياق التحقيق أثار عدة أشخاص شكوكاً حول كفاءة قائد الجناح توكر ، ونشر التحقيق كاملاً في الصحف . وعندما سُئل لورنس عما إذا كان هو شخصياً يعارض التحليق مع توكر ، أجاب بقوله : «إذا ما فرض علي أمر بذلك فإنه يجب أن أُطلق معه» .

«ولكنك لن تطير معه بخيار ذاتي منك؟» .

«لا ياسيدي ، إنها ليست مسألة خيار» .

لقد استغرق حادث تحطم الطائرة وما تبعه وقتاً طويلاً من لورانس ، لذلك فقد كتب في ٢٥ شباط إلى بروس روجرز يقول : «نتيجة لكل هذا لم يتح مجال للمضي في ترجمة الأوديسة . فأنا مازلت أعمل في الجزء الحادي والعشرين منها ، وسيستغرق العمل فيه حتى نهاية شهر نيسان ، إذا ما سارت الأمور على ما يرام بعد هذه الأيام العصيبة العشرة» .

الفصل الخامس والعشرون

المهام الأخيرة في سلاح الجو

شباط ١٩٣١ - آذار ١٩٣٥

أُرسل لورنس لاختيار مركب سريع جديد صممته ووضعته شركة القوارب البريطانية في حوض سفنها الموجود في هيث ، على الشاطىء الغربي لمياه ساوثامبتون . ففي ذلك الوقت ، هيمنت هذه الشركة الصغيرة على سوق المراكب السريعة في بريطانيا . وقد أنشأ هذه الشركة ، في عام ١٩٢٧ هيوبرت سكوت - بين ، أحد رواد صناعة القوارب البحرية السريعة البريطانية . وكان شغوفاً بالبحر على الدوام ، وطبق مهارته ومعرفته بالصناعات الجوية في هيث ، مطوراً أنواعاً جديدة من مراكب السباق الناجحة مثل المركب من طراز «ملكة جمال بريطانيا الثالثة» . وكانت قوته الضخمة الأخرى تكمن في عقد صفقات البيع ، فخلال شتاء عام ١٩٢٩ - ١٩٣٠ ، استطاع أن يضع سلاح الجو بأن شركته الجديدة قد صممت ووضعت قارباً جديداً يبلغ طوله ٣٧ قدماً ، أسرع وأرخص من القوارب التقليدية الموجودة آنذاك . وبعد إجراء بعض المشاورات طلب سلاح الجو قارباً تجريبياً بحجم ٣٧ قدم . وقد سجل من خلال التجارب التي أجريت عليه سرعة (١٧) عقدة تقريباً . فتقرر بعد ذلك ان تبدأ التجارب عليه مع سرب الطائرات البحرية .

كان سكوت - بين معنياً جداً بحجب هذه التجارب لأطول مدة ممكنة عن الشركات المنافسة لصناعة القوارب في سولنت ، لذلك فقد جرت الموافقة على أن يُرسل المركب الجديد ، المعروف باسم سلاح الجو ٢٠٠ ، لاختباره وتقييمه في بلايموث ولم يكن هذا الخيار مصادفة ، إذ إنه منذ أن أمتلك لورانس وسميث القارب بسكويت ، كانا يشكوان من بطء القوارب المستخدمة للعمل انذاك مع الطائرات البحرية . فقيمة القوارب السريعة في عمليات الانقاذ كانت قد ازدادت مؤخراً بعد حادثة تحطم المنطاد الايرلندي ، وكان لورنس قد قابل آنذاك الطيار بيوفورت جرين وود ، رئيس فرع المعدات البحرية في سلاح الجو البريطاني لهذا الغرض .

وعندما جرى اختيار الطاقم المختبر للنموذج الأصلي للقارب كان من الطبيعي أن يسأل بيوفورت - غرين وود عن لورنس ، الذي كانت خبرته تُعدّ فريدة في القوارب السريعة بين الرتب الصغيرة في سلاح الجو . فحماسته الشخصية بالنسبة للقوارب السريعة ستكون موضع تقدير ، وكذلك خبرته كميكانيكي ، وقدرته على كتابة التقارير المتعلقة بالمسائل الفنية بوضوح .

عندما جرى إجراء الاختبارات على القارب ٢٠٠ في بلايموث ، أُعيد إلى هيث ثانية ليجري وضع محرك جديد أخف فيه . وأُرسل لورنس إلى حوض السفن ومعه ميكانيكي التجارب ، العريف برادبوري ، لوضع هذه المحركات في القوارب وإجراء الاختبارات عليها لساعات طويلة .

لم يكن يتوقع لورنس أن يمكث طويلاً جداً في هيث ، إلاّ أنه انتقل من تجربة الى أخرى ، لذلك فلم يتيسر الأمر حتى السادس من حزيران حين أصبح القارب ٢٠٠ جاهزاً لإجراء تجارب أخرى عليه في «ماونت باتن» . وحتى ذلك الحين أُجري العديد من التحسينات والاختبارات على القارب .

وكتب بيونورت غرين وود إلى سيدني سميث يشكره على الدور الذي قام به لورنس في هذا المجال ، حيث قال : «اسمح لي أن أعبر لك عن عظيم تقديري وامتناني للمساعدة التي قدمها شو (لورنس) لفرعي في إجراء التجارب على القارب السريع لصالح سلاح الجو في هيث . ويمكنني أن أؤكد لك بأن المساعدة التي قدمت ، إضافة للتقارير ، كانت مفيدة جداً ، وأدت الى تزويدنا بمعلومات حديثة لأربع أو خمس سنوات قادمة في مجال البحرية . فمثل هذا التقدم كان مستحيلاً من دون المساعدة التي زودتنا بها ، لذا أقدم لك الشكر الجزيل حقيقة» .

ويبدو واضحاً من هذه الرسالة أن لورنس عُدَّ مسؤولاً ، وليس العريف برادبوري عن إجراء الاختبارات ، رغم أنه كان مجرد فني جوي بين صفوف سلاح الجو .

وفي نهاية شهر تموز ، وبعد سلسلة أخرى من إجراء التجارب ، أخذ لورنس إجازة لمدة ثمانية وعشرين يوماً . فقد كان مصمماً على إنهاء ترجمة الأوديسة ، كما أنه رتب لأن يقيم فترة أخرى في شارع باترون لهذه الغاية . فمن خلال العمل ليلاً ونهاراً

بالترجمة سيتمكن من إنهاء الكتاب بحلول الخامس عشر من آب .

وكان يتوقع أن يرسل إلى هيث عندما تنتهي إجازته ، لأنه قد جرى طلب ثمانية قوارب أخرى من نوع ٢٠٠ غير أن نشوب حريق في روش شركة القوارب البريطانية في شهر آب قد أتى على جميع القوارب باستثناء واحد منها فقط .

ومع توقف بناء القوارب بدا انه سيقضي عدة أشهر في ماونت باتن ، فكتب يقول : «آمل بأن أطالع كثيراً في هذا الشتاء ، وأن أستمع إلى بعض موسيقى الجرمافون (الحاكي) ، وأقوم بجولات على دراجتي ، فإنه من الجميل جداً أن أكون ملك نفسي ثانية طوال اربع وعشرين ساعة . فكل شيء سيكون جيداً تماماً ، كوني ملك نفسي . وآمل بأن يتم صدور كتب جيدة» . غير أنه كان قد وصل قارب جديد من نوع ٢٠٠ ، قبل أن ينشب الحريق في الشركة ، إلى ماونت باتن من أجل اجراء المزيد من التجارب عليه خلال شهر تشرين الأول .

وبعد ذلك بوقت قصير أصبح لورنس منهمكاً في إجراء التجارب على زورق سريع حجم ١٦ قدم ، وبحلول شهر تشرين الثاني أُرجع إلى هيث ثانية ، فوجد أن العمل منهكاً هناك ، فكتب إلى شارلوت شو يقول : «إننا نشغل الزوارق طوال ساعات النهار ، حتى نمسي متسخين ومنهكين وعيوننا ذابلة ، فإجراء التجارب على محركات الزوارق البحرية ، وخاصة الجديد منها ، يُعَد عملاً شاقاً وصعباً . فعمل يوم شاق يُعَد سالباً للراحة تماماً ؛ فما أدعوه بعدم الراحة ، هو ذلك بحد ذاته» . فقد خمن أو قدر أنه بإجرائه التجارب على هذه الزوارق الجديدة التابعة لسلاح الجو وكأنه قد قطع مسافة إلى نيويورك ذهاباً وإياباً .

وبمعزل عن الاستراحة القصيرة التي قضاها بمناسبة عيد الميلاد ، فقد كان على لورنس أن يظل في هيث . وتنبأ بحلول رأس السنة الجديدة أن يجري اختبار نوع جديد أو نوع آخر من الزوارق ، ويستمر ذلك حتى نهاية شهر نيسان أو أيار .

إن العديد من الرسائل التي كتبها خلال هذه الأشهر كانت تتعلق بمسائل فنية ، فمن الواضح أنه كان يعمل في حقل منحه رضا كبيراً . ففي الماضي ، كانت الحياة بالنسبة له مجرد ملاذ : إذ إن اهتماماته الرئيسة كانت في مجالات أخرى ، في القراءة ، والكتابة ، والمراسلات الكثيفة . أما الآن فقد أصبح ملتزماً بعمله شخصياً ، ليس فقط

لأنه كان عملاً جديراً ، ولكن لأنه كان يتمتع بتقديم المساعدة لحل المشكلات الفنية . وسرعان ما بدأ العمل بتأليف كتاب إرشادات وتعليمات تتعلق بالزورق ٢٠٠ ، وهو مشروع ظل يتنامى في نوعيته ، إذ يقول في هذا الصدد : «لقد حاولت أن أُلبي احتياجات ومتطلبات كل من صانعي ، ومركبي ، وكهربائي الزوارق في أمور الصيانة والتصليح كافة وكل شيء يمكن أن أتذكره في هذا الخصوص» . ولهذا فإن ملاحظاته حول ذلك سرعان ما وصلت إلى خمسة عشر ألف كلمة .

وفي أوائل شهر شباط كتب له جورج بروف عارضاً عليه صفقة مغرية جداً لاستبدال دراجته بدراجة جديدة من نوع س س - ١٠٠ . وجعل على هذه الدراجة الجديدة بعد ثلاثة أسابيع ، وكتب لبروف بعد ذلك معرباً له عن امتنانه لذلك : «إعتقد بأنها ستكون ممتازة جداً للقيام بجولات ونزهات بها . وقد انشده بها من رآها من الناس ، أما الآن فقد توقفوا عن النظر إليها بعد أن اتسخت : وربما من الممكن قريباً جداً ، إذا ما أتاح لي سلاح الجو وقتاً إضافياً ، إن استخدم هذه المسكينة (الدراجة) .

وفي الحقيقة لم يكن لديه سوى وقت فراغ ضئيل . فتتابع إنتاج الزوارق لتكون جاهزة لتجربتها خلال الربيع ، كما سيكون ثمة ، فيما بعد ، زورقان خاصان مبنيان على أساس فئة ٢٠٠ ومصفحان . وكان يتطلع قدماً لاختبارهما إن ، كما وُعد سيكونان «غريبين من نوعهما وملفتين للنظر» .

وبدأ بإجراء التجارب على الزورق الأول في شهر حزيران ، فوجده لورنس ناجحاً جداً «فخطرت لي أفكار جديدة في هذا الشأن ، بحيث من الممكن أن تبقيني لوقت أطول في اختبار الزوارق . فإذا ما فشلت عملية تجربتها ، أو أنها لم تكن مطابقة للطلب ، فانهم سيعيدوني إلى بلايموث وفقاً لذلك . بيد أن سرعة الزورق كانت (٣٦) ميلاً في الساعة وهذا يعتبر كافياً تماماً .

كانت الصحافة خلال شهر الاجازات في الصيف غالباً ما تتناول وتبحث عن القصص المبالغ فيها . ولم يستثن من ذلك صيف عام ١٩٣٢ . لذلك ففي منتصف شهر آب كانت توجد تقارير تفيد بأن لورنس قد ذهب في مهمة إلى التيبت . فكما لاحظ مسؤول بوازرة الهند : «خلال السنوات القليلة الماضية ظهر طيفه في كردستان ، وجنوب

إيران ، وأفغانستان ، واعتقد أيضاً في تركستان السوفيتية ، وفي الحقيقة في كل مكان تقريباً توجد فيه قلائل ومتاعب ، ويمكن أن تعزى هذه المتاعب إلى الخطط والسياسة الميكافيلية للحكومة البريطانية آنذاك . وإذا ما تجذرت الأسطورة بشكل أعمق وأمتدت جذورها وفروعها ، فمن المحتمل أن تبدو لا أخلاقية في منحاها تماماً» .

إلا أن هذا الهراء كان أقل أذى مما أثارته صحيفة صنداي كرونيكل ، فيما بعد التي نشرت مقالاً تحت عنوان كبير بارز في ٢٨ آب : الكولونيل لورانس : الرجل الذي يقف وراء عمليات تصنيع الطائرات ، والمركبات ، والزوارق السريعة ، يواجه مشاكل من حجم كبير» .

فتحت هذا العنوان كتبت مقالة هاجمت وزارة الطيران بقولها : «الكولونيل لورنس ، الذي كان مرة ملكاً غير متوج للصحراء العربية ، وهو الآن يعتبر ملكاً غير متوج لصناعات وسائل النقل السريعة ، الفني الجوي الملقب بشو ، يعيش الآن في كوخ صغير مبنٍ من القرميد في قرية هيث ، بالقرب من ساوثميتون . والسبب الحقيقي لتواجده هناك هو كونه يُعَّد خبير الحكومة للوسائل السريعة ، الرجل الذي يعتبر عقله الفولاذي من أعظم الأسباب الغامضة للسرعة ، سواء كان ذلك في الجو أو في البحر ، فهذا الفني الجوي شو مسؤول عن إزالة الاحتراقات الداخلية للمحركات . أما في الحقيقة فإن عقله كان يُعَّد ورشة اختبار مطلقة للحكومة كل المشكلات كافة التي تتعلق بالمحركات السريعة للطائرات والزوارق البحرية . فمن الشائع أن أكثر من نصف النجاحات التي حققتها بريطانيا في سباقات شنيدر تروني كانت عائدة للإبحاث التي قام بها ، ولم تكن هويته معروفة حتى لصاحبة بيته ، إذ كانت تعده شاباً غامضاً تماماً ، يختفي فجأة من غير سابق إنذار ، ويبقى بعيداً لأشهر ، وربما يظهر ثانية عند منتصف ليلة ما . وكان الفني الجوي شو يتولى تقديم التعليمات والإشارات الفنية للضباط الشبان .

وكان ارتباكهم مضحكاً من جراء ذلك . فهم لا يعرفون هويته دائماً ، غير أنهم يدركون أن رتبته الصغيرة جداً من الناحية الفنية تنم عن سلطة واضحة ، وأنه رجل على جانب عظيم من الأهمية بشكل واضح» .

وبما أن المقالة كانت مبتكرة بشكل واضح ، فإن ردة الفعل عليها كان يجب تجاهلها ، غير أن بعض الضباط فكر بشكل مختلف . فأثيرت الاحتجاجات داخل وزارة الطيران ،

وفي نهاية الأمر تقرر بأن يعاد لورنس إلى ممارسة مهامه العادية في بلايموث .ولم يعرف ذلك بشكل فوري ، لأنه كان قد غادر في ٣١ آب في إجازة لبضعة أيام . وكان أول شيء فعله أن ذهب لرؤية مسرحية جديدة لبرنارد شو آنذاك بعنوان «صحيح جداً أن تكون جيداً» . ولم تكن هذه المسرحية مشهورة بالنسبة للنقاد والجمهور ، إلا أنها كانت مسلية للورنس لأن شخصيته كانت متمثلة في الفصل الثاني منها بدور «الجندي ميك» وهو جندي يعرف كل شيء عما كان يجري أكثر من قائده . فقد قرأ لورنس خلال الأشهر السابقة مسودة هذه المسرحية وكان يمتع نفسه باستيحاء نوع الأمور التي يمكن أن يقولها ميك لرؤسائه .

وعندما عاد من هيث سمع بالتغير الذي طرأ على وضعه في سلاح الجو . وبالرغم من خنقه الأولي ، فإن هذا الاتقان بدا كتعويض للوهلة الأولى . فبعد العمل المضني لبضعة أشهر في اختبار الزوارق أصبح سعيداً بفكرة قضاء الوقت بالمطالعة ومراجعة المراسلات .

من بين الرسائل التي وجدها في بلايموث كانت ثمة رسالة تحتوي على دعوة من منظمة جديدة آنذاك تدعى الأكاديمية الإيرلندية للآداب ، يدعوه لقبول هذه الدعوة . وفي هذا السياق كان لورانس يتحدث دائماً عن كون إنجلترا وطناً له ، إلا أن الآلام كانت تتملكه عندما كان يشير إلى أن أسرة والده لم تكن من أصول إيرلندية . ورغم ذلك ، فقد ازداد إحساسه بالولاء لإيرلندا في السنوات الراهنة ، لأن شارلوت شو غالباً ما كتبت له حول مواضيع إيرلندية ، وأرسلت له عن أعمال كتاب إيرلندية . لذلك فقد رد على ييتس بقبوله لهذا الترشيح قائلاً : «إنني إيرلندي ، وتُعَدّ هذه فرصة للإقرار بذلك علناً ويجب أن تعلم بأنني على استعداد للقيام بأي شيء للإعراب عن هذا الشرف الممنوح لي . أشكرك ثانية ، وأنه ليس خطأي تماماً إذا لم أكن إيرلندياً في الصميم : فأسرتي والأحداث السياسية ، وحتى المال كانت تشكل عوائق اتعبتني في انجلترا على الدوام . وكنت أتمنى لو أنها لم تكن موجودة .

ازداد الإدراك العام بكتابات لورنس في بداية شهر تشرين الثاني ، عندما أصدر بروس روجرز ترجمة الأوديسة له . كما صدرت طبعة تجارية أميركية عن مطبعة جامعة إكسفورد ، وضع عليها اسمه . فلاقت نجاحاً مستمراً . أما طبعة إميري وولكر المحدود والتي

صدرت في إنجلترا فقد حظيت باهتمام بسيط من قبل الصحافة ، إلا أنها عُدّت مثالاً مهماً لإنتاج الكتاب .

بعد فترة بدأ لورنس يعاني لأنه لم يعد يسند له عمل بإجراء التجارب على الزوارق . ومن ثم أُصيب بالانفلونزا لعدة أسابيع . وغادر سيدني سميث «ماونت باتن» ، فلم يعد يوجد أمامه أي سبب معين للبقاء هناك . وبقلب مفعم بالأسى ، بدأ يفكر بترك سلاح الجو . وكان قد ألمح إلى ذلك في رسالة كتبها بعد خمسة أسابيع فقط من عودته إلى بلايموث ، إذ يقول فيها : «تنتهي خدمتي في سلاح الجو في ١٢ آذار ١٩٣٥ ، لذلك فإنه مازال ثمة بعض الوقت ، وأتساءل عما إذا كان بوسعي أن أخرج من الخدمة» ، وبدأ يتحدث عن مشاريعه عندما يتقاعد ويذهب إلى كوخه في كلاودز هيل . وقررت كل من والدته وشقيقه الأكبر العمل في بعثه تبشيرية في الصين ثانية ، لذلك فإن الكوخ سرعان ما سيخلو من ساكنيه . وخلال فصل الشتاء كلف بناءين للقيام بتصليح سقف الكوخ ، ودهن جدران غرفة الطابق السفلي بمادة عازلة للرطوبة ، والتي كانت تستخدم كمطبخ آنذاك كما تخلى عن خططه لإضافة غرفة للكتب بسبب وضعه المادي المتدهور . وقرر بدلاً من ذلك تركيب رفوف لهذا الغرض في الطابق السفلي .

وإذا ما أختار ترك سلاح الجو حينذاك ، فقد أصبح لديه دخل مضمون من الاستثمارات . ورغم أنه سيكون ضئيلاً ، فإنه كاف بالنسبة له . إضافة إلى أنه سيكون لديه مبلغ من المال لقاء ترجمته للأوديسة . كما أن عائدات الحصة الثالثة من الطبعة التجارية الأميركية كانت ستصل اليه في غضون ذلك .

فبدأ يفكر بتركيب سخان للماء في الكوخ وإضافة حمام إليه . وبينما كان العمل ماضياً في الكوخ لهذا الغرض فقد كان غير قابل للسكن فيه ، لذلك كان عليه المكوث في «ماونت باتن» . ورغم أنه وجد اهتماماً ضئيلاً في عمله بسلاح الجو آنذاك ، فإن لورنس لم يكن عاطلاً عن العمل . فلكي يشغل نفسه ، ويجني قليلاً من المال وافق على تحرير كتاب لحساب دار نشر كيب لكاتب غير معروف ، اسمه إيان تاير ، يدور حول تجاربه إبان الحرب في كل من سوريا وفلسطين . كما كان يشغل وقته أيضاً في مراسلة أصدقائه . فخلال شتاء عام ١٩٣٢ - ١٩٣٣ ، تبادل الرسائل مع كل من نانسي أستور ،

هيربرت بيكر، موريس بارينغ، جون بروني، روبين بوكستون، جوناثان كيب، ن. دوبلداي، إدوارد اليغار، الأمير فيصل، ديفيد وادوارد جارنت، روبرت غريفز، جيمس هانلي، ج. هانلي (ناشرون)، السيدة ثوماس هاردي، وايندهام لويس، ب نامير، ستيوارت نيوكمب، بروس روجرز، وليام روثنتستين، شارلوت شو، أ. وافيل، هنري ولياسون، واللورد ونترتون. فقد كانو لورنس يعلم بأن هذه الصداقات، التي أسهمت كثيراً في رضاه وقناعته بها، ولم يكن لها أي تأثير يذكر في حياته بسلاح الجو: إذ إنها ستستمر لو بقي في الخدمة أم لا.

وقبل عيد الميلاد مباشرة أبلغ لورنس بروس روجرز: «أن الكمية الكبيرة من مبيعات كتاب الأوديسة، كما تقول، تعني بأنني سأتلقى دفعة كبيرة من المال لقاء ذلك في شهر آذار القادم. كما أنه توجد لدي فكرة منذ وقت، أحلم فيها تبني تأليف كتاب مدرسي في الولايات المتحدة. فمطبعة إكسفورد هنا توفر دخلاً أفضل بالنسبة للكتب الغامضة أكثر مما يقدمه معظم الناشرين لرواياتنا. وهي تقوم ببيع الكتاب لمدة عشرين سنة، مما يوفر دخلاً للمؤلف بحدود مائة جنيه أو ما يقارب ذلك في السنة».

وفي منتصف شهر شباط حققت الطبعة الأميركية من كتاب الأوديسة نجاحاً فاق أقصى توقعات لورنس. فقد جرى بيع أحد عشر ألف نسخة منها، وأصبحت الطبعة الخامسة منه في المكتبات. وكان الناشرون يلحون عليه بأن يوافق على إصدار طبعة تجارية في إنجلترا، غير أنه كان يعارض ذلك باستمرار. فالمال الذي كان يكسبه لقاء نشر كتبه في أميركا كان أكثر من كاف لحاجاته ومتطلباته، وحتى إنه استطاع أن يجد مبلغ مائتي جنيه ليقدمه كمساعدة لصديق له كان يواجه الإفلاس.

كتب إلى بوكستون في السادس عشر من شباط يبلغه بأنه كان بصدد «إجراء تصليحات وتغيرات على كوخي، وذلك تلبية لحاجتي عند التقاعد، الذي ربما سيكون قريباً. فهذه المحطة (الكوخ) ليست سارة في الوقت الحاضر».

ورغم ذلك، فبعد أثني عشر يوماً، كان لا يزال يفكر بأن ينتقل إلى وحدة عسكرية أُخرى، إذ يقول: «مازلت أتساءل وأفكر بخصوص الانتقال، إلا أنه ربما قد لا يستمر ذلك سوى شهر، فأتقاعد بعدئذ وأتحول إلى الحياة المدنية بدلاً من ذلك».

إلا أنه ، في الحقيقة ، حسم أمره بعد أسبوع فقط ، ففي السادس من آذار قدم طلباً رسمياً لإخراجه من سلاح الجو على النحو التالي : «أنا الجندي إدوارد شو ورقمي ٣٣٨١٧١ ، أرجو أن تمنح لي مقابلة مع قائد الوحدة ، لأطلب منه المضي قدماً بتلبية طلبي لإعفائي من الاستمرار بالخدمة في سلاح الجو اعتباراً من السادس من نيسان ١٩٣٣» . إلاّ أنه بدأ يشعر على الفور بالاسف لهذا القرار فقد كتب إلى شارلوت شو يقول : «لقد عقدت العزم صباح هذا اليوم على أنه من الأفضل لي أن أُنهي ترددي الذاتي ، لذلك فقد تقدمت بطلب إعفائي من الخدمة في سلاح الجو ، وأصبحت متأسفاً على ذلك في الحال ، بسبب التغير والوحدة في العيش التي ستأتي فيما بعد . فسيكون انتقالي إلى كوخ كلاودز هيل ، حيث سأحاول المكوث هناك لأشعر بالراحة تماماً ثانية . ولا أدري كم من الوقت أستطيع العيش بمواردي ووسائلي الذاتية : إلا أن عوائد كتاب الأوديسة ضمنت لي ذلك حتى السنة القادمة» .

وافقت وزارة الطيران رسمياً على طلبه بالخروج من سلاح الجو ، ولكن بعد اتصالات مختلفة مع كبار الضباط كان لورانس شبه متوقع أن يعرض عليه عمل أكثر أهمية .

فقد كتب في الثالث من نيسان يقول : «اليوم هو الاثنين ، وتقاعدي تقرر يوم الثلاثاء ، ولم تظهر إشارة من وزارة الطيران فيما إذا كان علي أن أغادر أم لا . إنهما أناس غريبو الأطوار . فأنا على استعداد للمضي ، وقد قمت بنقل أشيائي كافة ، ما عدا ما أحتاج منها لبقائي المحدود . وقمت يوم السبت الماضي بارسال كتبي وأسطواناتي وملابسي وبعض الأدوات بسيارة شحن إلى كوخي ، الذي لا يزال تحت أعمال التصليح ، إلا أنه يبدو هادئاً رغم ذلك ، واعتقد بأنه سيكون ملاذاً لي» .

في الخامس من نيسان أفادت صحيفة الديلي ميل أنه قد غادر سلاح الجو إلا أنه بعد أربعة أيام ، أُستدعي إلى وزارة الطيران وقدمت له وظيفة في مؤسسة تجارب الطائرات البحرية التابعة لسلاح الجو ، في فليكستاو ، حيث سيتابع العمل ببرنامج بناء الزوارق باشراف شركة بيوفورت - جرين وود وما أن قبل هذه الوظيفة ، حتى حدد الأمر بتعيينه بعد يومين . ومن أجل تقليص خطر الدعاية والشائعات العامة ، فقد تقرر أن يرتدي مستقبلاً ملابس بسيطة كلما كان خارج عمل الوحدات التابعة لسلاح الجو .

وصل إلى فليكستاو في ٢٨ نيسان . وكانت مهامه الجديدة كما يقول : «مراقبة مصالح وزارة الطيران بوجه عام في أحواض وورشات الشركات المتعاقدة مع الوزارة خلال تصنيع الزوارق والقوارب البحرية ، والأنواع المختلفة من القنابل ، والمحركات ، والمعدات ؛ وذلك من أجل المساعدة في تحضير تقارير التجارب ووضع الملاحظات على إعداد وصيانة الأنواع المختلفة من الزوارق ، وكذلك في إنتاج زوارق ومعدات بوجه عام ، وخاصة السفن ذات السرعة العالية من أجل استخدامها في حوادث التحطم ، وإنقاذ الأشخاص ، وقوارب إنقاذ الطائرات الساقطة من الجو» .

في البداية أمل لورنس بأن يكون هذا العمل أقل مشقة من عمله السابق في مجال الزوارق . إلاّ أنه سرعان ما أُسندت إليه فيما بعد ساعات عمل إضافية أكثر مما تتطلبه مهمته في هذا المجال . إذ إنه بعد بضعة أشهر ، عندما بدأ سلاح الجو يفكر باستبداله ، تبين أنه يستلزم تعيين شخصين من أجل القيام بالعمل الذي يقوم به .

خلال السنتين الأخيرتين من عمله في سلاح الجو قام بتنقلات عديدة ، فكان يقوم بزيارات مختلفة لأحواض السفن ، وأماكن تصنيع المحركات وغيرها من الشركات المزودة . كما كانت توجد اجتماعات متكررة في وزارة الطيران بلندن . لذلك فلم يكن لديه سوي وقت فراغ ضئيل بحيث أضحت رسائله قصيرة وسريعة بشكل واضح ؛ وذلك لأول مرة منذ عام ١٩١٩ ، كما أنه تخلى عن أي نشاط أدبي . وكان قد أنهى تحرير كتاب إيان تاير في شهر آذار ، ورفض استلام أو البدء بأي عمل أدبي آخر ، مكرراً القول بأن مثل هذه المشاريع كلها عليها الانتظار إلى أن يترك سلاح الجو . كان غالباً ما يأخذ إجازة لبضعة أيام ، ولكن إذا ما كان قريباً من «دورست» فقد كان عليه أن يزور كوخه في كلاودز هيل في عطلة نهاية الأسبوع ، وهو يقول في هذا الصدد : «كنت أقوم هناك بدور الخزاف ، مثل أي كولونيل آخر متقاعد ، وأنجز أعمالاً صغيرة فيه هنا وهناك . ورغم أنه لا يلائم تماماً شهرتي السابقة ، فإنه يُعَّد جيداً بالنسبة لوضعي الحالي» . وكان آنذاك يجري ترتيبات لتزويد الكوخ بالماء من مصدر الماء الوحيد الذي يمكن الوصول اليه وهو جدول يبعد نحو مائة قدم عن الكوخ . ومن أجل جلب الماء إلى أعلى التلة فقد اشترى مضخة ليجري سحب الماء من الجدول الى الكوخ (حيث لم تكن توجد كهرباء في كلاودز هيل) .

إلا أنه لسوء الحظ أنخفض سعر صرف الدولار مع تقدم أعمال التصليح في الكوخ ،

لذلك فإن قيمة عائدات كتاب الأوديسة بالاسترليني قد انخفضت كثيراً إلى حد لم يكن يتوقعه . الأمر الذي اضطره إلى أن يقترض بعض المال بحلول الخريف لكي يفي بتمويل التحسينات الجارية آنذاك على كوخه في كلاودز هيل . إلاّ أنه قرر مع قرب نهاية العام أن يوقف تكليف شركة البناء بأعمال التصليح ، رغم أنه كانت توجد أعمال كثيرة يرغب في إنجازها . وعرض عليه بات نويلز ، وكان أكبر أبناء السيدة نويلز ، أن يقوم بهذه الأعمال لقاء أجر رخيص جداً .

في شهر نيسان ١٩٣٣ ، بدأ ليدل هارت أخيراً بكتابة مذكرات لورنس العسكرية ، والتي اقترحها الناشر كيب منذ ثلاث سنوات خلت . لذلك فقد طلب من لورنس خلال أشهر الربيع والصيف أن يجيبه على استفسارات مفصلة ، وكان أحياناً يطلب منه ذلك كتابة ، وأحياناً أخرى بشكل شفوي . وبعد ذلك أرسل له أجزاء من الكتاب مطبوعة على الآلة الكاتبة من أجل وضع التصحيحات والتعليقات عليها . وكان ليدل هارت ضليعاً ومجداً أكثر بكثير في هذا المجال مما كان عليه غريفز في كتابه عن لورنس ، كما أنه لم يكن مضغوطاً بمسألة الوقت (أي وقت تسليم الكتاب) . وكان بوسعه استشارة الضباط البريطانيين الذين خدموا في الشرق الأوسط خلال فترة الحرب ، كما أنه حصل على بعض الوثائق العسكرية في هذا الصدد . وسرعان ما أدرك لورنس بأن هذا كان عملاً تاريخياً خطيراً ، لذلك قدم كل مساعدة ممكنة إلى ليدل هارت .

وجرى هذا المشروع بشكل جيد حتى شهر آب ، حينما قرأ كيب مسودة الكتاب ، فطلب التخفيف من الأمور الحربية فيه وزيادة التحدث عن حياة لورانس . فاحتج لورنس على ذلك ، لدى كل من ليدل هارت وكيب على حد سواء ، ولكن من دون جدوى .

كانت توجد بضعة أيام راحة أخرى من العمل في سلاح الجو عام ١٩٣٣ ، بل أن عمله التجوالي منحه فرصاً لرؤية بعض أصدقائه ، إلاّ أنه على عكس ذلك ، كان يتجنب مقابلة العديد من الأشخاص الذين كانوا يرغبون في مقابلته . وعندما زار الأمير فيصل لندن في شهر حزيران ، التقى به لورنس ونيوكمب على الغداء ، وحضر اللقاء ، أيضاً ، الأدميرال سناج ، الذي كان يتولى قيادة الدوريات في البحر الأحمر إبان الحرب العظمى .

كان الأمير فيصل في الخمسين من عمره آنذاك ، بيد أنه كان يعاني من مرض القلب . فذهب إلى سويسرا للمعالجة ، ولكنه توفي هناك في الحادي عشر من أيلول . فكتب لورنس حول هذا الأمر بعد وقت قصير يقول : «أعتقد بأن الموت قد أراحه - فقد يبدو منظر السفينة جميلاً من خلال مظهرها إلاّ أنها غير قادرة على مواجهة العواصف ، ومع انخفاض ميزان البارومیتر فقد ذهب وخرج من ذلك سليماً» .

لم تكن لدى لورنس خطط فورية للقيام بمشاريع أدبية ، بيد أنه في بداية شهر كانون الأول كتب إلى شارلوت شو يقول : «لقد حدث لي شيء ما ليلة أمس ، بينما كنت أستلقي يقظاً حتى الساعة الخامسة صباحاً . فأنت تعلمين بأنني أما أن أكون في حالة كآبة أو استغراق في التأمل منذ عدة سنوات ، وقد تساءلت من قبل عما كان عليه وضعي في سلاح الجو ، إلاّ أنني لم أصل إلى أية نتيجة أما في الليلة الماضية فقد فهمت فجأة أنه كان علي تأليف كتاب يدعى «الاعتراف بالإيمان» ، أجد في كتاب «المصنع» ، كما أُضيف إليه الكثير من الأحداث التي تعرضت لها قبل التحاقي إلى سلاح الجو وبعده . وسيتضمن أيضاً التحدث عن خدمتي في كل من ميرانشاه وكراتشي ، وما تعنيه السرعة في كل من البر والبحر والجو . فقد أدركت خطة هذا الكتاب . وسيستغرق وقتاً طويلاً لإنجازه ، فإنهاء كوخ كلاودز هيل في المرتبة الأولى ، ومن ثم إنهاء عملي لصالح سلاح الجو ، حتى يمكنني تحقيق هذه الفكرة بشكل كامل ، فقد رسمت جميع خيوطها ، وأعتقد أن بوسعي إخراج كتاب متكامل . فكتاب «المصنع» ، كما تعلمين ، كان يتضمن ملاحظات ضيقة فقط عن الموضوع . وأتساءل عما إذا كان يفي بالغرض . كما أن أبناء جيلي يحتاجون حقيقة إلى مثل هذا العمل . على أية حال فأنا لن أبلغ أي واحد بذلك ، فهم سيعلمون بذلك بعد ثلاث سنوات من الآن» . وكان قد كتب حينذاك إلى صديق آخر له يقول : «عندما أغادر سلاح الجو ، وأدخل مرحلة الفراغ في كوخي ، فقد تدفعني الكآبة الى القيام بكتابة شيء ما لا أضع اسمي عليه» .

أمضى لورنس أسبوع عيد ميلاد عام ١٩٣٣ في كوخه بكلاودز هيل ، الذي كان جرى تزويده بمدفأتي حائط ، فأصبح دافئاً . وقضى معظم وقته في الطابق العلوي منه ، بالقراءة ، وكتابة الرسائل ، والاستماع إلى الحاكي (الجرامافون) . وكان يزوره بين فترة وأخرى وينضم إليه بات نويلز وصديق محلي آخر له .

وفي الثالث والعشرين من كانون الأول، وصل إلى الكوخ، بشكل غير متوقع، جوك شامبرز، الذي كان لورانس قد التقى به في فارنبورو عام ١٩٢٢. فأمضيا عطلة عيد الميلاد معاً يقومان بتنظيف الكوخ بعد أنتهاء العمال فيه، ويمشيان لمسافات طويلة، ويقطعان الحطب من أجل التدفئة. وفي عشية عيد الميلاد تشاركا ومعهما بات نويلز، في التهام دجاجة مشوية.

خلال عام ١٩٣٤ لم يكن لدى لورنس أي نشاط يقوم به سوى عمله في سلاح الجو. فكتب يقول: «إن هذه القوارب تشغل الكثير من وقتي. ورغم ذلك فعندما أقوم بالانشغال بها، أشعر بأنها ستكون آخر شيء ملموس أقوم به» في غضون ذلك، وبالرغم من التكاليف المرتفعة، فقد استمر العمل في كوخ كلاودز هيل (تلة الضباب). فجرى بناء خزان إضافي للماء، من أجل مكافحة الحريق، في شهر شباط، وبدأ بات نويلز ببناء سطح زجاجي فوقه. وقرر لورنس أن يوسع ذلك من أحد الجوانب ليوفر نوعاً من مستنبت زجاجي حيث يمكنه العمل فيه.

عادت الصحافة إلى الاهتمام بسيرته الذاتية بسبب ظهور كتاب ليدل هارت عنه في أوائل شهر آذار، وقد تنبه لذلك عندما بدأ صحافي في صحيفة الديلي اكسبرس بالتدقيق في أصله، مبيناً غموض هذا الأمر. وتحقيق من أن البيانات المتفرقة الموجودة تحت الطباعة أنذاك تقدم بوادر مفيدة لأن يكون بإمكان باحث ذكي أن يكتشف بسهولة علاقته بأسرة شابمان، ومن الممكن أن تنجم عن عملية البحث والتدقيق والكشف حقيقة لا تحتمل تماماً. ومع عدة أسابيع من دون الوصول إلى نتيجة، فقد علم بأن التوقف عن ذلك سيشمل جميع الصحف الرئيسة، وأن مسألة هويته الحقيقية قد تثار ثانية في أي وقت من الأوقات.

ونتيجة لذلك فقد ازداد تخوفاً من وسائل الإعلام، وساوره القلق في أواخر شهر نيسان عندما سمع من أحد الأوصياء على كتابه ثورة في الصحراء أن ثمة مشروعاً وشيكاً لتحويل الكتاب إلى فيلم سينمائي.

بحلول منتصف الثلاثينات قويت الأحزاب اليمنية المتطرفة في جميع أنحاء أوروبا ففي إنجلترا ظهر اتحاد الفاشيست البريطاني بزعامة أُزوالد موسلي. وكما في جميع هذه الحركات فقد أمضى بعض المنتسبين لها وقتهم في محاولة جذب الأشخاص المشهورين

إليها من أجل الحث على إقرار برنامجهم السياسي . ففي شهر أيار رفض لورنس دعوة غذاء أقامها الفاشيست ، معلقاً على ذلك بشكل طائش . «أريد من حركتكم أن تسرع في نموها ، وتضع نهاية لترخيص الصحف اليومية .

وستكون مفخرة للرقص بمناسبة التوقف الجماعي واندثار صحف الديلي اكسبرس ، والديلي كرونيكل ، والديلي هيرالد» .

وبما أن رده لم يبد سلبياً تماماً ، فقد حاول الفاشيست مرة ثانية . إلاّ أنه كتب بتصميم أكثر هذه المرة قائلاً : «إن السياسة في إنجلترا تعني إما القيام بتغيير عنيف (فلا يهمني تماماً أي شيء يقودني إلى ذلك) أو انتظار المرء عشرين سنة وهو يعمل بأقصى جهده ليصل إلى مجلس العموم . وأن أدنى موظف في الحكومة لديه سلطة أكثر من عضو في البرلمان (إذ إن عضو البرلمان لا يتقلد منصباً وزارياً) . لذلك فإنه لا يمكنني الخوض في السياسة .

وإنني آسف لاعتقادكم بأن الشباب الآن ينشئون وليس لديهم شجاعة وشخصية فقد خدمت حتى الآن مدة اثني عشر عاماً ونصف في سلاح الجو ، وقدمت تقريباً قلبي الذابل الذي أملكه (في سن الخامسة والأربعين) ، لزملائي هناك . وكانوا واضحين ومسرورين ، على ما أعتقد . فقد بدوا أنهم قد تمتعوا بالحياة أكثر بكثير من أبناء جيلي ، قبل خمس وعشرين سنة مضت ويجدر بي أن أدعوهم بالجيل الأنظف والأحسن . ولا يمكنني رؤية كيف أن أي واحد يحتك في الحياة اليومية مع زملاء العمل يمكنه أن يحمل أفكاراً كئيبة عن إنجلترا . لا ، أرجوكم أن لا تقدموا لي أي دور في ناديكم . فأنا على استعداد لتقديم أية خدمة كانت ، رغم انني تعب جداً : حتى من تقديم الخدمة» .

لذلك فقد باءت جميع محاولات الفاشيست البريطانيين من التقرب إلى لورنس بالفشل ، وحتى أن موسلي نفسه كتب فيما بعد يقول في هذا الصدد : «إنني لم أقابل لورنس ولا حتى اتصلت به ، رغم الشائعات العديدة التي انتشرت حول هذا الشأن . ولا أعرف أي شيء عنه سوى قراءة كتابه أعمدة الحكمة السبعة» .

في شهر تشرين الثاني تلقى لورنس عرضاً اخر يتعلق بمستقبله . إلا أنه كان أيضاً غير ملائم لمواهبه وطموحاته . فقد خطرت لمونتاغو نورمان ، محافظ بنك إنجلترا آنذاك ،

فكرة أن يوظف لورنس سكرتيراً ممتازاً للبنك . ولم يقابل نورمان لورنس أبداً من قبل ، بيد أنه طلب ذلك من صديق مشترك لهما ، هو فرانسيس رود ، ليقوم بدور الوسيط بينهما . ورفض لورنس العرض بإمتنان ولكن بثبات . وانتقل لورنس في ذلك الشهر إلى منطقة بريد لينفتون من أجل القيام بآخر مهمة له في سلاح الجو ، وهو الإشراف على صيانة شاملة لعشرة زوارق سريعة في فصل الشتاء . وكان يوجد الكثير من العمل بحاجة إلى الانجاز ، وكان الوقت بالكاد يكفي لذلك .

ومع اقتراب نهاية خدمته في سلاح الجو أصبح غالباً ما يشير في رسائله الى قلقه وشكه في المستقبل . إلاّ أنه لم يكتب عن ذلك بطريقة مستحوذة ، ولكنه ردد أفكاراً متشابهة للعديد من المراسلين الذين كتب إليهم .

كان عمله في السنتين الأخيرتين في مجال الزوارق متعباً ، فذكر الإرهاق كان يغلب على رسائله خلال عام ١٩٣٤ . لذلك فقد كان يعلم أن حاجته إلى الراحة فوق كل شيء .

كما أنه اعتقد بأنه سيكون من الغباء اتخاذ أي قرار رئيس قبل أن يحس بضرورته ، فهو يقول : «لقد عزمت على الاحتفاظ بتفكيري فارغاً حول مشاريع المستقبل ، إلى أن يأتي الوقت المناسب» . فقد كان الأصدقاء يغرقونه باقتراحات حول الأعمال الادبية ، والمناصب الحكومية ، وهلم جرا ، بيد أنه رفض التقيد بأي التزام . فإذا ما انتظر وقتاً طويلاً بما فيه الكفاية ، فإنه من المؤكد سيتقدم شخص ما بعرض يلائمه . أما بالنسبة للوقت الراهن ، فإن هذا لم يحدث بعد . وكتب في نهاية ذلك العام يقول : «إنني مازلت هنا قوياً واتمتع بفكر واضح ونظيف ، ولكن اليد قصيرة» .

وإلى أن يعرف ما كان يريده بالضبط ، فقد كان عليه أن يعيش في كوخه في كلاودز هيل ، واعتقد «بأن آخر شيء مرغوب فيه هو النشاط من أجل ذلك لأكون سعيداً تماماً بذلك . ولهذا فإنني لن أقوم بأي شيء حتى يصبح ذلك ضرورياً .

كانت هذه المرحلة الأولى من تقاعده تجربة متعمدة له . فقد كتب إلى كيب يقول : «لقد وعدت نفسي براحة ضخمة واختبار الوقت ، لأرى فيما إذا : (أ) أكون سعيداً من دون عمل أي شيء ، (ب) إذا ما أصبح لدي مال كافٍ من أجل ذلك . وإذا ما حصلت

على (أ) و (ب) فإنك لن تسمع المزيد عني . فقلبي يحدثني بأنني قد أنتهيت» . ورغم ذلك فقد كتب أيضاً يقول : «إن ايجاد نفسي خارج ما كان اطاراً ودعماً لي على مدى ثلاثة عشر سنة سيكون اختباراً لاستقراري ؛ وسنرى ماذا سيحدث . فأنا خائف جداً على نفسي ، إلى حد التعاسة» .

ويظهر سبب هذا الخوف في رسائل أخرى بعث بها ، فبالرغم من التحسينات المتقنة التي أجراها على كوخه في كلاودز هيل ، فإنه لم يكن متأكداً مما إذا كان بوسعه أن يتحمل العيش وحيداً هناك . فالخطر كان ، كما أبلغ بذلك شارلوت شو ، هو أية في أنه يجب عليه أن يعود إلى ذاته في عامي ١٩٢٠ و ١٩٢١ ، أي إلى مرحلة شبابه وقوته الفكرية فإنني آمل لو أنني لن أكون وحيداً مرة ثانية» .

وستكون المشكلة الأخرى نقص المال . وكان يأمل بأنه سيكون لديه مع حلول عام ١٩٣٥ دخل مستقر بحدود ثلاثة جنيهات في الأسبوع . ورغم ذلك ، فقد أنفق بسخاء على كوخ كلاودز هيل ، وفي مساعدة أصدقائه المحتاجين أيضاً . وأضحت معدلات الفائدة منخفضة على الإدخارات أنذاك ، ونتيجة لذلك فقد كان عليه العيش بخمسة وعشرين شلناً فقط في الأسبوع ، ويشكل هذا المبلغ نحو ثلث ما كان يفكر فيه . لذلك فسيكون هذا عجزاً حقيقياً تماماً . وكتب إلى فريدريك ماينننغ يقول في هذا الصدد : «بصراحة ، إن توقع عدم قضاء أوقات الفراغ في أمور بريئة يفزعني . ذلك لن يكون لدي مال كافٍ لقتل الوقت بالسفر وركوب السيارات وتوجيه الدعوات وتناول الوجبات» . وبما أنه سيكون غير قادر على تلبية متطلبات دراجته بروف ، فقد اشترى بدلاً منها دراجة هوائية .

في غضون ذلك كانت تتراءى في مخيلته عدة مشاريع : إذ يمكنه ، مثلاً ، الكتابة عن العمل الرئيس لسلاح الجو ، أو محاولة كتابة السيرة الذاتية لروجر كازمنت ، الوطني الايرلندي الذي شنقه البريطانيون بتهمة الخيانة في عام ١٩١٦ . وكان قد ذكر ذلك في أوقات عديدة لشارلوت شو خلال السنوات الأخيرة . أما الأمر الوحيد الذي كان متأكداً منه فهو أنه سيفتقد سلاح الجو ، الذي وفر له المأوى والعشرة والعمل المثير لمدة أثني عشر عاماً .

عاش خلال الأسابيع التي أمضاها في بريدلينفتون في فندق صغير أستؤجر من قبل سلاح الجو لأيواء الجنود خلال أشهر الشتاء . وأصبح صديقاً للملازم الطيار سيمز ، وكان ضابطاً متقاعداً يعمل كقائد مساعد في قاعدة تدريب تابعة لسلاح الجو تقع خارج منطقة بريد لينفتون وكان لديهما هواية مشتركة في التصوير وحب سماع الموسيقى الكلاسيكية . وسرعان ما أصبح لورنس يمضي معظم عطلاته الأسبوعية مع أسرة سيمز في كوخها بقربة هورنسي .

كان عليه في الحادي والعشرين من كانون الأول الذهاب إلى لندن من أجل حضور اجتماع في وزارة الطيران ، وذهب بعد ذلك لقضاء وقت قصير في كوخه بكلاودز هيل . وكان من المتوقع أن يأتي إلى هناك جوك شامبرز ، إلا أن رداءة الطقس منعته من ذلك . بشأن الكوخ ، وبتأسيس مطبعة صغيرة ، والتي كان من المتوقع أن يبدأ العمل بها في عام ١٩٣٦ . وكان مقرراً أن تبنى من طابق واحد فوق بئر الماء ، وأن يكون أول كتاب يطبع فيها هو «المصنع» بطبعة خاصة .

عاد في نهاية ذلك العام إلى بريد لينفتون ، إلاّ أنه ذهب في أواخر شهر كانون الثاني إلى الجنوب ثانية لرؤية الكسندر كوردا ، الذي كان مسؤولاً عن إخراج مشروع جديد لفيلم ثورة في الصحراء . فقد كان لورانس عازماً على إيقاف إنتاجه ، بكل ما يمكن من الوسائل ، ومن دواعي سروره أنه لم أجد صعوبة في ذلك ، حيث يقول : «لقد كان حساساً تماماً على نحو غير متوقع ، وبدا أنه كان متفهماً في الحال عندما أبديت أمامه عدم قناعاتي بذلك . وانهيت مناقشتي معه بالاتفاق على أنه لا يجب أن يحاول القيام بذلك من دون موافقتي ، لذلك فلا يمكنك أن تتصور كم كان هذا ساراً بالنسبة لي» .

ذهب بعد ذلك إلى فوردينغبريدج ، حيث جلس أمام الرسام أوغسطوس جون بزي سلاح الجو ، فرسم له صورة زيتية صغيرة ، ومن ثم رسم منها صورة أكبر تعادل ثلاثة أضعاف حجمها بقلم الفحم . وكان لورنس يحب هذا النوع من الرسم بشكل كبير ، فعمل على طباعة مائة نسخة منها لاستخدامها في كتاب «المصنع» المنوي إصداره .

تلقى في أواخر شهر كانون الثاني رسالة من روبرت غريفز ، الذي طلبت منه صحيفة التايمز أن يزودها بنبذة موجزة عن حياة لورانس تتكون من ألفي كلمة لتحفظ في ملفاتها للرجوع إليها عند الحاجة . وأقترح غريفز أنه لربما يرغب لورنس في كتابة ذلك

بنفسه ، واعداً بأن لا يعرف أحد بذلك . فخلال تلك الأسابيع الأخيرة ، كان لورنس يفكر في حياته بشكل عميق ، حيث كتب يقول : «إنني لا أعير أهمية كبيرة جداً لما قمت به في الجزيرة العربية خلال الحرب . وأشعر بأن التسوية الشرق أوسطية التي جرت من خلال ونستون تشرشل ، ويونغ ، ومن خلالي أنا في عام ١٩٢١ ، قد قُيِّمت بأنها أفضل بكثير من الحرب . وأشعر أيضاً بأن هذه التسوية يجب أن يُقيم بأنها أقل قيمة من حياتي منذ عام ١٩٢٢ . فمن أجل غزو آخر عنصر ، فقد بدا لي الجو (سلاح الجو) أنه المهمة الرئيسة فقط لجيلنا ، واقتنعت بنفسي ان مسيرة التقدم حتى اليوم لم تصنع من قبل عبقرية واحدة فحسب ، وانما بالجهد المشترك . فأنا أرى أن مثل هذا العدد الوافر من سائقي المركبات ، الذين يملأون جميع شوارع إنجلترا في كل ليلة ، هم الذين يبنون هذا العصر الميكانيكي . وإن رجال الجو ، الميكانيكيين والفنيين ، هم الذين تغلبوا على الجو وليس موليسونز وأورليبارز (الطياران الشهيران انذاك) ، ولا الغارات الذكية ، وانما الاشخاص العاديون الذين يعملون ويملكون . فمن أجل ذلك خدمت في صفوف سلاح الجو بأقصى جهدي وطاقتي ، وقد أثرت على زملائي في سلاح الجو لينفجروا بأنفسهم وبمهامهم غير المعلنة .

كان ذلك لمدة ثماني سنوات ، أما الآن ومنذ أربع سنوات فقد كنت محظوظاً جداً للمشاركة في الثورة الصغيرة التي قمنا بها فيما يتعلق بالتصاميم الزوارق والسفن . فعندما التحقت إلى سلاح الجو في عام ١٩٢٩ ، كانت تصاميم الزوارق بكل أنواعها من صنع الادميرالية البحرية ، أما الآن (في عام ١٩٣٥) فلا يوجد أي طراز من الزوارق من صنع البحرية . فقد أوجدنا ، واخترنا ، وأشتققنا أنواعا الخاصة من الزوارق والسفن ، التي بلغت سرعتها ثلاثة أضعاف سرعة سابقاتها ، وأقل وزناً وكلفة ، ولها مساحة ذات حجم أكبر ، وأكثر أمانة وسلامة ، وأكثر ملائمة للبحر .

ولا أدعي الآن بأنني قد صنعت هذه القوارب . فقد جرى تطويرها بالخبرة والجهد المشترك ، وبمهارات وأفكار العديد من الرجال . ولكن يمكنني الشعور (بصورة سرية) بأن الفرصة لإتاحة وجودها وقبولها تعود لي . فمن أجل اختراعها كان علينا صناعة محركات جديدة ، ومواد ومستلزمات جديدة أيضاً ، واستغرق الأمر خمس سنوات من الجهد المكثف والتقدم المنسق» .

ولم يذكر في رسالته أي شيء بخصوص انجازاته الأدبية أو طموحاته ، ربما اعتقاداً منه أن هذه الناحية سيتناولها غريفز في تقييماته الذاتية . ومن الممكن أن تتيح مشاعره الحقيقية من التصريح الذي أفضى به إلى إدوارد جارنت قبل بضع سنوات حيث يقول : «في المستقبل البعيد ، إذا ما قرر المستقبل البعيد أخذ تفاهاتي بالاعتبار ، فإنني سأُقيم نفسي أدبياً وليس كرجل أعمال» .

كان بضعة أشخاص إنجلترا فقط من الذين شاركوا في الثورة العربية يحبون الإبقاء على اتصال مع لورنس ، وعندما يكتبون له كان يرد عليهم بسرعة . أحدهم كان ن . بيومونت ، الذي خدم كمدفعي في سرية العربات المدرعة في الحجاز . ويبدو أن بيومونت .

كتب إلى لورنس أول مرة في عام ١٩٣١ ، حيث كان رد لورنس على رسالته يبين أنه لم يكن ثمة اتصال بينهما منذ الحرب . وكتب بيومونت إلى لورانس ثانية ، فرد عليه لورانس بثلاث رسائل ، كان آخرها في ٣١ كانون الأول ١٩٣٥ . ولم تكن هذه الرسائل على جانب كبير من الأهمية ، إلاّ أن الرسالة الأخيرة ذكر فيها أنه قد تقاعد من الخدمة .

بعد بضعة أيام من إرسال رسالته ، حُذر من قبل وزارة الطيران بأن أحد الصحفيين كان يقوم باستطلاعات حول تحركاته . ومن ثم نشرت صحيفة الصنداي اكسبرس في ١٧ شباط مقالة أقتبست منها فقرات من رسالته إلى بيومونت ، ذاكرة الموعد الذي سيترك فيه لورنس سلاح الجو ، وخططه التي وضعها للمكوث في كوخ كلاودز هيل بعد ذلك .

لقد نبهت هذه المقالة جميع الصحف على قرب تقاعد لورانس ، مع ما تتضمنه من نتائج بأن لورانس لا يمكنه البدء بتصور أنه كان يقوم بآخر أيام عمله في بريد لينفتون .

الفصل السادس والعشرون

مكوثه في كلاودزهيل

نيسان أيـــار ١٩٣٥

ساق لورنس دراجته خارجاً من بريدلينفتون في الخامس والعشرين من شباط ١٩٣٥ ، قبل خمسة أيام من التاريخ التي أعلنت عنه صحيفة الصنداي اكسبرس فقد كان بمقدوره الذهاب مبكراً لأنه لم يأخذ إجازته السنوية كاملة . وكتب ليلة مغادرته رسالة توبيخ معتدلة إلى بيومونت ، الذي كان عدم تعقله قد أثار ، لسوء الحظ ، اهتمام الصحافة بنشاطات لورانس ، وقال له : «إن مساهمتك جعلت رجال الصحافة يهرعون إلى بريد لينفتون ، أنهم كلاب صيد حقيقيون ، فأحذر منهم ، من أجل مصلحتك» .

فهل أن مغادرة لورنس لم تُلاحظ أو تنبأُ بها منذ بضعة أسابيع ، لكانت أخباراً تافهة ، لا تستحق الإشارة إليها . فكلما كان الحدث ، فإن الإشعار المسبق لتقاعده قد تحول إلى حدث إعلامي . فأصبح طريقه مليئاً بالصحفيين من كل جريدة شعبية ، مصممين على القيام بتغطية شاملة لأخباره (لورنس) من أجل التنافس فيما بينها .

وبما أنه سار بدراجته باتجاه الجنوب ، فلم يكن لورنس أدنى فكرة عن مدى الاستقبال الذي كان بانتظاره حال وصوله إلى كلاودز هيل . ولكن للوهلة الأولى ، وبسبب مغادرته المبكرة ، لم يكن رجال الصحافة قادرين على تحديد موقعه وكان قد عزم على زيارة فريدريك ماياننغ في لينكولنشاير ومن ثم الذهاب إلى كامبريدج ولندن . ورغم ذلك ، فقد علم بأن ماياننغ قد توفي . وبدت الأخبار تنحو منحى غريباً بالنسبة لمأزقه .

عندما وصل إلى كلاودز هيل وجد مشهداً أرعبه فقد كان الصحفيون والمصورون بانتظاره . فغادر ثانية على الفور متوجهاً إلى لندن ، حيث استأجر هناك غرفة باسم «السيد توماس إدوارد سميث» . ومن ثم ، واعتقاداً منه أن الصحافيين سيتعبون في نهاية الأمر من مراقبة كوخ كلاودز هيل ، فقد عزم على قضاء بضعة أيام ليتجول بدراجته في جنوب انجلترا .

إن اهتمام الصحافة غير المتوقع به كان يشكل مفصلة إضافية في لحظة قد يجدها صعبة جداً على أية حال . فعدم حبه لوسائل الإعلام كان يزداد باضطراد منذ عام ١٩٢٢ ، عندما كلفه ذلك خدمته في سلاح الجو حينذاك . لذا فإن الصحفيين المزعجين قد سببوا له صعوبات ضخمة في عام ١٩٢٩ ومرة ثانية في عام ١٩٣٣ ، إذ كشفوا عن سرية منزله الخاص الوحيد .

لقد أُصيب توازنه الفكري الهش بضربة شديدة من جراء ذلك ، وأضحى خوفه من الصحافة غير عقلاني تقريباً فالإحساس بكونه مستهدفاً أضاف إليه تعاسة أخرى مع مغادرته لسلاح الجو . لذلك فقد أصبح حزيناً مع أزدياد إحساسه باليأس ، كما أضحت رسائله تغلب عليها التعاسة بازدياد خلال الأسابيع القليلة التالية . ورغم ذلك ، فقد كان لا يزال قادراً على رؤية مأزقه من وجهة نظر عقلانية . لذلك فقد كتب إلى ت . ب . مارسون في السادس من آذار يقول : «إنني مختبىء الآن في لندن ، لأن الصحفيين يطوقون كوخي في دورست ، وإنني أشعر ببعض الخسارة وعدم وجود هدف وبالفتور . آه حسناً ، فإن هذا سيمضي» .

في الرابع عشر من آذار ، دفع خمسة شلنات اشتراك لمدة سنة في عضوية لمؤسسة نزل الشباب ، وتوجه إلى دورست ليستطلع الوضع في كلاودز هيل . وعندما وصل في اليوم التالي لم يجد هناك صحفيين ، فأرسل برقية إلى رالف ايشام ، الذي كان يزور انجلترا آنذاك ، يدعوه فيها ليأتي لزيارته ورغم ذلك ، فقد ظهر الصحافيون والمصورون ثانية في السابع عشر من آذار واخذوا يصرخون عليه بأن يخرج ويتحدث إليهم عند الباب فقط . وفي نهاية الأمر ، وفي حال من الهيجان الشديد تمكن من الهروب عبر باب خلفي مؤدي إلى الحديقة بعد أن ضرب أحد ملاحقيه من الصحفيين على عينيه . وسار بدراجته باقصى سرعة ممكنة إلى رومزي ليقضي فيها ليلته ، وليصل في اليوم التالي إلى لندن .

وبدا الأمر أنه كلما رجع إلى كلاودز هيل فإن الصحافة ستلاحقه . وسيكون الحل الوحيد للخلاص من ذلك استخدام ما تبقى من نفوذ له ، فناشد مباشرة اولئك الذين كانوا مسؤولين عن هذا الازعاج . لذلك فقد ذهب لمقابلة اتحاد الصحفيين ووكلات الانباء المصورة في لندن ، يرجوهم بأن يعيدوا رجالهم .

وعاد في بداية شهر نيسان إلى كلاودز هيل فلم يجد أي أثر للصحفيين وبدأ يحاول

الاستقرار وأبلغ صديق له بأنه كان «يأمل المكوث هنا لفترة من الوقت ، لأُنهي التحسينات الجارية على كوخي حتى يناسب ذوقي . وهناك سعادة (وانهماك) في ترتيب المساحة المحيطة به ، وأجد بأنني أُقضي اليوم برمته تقريباً في هذا العمل ، فأبدأ بعمل ما ثم انتقل إلى آخر ، اتركهما جانباً ، بعد أن أكون قد أنجزت جزءاً منهما . فالشعور بالوقت غير المحدود هو شيء جديد بالنسبة لي» .

بدأ بالاستقرار بعد بضعة أيام ، واتبع نظام حمية في غذائه ، كما بدأ باستقبال الاصدقاء ، قائلاً لهم : «اعتقد بأنني سأكون سعيداً ومرتاحاً هنا» . ووصل إلى هناك في اواخر شهر نيسان جوك شامبرز ، واعداً بأن يمكث أسبوعين ، وفي أيار كان سيحل محله م . فورستر ، وبعد ذلك كان لورنس يتوقع قدوم صديق من كرانويل .

في العشرين من نيسان ، وبعد ثلاثة أسابيع من دون التحرش من قبل الصحافة ، بدأ لورنس يستعيد توازنه . وبدأت الرسائل تصل من أصدقائه الأدباء ، وكانوا جميعهم راغبين في طرح اقتراحات مهمة . ورغم ذلك فإن الشيء الوحيد ، في ذلك ، الذي كان يشعر لورانس بأنه مؤكد هو أنه كان يريد البقاء في كوخه في كلاودز هيل . فكتب إلى بروس روجرز في السادس من آيار قائلاً بأنه كان يجلس في كوخه «مندهشاً أكتشف ما حدث لي ، وما سيحدث واشعر بالذهول فحسب في الوقت الراهن . واتصور بأن أوراق الأشجار لا بد انها تشعر بمثل هذا بعد سقوطها من على اشجارها إلى أن تذبل وتموت . فدعنا نأمل بأن لا تكون حالتي مستمرة على ذلك .

إن المال قليل جداً ، وهذه هي المفصلة الوحيدة على مايبدو ، حيث يمكنني العيش بذلك : ولكن هذا أمر سابق لأوانه ليحكم عليه الآن . فبعد بضعة أشهر فقط سأعلم بالتأكيد ما إذا كانت مدخراتي كافية أم لا . في غضون ذلك سأُمارس التقشف الشديد غير الممتع . كما أنني أعمل بما فيه الكفاية في تقطيع الحطب وتجميعه ، وفي أعمال البناء والصيانة للكوخ ، إلى حد ينهكني تماماً في وقت مبكر من العصر ، ثم استريح ، بتكاسل ، تحت الشمس ، اذا وُجدت ، أو أمام مدفأتي» .

علم بعد يومين بأنه كانت توجد فرص حقيقية للعمل في الحكومة . فبعد وقت قصير كان رئيس الحكومة آنذاك رامزاي ماكدونالد سيتقاعد وسيحل محله ستانلي بالدوين . فتلقى لورنس رسالة من نانسي أستور تقول فيها : «اعتقد بأنه عندما يعاد

تشكيل الحكومة فإنه سيطلب منك المساعدة إعادة تنظيم القوات المسلحة . وسأبلغك بما سأقوم به في هذا الشأن فوراً وإذا ما قدمت إلى كليفون يوم السبت ، وهو السبت الأخير في شهر آيار ، فإنك لن تأسف لذلك ، أرجوك ، أرجوك أن تأتي ، فستجد هناك كل من ليونيل (كيرتس) ، وبات (السيدة كيرتس) ، وفيليب (اللورد لوثيان) ، والأهم من ذلك كله ستجد ستانلي بالدوين . ففكر بذلك أرجوك» . ورد عليها بقوله : «لا ، فالمناظر البرية الخلابة لا تجعلني في الوقت الحاضر متشجعاً على مغادرة كلاودز هيل إنها جنة أرضية ، وسأمكث هنا إلى أن أشعر بالملل . كما أن ثمة شيئاً ما طرأ على نظرتي للعمل ، كما قلت لك : فرغبتي ، كما اعتقد ، وأنا في هذه الحالة لا تتحمل القيام بأي عمل لذلك تلزمني نفسك بالاتفاق عني ، خشية أن لا أنفذ ذلك» .

في الحادي عشر من آيار ، وكان يصادف يوم سبت ، تلقى لورنس رسالة من هنري وليامسون ، يعلن فيها بأنه سيتجه بسيارته «ديفون» إلى لندن في غضون ثلاثة أيام ، وأنه سيأتي إلى كلاودز هيل إذا ما كان الطقس جيداً . وأبلغه وليامسون بأنه كان يريد أن يترك عنده نسخة مطبوعة على الآلة الكاتبة من آخر أعمال م . يتيس غير المنشورة ، الذي أُعجب لورنس بشكل كبير بكتابه «الانتصار المُجنح» ، وهو كتاب يتناول المعارك الجوية التي جرت إبان الحرب .

كانت الطريقة الوحيدة التي يمكن أن يتأكد بها لورنس من وصول رده إلى ديغون قبل وصول وليامسون هو إرسال برقية . لذلك ففي منتصف صباح يوم الاثنين الموافق الثالث عشر من أيار اتجه لورنس بدراجته بروف إلى مكتب البريد الواقع في كامب بوفينفتون وأرسل من هناك برقية قصيرة جاء فيها : «سيكون الغذاء بارداً يوم الثلاثاء في كوخ جميل يبعد ميلاً واحداً فقط عن كامب بوفنتفتون» . وأرسل في الوقت نفسه رزمة من الكتب إلى جوك شامبرز ، الذي عاد إلى لندن آنذاك في طريق عودته إلى الكوخ ، وبينما كان يسوق دراجته بسرعة أربعين ميلاً في الساعة ، إعترضته فجأة دراجتان هوائيتان يسوقهما صبيان في وسط الطريق فأنحرف ليتجنبهما ، إلا أن إحداهن قد أصيبت وسقط راكبها من دون أن يصاب بجرح خطير . أما لورانس نفسه فقد سقط من دراجته بعنف إلى ساحة بعيدة وعندما وصلت النجدة ، نقل من هناك فاقد الوعي إلى مستشفى المعسكر في بوفنتفتون .

خاتمـــــة

عانى لورنس من تلف خطير جداً في المخ في الحادث ، فظل في غيبوبة لمدة ستة أيام ، فيما انهارت قواه تدريجياً وفي النهاية توفي في التاسع والعشرين من أيار ١٩٣٥ . ولو أنه عاش ، لأُصيب بالشلل التام ، وفقد الذاكرة أيضاً .

جرت مراسيم تشييع جنازته في كنيسة سانت نيكولاس في موريتون ، في الحادي والعشرين من أيار . وحمل النعش ستة من أصدقائه رافقوه في مراحل مختلفة من حياته . وكانوا على التوالي : رونالد ستورز ، أريك كينفتون ، العريف برادبوري ، الجندي راسل ، بات نويلز ، وستيورت نيوكمب . وكان من بين الحاضرين أيضاً . ونستون تشرشل ، نانسي أستور ، ألن داوناي ، اللورد ليود ، اللورد ونترتون . السير جون سالموند ، فيليب غريفز ، ليونيل كيرتس ، السيدة ثوماس هاردي ، أ . ب ، وافيل ، جوناثان كيب ، بروس روجرز ، ب . هـ . ليدل هارت ، أوغسطوس جون ، وسينغفريد ساسون .

وفي ذات اليوم نشرت صحيفة التايمز برقية من الملك جورج الخامس إلى شقيق لورنس ، جاء فيها : «لقد تلقى الملك ببالغ الحزن نبأ موت شقيقك ، وانه يتعاطف بعمق معك ومع أسرتك لهذا الفقدان الحزين .

إن اسم شقيقك سيظل يعيش في التاريخ ، كما ويعترف الملك ، بامتنان ، بخدماته المتميزة لبلاده ، ويشعر بفداحة المأساة أن تكون النهاية لحياة مازالت واعدة بالعطاء التام على هذه الصورة » .

مقتطفات من تأبينه

«ربما تكون أفضل كلمة لتأبينه هي ما جاء في رسالة بليني الى تاسيتوس : سعداء هم الذين يمكنهم القيام باشياء تستحق التسجيل ، أو يكتبون أشياء تستحق القراءة : والأعظم سعادة من هؤلاء هم الذين يقدمون كلا الأمرين» .

السير آرنولد ويلسون

«إنني لست شخصاً يجب إتباع الآخرين كثيراً ، أو مغرماً بالأبطال ، بيد أنني كنت على استعداد لإتباع لورنس إلى نهاية العالم . فقد أحببته لذاته ، ولأنه أيضاً بدا أن فيه إحياء لكافة أصدقاء شبابي الذين فقدتهم . وتتلخص عبقريته في عبارة أميرسون وهي أنها «من الطراز الأول وغير قابلة للانتقاص» . وأن أصله غامض وجوهرة لا يمكن تحديده ، لذلك فقد كان عبقرياً فريداً من نوعه ، لم اشهد مثله من قبل» .

جون بوشان

«أعتقد بأنه كان دائماً يشدد على فكرة أن يعيش حياة عائلية . ولكنه ، في النهاية ، عاش وحيداً وبشكل مرعب . إنه شكل أغرب اتصال ومعرفة في حياتي» .

شارلوت شو

ملحق رقم (١)

ملاحظات على نسب ثوماس إدوارد لورنس

نسب والده

هو ثوماس روبرت تابغه شابمان ، ولد في السادس من تشرين الثاني عام ١٨٤٦ . وكان الأبن الثاني لوليام شابمان (١٨١١ - ١٨٨٩) ومارثا لويزا فانستيارت .

تبدو المعرفة الأولى لتاريخ وعائلة شابمان قد أُخذت من كتاب لدبيريت . فوفقاً للطبعة التي صدرت من ذلك الكتاب في عام ١٩١٨ : «توطنت هذه الأسرة أصلاً في هينكلي ، بمقاطعة ليسستر شاير ، غير أن جون شابمان ، وشقيقه ويليام ، وتبرير من السير والتر راليف ، ابن عمها ، حصلا على هبات كبيرة من الأراضي في إيرلندا ، لذلك استقرا في تلك البلاد . وكان بنيامين ، ابن ويليام شابمان ، ضابطاً في سلاح الفرسان بجيش كروموبل ، فوهب لقاء خدماته قلعة وأراضي مقاطعة كيلوا ، وحصل على مقعد العائلة أحياناً في البرلمان . فقد حاز على مركز البارونية الثالث وأصبح عضواً في البرلمان عن مقاطعة ويستميث من ١٨٣٠ - ١٨٤١ . كما تسلم بنيامين جيمس البارونية الرابعة من ١٨٤١ - ١٨٤٧ ، وكان لورداً مساعداً لتلك المقاطعة . أما البارونية الخامسة فقد تولاها السير مونتاغو ريتشارد ، الذي كان شريفاً أعلى لمقاطعة ويستميث . كان شعار عائلة شابمان غريباً ولافتاً للنظر ، سواء في ذاته أم كتجسيد لحياة لورنس بعد الحرب العالمية الأولى وقد ترجم عن اللاتينية ، فهو يقول : «تزدهر الفضيلة تحت القمع» .

نشأ والد لورانس على حياة السيد مالك الأراضي ، في قصر دعي بـ ساوث هيل ، يقع بالقرب من قرية ديلفن بمقاطعة ويستميث . كما أمتلكت العائلة بيتاً في دبلن . ولا يجب أن تُقيم ثروة شابمان بالاملاك المتواضعة نسبياً في ساوث هيل (١٧٣ إكر من الأراضي) . فعندما بيعت أراضي العائلة في عام ١٩٤٩ كان مجموعها أكثر من (١٢٣٠) إكر ، موزعة على عدة مواقع . وأن أفضل بيان لثروة العائلة قدم بوساطة تقييم لوصية أملاك فرانسيس شابمان المصدقة ، عم لورانس ، الذي توفي عام ١٩١٥ . فقد قدرت بنحو ١٢٠,٢٩٦ جنيه استرليني ، اي ما يعادل ثلاثة ملايين جنيه في الأقل في عام ١٩٩٠ .

كما تظهر جميع المصادر بأن عائلة شابمان كانت تنتمي إلى طبقة ملاك الأراضي الانجلو - إيرلنديين رفيعي المستوى . وقد تزاوجت هذه العائلة على مدى أجيال متعاقبة مع عائلات ذات مستوى رفيع في كل من إنجلترا وإيرلندا . لذلك فقد كان لدى لورنس دماء إنجليزية من جهة أقاربه لأبيه ، من رجال انجلترا عديدين ينتمون إلى بيئات متميزة . فعلى سبيل المثال كان روبرت فانسيتار ، بارون فانسيتار فيما بعد ، ابن عمه من الدرجة الثانية .

تلقى ثوماس شابمان تعليمه في إتون (حيث تلقى هناك أيضاً شقيقاه تعليمهما) . وكان من المتوقع أن يدير ممتلكات العائلة . ومن الأعوام ١٨٦٦ - ١٨٦٨ درس في الكلية الزراعية الملكية في سيرنكستر . وانضم شقيقه الأكبر ، ويليام إلى الجيش وخدم في وحدة الفرسان الخامسة عشر ، غير أنه توفي في شهر أيار ١٨٧٠ لذلك حل ثوماس محل شقيقه الأكبر في إدارة ممتلكات العائلة ، كما دُرب شقيقه الأصغر على هذا العمل أيضاً . في عام ١٨٧٣ تزوج ثوماس من أديث ساره هاميلتون ، وهي تنتمي إلى عائلة اقطاعية أخرى في مقاطعة ويستميث . وأنجبا أربع بنات : إيفا جان لويزا (في عام ١٨٧٤) ، روس إيزابيل (١٨٧٨) ، فلورنس لينا (١٨٨٠) ، ومابيل سيسلي (١٨٨١) .

والدة لورنس

في وقت ما من أواخر عام ١٨٧٠ دخلت شابة اسكتلندية عُرفت باسم سارة لورنس أُسره شابمان ، وكانت مكلفة لتقوم بعمل مربية للبنات كما كانت مهنتها ، ومقدرتها وروحها المرحة موضع تقدير كبير .

كان هذا مناقضاً تماماً لتصرفات زوجة شابمان ، التي اتبعت صرامة عسكرية مصحوبة بتدين بازدياد مما جعل الحياة صعبة جداً بالنسبة لأولئك المحيطين بها . وتشهد معظم التخمينات بأن إديت شابمان قد أصبحت في منتصف ثمانينيات القرن التاسع عشر مرأة شديدة ومحبة للانتقام أخضعت عائلتها وخدمها لإداء الصلوات بصورة منتظمة ، ومنعت المتع والمسرات كافة حتى البريئة منها . وأصبح ثوماس شابمان بدوره ، في ذلك الحين ، مدمن كحول بكثافة وبسبب ما كان يعانيه من زوجته فقد وقع في حب سارة لورانس ، التي كانت تصغره بخمسة عشر عاماً .

وفي حين أن تاريخ عائلة شابمان موثق بشكل جيد ، فإنه لا يوجد سوى القليل جداً ما هو معروف عن سارة لورنس . فهي نفسها كانت أبنة غير شرعية ، ولدت في الحادي والثلاثين من آب عام ١٨٦١ في سوندرلاند ، بمقاطعة دورهام وسجلت باسم سارة جونر عند ولادتها . وكان اسم والدتها اليزابيث ، كما تظهر سجلات الإحصاءات الرسمية لسوندرلاند ، والتي جرت في شهر نيسان من ذلك العام ، أن اليزابيث جونر كانت تعمل في ذلك الوقت خادمة عند إحدى أسر ثوماس لورنس ، الذي كان يعمل مساحاً في «لويد» .

يمكن أن يكون ثمة شك ضئيل في أن سارة جونر كانت ابنة أكبر أبناء ثوماس لورنس ، جون . وتشير شهادة ولادتها إلى اسم جونر سواء كان ذلك متعلقاً بأسم والدتها قبل الزواج أو لكنية والدها . وبما أن الاسم كان غير عادي ، فهو يبعث على الفضول . ورغم ذلك ، فقد سجلت اليزابيث جونر في الاحصاء الرسمي قبل أربعة أشهر فقط من ولادتها على أنها خادمة غير متزوجة تعيش في منزل أسرة لورنس . وسجلت مهنة والد الطفلة في شهادة الميلاد كتاجر سفن متنقل ، إلا أنه قدم في الإحصاء الرسمي لعائلة جون لورنس على أنه كان نجار سفن . لذلك فقد سميت الفتاة باسم سارة ، وكان هذا اسم والدة جون لورنس (واسم إحدى شقيقاته أيضاً) . ومن الجدير بالذكر أن سارة جونز عندما كبرت استخدمت اسم لورنس بدلاً من أسم جونر . ومن الممكن أيضاً أن عائلة لورنس اهتمت بتعليمها ، بعد وفاة والدتها ، التي كانت مدمنة كحول .

في عام ١٨٦١ كشفت سجلات الإحصاء الرسمي بعض المعلومات القليلة عن والدي سارة لورنس . إذ اشارت إلى أن جون لورنس ولد في «شبستاو» عام ١٨٤٣ ، وكان والده ثوماس يعيش في «سوانسي» في عام ١٨٠٨ ؛ ووالدته سارة عاشت في «شبستاو» عام ١٨١١ . لذلك ، فإن هذا يظهر بأن سارة كانت شبه ويلزية (نسبة لمقاطعة ويلز) . وولدت اليزابيث جونر ، والدة سارة ، في اسكوتلندا عام ١٨٣٣ . وذكرت العائلة الملقبة بجونر في الاحصاء الرسمي الذي جرى عام ١٨٦١ ، بأنها كانت تعيش في سوندرلاند (١٤) بشارع هاملتون . وبما أن الاسم لم يكن عادياً فقد يبدو من المحتمل أن ذلك كان عنوان ذويها . فإذا ما كان الأمر كذلك ، فإن والدها كان هو جون جونر ، وهو رئيس بحارة متقاعد ولد في «فرانفيلد» بمقاطعة سوسيكس ، في نحو عام ١٨٠٧ . وأن والدته جين

جونر ، ولدت في «مونكوير ماوث» نحو عام ١٨١٣ .

أنهيار أسرة شابمان

في عام ١٨٨٥ ، أصبحت سارة لورنس حاملاً . لذلك تركت أُسرة شابمان لتعيش في غرفة استأجرها لها ثوماس شابمان في دبلن . وفي شهر كانون الأول من ذلك العام أنجبت طفلاً عُمد بأسم مونتاغو روبرت ، ووجد هذا في نسب (شجرة العائلة) شابمان .

ولمدة من الوقت ، استمر ثوماس شابمان في العيش في منزله ، فيما كان أيضاً يزور ساره وطفلها . ورغم ذلك ، اكتشفت السيدة شابمان في نهاية الأمر ، ما كان يحدث . وعندما واجه ثوماس بالاختيار ما بين زوجته وبناته أو التخلي عن سارة وابنها قرر الذهاب مع سارة وأخذهما بعد وقت قصير للعيش في تريمادورل بمقاطعة ويلز ، حيث انجبا هناك ابنهما الثاني في آب ١٨٨٨ ، وعمد باسم ثوماس إدوارد .

الوضع المالي اللاحق لثوماس شابمان

في الثلاثين من آذار من عام ١٨٨٨ ، وقع شابمان وثيقة تنازل بموجبها لشقيقه الأصغر فرانسيس عن رعاية ممتلكات العائلة طوال حياته (مع العلم بأن والدهما ، ويليام شابمان سيتلقى مبلغ مائتي جنيه سنوياً طوال حياته . ويبدو أنه قد أمتلك أيضاً بعد ذلك مبلغاً آخر من المال ، فوفقاً لإفادته وصل هذا المبلغ في بداية عام ١٩١٦ إلى أكثر من عشرين ألف جنيه روكان هذا المبلغ يكسب فائدة سنوية في ذلك الوقت بحدود ألف جنيه في السنة . وهذا الرقم الكبير يتناقض ما ادعاه لورنس فيما بعد بأن ذويه عاشا في ظروف مالية صعبة ، لذلك يبدو أن عائدات السيد (الأب) لورنس خلال طفولة أولاده قد تجاوزت في الحقيقة أكثر بكثير من أربعمائة جنيه في السنة ، التي تحدث عنها لورنس لليدل هارث ، كاتب سيرته الذاتية .

في عام ١٩١٤ ، أصبح السيد لورنس البارون السابع والأخير لعائلة شابمان ، فعندما أنفصل عن زوجته قبل عشرين سنة مضت ، كان من الصعب التنبؤ بأنه من الممكن أن يصل هذا اللقب إليه . فقد كان يحمله في ذلك الوقت عمه بنيامين شابمان ، الذي كان له ابنان آنذاك ، فورثا لقب البارون بالتناوب (أصبحا البارون الخامس والسادس على التوالي) إلا أنهما لم يكن لهما أبناء .

ومن المحتمل أن والد لورنس كان يتوقع أن أبناء سارة الخمسة سيرثون في النهاية حصصاً معقولة من ثروة شابمان . لذلك فلا بد أن يكون ظنه قد خاب عندما أورثه شقيقه الأصغر فرانسيس ، الذي توفي في عام ١٩١٥ وهو عازب ، (٢٥) ألف جنيه فقط من أصل ٢٩٦ ، ١٢٠ جنيه وهي قيمة عقارات شابمان (وكانت توجد مواريث منحت بموجب وصيته ، وهي عشرة آلاف جنيه ، إلى إدليد في دبلن ، و(٢٥) ألف جنيه وزعت ما بين بنات شابمان الأربع ، أخوات لورنس من أبيه ، وهن كل ما تبقى من الورثة) . وعندما تلقى السيد لورنس (لورنس الأب) مبلغ الخمسة والعشرين ألف جنيه ، قام بتخصيص جزء منه لأولاده . ففي رسالة بعث بها إلى (ابنه) لورنس جاء فيها : «يسرني القول بأن الظروف أتاحت لي أن أقدم لك ولبوب وآرنيه حصصاً متساوية لسندات مالية ، كما يجب علي القول بأن هذا المبلغ سيتزايد بقيمة أقل من الثلث ، إلاّ أنه لا يمكن أن يجعل أي واحد منكم ثرياً ، غير أنني مسرور جداً بأنه كان بوسعي أن أقوم بهذا الأمر ، فبامتلاككم لهذا المبلغ الآن سيمكنكم من أن تقرروا مستقبلكم بحرية بعد إنتهاء هذه الحرب» . وبين السيد لورنس بأن السندات المالية التي منحها لأبنائه الثلاثة ستوفر لهم دخلاً بحدود (٢٧٠) جنيهاً في السنة .

كارولين مارغريت شابمان

يتعلق آخر جزء من هذا التاريخ العائلي بشقيقة السيد لورنس ، كارولين مارغريت شابمان (عمة لورنس) . فقد تزوجت إبن عمها ، مونتاغو شابمان ، الذي كان قد أصبح ، آنذاك ، البارون الخامس لعائلة شابمان . وتوفي مونتاغو في عام ١٩٠٧ من دون أن يخلف أبناءً . وبعد أربع سنوات كتبت كارولين وصية قسمت بموجبها الممتلكات الموجودة آنذاك في مقاطعة كيلوا . فأورثت منها لشقيقها ثوماس (والد لورنس) مبلغ (٢٠) ألف جنيه ، إلاّ أنها خصصت مبالغ وممتلكات أكثر سخاءً لبناتها الموجودات في إيرلندا حينذاك .

أن هذه الحصة الكبيرة المنفصلة لبنات عائلة شابمان لم تترك شكاً بأن كارولين قصدت منها بأن مبلغ العشرين ألف جنيه الذي منحته للسيد ثوماس ، سيصل في نهاية الأمر إلى أبنائه . ومن غير المعقول الافتراض بأنه كان يعلم بهذه الحصص التي منحت للبنات ، وأنه قد بحثها مع سارة لورنس . فإذا ما كان هذا الحال ، فإنه من الممكن تخمين واستنتاج بعض الملاحظات غير المفسرة في رسائل لورنس .

كانت كارولين مارغريت شابمان مريضة بشكل خطير لعدة سنوات ؛ وقد وقعت ملحقاً لوصيتها في شهر أيار ١٩٢٠ ، وكان وعليه إشارة الصليب وتوقيع اثنتين من الممرضات . توفيت كارولين في عام ١٩٢٠ ، بعد بضعة أشهر من وفاة والد لورنس . وبما أنه قد توفي قبلها فإن إرث العشرين ألف جنيه لم ينتقل إلى أولاده بل إلى الوريثات الشرعيات لكارولين بموجب وصيتها : وهن بنات شابمان الأربع .

ويبدو من المحتمل أن لورنس بعد وفاة والده ، قد علم من والدته بهذه التركة (الإرث) ، وهذا ما يفسر إشارته في رسالة بعث بها إلى اريك كنينفتون في ١ - ١٠ - ١٩٢١ يقول فيها : «إن مبلغاً من المال كنت أتوقعه لن يأتي (أو من المحتمل أن لا يأتي)» . وأن فقدان الإرث قد يفسر أيضاً المرارة التي كان يشعر بها لورانس تجاه عائلة شابمان ، وقد أشار إلى هذا في مذكراته التي كتبها ليدل هارت بقوله : «يبدو أن عائلة الوالد لم تكن معترفة بأبنائها ، وحتى بعد موت ابنها ، وما قد يحققه أبناؤه من مجد وفخر لاسم العائلة» .

وإذا لم يكن لورنس يعلم بإرث عمته لوالده (ويمكنني أن اكتشف بأنه لم يكن ثمة مبلغ آخر من المال كان يتوقعه آنذاك سوى المبلغ) ، فعندئذ لن يكون أمراً مستغرباً إنه كان عليه سابقاً دفع مبلغ ثلاثة آلاف جنيه من إرثه السابق لجانيت

ملحق رقم (٢)

دليل جديد «مزعوم» يتعلق بحادثة درعا

بعد بضعة أشهر من ظهور الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، ظهرت سيرة ذاتية للورانس مثيرة للجدل هي : المحارب الذهبي ، بقلم لورنس جيمس (ومن اصدار ويدنيفيلد ونيكولاس ، ١٩٩٠) . وقد صدر تصريح صحفي مسبق يعلم المطلعين بأن جيمس «يقدم دليلاً موثقاً على أن لورانس قد لفق قصة أغتصابه جنسياً وتعذيبه في درعا» . فإذا ما كان ذلك صحيحاً ، فإن هذا الاكتشاف سيكون على جانب كبير من الأهمية ، وينفي الاتهامات المتعلقة بالشرف التي روجها المنتقصون من سمعة لورنس منذ منتصف الخمسينات .

ففي صفحة ٢١٤ من كتاب المحارب الذهبي ، كتب جيمس يقول : «يبدو من المؤكد تماماً أن لورنس قد فبرك حادثة درعا» . وأن هذا التأكيد استند إلى دليل واحد موثق وهو أن : السجلات اليومية للشعبة السيارة العاشرة لمدفعية الميدان الملكية ، وهي وحدة بريطانية كانت متواجدة في العقبة ، تشير ، حسب جيمس ، إلى أن لورنس والكولونيل جويس كانا يقومان في ٢١ تشرين الثاني ١٩١٧ (وهو نفس التاريخ الذي أُشير إليه في كتاب أعمدة الحكمة السبعة حول حادثة درعا) ، بعملية استطلاع بعربة مدرعة في وادي اليتم ، الذي يبعد عدة أميال عن درعا .

إن يوميات الحرب يجب أن تسجل أو تكتب عند وقوع الأحداث مباشرة ، بيد أن يوميات مدفعية الميدان الملكية قد جمعت بعد ستة أشهر ، أي في الأول من أيار ١٩١٨ . وتقدم الصفحة وصفاً لتشكيل هذه الوحدة العسكرية ومغادرتها السويس على متن السفين «اوزادا» التي وصلت إلى العقبة ، حسب هذه اليوميات ، في ٢١ تشرين الثاني . إذن فذلك التاريخ يعتبر خطأ بشكل ظاهر ، حيث يظهر سجل سفينة الحراسة هامبر التي كانت راسية في العقبة آنذاك - وفق مصدر صحيح وموثوق - أن السفينة «أوزادا» وصلت إلى العقبة في الساعة ٧,٢٥ صباحاً من يوم ٢٠ تشرين الأول ، وبدأت بتفريغ

حمولتها في الحال . وبما أن هذا يظهر أن ثمة يوماً أبكر من التاريخ المقدم من قبل الملازم برودي في يوميات وحدة مدفعية الميدان الملكية ، فإنه ينفذ أيضاً حجة جيمس (في الصفحة ٣٨٦ من الكتاب) بأن تواريخ تحميل وتنزيل الوحدة العسكرية المذكورة غير المحتمل أن تنسى في الأغلب» . فمثل هذا الخطأ ، الذي كتب بعد ستة أشهر ، لا بد أن يضع شكوكاً في دقة ذكريات برودي التي كتبت بعد عشرين سنة خلت ، في كتاب «ثوماس ادوارد لورنس من قبل أصدقائه» (من إصدار دار كيب للنشر في عام ١٩٣٧) . وهناك ، كما أشار برودي ، قابل لورانس لأول مرة في صباح اليوم الثاني من يوم وصوله الثاني إلى العقبة (الذي لا بد أنه كان في ٢١ تشرين الثاني) . فأي شخص يمكنه التسامح مع عدم الدقة هذا بعد هذه الفترة الفاصلة من الزمن . لذلك فإن إفادة برودي في كتابه لا يمكنها أن تعامل على أنهاء دليل ما لم تؤكد وتثبت من قبل مصادر معاصرة لذلك .

على رأس الصفحة الثانية ليوميات وحدة مدفعية الميدان الملكية ، وكما هو معتاد ، كرر برودي آخر تاريخ موجود على الملف السابق وهو : ٢١ - ١١ - ١٩١٧ . وكان يوجد نص يتكون من ثمانية أسطر تصف سلسلة من العمليات ، كما يلي : «تنفيذ عملية استطلاع قام بها كل من الكولونيل جويس والكولونيل لورنس في وادي اليتم . تنفيذ عملية استطلاع قام بها الميجر ميانارد في وادي عربة مقابل البحر الميت . وصلنا الى نقطة تبعد خمسة أميال شمال غرب عين غرندل ومن ثم عدنا . واستخدمت العربات لنقل التموينات والأفراد ، ومن ضمنها تموينات وأفراد الشريف فيصل ، إلى كل من القويرة ، وادي اليتم والمزيعة . كما كانت توجد مجموعة من الجنود في وادي اليتم تقوم بشق طريق» . وبعد هذه الفقرة كان التاريخ الموضوع في اليوميات يشير الى ما بعد شهر تقريباً وهو ، ٢٥ - ١٢ - ١٩١٧ ، عندما غادرت وحدة مدفعية الميدان الملكية حدود العقبة إلى مقر قيادة الأمير فيصل في الداخل .

وحتى من النظرة الأولى ، ولا يبدو سجل برودي للشهر الأول من مكوث الوحدة في العقبة إلاّ كونه تلخيصاً للأحداث ليس اكثر ، ومن الصعب لأي شخص كان أن يمكنه الأخذ بذلك ليقدم معلومات دقيقة حول تواريخ عمليات الوحدة .

ورغم ذلك ، فإن فحوى الصفحة المشار إليها يُعَد غامضاً من الناحية الفنية : فمن الممكن أن يعني ذلك أن العمليات المذكورة كافة في الأسطر الثمانية الأولى قد حدثت في يوم واحد فقط - وهو ٢١ تشرين الأول - ولم يحدث أي شيء يذكر لمدة شهر . وهذا هو الادعاء (وهو مستحيل من الناحية المادية) الذي جاء به جيمس في تفسيره الحرفي للموضوع .

أما وجهة النظر الأكثر معقولية فهي أن هذا الجزء السارد للأحداث في دفتر السجلات اليومية يذكر العمليات التي وقعت ما بين وصول وحدة مدفعية الميدان الملكية إلى العقبة في ٢١ تشرين الأول (تقريباً) ومغادرتها للمنطقة في ٢٥ كانون الأول (تقريباً) . وقد اتفق جميع المؤرخين الذين استشرتهم على أنه بعد أية رحلة بحرية بوساطة سفينة شحن ، فإن الوحدة العسكرية المنقولة تحتاج أيام لتستقر على البر قبل مباشرة أي نوع من العمليات ، لذلك فإنه من المستحيل عملياً أن تبدأ الوحدة بعملية استطلاع في وادي اليتم بعد يوم واحد فقط من وصول السفينة اوزاردا إلى العقبة . إضافة إلى ذلك ، فإنه لم يكن ثمة أية عجلة أو الحاح للقيام بحملة الاستطلاع هذه .

إن تاريخ عملية استطلاع وادي اليتم يمكن أن يُثبت ويُؤكد بالبحث عن سجلات أخرى تكون معاصرة بشكل صحيح لتلك الأحداث . فيوميات لورنس الجيبية (وهي موجودة الآن في المكتبة البريطانية) تظهر بأنه قد عاد إلى العقبة بعد وقت قصير من حملته الشمالية سيئة الطالع في ٢٦ تشرين الثاني (بعد وقت قصير ، في الحقيقة ، حسبما جاء في كتاب أعمدة الحكمة السبعة) . ثم غادر في اليوم التالي ، وأمضى بضعة ليالٍ في وادي اليتم ووادي حواره ، ومن ثم رجع إلى العقبة في الثالث من كانون الأول . فماذا فعل في الفترة الفاصلة؟ فقد كتب إلى اسرته في الرابع عشر من كانون الأول بأنه قد أمضى بضعة أيام «أقوم بالرصد والاستطلاع على التلال وفي الوديان من أجل إيجاد طريق باتجاه الشرق لعرباتنا» . إن هذه المعلومات تتفق في تسجيلتها مع اليوميات الحربية لوحدة مدفعية الميدان الملكية ، وما عدا التاريخ المدون في ٢١ - ١١ - ١٩١٧ ، فإن عملية الاستطلاع تظهر بأنها بدأت في ٢٧ تشرين الثاني (وهو الوقت الذي كان من الممكن أن تتمكن فيه الوحدة من توطيد نفسها على البر) وانتهت بعد أسبوع .

إن تواريخ عملية الاستطلاع هذه لا تستند إلى بينة لورنس وحدها : فغياب سبعة أيام عن العقبة يثبت حقيقة أن جويس ، الذي رافق لورانس ، لم يرسل برقيات خلال هذه الفترة وأن البرقيات المنتظمة التي أُرسلت من قبل جويس إلى القاهرة وجدة تقدم برهاناً مطلقاً أن لورانس لم يرجع إلى العقبة في ٢١ تشرين الثاني . وقد كان رؤساء لورنس في القاهرة قلقين جداً للاخبار الواردة عنه ، إذ إن العملية التي قام بها خلف خطوط العدو في الشمال عُدَّت شبه انتحار . فقد كتب كلايثون إلى جويس في ٢١ تشرين الثاني يقول : «إنني قلق جداً من أجل الحصول على أخبار عن لورنس لأسمع أنه سالم» . فإذا ما رجع لورنس إلى العقبة في ٢١ تشرين الثاني ، كما يشير جيمس ، فإن برقيات جويس ليومي ٢٢ ، ٢٣ تشرين الثاني تكون قد ذكرت الحقيقة بالتأكيد . ورغم ذلك ، فإنها لا تتضمن أكثر من تقرير صدر عن مصادر عربية تقول بأن لورنس وعلي بن الحسين قد هاجما حينذاك خط السكة الحديد الواقع ما بين درعا والقدس . وكانت المعلومات المحدودة الأولى التي أمكن لجويس أن يرسلها مؤرخة في ٢٤ تشرين الثاني ، بعد رجوع الملازم وود ، ضابط البحرية الذي اشترك في المهمة الشمالية ، إلى العقبة ، ومن الممكن أنه كان يحمل تقريراً مفصلاً من لورنس إلى كلايتون ورسائل أُخرى .

وقد جاء في برقية جويس ما يأتي : «غادر لورنس إلى الأزرق ، فوجد أن تحقيق الهدف الأساسي يُعَّد مستحيلاً . وفي السابع من تشرين الثاني دمر لورنس قطاراً . بمحركين . وسبب هذا خسائر فادحة للأتراك» وتنسجم هذه البرقية مع تواريخ يوميات لورنس ، وأيضاً مع التسلسل الزمني الذي ذكره في كتاب أعمدة الحكمة السبعة .

ومن الممكن أن يوجد هذا التقرير في وزارة الحربية البريطانية بمكتب السجل العام وتحت رقم ١٥٨ / ٦٣٤ - وهو ملف راجعه جويس بوضوح ، إذ إن مراجعه تشير إليه بأنه مصدر لوثائق عديدة أُخرى .

كان جويس ضابطاً يتمتع بمسؤولية عالية ، فإذا ما كان قد أمضى يوم ٢١ تشرين الثاني مع لورنس ، فمن غير المعقول أنه لم يقم بإعلام كلايتون بأن لورنس كان سالماً . وإذا ما قام بذلك فإن المعلومات التي أُرسلت من وود في الرابع والعشرين من تشرين الثاني يمكن أن تكون زائدة تماماً . وأن النشرة العربية الصادرة في الخامس من كانون الأول

لم تسجل أو تذكر في جزء «الأخبار اللاحقة» فيها بأن «الميجر لورنس قد عاد إلى العقبة في بداية شهر كانون الأول» . لذلك فإنه لا يوجد سوى استنتاج واحد ممكن وهو : بما أن نص الملازم برودي في يوميات وحدة مدفعية الميدان ، الذي كتب بعد ستة أشهر ، يُعَد غامضاً ، فإن التفسير الذي قدمه جويس في كتابه «المحارب الذهبي» يظهر بأنه غير صحيح بسبب الوثائق الموثوق بها ، والتي تعتبر معاصرة تماماً للأحداث .

لقد أبرز ناشرو الكتاب مؤلفه لورنس جيمس بأنه ذو خبرة عظيمة ، وذلك وفقاً لما جاء على الغلاف الورقي لجلد الكتاب ، بأنه كان عضواً مؤسساً لجامعة يورك ، حيث درس التاريخ واللغة الانجليزية ، ومن ثم باشر القيام بأبحاث في كلية ميرتون بجامعة إكسفورد للحصول على درجة علمية . إضافة إلى ذلك كتب فيليب ناتيلي في صحيفة انريندث في ١٩ آب ١٩٩٠ يقول : «من غير المحتمل أن يكون لورنس جيمس مهاجماً ومحطماً للمعتقدات أو المؤسسات التقليدية ، فهو مؤرخ ، وقد درس في جامعتي يورك وإكسفورد ، حيث بحثت كتبه السابقة ، بدقة ، في تواريخ بريطانيا الامبريالية» . ولكن كيف يمكن لأي مؤرخ جاد أن يدقق ويعاين مثل هذا الدليل الواضح في حين يحقق في ادعاء لعين بأن موضوعه كان كاذباً؟ ويمكن أن يكون الجواب مطروحاً في مقالة فيليب ناتيلي التي تقول : «يقول جيمس على الدوام بأنه مهتم بسيرة لورنس ، إذ أورد في مقدمة الفصل الأول عن حياة لورنس ما يأتي : «لقد ولدت في بلد غربي وتعرفت ، على مدى السنوات ، على عدد كبير من الأشخاص . وبدأت أتساءل أين تكمن الحقيقة ، وعندما قرزت بما فيه الكفاية تحققت من أن لورنس كان الرجل الوحيد الذي جعل من نفسه أسطورة في هذا القرن . وعرفت بأنني سأكتب كتاباً عنه في يوم ما» . ويستطرد ناتيلي قائلاً : «وشهرت بأن تقييم لورنس جيمس لم يكن صحيحاً بيد أنني لم أجد بداً من أخذ هذه الحجة بحد ذاتها . ومن ثم فقد ضرب جيمس بعرض الحائط عندما زور يوميات الحرب وتقارير الاستخبارات في تلك الفترة» . وبمعنى آخر ، فقد كان جيمس مدعياً منذ البداية بأن لورنس كان كاذباً ، كما أن تفسيره الخاطىء ليوميات المجموعة العاشرة السيارة التابعة لوحدة مدفعية الميدان الملكية يظهر فحسب كم من السهل على الباحث أن يتعالى على الحقيقة بطرحه أفكاراً متصورة .

مازال ثمة عدد ضخم من سجلات العمليات العسكرية التي تتعلق بالحرب العالمية الأولى حياً موجوداً ، إذن فمن المروع أن نعتمد دائماً ، وبشكل متسرع ، على وثيقة واحدة فحسب . فالتفسير الصحيح أن يوميات تلك الوحدة تتوافق مع السجلات الحية الأخرى . وهي بعيدة كل البعد عن أن لورانس فد قدم تقديراً مزيفاً لتحركاته خلال شهر تشرين الثاني عام ١٩١٧ ، كما أنها تصنيف معلومات تُعَّد معروفة من مصادر أخرى . وأنها أيضاً تجلب الانتباه إلى شيء آخر هو أنه من الممكن أن جيمس قد قدم تخميناً اعتباطياً حين أبرز عدم صدق لورنس في روايته عن حادثة درعا . وكان لورنس قد كتب ، بعد سنوات من إنتهاء الحرب ، يقول إنه قد قرر في عام ١٩١٧ ، وبقصد نبيل ، الانضمام إلى صفوف القوات المسلحة ، وأنه بعد ذلك قد أنظم فعلاً إلى سلاح الجو والمدرعات ، أوليس هذا مهماً لتأكيد أن أول اتصال له مع القوات البريطانية بعد حادثة درعا كان خلال الحملة التي استمرت أسبوعاً مع وحدات المدرعات والمدفعية انطلاقاً من العقبة؟